

رواية

التحففة الخالدة

فرنسيسين ريفرز

التُّحْفَةُ الخالدة

التُّحفةُ الخالدة

فرنسين ريقرز

ترجمة: سعيد باز



The Masterpiece

Copyright © ٢٠١٨ by Francine Rivers. All rights reserved.

Published by arrangement with Browne & Miller Literary Associates, LLC.

الثُحفة الخالدة

فرنسين ريفرز © ٢٠١٨. حقوق الطبع محفوظة.

تم نشرها باللغة العربية بالترتيب مع براون آند ميلر لتراري
أسوسيتس. إل. إل. سي.

Arabic Edition @ ٢٠٢١ by Ophir Printers & Publishers. All rights reserved.

No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

الثُحفة الخالدة

الطبعة العربية الأولى ٢٠٢١م

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

ISBN ٩٧٨-٩٠-٥٩٥٠-٢٨٠-٢

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إلى زوجي رِك ريقرز



شُكْرًا لك على حياةٍ حافلة بالمغامرة

المحتويات

تقدير وشكر

الفصل ١

الفصل ٢

الفصل ٣

الفصل ٤

الفصل ٥

الفصل ٦

الفصل ٧

الفصل ٨

الفصل ٩

الفصل ١٠

الفصل ١١

الفصل ١٢

الفصل ١٣

الفصل ١٤

الفصل ١٥

الفصل ١٦

الفصل ١٧

الفصل ١٨

الفصل ١٩

الفصل ٢٠

الفصل ٢١

الفصل ٢٢

الفصل ٢٣

الفصل ٢٤

الفصل ٢٥

الفصل ٢٦

الفصل ٢٧

الفصل ٢٨

الفصل ٢٩

الفصل ٣٠

الفصل ٣١

الفصل ٣٢

الفصل ٣٣

الفصل ٣٤

الفصل ٣٥

الفصل ٣٦

الفصل ٣٧

الفصل ٣٨

الفصل ٣٩

خاتمة

تقدير وشكر

من أعظم البركات المُواكبة لكوني كاتبةً فُرصةً مُقابِلةً أناسٍ ذوي خبرةٍ في مجالاتٍ لم أدخُلها شخصياً. وقد حظيتُ بقدرٍ كبيرٍ من المُساعدة على الطّريق المُتعرّج في كتابة ”الثُّحفةُ الخالدة“. فأريد أن أشكّر الأشخاص المذكورين تالياً على المعلومات والتّشجيع التي قدّموها لي:

غاري ليذن أطلّعتني على ما يعرفه عن نظام محكمة الأحداث والإحالات إلى البيوت الجَماعيّة.

هذر ألدرِج من القسم القضائيّ في مكتب شريف سونوما كاونتي وكريستوفر وروك، وكيل المُدير في مكتب الفاحص الطّبيّ بسان فرنسيسكو، أخبراني عن الإجراءات والممارسات في حفظ ملفّات القسم والعثور على هويّتي جاين وجان دوز.

ألا يوميل أعطتني معلوماتٍ تخصّ البرمجة اليوميّة في بنية البرنامج والأنشطة داخل واحدٍ من البيوت الجَماعيّة.

دبي كاوپ أعطتني لائحةً شاملة بمُختلفِ واجبات
المُساعدِ الشَّخصيِّ.

أخي إقْرَت كِنغ أطلَعني على خبرته بشأنِ النَّوباتِ
القلبيَّة الصَّامتة، وجراحة القلب، وزرعِ مُنظِّمِ لضربات
القلب.

العصابيُّ السَّابق ورَسَّامُ الغرافيتي "أليود"
أطلَعني على بعضِ مُغامراتِه النَّاجحة والفاشلة في
منطقة خليج سان فرنسيسكو.

صديقتي كارولين دَن دعَتني إلى القيامِ بِعَصْفِ
ذِهنيِّ لأشخاصِ روايتي، مع مجموعة من
المُستشارين العائليِّين المختصِّين والمشهود لهم.
شُكْرًا لكم، يوريا غيلفُرد، كانداس هولِي، تيري هالي،
لوريل مارلِنك كُواست، غاري مولين، ربيكا وُرسلي،
على تبصُّراتِكُم في قضايا الكفالة للأولاد المصدومين
وكيف يُمكن أن تتبدَّى سُلوكيًّا في سنوات البلوغ.
وقد زوَّدتني لوريل كُواست أيضًا بمعلوماتٍ كُنْتُ في
حاجةٍ ماسَّةٍ إليها عن العَمَل مع نِساءٍ يُعانينَ أزماتٍ
في الحَمَل وإيواء الأَطفال.

أشلي هَدِلِسْتِن وتريشيا غُوير شاركتاني في
تبصُّراتٍ تعصُرُ القلب بنَفسيَّة الأولاد المصدومين،
فضلاً عن كِفاحات أبوي التَّنشئة أو التَّبني اللَّذين
يُحِبَّانهم ويُجاهِدان لِمساعَدتهم على الشُّفاء.

أنطانيت ريد، مديرة "خدمات حماية الأولاد"

(CPS) في منطقة كِزن كاونتِي، زوَدتني بمعلومات أساسية عن نظام العناية بالتنشئة.

ولمَّا ضللتُ السَّبيلَ في روايتي ولم أستطع تلمُّسَ طريقي، خابرتُ دكتورَ القَصصِ ستان وليمز، فطرَحَ الأُسئلةَ الصَّحيحةَ لإعادتي إلى السَّبيلِ السَّويِّ.

هَلِي هاردر، صديقتي العزيزة، لها مهاراتُ تصفحٍ مُمتازةٌ على الإنترنت. فلَمَّا تهتُّ في الفضاء الإلكترونيِّ أو لم أستطعِ العُثورَ على تفاصيلٍ أيِّ موضوعٍ مُعيَّن، أرسلتُ إلى هَلِي نداءً استِغاثةً، فوجدتُ في عُضونِ دقائقِ المعلوماتِ الدَّقيقةِ التي احتجتُ إليها.

شُكراً جزيلاً لكم يا صديقاتِ العَصْفِ الذَّهنيِّ في كوردالين: برانديلين كولنز، تاميرا ألكسندر، رُوبن لي هاتشر، كارين بول، شارن دن، غاييل دي سالس، تريشيا غوير، صَنِّي جَفَرز، ساندي شِپَّارد، جانيت الأبرايط. جميعُكنَّ نساءً في يَدِ اللهِ يُصَلِّينَ وَيُحَطِّطْنَ ويعرفنَ كيف يؤدِّين أدوارهنَّ. فكلُّما اصطدمتُ بجدار، ساعدتني هؤلاءِ النساءُ الرَّائعاتُ على تخطِّيه أو اختِراقه.

كولين فيليبس، شقيقةُ الرُّوحِ والمرسلةِ في تشيلي، واكبت هذا المشروعَ من أوَّلِ الطَّرِيقِ. شُكراً لك على "الإصغاء" إلى جميعِ الاختلافاتِ في رحلةِ رومان وغريس، على كونكِ أوَّلَ من قرأ المخطوطة

وعلق عليها ونقحها وصححها، لا مرّة واحدة بل مرّتين، قبلما تجرّأت وسلّمتها.

أريد أيضًا أن أشكر وكيّلي الذكيّة، دانييل-إيغان ملر، على تبصّراتها وساعات عمليها الطويلة في إدارة مهنتي الكتابيّة. إنّه لبركة أن أتمكّن من ترك جميع التفاصيل المعقّدة المتعلّقة بالعقل لشخص أثق به ليّتسنى لي التّركيز على الكتابة.

شكرًا لك أيضًا مُديرة النشر في دار تنديل، كارن واطسن، على حيازتك دائمًا للأسئلة التي تجعل عصائري الخلاقة تفيض.

وأنا شاكرة شرل كيرون، أرن سميث، شاينا ثرنر، ستيفاني بروين، من لهم حصّة الأسد في صفحة المؤلّف العائدة لي في فيسبوك. إنّ روبن لي هاتشر تُدير موقعي الإلكترونيّ، وابنتي شانن كويبيون تنشرُ مدوّناتي وتساعدني في بريدي الوارد.

أخيرًا، أنا مدينة لمحرّرتي منذُ مدّة طويلة، كاثي السن، إذ تفهّم خطّتي وقصّتي. فلولا خبرتها في القطع وإعادة الإنشاء والإتيان بمشاهد من مسودات سابقة، لما كان هذا الكتابُ في يدك.

بركاتٌ لكلّ منكم في مُغامراتكم المُستقبليّة. أنتم كلُّكم تحفُّ الله الخالدة.

الفصل ١

تسلق رومان قِيلَاسكو مهذب الحريق وترجع فوق الجدار إلى السطح المستوي. وتحرك بسرعة منحنيًا. كان مبنى آخر محاذيًا لبناية الشقق السكنية المكونة من خمس طبقات، وهو موقع ممتاز لرسم الجرافيتي. في الجهة المقابلة عبر الشارع كان مبنى مصرف، وقد ترك رومان توارسمة على بابه الأمامي.

نزع عنه حقيبته الظهرية، وسحب منها عذته. عليه أن يشتغل بسرعة. إن لوس أنجليس ما كانت تنام قط. فحتى في الساعة الثالثة فجرًا، تسارعت السيارات على البوليغار.

هذه الرسمة سيرها أي شخص يسوق سيارته نحو الشرق. سيكون عرضة للخطر إلى أن ينتهي، ولكن وهو يرتدي بنطلونًا أسود، وكنزة فضفاضة ذات قبعة، سيصعب أن يُكتشف، إلا إذا كان شخص ما يبحث عنه. عشر دقائق. ذلك كل ما احتاج إليه ليتحرك على الجدار عرضًا لشخصيات لعبة المونوبولي وهم

يرقصون، والأخيرُ منهم يقفزُ نحوَ الشارع. لقد رَسَمَ رجلَ أعمالٍ ذا قُبْعَةٍ رَسْمِيَّةٍ مُحمَلًا حَقَائِبَ مالٍ، داخِلًا إلى المَصْرِفِ عِندَ الشارعِ.

عَلِقَ الرَّسْمُ الوَرَقِيَّ بشيءٍ ما وانشَقَّ. فَشَتَمَ فِي سِرِّهِ، وَعَمِلَ بِسُرْعَةٍ عَلَى لَصِقِهِ. ثُمَّ هَبَّتْ رِيحٌ، وَسَحَبَتْ قِطْعَةً بَعِيدًا. لَقَدْ كَانَ رَسْمًا طَوِيلًا، وَاسْتغَرَقَ دَقَائِقَ ثَمِينَةً لِتَأْمِينِهِ. التَقَطَ رومانُ غُلْبَةً طِلَاءٍ يُرَشُّ وَخَضَّهَا. وَلَمَّا كَبَسَ الزَّرَّ، لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ. فَسَحَبَ غُلْبَةَ رَشِّ أُخْرَى، وَبَاشَرَ الرَّشَّ.

اقتربت مركبة. فنظر إلى الأسفل، وجمد لما لمح سيارة شرطة متباطئة. أكانت هي تلك التي مرّت قبل ساعة، إذ كان متوجّها نحو البنك؟ لقد مشى بعزم، آملاً أن يظنوا أنه مجرد شاب يتوجه إلى بيته من نوبة عمل ليلية. فأبطأت السيارة، وتفحصه رجال الشرطة، ثم مضوا في سبيلهم. وما إن توارت سيارة الشرطة في الشارع، حتى أكمل العقل على الباب الزجاجي في مبنى البنك.

رجع رومان إلى الشغل. كان بحاجة إلى بضع دقائق فقط. وتابع الرش.

توهجت أضواء مكابح حمراء في الشارع. لقد توقفت سيارة الشرطة أمام البنك، وسلطت حزمة نور بيضاء على الباب الأمامي.

دقيقة أخرى بعد. أجرى رومان رشّين آخرين،

وباشدَ إزالةَ الرَّسْمِ بِحَذْرٍ. لَقَدْ اضْطُرَّ إِلَى اسْتِعْمَالِ
شَرِيْطٍ لاصِقٍ أَكْثَرَ مِنَ الْمُعْتَادِ، فَاسْتَفْرَقَ الْأَمْرَ وَقْتًا
أَطْوَلَ. وَلَمَّا نَزَعَ آخِرَ قُطْعَةٍ مِنَ الْوَرَقِ، أَضَافَ ثَلَاثَةَ
أَحْرَفٍ صَغِيرَةٍ سَوْدَاءَ بَدَتِ كَعُصْفُورٍ طَائِرٍ.

كَانَ شَرِطِيٌّ قَدْ خَرَجَ مِنَ السِّيَّارَةِ، وَفِي يَدِهِ ضَوْءٌ
وَمَاضٍ.

انْحَنَى رُومَانٌ مُنْخَفِضًا، وَلَفَّ الرَّسْمَ، وَدَسَّهُ دَاخِلَ
حَقِيْبَتِهِ الظُّهْرِيَّةِ مَعَ عُلْبِ رَشِّ الطَّلَاءِ. ارْتَفَعَتْ حُزْمَةٌ
النُّورِ وَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ. وَمَضَتْ فَوْقَهُ تَمَامًا إِذْ بَاشَرَ
التَّحْرُكَ عَلَى السَّطْحِ. ثُمَّ رَحَلَتْ نُزُولًا وَبَعِيدًا. فَتَنَفَّسَ
رُومَانُ الضُّعْدَاءِ، وَأَلْقَى الْحَقِيْبَةَ عَلَى كَتِفِهِ وَاعْتَدَلَ
قَلِيْلًا.

رَجَعَ الضُّوءُ، مُظَلَّلًا شَكْلَ رُومَانٍ عَلَى الْجِدَارِ. فَفَزَّ
مُحَوَّلًا وَجْهَهُ.

تَتَبَعَتْ حُزْمَةُ النُّورِ فِرَارَهُ عَلَى السَّطْحِ. سَمِعَ
أَصْوَاتًا وَوَقَعَ أَقْدَامٍ. وَبَقَلِبٍ يَطْرُقُ بِشِدَّةٍ، قَفَزَ رُومَانٌ
قِفْزَةً طَيْرَانٍ إِلَى الْمَبْنَى التَّالِي. فَخَبَطَ بِقُوَّةٍ، وَلَفَّ
وَاقِفًا عَلَى قَدَمِيهِ، وَوَاصَلَ الْجَرِي. رُبَّمَا كَانَ لَدَى قِسْمِ
الشُّرْطَةِ مَلَفٌّ عَنِ عَمَلِ الْعُصْفُورِ. لَمْ يَغْدِ مُرَاهِقًا،
يُوَاجِهُ الخِدْمَةَ الْأَهْلِيَّةَ مِنْ أَجْلِ رَسْمِ عِصَابِيٍّ عَلَى
جِدَارِ. فَإِنْ أُلْقِيَ الْقَبْضُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُحَكَّمُ عَلَيْهِ
بِالْحَبْسِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ.

وَأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ سَيُبَدَّدُ الشُّمْعَةُ الزَّاهِرَةُ الَّتِي

كان رومان قِيلَاسكو آخِذًا فِي كسبها بصفة رسام أصيل. إنَّ الغرافيتي تُكسِبُ صِيثًا فِي الشَّارِع، ولكن ليس فِي صالَّةِ عرض.

كان شُرطِيٌّ قد رَجَعَ إِلَى السِّيَّارة، وزعقت العَجَلات. ما كانوا لِيَسْتَسَلِمُوا.

لمح رومان نافذةً مفتوحة فِي المبنى المُجاور، فقدرَ أن يتسلَّقَ صعودًا بدلَ النُّزول.

انسَفَقَ بابُ سِيَّارة، وصاح رجل. لا بُدَّ أن تكون ليلة بطيئة إذا أراد هذان الشُّرطيَّان أن يقضيا هذا الوقتَ الطَّويل فِي مُطاردةِ رسامِ غرافيتي.

ترجَّحَ رومان فوق حافةِ سَطْحٍ آخر. سقطت غُلبَةٌ رَشَّ طِلاءِ نِصْفِ مِلاَنِيَّةٍ من حقيبتِه، وانفجرت على الرِّصيفِ فِي الأسفل.

سحبَ الشُّرطيُّ المُروِّعُ مُسدَّسَه، وصوَّبَه نحوَ رومان وهو يتسلَّق. ”شُرطةُ لُوس أنجِليس! قِفْ حيثُ أنت!“

تشبَّثَ رومان بِإفريز، ودفعَ نَفْسَه إِلَى فوق، ودخلَ عبْرَ نافذةِ الشَّقَّةِ المفتوحة. حبَسَ نَفْسَه. كان رجلٌ يشخُرُ فِي غُرْفَةِ النَّوم. زحفَ رومان إِلَى الأمام. وما تقدَّمَ خُطوتين، حتَّى اصطدمَ بشيءٍ ما. تكيفت عيناه لِلضَّوءِ القاتم من أدواتِ المطبخ. لا بُدَّ أن يكونَ ساكنُ الشَّقَّةِ جامعَ أشياء. فَحُجرةُ الجُلوسِ المُكتنَّزة قد تكونُ سببَ بلوى لِرومان. وهكذا تركَ حقيبتَه الظَّهرِيَّةَ

وراء الصُوفاء.

وإذ فتَحَ البابَ الأماميَّ بهدوءٍ، حدَّقَ إلى الخارجِ وأصغى. لا حركةَ، لا أصوات. الرَّجُلُ في عُرْفَةِ النَّومِ شَخَرَ وتحرَّكَ قليلاً. انسلَّ رومانٌ إلى الخارجِ بِسُرْعَةٍ وأغلقَ البابَ وراءه. كان بابُ مَخرجِ الطَّوارئِ عالِقًا. إذا دَفَعَهُ بِقوَّةٍ، يُحدِثُ ضجَّةً. ووجدَ المِصعدَ، فأخذَ قلبه يطرُقُ أسدَعَ إذ استغرقَ وقتَهُ الطَّيِّبُ صاعداً. **بِنِعْ!** انفتَحَ البابُ. خطا رومانٌ إلى الدَّاخلِ وكبَسَ الزَّرَّ للنُّزولِ إلى المَرأبِ تحت الأرضِ.

حافظ على هُدوئك فحسب. دَفَعَ قُبْعَةَ الكِنزَةِ إلى الورااء وأمرَّ أصابعه في شعره. أخذَ نفسًا عميقًا وأخرجَه على مهلٍ. انفتَحَ بابُ المِصعدِ. كان مرأبُ الدَّورِ التَّحتانيِّ جيِّدَ الإضاءةِ. أبقى رومانُ البابَ مفتوحًا وانتظرَ بضعَ ثوانٍ لاستِكشافِ المِنطقةِ قبلَ خُروجهِ. كلُّ شيءٍ جليٌّ. توجَّهَ مَفروجا إلى السُّلمِ المؤدِّي إلى الشَّارعِ الجانبيِّ.

كانت سيارَةُ الشُّرطةِ رابضةً عند المُنعطفِ. انفتَحَ البابانِ، وخرَجَ الشُّرطيَّانِ كِلاهُما.

لحظةً، فكَّرَ رومانٌ في اختِراعِ قِصَّةٍ سريعةٍ لسببِ خُروجهِ ماشيًا في نِزْهةٍ عندَ الثَّالثةِ والنِّصفِ فجراً، ولكنَّه بطريقَةٍ ما علِمَ أن ما من قِصَّةٍ سثْبقيهِ بلا أصفادِ.

أركنَ إلى الفِرارِ في الشَّارعِ نحوَ الجِوارِ السَّكنيِّ

البعيد صَفَّ مَبَانٍ عَنِ الْبُولِيْقَارِ. وَلَجِقَ بِهِ الشَّرْطِيَّانِ
كَكَلْبِي صَيْدٍ وَرَاءَ ثَعْلَبِ.

اجتاز رومان شارِعًا واحدًا، على طريقٍ خاصٍّ
مرصوفٍ، ومن فوقِ حائطٍ. خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ بَاتَ حُرًّا
لِلذَّهَابِ إِلَى الْبَيْتِ، حَتَّى أُدْرِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ فِي
الْفِنَاءِ الْخَلْفِيِّ. إِذْ هَبَّ كَلْبٌ "جِيرْمَانِ شِيْپَرْد" عَلَى
قَوَائِمِهِ وَرَاحَ يُطَارِدُهُ. جَرَى رُومَانٌ بِسُرْعَةٍ عَبْرَ الْفِنَاءِ
وَفَوْقَ السِّيَاجِ الْخَلْفِيِّ. صَدَمَ الْكَلْبُ السِّيَاجَ وَأَنْشَبَ
فِيهِ مَخَالِبَهُ، نَابِحًا بِشَرَّاسَةٍ. هَبَطَ رُومَانٌ خَبْطًا عَلَى
الْجَانِبِ الْآخِرِ وَوَقَعَ عَلَى صَفِيحَتِي قُمَامَةٍ فِي عَجَلَتِهِ
لِلْفِرَارِ. إِذْ ذَاكَ شَرَعَ كُلُّ كَلْبٍ آخَرَ فِي الشَّارِعِ أَمَامَهُ
وَوْرَاءَهُ يُرْجِعُ صدى الْإِنْذَارِ. تَحَرَّكَ رُومَانٌ بِسُرْعَةٍ،
مُبْقِيًا نَفْسَهُ مُنْحَنِيًا وَفِي الظُّلَالِ.

مَضَتْ الْأَضْوَاءُ قُدُمًا، وَكَانَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَسْمَعَ
أَصْوَاتًا.

مِنْ شَأْنِ التَّحْقِيقَاتِ أَنْ تُبْطِئَ الشَّرْطِيَّانِ،
وَسِيكُونُ أَقْلٌ تَرْجِيحًا أَنْ يَقْفِزَا فَوْقَ السِّيَاجَاتِ
وَيَتَعَدَّيَا عَلَى الْأَمْلاكَ الْخَاصَّةِ. جَرَى رُومَانٌ مُسْرِعًا
عَلَى طُولِ بَضْعَةٍ صُفُوفٍ مِنَ الْمَبَانِي، ثُمَّ أَبْطَأَ إِلَى
مِشْيَةٍ عَادِيَّةٍ لِيَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهُ.

تَوَقَّفَتِ الْكِلَابُ عَنِ النَّبَاحِ. سَمِعَ سِيَّارَةَ، فَانْسَلَّ
وَرَاءَ سِيَّاجٍ. عَبَرَتِ سِيَّارَةُ الشُّرْطَةِ الشَّارِعَ الثَّلَاثِيَّ، غَيْرَ
مُبْطِئَةٍ وَهِيَ مُتَوَجِّهَةٌ رَجُوعًا نَحْوَ بُولِيْقَارِ سَانْتَا

مونيكا. لعلَّه ضلَّهم. وبدلَ أن يدفعَ حَظَّهُ أَيْةَ مسافَةٍ
بعد، انتظرَ بِضَعِ دقائقٍ أُخرى قبلَ التَّجَرُّوْ عَلى
الخروجِ إلى رصيفِ المُشاة.

استغرقَ رجوُّه إلى سيارتهِ البِي أم دبليو ساعةً
كاملة. وإذِ انسلَّ إلى مقعدِ السَّائق، لم يتمالكَ نفسَهُ
عن أن يسوقَ نحوَ الشَّرْقِ ليتفحَّصَ عقلَهُ.

سيكونُ البنكُ قد نظَّفَ بابَه الأماميَّ عندَ الظهر،
ولكنَّ الرَّسمةَ العالِيةَ على الجِدَارِ عبْرَ الشَّارِعِ ستدومُ
وقتًا أطول. كانَ العُصفورُ قد اكتسبَ على مدى
السَّنواتِ القليلةِ الماضِيةِ شهرةً كافيةً بِحَيْثُ أبقى
بعضُ مالِكِي المباني رُسومَ الغرافيتي غيرَ ممسوسة.
فَرَجَا أن تكونَ تلكَ حالُ هذه الرَّسمة. لقد كاد يُقبَضُ
عليه في سَعِيهِ إلى صَقْلِ الرَّسمةِ التي ستنسى في
غضونِ يومٍ أو يومين.

كانَ السَّيرُ على الطَّريقِ الحُرَّةِ قد استعادَ عافيتَهُ
فِعلاً. وكَي يُقاومَ رومانَ الإرهاق، شغَلَ المُكَيِّف. هبَّ
عليه الهواءُ البارد، مُبقِيًا إيَّاهُ مُستيقِظًا تمامًا وهو
يسوقُ صعودًا إلى ثوينغا كانيون، شاعِرًا بالإعياءِ
ومكتئِبًا على نحوِ مُبهم. كانَ ينبغي أن يمرَّحَ مرَّحًا
صاخِبًا بعدَ غارتهِ اللَّيليَّةِ النَّاجحة، لا أن يُحسَّ كأنَّهُ
مُسنٌّ يحتاجُ إلى كُرسيِّ استِلقاء.

أبطأ وانعطفَ إلى الطَّريقِ الخاصَّةِ المرصوفةِ
بالْحصىِ والمؤدِّيَةِ إلى بيتِهِ. كبسَهُ زِرٌّ فتحتَ بابَ

القراب. كانت المساحة كافيةً لاصطفاف سياراتٍ أكثرَ
أكبرَ من سيارته من طراز Li.٧٤٠. أطفأ المُحرِّكَ وجلسَ
ثوانيَ قليلةً فيما أزال البابَ مُنغلقًا وراءه.

لما باشرَ الخروجَ من سيارته، اجتاحتَه موجةٌ
ضعف. فجلسَ ساكنًا دقيقةً، مُنتظرًا زوالَ الإحساسِ
الغريب. ثمَّ أصابه من جديد وهو مُتوجِّه إلى البابِ
الخلفيِّ. فترنَّحَ وجثا على رُكبةٍ واحدة. ثبتَ قبضتهُ
على الاسمَنتِ وأبقى رأسه مُنخفضًا. لقد حدثت له
هذه الثُّوباتُ من قبل، وزالت بِسرعة، عادةً بعدَ ثوانٍ
قليلة.

كان بحاجةً إلى النَّوم. ذلك كلُّ ما في الأمر. من
شأنِ ليلةٍ نومٍ كاملة أن تُصلِحَ حاله.

زالت الثُّوبة، ووقف رومان على مهل. ثمَّ فتحَ
البابَ الخلفيِّ إلى سُكوتٍ مُطبق.

فتحَ سَحَابَ الكنزةِ السوداء ذاتِ القُبعة، ومشى
في الرِّواقِ إلى عُرفةِ نومه. كان أكثرَ تعبًا من أن
يستجِمَّ، أكثرَ تعبًا من أن يُخفِّفَ مُكيِّفَ الهواءِ حتَّى
١٨ درجة مئويَّة، أكثرَ تعبًا من أن يأكل، مع أن مَعِدتهُ
مُغصت جوعًا. وإذ تجرَّدَ من ثيابه، تمدَّد على السَّريرِ
غير المُسوَّى. لعلَّ الحظَّ يُوافيه الليلةَ فينامَ بلا
أحلام. إنَّ النَّشوةَ التي كان ينالها عادةً من غاراته
اللَّيلية أكَسبتهُ مردودَ كوابيسٍ من أيَّامه في الحيِّ
المُسْتَهتر. فالفتى الأبيض لم يبقَ قطُّ مدفونًا مُدَّةً

طويلة.

أرسل الصَّبَاخ رِمَاخًا من نور الشَّمْس. أغلق رومان
عينيه تَوَاقًا إلى الظَّلام.



نهضت غريس مُور باكراً، عالمةً أنَّها ستحتاجُ إلى
وقتٍ طويلٍ كي تعبُر الوادي وتصلَ في الوقت
المُحدّد ليومِها الأوّل لتكونَ عاملةً وقتيةً. لم تكن
على يقينٍ بأنَّ الوظيفة ستُكسبُها دخلاً كافياً
لاستئجار شقّة صغيرة لها ولابنها صمويل، ولكنها
كانت بداءة. فكلّما طالت إقامتها عند آل غارسيّا،
باتت الأمورُ أكثرَ تعقيداً.

سيلاه وروبن لم يكونا مُستعجلين أن تُغادِرَ
غريس. فما زالت سيلاه تَرجو أن تُغيّرَ غريس رأيها
وتُوقّع أوراق التّبئي. لم تُردِ غريس أن تُعطي سيلاه
أماًلاً زائفاً، ولكن لم يكن لها أيُّ مكانٍ آخر تذهبُ إليه.
وكلُّ يومٍ مرَّ زادَ رغبتهَا في أن تعودَ مُستقلةً.

لقد أرسلت عشرات طلبات العمل منذُ أن سُرّحت
من العمل قبلَ سنة، ولم تتلقَ ردّاً إلا مُخابراتٍ قليلةً
لأجل مُقابلات. ولم تُنتج أيّة مُقابلةٍ وظيفيّةٍ ما. فكلُّ
موظّفٍ كان يطلبُ خريجةً جامعةً في هذه الأيّام،
وهي لم تُكمل إلا سنةً ونصفاً قبلَ تعليقِ دراستها
ليتسنى لها دعمُ زوجها باتريك إلى أن تُخرّج.

وَإِذْ نَظَرَتْ إِلَى الْمَاضِي، تَسَاءَلَتْ هَلْ أَحَبَّهَا بِاتْرِيكَ
أَصْلًا. فَكُلُّ وَعْدٍ قَطْعُهُ، نَقْضُهُ. لَقَدْ كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا،
وَقَدْ اسْتَغَلَّهَا. بِهَذِهِ الْبَسَاطَةِ كَانَ الْأَمْرُ.

كَانَتْ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثَ عَلَى حَقٍّ. فَهِيَ كَانَتْ غَيْبِيَّةً.
تَحَرَّكَ صَمُوئِيلُ فِي مَهْدِهِ. حَمَلَتْهُ غَرِيْسُ بِرِفْقٍ،
شَاكِرَةً أَنَّهُ كَانَ مُسْتَيْقِظًا. سَيِّتَاخُ لَهَا وَقْتُ كِي تُرْضِعُهُ
وَتُغَيِّرُ حِفَاضَهُ قَبْلَ تَسْلِيمِهِ لِسِيْلَاهُ. ”صَبَاخُ الْخَيْرِ،
أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّغِيرُ“. تَنَشَّقَتْ غَرِيْسُ رَائِحَتَهُ الطُّفْلِيَّةَ،
وَجَلَسَتْ عَلَى حَافَةِ السَّرِيرِ الْمُزْدَوِّجِ الَّذِي كَانَتْ قَدْ
سَوَّتَهُ تَوًّا. ثُمَّ فَتَحَتْ بُلُوْزَتَهَا وَأَمَالَتْهُ لِيَتَسَنَّى لَهُ أَنْ
يَرْتَضِعَ.

إِنَّ ظُرُوفَ الْحَمْلِ بِهِ وَالتَّعْقِيْدَاتِ الَّتِي أُضَافَهَا إِلَى
حَيَاتِهَا لَمْ تَعُدْ مُهِمَّةً لِحِظَّةِ حَمَلَتِهِ أَوَّلًا عَلَى ذِرَاعَيْهَا.
لَمْ يَكُنْ عُمُرُهُ قَدْ بَلَغَ سَاعَةً وَاحِدَةً قَبْلَمَا عَلِمَتْ أَنَّهَا لَا
تَسْتَطِيعُ التَّخْلِيَّ عَنْهُ لِلتَّبْنِيِّ، مَهْمَا أَمَكَّنَ أَنْ تَكُونَ
حَيَاتُهُ أَفْضَلَ مَعَ آلِ غَارِسِيَا. كَانَتْ قَدْ أُخْبِرَتْ سِيْلَاهُ
وَرُوْبِنُ بِذَلِكَ مِرَارًا، وَلَكِنَّ كُلَّ يَوْمٍ جَلَبَ كَرِبَهُ الْخَاصَّ
إِذْ تَوَلَّتْ سِيْلَاهُ الْإِعْتِنَاءَ بِصَمُوئِيلِ، فِيمَا خَرَجَتْ
غَرِيْسُ مُفْتِشَةً عَنْ سَبِيلِ لِإِعَالَتِهَا وَإِعَالَةِ ابْنِهَا.

أُخْرِيَاثُ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ، يَا رَبُّ. لِمَاذَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنَا؟
الْأُخْرِيَاثُ لَهُنَّ عَائِلَةٌ. أَمَّا هِيَ، فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْخَالَةُ
أَلِيْزَابِثُ.

أَيُّهَا الْآبُ السَّمَاوِيُّ، رَجَاءً دَعُ هَذِهِ الْوُضِيْفَةَ

تنجح. ساعدني، يا رب. أعلم أنني لا أستحق هذا،
ولكنني أطلب، بل أتوسل.

كانت شاكراً أنها نجحت في المقابلة والاختبارات
لدى وكالة التوظيف المؤقت وأضيفت إلى لائحة
الوكالة. فاتحتها ميسز ساندو قال في أمر الوظيفة:
”لقد أرسلت إلى هذا الرجل أربع عاملات مؤهلات،
فرفض كل واحدة منهن. لا أعتقد أنه يعرف ما
يحتاج إليه. هذا هو العقل الوحيد الذي يمكنني
تقديمه لك الآن“.

كان من شأن غريس أن توافق على العقل عند
إبليس نفسه، إذا عني ذلك معاشاً منتظماً.



انتشل صوت أجراس رومان من الظلام. هل حلم أنه
كان في دير وستمنستر؟ انقلب إلى جنبه الآخر.
وكان جسمه قد استرخى توًا لما انطلقت الأجراس
من جديد. لقد دق شخص ما جرس الباب. فودّ لو
يضع يديه على خناق المالك الذي ركب ذلك الجهاز
اللعين. وسحب وسادة فوق رأسه شاتماً، آملاً أن
يكتفم الأغنية التي أمكن أن تسمع من أحد أطراف
المنزل، البالغة مساحته أربع مئة وخمسة وستين
متراً مربعاً، إلى الطرف الآخر.

خيم السكون من جديد. ربما تلقى المتطفل

الرّسالة وغادر.

حاولَ رومان أن يعودَ إلى النّوم. ولَمّا انطلقتِ الأجراسُ مُجدِّداً، صاحَ خائِباً وهبَّ واقفاً. طَمَت مَوْجَةٌ ضَعِيفٌ مرَّةً أُخرى. وإذ تَعَثَّرَ بِقَيْنَةٍ ماءٍ نِصْفِ فارغةٍ وبِالْمُنْبَه، استجمَعَ نَفْسَهُ قَبْلَ أن يهويَ ويرتطمَ وجهه أوَّلًا بِأَرْضِيَّةِ الغُرفة. ثلاثُ مرَّاتٍ في أقلِّ من أربعٍ وعشرين ساعة! رُبَّما يُضطرُّ إلى تناولِ أدويةٍ موصوفةٍ للحصولِ على الرّاحة التي احتاجَ إليها. أمّا الآنَ الآنَ، فكلُّ ما أرادَ أن يفعلَه كانَ أن يُطلقَ عِنانَ غَضَبِهِ على مَنْ دَقَّ جرسَ بابِه، أيًّا كان.

ألقيَ رومان عليه الكنزة الفضيضة، والتقطَ قميصًا مُغضَّنًا عن السَّجَّادة، وتوجَّهَ حافياً في الرّواق. أيُّ مَنْ وقَّفَ على الجِهة الأخرى من بابِه الأماميِّ سيَتَمَنَّى لو لم تطأَ قَدَمُهُ مِلْكِيَّتَهُ قَطُّ. انطلقتِ الأجراسُ من جديدٍ لحظةً فَتَحَ البابَ نثراً. وإذا بِشابَّةٍ تنظُرُ إلى عُلِّ مدهوشةً، ثمَّ تتراجعُ خُطوَتَيْنِ حالِماً خطا فوق العتْبة.

”ألا تُحسِنينَ القراءة؟“ ووكَّزَ بِإصْبَعِ اللَّافِتَةِ المنصوبةِ بقُربِ البابِ الأماميِّ. ”ممنوعُ التَّحرُّشِ!“ رفَعَت يديها بإيماءةٍ استِرضاءٍ، وقد اتَّسَعَت عيناها البُنْدُقِيَّتَا اللّون.

كانَ شعْرُها الجَعْدُ الدَّاكِنِ مقصوِّصاً قصيراً، ونَمَّت سِترَتُها الفضيضةُ السَّوداءُ وبُلوزَتُها البيضاءُ وتثُورَتُها

الزَّمادِيَّةُ الفاتحة عن كونها عاملةً مكتب. خَفَقَتْ في
ذَهْنِ رومانِ ذِكْرِي باهتةً، وَلَكِنَّهُ صَرَفَهَا. ”اغْرُبِي عن
وجهي!“ ثُمَّ خَطَا إلى الِوراءِ وَسَفَقَ الباب. ولم يكن
قد مشى خَطَوَتَيْنِ حَتَّى قَرَعَتِ الباب بِرِفْقٍ. ففَتَحَهُ
نَتْرًا مَرَّةً أُخْرَى وَحَدَّقَ إليها من عَلٍ. ”ما خَطْبُكَ؟“
بَدَتْ مُرْتَاعَةً كِفَايَةً حَتَّى تَهْزُبُ، وَلَكِنَّهَا لَبِثَتْ واقِفَةً
في مكانها. ”أنا هُنا بِناءً على أوامِرِكَ، مِستَر
قيلاسكو.“

أوامِرُهُ؟ ”كأنني أريدُ امرأةً على عَتَبَةِ بابي أوَّلَ
شيءٍ في الصَّباح.“

”قالت مِسرُ ساندوِقال في التَّاسعةِ صِباحًا. أنا
غريس مُور. من وكالةِ التَّوظيفِ المَوْقَّتِ.“

تَفوُّةً حَالًا بِكَلِمَةٍ سَثَمَ. بَرَقَتْ عيناها وتورَّدَ خَدَّاهَا.
فذابَ غَضْبُهُ كالْمِلْحِ في الماءِ. عَظِيمٌ. عَظِيمٌ تَمَامًا.
”نَسِيتُ أَنَّكَ آتِيَةٌ.“

بَدَتْ كأنَّها تَوَدُّ أن تكونَ في أَيِّ مكانٍ ما عدا هُنا،
حَتَّى لا يُتَاحَ لَه أن يلوَمَها. فَكَّرَ في أن يطلُبَ منها
الرَّجوعَ غَدًا، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ أَنَّها ما كانت لِتَرجِعَ. لقد
أضحى مُسْتَيْقِظًا الآن، وقد يبقى مُسْتَيْقِظًا أيضًا. ثُمَّ
هَزَّ رَأْسَهُ بِقوَّةٍ، وَجَعَلَ البابَ يَنْفَتِحُ. ”هَيَّا ادْخُلِي.“

لقد جَرَّبَ أربَعَ عاملاتٍ وَقَتِيَّاتٍ في الشَّهرِ الأخيرِ.
وكانت مِسرُ ساندوِقال فاقِدَةً الصَّبْرِ أَكثَرَ ممَّا كان هو.
”سأرسِلُ لَكَ واحِدَةً بَعْدَ، مِستَرِ قِيلاسكو، وإن لم

تَنْجَحُ فَسَأُعْطِيكَ اسْمَ مُنَافِسْتِي“.

كان يُفْتَشُّ عن شخصٍ يُجِيبُ عن المُكالمات ويتولَّى التَّفاصيلَ الدُّنيويَّةَ المُتعلِّقةَ بالمراسلة والفواتير وترتيب المواعيد. لم يُردِ رقيبَ تدريب، أو عمَّةَ عائِسا، أو عالِمًا نفسِيًّا هاويًّا يُحلُّ نفسيَّةَ الفنَّانِ لَدِيهِ. ولا أرادَ شقراءَ بارِزةَ المُنحَنياتِ في بلوزةِ كاشفة، تدفَعُ حولها الأوراقَ ولكِنَّها لا تدري بتاتًا أين تَضَعُها في مَلَفَّات. كانَ لَدِيها أفكارٌ عمَّا قد يُريده رسامٌ فضلاً عن امرأةٍ ذاتِ مَهاراتِ مكتبيَّة. وكان مُمكِنًا أن يأخُذها بِناءٍ على ما عرَضتَه، لو لم تكن له اختِباراتٌ كافيةٌ مع نِساءٍ مِثْلِها. إلاَّ أنَّها بقيت ثلاثة أيَّام.

إذ لم يسمع رومان أيِّ وَقَعِ خُطَى خلفه، توقَّفَ ونظَرَ إلى الورااء. كانتِ الفتاةُ ما تزالُ واقفةً خارجًا. “ماذا تنتظرين؟ دعوةٌ محفورة؟“

دخلت وأغلقت البابَ بهدوءٍ وراءها، وقد بدت مُتأهِّبةً للفرار.

جادَ بابتِسامةٍ اعتِذار. “ليلةٌ طويلة“.

تمتَّمت بشيءٍ لم يفهمه، وقرَّرَ ألاَّ يطلبَ منها أن تُعيده. أحسَّ بِدايةِ صُداغ، ولم تكن طقطقةُ كعبيها العالِيين على الأرضِيَّةِ المُبلَّطةِ بِالحَجَرِ مُساعِدةً له. كان عطشانًا وبِحاجةٍ إلى كافِيين. فدخلَ المطبخَ المُلاصِقَ لِحُجرةِ الجلوس. وتوقَّفت غريس عندَ

طَرَفِ حُجْرَةِ جُلُوسِهِ المغمورة، وحدثت فَاغْرَةً فَمَهَا
إِلَى سُقُوفِ الكاتدرائيةِ وَجِدَارِ الزُّجَاجِ المُطَّلِّ عَلَى
تُوبِنِغَا كَانِيُون. وَإِذْ تَدْفُقُ ضِيَاءُ الشَّمْسِ عِبْرَ النَّوَافِذِ،
ذَكَرَ رُومَانٌ بَأَنَّ مُعْظَمَ النَّاسِ بَاتُوا الْآنَ يَخْدِمُونَ فِي
دَوَامِ أَعْمَالِهِمْ مِنَ التَّاسِعَةِ صَبَاحًا حَتَّى الخَامِسَةِ
مَسَاءً.

فَتَحَ رُومَانٌ بَرَّادَ الفُولَازِ الصَّامِدِ، وَالتَّقَطَ قِنِينَةَ
عَصِيرِ بُرْتُقَالِ. أَزَالَ الغِطَاءَ، وَشَرِبَ مِنَ القِنِينَةِ،
وَأَنْزَلَهَا. "مَا اسْمُكَ كَمَا قُلْتِ؟"

"غَرِيسُ مُور".

كَانَ لَهَا المَظْهَرُ اللَائِقُ بِالوُظُفِيَّةِ، إِذْ كَانَتْ بَارِدَةً
وَهَادئةً وَرَابِطَةً الجَاشِ. مَلِيحَةً، فِي أَوَاسِطِ
عِشْرِينَيَّاتِهَا، مُرْتَبَةً وَلَبِيقَةً، إِنَّمَا لَيْسَتْ مِنْ نَوْعِهِ
المُفْضَلِ. فَهُوَ كَانَ يُحِبُّ الشَّقْرَ الشَّهَوَانِيَّاتِ المُحَنِّكَاتِ.
وَإِذْ شَعَرَتْ بِاسْتِغْرَاقِهِ فِي التَّفْكِيرِ، نَظَرَتْ إِلَيْهِ.
كَانَتْ النِّسَاءُ عَادَةً يَفْعَلْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِمَلامِحِهَا
المُتَحَفِّظَةُ. "لَدَيْكَ إِطْلَالَةٌ جَمِيلَةٌ، مِيسْتَرُ قِيلَاسْكَو".

"نَعَمْ، حَسَنًا، كُلُّ شَيْءٍ يَصِيرُ قَدِيمًا فِي الأَخِيرِ".
ثُمَّ حَطَّ قِنِينَةَ عَصِيرِ البُرْتُقَالِ عَلَى الطَّائِلَةِ. وَبَدَتْ
غَرِيسُ مُتَضَافِقَةً. أَمْرٌ مَفْهُومٌ، نَظْرًا إِلَى اسْتِيقْبَالِهِ الَّذِي
أَعْوَزَتْهُ المَوَدَّةُ. وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً خَفِيفَةً. فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ
فِي المَقَابِلِ دُونَ أَيِّ تَعْبِيرٍ. جَيِّدٌ. لَقَدْ كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى
نَحْلَةٍ عَامِلَةٍ، لَا إِلَى صَدِيقَةٍ حَمِيمَةٍ. هَلْ تَسْتَأْجِرُ حِيَالَ

أَوَّلِ طَلَبٍ مِنْهُ؟

”أَتَعْرِفِينَ كَيْفَ تَعْمَلِينَ قَهْوَةَ؟“

تَطَلَّعْتُ إِلَى مَكْنَةِ الْقَهْوَةِ وَالْإِسْبِيرِيَّو ذَاتِ اللَّمْسَةِ الْوَاحِدَةِ، وَالَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَطْحَنَ الْحَبَّ وَتُسَخِّنَ الْحَلِيبَ وَتَصْنَعَ لَاتِيهِ فِي أَقْلٍ مِنْ سِتِّينَ ثَانِيَةً بِكَبْسَةِ خِنَصْرٍ.

”لَا فِنْجَانًا، بَلْ إِبْرِيْقًا مَمْلُوءًا مِنَ الْقَهْوَةِ الْحَقِيقِيَّةِ“. وَتَرَكَ لَهَا الْمَطْبَخَ. ”اسْتَعْمَلِي مَكْنَةَ الْقَهْوَةِ الْعَادِيَّةِ“.

”أَتُحِبُّهَا قَوِيَّةً أَمْ خَفِيفَةً؟“

”قَوِيَّةً“. وَتَوَجَّهَ إِلَى الرَّوَّاقِ. ”سَتُحَدِّثُ أَكْثَرَ بَعْدَ أَنْ أَسْتَحِمَّ“.

دَخَلَ رُومَانَ إِلَى حَمَّامٍ كَبِيرٍ كِفَايَةً بِحَيْثُ يَتَّسِعُ لِثَلَاثَةِ أَشْخَاصٍ. وَإِذْ غَطَّى جِسْمَهُ بِرَغْوَةِ الصَّابُونِ، أَضَافَ النَّوَافِيذَ الْجَانِبِيَّةَ إِلَى الدُّشِّ الْفَوْقِيِّ. لَوْ لَمْ يُحْدِثْ أَوَّلَ انْطِبَاعٍ سَيِّئٍ جَدًّا لَدَى غَرِيْسٍ مُورٍ لَجَعَلَهَا تَنْتَظِرُ رَيْثَمَا يُجْرِي مَسَاجًا مَائِيًّا لِكَامِلِ الْجِسْمِ مُدَّةَ عَشْرِينَ دَقِيقَةً. وَإِذْ سَكَّرَ الْحَنْفِيَّةَ، خَرَجَ مِنَ الْمَغْطَسِ، وَرَفَسَ الْمَنَاشِفَ الْمُسْتَعْمَلَةَ جَانِبًا، وَالتَّقَطَّ آخِرَ مَنَشَفَةٍ نَظِيفَةٍ عَنِ رَفِّ الْخَزَانَةِ. أَسْقَطَتِ الْمَلَابِيسُ دَاخِلَ سَلَّةِ الْغَسِيلِ. وَقَدْ بَقِيَ لَهُ بِنَطْلُونُ جِينَزٍ نَظِيفٍ وَاحِدٍ فِي خَزَانَةِ الْمَلَابِيسِ. وَإِذْ لَبَسَ قَمِيصًا أَسْوَدَ، بَحَثَ عَنِ جِذَاءٍ. وَجَدَ الْجِذَاءَ الْخَفِيفَ الَّذِي انْتَعَلَهُ

الليلة السابقة. ما من جوارب نظيفة في الجارور.

فاحت رائحة القهوة جيدة. وكانت غريس تُعيد ترتيب كل شيء في غسالة الصحون الآلية. "ما طلبت منك أن تُنظفي المطبخ".

اعتدلت. "أكنت تفضل ألا أفعل ذلك؟"

"امضي قُدماً في الحال".

فتحت الخزائن السفلى واعتدلت من جديد متحيرة. "أين تحتفظ بصابون غسل الصحون؟"

"نقد عندي".

"ألا أراك لائحة بقالة؟"

"أنت المساعدة الشخصية. أنشئي لائحة". لقد نظفت الغرانيت فعلاً. ولم يكن قد رآه بزاقاً هكذا منذ انتقل إلى هنا. "أين عصير البرتقال؟"

"قلت إنك أردت قهوة". ملأت كوباً وحطته أمامه. "إذا كنت تستعمل القشدة أو السكر، فعليك أن تقول لي أين تُخبئهما".

لا تهكم. أعجبته ابتسامتها المترددة. شرب رشفة. لقد نجحت في أول امتحان. "ليست سيئة". أفضل من ستارباكس، ولكنه لم يُرد أن يُقدّم إطراءات عاجلاً جداً. كان في الوظيفة أكثر من صنع القهوة، أكثر بكثير. ورجا رومان أن تكون سهلة الانقياد لتشكيلة من الواجبات، أكثر من الأخرى اللواتي أرسلتهن مسز ساندو قال. وقد قالت له إحداهن إنه يستطيع

أن يصنع قهوته.

”سأريك أين ستشغلين.“ واقتادها إلى الجناح الشرقي ثم فتح بابًا. ”هذا كله لك.“ لم يكن مضطرًا لأن ينظر إلى الداخل كي يعرف ما واجهته.

كان لدى المساعدات الوقتيات الأخر جميعًا شيء ما يقلنه عن الوضع، ولكن لم تبدُ أيُّ واحدةٍ منهنَّ قادرةً على أن تعرف أين تبدأ وكيف. هل تكون هذه الفتاة على قدر المهمة؟ وقفت غريس مور صامتةً يضع ثوانٍ، ثم جاوزته. شقت طريقها إلى وسط الغرفة ونظرت حوالبها إلى أكدايس الأوراق. كانت أبواب الخزانة مفتوحة، مظهرًا صناديق الحزن الكرتونية، ومُعظمها بلا رُقعة تُبين المحتوى.

فكّر رومان في المغادرة، ولكنه علم أنه لا بُدَّ من الأسئلة المحتومة. ”أعتقدين أنك تستطيعين الإتيان بالترتيب إلى هذه الفوضى؟“ لبثت الفتاة صامتةً وقتًا طويلًا، حتى شعر بضرورة الدفاع. ”أثنوين أن تقولي شيئًا ما؟“

”سوف يستغرق تنظيم هذا كله أكثر من أسبوع.“

”ما قلت قط إنه ينبغي أن يُنجز العمل في غضون أسبوع.“

نظرت إليه مجددًا. ”ذلك أطول وقتٍ أبقيت فيه مُساعدةً شخصيّة، أليس كذلك؟“

لا بُدَّ أن تكون مديرة التوظيف قد حذرتها. ”نعم،

ذلك صحيحٌ تقريبًا، كما أُخْمِن. أَخِزُّ واحدةٌ غادرت
بعدَ ثلاثةِ أيَّامٍ، إلَّا أنَّها ظنَّنت أن كلَّ ما احتاجُ إليه
الرَّسَّام كان مُوديلاً عاريةً“.

تورَدَ وجهُ غريس مُور بلونٍ قِرمزيٍّ. ”أنا لا أوْدِي
دورَ مُوديل“.

”لا مُشكلة“. رَمَقَها رومان بنظرةٍ شاملةٍ سريعةٍ
واحدة، واستندَ إلى الباب. ”ليسَ ذلك ما أبحثُ
عنه“. بدت مُتوتِّرةً من جديد. لم يُرد أن يُفزعَ هذه
العاملة لِتهرَّب. ”أنا بحاجةٌ إلى شخصٍ يهتمُّ
بالتَّفصيل“.

”ألديكَ طريقةٌ مُحدَّدةٌ بها تُريدُ تصنيفَ
معلوماتِكَ؟“ وقد أحاطت إيماءُها بالفوضى القائمة.
”لو كانت لديّ طريقة، لَمَّا بدا المكانُ على حاله“.
عبست قليلاً إذ تطلَّعت حوَالِيها مرَّةً أُخرى.
”أتصوِّرُ أنَّكَ تُريدُ نوعًا ما من نظامٍ يسهِّلُ الحِفاظَ
عليه“.

”إذا وُجِدَ شيءٌ كهذا، فهل تعتقدُين أنَّكَ
تستطيعين القيامَ به؟“

”لستُ أدري، ولكنِّي أوْدُ أن أحاول. ستكونُ لديّ
فكرةٌ أفضلُ عمَّا تحتاجُ إليه بعدَ أن أُطلِّعَ على هذا
كلِّه“.

استرخى رومان. لقد كانت صريحةً وصادقة. وهو
أحبُّ ذلك. وخالجهُ شعورٌ بأنَّ هذه الفتاة ستعرفُ

تمامًا ماذا تفعل وكيف تُنجزه بِسُرعة. خَيْرُ البِرِّ عاجِلُهُ. ”إِذَا، سأتركك للأمر“. وأنها قهوتَه. ”قد تبقىَن وقتًا أطولَ ممَّا بقيت الأخرىاتُ جميعًا“. وأبدى لها ما رجا أَنه كان ابتِسامةً تشجيع، ثم مضى ماشيًا في الرّواق.

خرجت من الغُرفة. ”مِستر قِيلاسكو، ينبغي أن نتحدّث ببعض الضّروريّات“.

توقّف، أملاً ألا يكونَ أيُّ شيءٍ على وشكٍ تبيدِ شعوره بالفرج. ”الضّروريّات؟“

”مكتبٌ وكُرسيٌّ مكتب، كخطوةٍ أولى. خزائنٌ لحفظ الملقّات، وتلفون، وجميعُ التّجهيزات الأخرى لأيِّ مكتبٍ عاديّ“.

كان قد قال: شخص يهتم بالتفاصيل. ”أنا رسّام، في حال لم يُقل لك ذلك. فأنا لا أقومُ بما هو عاديّ. وتلك بضائعٌ كثيرةٌ تطلبينها في يومك الأول في الوظيفة“.

”لا أستطيعُ أن أجلسَ على كُرسيٍّ يُطوى ثمانِي ساعاتٍ في اليوم، خمسةَ أيّامٍ في الأسبوع، وسأحتاجُ إلى شيءٍ ما أكثرَ من طاولةٍ مُربّعة كي أشتغلَ عليه. لا تكادُ تُوجدُ مساحةً خاليةً على أرضيةِ الغُرفة، مِستر قِيلاسكو“. وحدّقت رُجوعًا إلى داخل الغُرفة. ”هل من تلفونٍ هناك في مكانٍ ما؟“

”نعم، وكومبيوتر، إلا إذا كانت آخرُ فتاةٍ موقّفة قد

أخذته معها“.

”ساعتُر عليهما“.

”هل تحتاجين حقًا إلى ذلك كله؟“

”نعم، إذا كنتِ تريدين أن تُحفظَ أشياءُك في ملفاتٍ مُرتَّبة، لا أن تُحشَرَ كيفما كان في صناديقِ كرتون، أو تُكدَّسَ بعضها فوقَ بعضٍ كسَدِّ قُنْدُس“.

ما عادتِ الأمورُ تبدو جيِّدةً كما كانت قبلَ لحظات. ”هناك اتِّفاقيَّاتٌ ونماذجٌ رُسومٍ ورسائلٌ استِعلام، وموادٌ شُغلي“. لو لم يَعْرِفِ رومان أن مديرةَ التَّوظيفِ ستُنهي مكالمتَه، لقالَ لغريس مُور أين تُقِمْ لائحتَها بالضروريَّات. ومن التَّكدي أنَّه عِلمٌ ما ستفعلُه مسز ساندو قال. فهو سيَّعودُ إلى المُرَبِّعِ الأوَّل في هذا البَحْثِ الذي لا ينتهي عن مُساعدَةٍ تكونُ راجِبَةً وقادِرَةً على القيامِ بالعَمَل. وكانت تاليا رايذر قد غرست في ذهنه فكرةَ توظيفِ شخصٍ ما للاهتمامِ بما دَعَتَه ”تفاصيلُ الحياةِ الدُّنيويَّة“ كي يتسنى له التَّركيزُ على فنِّه.

وقفتِ غريس مُور صامتةً، غيرَ مُقدِّمةٍ اعتذارًا. أكانَ له الحقُّ بأن يتوقَّعَ اعتذارًا؟

”أحضري مهما احتجتِ إليه“. وباشَرَ المشي في الرِّواق.

”أين تشتري تجهيزاتك المكتبيَّة؟“

”لا أشتري“. ورفعَ الكؤوبَ، فأدرك أنَّه قد شربَ

القهوة كلها. ”جدي الكمبيوتر واكتشفي الأمر“. لقد كان بحاجة إلى فنجان قهوة آخر قبل أن يقوم بأي شيء آخر.

”وأنت ستكون...“

”في مرسمي!“

”أين هو؟“

”في آخر الزواقي الآخر، صعودًا على الدرج، إلى اليمين“. ثم توقف ونظر إليها مجددًا. ”قومي بجولة موجهة ذاتيًا في المنزل واحصلي على حيثياتك“. وتركها واقفة في الزواقي. وإذ التقط الإبريق الحار من مكنة القهوة، توجه إلى مرسمه.

لم يذ رومان مساعدته الشخصية طوال ساعتين. قرعت برفق على إطار الباب وانتظرت الإذن بالدخول. لقد وجدت الكمبيوتر المحمول. ”لديّ اللائحة والأسعار. إذا كان لديك بطاقة ائتمان، يمكنني أن أقدم الطلب حتى نتسلم كل شيء عصر غد“.

”فليكن“. وإذ ألقى ريشته جانبًا، دس يده في جيبه الخلفي فوجده فارغًا. تمتم بكلمة شتم. ”ابقي حيث أنت. سأعود حاليًا“. لم تكن محفظته في الخزانة أو عليها، ولا على منضدته بجانب سريرته. فبات غاضبًا الآن، وفتش في غسيله الوسخ باحثًا في الجيوب، حتى تذكر أنه ترك البطاقة في صندوق

القَّفَازِ فِي سَيَّارَتِهِ الْبَارِحَةِ. وَإِذْ أَطْلَقَ شَتِيمَةً بِصَوْتِ
عَالٍ، ذَهَبَ لِاحْتِضَارِهَا.

كَانَتْ غَرِيْسٌ مُورٌ وَاقِفَةٌ تَمَامًا حَيْثُ تَرَكَهَا. نَاوَلَتْهُ
الْكُومِپِيُوتِرَ الْمَحْمُولَ بَدَلًا أَنْ تَأْخُذَ بِطَاقَةِ الْاِئْتِمَانِ
الَّتِي قَدَّمَهَا لَهَا. ”إِنْ وَافَقْتَ عَلَيَّ كُلَّ مَا أَدْرَجْتُهُ فِي
الْلَّائِحَةِ، يُمَكِّنُكَ أَنْ تُدْخِلَ الْمَعْلُومَاتِ الْخَاصَّةَ بِبِطَاقَةِ
اِئْتِمَانِكَ“.

”قُومِي أَنْتِ بِذَلِكَ!“

أَجْفَلَتْ. رَجَعَتْ خُطْوَةً إِلَى الْوَرَاءِ، وَزَفَرَتْ نَفْسًا
نَاعِمًا. ”إِنَّهَا مَعْلُومَاتُكَ الْمَالِيَّةُ“.

”وَإِيَّاهَا سَتَعْرِفِينَ إِنْ كُنْتِ تَقُومِينَ بِعَمَلِكِ“. وَلَمَّا
نَاوَلَتْهُ الْكُومِپِيُوتِرَ الْمَحْمُولَ ثَانِيَةً، أَخَذَهُ. وَإِذْ نَظَرَ إِلَى
ثَمَنِ الطَّلَبِ الْإِجْمَالِيِّ، شَتَمَ مَرَّةً أُخْرَى. فَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ
الْبَابِ. ”إِلَى أَيِّنَ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ؟“

”أَنَا آسِيفَةٌ. لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أُشْتَغَلَ عِنْدَكَ“. وَقَدْ نَمَّ
صَوْتُهَا عَنِ اعْتِذَارٍ، لَكِنْ بِلا مُهَآوَدَةٍ.

”مَهَلًا دَقِيقَةً!“ أَلْقَى الْمَحْمُولَ عَلَى طَاوِلَةِ رَسَمِهِ
وَلِحِقِّ بِهَا.

أَسْرَعَتْ نُزُولًا عَلَى الدَّرَجِ.

”انْتِظِرِي قَلِيلًا فَحَسْبُ“. وَتَبِعَهَا إِلَى الْمَكْتَبِ،
حَيْثُ التَّقَطَّتْ جِزْدَانَهَا وَعَلَّقَتْ شَرِيظَةً حَوْلَ كَتِفِهَا.
بَدَتْ شَاحِبَةً غَائِمَةً الْعَيْنِينَ لَمَّا وَاجَهَتْهُ. هَلْ أَفْرَعَهَا
عَلَى هَذَا النَّحْوِ الرَّهِيْبِ؟ خَطَّتْ إِلَى الْأَمَامِ، وَيَدُهَا

مُتَشَبِّهَةٌ بِالشَّرِيطِ الجِلْدِيِّ. ”رجاءً، جِدًا“

رأى رومان أنها قد نَظَّفَتْ فِعْلاً مَسَاحَةً عَمَلٍ عَلَى الطَّائِلَةِ المُرَبَّعَةِ وَعَمِلَتْ أَكْدَاسًا صَغِيرَةً مُرْتَبَةً. لَمْ يُرِدْ لِهَذِهِ الفَتَاةِ أَنْ تُغَادِرَ. ”أعطيني فِكْرَةً عَنِ سَبَبِ اسْتِعْفَانِكَ فِعْلاً“.

”يُمْكِنُنِي أَنْ أُعْطِيكَ لَائِحَةً“. بَدَتْ مُتَضَايِقَةً.

”انظري“. وَرَفَعَ يَدَيْهِ. ”لقد قَابَلْتَنِي فِي يَوْمٍ سَيِّئٍ“.

”قَالَ مِسْرٌ سَانْدُوْقَالُ إِنَّكَ لَا تَحْظِي بِأَيَّةِ مُسَاعِدَاتٍ جَيِّدَاتٍ“. سَحَبَتْ نَفْسًا مُرْتَعِشًا وَرَفَعَتْ نَظْرَهَا إِلَيْهِ.

وَاضِحٌ أَنَّهَا نَدِمَتْ إِذْ تَكَلَّمَتْ بِسُرْعَةٍ زَائِدَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُجَادِلَ. ”نَعَمْ، حَسَنًا، الفَتَيَاتِ اللَّوَاتِي أَرْسَلْتَهُنَّ لَمْ يَكُنَّ مُنَاسِبَاتٍ تَمَامًا. كَانَتْ العَمَلِيَّةُ كُلُّهَا مُحِيطَةً، لِأَقْوَلِ الأَقْلَ“.

”تلكَ لَيْسَتْ غَلَطْتِي، مِسْتَرُ قِيلاسكو“.

”لَمْ أَقُلْ إِنَّهَا غَلَطْتُكَ“.

تَرَاجَعَتْ خُطْوَةً. ”لَا أَحَاوِلُ أَنْ أَجْعَلَكَ غَاضِبًا“.

أَكَانَ ذَلِكَ الوَاقِعُ؟ ”لَسْتُ غَاضِبًا عَلَيْكَ. أَنَا فَقط...“

تَمَّتْ بِكَلِمَةٍ قَبِيحَةٍ بِصَوْتِ مَهْمُوسٍ. ”لَا أَعْلَمُ مَا أُرِيدُ،

وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّكَ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ“.

لَعَلَّهَا جَاءَتْ مِنْ حَيَاةٍ أُنِيقَةٍ حُلُوةٍ. أَبْوَانٍ، بَيْتٍ

جميل في ضاحية راقية، مدرسة خاصّة، جامعة. ظروف مُمتازة. إنّه لم يقل أيّ شيءٍ أسوأ ممّا قد تسفّعه في مُجمّع تجاريّ، ولكن كان واضحًا أنّها وجدته عُدوانيًا. عليه أن يكون أكثر انتباهًا وحرصًا إذا أراد أن يستبقي غريس مور عنده. ”ستشتغلين هنا. وأنا ساكون في مرسى. لن نكون قريبين أحدنا من الآخر بذلك القدر البالغ“.

”على المُساعدة الشخصية أن تعمل باحتكاكٍ وثيق مع رئيسها. تلك هي طبيعة الوظيفة“.

”الشخصية كلمة ملغومة“. جعل ابتسامته تصير خبيثة قليلًا. وإذ رأى أنّ ذلك لم يمرّ بنجاح، أسقط أيّ تلميح قد يفهم خطأ. ”قد ينبغي لي أن أناديك بشيءٍ آخر“.

”لك أن تُناديني بِمِز مور“.

كانت قد بدأت تسترخي قليلًا، ولكنها ما برحت تنصبّ حُدودًا. لا بأس. سيحترّم حُدودها. ”حسنًا، مز مور“. كان في وسعه أن يُبدي الاحترام حين يدعو الوضع إليه. تجهّمت، مُتفحّصةً إيّاه كحشرة تحت عدسة زجاجيّة. ”على الأقلّ أمهليني أسبوعين قبل أن تستعفي“.

تدلّت كتفها قليلًا. ”أسبوعين!“ وقد جعلت تلك المُدّة تبدو كأنّها عُمر، إلا أنّها تركت شريط الجردان ينزلق عن كتفها. ”رجاءً، لا تُطلق عليّ شتائم من

جديد“.

”إذا شتمت، فلن تكون الشتيمة مُصَوَّبَةً إِلَيْكَ. ولكن سأحاول أن أكون مُنتَبِهًا عندما تكونين على مقربة مني. اتفقنا؟“ ومدَّ يده. فعَضَّتْ شَفَتَهَا قَبْلَمَا قَبِلَتْ الإيماءة. وقد كانت يدها باردة وارتجفت قليلاً قبل أن تسحبها.

”أحسن لي أن أرجع إلى العقل“.

فهِمَّ التلميح وتوجَّه نحو الباب. إذا أثبتت أنها كَفِيَّةٌ كما بدت، فقد تنجح الأمور فعلاً هذه المرة. ثم وجد نفسه فضوليًّا. ”لماذا وكالة توظيفٍ موقَّت؟“

”هي الشَّيْءُ الوحيدُ الذي أمكّني العُثورُ عليه.“ واحمَرَّتْ وجهها. أحسَّ أنه على أرضٍ أصلب. ”جيدٌ أن أعرف أنك تحتاجين إلى هذه الوظيفة بقدر احتياجي إلى مُساعدَةٍ“. لم تقل أيَّ شيء. فأمال رأسه يتأملها. ”أين اشتغلت قبل وكالة التوظيف الموقَّت؟“

”في مؤسسة علاقات عامَّة“.

”وتركت بسبب...؟“

”كنت فائضةً عن الحاجة، كما يُقال“. ونظرت إليه. ”لدي رسالة توصية، إذا أحببت أن تراها“.

”أنا على يقين بأن مسز ساندو قال فحِصتك“.

شخصت إليه. ”إنني بحاجة إلى هذه الوظيفة فعلاً، مستر فيلاسكو، ولكنني على يقين بأنك تُدركُ

أَنْنِي أَتَطَّلَعُ إِلَى شَيْءٍ مَا أَفْضَلَ مِنْ عَمَلٍ وَقْتِيَّ .
سَابِذُ لَكَ أَفْضَلَ مَا لَدِيَّ مَا ذُمْتُ هَهُنَا . وَهَزَّتْ
كِتْفَيْهَا قَلِيلًا ، كَمَا لَوْ كَانَتْ لَا تَحُوزُ أَمَلًا كَثِيرًا بِأَنَّ
أَفْضَلَ مَا لَدِيهَا سَيَكُونُ جَيِّدًا كِفَايَةً . ”بَيْنَكَ وَبَيْنَ
رَئِيسِي الْأَخِيرِ فَرْقٌ شَاسِعٌ“ .

”أَكَانَ مَادِيًّا مُتَزَمِّتًا؟“ حَصَلَ ذَلِكَ التَّوَرُّدُ مِنْ
جَدِيدٍ . لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَذَكَّرَ التِّقَاءَ هَ فَتَاةً يَحْمَرُّ وَجْهَهَا
إِطْلَاقًا ، عِلَاوَةً عَلَى بَحْصُولِ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي
شَوْبَعَاتٍ .

”كَانَ رَجُلًا مَا جِدًّا“ .

مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ رُومَانَ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ . وَقَدْ تَعَلَّمَ أَنْ
يُمَثِّلَ ذَلِكَ الدَّورَ عِنْدَمَا تَدْعُو الضَّرُورَةُ . ”لِمَاذَا لَمْ
تَعُودِي عِنْدَهُ؟“

”تَقَاعَدَ وَسَلَّمَ مَصْلَحَتَهُ لِمُؤَسَّسَةِ أُخْرَى كَانَتْ
حَافِلَةً بِالمُوظَّفِينَ“ . رَمَقَهَا رُومَانَ بِنَظَرَةٍ شَامِلَةٍ مِنْ
جَدِيدٍ . لَمْ يَكُنْ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُ أَرَادَ لِأَيِّ شَخِصٍ أَنْ
يَضَعَ قَوَانِينَ فِي مَنْزِلِهِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ قَدْ بَدَلَتْ
فِي سَاعَتَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ مَجْهُودَاتِ الْأَرْبَعِ الْأُخْرِ
مُجْتَمِعَةً .

لَقَدْ أَعْجَبَتْهُ ، وَلَمْ يَعْرِفِ السَّبَبَ . لَعَلَّهُ كَانَ افْتِقَارُهَا
النَّامُ إِلَى الْاهْتِمَامِ بِهِ . قَدْ يَكُونُ حَسَنًا أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ
شَخْصٌ يَقُومُ بِالعَمَلِ وَلَا يَطْرَحُ أَسْئَلَةً تَفُوقُ الحَدَّ .

”إِذَا ، نَحْنُ بِخَيْرٍ؟“

”مُدَّةُ أُسْبُوعَيْنِ“.

أَطْلَقَ ضِحْكَةً خَفِيفَةً. ”جَيِّدٌ. لَدَيَّْ عَمَلٌ أَقْوَمٌ بِهِ.
فَلْتَتَوَلَّ الْأَهْتِمَامَ بِالطَّلِبِيَّةِ حَتَّى تَسْتَطِيعِي أَنْ
تَنْصَرِفِي إِلَى عَمَلِكَ“.

الفصل ٢

في أثناء السّوقِ الطّويلةِ رُجوعًا إلى البيت، تساءلت غريس هل كانت الوظيفةُ الوقتيةُ هبةً من السّماء أو مزيدًا من البلاء على وشك الهبوب. كانت مسز ساندو قال قد أخبرتها عن رومان قيبلاسكو المزاجي. لقد كان فنّانًا، رُغمَ كلِّ شيء. وكانت مسز ساندو قال قد أهملت إخبار غريس أنّ الرّجل نفسه كان أثرًا فنّيًا. فحَتَّى وهو غيرُ حليق، وحافي القدمين، ومُرتدِّ كنزة فضفاضةً وقميصًا مُغضّنين، كان مُمكنًا أن يكون موديلًا في مجلةٍ رجالٍ شهيرة. شعرٌ أدكُنٌ طويل، بشرةٌ بُنية فاتحة، جسمٌ عَضَل، ذونَ قدرٍ ضئيل من الدّهْن. فدقيقةً فَتَحَ الباب، ارتفعت دِفاعاتها. وپاتريك كان وسيماً أيضًا.

تحركت يداها على عجلة القيادة. لم ينفعها بشيء أن تتشيل ذكرياتٍ كان أفضل أن تُترك دفينه.

هذا أوّل يوم. بداءةٌ شاقّة، ولكنها بداءةٌ رُغم ذلك. خمس دقائق في منزل رومان قيبلاسكو أثبتت أنّه

بحاجة إلى مُساعدِ شَخْصِيٍّ. لم تَكُنْ مَهْمَّتُهَا الأُولَى
في صُنْعِ القَهْوَةِ تَحْدِيًّا كَبِيرًا، ما عدا التَّفْتِيْشَ عَنِ
البُنِّ والفَلَاتِرِ التي كان قد وَضَعَهَا في جَارورِ
مُخَصَّصٍ للأواني والمَقَالِي.

فَتَحَتِ الجَوْلَةَ المَوْجَّهَةَ ذاتِيًّا عَيْنِيهَا. كان الحَمَّامُ
البعِيدُ عَنِ المَكْتَبِ جَمِيلًا، ذا رُخَامٍ تَبْنِي اللَّوْنَ،
ومُثَبَّتَاتٍ نِيكَلِيَّةٍ مصقولة، وقَوَالِبَ تاجِيَّةٍ بِيضَاءَ.
وكانَ في مِرْحاضِ الخَزَفِ الصِّينِيِّ الأَبْيَضِ اللِّمَّاعِ، ذِي
المَقْعَدِ المُدْفَأِ، وفي المَغْطَسِ الفَاخِرِ، دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ
عَلَى أَنَّ المَنْزِلَ لَمْ يُصَمِّمِ قَطُّ لِعَازِبٍ.

وقد كان الباقي من الأربَعِ مئةٍ وخميسٍ وستين
مترًا مُرَبَّعًا، بَهِيًّا وذا أَصْدَاءٍ مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ. إذ كانت
إحدى العُرْفِ الكَبِيرَةِ مَوْثِقَةٌ بِجِمَنَازِيومِ مَنْزِلِيٍّ بَدِيعِ
مُعَذِّبٍ، لإِبْقَاءِ الرَّجْلِ ذَا لِيَاقَةٍ بَدَنِيَّةٍ. وَحَوَّتْ عُرْفَةٌ
أُخْرَى سَرِيرَ كَاليفورنِيَا مُزْدَوِجًا غَيْرَ مُسَوَّى، وَخَزَانَةَ
مَلَابِسٍ، وَمِنْضَتَيْنِ لَيْلِيَّتَيْنِ، وَثِيَابًا وَمَنَاشِفَ وَسِخَةَ
عَلَى أَرْضِيَّةٍ رُخَامٍ أَحْمَرَ. وَكَانَتْ عُرْفُ النَّوْمِ الأُخْرَى
خَلَايَا بِيضَاءَ كَبِيرَةً بِلا أَثَاتٍ وَلَا سِتَائِرٍ نَوَافِدٍ، وَمَعَ كُلِّ
مِنْهَا حَمَّامٌ خُصُوصِيٌّ فِيهِ مُثَبَّتَاتٌ نِيكَلِيَّةٍ مصقولة
غَالِيَةُ الثَّمَنِ أَوْ بُرونزِيَّةٌ لِمَاعَةٍ.

كان مَرَسَمُ رومانِ قِيلاسكو المُفاجِأَةِ الكُبْرَى. فهو
قد حَوَّلَ ما كان مُفْتَرَضًا أَنْ يَكُونَ الجَنَاحَ الرَّئِيسَ إِلَى
اسْتُديوِ عَمَلٍ مُكْتَنَظٍ. لَقَدْ تَدَفَّقَ النُّورُ مِنْ أَطْرِ النَّوَافِدِ،

ولا شك أن ذلك كان السبب الذي من أجله اختار
رومان تلك المساحة للعمل. وقد رش وبقع بالطلاء
كل مكان من الأرضية الخشبية الصلبة الجميلة.
وبدت الأوراق المغصنة أشبه بكرات ثراوية بشعة
مبعثرة في أنحاء الغرفة. ألم يكن الرجل يملك سلة
مهمات؟

عبق الهواء برائحة الطلاء والزيت والترينتينة.
وحوت خزانة كتب رخيصة عشرات المجلدات عن
الفن، وسيّر رسامين مشهورين، فضلًا عن أكاديس
المسودات. وبرزت فراش من أحجام شتى في غلب
بن من ماركة يوبان. وانتشرت أنابيب وعلب رش
وعبوات طلاء على رفوف مرتجلة منشأة من ألواح
الخشب وقوالب البناء الصلبة. وكان لديه بضعة
مساند منصوبة، كل لوحة عليها عديمة المعنى
وعضرائية. لم تدر غريس أي أثر فني مؤطرًا أو معلقًا
في أي مكان من منزل رومان. حتى لو لم يرقها ما
رسمه، فلا بد أنه كان فخورًا بعمله.

ثم لماذا يعمد رسام إلى استعمال طلاء بلون
الوحل ليغطي مهما كان عمله على الجدار الخلفي؟
كان دلو طلاء يسع نحو تسعة عشر لترًا مكونًا في
الزاوية، مع صينية عليها طلاء جاف، وأسطوانة طلي
خرابة. لم يكلف نفسه أن يستعمل قطعة قماش أو
نيلون.

تلقى ثلاث مكالمةٍ شخصيّة، كلّها من نساء. ولم
يُرد أن يُكلّم أيّة واحدةٍ منهن. إحداهنّ أقفلت الخطّ،
والأخريان تركتا رسالتين.

أوّل مُخابرةٍ مُتعلّقة بالعمل جاءت من تاليا رايذر،
مالكة صالة عرض في ساحل لاغونا، وقد أرادت أن
تعرف هل كان رومان يعمل أو يعبت.

”مستر فيلاسكو في مرسمه“.

”حمداً لله على وجودك هناك. ما برحت وراء
الفتى طوال أشهر كي يوظّف مُساعدة“.

كادت غريس تضحك. ”الفتى“ بدا في الثلاثين،
ورجلاً مكتملاً.

اندفعت تاليا قائلة: ”ما برح غارقاً تحت
التفاصيل. لا نريد لأيّ شيء أن يُبْطئ زخمه. هو
مُتحمّس الآن، ويزداد حماساً. برأيي، لقد بدأ توّا
يستغلّ موهبته. بعث لوحته الأخيرة أمس، وقد
تلقيت فعلاً مكالمتين هذا الصّباح تسألان متى
سيقيم معرضاً. هل يرسم؟ إنني أظنّ أقول له إنه
ينبغي أن يرسم!“

كانت غريس قد ولّجت المرسم فيما تاليا تتكلّم. لا
بدّ أن يكون موجوداً في البيت نظاماً مواصلةً بينية،
ولكنّها لم تعلم أين هو، وشكّت أن يعلم رومان أيضاً.
ستقترح نظاماً تلفونياً جديداً، حيث تستطيع أن
تُبقي شخصاً على الخطّ ثمّ تطلبه. لقد رمّقتها لَمّا

دخلت ميدانه. "لحظة من فضلك". وناولته التليفون.
"تاليا رايزنر. تقول إنها زميلة عمك".

أخذ رومان التليفون، وكبس الزر منها المكالمة،
وردده بجدة. "لست موظفًا عندها. إذا اتصلت من
جديد، قولي لها إنني اشتغل. إن ذلك سيجعل قلبها
الصغير الجشع سعيدًا. إذا اتصل هكتور إسبينوزا،
فسأكله. وفي وسع كل شخص آخر أن يذهب
إلى..." توقف فجأةً بابتسامة مرتبكة.

يا له من يومٍ أوّل في الوظيفة!

تباطأت حركة السير إلى تقدّم بطيء. غادرت
غريس عند الخامسة، ولكنها لن تصل إلى بربانك إلا
بعد السادسة بوقتٍ لا بأس به. سئضطرُّ إلى ملء
خزان سيّارتها الهوندا سيّيك بالوقود مرّتين هذا
الأسبوع، الأمر الذي لن يُبقي لديها الكثير لتدخّره
لأجل عربون على شقّة. ثرى، كيف ستمكّن يومًا من
أن تؤمّن مسكنًا مُستقلًا؟ وإذ كافتح الدموع،
حاولت ألا تدع عواطفها تستولي عليها. لقد بكت في
السنة الأخيرة بدموع تكفي لتعويم سفينة.

انضجى، يا غريس. أنتِ تُعايشين الفوضى التي
تحدثينها.

رُبّما كان الله يُعاقبها. له كلُّ حقٍّ في ذلك، واحةً
في الجسبان كيفية تصرّفها بعد الطلاق.

رفع روبن يده محييًا، وعيناه شاخصتان إلى أخبار

التلفزيون، حالما دخلت غريس من الباب الأمامي. أمّا أليشيا، في الصف الأخير قبل الجامعة، وخافير في صف التخرج، فكانا في غرفتيهما يُنجزان الفرض المنزلي. وكانت سيلاه فعلاً قد وضعت صمويل في السرير.

”كان مهتاجاً بعض الشيء، فنومته الساعة السادسة“. وابتسمت إذ وضعت آخر الأواني الزجاجية داخل غسالة الصحون. ”عشاؤك في القرن، أختي، وما زال ساخنًا. كيف سارت الأمور اليوم؟“

”حسنًا“. سئلازمه حتى ينفتح لها شيء أفضل.

”أنا ذاهبة لرؤية صمويل“.

”هو نائم، حبيبتي. الأفضل أن تدعيه وشأنه“.

”سأذهب دقيقة فقط“.

”اقعدي. كلي العشاء“.

تظاهرت غريس بأنها لم تسمع. ما برحت غائبة عن ابنها طوال النهار. أرادت فقط أن تحمله بضع دقائق.

كان صمويل مُستلقيًا على ظهره، وذراعه مبسوطة. بدا هادئًا تمامًا، فلم تُوقظه. وإذ سوت البطانية الناعمة، انحنت فوقه. ”أحبك، يا رجلًا صغيرًا. اشتقت إليك كثيرًا اليوم“. باست جبينه الدافئ ووقفت قرب مهده، مكتفيةً بمشاهدته ينام. وإذ مسحت دموعها، رجعت إلى المطبخ. كانت

سيلاه قد أخرجت صحن رز، وأنتشيلادا جبنية
كثيفة، وسلطة لفت مبشور. فشكرتها غريس إذ
جلست إلى طاولة المطبخ. ومضت سيلاه إلى داخل
غرفة الغسيل.

أكلت غريس وحدها، ورفعت ضحونها وغسلتها.
ثم ذهبت إلى حجرة غسل الملابس وبدأت تطوي
ثياب صمويل. انتزعت سيلاه منها فانيلة الرضيع
وأزاحتها. "أستطيع أن أفعل هذا، أختي. اذهبي
اقعدي وتحدي إلى روبن".

لم تكن الكلمات هي ما آلفها، بل التلميح إلى أن
سيلاه أرادت أن تتولى كل ما يتعلق بصمويل. وقد
شاهدتها غريس تطوي فانيلة صمويل وتكبشها فوق
كُدس أثواب أخرى كانت قد اشترتها. وإذ تجاهلت
غريس، التقطت قميصًا صغيرًا.

لم ترد غريس أن تشعر بالاستياء. فما برح آل
غارسيا لطفاء وداعمين على مدى شهور. ولما
أخبرتهم غريس بأنها غيرت رأيها بالنسبة إلى التخلي
عن صمويل، قالت لها سيلاه إن لديها مئسعا من
الوقت للتفكير في الأمور مليا. فما كانت سيلاه قط
غير لطيفة، بل بدت مصممة على أن تبين لغريس أنها
كانت أمًا أفضل لصمويل.

يا رب، أنا شاكرة. أنا شاكرة حقًا.

رفع روبن نظره لما دخلت حجرة الجلوس. "كيف

جذتِ الوظيفةُ الوقتيةَ؟ هل تؤولُ إلى شيءٍ أثبتتِ؟“
”أمرٌ مُترَجِرَج. هو فنَّان. إنَّه يُقيمُ في ثوينغا
كانيون.“

”لا عَجَبُ أنَّكَ تأخَّرتِ هكذا في وصولكِ إلى
البيتِ هذا المساء.“

ألقي نظرةً عَجلى على البرنامجِ الإخباريِّ. ”عندَ
أليشيا مُباراةً في الكُرَّةِ الطائرة مساءً الأربعاء. ينبغي
أن تُغادِرَ الساعةَ السادسة.“

تلقتِ غريس الرِّسالةَ. إن لم تتمكَّن من الرُّجوعِ في
الوقتِ المُناسِبِ، يصطَحِبونَ صمويلَ، ويفوئُها مساءً
أخرُ مع ابنها.



أصبحتِ أيامُ رومان أسهلَ بوجودِ غريس مُور في
الوظيفة. كانت تصلُ عندَ التاسعة دونَ إبطاء، فتصنَعُ
قهوته وتمضي إلى العَمَلِ في المكتب. كان قد أعلَقها
كيف تتولَّى أمرَ مُكالماته. قال لها أيَّةُ مُخابراتٍ
تتجاهل، وعن أيَّةِ تُجيب. وقد اتَّصلَ أناسٌ تكرارًا،
يطلبونَ جِداريَّات. ففكَّرَ مليًا في الكفِّ عن تلبية
الطلب، إذ وجدَ الجِداريَّاتِ مُستهلكةً للوقتِ وأقلَّ
إرباحًا من شُغله على قماش اللُّوحاتِ الزيتية.

أحسَّ أنَّه مضغوط، لكنَّ غيرَ مُدار. أرادَ لآثاره
الفنيَّة أن تُخبأ في منازلٍ خصوصية، أم أن تُعرَضَ

بَحَيْثُ يَرَاهَا الْجَمِيعُ؟ أَكَسَبَتِ الْجِدَارِيَّاتُ رُومَانَ
قِيْلَاسِكُو شَرَعِيَّةً، حَتَّى لَوْ كَانَ مُكَلَّفًا أَنْ يُنْفِذَ رُؤْيَا
شَخِصٍ سِوَاهُ بَدَلًا مِنْ رُؤْيَا الشَّخْصِيَّةِ. وَكَانَ مَا
يُزَالُ يُعْبَذُ عَنْ رَأْيِهِ بِوَاسِطَةِ رَسُومِ "الْعُصْفُورِ"
الْغَرَاْفِيَّتِيَّةِ التَّبْسِيطِيَّةِ، وَلَكِنْ بِمُخَاطَرَةِ مُتَّفَاقِمَةٍ. لَقَدْ
أَصْبَحَتِ لُعْبَةً، أَخْطَرَ مَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ.

إِذْ فَرَكَ رُومَانَ جَبِينَهُ، حَاوَلَ أَنْ يُرَكِّزَ ذِهْنَهُ عَلَى
الْجِدَارِيَّةِ. كَانَ لَدَيْهِ مَوْعِدٌ مُحَدَّدٌ، وَكَانَ الْمَوْعِدُ
يُقْتَرَبُ بِسُرْعَةٍ. لَا تُفَكِّرْ. فَقَطْ قُمْ بِالْعَمَلِ وَاقْبِضْ
أَجْرَتَكَ. رَكِّزْ عَلَى ذَلِكَ.

كَانَ تَوْظِيفُ هِكْتُورِ إِسْپِينُوزَا قَدْ رَفَعَ الضَّغْطَ عَنْ
قِيَامِ رُومَانَ شَخْصِيًّا بِالْعَمَلِ كُلِّهِ. وَكَانَ الرَّجُلُ بِصَدَدِ
مُبَاشَرَةٍ جِدَارِيَّةِ رُومَانَ عَلَى جِدَارِ رَدَهَةِ فُنْدُقِ جَدِيدِ
بُقْرَبِ حَدِيقَةِ حَيَوَانَاتِ سَانَ دِييَغُو. وَقَدْ وَظَّفَتِ إِدَارَةُ
الْفُنْدُقِ رُومَانَ لِابْتِكَارِ مَنْظَرِ سَهْلِ سَاقَانَا أَفْرِيْقِيَّ
كَامِلٍ مَعَ حَيَوَانَاتٍ مُهَاجِرَةٍ. وَكَانَ رُومَانَ قَدْ أَنْهَى
تَقْرِيْبًا رَسْمَ التَّصْمِيمِ عَلَى وَرَقِ نَقْلِ سِيَسْتَعْمِلُهُ هِكْتُورُ
لِمُبَاشَرَةِ اللَّوْحَةِ. فَمَا إِنْ يُكْمِلُ هِكْتُورُ نَقْلَ اللَّوْحَةِ،
حَتَّى يَسُوقَ رُومَانُ وَيَقُومَ بِالْعَمَلِ النَّهَائِيِّ لِإِضْفَاءِ
حَيَاةٍ عَلَى الْجِدَارِيَّةِ.

أَسْقَطَ رُومَانَ الرِّيشَةَ وَلَيِّنَ أَصَابِعَهُ الْمُتَشَنِّجَةَ.
مَتَى أَخَذَ اسْتِرَاحَةً آخِرَ مَرَّةٍ؟ مَا بَرِحَ يَشْتَغِلُ مِنْذُ
شُرُوقِ الشَّمْسِ. وَإِذْ دَفَعَ الْمَقْعَدَ إِلَى الْوَرَاءِ، وَقَفَّ

وتَمَطَّى فيما مشى نحو النّوافذ. نظَرَ خارجًا إلى الوادي الضيّق. لَفَتَتْ نظره حركَةً، ولمَحَ أرنبًا أميركيًا يشقُّ طريقه بِحَدَرِ عِبْرِ القَمَرِ نزولًا على الكُوخِ الذي سبقَ أن بناه المالكون السابقون لأبٍ مُسِنٍّ لم يعيش طويلًا حتّى ينتقل إليه.

كان قد دخل الكُوخَ مرّةً واحدة فقط، لَمَّا اصطحبهُ الوسيطُ العقاريُّ في جولةٍ أخيرةٍ قبلما وقعَ على جميع الأوراق. وكانت له المساحةُ المُرَبَّعةُ التي كانت للكوخ على شاطئ مالبيو، ذاك الذي باعه بمبلغٍ مُذهِلٍ من المال، وقد أغرقَ مُعظمه في هذا الحصن.

لم يكن في وُسْعِ بُيِّ راي دين أن يبغِدَ أكثرَ من هذا عن الحيِّ المُستَهتر. ولم يبغِدَ يعرفُ مَنْ كانَ رومان. فبِطريقةٍ ما، ضاعَ بُيِّ راي دين بين "العصفور" ورومان قِيلاسكو.

كانت غريس قد نَطَّمتَ المكتبَ قبلَ نهايةِ الأسبوعِ الثَّاني. لقد راقها أن تظلَّ مشغولة. كانت ذاتَ حُضورٍ فعَّالٍ، لكن هادئٍ، في البيت. وذلك أعجَبَ رومان. إنّما هذا الصَّبَّاحُ قالت إنّها أرادت أن تشرَحَ النِّظامَ الجديدَ المُعتمَدَ في حِفْظِ المَلَفَّات. وخالجهُ شعورٌ بأنّه عليمٌ إلى أينَ كانت سائرةً بذلك. فقال إنّهُ ليسَ لديهِ وقت.

جعلهُ نَقْرٌ خفيفٌ على بابِ المَرسَمِ يلتفت.

"أديك الآن وقتٌ للحديث، مستر قِيلاسكو؟"

”الأمرُ يتوقفُ على ما تُريدين التحدُّثَ بشأنه“.
وواجهها. ”إياك أن تُفكِّري مُجرَّدَ تفكيرٍ في
الاستِغناء“.

”قلتُ لك إنني سأعطيكُ مُهلةً أسبوعين. أنتِ
بالحقيقة لا تحتاجُ إلى مُساعدةٍ شخصيَّةٍ بِدوامٍ
كامل“.

”تروِّقني الطَّريقةُ التي بها تجري الأمور“.

”لديَّ كثيرٌ من الوقتِ الخالي“.

”توجدُ أمورٌ أخرى يُمكنكُ أن تعمليها لأجلي“. لقد
رأى نظرةَ الاحتِراسِ في عينيها. ما زالت لا تثقُ به،
ولكنْ إذ ذاك إلى أيِّ مدى جيِّدَ عرِّفاً أحدهما الآخر؟
ما برحَ كلُّ شيءٍ على وجهِ الحَضرِ شُغلاً فحسب من
أوَّلِ يومٍ. تمامًا على النَّحوِ الذي أراداه كِلاهُما. ”طَبِّخِ،
غَسِّلِ، قليلٌ من تنظيفِ البيت“.

”أنتِ تأكلِ وجباتٍ جاهزة. وتأتي خِدْمَةُ تنظيفِ
كلِّ أربعاءٍ لأخذِ غسيلِكِ. وأنا على يقينٍ بأنك تستطيعُ
بِسهولةٍ أن تجِدَ شخصًا ما لتغييرِ بياضاتِكِ وتسويِّةِ
سريرِكِ“.

أحسَّ تلميحًا ما. ”لستُ أدعو النساءَ عادةً للصُّعودِ
إلى هُنا“. كانت مُغادرةُ بيتِ امرأةٍ أسهلَّ من الطَّلَبِ
إلى امرأةٍ أن تُغادرَ بيته.

”لستُ مَعْنِيَّةٌ بحياتِكِ الخُصوصيَّةِ، مِستر
قيلاسكو“.

ومع ذلك عرّفت عنه أكثر من أيّ شخصٍ آخر.
ليس أنّ عقله الورقيّ حكي الحكاية كلّها. ”أيمكننا أن
نُسقِطَ كلمةً مسترّة؟ ناديني رومان“. راقته العلاقةُ
الرسميّةُ أوّلَ الأمر. أمّا الآن فأزعجته. ”ما قولك في
تبضع البقالة؟ ذلك يستغرق وقتًا لا يسعني توفيره
الآن تمامًا. سأردُّ لك ثمنَ الوقود“.

”سأحتاجُ إلى لائحة“.

أطلقَ ضحكةً ناعمة. ”أنتِ تعيشينَ على اللوائح،
ألسِتِ؟“

استرخت كتفاهها، وردّت بابتسامة: ”أنتِ قلتِ إنك
تريدُ شخصًا معنيًا بالتفاصيل“.

”ربّما كنتِ تعرفينَ أفضلَ منّي ما أحتاجُ إليه“.
أعطاهها مئتي دولار وقال لها إنّ أقربَ سوپرماركت
هو في ماليبو.

رنّ التّلفون بضعَ مرّاتٍ في أثناء غيابها. لم يكلف
نفسه التّقاط السّماعة. وتجاهلَ أجراسَ الباب
الأماميّ أيضًا، حتّى أدرك أنّ غريس قد تكونُ خارجًا.
وإذ فتحَ الباب أخذَ كيسَي البقالة. ”أيوجدُ مزيد؟“
فقالَت إنّها تستطيعُ تدييرَ الأمر، وتوجّهت راجعةً إلى
سيّارتها.

جلسَ رومان إلى طاولة المطبخ، وراح يُشاهدُها
تُفرغُ الأكياس القابلة للاستعمال تكرارًا. كدّست
فطائرَ البيتزا والوجبات المُجلّدة في الثّلاجة،

ووضعت خليطات السلطة المرزومة داخل البزاد.
وقد اشترت عصير برتقال وبيضًا وجبن حلوم
ومرطباتي دراق، مع أنه كان قد نسي أنه بحاجة إلى
ذلك كله. لقد بدت عليمة بما يحب.

التفتت إلى ساعة الجدار، وطوت الأكياس
بسرعة. ”ينبغي لي أن أغادر. سأعلق في زحمة
السير“.

”وصلت بعض المكالمات في أثناء غيابك. تركتها
تتحول إلى البريد الصوتي، ولكن...“ بدت متوترة،
وكانت الساعة قد صارت الخامسة والنصف تقريبًا.
”يمكنها أن تنتظر حتى يوم غد“.

”أنت متيقن؟“

”أذهب“.

ذهبت. وإذ انغلق الباب الأمامي وراءها، أحس
رومان الصمت يملأ البيت.

الفصل ٣

رومان، في الخامسة عشرة من العمر

أبدت الفتيات افتتانًا سريعًا بالفتى الجديد ذي الشعر الأذكن والعينين الداكنتين، والبشرة الزيتونية اللون، وهذا كله ثم عن نسبه المختلط عرقياً. ولاحظ الفتیان صديقاتهم يُراقبن ببي راى دين، إلا أنهم علموا سريعًا أنه ما كان قَطُّ لیتراجع عن قتال، أو يخسر قتالًا. وقد اتبع مجموعة قواعد الخاصة: لا تبدأ قتالًا، ولكن اضرب بشدة إذا وافاك قتال، اصرع خصمك حتى يبقى على الأرض، احم ظهرك.

انجذب إلى فتیان العصابات. لقد تجاوزوا القوانين وأنشأوا قانونهم الخاص. لم يضايقهم أحد، وكان في جيوبهم مال دائمًا. وقد بدوا وتصرفوا كأفراد أسرة. فلما عرض ريدر، أحد الفتية الأكبر سنًا، على ببي راى خمسين دولارًا كي يُسلم طردًا إلى نادٍ في برودواي، لم يفكر الأخير مرتين في القول نعم. لقد علم أن هذا كان اختبارًا، سبيلًا للدخول، فرصة

للانتيما إلى مكان ما.

أدرک ببي راي قبلما اجتاز صف مبان أن المهمة كانت شرکًا. فقد اتصل أحدہم بالشرطة. وبدل أن يرمي بي راي الطرد، قام بما كان يقوم به دائمًا. فهو ما برح يركض عبر شوارع سان فرانسيسكو من لياليه الأولى في عهد التشنئة. وقد عرف كل شارع وزقاق ومتنزه. وعرف كيف ينتقل من سطح إلى آخر، وينزل عبر مهرب حريق، ويتسلق سياجًا حلزونيًا، فيترجح فوق أعلاه ويقفز نازلًا إلى الجهة الأخرى. وهكذا وصل الطرد.

تالي يوم في المدرسة، وجد ريدر وطالب بالخمسين دولارًا. دب الاحترام في عيني ريدر. فدفع لببي راي ودعاه إلى حفلة، حيث التقى الأخوية. ولف كان في السادسة عشرة، وهو شبيه الممثل دنزل واشنطن، تتعلق بذراعيه فتاتان. ولاردو كان وزنه فوق تسعين كيلوغرامًا، وله ضحكة عصبية. وويت بوي هز برأسه محييا دون أن يشيخ بنظره عن لعبة كمبيوتر. وباونسر ترجح على أخمصي قدميه وبدأ متأهبًا لقتال.

لم يطل الوقت كي يتعلق بي راي بما كان في وسع العصابة أن تقدمه. إنما كانت المشكلة أنه لم يحب أن يحمل ما قتل أمه. فكل ليلة بعد قيامه بتوصيلة، كان يحلم بما ما في غرفة موتيل رخيصة.

تكونُ جالسةً على ملاءاتٍ مُغصّنة، وجِسمُها مهزول،
ووجهُها نهَبُهُ الذُّنْبُ والخِزْيُ. فتبكي وتمدُّ له يديها.
”أنت تعلمُ أنني أحبُّك، يا طفلي. أنت تعلمُ أنني
سأرجع. أليس كذلك؟“ ومن ثمَّ يستيقظُ مُبللاً بعرق
بارد، وقلبه يخبط، والدموعُ ما تزالُ نديّةً على خديّه.
لدى حُصولِ الأمرِ رابعَ مرّةٍ، أمرَ بُيِّ راي أصابعَ
يديه في شعره وجلسَ على حافةِ السَّريرِ، مُكافِحًا
الغَثَيانِ. إذا قال لا الآن، فسيري ريبّر ذلك تحدّيًا
لسُلطتِه. وكان ريبّر قد كسَبَ اسمَه بالإفلات من
عواقبِ جريمةِ القتلِ. وقد علمَ بُيِّ راي أنّ الإفصاحَ
عن نُفوره سيُظهرُ ضعفَه، وهذا شيءٌ لا يُمكنُ أن
يفعلَه مع الفتيان الذين باتَ مُلازمًا لهم الآن. لقد أرادَ
احترامهم. ولكنّه أرادَه بِشروطِه الشَّخصيّةِ.

كان بحاجةٍ إلى التّفكيرِ، وقد قام بذلك على أفضلِ
نحوٍ لَمّا كان خارجًا يهيمُ في الشّوارع بعد حلُولِ
الظّلام. فإذ دفعَ السّتائرَ إلى ناحية، ناويًا أن يتسلّقَ
إلى الخارج من نافذةٍ شقّةِ أبويه بالتّنشئة، لمَحَ فتىً
مُرتديًا ثيابًا سوداء من رأسِه إلى قَدَميه يُوقِّعُ على
رسمِ غرافيتي على جِدَارٍ في الجهة المُقابِلة من
الشّارع. إذ ذاك نَحَرَ بُيِّ راي. حرفٌ واحدٌ ورقمٌ؟
أكان ذلك أفضلَ ما يسعُه أن يفعلَ؟

حدّقَ بُيِّ راي إلى رسمِ المُوقِّعِ، فالتمعت في
ذهنه أفكارًا عمّا كان في وُسعِه أن يفعله هو بُعلبتي

رَشَّ طِلاء.

أقبلت دفقة الأدرينالين مُترافقةً مع الأفكار. وإذا تسارعت دقائق قلبه، بدأ يُنشئ خُطَطًا. لقد رأى طريقةً للبقاء في العِصَابَة مع البقاء بعيدًا عن المُتَاجِرَة بالمُخَدَّرَات.

احتضنَ بِيي راي الجِدَارَ ومشى بِبطءٍ على طُولِ الإفريز الضَّيِّقِ على رؤوس أصابع قدميه. وصلَ إلى أنبوبِ التَّصْرِيفِ وتسلَّق، يَدًا فوق يد. ولَمَّا أمكَنهُ أن يُمسِكَ بحافةِ السَّطْحِ، جرَّ نفسه صعودًا ومُتدحرجًا على السَّطْحِ المُجَاوِرِ.

أوصلَهُ سُلَّمٌ حريقٍ نُزولًا إلى الجانب الآخر. وقضى الساعاتِ القليلةِ التَّالِيَةَ مُتَفَحِّصًا الغرافيتي. كان أكثرها فَوْضويًا، وكان واضحًا أَنَّهُ رُسمَ على عَجَلٍ. أثَّرت فيه بعضُ الرِّسَمَاتِ، وإن كان قد علمَ أَن في وُسْعِهِ أن يعَمَلَ أفضل.

كانت لديه أفكارٌ تُذهِلُ العقولَ وتجعلُ الناسَ يتحدَّثون بإعجاب. لا بُدَّ أن يكون ذلك في مكانٍ ما عالٍ، مكانٍ ما خَطِرٍ، مكانٍ ما حيثُ لا يُمكنُ أن يطمسَ الرِّسْمَةَ بِسُهولةِ عُمَالِ المدينة الذين يُعْطَوْنَ أَجْرَةً كي يَظْلُوا فوق الغرافيتي.

كُلُّ ما كان على بِيي راي أن يفعله هو أن يضعَ يده على بِضْعِ عُلْبِ رَشِّ طِلاء، وفي وُسْعِهِ أن يُرِي رِيَّير ما يستطيعُ رَسَامُ غرافيتي حقيقيُّ في عِصَابَةِ أن

يُنَجِّزُهُ. لَقَدْ وَلَّتْ أَيَّامُ التَّسْلِيمِ وَالتَّوَصِيلِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى
بُيِّ رَاي. سَيَكُونُ فِي الْعِصَابَةِ بِكُلِّ مَوْجُودَاتِهَا، دُونَ
الْمُشَارَكَةِ فِي عَمَلِ الْعِصَابَةِ الْأَصْلِيِّ.



مُدَلَّى فِي عُدَّةٍ تَسْلُقُ، تَعْلَقُ بِي رَاي بِمُحَاذَاةٍ جَانِبِ
الْبِنَايَةِ. سَحَبَ غُلْبَةً طِلَاءِ رَشِّ أَحْمَرَ مِنْ حَقِيبَتِهِ
وَاشْتَعَلَ بِسُرْعَةٍ. ذَرَعَ لَارِدُو السَّطْحِ ذَهَابًا وَإِيَابًا،
مُرَاقِبًا الشُّوَارِعَ تَحْتَ. أَطْلَقَ شَتِيمَةً. ”أَعَلَيْكَ أَنْ
تَنْتَقِيَ مَكَانًا حَيْثُ يَسْتَطِيعُ أَيُّ شَخِصٍ وَأَخُوهُ أَنْ
يَرِيَاكَ؟“

ضَحِكَ بِي رَاي. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَخُوضَ مُخَاطَرَاتٍ
كِي يُرْسَخَ شُهْرَتَهُ. فَكُلَّمَا كَانَ الْمَكَانُ أَعْلَى، كَانَ
أَفْضَلَ. ”دَقِيقَتَانِ أُخْرِيَانِ بَعْدَ“.

”شُرْطَةٌ! عَلَى بُعْدِ صَفِي مَبَانٍ!“ وَجَذَبَ لَارِدُو
الْحَبْلِ.

لَهَتْ بِي رَاي وَشَتَمَ إِذْ حَزَّ حَبْلُ الْعُدَّةِ فَخَذَهُ مِنَ
الْدَاخِلِ. ”مَهَلًا!“ تَرَجَّحَ إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَتَشَبَّثَ
بِأَنْبُوبِ. أَلْصَقَ نَفْسَهُ بِجِدَارِ الْقَرْمِيدِ، وَلَبِثَ سَاكِنًا. لَقَدْ
لَيْسَ ثِيَابًا سَوْدَاءَ مِنْ أَجْلِ سَبَبٍ. لَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا إِذَا
نَظَرَ إِلَى فَوْقِ. وَرِجَالُ الشُّرْطَةِ عَادَةً يُبْقُونَ عُيُونَهُمْ
عَلَى مُسْتَوَى الشَّارِعِ، لَا أَرْبَعَةَ طَوَائِقِ. حَسَبَ كَمِ مِنَ
الْوَقْتِ سَيَسْتَفْرِقُ لَارِدُو كِي يُوَصِّلَهُ إِلَى السَّطْحِ. مَا

كانت المُشكِلة تَوَلِّي أمرِ سبعةٍ وسبعين كيلواً، ولكن كان عليه بعدُ أن يجمعَ عُدَّتَه وتجهيزاتِ الطَّلاءِ في حقيبتِه الظَّهرِيَّة. ظلَّ مُلتصِقاً بالجدار ونظَرَ إلى تحت دونَ أن يتحرَّك. أبطأت سيارَةُ الشرطَةِ، مُسلِّطَةً حُزْمَةً ضوئِ على الجِدار.

تفوّه بُيِّي راي بكلمةٍ تجديف. ”اسخَبني إلى فوق!“ وصَرَ بأسنانه حِيالَ قرصَةِ الأحزَمَةِ الشَّديدة إذ نثرَ لاردو الحبل. سقطت عُلبَةٌ طِلاءٍ من حقيبتِه الظَّهرِيَّة. انفجرت أمامَ السَّيَّارة. ترجَّحت حُزْمَةُ الضَّوءِ صُعوداً. وإذ أشاح لاردو وجهه قبل أن يتركز عليه الضَّوءُ الكشَّاف، جذبَ الحبلَ نترًا بِقوَّة، وتشبَّث بُيِّي راي بالجدار ثمَّ تدلَّى على السَّطحِ المُستوي.

إذ حلَّ بُيِّي راي أحزَمَةَ العُدَّة، مدَّ يدهُ لالتقاطِ حقيبتِه الظَّهرِيَّة. ”انسها!“ تأوّه لاردو. ”هيا بنا!“ وركَّضَ إلى الدَّرَج. ثمَّ توقَّف ونظَرَ إلى الورا.

قال له بُيِّي راي أن يهدأ. ”لم يروك، أُخي“. دَسَّ عُدَّتَه في حقيبتِه الظَّهرِيَّة وربماها على السَّطح في الجانبِ الآخر من المَمَرِّ. تراجعَ إلى الورا كِفايَةً ليَكسِبَ انبِطَاقَةً رَكِضٍ وقفَزَ عابِراً فارتطمَ ارتِطاماً شديداً وتدحرجَ حتَّى وقفَ على قَدَمِيه.

في مُنتصفِ الطَّرِيقِ عندَ صَفِّ المبانِي، انحنى وشاهدَ شُرطيَّينِ يَسْتَجوبانِ لاردو في الشَّارع. أفلتاه، وجالا في الجِوار وقتًا أطولَ بقليل، فاحصينِ

القَمَرُ بِالضُّوءِ الوَمُضِيِّ. ولَمَّا رَجَعَا أُخِيرًا إِلَى السَّيَّارَةِ
وَعَادِرَا، عَادَ بُيِّي رَايَ. لَمْ يَكُنْ لَارِدُو فِي رِفْقَتِهِ، فَكَانَ
عَلَيْهِ أَنْ يَرِبِطَ الحَبْلَ وَيَمشِي عَلَى الجِدَارِ نَزولًا.
اشتَغَلَ بِضَعِ دَقَائِقَ أُخْرَى، وَاسْتَعْمَلَ المِرْقَمَ الَّذِي كَانَ
قَدْ صَنَعَهُ مِنْ أَنْبُوبِ پِلَاسْتِيكِي لِيَكْتُبَ "BRD" (أَوَّلُ
أَحْرَفِ اسْمِهِ، وَاخْتِصَارُ "عصفور" بِالإنكليزية).

قال لاردو ناخِرًا فِي الأَسْفَلِ: "عَلِمْتُ أَنَّكَ مَا كُنْتَ
تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدَعَ الرِّسْمَةَ وَشَأْنَهَا".

صَعِدَ بُيِّي رَايَ إِلَى السَّطْحِ بِوِاسِطَةِ الحَبْلِ المُزْدَوِجِ
وَدَسَّ الحَبْلَ فِي حَقِيبَتِهِ. كَانَتْ الرِّسْمَةُ كَبِيرَةً كِفَايَةً
بِحَيْثُ تَجَذِبُ الأَنْتِبَاهَ، وَصَغِيرَةً كِفَايَةً لِتَكُونَ دَقِيقَةً
وَمُتَقَنَةً، وَمَرْسُومَةً حَيْثُ لَنْ يَتَسَرَّعَ المَتَطَوِّعُونَ
لِيُخَاطِرُوا بِحَيَاتِهِمْ أَوْ أَطْرَافِهِمْ كِي يُغَطُّوْهَا.

لَمَحَ شَخْصًا مَا فِي الشُّقَّةِ السَّكْنِيَّةِ عِزَّ الشَّارِعِ.
أَكَانَ الرَّجُلُ يُبَلِّغُ عَنْهُ أُمٌّ يَنْظُرُ إِلَى رِسْمَةِ الغَرَاْفِيْتِي
حَاسِبًا إِيَّاهَا تَحْسِينًا؟ ثَبَّتَ بُيِّي رَايَ حَقِيبَتَهُ عَلَى
ظَهْرِهِ وَتَسَلَّقَ سَلَمَ الحَرِيقِ نَزولًا لِإِيلاقِي لَارِدُو فِي
الشَّارِعِ.

جَعَلَ نَعِيقُ صَفَّارَةِ الشُّرْطَةِ نَبْضَ بُيِّي رَايَ يَقْفِزُ
قَفْزًا. أَطْلَقَ لَارِدُو سَاقِيَهُ لِلرِّيحِ. فَإِذَا كَانَ ضَخْمًا بِحِجْمِ
ظَهِيرِ دِفَاعِيٍّ، كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَهَسَ أَيَّ شَخِصٍ
يَعْتَرِضُ فِي طَرِيقِهِ. صَاحَ بُيِّي وَرَاءَهُ: "يَمِينًا!" فَفَهِمَ
لَارِدُو الرِّسَالَةَ وَتَوَجَّهَ يَسَارًا فِي مَمَرٍ. وَانْتَظَرَ بُيِّي رَايَ

كي يكتشفه الشرطيان قبل أن يستدرجها إلى
مطاردة رشيقة. وقد تدفق الأدرينالين في أوصاله،
مضاعفًا أحاسيسه.

كانت الشمس أخذةً في الشروق لَمَّا تسلق بُي راي
عبر النَّافذة إلى شَقَّةِ أبويه الأخيرين بالتنشئة. وكانا
يغطَّان في النَّوم غافلين.



الصَّبَاحُ التَّالِي، ماشى وِيت بُوي بُي راي في رواقِ
المدرسة الثانويَّة. ”أين كنتَ طوالَ هذا الصَّبَاح؟“
”نائمًا في البيت.“ كان تشكُّ، أبو بُي راي
بالتنشئة، قد أيقظهُ السَّاعةُ العاشرة وطلبَ منه أن
يذهب إلى المدرسة. لم يُرد أن يأتي مسؤولو
الخدمات الاجتماعيَّة ويضيِّقوا عليه الخناق بعدَ
الأسبوع الأخير. كان تشكُّ يقضي مُعظمَ وقته
مُتمدِّدًا أمام التِّلْفزيون، يرتشِفُ بيرةً بدويزر. وكان
يشتغلُ ليلاً في موقف سيارات. أمَّا جُوزي فكانت
تشتغلُ نهارًا في متجرٍ بقالة. وكان في وسع بُي راي
أن يعدَّ على أصابعه المرَّات التي فيها وُجدَ ثلاثتهم
في البيت في الوقت عينه. ثماني! دائمًا يومَ تُعيَّنُ
عاملةٌ اجتماعيَّة موعِدَ كشفِ ميدانيِّ.

ابتسمَ وِيت بُوي ابتسامَةً عريضة. ”هل رسمتَ
ذلك الوجهَ الأحمر على بنايةِ إلس؟ ذاك الذي يجعل

النّوافذ تبدو كغُيون؟“

”قبل شهر“.

”كان شخصٌ ما يلتقطُ صُورًا“.

ربّما من رجالِ الشُّرطة الذين يحتفظون بملفاتٍ عن رسّامي الغرافيتي العصائبيين. فلكلِّ رسّامٍ غرافيتي أسلوبه. وقد أرادَ بِيي راي لآثاره الفنّية أن تُحترَم، إنّما كان عليه أن يجدَ طُرُقًا كي يشتغلَ أسرع، أو ينتهيَ إلى السّجن.

تحدّثَ وِيت بوي ولاردو عن حفلةٍ أُخرى وشيكة. لم يكنِ بِيي راي مَعنيًا. كان ينبغي أن يدخلَ حصّةَ التّاريخ الأُميركي.

دفعَ الباب فانفتح، وانسلَّ إلى طبقةٍ في المؤخر. كان مستر نيومان يُحاضرُ مجددًا عن الحرب الأهليّة، ولكنّ أفكار بِيي راي سرّحت إلى بناية شارع إلس. يوّدُ أن يرسمَ على جدارها، من طرفٍ إلى طرف، رؤوسًا كلِّ منها بلونٍ مُختلف، وكلُّها بغيونٍ نوافذٍ قاتمة، وأبوابٍ كأنّها أفواهٌ مفعورة زاعقة، ضاحكة، قليلةُ الأسنان. كم غالونًا من الطّلاء يستلزمُ ذلك؟ سيحتاجُ إلى طاقمٍ يشتغلُ معه. وعليه أن يُبقي التّصميمَ بسيطًا حتّى يتمكّن الآخرون من ملئه بالألوان. وشيعوزُه مُراقبون ووقت. إنّما كانت المُشكلة أنّه يحبُّ أن يشتغلَ وحده، بوجود فتّى واحد يتولّى الجِراسة.

طَرَحَ شَخْصٌ قَاعِدٌ بِقُرْبِ بُيِّ رَايِ سَوَالًا عَنِ
أَسْلِحَةِ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَحْلَامِهِ. حَاوَلَ
أَنْ يُرَكِّزَ. كَانَتْ فِتْنَةٌ فِي الصَّفِّ الْأَمَامِيِّ تُدَوِّنُ
مُلَاحَظَاتٍ. كَانَتْ وَاحِدَةً مِنَ الْفَتَيَاتِ الْهَادِئَاتِ، وَقَدْ
أَبَقَتْ رَأْسَهَا مُنْخَفِضًا، وَكَانَتْ تَدْرُسُ بِكَدٍّ وَجِدِّ، وَتَحْلُمُ
بِالْخُرُوجِ مِنَ الْحَيِّ الْمُسْتَهْتَرِ. ثَمَّ فَتَحَ بُيِّ رَايِ دَفْتَرَ
مِلْحُوظَاتِهِ وَبَدَأَ يَرَسُمُ مُسَوَّدَةً. وَإِذَا قَلَبَ صَفْحَةً
أُخْرَى، رَسَمَ فَتَى عِصَابَةٍ عَلَى دَرَجِ سَيْتِي هَوْلِ
الرُّخَامِيِّ، وَفِي يَدِهِ مِحْفَظَةٌ مُسَطَّحَةٌ سَوْدَاءَ.

انْفَرَسَتْ يَدٌ فِي وَسْطِ رَسْمَتِهِ. أَجْفَلَ بُيِّ رَايِ. أَدَارَ
مِيسْتَرِ نِيُومَانَ دَفْتَرَ الْمِلْحُوظَاتِ وَتَأَمَّلَ الصُّورَةَ. ارْتَفَعَ
حَاجِبَاهُ فَوْقَ نَظَّارَتِهِ السَّوْدَاءِ الْإِطَارِ. "هَلْ تَدْرُسُ
الرَّسْمَ؟"
"لَا".

أَبْعَدَ الْمَعْلَمُ يَدَهُ. "الْامْتِحَانُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. فِي حَالٍ
لَمْ تَسْمَعْ. الْفُصُولُ مُدْرَجَةٌ عَلَى اللَّوْحِ الْأَسْوَدِ."
وَخَفَضَ صَوْتَهُ. "ارْسُمْ لِي عَسْكَرِيًّا كُونْفِدْرَالِيًّا
وَعَسْكَرِيًّا ائْتِحَادِيًّا، وَسَاحِسْبِيْهُمَا مِنْ قَبِيلِ الْبَحْثِ
الْفَصْلِيِّ الَّذِي لَمْ تُقَدِّمَهُ".

أَطْبَقَ بُيِّ رَايِ دَفْتَرَهُ مُتَجَهِّمًا، وَاتَّكَأَ إِلَى الْوَرَاءِ فِي
كُرْسِيِّهِ، مُرَاقِبًا مِيسْتَرِ نِيُومَانَ يَمْشِي إِلَى مُقَدِّمِ الصَّفِّ.
تَلَهَّفَ إِلَى الْحُصُولِ عَلَى عُلْبَةٍ رَشِّ طِلَاءٍ مِنْ مَارَكَةِ
كَرَايْلِنَ وَاقْتِحَامِ الْمَدْرَسَةِ لِيَتِمَكَّنَ مِنْ رَسْمِ شَيْءٍ أَكْثَرَ

تشويقًا من لائحةِ فُصولِ على لوحِ الطَّبشورِ الأسودِ اللّذيذِ ذاكِ. حتّى لو نظَّفَهُ البوّابُ قبلَ نهايةِ اليومِ. ولكنَّهُ سيُطرَدُ ويُنقَلُ من جديدِ. كان له أصدقاءُ هُنا. أرادَ أن يبقى.

مدَّ رِجلِيه، وهو يُفكِّرُ. سيُضطرُّ إلى القيامِ بشيءٍ من البحثِ في المكتبةِ إذا كان سيرسُمُ عسكريَّ الحربِ الأهلِيَّةِ.

لاقاهُ وِيت بوي ولاردو بقُربِ الخزائنِ. كان ثلاثتهمُ همُ الوحيدينَ الذينَ ما زالوا يرتادونِ المدرسةَ. أمَّا باقي أفرادِ العصابةِ فقد رسبوا وغادروا. وكانوا يقضونَ مُعظمَ أيَّامهم في مقرِّ ريبِر، لاعبينَ لُعبِ قيديو، وآكلينَ وجباتٍ سريعة، ومُدخِّنينَ القنَّبِ. كان ردُّ هُت، أخو ريبِر الأكبر، قد انضمَّ إلى كارِتلِ فعزَّجَ بعضَ الشُّبانِ الأثداء، وبقي بِيي راي في الظلِّ لدى إقبالهم. أحبَّ ريبِر أن يُمثِّلَ دورَ الزعيمِ في أثناء غيابِ أخيه. كان له طفلانِ تذكاريَّانِ تحتَ السَّنَتينِ من العُمرِ من فتاتينِ مُختلفتينِ. وكلَّما تباهى بهما، فكَّرَ بِيي راي في أمِّه. أكان ذلك ما حدَّثَ لها؟ حبَّ لها فتى ما فقط ليُثبِتَ أنَّه كان رجلاً، ثمَّ رماها وانتقلَ إلى أخرى؟

”هاي، عُصفور، استيقظ!“ لكم لاردو بِيي راي على كَتِفِه. ”أنتِ ذاهِبُ إلى الحفلةِ اللَّيلة، أم لا؟“

”لستُ في مزاجِ مواتٍ“. لقد جعلهُ القنَّبُ بطيئًا

وبليدًا، وقد رأى من الهيرويين والميث ما يكفي
لإبقائه بعيدًا عن المادّة. خَفَقَ عَرَضُ مِستَر نيومان
وراءَ عينيهِ كضداعٍ مُقبِلٍ. أحبُّ الذَّهابَ إلى المكتبة،
وإن كان قد تيقَّنَ بأنَّ لا أحدَ عَلمَ بزياراته. كانت
المكتبة مكانًا هادئًا مُثَبِّطًا. وقد آثَرَ أن يُطالِعَ على أن
يُنجزَ فرضًا. كما آثَرَ أن ينظُرَ إلى صُورٍ عن الحرب
الأهليَّة على أن يُصغِيَ إلى رِيبِر أو وُلَف يتحدَّثانِ
بشأن فتاتيهما. اللَّيلة على الأقلِّ.

الفصل ٤

التقت غريس صديقاتها شانيس تيسون وأشلي أوثول ونيكول توريس على غدائهنَّ المُحَبَّبِ يومَ الأحد بعد الكنيسة. بدت شانيس خائبة الأمل. ”أين رَجُلنا الصَّغير؟“

”هو في البيت مع سيلاه. كان مَحروورًا. قضيتُ مُعظَمَ الليل مُعتنيةً به صُعودًا ونُزولًا. كان أحسنَ هذا الصَّباح، ولكنه نَعسان.“ وقد نزلت غريس عندَ رغبة سيلاه في إبقاء صَمويل في البيت. أرادت أن تذهب إلى الكنيسة وتقضي وقتها الأسبوعي في الخارج مع الصَّدِيقَات. وكان لِقَاءُ الغَداءِ الأسبوعيِّ هذا قد صارَ حَبْلَ سَلامَةٍ. فالحديثُ مع صديقاتها ساعدها على تدبيرِ الأمورِ حسَنًا. وهي احتاجت إلى التَّحدُّثِ بشأنِ وضعها مع رومان ثيلاسكو وإلى استِطلاعِ آرائهنَّ.

أشلي، مُعلِّمةٌ في روضةِ أطفال، تعاملت مع الآباء والأُمَّهات المُهَيِّمينِ.

نيكول اشتغلت مُعاونةً في مؤسَّسةٍ قضائيَّة،

وكانت ذات شغفٍ معدومٍ الأمل بتشارلز، رئيسها
المهووس بالعقل.

شائيس، الجامحة، تخرّجت في جامعة نيويورك،
وأخذت إجازةً سنةً لثُسافر، ثمّ رست على وظيفةٍ في
استديو، حيثُ شكّلت ضمنَ فرقةٍ تصميم. وقد قابلت
نجومًا سينمائيين، وقالت إنهم لا يختلفون بتاتًا عن
أيِّ شخصٍ آخر، حتّى أولئك الذين ظنّوا أنّهم
يختلفون. والآنَ كانت تُخبر الباقيات عن آخرِ مهمّةٍ
لها في الوظيفة. ”يريدُ المدير أن يُصوّر فيلمًا في
يوتاه على مُنبسطات الملح. فذلك الموقعُ له تمامًا
منظرٌ كوكبٍ غريب“.

”أعليك أن تذهبي؟“ حلّمت أشلي بالسّفر إلى أيِّ
مكانٍ خارج كاليفورنيا. وإذ تعلّقت بروايات ريجنسي
الغرامية العتيقة الطّران، تآقت أن تذهبَ إلى إنكلترا
وتقيمَ في قصر، يُفضّل أن يكونَ قصرًا يُقيمُ فيه
عازبٌ مؤهّلٌ وأرستقراطيّ.

فقالَت شائيس شاخِرةً: ”ليس إذا تمالكثُ نفسي.
الجوُّ هناك أكثرُ حرارةً من الجحيم في الصّيف.
بُحيرةٌ مونو أقرب وأكثُر إمتاعًا، ولكنهم قالوا يوتاه،
ويوتاه تُقدّمُ ائتماناتٍ ضريبةً“.

”عندي كتابٌ عن بُحيرة مونو“. أفرغت أشلي
ثلاثةَ كُبيساتٍ من بديل الشُّكر سبلندا في قهوَتها.

ارتشفت نيكول قهوَتها سوداء. ”كان القسّيس

جاء على أسطوانة هذا الصباح. هو لا يتكلم عادة ساعة كاملة. خيّل إليّ أنه لن يتوقف بتاتاً.

”مضحك أن تتذمري“. تكلفت شائيس الابتسام.
”ما دامت عِظْته كانت عن التذمّر“.

ضحكَن كلهنّ معها. لَطالما تطلّعت غريس إلى هذا اللقاء طوال الأسبوع.

”أنتِ ساكتةٌ سكوّتا مُرَوِّعًا، غريس“. رفعت شائيس حاجبيها. ”كيف تجري الوظيفة الوقتية؟ لقد مضى على تسلّمها، كم، شهراً واحداً؟ ظننت أنك ستبقين أسبوعين فقط“.

”أفكّر في تقديم استقالتي“.

”لماذا؟“ بدت آشلين مفاجأة. ”رومان قبلاسكو مذهل! وهو رائع، وإذا كان ذلك غير كافٍ فهو عازب!“ حدّقت إليها الباقيات. ”بحثت عنه في غُوغل“. ومالت إلى الأمام، تواقّةً إلى المشاركة. ”بدأ يرسمُ الجداريات لَمّا كان مُراهقًا. والآن يرسمُ لوحاتٍ على القماش. هل عَلِمْتِ أن جامعي الآثار الفنيّة يصطفون للمزايدة على آثاره؟“

”ما زال يرسمُ جداريات“. أعطت غريس النّادلة طلبها وردّت لها القائمة. لقد استغرقت في النوم هذا الصباح ولم يتّسع وقتها للفطور. والآن كانت جائعةً جدًّا، ومُرَهقةً أيضًا. ”تعاقد على مشروع في سان ديبغو“.

تألقت عينا أشلي: "ماذا سيكونُ ذاك؟"

"حيوانات بريّة وحُمر وحشيّة مهاجرة عبّر السّيرينجتّي". رشفت غريس القهوة أملةً أن يُعطِيها الكافيين دفعةً ورفعةً.

لم تكن نيكول مَعنيّةً بالجِداريّة. "لماذا تُريدِين أن تُغادِرِي؟ إنّها الوظيفةُ الوحيدة التي تمكّنت من العُثور عليها".

أطلقت شائيس ضحكةً ساخرة. "رائع؟ عازب؟ وله صيْتٌ كلاعب؟" هزّت كتفيها لامبالاةً. "حسنًا، أنا أيضًا بحثتُ عنه في غُوغل". ورمقت غريس بنظرةٍ تأييد. "يُشبهُ باتريك كثيرًا جدًّا".

"في الواقع أنّه لا يُشبهُ باتريك في شيء. إنّهُ يشتغلُ بجدٍّ وكدٍّ، مثلًا. وپاتريك كان وسيماً ساحرًا. رومان فيلاسكو يتصرّفُ كدبٍّ، قدّمه عالقةً في فخٍّ. ما قابلتُ يومًا شخصًا ساخطًا جدًّا مثله، أو سريعًا في الخُروج عن طوره. كدثُ أستعفي في اليوم الأوّل. هو خائبٌ من عمّله، لا عملي. لا أظنُّ أنّهُ يحبُّ ما يعمّله". حطت فنجانَ قهوتها. "عند الرّجلِ أروغُ إطلالةٍ رأيثها يومًا، وهو لا يُوليها أكثرَ من نظرةٍ عابرة. لقد حوّل غرفةَ نومه الرئيسيّة إلى المرسمِ الفنّيّ لديه. اعتقدُ أنّهُ يرسمُ على الجِدَارِ الخلفيّ ثمّ يُغطّي أيّ شيءٍ يصنّعه بلونٍ قبيحٍ يُشبهُ مُستنقعًا مُوحلًا. تكفي لُغته الفظة لِقشرِ الطّلاء".

بَدَتْ شَانِيسَ قَلِقَةً. "أَهُوَ مُعَنَّفٌ لِكَ لَفْظِيًّا؟"

"لا. إِنَّهُ مُتَأَدِّبٌ عَلَى حَذَرٍ عِنْدَمَا أَكُونُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الْبَيْتَ فَارِغٌ فِعْلًا، وَصَوْتُهُ يُدَوِّي".

"لَا بُدَّ أَنْ تَكُونِي مُنْجَذِبَةً إِلَيْهِ". بَدَتْ أَشْلِي حَالِمَةً الْعَيْنَيْنِ. "أَعْنِي، أَيُّ فَتَاةٍ لَا تَنْجَذِبُ إِلَيْهِ؟"

"الْجَمِيلُ جَمِيلٌ بِقَدْرِ مَا يَعْمَلُهُ، كَمَا كَانَتْ جَدَّتِي تَقُولُ". رَنَّ تِلْفُونُ شَانِيسِ. نَظَرَتْ إِلَيْهِ نِظْرَةً عَابِرَةً، وَحَوَّلَتْهُ إِلَى وَضْعِ كَتَمِ الصَّوْتِ. "لَدَى غَرِيسٍ سَبَبٌ يَجْعَلُهَا حَذِرَةً".

كَانَتْ غَرِيسٌ مُوَافِقَةً تَمَامًا. "ارْتَفَعَ دِفَاعِي دَقِيقَةً رَأَيْتُهُ". "لِمَاذَا؟" تَأَمَّلَتْهَا نِيكُولُ.

تَجَنَّبًا لِلتَّفْحُصِ، خَفَضَتْ غَرِيسٌ نَظْرَهَا وَهِيَ تُمَلِّسُ فُوطَتَهَا عَلَى حِضْنِهَا. "إِنَّهُ يَعِيشُ الْحُلْمَ الْأَمِيرَكِيِّ وَيَبْدُو أَنَّهُ يَكْرَهُ حَيَاتَهُ. ذَلِكَ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي الْأَحْظُهُ كُلَّمَا كَانَ لِي مَعَهُ حَدِيثٌ يَطْوُلُ أَكْثَرَ مِنْ دَقِيقَتَيْنِ". وَأَخْرَجَتْ نَفْسَهَا. "الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّنِي مُرَهَقَةٌ.

فَالذَّهَابُ إِلَى الْعَمَلِ يَوْمِيًّا قَدْ يَسْتَغْرِقُ سَاعَتَيْنِ، وَكَذَلِكَ الْعَوْدَةُ مِنْهُ. وَمِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّ عِنْدِي سَاعَةً لِالْأَلْعَابِ صَمُوِيلِ. لَنْ تَكُونَ لِي بَتَانًا الطَّاقَةُ الَّلَّازِمَةُ لِحُضُورِ صُفُوفٍ عَلَى الْإِنْتَرْنَتِ. ثُمَّ إِنَّ الْأَجْرَةَ لَيْسَتْ جَيِّدَةً جَدًّا. لَا أَعْلَمُ كَمْ يَدْفَعُ لَوِكَالَةِ التَّوْظِيفِ الْمَوْقِفَتِ، وَلَكِنِّي لَا أَكَادُ أَتَمَكَّنُ مِنْ سَدَادِ مَصَارِيفِي. أَحْتَاجُ إِلَى وَظِيفَةٍ مُنْتَظِمَةٍ ذَاتِ مَرَدُودٍ أَفْضَلَ لِكِي

أتمكّن من الاستقلال مُجدِّدًا“.

تجهّمت نيكول. ”أيدفَعُكِ آل غارسيا إلى
المُغادرة؟“

”لا، ولكن سيلاه تتولّى كل شيءٍ تمامًا. أظنُّ أنّها
مسرورةٌ لغيابي طولَ النهار“. رمشت بعينيها حابسةً
الدمع. ”صمويل آخذ في التعلّقِ بها كثيرًا“.

مالت شانيس إلى الأمام. ”ما زلتِ أنتِ أمّه،
غريس“.

”هل يعلمُ هو ذلك؟“

”لا شكَّ أنّه يعلم، حبيبتى“.

”أحسنُ لكِ أن تُحافظي على الوظيفة حتى
تترتّب لكِ أخرى“. هكذا اقترحت نيكول.

وقاطعت أشلي مُوافقةً: ”هذا رأيي أنا أيضًا“.
حتى مع كونها مُثبّتةً، لم تحسب وظيفتها التعليمية
تحصيلَ حاصل. إذ كان مُمكنًا أن تستدعي موازنة
مدرسةِ المنطقة تسريحاتٍ مُوقّفةً.

”أعلمُ ذلك، ولكن ما يزال ينبغي لي أن أجرب.
لديّ مُقابلتان وشيكتان. لقد أضفيتُ النظامَ على
مكتبِ مستر ثيلاسكو أصلًا. فلن تلقى المُساعدةُ
الوقتيةُ التاليةُ أيّة مُشكلة في الحفاظ على النظام
المُتّبع، إذا وُظف بديلةً بِسرعة“.

”يبدو كأنّه راضٍ بما هي الأمورُ عليه“.

نظرت غريس إلى شانيس: ”أنا على يقين بأنه راضٍ، وعلى يقينٍ أيضًا بأنه ما إن يُعلم الأمر حتى تصطف النساء عند الباب، تواقاتٍ أن يخلفنني“.



كان رومان يعلم دائمًا متى دخلت غريس مور المرسم، إذ يتغيّر الهواء في الغرفة. لقد كانت ذات حضورٍ هادئٍ مُريحٍ في المنزل. كان قد فرغ من نقلِ رسمة، ويأخذ استراحة، مُسوّدًا أفكارًا لسلسلة لوحاتٍ قماشيةٍ أخرى، فيما تظاهر بأنه لم يعلم أنها في مدخل الباب. تثنّحت مُنظفةً حنجرتها بلطف. فنظرت من فوق كتفه. ”ماذا هناك؟“

دست خصلةً شعرٍ قصيرةً خلف أذنها. حركةٌ تؤثر؟ ”ينبغي لي أن أغيرَ باكراً الأربعاء والجمعة في الأسبوع المقبل. في برنامجي مُقابلتنا عمل“.

تسارع نبضه. خيل إليه أن كل شيءٍ كان يجري حسناً تماماً. ”لديك عقلٌ فعلاً. أنت تشتغلين عندي“.

”أنت تدفع لوكالة التوظيف الوقتي لقاء خدماتي، مستر فيلاسكو، وأنا قلت لك. أنا بحاجة إلى وظيفة أفضل أجره، أقرب إلى البيت“.

”هل تتأخرين في الوصول إلى البيت لإعداد عشاءٍ لشريكك؟“ لم تكن تلبس خاتماً، ولكن ذلك لم يعن أن ليس في حياتها شخصٌ آخذ ذو شأن.

”كلُّ شيءٍ تَنْظَمُ في المكتب، وأنا...”

”أين تسكنين؟“ واجهها رومان، مُصَمِّمًا أن يُسَوِّيَ أيَّ أمرٍ يحتاج إلى تسوية.

”في بُربانك“.

”ليس المكانُ بعيدًا جدًّا. أقلُّ من اثنين وثلاثين كيلومترًا بِخَطِّ مُستقيمٍ كما يطيرُ الغرابُ“.

”لستُ غرابًا. أقضي ساعاتٍ في سيارتي كلَّ يوم، وقتًا كنتُ...“ وتردَّدت. ”وقتًا أفضلُ أن يُصَرَّفَ في شؤونٍ أُخرى“.

أيُّ شؤونٍ أُخرى، أرادَ أن يسأل، ولكنَّهُ تصوَّرَ أنَّها ستقولُ له إنَّ ذلكَ ليس من شأنه بتاتًا. صحيحٌ أنَّ ذلكَ لم يكن من شأنه، ولكنَّهُ ما زالَ يُريدُ أن يعرف. وهي ما كانت تُتيحُ له فُرصةً كي يتفحَّصَ مُتطفلاً.

”مكتبك مُنظَّم، وقد كتبتُ دليلَ إجراءاتٍ لمُساعدتك الشخصية التالية. لستُ مُغادرةً في الحال، ولكني فكَّرتُ أنَّه ينبغي لي أن أُعلِّمك بأنني سأغادرُ حالما أوفِّقُ إلى وظيفةٍ أكثرَ نفعًا لحاجاتي.“ ثمَّ تراجعتُ خطوةً، مُوضحةً أنَّها تواقَّةٌ إلى وَضِعِ حَدِّ للمُحادثة.

”ليس عاجلاً هكذا“. دفعَ المقعدَ إلى الورااء مُحدثًا صريفًا. ”لن أوظِّفَ مُساعدةً وقتيَّةً أُخرى“.

”القرارُ لك“. هزَّتْ كتفيها كأنما لم يُهمَّها ما يفعله. ”نظامُ حفظِ المَلفاتِ دقيق. في وسعك أن تتولَّى

أمره بنفسك“.

”أخِرُ أمرٍ أريده هو أن أكون خادِمَ مكتب“.

رفعت ذقنها. ”ليس ذلك تمامًا ما أحلمُ بفعله أنا أيضًا ما بقي من حياتي. لديك خيارٌ توظيف شخصٍ ما ليفعله لأجلك“.

تمتم رومان بشتيمة همسا. ”انظري! نعملُ جيّدًا معًا. ماذا ينبغي لي أن أفعلَ لأُبقيك هنا؟“
”نحنُ لا نعملُ معًا“.

”أنتِ تقومينِ بعملِكِ لأتمكّن أنا من القيامِ بعلمي. تلكَ هي الطّريقةُ التي تروّقني. لا يُعجبكِ البَدلُ الماليُّ. حسنًا. سادفَعُ الرّسمَ، ويُمكنكِ أن تشتغلي عندي بدلًا من الوكالة. لا يُعجبكِ السّفَرُ يوميًا. حسنًا. يُمكنكِ أن تسكّني في كُوخِ ضيوفي. كلتا المشكلتينِ حلّتا“. بدت سيماءُ وجهها مُهينّةً. ”ما خطبُ العَرَضِ؟ لستُ طالبًا منكِ أن تنتقلي لِتسكّني معي. أنتِ لستِ من النّوعِ المُفضّلِ عندي، وفي وسعي أن أضمنَ أنّي لن أكونَ مُزعجًا لكِ“. لم يدرِ أكانَ احمرارُ وجهها بسببِ الغضبِ أم الخيبة، ولكنّه علِمَ أنّه قد قالَ أكثرَ ممّا يكفي“.

”وماذا سيقولُ الجيرانُ؟“

لم يستطع أن يعرفَ هل كانت جادّةً أو هازلةً. ”أيُّ جيرانٍ؟ حتّى لو كانَ لي جيرانٌ قريبون كفايةً ليروا كلَّ شيءٍ، فلماذا يعينهم ما نفعلُ؟“

”لي صديقات، حتى لو لم يكن لك“.

حنت ظهرها خفيضا. ارادت ان تغادر. ايسببه؟ ام
وجدت اسباب اخرى. اطبق رومان اسنانه باحكام.
ثري، ماذا كانت علة هذه المرأة؟ ”نحن راشدان، مز
مور. الاصدقاء الطيبون لن يقولوا لك كيف تعيشين.
حياتك هي شأنك الخاص“.

”صديقاتي يبقيني مسؤولة ومحاسبة“.

”اماهن؟“

”الله يهه ما افعل، مستر قيلاسكو، وصديقاتي
يحببني كفاية ليرفعن لافتة تحذير اذا كنت سائرة
في الطريق الرديء“.

الله؟ كيف دخل الله في هذا الحديث؟ لم يفهم
رومان ما كانت تتحدث بشأنه. كل ما علمه انه لم يرد
ان يخسرهما. على رسلك، ببي راي. تكلم على مهل،
بمنطق، فيما هو يفكر بسرعة. ”ادعيهن الى هنا.
دعيهن يتفرجن“. وجرب شيئا من الفتنة. ”كوخ
مجانى الإيجار في ثوينغا كانيون؟ سيخيل إليهن
أنك مت وذهبت إلى السماء“.

”إلى أن يقابلنك!“

كان في وسعه ان يعي أنها لم تعن ان تقول ذلك،
اذ تورد خداها قرمزيين. ”جيد“. اطلق ضحكة
خفيفة بلا مرح. لم تقدم اعتذارا. امال رأسه، رامقا
إياها بنظرة سخرية. ”لم أقل إنه ليس لك ان تدعيهن“

إلى بيتي“. لم تستطع احتمال حملته. ”ما عليك إلا التفكير في الأمر، مز مور. سأعطيك في البداية ما أدفعه للوكالة“. ولما قال كم كان المبلغ، اتسعت عيناها. ”أضيفي المسكن المجاني إلى تلك العلاوة، تجدي أنك ستحظين بدخل لا بأس به، أليس كذلك؟“ استطاع أن يراها تجري حسابات أصلاً، لكن مجريةً أيضاً تفكيراً داخلياً لثري هل يستحق العرض أن تشتغل عنده. ما كان له قط ذلك التأثير في امرأة من قبل. أعاد ذلك كله إلى سوء تصرفه في اليوم الأول؟ أم كان ليكرهها دوراً أكبر؟

”سيكون عليّ أن أدفع لك بدل إيجار“.

هل كانت من كوكبٍ آخر؟ ”الكوخ جايم هناك فحسب، خالياً“. على الأقل، بدأت تنظر في الفكرة. ”وكما تعلمين أصلاً، لست بحاجة إلى المال“.

”رغم ذلك، لن أكون ضيفتك، مستر ثيلاسكو. سأكون مستأجرة عندك“. بدت ممسكةً بنفسها، وأضافت بسرعة: ”إذا وافقت على الترتيب، الأمر الذي لم أفعله“.

إلا أنه استطاع أن يراها آخذةً في الضعف. ما اضطرَّ قط إلى التفاوض مع امرأة، ووجد ذلك مقلِّقاً على نحوٍ غامض. لعلها أحست أنه لم يكن ما تظاهر بكونه إيّاه. ”من شأن ذلك أن يحل جميع مشاكلك، صحيح؟“

”ليس جميعها“. تراجعت خطوةً أخرى. ”أحسن لي أن أمضي إلى العمل“.

أي مشاكل أخرى كان لديها؟ ”قلت إنك في وضع مُربكٍ تمامًا. لماذا لا نتحدث؟“

”مهما كان ما أقرّره، مستر قيبلاسكو، أقدر عرضك“.

ما قابل قط أي شخص أقل منه رغبةً في الكلام عن نفسه. ”لا بأس، إنما فكري في الأمر مليًا بانتباه قبل أن تقولي لا“.

”سأفعل ذلك“.

كلّما أكثر رومان التفكير في الأمر، أحبّ على نحو أفضل فكرةً كون غريس مور جارتة الملاصقة.



اتصلت غريس بصديقاتها، واتفقن على التحدث بالأمر في أثناء غداء الأحد. اصطحبت صمويل هذه المرّة، واحتفن كلهنّ به. أحبّ الاهتمام به. فتّشت في عمق حقيبتها المحمولة عن طعام أطفال، ثمّ أعطته قنيّة فيما الباقيات يتحدثن بشأن عضوٍ جديد في فرقة التّسبيح كان يُعلم مجموعة درس الكتاب المقدّس مساءً الأربعاء. وذكرت غريس عرض رومان.

نسيت أشلي كلّ ما يتعلّق بعازف الغيتار الجديد

الذي يُشبهُ صوته صوت جوش غروبان. ”ماذا تنتظرين، غريس؟ إنَّه ليس طالبًا منك أن تنتقلي لتسكني معه. سيكونُ لك مسكنك الخاص من جديد. أليس ذلك ما تريدينه؟“

لم تكن نيكول متشوقة كثيرًا. ”أحسنُ لك أن تتيقني بحيازة سند إيجار مكتوب. فبمعزل عنه، يمكنه أن يُغيّر القواعد ساعة أراد.“

”مهلاً، يا صديقات.“ قاطعت شانيس. ”من الواضح أن غريس تؤدي عملاً عظيمًا، وإلا فما كان الفتى ليقدّم عرضًا سخياً هكذا بإبقائها تشغّل عنده.“ ونظرت إلى غريس ”ما أريدُ أن أعرفه هو ما يجري هنا سوى ذلك.“ ثم رفعت حاجبَيْها. ”هيا، يا فتاة. أفصحي.“

هزت غريس رأسها. ”لا شيء يجري.“

”هل صليت بشأن الأمر؟“

”باستمرار. ما زلتُ أصلي.“ نظرت غريس إلى الثلاث. ”يبدو الأمر هدية من الله، أم أنا مُستميته فحسب لأجد آية طريقة كي أعيش مُستقلة من جديد؟ هذا يحلُّ مشكلةً واحدة، ولكنه يُوجدُ أخرى.“

تكلّمت نيكول بلا تردّد. ”سيُعطيك ذلك دعمًا كبيرًا على الصّعيد المالي.“

وافقت أشلي: ”ويوفّرُ عليك كاملَ الوقت على

الطريق“.

فقلت غريس بصوتٍ مُتهدِّج: ”وماذا بشأنِ صمويل؟“

وضعت شانيس يداً فوق يد غريس. ”سيلاه وروبن سيرغيانه أيامَ الأسبوع، وسيكونُ لكِ وحدكِ يومي السبت والأحد. ذلك وقتُ فرديّ أطولَ ممّا تحضّلين عليه الآن“.

أضافت شانيس: ”في وسعكِ أن تحضري صفوفَ دريس على الإنترنت. مضتُ مُدَّةً لا بأس بها منذُ توافرَ لكِ الوقتُ أو المال للرجوع إلى مقاعدِ الدِّراسة. فبدلاً من ثلاثِ ساعاتٍ على الطريق، سيكونُ لديكِ ثلاثُ ساعاتٍ من وقتِ الدِّرس“.

كافحت غريس الدُّموع. نظرتُ إلى صمويل نائماً على ذراعَيْها. ”لستُ أعلمُ ما أفعل. لا أريدُ أن ارتكبَ مزيداً من الأخطاء“.

اغزورقتُ عينا شانيس الداكنتان. ”نلتِ فوقَ حصّتكِ من الهمِّ والغمِّ، حبيبتِي، ولكنْ أحياناً ما يبدو كهديةً هو هديةٌ حقاً“.

”أريدُ فقط أن أتيقنَ بأنني لستُ مُعرّضةٌ نفسي لمزيدٍ من البلاء. إذا لم يكنْ لديكِ جميعاً مانعٌ ما، أوْدُ أن تذهبنَ وتزيّنَ المكان، وثقابِلنَ مستر رومان فيلاسكو. أريدُ معرفةً انطباعاتِكُنَّ عن الرّجل قبلَ أن أُرَدَّ له أيّ نوعٍ من الجواب“.

قالت غريس لِزُومان صباحَ الاثنيْن إنَّها استشارت ثلاثَ صديقاتٍ لها. ”إنَّهنَّ مُتفرِّغاتٌ صبيحةَ السَّبتِ، إذا كان ذلك مُلائمًا لك. لن نقتطِعَ كثيرًا من وقتك“.

انفَعَرَ فمُه. ”تعينِ أنَّهنَّ بِصدَدِ فحصي لِيتأكَّدَ لهنَّ أنِّي لستُ ذئبًا ما يُطارِدُ حملاً“. وانتظَرَ، مُخلفًا لَدَياها شعورًا بأنَّ عليها أن تقولَ شيئًا ما. ولكنَّ ماذا؟ لم يَكُن في وسعها أن تتظاهرَ بأنَّها تثقُ به. إنَّها لم تكَدَ تعرفُ الرَّجُلَ، وغرائزُها قد خذلتها قبلًا. لقد بدا كلُّ شخصٍ عارفًا أيِّ نوعٍ من الرَّجال كان پاتريك. فكيف كانت عمياءَ تمامًا؟ لقد فتنتها نظراتُه وشعبيُّته أوَّلَ الأمر. وفي ما بعدُ أرادت أن تُصدِّقَ ما قاله. لقد أهملتُ لافتاتِ التَّحذيرِ وأقدمتُ باندفاعٍ، مُقنعةً نفسَها بأنَّها أحبَّته. فكانت الحقيقةُ صفةً باردةً على وجهها، وهو لم يُحاولِ تخفيفَ الضَّربة.

”حسنًا، مز مُور“. قَطَّبَ قِيلاسكو حاجبيَه. ”تخميني أنَّ الفتاةَ لا يمكنُ أن تُبالغَ في حرصِها هذه الأيام، صحيح؟ أما زلتِ تنوينَ الذَّهابِ إلى المُقابلتين؟“

”نعم“.

”لا تتوقَّعي مِنِّي أن أتمنَّى لك التَّوفيقَ“. ودخلَ مرسَمَه مُنزِعًا.

يومَ الأربِعاء، صلَّتْ غريس طولَ النَّهارِ لأجلِ المُقابلةِ الأولى، في مبنى مكاتبِ وسطِ المدينة.

اللَّهُمَّ، إِذَا كُنْتَ أَنْتَ وَرَاءَ هَذَا، فَرَجَاءً أَعْطِنِي رِسَالَةً
وَاضِحَةً. سَأَكُونُ جَارَةً مُلَاصِقَةً لِرُومَانَ قِيلَاسِكُو.
سَيَكُونُ هُوَ رَئِيسَ عَمَلٍ وَمَالِكًا وَجَارًا. هُوَ مِيَاهُ
عَمِيقَةٍ، يَا رَبُّ، وَأَنَا سَابِحَةٌ سَيِّئَةٌ.

أَعْطَتِ مَوْظِفَةً لِالاسْتِقْبَالِ غَرِيسَ أُورَاقًا كِي
تَمَلَّأَهَا. جَلَسَتْ فِي عُرْفَةٍ انْتِظَارٍ مَعَ سِتِّ نِسَاءٍ أُخَرَ
تَبْدُو عَلَيْهِنَّ الثَّقَّةُ بِالنَّفْسِ، بَعْضُهُنَّ يَحْمِلُنَّ حَقَائِبَ
جَلْدِيَّةٍ مُسَطَّحَةٍ، لِابْسَاتٍ بِرَّاتٍ مُصَمَّمَةٍ وَأَحْذِيَّةٍ غُلُوُّ
كُعُوبِهَا سَبْعَةٌ سَنْتَمِيتَرَاتٍ. وَلَمَّا جَاءَ دَوْرُ غَرِيسِ،
صَافَحَهَا الْمَسْئُولُ وَجَلَسَ مُقَابِلَهَا وَرَاءَ مَكْتَبِهِ
الْمَصْنُوعِ مِنْ خَشَبِ الْمَاهُوغَانِيِّ الْمَصْقُولِ. كَانَ أَصْلًا
قَدْ دَرَسَ طَلَبَهَا وَشُهُودَهَا، وَكَانَ لَطِيفًا. دَامَتِ الْمُقَابَلَةُ
سِتَّ دَقَائِقَ. شَكَرَهَا عَلَى مَجِيئِهَا وَتَمَنَّى لَهَا الْخَيْرَ.

فِيمَا مَشَتْ رَاجِعَةً إِلَى سَيَّارَتِهَا، نَبَّهَهَا تَلْفُونُهَا أَنَّهَا
قَدْ فَوَّتَتْ مُخَابِرَةَ. وَبَلَّغَتْهَا الرِّسَالَةَ أَنَّ مُقَابَلَتَهَا يَوْمَ
الْجُمُعَةِ قَدْ أَلْغِيَتْ لِأَنَّ الْوِظِيفَةَ قَدْ شُغِلَتْ.



اصْطَحَبَتْ غَرِيسَ صَمُويلَ صَبَاحَ السَّبْتِ. كَانَ الطَّرِيقُ
الْخَاصُّ الْمُوَدِّي إِلَى مَنْزِلِ رُومَانَ قِيلَاسِكُو صَعْبًا
تَمَيِّيزُهُ، فَتَوَقَّعَتْ وَانْتَضَرَّتْ بِجَانِبِ الطَّرِيقِ الْعَامِّ
تَمَامًا، حَيْثُ تَسْتَطِيعُ شَانِيسَ أَنْ تَرَى سَيَّارَتِهَا
بِالتَّأَكِيدِ. وَقَبْلَ بَضْعِ دَقَائِقَ مِنْ مَوْعِدِ وَصُولِهَا
الْمُتَوَقَّعِ، هَدَرَتْ سَيَّارَةَ شَانِيسَ الْقَوْلِقُو الصَّفْرَاءِ حَوْلَ

الْمُنْعَطَف. زَمَرَتْ غَرِيْس. زَعَقَتْ مَكَابِحُ شَانِيْسِ إِذْ
انْعَطَفَتْ إِلَى الطَّرِيْقِ الْخَاصَّةِ الْمَرْصُوفَةِ بِالْحَصَى.
تَقَدَّمَتْ غَرِيْسُ الطَّرِيْقَ حَوْلَ سِنْدِيَانِ الْوَادِي الْبَاسِقِ
وَعَلَى الْمُنْحَنِ الْمُوْصِلِ إِلَى الْبَيْتِ الرَّئِيْسِيِّ.

نَظَرَتْ غَرِيْسُ فِي مِرَاةِ الرُّوْيَةِ الْخَلْفِيَّةِ، فَرَأَتْ
صَدِيْقَاتِهَا يُحَدِّقْنَ فَاغْرَاتِ أَفْوَاهِهِنَّ إِلَى بَيْتِ رُومَانِ
قِيْلَاسِكُو الْحَجْرِيِّ الْعَصْرِيِّ الثُّبْنِيِّ اللَّوْنِ، وَقَدْ بَدَأَ
حَصْنًا مَدْسُوسًا فِي جَانِبِ التَّلِّ. بَدَتْ مُسَطَّحَاتُ
الْأَسْمَنِ الْمُرْبَعَةِ عَائِمَةً فِي بَحْرِ مِنَ الْحَصْبَاءِ
السُّودَاءِ، صَعُودًا إِلَى أَبْوَابِ خَشْبِيَّةٍ مُزْدَوِجَةٍ مَحْفُورَةٍ
ثَقِيْلَةٍ، حَيْثُ وَرْدِيَّاتُ زِيْنَةِ زَرْقَاءِ-خَضْرَاءِ وَقَرْنُقْلِيَّةٌ
وَبِنْفَسَجِيَّةٌ مِنَ الْإِتْشِيْقِيْرِيَا وَالصَّبَّارِ الشَّائِكِ، تَهَدَّلَتْ
فَوْقَ وَعَائِيْنِ كَبِيْرِيْنِ مِنَ الطُّيْنِ. وَبَدَلَ الْبَقَاءِ عَلَى
الدَّائِرَةِ الْمَرْصُوفَةِ بِالْحَصْبَاءِ، سَلَكَتْ غَرِيْسُ الطَّرِيْقَ
الْقَصِيْرَ إِلَى الْيَمِيْنِ وَتَوَقَّفَتْ عَلَى مَقْرِبَةٍ مِنَ الْكُوحِ.

تَوَقَّفَتْ شَانِيْسُ وَرَاءَ غَرِيْسِ وَنَزَلَتْ مِنْ سِيَّارَتِهَا.
”شُكْرًا عَلَى انْتِظَارِنَا. لَوْلَا رُؤْيَةُ أَشْلِي لِسِيَّارَتِكَ،
لَفَوَّتَ الطَّرِيْقَ الْخَاصَّةَ“.

”أَعْرِفُ. لَقَدْ فَوَّتُهَا أَنَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي أَوَّلِ يَوْمِ
عَمَلِي لِي“. حَلَّتْ غَرِيْسُ مَقْعَدَ صَمُوِيْلِ فِي السِّيَّارَةِ
عَنْ قَاعِدَتِهِ. كَانَ مَا يَزَالُ نِصْفَ نَائِمٍ، وَرَاحَ يَمْضُ
إِصْبَعَهُ إِذْ تَقَدَّمَتْ غَرِيْسُ الثَّلَاثَ إِلَى مُقَدَّمِ الْبَيْتِ.
أَحَاطَ بِالْفِنَاءِ الْمَرْصُوفِ حَائِطٌ حَجْرِيٌّ مُتَقَوِّسٌ، وَكَمَّلَتْ

الفناء حُفْرَةٌ نار. تمهَّلت أشلي ونيكول للتعليق على منظر الوادي الرائع، فيما أخذت شانيس مقعدَ صمويل المحمول حتى تتمكن غريس من التفتيش في جيبها عن المفتاح الذي سبق أن أعطها رومان إياه.

ما إن تقدّمت غريس إلى الدّاخل، حتى علّمت أنّها كانت في بلاءٍ شديد. تبيّعتها شانيس عن قرب وحدّقت فاغرةً فمها.

كانت حُجرة الجلوس وحدّها أكبر من الشّقة التي شاركت غريس باتريك فيها. وكان المطبخ صغيرًا، لكن فعّالًا، وكلُّ شيءٍ ينمُّ عن الفنّ الرّفيع. فبدلًا من مُشَمِّع الأرضيات، كانت الأرضية من التّراقرتين الغالي الثمن والقشديّ اللّون. وقفت غريس جامدةً مصدومة. وإذ انتشت أشلي ونيكول سرورًا، تخطّتاها ومضتا تستكشِفان.

صاحت أشلي: "أوه، واو! هيّا انظري عُرفة النّوم!" تبيّعتها غريس خدرةً وحمَلت. أثاثُ عُرفة نومِ ذي سرير كاليفورنيانيّ ملوكيّ الحجم سيلائم بسهولة، إذا كان لديها مثله. من شأن سريرها المُزدوج ومنضدتها اللّيلية أن يضيعا هنا. وقد انفتح بابٌ إلى خزانة ثياب يُدخَل إليها أكبر من عُرفة نومها في بيت آل غارسيا.

"انتظري حتى تذي الحمام!" ضحكت أشلي وقد

أخذها العَجَب.

أبدت غريس إعجابها بالأرضية والرف المصنوعين من الرُّخام الأصفر والأبيض، ومغسلتي الخزف الصيني البيضاوين بمُثَبَّاتِ الكروم اللّماعة، وحوض الجاكوزي الكبير كفاية بحيث يتسع لشخصين.

دخلت نيكول المرحاض الصّغير المخفي وكبست السيفون. فزعقت بابتهاج: "إنه مرحاض وبيديه مُدمجان!"

فتحت أشلي باب مُستحم. "يوجد دش فوقني ونوافير في الجدران!"

"وتتساءلين هل ينبغي أن تنتقلي إلى هنا؟" ضحكت نيكول. "هذا المكانُ خلّاب!"

"خففن الانفعال، يا بنات". تكلمت شانيس بحماسة أقل. "ما زال علينا أن نُقابل سيّد القلعة".



فكر رومان بينه وبين نفسه أيلبش جينزه وقميصه العاديين، أم يرتدي بنطلونا رسميا أكثر يدش تحته قميصا مُزَرَّرًا، ولكنه علم أن غريس سيُداخلها الارتياب في الحال. وهكذا ارتدى على عجل زيّه المألوف، جينزا أسود وقميص يولو أزرق داكنا، دش مُقدّمه وراء إبزيم مرساة نحاسي. ومشط شعره بأصابع يديه. ربّما كان ينبغي أن يحلق وجهه، ولكنه

لم يُرد أن يبدو كأنَّ هذا اللقاء كان أكبرَ حدثٍ في نهاية أسبوعه. حتَّى لو كان كذلك.

لماذا ينبغي أن يهَمَّه رأيُّ هذه الفتاة على كلِّ حال؟

لأنَّها كانت ذاتَ مَنْزِلَة، ووجودها بِقُربه ذكَّره كم ارتفعَ عاليًا في العالم. على خِلافِ النِّساءِ الأخر اللواتي أردنَ فقط أن يجذبَنه نُزولًا من جديد.

رأى رومان السَّيارتين تَصِلان من النَّافذة العُليا، ولكنَّهُ انتظرَ عشرينَ دقيقةً أُخرى قبل أن يتمشَّى على المِجازِ المرصوف بين البيت الرِّئيسيِّ والكوخ. إذا قِبَلتَ عرضه، فَسَتَكُونُ ساكنةً على بُعدِ ثلاثِ مئة متر تقريبًا. لن يكون وحده تمامًا هنا في الخارج. إنَّما لم يَكُنْ ذلك قد أزعجَه كثيرًا حتَّى الآن.

كان البابُ الأماميُّ مفتوحًا، وقد تهادت إلى الخارج أصواتُ نساءٍ مُتحمِّسةٍ بهيجة. والمؤسِفُ أنَّ صوتَ غريس لم يَكُنْ أحدها. قرَعَ البابُ إيذانًا بحضوره. ظهَرتَ غريس، تنمُّ سِيماؤها عن إِغاز. "كُنَّا نتفرَّج فحسب".

"أعرف".

تنحَّت جانبًا لِيتِمكَّنَ رومان من الدُّخول، وعرَّفته إلى صديقاتها الثلاث. حدَّقت إليه أشلي، الشَّقراءُ على احمرار، بعينين زرقاوين واسعتين. وهزَّت نيكول يدهُ بشِدَّة وحرارة. وبدت شانيس أقربَ إلى

فتاة من النوع الذي يفهمه. مُحَنِّكَة، صُلْبَة، عَلِيمَة،
بِعِيشَة المَدِينَة، حَتَّى لو كَانَت تَرْتَدِي ثِيَابًا مُصَمَّمَة.
كَانَت تَحْمِلُ طِفْلًا عَلَى وَرِكْهَا، وَحَيْتَهُ بَانْحِنَاءِ رَأْسِ
مُؤَدَّبَة، وَإِنْ بَارِدَةً قَلِيلًا. وَقَدْ أَحْسَسَ رِيحَ عَدَمِ الثَّقَة
هَابَةً مِنْ نَاحِيَّتِهَا، فَوَجَدَ أَنَّهَا الْأُنْثَى الْأُولَى الَّتِي
سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمِيلَهَا.

مَدَّ يَدَهُ لِشَانِيْسٍ أَوَّلًا وَحَدَّقَ إِلَيْهَا فِي عَيْنَيْهَا
مُبَاشِرَةً. ”جَيِّدٌ أَنْ أَعْلَمَ أَنَّ لَدَى مِزْ مُورِ صَدِيقَاتِ
حَرِيصَاتِ عَلَى مَصْلَحَتِهَا“. وَشَمِلَ الْمَرَاتَيْنِ الْأُخْرَيْنِ
بِنَظْرَةٍ. وَقَفَّتْ غَرِيْسٌ جَانِبًا، تُرَاقِبُ بِالتَّبَاسِ. لَنْ تُدْفَعَ
دَفْعًا إِلَى أَيِّ قَرَارٍ، لَيْسَ هَذِهِ الْفَتَاةُ. قَالَ لَهَا رُومَانُ إِنَّهُ
فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْخُرُوجِ عَصَرَ الْيَوْمِ، كِذْبَةٌ وَلَكِنَّهَا
نَافِعَةٌ لِخُرُوجِ سَرِيْعٍ. ”سَآتُرُكُنَّ جَمِيْعًا لِتَبْحَثْنَ فِي
الْمُؤَيِّدِ وَالْمُعَارِضِ مِنَ الْحُجْجِ“.

مَشَتْ غَرِيْسٌ مَعَهُ حَتَّى الْبَابِ. ”هَذَا أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ
مِمَّا تَوَقَّعْتُ“.

”هُوَ قَائِمٌ هُنَا فَحَسْبُ، فَارِغًا“. أَيْكُونُ ذَلِكَ كَافِيًا
لِإِخْمَادِ أَيِّ شُكُوكٍ إِضَافِيَّةٍ؟ ”هُوَ لَكَ إِذَا أَرَدْتَهُ“.

”مَا زِلْتُ أَحْتَاجُ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي الْأَمْرِ“.

مَاذَا جَعَلَهَا قَلِقَةً هَكَذَا؟ ”ادْرُسِي الْأَمْرَ مَعَ
صَدِيقَاتِكَ. أُرِيدُ لَكَ أَنْ تَشْعُرِي بِالْأَطْمَئِنَانِ فِي
قَرَارِكَ“. بِالْأَطْمَئِنَانِ الْكَافِيِ لِلانْتِقَالِ إِلَى هُنَا، عَلَى كُلِّ
حَالٍ. ”أَرَاكَ صَبَاحَ الْاِثْنَيْنِ، مِزْ مُورِ“.

مشى رومان على طول القمر إلى البيت الرئيسي.
كان في وسعه أن يرى حلققتها مثبتة عليه، ولكنه لم
ينظر إلى الوراء. كان يعرف الجدران الدفاعية عندما
يراها. فعنده مثلها أيضًا. سيوفر لها مثل ما أراد هو
من فسحة وكياسة. في الوقت الحالي، على كل حال.
قرّر مُنفعلاً أن يُحوّل الكذبة إلى حقيقة، فمضى
في جولة طويلة بالسيارة. كان بحاجة إلى تصفية
رأسه. أو إلى وضع شيء آخر فيه فضلًا عن الأفكار
الاستطلاعية بشأن مُساعدته الشخصية، من أين
جاءت وماذا حفزها على تصرفاتها.



تناقشت غريس وصديقاتها في المسألة.
قهقهت أشلي. "في وسعي أن أفهم التجربة. كيف
تركزين على العمل بقرب رجل كذا؟" وهوت بيدها
على وجهها.

"هو في مرسمه، وأنا في المكتب."
قدّمت نيكول، الأكثر عمليّة، نصيحتها. "إذا كان
في حوزتك اتّفاقية مكتوبة، فستكونين بخير. بتلك
الطريقة، لا يستطيع تغيير القواعد. في وسعي
إحضار اتّفاقية لك إلى الكنيسة غدًا."

دخلت شانيس على الخط. "واضح أن لدى
غريس تحفظات، وإلا فما دعّتنا إلى هنا لرؤية المكان

ولقاء قِيلاسكو. أما وقد رأيناها الآن، عرّفنا السَّبب.“
ونظرت إلى غريس. ”يبدو كمُثَل.“

”فقط لأنه وسيم؟“ تدخّلت آشلي للدِّفاع عن رومان. ”هل رأيته في نادٍ؟“
”ما ذهبْتُ إلى نادٍ على مدى أكثر من سنة، آشلي،
وأنتِ تعرفين لماذا.“

علّقت نيكول: ”بدا لطيفًا كفايةً. علينا ألا ندين.“
رمقتها شانيس بنظرة عين فولاذية.

بدت آشلي مُنزعجة. ”لم يُبدِ أيّ مؤشر على أنه
يُراوِدُ غريس عن نفسها. لقد ناداها مز مُور.“

رفعت شانيس حاجبًا لغريس. ”هل من غرائز
بشأن الفتى عندما تكونين وحدك معه؟ أيُّ
ارتعاشات؟“

”لا. لقد قال لي بصراحة إنني لستُ من نوعه
المُفضّل.“

”حسنًا.“ بسّطت نيكول يديها. ”إِذَا، سأطرحُ
السؤالَ البديهيّ: ما المُشكلة؟“

كان على غريس أن تُفكّر في المسألة. ”ما إن
أدخُل، حتّى يغدو صعبًا أن أخرج.“

أجرت شانيس يدًا فوق رأس صمويل ونظرت إلى
غريس. ”أعني البيت تتكلمين أم عن الوظيفة؟“

”كليهما.“ وأخذت غريس صمويل. ”لا أريد أن

أَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ أَخَذَقَ“. أَجَالَتْ نَظَرَهَا فِي الْكُوخِ،
وَاسْتَوَلَتْ عَلَيْهَا التَّجْرِبَةُ. لَنْ تَتِمَّكَنَّ بَتَانًا مِنْ تَأْمِينِ
مَكَانٍ كَهَذَا. سَتَكُونُ مَحْظُوظَةً إِذَا وَجَدْتَ شَقَّةً مِنْ
غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَاةِ سَيَكُونُ ذَلِكَ
لِصَّمُوِيلَ؟

مَسَّتْ شَانِيْسَ ذِرَاعَهَا. ”يُعْجِبُكَ الْمَكَانُ، أَلَيْسَ
كَذَلِكَ؟“

”مَنْ لَا يُعْجِبُهُ؟“

أَخْرَجَتْ نِيكُولَ نَفْسَهَا. ”عَرَضَ رُومَانُ قِيْلَاسْكَو
عَلَيْكَ هَذَا الْمَكَانَ مَجَّانًا. صَحِيحٌ؟ فِي وُسْعِكَ أَنْ
تَعْرِضِي عَلَيْهِ مِثْلَ بَدَلِ الْإِيجَارِ الَّذِي دَفَعْتِهِ عَنْ
شَقَّتِكَ فِي وَسْتُود. إِنَّ دَفْعَ أَجْرَةِ لَقِيْلَاسْكَو سَيُبْقِي
هَذَا الْأَمْرَ مُعَامَلَةً تِجَارِيَّةً. لَنْ تَكُونِي مُنْكَشِفَةً. لَا دَاعِي
لَأَنْ تَشْعُرِي بِالْمَدْيُونِيَّةِ عَلَى أَيِّ نَحْوٍ.“

قَبَّلَتْ غَرِيْسَ خَدِّي صَمُوِيلَ الْوَرْدِيِّينَ الدَّافِيِّينَ.
”لَنْ أَرَى ابْنِي مِنَ الْاِثْنَيْنِ حَتَّى الْخَمِيْسِ“.

فَحَاجَّتْ أَشْلِي: ”وَلَكِنْ سَيَكُونُ مَعَكَ مِنْ مَسَاءِ
الْجُمُعَةِ حَتَّى الْاَحَدِ. إِلَى أَنْ تَجْدِي حِضَانَةَ أَطْفَالٍ. أَنَا
عَلَى يَقِيْنٍ بِوُجُودِ أَطْفَالٍ آخَرِيْنَ هُنَاكَ فِي الْوَادِي“.

بَادَرَتْ شَانِيْسَ: ”رُبَّمَا مَعَ مُرَبِّيَّاتٍ“. وَمَسَّتْ ذِرَاعَ
غَرِيْسَ. ”أَنْتِ قَلِقَةٌ مِنْ جِهَةِ سِيْلَاهِ وَرُوبِنِ؟ كَانَ
التَّرْتِيْبُ كُلِّ حِيْنَ مُفْتَرَضًا أَنْ يَكُونَ وَقْتِيًّا“.

”لَقَدْ بَاتَتْ مُتَعَلِّقَةً بِصَّمُوِيلَ“.

”وأنا أيضًا“. دغدغت شانيس ذقنه ونالت قهقهة.
”تعلمين أنني كنت أودُّ لو تنزلانِ كلاكما عندي، لو لم
تكن لدي أصلاً زميلة سكن“.

”أقدم على القتل لأجل مكان كهذا“. تنهدت
نيكول. ”وفكري في الحسنات الأخرى. الوقت الذي
توفرينه زهابًا وإيابًا. وقت يُمكنك استخدامه في
حضور صفوف الدرس على الإنترنت. وكلما ازددت
تعلماً، تحسنت فرصك. إذا لم تنجح هذه الوظيفة“.
ورنَ تلفونها المحمول. فشالته من جزدانها ونظرت
النص. ”إنه تشارلز“.

نظرت شانيس إلى تلفونها. ”حان وقت العودة، يا
بنت“. نفخت نفخة مدغدة على خد صمويل جعلته
يقهقه. ”إلى اللقاء، يا حلو“. وباست خد غريس.
”قمت بما يكفي من أعمال التوبة، حبيبتي. هذا
المكان يبدو كهديّة من الربّ. أعتقد أنك تستطيعين
أن تتعاملي حسناً مع فيلاسكو“.

أشرفت أساريز أشلي. ”لدي فكرة! بدل أن نذهب
إلى المطعم يوم الأحد التالي في لقائنا المعهود، لماذا
لا نحضر كل واحدة شيئاً ما إلى هنا؟“ ونظرت إلى
غريس. ”ماذا تقولين؟“

”ليكن ذلك بعد أسبوعين. لا بدّ أن أنتقل إلى هنا
أولاً“.

لوحت غريس بيدها إذ رجعت شانيس بسيارتها

ودارت حول سيّارة غريس، وانطلقت بسرعة خفيفة حول مُستديرة الحِصباء، ثمّ اندفعت صاعدةً الطّريق الخاصّة. ابتسمت غريس، هازّةً رأسها. لدى صديقتها قدّم رائدة وأفكارٌ جيّدة.

غيّرت غريس حِفاض صمويل قبلما ثبّته على مقعده الخاصّ داخل السيّارة. سينام قبل أن تصل إلى الطّريق العامّ.

بعلاوة المعاش ووجود مكانٍ جميل للسكن، ستتمكّن من وضعِ خُطط. وقد تتمكّن من إرسال صمويل إلى دارِ حِضانة. وفي وسعها أن تتلقّى مساقاتٍ على الإنترنت تأهلاً لشهادتها. كانت نيكول على حقّ. ستتوافرُ لها ساعاتٌ إضافية للدرس. لقد أبلت حسنًا بما يكفي في المرحلة الثّانويّة حتّى فازت بمنحة للدراسة في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجليس. ولكنّ خُططها خرّجت عن خُطها لما التّقت باتريك مور.

إذ حانت منها التّفاتة نحو البيت الرئيسيّ، تساءلت هل كان رومان فيلاسكو ما يزال في المنزل، ولكنها قرّرت أنّه يحسُنُ بها أن تنتظرَ حتّى يوم الاثنين قبل أن تقولَ أيّ شيء.

الفصل ٥

غريس، في العشرين من العمر

سرت موجة صدمة ضئيلة في أوصال غريس إذ التقطت لمحةً عمًا قد يأتي به المستقبل. كان پاتريك قد أوقف عن اللعب مع فريق كرة القدم بسبب إصابة. حاولت أن ترفع معنوياته، ولكنه كان شاعرًا بالمرارة. لقد رجعت إلى البيت من الصفوف الدراسية اليوم ووجدته يُشاهد التلفزيون. ولما سألته لماذا لم يكن يتمرن، قال إنه استعفى من الفريق. فهو لن يُعاني التمرن لأجل فريق لم تكن لدى إدارته أية نية لاستخدامه.

افترضت غريس أن پاتريك سيستخدم الوقت الإضافي الذي توافر له الآن للحصول على عقل بدوام جزئي. كانا قد تزوجا حديثًا، ولا يكادان يؤمنان مصاريفهما بكتنا منحتيهما الدراستين وعملها في مطعم ماكدونالد. فلما لم يبذل أي جهد لإيجاد عقل، تراكمت فواتيرهما. ولما توسلت إليه،

دعاها نفاقة.

بعد شهرين، ذهب إلى مكتب التوظيف في الحرم الجامعي، ولكنه ادعى أنهم لم يستطيعوا أن يجدوا أي شيء مناسب له. فوظائف المكتبة والمكتب كانت للفتيات. ومطاعم الوجبات السريعة كانت للخائبين. هل نسي أن ذلك هو ما كانت تعمله لإعالتها كليهما؟ قال إنه كان يشتغل بجد وكذا كافيين لإبقاء رأسه فوق الماء بعبء مقرراته الدراسية. لم تذكره غريس بأن حملها كان أثقل من حملها، فضلاً عن العمل خمساً وعشرين ساعة في الأسبوع. ولما اقترح أن تضيف ساعات عمل أخرى إلى أن يتمكن من العثور على عمل، ذكرته بأن عليها أن تبقى معدّها العامّ عاليًا للمحافظة على المنحة. فاتهمها بأنها أنانية، وبأنها تهتمّ بأمر الجامعة أكثر ممّا تهتمّ بزوجها. هل كانت لديها أيّة فكرة كم كان صعباً عليه أن يُنجز عملاً على المستوى الجامعي؟ ذات يوم سيكون هو المُعيل. فما نوع من العمل الذي يستطيع أن يحصل عليه إن لم يكمل دراسته الجامعية؟

كلّما تكلم پاتريك أكثر، شعرت غريس بأنّها أكثر ذنبًا. فما كانت الدراسة قط سهلة على پاتريك. وقد أرادت غريس أن تكون داعمةً ومشجّعة. أليس ذلك ما قال الله إن الزوجة ينبغي أن تكونه؟ وبالْحَقِيقَة أنّها، بين المدرسة والعمل ومطالب پاتريك، كانت

مُرَهَقَةً. فلم تَدْرِ كم من الزَّمن ستتمكن من النهوض
بأعباءِ مسؤولياتها كُلِّها.

حاولت أن تُصَلِّي، ولكنها قَلِقَت بالأحرى. تَعَلَّم مَنْ
كان أهم؟ تَعَلَّمَهُ هو، كما قَرَّرت. وإذ كان ذلك في
فكرها، تقدَّمت بطلبٍ لوظيفةٍ كتابيةٍ بدوام كامل في
مؤسسةٍ علاقاتٍ عامةٍ، مُصليةً أن تذهب الوظيفةُ
إلى شخصٍ سِواها إن كانت لدى الله خُطَطٌ أخرى.
ولما أعطوها الوظيفة، رأت ذلك أنه علامة.
فانسحبت من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس،
حزينةً في سرِّها، فيما تتكَلَّفُ ابتسامةً لأجلِ باتريك.
لا شكَّ أنه كان شكورًا، ولكن ذلك لم يجعل حياتهما
أسهلَ في أيِّ شيء. إذ لم تكن لديه أية نِيَّاتٍ بتأدية
أيِّ واجباتٍ تتعلَّقُ بالشُّقة، حاسبًا ذلك شُغْلَ نساء.

فكانت غريس تعودُ إلى البيت بعدَ نهارٍ كاملٍ في
الشَّرِكة لِتَجِدَ باتريك مُمدِّدًا على الأريكة، يُشاهدُ
المبارياتِ الرِّياضيةَ على شاشة التِّلْفزيون. كان
يُعطيها قُبلةً ويخبرُها عن صُفوفهِ الدَّراسيةِ وأيِّ
فُرُوضٍ عليه أن يعمل. وقد كانت الشُّقةُ بلا ترتيبٍ
دائمًا، حيثُ كُتِبَ وأوراقه مَنشورةٌ على الطَّاولة.

اضطَّرت إلى وضعِ برنامجٍ صارِمٍ لتتمكن من
القيام بجميع التَّبَضُّعِ والغسلِ والتَّنظيفِ في واحدٍ
من أيَّامِ عُطَلَتِها. تخلَّت عن الذهابِ إلى الكنيسة. وما
بَرِحَ ذلك كلَّ حينٍ سبَّبَ معركةً بينهما على كلِّ حال.

فياتريك لم يذهب معها قط. وقد قال إن الكنيسة مضيعةٌ مُضجِرةٌ للوقت. وأفضلُ إذا استخدمت يومَ الأحد لتحضيرِ وجباتِ للأسبوعِ المُقبلِ، واطبِعةً إيَّاهَا في غُلبِ ومُكدَّسةً لها في الثَّلاجةِ، بحيثُ يكونُ كلُّ ما عليها القيامُ به هو تسخينها عندما تعودُ إلى البيت من العَمَلِ. وذلك أبقى أمسيَّتها حُرَّةً لِتُساعدَ پاتريك في دروسه. وغالبًا ما كان مُهتَمًّا بممارسة الحبِّ أكثرَ من إنجازِ العَمَلِ“. إنَّما كان يستولي عليه النَّومُ دائمًا. وإذ يستبدُّ بها الارتباكُ والخيبةُ والقلقُ، تنهَضُ وتُنهِي عَمَلَه.

في مُنتصفِ السَّنةِ قبلَ الأخيرةِ، أعلَمَ پاتريك غريس أنه غيَّرَ تخصُّصَه من إدارة الأعمال إلى التَّربية البدنيَّة. لقد خَمَّنَ أنَّ ذلك كان اختيارًا أفضلَ بالنَّسبة إليه. وخيَّلَ إليها أنَّ لديه سببًا وجيهاً. فلَمَّا قال إنَّه قد يحتاجُ إلى أخذِ دراساتٍ عُليا لكي يحصلَ على وظيفةٍ جيِّدةٍ فعلاً، أَحسَّتْ موجةً تحذيرٍ ضئيلةً صادمةً أخرى. فقالت إنَّ ذلك لم يكنُ جزءًا من اتِّفاقِهما. فابتسمَ وقبَّلَها، وقال إنَّهما سيتحدَّثان بذلك حين يأتي الوقتُ لاتِّخاذِ قرار.

إنَّما كان هنالك أمرٌ واحدٌ عليهما أن يتكلَّما عنه. لقد كانت غريس حاملاً. لم يكنُ ذلك جزءًا من الخُطةِ، ولكنَّها أملت أن يعكسَ الأمورَ من أجلهما. لا بُدَّ من وجودِ طريقةٍ ما لإنجاحِ الأمرِ. وما برحت

غريس كل حين تفتَرِضُ أَنَّهُمَا سَيُباشِرانِ عائلَةً عاجلاً
أو آجِلاً.

”ما كانَ مُفْتَرِضاً أن يحدثَ هذا!“ اغتاضَ پاتريك
لَمَّا أخبرتَه. وأرادَ منها أن تُجريَ إجهاضاً. فرفضت.
وكانت تلك هي المرَّة الوحيدة التي فيها لم تُجارِه
في ما أرادَه.

فقدتِ الطِّفلَ في الفصلِ الدَّرَاسِيِّ الثَّاني. لم
يُحاولِ پاتريك أن يُخفيَ رضاه. وأحضَرَ إلى البيت
زهوراً وقِئِينَةً شامِپانيا. ”رجوعاً إلى الخُطَّة
الأساسيَّة!“ ولمَّا فرَقَعَ الفِليْنَةَ، قاربت أن تكرَهه.

تقدَّم پاتريك إلى سنة تخرُّجِه، ورُقِّيتِ غريس إلى
مُديرةِ مكتب. واستطاعت بعِلاوتِها أن توفِّرَ بعضَ
المُدَّخرات. ستحتاجُ إلى مَورِدٍ ماليٍّ للرجوعِ إلى
الجامعة. فلن تُعطى مِنحَتها في ما بعد. وسيكونُ
عليها أن تدفَعَ رسومَ التَّعليمِ وثمانَ الكُتُب. فبوجود
مالٍ قليلٍ مُدَّخَر، لن تشعُرَ بالذنب من أجل النِّفقة، لا
سيِّما إذا باشِرا عائلة. وكلِّما أثارتِ الموضوع، قال
پاتريك إنَّه ينبغي لهما أن ينتظِرا سنَّينِ بعد. ما زالَا
شابَّين. وهو قد استعبدَ نفسَه أربعَ سنينِ لإكمال
دِراسَتِه بنجاح. أراد أن يحظى ببعض المَرَح قبلَ
مُباشرةِ التَّحدُّثِ بشأنِ الأولاد.

جاء يومُ التَّخرُّجِ، وأحسَّت غريس فخراً غامراً إذا
جلست مع أبوي پاتريك والخالة أليزابث. ما برحت

هي وياتريك يعملان باجتِهاد لأجل هذا اليوم. بدا
ياتريك وسيماً جداً بلباسه الجامعي. وتباهى أبواه
بكونه قد تخرَّج بدرجة شرف. وقد باتت بضع ورقات
فصليَّة أعدّها مُدرجةً في مكتبة الجامعة. سدَّت
الخالة أليزابث نظرَها إلى غريس. وقد اتَّفَق الحَمَوانِ
مُور على أن غريس كانت أفضل ما حدَّث لابنهما على
الإطلاق، وأصرًّا على غداء احتفالٍ في مطعم لُوري
لشرائح اللحم. كما أصرًّا أيضًا على انضمام الخالة
أليزابث إليهم.

طلَب آل مُور شامپانيا. اعتذرت الخالة أليزابث
وشربت ماء. ارتشفت غريس بِحذر. وشرب ياتريك
عَبًا. وحكى قِصصًا عن أساتذة وطلَّاب تسكَّع معهم
في اتِّحاد الطَّلَبَة. نظرت غريس إليه، وقد فاجأها أن
تسمَع ذلك. ولَمَّا سأله أبواه عمَّا ينوي أن يفعله الآن
بعدما نال شهادته، قال إنه بحاجة إلى استراحة لكي
يدرِّس خِياراته. فرمقت أمه غريس بنظرة مُوجعة.
وقعدت الخالة أليزابث في صمتٍ مُتحمِّجٍ.

أتى على كأس الشَّامپانيا التي له، وأعلن أنه قد
التحق بجمنازيوم، وقد تكلم مع شخص في الإدارة
اعتقد أنه سيكون مُدرِّبًا عظيمًا. كلُّ ما كان عليه أن
يفعله هو أن يمضي أسبوعين في مُقرَّرٍ مُعيَّن حتَّى
يُعطي شهادة. أطلقت الخالة أليزابث شخرة سُخريَّة،
وقالت إنه كان يستطيع أن يفعل ذلك حال مُغادرته

المدرسة الثانوية. ولما أبدى مستر مور موافقته، صبّ باتريك كأس شامپانيا أخرى وقطّب جبينه.

أكلت غريس في صمتٍ مُربكةً خائبة. متى توافر لباتريك الوقت أو المال ليلتحق بجمنازيوم ويتعرّف إلى أعضاء الإدارة؟ ما تحدّث قطّ بأيّ شيءٍ من هذا معها. أحسّت الخالة أليزابث مُراقبةً إيّاها، وحاولت أن تُبقي الابتسامة على وجهها. حاولت أن تبدو كما لو أنّ أيّ شيءٍ ممّا قاله كان مُفاجئًا وأنها مسرورةً بالخطّط التي وضعها.

في طريق الخروج من المطعم، أمسكت الخالة أليزابث بإحكامٍ بذراع غريس واستوقفتها. "ما كنت تعلمين، أليس كذلك؟"
"أعلمُ ماذا؟"

"عن ائحاد الطلبة. عن عضوية الجمنازيوم". بدت الخالة أليزابث ضاربةً. "افتحي عينيك. سيستغلّك حتى تصيري قشرةً ناشفة، ثمّ يرميك بعيدًا".

أبعدت غريس ذراعها نترًا. "إنّه زوجي". ما عاد في وسعها أن تُغيّر الاتجاه الآن. لقد قطعت نُذورها. "أعرف". أشاحت خالّتها بنظرها. "حاولت تحذيرك".

ما إن دخل باتريك وغريس شقّتهما، حتّى سألته متى انضمّ إلى جمنازيوم، وكيف كان يدفع نفقة ذلك. فتحول باتريك إلى المُراوغة. لقد حصل على

صفقة جيدة حقًا. لن يكلفها الأمر عشرة سنتات. وقد جعلتها طريقة قوله ذلك تشعُر كما لو كانت مُتلهِّفةً إلى المال ومُقترةً به. فأسقطت الموضوع.

بعد ذلك بأسبوعين، رجعت إلى البيت فكانت الشقة فارغة، ووجدت مُذكرةً على الطاولة.

ذهبت للتزلج مع الأصدقاء. كنتُ بحاجة إلى استراحة قبل أن يبدأ صفُّ الإعداد للشهادة. سأكون في المنزل ليل الأحد.

استمتعي بالكنيسة. مع حُبِّي، باتريك

استمتعي بالكنيسة؟ كان أحدُ القيامة آخر مرة ذهبت فيها. وقد غادرت في مُنتصف الخدمة لأنّها لم تستطع إخفاء الدُموع الجارية على وجهها. ولم تكن دموع فرح. فكلّ مرة حاولت أن تتحدّث إلى الله، شعرت بأنّ كلماتها ترتدُّ عن السقف. لماذا ينبغي أن يُصغي الله إليها؟ إنّها لم تُصغ إليه. لقد افتقدت الصديق الذي كان يأتي إليها لما كانت فتاةً مُوحشة مُرتاعة. فهي ما سمعت صوته قط منذُ أسلمت نفسها لباتريك.

كان التزلج رياضةً عالية الثمن، وباتريك لم يكن يشتغل. وإذ ارتابت، راجعت حساب التوفير. لقد سحبت خمس مئة دولارٍ من مُدّخراتها المُخصّصة للدراسة والمكسوبة بشقّ النفس. فغرّزت أصابعها في شعرها وبكت.

مُوجَعَةً وَغَاضِبَةً، وَاجْهَتْ غَرِيْسَ پَاتْرِيْكَ لَمَّا رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ مَسَاءً الْاَحَدِ. اَلْقَى حَقِيْبَتَهُ، وَقَالَ اِنَّهُ عَلِمَ اَنَّهَا سَتَقُوْلُ لَا، فَلَمْ يَسْأَلْهَا. وَلِمَ عَلَيْهِ اَنْ يَسْأَلَ؟ لَقَدْ كَانَ رَاشِدًا، لَا وَوَلَدًا، وَهُمَا مُتَزَوِّجَانِ. فَذَلِكَ الْمَالُ كَانَ لَهُ كَمَا لَهَا. وَفِي وُسْعِهِ اَنْ يَفْعَلَ مَا اَرَادَ مَتَى اَرَادَ.

لَمَّا قَالَتْ اِنَّهَا تَتَمَنَّى لَوْ كَانَتْ لَهَا الْاِمْتِيَازَاتُ عَيْنُهَا، شَتَمَهَا. لَقَدْ عَمِلَ عَلَى مَدَى اَرْبَعِ سَنِيْنَ طَوِيْلَةٍ شَاقَّةٍ لِيَفُوْزَ بِشَهَادَتِهِ. كَانَ بَعْضُ اَصْدِقَائِهِ ذَاهِبِيْنَ إِلَى اُوْرُوْپَا فِي الصَّيْفِ. وَكَانَ سَيِّئًا كَفَايَةً اَنَّهُ عَالِقٌ فِي لَوْسِ اَنْجَلِيْسٍ وَلَا شَيْءَ لَدَيْهِ يَتَطَلَّعُ اِلَيْهِ سِوَى وَظِيْفَةٍ مِنَ التَّاسِعَةِ صَبَاحًا إِلَى الْخَامِسَةِ عَصْرًا، دُونَ اَنْ تَكُوْنَ لَهُ زَوْجَةٌ نَقَّاقَةٌ تَنْتَظِرُ اَنْ تُلْقِيَ عَلَيْهِ مُحَاضِرَةً دَقِيْقَةً دُخُوْلِهِ مِنَ الْبَابِ.

اَفْزَعَهَا غَضْبُهُ. ظَلَّ يَتَقَدَّمُ حَتَّى حَشَرَهَا إِلَى الْمَغْسَلَةِ وَرَاءَهَا. وَفِيْمَا قَلْبُهَا يُخْبِطُ، اَعْتَذَرَتْ. لَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَهَ، وَقَالَ اِنَّهَا تَحَوَّلَتْ إِلَى كَادِحَةٍ نَكِيْدَةٍ. كُلُّ مَا فَعَلَهُ اَنَّهُ غَابَ ثَلَاثَةَ اَيَّامٍ وَتَمَتَّعَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَرْحِ عَلَى سَبِيْلِ التَّغْيِيْرِ. رُبَّمَا يَذْهَبُ مَرَّةً اُخْرَى! رُبَّمَا يَغِيْبُ مَدَّةً اَطْوَلَ الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ!

وَقَتَّمَا اَنْهَى پَاتْرِيْكَ تَعْنِيْفَهُ الشَّدِيْدَ، كَانَتْ بَذْرَةٌ الْخَوْفِ قَدْ زُرِعَتْ بِثَبَاتٍ. لَمْ يَمَسَّهَا، وَلَكِنَّهَا اَحْسَتْ اَنَّهُ اَرَادَ اَنْ يَضْرِبَهَا. لَمْ تَقُلْ اَيَّ شَيْءٍ اُخْرٍ. وَلَمَّا اُوْيَا إِلَى السَّرِيْرِ، اَدَارَ پَاتْرِيْكَ ظَهْرَهُ لَهَا. فَاسْتَلَقَتْ فِي الظَّلَامِ،

تبكي بصمت، محاولةً ألا تُحرِّك عضلةً لئلا تُزعجه.

يا ربُّ، ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ؟

غطَّ باتريك في نومٍ عميق، وعلمت غريس أنَّهما تخطيا الحدَّ. كانت خائفةً ممَّا يكمن في الجانب الآخر. ولما نامت أخيرًا، حلَّمت بأُمِّها وأبيها واستيقظت مُبلِّلةً بعرق بارد. أرادت الطِّفلة التي في داخلها أن تسحب بَطَانِيَّةً ووسادةً عن السَّرير وتختبئ في خزانة الملابس.

استمرَّت في حياتها في الأيام القليلة الثَّالية، مُنْفَقَةً ساعاتٍ إضافيَّةً في العمل لِتُساعدَ رئيَّسها، هارقي بيرنشتاين، على إنهاء مشروع كبير. وقد علَّق على شُحوبها الغريب. "هل كلُّ شيءٍ بخير، غريس؟" فأكدت له أن كلَّ شيءٍ بخير. "لا أعلم ماذا سأفعل بِلاكِ". كان من شأنِ علاوةٍ أن تكونَ حَسَنَةً، ولكنَّ هارقي أعطاهَا عَطلةً نصفَ نهارٍ يومَ الجُمعة. ربَّما هي وپاتريك يتمكَّنانِ من ترتيبِ أمورهما في نهاية الأسبوع.

فتحت غريس قُفْلَ بابِ الشَّقَّة، ودخلت فوجدت پاتريك على الأريكة معَ شقراءَ حَسَنَةِ الشَّكل، وكِلاهما غيرَ لابسينِ كثيرًا. فقفزَا وتباعدا. والتقطت الفتاة ثيابها، ثمَّ فرَّت إلى عُرفة النوم.

وقف پاتريك. "ماذا تفعلين في البيت؟" وقد تحوَّل وجهه من الأحمرِ إلى الأبيض. "مُفترَضُ أن

تكوني في العقل“. ولَيْسَ بِنَطْلُونًا رِيَاضِيًّا فَضْفَاؤًا.

نظرت غريس منه إلى باب غرفة النوم، وبالعكس، معقودة اللسان.

بدا باتريك مُنزعجًا. ”ما كان مُفترضًا أن تكوني هنا“.

قالت غريس مُتلعثمةً- وقد اعترأها دُوار- ”ها... هارقي أعطاني عُطلةً بعد الظهر“.

خرجت الفتاة من غرفة النوم، وجسمها الرقيق مكسوٌ بثوبٍ ليكرا قرنفليٍّ وأسود. حتى جورباها وجذاؤها الرياضيُّ كانت مُتناسبة. ودون أن تنظر إلى غريس، هُرعت إلى الباب الأمامي، ثم عادت مُسرعةً لتلتقط سترتها القرنفليَّة عن ذراع الأريكة. ”أنا آسفة“، وقد كان صوتها همسًا أجش. ”أنا آسفة جدًا لأنك اضطررت لأن تكتشفي بهذه الطريقة“. ولم تنظر إلى غريس لدى خروجها من الباب الأمامي.

أكتشف ماذا؟ وقفت غريس جامدة.

إذ فتحت الفتاة الباب الأمامي، انسلت خارجةً، ولكن ليس بسرعةٍ كافيةٍ لِثفوت غريس شِعَارَ الجمنازيوم على السترة التي ارتدتها، أو نظرة الاستعطاف التي رمقت باتريك بها. حدقت غريس إلى زوجها. ”هي تشتغل في الجمنازيوم الذي انضمت إليه؟“

”أبوها يملكه“. بدا مُذعنًا. ”انظري“. فرك قفا

رَقَبَتِهِ وَزَفَرَ نَفْسًا ثَقِيلًا. ”أَيْمِكُنَا أَنْ نَقْعُدَ كَأُنَاسٍ
مُتَمَدِّنِينَ وَنُسَوِّيَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِالْحَدِيثِ مَبْشُرَةً؟“
عَلِمْتَ مَا سَيَقُولُهُ حَتَّى قَبْلَمَا بَدَأَ يَصْطَنِعُ الْأَعْذَارَ،
وَلَكِنَّهَا أَصْفَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ. قَالَ يَا تَرِيكَ إِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ
أَنْ يُغْرَمَ بِقَرْجِينِيَا، وَلَكِنَّهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ بِقُوَّةٍ لَمَّا التَّحَقَّقَ
بِالْجِمْنَازِيَوْمِ. بَادئٌ بَدءَ، كَانَ الْأَمْرُ مُغَازَلَةً بَرِيئَةً، وَلَكِنَّهُ
أَنْذَاكَ كَانَ يُعَانِي مَشَاكِلَ هُوَ وَغَرِيْسٌ. ”أَنْتِ لَا تُحْبِبِينَ
العَلَاقَةَ، غَرِيْسٌ، وَقَرْجِينِيَا، حَسَنًا...“ كَانَ بَيْنَهُمَا
أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ مُشْتَرَكَةٌ.

كَانَتْ غَرِيْسٌ دَائِمًا تَلْحُ عَلَيْهِ بِشَأْنِ الْعَثُورِ عَلَى
وِظِيْفَةٍ، فَلَمَّا ذَا لَا يَشْتَغِلُ فِي الْجِمْنَازِيَوْمِ بِدَوَامٍ
جُزْئِيٍّ، حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ فَقَطْ لِيَدْفَعَ رَسْمَ عُضُوَيْتِهِ؟
تَوَاصَلَ حَسَنًا مَعَ النَّاسِ. كَسَبَ كَثِيرًا مِنَ الْأَصْدِقَاءِ.
لَا حَظَّ أَبُو قَرْجِينِيَا ذَلِكَ. طَرَحَ تَلْمِيْحَاتٍ عَنِ إِمْكَانِيَّاتِ
الْمُسْتَقْبَلِ. قَالَ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَقَاعَدَ، وَيَأْمُلُ أَنْ تَجِدَ
ابْنَتَهُ شَابًا طَمُوْحًا لَطِيْفًا مِقْدَامًا، يَقِفُ بِجَانِبِهَا وَيُدِيرُ
المِصْلِحَةَ.

تَكَلَّمَ يَا تَرِيكَ وَتَكَلَّمَ، وَالكَلِمَاتُ تَنْصَبُ عَلَى غَرِيْسٍ
كَحَمِّ بُرْكَانٍ مُلْتَهَبَةٍ. فَهَمَّتْ مَا كَانَ يَقُولُهُ. لَقَدْ أَحَبَّهَا
يَا تَرِيكَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وَلَكِنْ لَمْ يَعُدْ لَدَيْهَا مَا يَكْفِي
لِتُقَدِّمَهُ. وَقَدْ وَجَدَ امْرَأَةً لَدَيْهَا ذَلِكَ. ”لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ
أَتَمَالِكَ نَفْسِي، غَرِيْسٌ. إِنَّ قَرْجِينِيَا شَقِيْقَةٌ نَفْسِي.
حَاوِلِي أَلَّا تُكْرِهِيْنِي. لَيْسَتْ الغَلْطَةُ غَلْطَتِي.“

الصَّدمَةُ والأَلَمُ الأَوَّلِيَّانِ تحوُّلاً إلى خَدْرٍ. لم تشعُر
غريس بأيِّ شيءٍ.

”حسنًا، لا تقولي أيِّ شيءٍ.“ استشاطَ باتريك
غضبًا حيالَ صَمْتِهَا. ”تخميني أَنَّهُ سيكونُ أمرًا يفوقُ
الحدَّ أن أتوقَّعَ قليلًا من التَّفهُمِ“.

جلستِ غريس إلى طاوِلَةِ المَطْبَخِ فيما زوَّجها
يحزِمُ أمتِعته. أرادَ جزءٌ منها أن يتوسَّلَ إليه لِيَبقى،
يتوسَّلَ إليه لِيُحِبَّهَا، يتوسَّلَ إليه لأجلِ فُرصةٍ ثانية.
وأبقاها جزءٌ آخرُ صامِتةً وجامدةً على كرسيِّها،
وعيناها مُثَبَّتتان على الصَّحْنَيْنِ اللّذَيْنِ تركَّهَما هو
وقرجينيا على الطَّاوِلَةِ، أَحَدُهُما عليه بعضُ الفُتاتِ،
والآخرُ عليه نصفُ سندويتشٍ فاخرٍ غير مأكولٍ.

لقد كانت زوجةُ باتريك. ألا ينبغي لها أن تُقاتِلَ
لأجلِ زواجها؟ قولي شيئًا ما، غريس. تكلمي
بصراحةٍ قبل أن يفوتَ الأوان. لا تكفي بالجلوسِ
هناك وتدعيه يخرجُ من الباب.

وهمسَ بلُطفٍ داخلَ قلبها صوتٌ آخر. سامحيه
ودعيه يذهب.

الفصل ٦

التقط رومان المنشفة التي كان قد علّقها على ذراع جهاز الجري ومسح العرق عن وجهه. كان قميصه مُبللاً. لقد طرأ خللٌ ما. فهو جرى ثلاثة أميالٍ فقط، وأحسّ كأنه قد ركّض سباق ماراتون. خفّف السرعة، ومشى ميلاً آخر ليبتدئ قبل إطفاء الآلة. وإذ نزل عن الدوّاسة، شعرَ بدوار. عبّرت اللحظة، ولكنها خلفته ضعيفاً. ربّما نقص الماء من جسمه. نزع سداً قنيّة ماءٍ أخرى فيها معادِنٌ ذائبة وشربها. سيّتخطى رفع الأثقال.

ما كان أحلى الأيام القديمة الجيدة، حين كان يعدو ويقفز في سان فرانسيسكو! ظهرت رسومُه الغرافيتية في نقاطٍ بلغت عنان السماء، أماكنٍ عالية وخطرة، حيث بقيت آثاره مُدّةً أطول من الأيام القليلة التي دامت فيها آثار رسامي الغرافيتي الآخرين. واكتسب توقيعه، BRD، شهرةً بصفته "الغصفور" (The Bird).

أفسحتِ الذكرياتُ السَّارةُ في المجالِ لأفكارٍ عن
ويت بُوي. فأعادَ توجيهَ أفكارِه.

جاءت دفقةُ الأدرينالين الوحيدةُ التي حصلَ عليها
هذه الأيَّامَ من الإندورفينات التي كسبها من العملِ
خارجًا. ربَّما كان العُمُرُ هو المُشكلة. اليومَ كان عيدُ
مولده، إنَّما لم يعلمَ أحدٌ أو يهتمَّ. لقد بلغَ الرَّابعةَ
والثلاثين. كيف ينبغي له أن يحتفلَ بِمُرورِ سنة
أخرى؟ يتطلَّعُ إلى مُواعِدٍ في نادٍ ما؟ لم تعدِ لمُواقِعَةٍ
غريبةِ الفِتنةِ التي كانت لها في ما مضى.

أيقظه دُشٌّ باردٌ، ولكنَّهُ لم يُغيِّرِ مزاجَه. رفعَ وجهَهُ
للرَّذاز، وخيَّلَ إليه أَنَّهُ سمِعَ هاتفَهُ الخلويَّ يرنُّ. مَنْ
كان ليَتَّصِلَ به يومَ أحدٍ؟

إذ لم يكنْ له أيُّ شيءٍ آخر يفعله، دخلَ المرسَمَ
ونشَرَ برفقٍ مزيدًا من الطَّلاءِ على لوحاتِ القماشِ
المنصوبةِ قُربَ النُّوافذ. أراد أن يُقجمَ قبضتَه في
إحدى اللُّوحاتِ، ولكنَّهُ بدلًا من ذلك رمى الفرشاةَ
داخلَ وعاءٍ معدنيٍّ فيه زيتٌ بِزِرٍ كَثان. ثمَّ جلسَ إلى
طاولةِ رَسَمِهِ التَّمهيديِّ وسوَّدَ بعضَ الأفكارِ المبدئيَّةِ.
انتثرت الأوراقُ المُفضَّنة على الأرضيَّةِ. تذبذبَ خلويُّه
داخلَ جيبه. ظهرَ وجهُ جاسپر هاولي. كان أستاذُه
ومُرشدُه ومُدربُه في مزرعةِ ماسترسن يتَّصلُ كلَّ
شهرٍ أو اثنين مُتفقَّدًا أحوالَه. وكان أيضًا يزوره بين
حينٍ وآخر، وإن كانت قد مرَّت فترةٌ قصيرةٌ مُذْ رآه

رومان أَخِرَ مَرَّةً.

”تراقبني مُراقبَةً شديدة، هاولي؟ لماذا لا تُعَرِّجُ عليّ وتفعلُ ذلك؟“

”أَتِلِكَ دَعْوَةٌ فِعْلِيَّةٌ؟ أنا في أكسنارد. يُمكنُ أن أبيتَ اللَّيلةَ عندك. ما رأيُكَ المنزلَ الجديدَ بعد.“

”يقينًا، إنَّما لا سريرَ عندي.“

”ما زلتُ أرضى بالحدِّ الأدنى. في صندوقِ سيَّارتي كيش نوم.“

”ماذا في أكسنارد؟“

”أزورُ واحدًا من فتَياني التَّائِهينَ انتهى إلى السَّجن. بالحديثِ بشأنِ الفتَيانِ التَّائِهينَ، أليسَ اليومَ عيدُ مَولِدِكَ؟“

استرخى رومان مسرورًا. ”هل كُنْتَ تُنَبِّشُ في سِجِلِّي لدى محكمةِ الأحداثِ مُجددًا؟“

”أحفظُ في ذاكرتي جميعَ الحقائقِ الوثيقةِ الصِّلة. أراك عاجلاً.“

نزلَ رومان إلى الدَّورِ الأرضيِّ وتمدَّدَ على الأريكةِ في حُجرةِ الجلوسِ، راسمًا مَسودَّاتِ أفكارٍ في الكتابِ الأسودِ الذي يُبقِيه مَدسوسًا تحتِ الأريكةِ.

استيقظَ رومان على رنينِ أجراسِ البابِ، فسبَّ. أوَّلُ شيءٍ سيكونُ عليه أن يطلبَ من غريسِ القِيامَ به صباحَ أوَّلِ الأسبوعِ هو أن تجدَ شخصًا يستبدلُ

بالأجراس المُزعجةِ جرسًا قصيرًا فعَّالًا. من شأنِ جرسٍ عاديٍّ مُباشِرٍ (دِنغ دِنغ) أن يكونَ عظيمًا. كانَ جهازُ الأجراس ما يزالُ يرنُّ بقوةٍ لَمَّا فتحَ الباب. وإذا جاسپر واقفٌ هُناكَ ضاحكًا.

”أحببتُ الأجراس. لحنُ قالس من قيينا؟ فلاخمن. ليستِ فِكرتك.“

حاول رومان أن يستظهرَ على صدمةٍ منظرِ جاسپر. ذلكَ أنَّ مُعلِّمه الخاصَّ قد باتَ أخفَّ وزنًا، وصارَ شعرُهُ أبيض. ”عجَبًا، لقد صِرتَ مُسنًّا!“

”وأنتَ ما زلتَ ذلكَ الذَّكيَّ الذي ما بِرِحتَ إيَّاهُ دائمًا.“ مشى جاسپر إلى الدَّاخل وحقيبةُ سفره في يده. ”مكانٌ عظيمٌ عندك هُنا. يا للزَّوعة! يا لها من إطلالة! مُقامٌ مُمتاز لرسَّام.“

”إذا رسمتُ مناظرَ طبيعيَّة.“

التفتَ جاسپر إلى الدَّاخل. ”لماذا تركتَ ذلكَ المكانَ الجميلَ في ماليبو؟ تفتِّحُ بابَ زُجاجٍ مُنزلقًا، وإذا بك ترى الشَّاطئَ وجميعَ أولئك الفتياتِ الحسنوات يعُبرنَ بثيابِ السَّباحة.“

”كنتُ بحاجةٍ إلى تغيير.“ ارتبَطت بالمساكنِ المُشتركة ليلةَ ذِكرياتٍ لا يُمكن أن ينساها، وأسئلةٌ عدَّة ما تمكَّنَ قَطُّ من إجابتها عن فتاةٍ حاولَ أن يعثرَ عليها وعِلِمَ أنَّه لن يراها ثانيةً بتاتًا.

هزَّ جاسپر رأسه. ”أظُلُّ أرجو أن تكبرَ وتستقر.“

ساق رومان سيَّارته الكامارو الحمراء إلى مطعمٍ في ماليبو يُقدِّم ثمارَ البحر. لم يكن شيءٌ كثيرٌ قد تغيَّر بالنسبة إلى جاسپر. كان ما يزال يُعلِّم في مزرعة ماسترسن الجبليَّة ويراقبُ من كَثبِ الفتيان الذين يسمحون له بذلك. لقد كان مُهتَمًا بما جرى لكلِّ واحد منهم. مُعظَّمهم غادروا وانتقلوا. وبعضهم ظلُّوا على تواصلٍ معه. ومنهم مَنْ كانوا يتَّصلون عندما يتورَّطون في بلاء، نظير الشابِّ في أكسنارد ذاك الذي يُحتَمَل أن يقضي فترةً شاقَّة. وقد كان لدى جاسپر أيَّامٍ إضافيَّة قليلة هذه المرَّة. ”أتصوِّر أنه ينبغي لي أن أسرِّح وأمرِّح قليلًا“.

استسلمَ رومان قلقًا. ”ما خطبُك؟ لقد فقدت فوق عشرين كيلوا منذ رأيْتُك آخر مرَّة. ولا تقل لي إنك على حميَّة“.

”ما بي خطبُ الآن. خضعتُ لعلاجٍ كيميائي“.

فقدَ رومان شهيتته. نظرَ إلى جاسپر. ”كان مُفترِّضًا أن تكونَ هذه نُكته“.

”ها ها“.

حكَّ جاسپر رأسه. ”شعري يطلُّع من جديد. ذلك شيءٌ حسن“.

”كلُّه أبيض“.

”أعتقِد أنني أبدو مُميِّزًا. كانتِ الفحوصُ نظيفة، وأنا أشعر بِحُسنِ الحال“. وربَّت مَعِدته. ”وأبدو

حَسَنَ الْحَالِ أَيْضًا. إِنِّي أَحَافِظُ عَلَى خِفَّةِ الْوِزْنِ
وَأَمْشِي ثَلَاثَةَ كِيلُومِتْرَاتٍ فِي الْيَوْمِ. أَمْرٌ مُضِحٌّ
بِشَأْنِ السَّرَطَانِ. لَقَدْ ذَكَرَنِي بِأَنِّي فَاِنٍ. لَيْسَ مَعْقُولًا
أَنْ أَرْجِيَّ الْأُمُورَ الَّتِي أُرِيدُ أَنْ أَعْمَلَهَا“.

تَحَدَّثَ جَاسِپِرٌ. حَاوَلَ رُومَانَ أَنْ يُصْغِي. فَكَّرَ فِي
الْمَوْتِ قَلِقًا. لَقَدْ فَقَدَ أُمَّهُ وَالْأَصْدِقَاءَ الْوَحِيدِينَ الَّذِينَ
هَمَّهُ أَمْرُهُمْ يَوْمًا. كَانَ أَسْلَمَ إِلَّا يَهْتَمُّ. أَقْلَ إِيْلَامًا.
”بُيِّي رَايِ دِينَ“.

رَجَّ الْأَسْمُ رُومَانَ مِنْ جَدِيدٍ. ”مَا نَادَانِي أَحَدٌ هَكَذَا
مِنْذُ ذُهُورٍ“.

”قَطَعْتَ شَوْطًا بَعِيدًا، بُنْيَ، وَلَكِنَّكَ مَا زِلْتَ لَا تَعْلَمُ
مَنْ أَنْتِ أَوْ مَاذَا تُرِيدِ، أَتَعْلَمُ؟“
”الْمَزِيدَ“.

ثَنَى جَاسِپِرٌ ذِرَاعِيهِ عَلَى الطَّائِلَةِ. ”الْمَزِيدَ مِمَّ؟“
”الْحَيَاةَ. الْمَعْنَى“. تَمَنَّى لَوْ يَعْلَمُ.

رَجَعَا إِلَى الْبَيْتِ فِي تُوپِنِغَا كَانِيُونَ. وَأَعْطَى رُومَانَ
جَاسِپِرَ الْجَوْلَةَ الْعَظِيمَةَ. رَمَقَ جَاسِپِرَ اللَّوْحَاتِ عَلَى
الْحَامِلَاتِ بِنِظْرَةٍ خَاطِفَةٍ وَلَمْ يُبَدِ أَيَّ تَعْلِيْقٍ. اسْتِطَاعَ
رُومَانَ أَنْ يُخَمِّنَ مَا فَكَّرَ جَاسِپِرَ فِيهِ. لَقَدْ كَانَتْ
الْمُشْكِلَةُ... وَوَأَفَقَ رُومَانَ.

انْحَنَى جَاسِپِرٌ وَالتَّقَطَ وَاحِدَةً مِنَ الْأُورَاقِ الْمُغْضَنَةِ
الْمُبَعَثَرَةِ عَلَى أَرْضِيَّةِ الْمَرْسَمِ وَفَتَحَهَا. ثُمَّ التَّقَطَ بِضَعِّ
أُورَاقٍ أُخْرَى. وَقَدْ عَرَفَ رُومَانَ مَاذَا كَانَتْ تِلْكَ

الأوراق. هي مُسَوِّداتُ رسومٍ فيها فتى عِصَابِيَّةٌ في
سِتْرَةٍ جلدِيَّةٍ مُسْتَنِدٌّ إلى جِدَارٍ مُغَطَّى بِالغِرافِيَّةِ،
صَبِيٍّ صَغِيرٍ يَنْظُرُ خَارِجًا مِنْ نَافِذَةٍ مُطَلَّةٍ عَلَى
الْخَلِيجِ، فَتَاةٌ عَارِيَّةٌ ظَهْرُهَا نَحْوَهُ، شَعْرُهَا الطَّوِيلُ
مُتَهَدِّلٌ مُتَجَعَّدًا حَتَّى خَصَرِهَا. ”هذه الرُّسُومُ جَيِّدَةٌ،
رومان. هل فَكَّرْتَ مَرَّةً فِي إِقَامَةِ مَعْرِضٍ؟“

”مُحْتَمَلٌ أَنْ أَقِيمَ وَاحِدًا هَذَا الصَّيْفَ“.

ألقى جاسپر نظرةً على اللوحاتِ غيرِ المُكْتَمَلَةِ
على الحاملاتِ. ”ليسَ عليك أن تحضِرَ نَفْسَكَ فِي
الفنِّ الحديثِ“.

”الثَّمَنُ جَيِّدٌ“. اسْتَنَدَ رومانٌ إِلَى طَاوِلَةٍ تَخْطِيطُهُ.

”ما عندي أوهام. عَمِلْتُ بِنَاصِيحَتِكَ وَذَهَبْتُ إِلَى
أوروپَا. هل تذكُر؟ لقد رأيتُ أَسَاتِذَةَ الرَّسْمِ. حَتَّى
إِنِّي تَرَكْتُ بِطَاقَةَ اتِّصَالِ بِاسْمِي فِي اللُّوْقِرِ“.

”بِطَاقَةَ اتِّصَالٍ؟“

”لا تَقْلُقْ. أنا مُتَيَقِّنٌ بِأَنَّهَا فِي المُهَمَّلَاتِ الآن“. كان
العُصْفُورُ قد تَرَكَ أَثْرًا فَنِّيًّا مُلصَّقًا بَيْنَ آثَارِ الأَسَاتِذَةِ:
بُومَةٌ غَامِزَةٌ عَلَى غُصْنِ صَنْوَبِرٍ. وَإِذْ أومأ بِرَأْسِهِ نَتْرًا
نحوَ حَامِلَاتِ الرُّسُومِ، قال: ”ذلكَ أَفْضَلُ ما أُسْتَطِيعُ
أَنْ أَعْمَلُهُ“.

”أَشْكَ فِي ذلكَ“.

”أَجَلٌ، حَسَنًا، كَثِيرُونَ مِنَ النَّاسِ هُنَاكَ فِي الخَارِجِ
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الفَنِّ. لقد فَكَّرْتُ فِي ما يُبَاعُ“.

توجَّها إلى الدَّور الأرضيِّ. فَتَحَ رومان قِنِّيْنَتِي
صودا. أَجَالَ جاسپر بَصْرَهُ في أنحاء حُجْرَةِ الجُلوس
ذات الأريكة السَّوداء الكبيرة القابلة للتَّفكيك،
والطَّاولَة العَصريَّة الضَّخمة، والتِّلْفزيون الكبير
الشَّاشة المُثَبَّت على الجِدار. ”أثاث اسبارطيِّ إلى حدِّ
بعيد، حتَّى بالنِّسبة إلى عازب“.

”لم يَتَّسِعْ وقتي للتَّصميم والتَّزيين“.

”أنت بحاجة إلى زوجة“.

أطلقَ رومان ضِحكةً سُخْريَّة. ”إلى ماذا؟“

”رِفقة. عزاء. بعض أولاد“.

”أنت لست متزوِّجًا. ليس لك أولاد“.

”كُنَّا مُتزوِّجين، شيريل وأنا، طَوَالَ أربع وعشرين

سنة، كانت أسعدَ أَيَّامِ حياتي، قبلَما ماتت. أردنا أن

نُنْجِبَ أولادًا. لكنَّ ذلك لم يحدث قطُّ“. وابتسم.

”لذلك السَّببُ أنا مُتعلِّقٌ بك جدًّا“.

”بوليس سريِّ!“

”كنتُ أتزوِّجُ ثانيةً، لو التقيتُ المرأةَ المُناسبة.

حتَّى الآن، لا واحدة تُداني التي كانت لي“.

فكَّرَ رومان في غرايِّ مُور.

”تشتت وسوزان يُريدان أن يعرفا متى ستذهبُ

إلى الديار في زيارةٍ لهُما“.

ما بَرِحَ آل ماسترشن أقربَ شيءٍ إلى عائلة عرَفَها

بُي راي دين يومًا. ”أنا على يقين بأنَّ عندهما بيتًا حافلاً، كما كانت حالهما دائماً“.

”نزلأء أقل هذه الأيام، وأنت كنت مُميّزًا“. ولما لم يقل رومان شيئًا، غيّر جاسپر الموضوع. ”إذا، تخلّيت عن رسم الجداريات“.

”لديّ واحدة إضافيّة. في سان دييغو. وجدتُ شخصًا يملأ الفراغات. سأنزلُ إلى هناك عاجلاً لإضافة التفاصيل. وسيطلي هيكتور الغشاء الوقائي. هذا يُوفّر عليّ كثيرًا من الوقت، بحيثُ أستطيع الانصراف إلى أمور أخرى“.

”هيكتور؟“

حكى رومان القصة. فإذ نضبت لديه الأفكار وطلب أيّ إلهام، ذهب إلى سوق نقالة ليرسم الباعة. ولقح رجلاً يرسم على الأواني الخزفيّة الصّينيّة. كان بارعًا، وكان سريعًا. فطلب رومان شخصًا يُترجم وعرض على الرّجل عملاً بدوامٍ جزئيّ للقيام بملء الفراغ في مشروع جداريات في بقري هلز. وافق هيكتور إسبينوزا، وتصافحا دلالةً على الاتفاق. ”إنه يشتغل لي كلّما احتجتُ إليه. ولا أدري ما يفعل في تلك الأثناء“.

”حسنٌ أن أعلم أنّ لك أصدقاء“. كانت لهجة جاسپر ناشفة.

تخلّص رومان من التّعليق بالضّحك. فهو نادرًا ما

تحدّث إلى هيكْتور. وهما لا يتكلّمان اللُّغة نفسها فعلاً. كانا ما يزالان يلقيان صعوبةً في التّفاهم، ولكنّهما طلعا بنظامِ أرقامٍ للألوان حتّى يعرف هيكْتور ما يفعل. لم يعرف رومان أيّ شيءٍ عن الرّجل، وتصور أنّه ربّما كان بلا وثائق. دفع له أجره جيّدة، ونجحت الشّركة. ”صعبٌ أن أتصادق مع شخصٍ لا يتكلّم لُغتي“.

”أذلك وظفته؟ حتّى لا تضطرّ إلى إجراء مُحادثة؟“

”أهذه حصّة تحليلٍ نفسيّ؟“

صرّف جاسپر ذهنه عن ذلك. تحدّثا في أمورٍ أخرى أقلّ شخصيّةً حتّى ما بعد مُنتصف الليل. ثمّ نشر جاسپر كيسَ نومه على الأريكة الجلديّة. ونهضا كلاهما باكراً في الصّباح الثّالي. فعمل رومان عجةً بيض وخبزاً محمّصاً على الطريفة الفرنسيّة، وقهوة.

”ما فقدت لمستك“. رفع جاسپر فنجانَه. لم يُخبره رومان أنّ لديه مُساعدةً شخصيّة تستطيع أن تعمل أحسن. علم أنّ جاسپر سيبدأ بطرح أسئلة، ولم يكن لديه هو أيّ أجوبة.

في طريق الخُروج من الباب الأماميّ، كبس جاسپر جرّس الباب وأطلق الأجراس. فرشقهُ رومان بإسمٍ بذِيء. فضحك جاسپر: ”سأعرج عليك بهذه الطريفة مُجدّداً، أعجل ممّا تتصوّر“.

”ستكون الأريكة جاهزة لك“. وبقي رومان واقفاً في الخارج حتى توارى جاسپر بسيارته عن النظر. عند التاسعة إلا دقيقتين، انطلقت الأجراس ثانية. ولما فتح رومان الباب، علم من سيماء وجه غريس مؤر أنها قدّرت أن تنتقل لثقيم في الكوخ.

”بهذه السعادة حيال الأمر، هه؟“

”ستكون لدينا أمورٌ نناقشها أولاً. بعد العقل؟“

هذه الفتاة لم تجعل أي شيء سهلاً.



إلماعة الانتصار على وجه رومان جعلت أعصاب غريس تتوتر. كانت القهوة قد غمّلت أصلاً. ”لا بد أنك استيقظت باكراً“. توجّهت إلى المكتب. ”سأتفقد رسائلك أولاً“.

”ليس الآن“. دس رومان يده في جيبه الأمامي، وألقى مفتاحاً على الطاولة. ”لستمكنني من الدخول دون إطلاق هذه ال...“ توقف قبيل أن يقول شيئاً من شأنه أن يثير استياءها. ”ليكن أول طلب عقل اليوم أن تجدي شخصاً يمكنه أن يعيد برمجة ذلك الشيء قبل أن أنزعه عن الجدار بيدي المجردتين. أودّ ألاّ يجلجل كأجراس كنيسة تستهل العام الجديد“.

”سأهتم بذلك، ولكن يمكنك أن تحتفظ بمفتاحك“. وزلقت المفتاح رادةً إيّاه إليه.

”لست مُستريحةً لِحِيازَةِ مِفْتاحِ بيتِكَ“.

تكلّف الابتسام. ”أنتِ خائفةٌ أن تدخلِ المنزلَ فتجدي شيئًا غيرَ سارٍّ؟ لا تقلقي. أنا لا آتي بنساءٍ إلى فوقٍ ههنا. أفضلُ أن أذهبَ أنا إلى مكانهنَّ حتّى يتسنّى لي أن أُغادرَ ساعةَ أشاء“.

هلِ استمتعَ بإحراجها؟ ”لستُ مَعنِيَّةٌ بحياتِكَ الخُصوصِيَّةِ، مِسترَ قِيلاسكو“.

انزَمَ فَمُه. ”خُذي المِفْتاحَ الـ...لعين، مِز مُور“.

علِمَتْ أَنَّهُ كادَ يَقولُ شيئًا آخِر. لعلّها كانت غيرَ مَنطِقيَّة. كان هارقي بيرنشتاين قد أعطاهَا مِفْتاحًا. فأخذت مِفْتاحَ رومان وعلّقتهُ بسلسِلَةِ مِفْتاحِها. ”سأقرعُ قبلَ أن أدخل“.

”فقط لِتَتيقَنِي بأنني مُرتدٍ بنطلوني؟“

حدّقت صوبَ المكتب.

”أحتاجُ إلى رَقْمِ تَلْفونِكَ الخَلويّ“.

أدارت غريسَ وجَهاً نحوَه. انطلقت نُذْرٌ داخلَ رأسها. ”لماذا؟“

”في حالِ احتجتُ إليك“.

”أنا أَشغَلُ من التّاسعةِ صباحًا حتّى الخامسةِ عصرًا. أيُّ وقتٍ قبلَ ذلكَ أو بعدَه هو وقتي، بما في ذلكَ نِهاياتِ الأسابيع“.

غامَت عيناها. ”سيوفّرُ ذلكَ عليكِ الدَّرَجَ، وعلَيَّ

الوقت. أنتِ لا تستعملين نظامَ المُواصلَةِ الدَّاخِلِيَّةِ“.

”أَيَّ نِظَامٍ مُوَاصَلَةٍ دَاخِلِيَّةٍ؟“

هَذَا كَتَفِيهِ. ”ذَاكَ الَّذِي وَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِ
بِهَذَا الْحَجْمِ. رُبَّمَا كَانَ فِي مَكَانٍ مَا عَلَى مَقْرِبَةٍ مِنَّا.
لَعَلَّنَا نَعْتُرُّ عَلَيْهِ مَعًا“.

رَنَّ جَرَسُ الْبَابِ ثَانِيَةً، وَهَذِهِ الْمَرَّةُ نَسِيَّ رُومَانَ أَنْ
يَضِيبَ لِسَانَهُ. فَتَرَجَرَجَتْ عَيْنَاهَا حِيَالَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي
خَرَجَتْ تَلْقَائِيًّا. ”إِنَّهُ هِيكْتُورٌ. مُوظَّفٌ مُغْضِبٌ آخَرٌ. لَا
يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ مِنَ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ مَا يَكْفِي كِي يَفْهَمَ مَا
أَقُولُهُ. عَلَيْنَا أَنْ نَلْجَأَ إِلَى لُغَةِ الْإِشَارَاتِ، وَلَسْتُ فِي
مِزَاجٍ مُوَاتٍ هَذَا الصَّبَاحِ“.

”رُبَّمَا أُسْتَطِيعُ مُسَاعَدَتِكَ. لَقَدْ دَرَسْتُ الْإِسْپَانِيَّةَ
فِي الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ“، وَتَبِعْتُهُ إِلَى الْبَابِ الْأَمَامِيِّ.
فَفَتَحَهُ رُومَانَ وَأَوْمَأَ لَهَا كِي تَتَقَدَّمُ لِتُوَاجِهَ أَمِيرَكِيَّا
لَاتِينِيَّا بِسِيمَاءٍ إِجْفَالٍ.

عَرَفْتُ بِنَفْسِهَا، فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً جَدًّا.
وَاسْتَجَابَ هِيكْتُورٌ بِسَبِيلٍ سَرِيعٍ الطَّلَاقَاتِ مِنَ
الْإِسْپَانِيَّةِ، حَتَّى رَفَعَتْ غَرِيْسَ يَدَيْهَا اسْتِسْلَامًا
وَقَالَتْ: ”رَجَاءً، عَلَى مَهْلِكِ!“

أَذَعَنَ هِيكْتُورٌ، وَتَرَجَمَتْ غَرِيْسُ لِرُومَانَ، وَقَدْ وَقَفَ
جَانِبًا بِتَعْبِيرَاتٍ أَقْلَ مِنْ مَسْرُورَةٍ. ”يَقُولُ هِيكْتُورٌ إِنَّكَ
اتَّصَلْتَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ لِمَاذَا“.

”اتَّبِعَانِي“، وَتَوَجَّهَ رُومَانَ إِلَى الْقَرَسَمِ.

مشى هيكتور بجانب غريس، مُتَابِعًا التَّكَلَّمَ بِلُغَتِهِ
الأصليَّة. ”مَنْ أَنْتِ وَمِنْ أَيْنَ جِئْتِ؟“ فأخبرته أَنَّهَا
جاءت من وكالةِ توظيفٍ وقتيٍّ، وأنَّ رومان وظَّفَهَا
بِدَوَامٍ كاملٍ مساعِدَةً شخصيَّةً له. ”أَنْ أُوَانُ ذَلِكَ. إِنَّهُ
يحتاجُ إلى مُعاوَنَةٍ“. ثُمَّ تكلَّم أسرع، وكانَ على
غريس أن تُركِّزَ لِتلتقِطَ كلَّ شيءٍ. كانَ واضحًا أنَّ
الرَّجُلَ أحبَّ رومان. فالْمَعْلَمُ دَفَعَ له جيِّدًا، وكانَ
رَسَامًا موهوبًا. وقد حسبَ هيكتور شرفًا أن يشتغلَ
معه. ولم يتوقفَ حتَّى قاطَعَ رومان حديثَهُما.

”هل تعلمين ما هو قائله؟“

”مُعظَمَه. كان يُخبرني قليلًا عن نفسه فحسب.“

وعنك!

”تعرفني إليه في ما بعد. قولي له إنَّ لديَّ بعدُ
رسمةً أُخرى ينقلُها، ولكنَّه يستطيع أن يبدأ بالاثنتين
الجاهزتين لديَّ. سأُنزِلُ آخِرَ واحدةٍ إلى سان دييغو
عندما أفرغُ منها. قولي له إنني سأتصلُ به قبل أن
أكون في طريقي إليه. إنَّما أفضلُ بعدُ أن أدعَكَ
تتصلينَ أنتِ. بتلك الطريقة، إذا احتاجَ إلى أيِّ شيءٍ،
يُمكنك أن تُخبريني بما يقوله.“

نقلت غريس كلَّ شيءٍ. كانت لدى هيكتور أسئلة.
”يحتاجُ أن يعرفَ أينَ سيَمكُثُ فيما يشتغلُ تحتُ
هُناك. لا يستطيع أن يظلَّ يسوقُ ذهابًا وإيابًا، وهو لا
يحبُّ النَّومَ في السيَّارة.“

”أي...؟“ انفجَرَ رومان، ولكنَّهُ استطاع أن يبلغَ الباقي. ”كان مفروضًا أن يؤوِيه الفُنْدُق. سُنْسُوِي ذلك. عاجلاً. اتَّصلي بالفُنْدُق وذكِّرِيهم أَنَّهُ كان ينبغي أن يُعطى غُرْفَةً مَجَّانًا ليتمكَّن من الإقامة والعَمَل. كانَ ذلك جُزءًا من الاتِّفاق. ويُمْكِنُ الآنَ أن يُضيفوا وجباتِ الطَّعام في المطعم، ما دام يجري ذهابًا وإيابًا. وقُولي له أن يأخُذَ وقتَ استِراحة ويذهبَ إلى حديقة الحيوانات، حيثُ يُمكنه أن يرى بعضَ الحيوانات الحيَّة الحقيقيَّة.“

”أكانَ ذلك اقتراحًا أم أمرًا؟“ لم تُترجمَ غريس. ”حدائقُ الحيوانات غالية.“

سَحَبَ رومان مِحفظته، فأخرجَ ورقةَ مئةِ دولار، وأعطاهَا لهيكتور الذي بدأ مُرتبًا حتَّى فسَّرتَ له غريس. ابتسمَ الرَّجُلُ ابتسامَةً عريضةً كولدٍ سعيد وتكلَّم بِسُرعة.

”إنَّهُ يقول...“

”نعم، نعم. أستطيعُ أن أحزُر.“. صرَفَ رومان النُّظَرَ عنِ التَّشكُّرات. التقطَ أنبويين كرتونيين طويلين مُرقَّمين وأعطاهُما لهيكتور. ”قُولي له أن ينتقيَ ويُقيِّدَ على حسابي أيَّ تجهيزاتٍ يحتاجُ إليها، في المكان المعهود. بِسُرعة.“ ومدَّ يدهُ فصافحهُ هيكتور بها.

ابتسمَ هيكتور لِغريس ابتسامَةً عريضةً. ”تخميني

أنه تخلص مني“.

ضحكت. ”تخميني هكذا. سأمشي معك حتى الباب“. وما إن تقدّمت بضع خطوات حتى استرعى رومان انتباهها.

”بعد أن توّدي هيكتر، أستطيع أن آخذ فينجان قهوة“.

”ما في الإناء، أم طازجا؟“

”طازجا“.

لم يكن هيكتر مستعجلاً أن يغادر. عملت غريس القهوة وهما يتحدثان. قال إن وجودها في المتناول سيكون فرجاً له. فهو يحب أن يتعرّف إلى الرجل الذي يشتغل له. ثم تحدّثا عشر دقائق أخرى عند الباب قبلما قال هيكتر وداعاً، وتوجّه إلى شاحنة فورد خفيفة عتيقة.

رجعت غريس إلى المرسم بكأس قهوة طازجة. كان رومان جالساً إلى طاولة تصميمه، يشتغل بنسخة النّقل. لم يوجد مكاناً لوضع قهوته.

”لقد تصادقتما بسرعة أنثما الاثنيين“.

”هيكتر لطيف جداً. إنه مُعجّب بك. قال إنك تنتج آثاراً فنيّة مذهلة. ما رأيت قط واحدة من جدارياتك“. اقتربت أكثر مُقدّمةً له كؤوب القهوة فيما هي ناظرةً إلى موكب الأفيال الذي أنهاه. حتى بلا ألوان، بدت الرسوم حيّةً ومُتحرّكة. ولمحت شيئاً

رسمه قُرب أسفل اللوحة، فكشّرت.

”ما خطبك؟“

أدارت رأسها، فوجدته يُحدّق إليها بتركيز. ”ألن تذهب هذه الجدارية إلى ردهة فندق؟“ أشارت إلى أسدٍ يفترس جزو زرافة. ”قد ينزعج الأولاد من هذا المنظر.“

”ذلك هو ما يحدث في واقع الحياة.“

”ليس في فندق، كما يُرتجى. إذا انزعج الأولاد، يمكنك أن تتيقن بأن آباءهم وأمهاتهم سينزعجون أيضًا.“

”لن أكون حاضرًا حتى أقلق بشأن ذلك.“ ابتسم رومان ابتسامة غريبة. ”ومُعظم الناس ما كانوا ليلاحظوا شيئًا مخفيًا في العشب.“

”هُوَ هُنَاكَ تَمَامًا.“

”ليس هو هُنَاكَ تَمَامًا. إنّما اتَّفَقَ أنّك رأيت الصورة المخبوءة التي تفوتُ النَّاسَ عَادَةً.“

جعلتها حمله مُتضايقة. بحثت عن مكانٍ تحطّ القهوة فيه، آملة أن تنجو. وإذ أشاحت بنظرها، لاحظت أنه قام بمزيدٍ من العمل في اللوحات المُسنّدة إلى الحاملات. ما برحت تاليا تتصل كل بضعة أيام لتسأل عن تقدّمه.

يقينًا أنه كان لديه أكثر من ذوقٍ مختلفٍ في الفن. ”بأيّ الأسلوبين تستمتع أكثر الكل؟“ ونقلت نظرها

تحديقًا من نُسخة النُّقل إلى اللُّوحات.

”ولا واحد“. أدار المقعد وواجهها. ”وبكليهما. ما رأيك أنت؟“

لم تستطع غريس أن تقرأ تعبير وجهه، ولم تكن تنوي إبداء رأيها. ”لا أعرف أي شيء عن الفن“.

أخيرًا أخذ رومان القهوة، ومست يده يدها مسًا رفيقًا. ”يقلبك أنك قد تجرحين مشاعري“.

أبدت إعجابها بهجرة حيوانات السيرينجتي البرية. ”لديك موهبة أعطاك الله إيها، مستر فيلاسكو“. لا عجب أنه كان ناجحًا جدًا. لقد كان لديه نطاق عقل واسع.

”أعطاني إيها الله؟ أشك في أن تكون لله علاقة ما بي. ثم كفى مناداتي مستر فيلاسكو. لم تقولي سنيور إسبينوزا، بل قلت هيكتور. أن الأوان لمناداتي رومان“.

”أنا موافقة. رومان“. كان شيء ما يضايقه. لا بد أنه متوتر بشأن إنجاز المشروع. لقد قال لهيكتور إنه يريد منجزًا على وجه السرعة. تراجعت غريس خطوة. ”أحسن لي أن أدعك تعود إلى الشغل. سأصل بالفندق لترتيب أمور هيكتور. وسأهتم بأمر أجراس الباب أيضًا“. وتوجهت صوب الباب.

”غريس، عندما تتصل تاليا، كما نعلم كلانا بأنها ستصل، قولي لها إن اللوحات تكاد تُنجز. تستطيع

أن تأخذ اثنتين بعد ثلاثة أيّام، وسأنهي الباقي قبل
أن أتوجّه إلى سان دييغو“.

الفصل ٧

رُومان في الحادية والعشرين من العُمر

دفعَ رومان حقيبتهُ الظَّهرِيَّةَ داخلَ الخانةِ الفوقِيَّةِ في طائرةِ البوينغ ٧٤٧، وانزلقَ في مقعده. ظلَّ مُستيقظًا وقتًا كافيًا لِيُحسَّ اندِفاعَةَ الإقلاع، وقد بلغت مكانًا ما فوقَ الأطلسي، في الوقت المُناسِبِ تمامًا لإنزالِ صِينِيَّتِهِ فيما المُضيفَةُ تُقدِّمُ العشاء. ثمَّ غطَّظَ عليه النَّومُ من جديدٍ فيما راحَتِ المرأتانِ المُتوسِّطتا العُمرِ تُراجِعانِ برنامَجَ أسبوعِ رحلتِهِما في روما.

كان سِرجيو پانيتا قد أعطاهُ توجيهاتٍ إلى منزلِ آلِ كريمونيسي. ضلَّ سبيلَه، ولكنَّ بعضَ الفتياتِ الجِسانِ اللّواتي يتكلَّمَنَ الإنكليزيَّةَ بِلكنةٍ ثقيلةٍ أُرشدنَه إلى المُواصلاتِ العُموميَّة. وما إن وصل إلى الحَيِّ الصَّحيحِ، حتَّى سارَ في الشُّوارعِ الضَّيِّقة، حيثُ تتدلى المَلابِسُ المَغسولة مَنشورةً على جِبالِ خارجِ النَّوافذ. كان هُنا درَاجاتٌ هوائيَّةٌ ودرَاجاتٌ ناريَّةٌ أكثَرُ بكثيرٍ من مَثيلاتها في سان فرنسيسكو أو لوس

أنجليس، ولكنه علم كيف ينجو من ازدحام حركة
الفرور.

لم يكن بالدو وأوليفيا كريمونيسي يتكلمان
الإنكليزية، ولكنهما رحبا به عنقا وببربرا في الإيطالية
بسرعة. وفي غضون ساعة واحدة، غص بيثهما
بالأقرباء التواقين إلى لقاء الأميركي الذي رسم
جدارية حصية لنسيبهم الغني في هوليوود. اثنا عشر
شخصا من آل كريمونيسي، بين عمّة وخالة وعم
وخال وابن أخ أو أخت وابنة أخ أو أخت، فضلا عن
جيران من آل سانتوريني، احتشدوا داخل المنزل.
اضطربت أوليفيا قلقا على عدم أكل رومان ما يكفي،
وظلت تُقدّم له الطعام بإلحاح. كانت المائدة مثقلة
بأطباق ما رآها قط من قبل، وبدت كلها جيّدة. ولكن
الرجل يستطيع أن يأكل مقدارا مُعيّنا فقط. وقد
تمرّن أفراد العشيرة الأصغر سنا على إنكليزيتهم معه،
مُطربين إياه بوابل من الأسئلة عن أميركا وعن
سرجيو الذي بات أسطورةً عائليةً بنجاحه كمالك
مصلحة تجارية تعمل في الاستيراد والتصدير.

كان رومان قد أمّل أن ينزل في مُقام هادي يوما
أو يومين ريثما يتعلّم طريقه في أنحاء المدينة
ويعثر على نُزل جيّد، ولكن آل كريمونيسي كانوا قد
رتّبوا برنامجا شاملا للأسابيع القليلة التالية من
حياته. حتى إنهم عيّنوا قريبا ليؤدّي دور الدليل إلى

المدينة الخالدة. كان لويجي شابًا بلا عقل وتوافقًا إلى اصطحاب ضيفهم الأميركي في جولة. وإذ ابتسم لرومان ابتسامَةً عريضة، رفع كأس خمره. "نذهب غدًا. أنا أعلمك كل شيءٍ تحتاج إلى معرفته". وغمز. "نحن نبحث عن فتيات".

صفعت أوليقيا لويجي على قفا رأسه، وانفجرت بإيطاليةٍ مهتاجة، مَلوَّحةً في أثناء ذلك بيديها لبالدو في غضب، فردَّ صائحًا شاكياً. وضحك لويجي، فيما رفع بالدو يديه مُستسلماً وصاح عاليًا: "أوليقيا!" فضحك آخرون أيضًا، قائلين للويجي أشياء مع نظراتٍ إلى رومان.

لم يذق رومان أن يكون مركز الانتباه. لم يرقه أن يكون في غرفةٍ مكتظة بين غرباء لم يجدوا أي حرج في معانقته وتقبيله لحظة دخولهم الغرفة. لم يرد أن يرتب له أي شخص برنامجًا لساعةٍ واحدة، فما الحال مع أيام؟ ولم يرد من أحد أن يطلعَه على المدينة. إنه لم يأت إلى روما ليتمكن أناس من السيطرة على حياته. كان يُفضّل بالأحرى أن ينام في الشوارع على أن يبقى في هذا المنزل.

كلما انقضى المساء بتناقُلٍ أكثر، بات رومان أهدأ. لاحظت أوليقيا، وتكلّمت إليه بالإيطالية. وضعت راحتي يديها معًا على خدّها وتظاهرت بالنوم. فرأى رومان غدرًا لفصل نفسه عن الحشد، وأوما برأسه

مُوافِقًا.

نادت أوليقيا لويجي وأشارت بيديها نحو الدَّرَج. فأخبرَ لويجي رومان أنَّ عُرْفَةً قد جُهِّزَتْ له في الدَّور الأعلى، في آخِرِ الدَّرَاقِ إلى اليَسَارِ. ”أصْطَحِبْكَ عِنْدَ الظُّهْرِ“.

ما إنْ أغلَقَ رومان الباب، حتَّى أخرجَ كَرَّاسَةً رَسَمَ من حَقِيبَتِهِ الظُّهْرِيَّةِ. وإذْ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى لَوْحَةٍ السَّرِيرِ الرَّاسِيَّةِ ورَسَمَ بِسُرْعَةٍ: أوليقيا في المَطْبَخِ وبالِدو مُتَّكِنًا على المَنضَدَةِ، وعلى وَجْهِهِ تَعْبِيرُ افْتِتَانٍ. كَتَبَ في أعلى الوَرَقَةِ غَرَايِ (شُكْرًا) ووقَّعَ رومان قِيلَاسْكو في الأسْفَلِ. أقْحَمَ الرَّسْمَةَ في إطارِ مِرَاةِ المِزْيَنَةِ، ونظَرَ من النَّافِذَةِ إلى الخَارِجِ. إذا قَفَزَ، يَهِيْطُ مُبَاشِرَةً على مَمَشَى مَرصُوفٍ بِالْحَصَى. لن يَفِرَّ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةَ. عليه أنْ يَنْتَظِرَ حتَّى تَنْتَهِيَ الحَفْلَةُ وَيَأْوِيَّ آلَ كَرِيمُونِيسِي إلى أَسْرَتِهِمْ.

سَحَبَ دَلِيلَهُ إلى روما، ودرَسَ خَرِيطَةَ المَدِينَةِ. حتَّى إذا عَمَّ الِهُدُوءُ المَنْزِلَ، كانَ قد حَفِظَ تَصْمِيمَ المَدِينَةِ غَيْبًا. أَحَسَّ وَخَزَّ شُعُورًا بِالدُّنْبِ حِيَالَ مُغَادِرَتِهِ في نِصْفِ اللَّيْلِ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ كَافٍ لِجَعْلِهِ يُغَيِّرُ رَأْيَهُ. أَغْلَقَ البَابَ الأَمَامِيَّ بِهُدُوءٍ وَرَاءَهُ. وإذْ مَلَأَ رِثْيَهُ بِهَوَاءِ الحَرِّيَّةِ، أَخْرَجَهُ وَقَدِ مَلَأَتْهُ الرَّاحَةُ. في وُسْعِهِ أنْ يَجِدَ طَرِيقَهُ. ما بَرِحَ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْذُ كانَ ابْنُ سَبْعِ سَنِينَ.

كانت المسافةُ نحوَ كيلومَترَينِ إلى قلبِ المَدِينَةِ،

مع بِضْعَةٍ أَمَاكِنَ لِلإِقَامَةِ. مَشَى بِسُرْعَةٍ، مُبْتَعِدًا بَعْضَ الشَّيْءِ عَن مَنزِلِ آلِ كَرِيمُونِيسِي. كَانَتْ دَرَّاجَاتُ نَارِيَّةٍ خَفِيفَةٌ مُثَبَّتَةٌ عَلَى مَنَاصِبَ بِأَقْفَالٍ أَوْ مَرْبُوطَةٌ بِسَلَابِلٍ إِلَى أَشْجَارٍ. تَذَكَّرَ مَا قَالَهُ جَاسِپِرُ عَن السَّفَرِ فِي أُوْرُوْپَا عَلَى دَرَّاجَةِ نَارِيَّةٍ. قَدْ يَشْتَرِي وَاحِدَةً إِذَا سَنَحَتِ الْفُرْصَةَ.

كَانَ اللَّيْلُ قَدْ انْتَصَفَ، وَلَكِنَّ النَّاسَ كَانُوا فِي الْخَارِجِ هُنَا وَهُنَاكَ. تَصَوَّرَ أَنَّ قَوَاعِدَ النَّجَاةِ هِيَ هِيَ فِي آيَةِ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ. أَبَقِ عَيْنَيْكَ وَأُذُنَيْكَ مَفْتُوحَةً. اَعْلَمْ مَا يَجْرِي حَوَالَيْكَ. فَتَمَامًا كَمَا كَانَ رُومَانٌ يَفْعَلُ فِي سَانَ فَرَنْسِيْسِكُو وَلُوسِ أَنْجَلِيْسِ، تَحَرَّكَ فِي الظَّلَالِ، حَيْثُ شَعَرَ بِرَاحَةٍ أَكْثَرَ الْكُلِّ.



وَجَدَ رُومَانٌ طَرِيقَهُ إِلَى دَارِ اسْتِرَاحَةٍ رَخِيصَةٍ، غَيْرِ بَعِيدَةٍ عَنِ الْپَانْثِيُونِ وَقَرِيبَةٍ إِلَى جِسْرِ فَوْقَ الثَّيْبَرِ. كَانَتْ مَدِينَةُ الْقَاتِيكَانِ عَلَى بُعْدِ بِضْعَةٍ صُفُوفِ مَبَانٍ فَقَطْ. دَفَعَ عَن أُسْبُوعٍ كَامِلٍ، وَنَامَ سَاعَاتٍ قَلِيلَةً قَبْلَ خُرُوجِهِ لِاسْتِكْشَافِ مَتَاهَةِ الشُّوَارِعِ الْمَرْصُوفَةِ بِالْحَصَى. شَقَّ طَرِيقَهُ مُتَعَرِّجًا عَبْرَ مَجْمُوعَاتِ شَبَابٍ وَشَيْبٍ، سَامِعًا الْإِيْطَالِيَّةَ وَالْفَرَنْسِيَّةَ وَالْإِنْكَلِيزِيَّةَ وَالْأَلْمَانِيَّةَ. كَانَتْ مَجْمُوعَاتُ السِّيَاحِ فِي كُلِّ مَكَانٍ رَاقِبِ الْمَحَلِّيِّينَ. أَكَلَ وَشَرِبَ مَا أَكَلُوهُ وَشَرِبُوهُ، فِيمَا تَسَكَّعَ فِي السَّاحَاتِ رَاسِمًا تَصَامِيمَ مَبَانٍ وَنَوَافِيْرَ

وفتياتٍ لابساتٍ تنانيرَ سوداءَ قصيرةً وأحذيةً سوداءَ
عالية الكعوب. كانت المدينة متعةً بالغةً للنظر نهارًا،
وخليةً نشاطٍ ليلاً.

قضى يومًا يجولُ في الفورم الروماني
والكولوسيوم، ويومًا آخرَ قاعدًا على الدرج الإسباني
وراسمًا نافورة ترقى. اشترى تذكرةً دخولٍ إلى
القاتيكان، وحدقَ مشدوهاً في القاعات المتخمة
باللوحات، متوانيًا في زاوية من كنيسة سيستين،
متأملًا تحفة ميكال أنجلو حتى تشجبت رقبته.
وفيما هو يفركها، راقبَ مجموعات السياح مع أدلائهم
يسوقونهم كالقطعان. لحق بهم. كلُّ جدارٍ وسقفٍ
وأرضية كانت أثرًا فنيًا. وقد انتشرت كنوزٌ لا تُقدَّر
بثمن في كلِّ مكان: تيجانٌ مرصعة بالجواهر، تماثيلٌ
مُعشاة بالذهب، خواتمٌ وقلائدٌ ماسية، بدائعٌ أنجزها
داقنشي ورافاييل وتيتان وكارافادجو، مطرّزاتٌ
قضى عشرات الحرفيين عقودًا في حياكتها، أرضياتٌ
رُخامٍ فسيفسائية.

بعد دقائق من دخوله المُجمَع الشاسع، تحوّلت
رهبته إلى قلق. حتى إذا وقف في كاتدرائية القديس
بطرس أمامَ مُنتحبة ميكال أنجلو، مُصنّقة داخلَ
زجاجٍ مضادٍّ للرصاص، تساءلَ بشأن التّشكيلات
الواسعة من الكنوز التي لا تُقدَّر بثمن، واقتناء الغنى
الهائل على مرّ العصور، أكانَ لِمجد الله حقًا أم مُجرّد

استِعْرَاضِ لِلقُوَّةِ؟ مِنْ أَيْنَ جَاءَ المَالُ كُلُّهُ لِبِنَاءِ هَذَا
النُّصْبِ التَّذْكَارِيِّ الضَّخْمِ لِلدِّينِ؟ أَمِنْ إِخْضَاعِ البُلْدَانِ
وَالشُّعُوبِ المَغْلُوبَةِ؟ أَمْ هَلْ تَبَرَّعَ الأَتَقِيَاءُ بِالتَّقَدِمَاتِ؟
تَقَاطَرَ مِائَاتُ الزُّوَارِ حَتَّى غَصَّتْ بِهِمُ الكَاتِدِرَائِيَّةُ.
وَطَافَ مِائَاتُ آخَرُونَ فِي القَاعَاتِ. وَاصْطَفَى آخَرُونَ
خَارِجًا، تَوَاقِينَ جَمِيعًا إِلَى دَفْعِ رُسُومِ الدُّخُولِ
البَاهِظَةِ. كَمِ مِنَ المَالِ يُكَلَّفُ الدُّخُولُ إِلَى السَّمَاءِ، عَلَى
كُلِّ حَالٍ؟ هَلْ تَوَجَّدَ سَمَاءٌ؟ أَوْ جَهَنَّمُ؟ هَلِ اللهُ مَوْجُودٌ
أَصْلًا؟ مَا رَأَى رُومَانٌ قَطُّ دَلِيلًا عَلَى اللهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ
سَمِعَ الأِسْمَ يَسُوعَ مُسْتَعْمَلًا تَكَرَّرًا. لَمْ يَكُنْ قَطُّ قَدْ
عَاشَ مَعَ أَيِّ شَخِصٍ حَسَبَ اللهُ ضَرُورِيًّا، نَاهِيكَ
بِكَوْنِهِ حَقِيقِيًّا. "عِشْ وَدَعْ غَيْرَكَ يَعْشِ" كَانَ دِينًا
يَكْفِيهِ.

أَرَبِكَةُ المَصْلُوبِ. ثَرَى، لِمَاذَا يَتَعَبَّدُ أَيُّ شَخِصٍ
لِإِنْسَانٍ ادَّعَى أَنَّهُ اللهُ وَمَعَ ذَلِكَ مَاتَ عَلَى صَلِيبٍ؟
فَكَرَّ فِي الأَلْفَتَةِ المَرْفُوعَةِ فِي الحَيِّ المُسْتَهْتَرِ، تَمَامًا
فِي الجِهَةِ المُقَابِلَةِ مِنَ الشَّارِعِ حَيْثُ كَانَتِ الشَّقَّةُ الَّتِي
سَكَنَ فِيهَا هُوَ وَأُمَّهُ: يَسُوعَ يُخَلِّصُ. يُخَلِّصُ مِمَّ؟ لِمَ
يَقْدِرُ يَسُوعَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ. كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يُخَلِّصَ
آخَرِينَ؟

وَقَفَّتْ عَلَى مَقْرِبَةٍ مِنْهُ امْرَأَتَانِ مُسْتَتَانِ تَرْتَدِيَانِ
فُسْتَانَيْنِ أُسُودَيْنِ وَشَالَيْنِ، وَالدُّمُوعُ تَجْرِي عَلَى
وَجْهَيْهِمَا. وَلَمَّا مَشَتَا مُبْتَعِدَتَيْنِ، لِحِقِّ بِهِمَا مُسْتَطَلِعًا.

دَخَلْنَا مُخْتَلَىٰ وَرَكَعَتَا عَلَىٰ بَنِكِ خَشْبِيِّ خَفِيضٍ. كَانَتَا
تَحْمِلَانِ مَسْبَحَتَيْنِ وَتُثْمَتِمَانِ بِصَلَوَاتٍ. وَقَفَ رُومَانٌ
قُرْبَ الْحَائِطِ وَرَسَمَهُمَا. لَبِثْنَا سَاعَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ نَهَضْنَا
وَانْتَقَلْنَا إِلَى الْجَنَاحِ، حَيْثُ رَكَعَتَا، وَمَسَّتَا جَبِينِيَهُمَا
وَقَلْبِيَهُمَا وَكُلًّا مِنْ أَكْتَافِيَهُمَا قَبْلَ أَنْ تَقُومَا وَتَنْصَرِفَا
بِهَدْوٍ. كَانَتِ الدَّمُوعُ قَدْ جَفَّتْ، وَبَدَتَا فِي سَلَامٍ. رَفَعَ
نَظْرَهُ مُحَدِّقًا إِلَى تِمثالِ يَسُوعَ، بِيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ
المُسَمَّرَاتِ عَلَى الصَّلِيبِ، وَجِسْمَهُ المَهْزُولِ وَالمَفْتُولِ،
وَوَجْهَهُ المُلْتَوِي القَسَمَاتِ مِنَ الأَلَمِ.

غَمَرَ الغَضْبُ رُومَانَ. لَمْ يَدِرْ مِنْ أَيْنَ جَاءَ أَوْ لِمَاذَا.
غَادَرَ الكَاتَدْرَائِيَّةَ وَجَالَ فِي الشُّوَارِعِ المُحِيطَةِ
بِالقَاتِيكَانِ. رَأَى كَثِيرًا مِنْ رَسُومِ الغَرَاْفِيَتِي، وَلَكِنَّهُ مَا
كَانَ لِيَفْخَرَ بِأَنْ يَتْرَكَ أَيًّا مِنْهَا. كَانَتِ مَجْمُوعَةٌ مِنْ
الشَّبَابِ الطَّلِيْعِيِّينَ تَتَسَكَّعُ فِي سَانَ لُورِنَزُو فِي رُومَا
سُتَرُوا. انْتَقَلَ إِلَى وَسْطِهِمْ، مُسْتَمِعًا وَمُرَاقِبًا، حَتَّى
اسْتَوْقَفْتَهُ فَتَاةٌ إنْكَلِيزِيَّةٌ وَبَاشَرَتْ حَدِيثًا. انْضَمَّتْ
إِلَيْهِمَا فَتَاةٌ إِيْطَالِيَّةٌ وَقَالَتْ إِنَّهُمْ جَمِيعًا كَانُوا ذَاهِبِينَ
إِلَى تِرَاسْتِيْقِيرِ. أَمْضَى رُومَانَ المَسَاءَ شَارِبًا وَسَائِلًا
أَيْنَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْتَرِيَ لُوزِمَ الرِّسْمِ.

لَمَّا رَجَعَ إِلَى مُقَامِهِ، رَسَمَ كَاهِنًا مُرْتَدِيًا غَفَّارْتَهُ،
أَصَابِعُهُ مَكْسُوءَةٌ خَوَاتِمِ، يَتَدَلَّى مِنْ عُنُقِهِ صَلِيبٌ مُتَقَنَّ.
كَانَ يَنْتَعِلُ حِذَاءَ قُرْصَانٍ وَإِحْدَى قَدَمَيْهِ عَلَى صُنْدُوقِ
كَنْزٍ، فِيمَا جَثَمَتْ بِقُرْبِهِ فَلَاحَةٌ بَارِزَةٌ العِظَامِ وَيَدُهَا

ممدودة. ثُمَّ غَضَّنَ الرَّسْمَةَ ورمها عبر الغُرفة.

نام رومان نوّمًا مُتَقَطَّعًا وحلَمَ بِأَمِّه.

في الصَّبَاحِ التَّالِي، وهو مُرَهَقٌ وفي مِزَاجٍ سَيِّئٍ،
سَقَّ طَرِيقَهُ إِلَى مِتْجَرٍ دِيثًا جِي يُغِي وَاشْتَرَى كَرَّاسَةً
رَسَمٍ أُخْرَى وَمَزِيدًا مِنْ أَقْلَامِ الْفَحْمِ. رَاقَتْهُ رَائِحَةُ
الْمِتْجَرِ، وَتَمَهَّلَ فِيمَا جَاءَ الْمَشْتَرُونَ وَذَهَبُوا. انْتَشَرَتْ
غَمْفَمَةٌ مُخْتَلِطَةٌ لَمَّا دَخَلَ رَجُلٌ مُعَيَّنٌ، اشْتَرَى أَنَابِيبَ
طِلَاءٍ زَيْتِيٍّ وَفِرَاشِيٍّ غَالِيَةَ الثَّمَنِ، ثُمَّ أودَعَ طَلَبًا لِأَجْلِ
حَشْرَاتٍ قِرْمِزٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ مِنْهَا دَرَجَةً مُعَيَّنَةً
مِنَ اللَّوْنِ الْقِرْمِزِيِّ. وَقَدْ طَلَبَ رُومَانٌ طِلَاءً رَشَّ مِنْ
مَارِكْتِي بَلْتِنِ مُولُوطُو وَسِيَانِشِ مُونْتَانَا.

أَعْطَى رُومَانٌ ثِقْلَ الْعَلْبِ فِي حَقِيبَتِهِ شُعُورًا
بِالْهَدَفِ. رَجَعَ إِلَى عُرْفَتِهِ الْمُسْتَأْجِرَةِ وَمَارَسَ رَسْمَ
الْمَنْظَرِ الْمَطْبُوعِ فِي ذَهَبِهِ. بَسَّطَهُ رَاسِمًا خُطُوطًا أَقْلًا
وَمُفَارَقَاتٍ أَكْثَرَ. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَغَلَ بِسُرْعَةٍ، فَعَنَى
ذَلِكَ أَنَّهُ وَجِبَ أَنْ يُؤَدِّيَ كُلَّ خَطٍّ وَمُنْحَنِيٍّ شَيْئًا مَهْمًا-
شَيْئًا يُوَلِّدُ انْطِبَاعًا. أَسْوَدٌ، أَبْيَضٌ، أَحْمَرٌ، ذَهَبِيٌّ: أَرْبَعَةٌ
أَلْوَانٍ أَكْثَرَ مِنْ كَافِيَةٍ لِلْإِفْصَاحِ عَنْ فِكْرَتِهِ.

إِذْ سَرَّ رُومَانٌ بِالْأَثَرِ الْفَنِّيِّ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَرَّنَ
حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يُنْجِزَهُ فِي أَقْلٍ مِنْ ثَلَاثِ دَقَائِقٍ.
وَلَمَّا لَمْ يَنْجَحْ ذَلِكَ، اشْتَرَى وَرَقَ لَفٍّ قَوِيًّا، وَشَرِيظَ
إِخْفَاءٍ لِاصْقًا، وَمِقْصًا، وَوَضَعَ مَخْطَطًا لِلرَّسْمِ. حَتَّى
إِذَا بَاتَ كُلُّ شَيْءٍ لَدَيْهِ جَاهِزًا، طَافَ فِي الشُّوَارِعِ كِي

يَجِدَ مَكَانًا يَنْسُخُ رِسْمَتَهُ عَلَيْهِ. ثُمَّ اخْتَارَ جِدَارًا بِقُرْبِ
سَاحَةِ رِيْزُورْغِيْمَنْتُو، وَيَوْمَ الْأَحَدِ قُبَيْلَ الْفَجْرِ لِلتَّنْفِيْذِ.
ارْتَدَى جِيْنَزَةَ الْأَسْوَدِ وَقَمِيْصَهُ وَقَلَنْسُوْتَهُ وَقُقَّازِيَه.
وَالْتَقَطَ عُدَّتَهُ.

انزَلَتْ نَافِذَةٌ بِخَبْطَةٍ وَاَنْفَتْحَتْ فِيمَا رُومَانَ يُلِصِقُ
الرُّوسَمَ عَلَى الْجِدَارِ. أَبْقَى رَأْسَهُ مُنْخَفِضًا وَوَجْهَهُ
مَخْبُوءًا، فِيمَا فَتَحَ غُلْبَ رِشِّ الطَّلَاءِ وَرَاحَ يَشْتَعِلُ.
انْتَهَى فِي أَقْلٍ مِنْ ثَلَاثِ دَقَائِقٍ، وَنَزَعَ الْمَخْطَطَ. سَمِعَ
شَخْصًا يَضْحَكُ إِذْ جَمَعَ عُدَّتَهُ، وَأَطْلَقَ سَاقِيَه لِلرِّيحِ.
وَإِذْ نَزَعَ قُقَّازِيَه، دَسَّ الْحَقِيْبَةَ فِي صَفِيْحَةِ قُمَامَةٍ
عَلَى بُعْدِ صَفِيٍّ مَبَانٍ.

مَا حَسِبَ أَنْ رَسَمَهُ الْغِرَافِيْتِي سَيَدُومُ يَوْمًا وَاحِدًا،
فَأَحْسَسَ دَفْقَةَ رِضَى لَمَّا كَانَ مَا يِزَالُ هُنَاكَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ
أَيَّامٍ. وَلَمَّا قَالَ طَالِبٌ جَامِعِيٍّ فِي دَارِ الْاِسْتِرَاحَةِ إِنَّهُ
سَيَرْجِعُ إِلَى مَدِيْنَةِ نِيُويُورْكَ إِذَا تَوَافَرَ لَهُ الْمَالُ لِشِرَاءِ
تَذْكَرَةِ عُودَةٍ، عَرَضَ رُومَانَ أَنْ يَشْتَرِيَ دَرَّاجَةَ الْفَتَى
النَّارِيَّةَ بِمَا يُعَادِلُ ثَمَنَ مَقْعَدٍ فِي الدَّرَجَةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ.
وَقَدْ كَانَتْ حُجَيْرَتَا الْحَزْنِ عَلَى الدَّرَاجَةِ أَكْثَرَ مِنْ
كَافِيَّتَيْنِ لِلْمُتَعَلِّقَاتِ الْقَلِيْلَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَحْضَرَهَا
رُومَانَ.

تَوَجَّهَ رُومَانَ شَمَالًا إِلَى فُلُورَنْسَا. مَكَثَ هُنَاكَ شَهْرًا،
ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى قْنِيْسِيَا. جَعَلَتْ حَرَارَةُ الصَّيْفِ مِزَاقَ
الْهَوَاءِ كَالْوَحْلِ، وَغَضَّتِ الْمَدِيْنَةَ بِحُشُودِ السِّيَّاحِ. اتَّجَهَ

رومان إلى جبال الألب السويسرية.

في كل مدينة قضى رومان فيها أكثر من يوم واحد، خلف تصريحًا، رسمة غرافيتي تتكلم إلى الجمهور. شك أن أحدًا عناه رأيهُ في العالم وتصور أن رسومَه سثزال في غضون أيام قليلة. وكان قد واصل السفر في أنحاء أوروبا مدة شهرين لما تثبتت في رأسه فكرة، تحد من شأنه أن يوصله إلى سجن فرنسي، أو يكسبه شهرة بصفته "العصفور". فتوجه إلى باريس.

أمضى ثلاثة أيام كاملة في متحف اللوفر، مُترددًا إلى القاعات، مُمتعًا نظره بالرسوم. راقب الحراس، استكشف مواقع كاميرات الأمن، وقت المسافات، تحقق من حفظه الممرات والأرضيات والأروقة. اشترى بنطلونًا فضفاضًا، وقميصًا أبيض، ومعطفًا واقيا من المطر، وقبعة رسمية، ثم مضى ليشتري كتابًا كبيرًا عن فن عصر النهضة الأوروبية، وكيسا من قماش القنب عليه شعار المتحف.

لما بات رومان حائرًا خبطته وكل ما يحتاج إليه لتنفيذها، رسم لوحته الزيتية الأولى على قماشية بطول ٢٥ سنتيمترًا وعرض ٢٠ سنتيمترًا: بومة على غصن صنوبر، إحدى عينيها مفتوحة والأخرى مغمضة، ومنقارها ابتسامة لطيفة. وقع BRD بأحرف صغيرة منقوشة في الزاوية اليمنى السفلى. واشترى

إِطَارًا مَطْلِيًّا بِمَاءِ الذَّهَبِ وَشَمْعًا مُتَحَفِيًّا.

فِي آخِرِ يَوْمِ لِرُومَانَ فِي پَارِيسِ، رَجَعَ إِلَى اللُّوْقِرِ.
بَدَأَ كَأَيِّ وَاحِدٍ مِنْ مِئَةِ زَائِرِ آخِرِينَ أُنَيْقِي اللَّبَاسِ
يَتَأَمَّلُونَ الرِّوَائِعَ فِي القَاعَاتِ المُبَجَّلَةِ مِنَ المْتَحَفِ
الشَّهِيرِ عَالَمِيًّا. اعْتَمَرَ قُبْعَتَهُ الرَّسْمِيَّةَ مَسْحُوبَةً إِلَى
الْأَمَامِ وَالْأَسْفَلَ لِيُخْفِيَ وَجْهَهُ عَنِ كَامِيرَاتِ الأَمْنِ.
تَمَهَّلَ هُنَا وَهَنَا، مُتَظَاهِرًا بِالاهْتِمَامِ بِرَسْمِ أَوْ لَوْحَةٍ
مَنْقُوشَةٍ، فِيمَا هُوَ مُسْتَمْتِعٌ بِتَدْفُوقِ الأَدْرِينَالِينِ.

عَرَفَ رُومَانَ تَمَامًا أَيْنَ كَانَ ذَاهِبًا، وَقَدْ رَتَّبَ
التَّوْقِيتَ بِكُلِّ دِقَّةٍ. اسْتَغْرَقَ الأَمْرُ أَقْلَ مِنْ دَقِيقَةٍ كِي
يُخْرِجَ لَوْحَتَهُ مِنْ كَيْسِ التَّبْضُوعِ الخَاصِّ بِالمْتَحَفِ،
وَيَضْغَطُهَا عَلَى فِرَاقِ الجِدَارِ بِقُرْبِ زَيْتِيَّةِ لِكَلْبِي صَيْدِ.
وَإِذْ وَخَزَهُ جِلْدُهُ، أَحْسَسَ حَارِسًا يَنْظُرُ نَحْوَهُ. فَأَزَاحَ
رُومَانَ كَيْسَ التَّبْضُوعِ المْتَحَفِيِّ كَمَا لَوْ أَنَّ الكِتَابَ فِي
دَاخِلِهِ قَدْ أَصْبَحَ ثَقِيلًا. فَقَدَّ الحَارِسُ الِاهْتِمَامَ. لِبِتِّ
رُومَانَ دَقِيقَةً أُخْرَى، مُتَكَلِّفًا ابْتِسَامَةً. ثُمَّ غَادَرَ بَعْدَ
حِينَ القَاعَةِ. مَشَى الحَارِسُ مُقَابِلَ لَوْحَةِ رُومَانَ تَمَامًا
وَجَاوَزَهَا دُونَ أَنْ يُلَاحِظَهَا. غَادَرَ رُومَانَ ضَاحِكًا
ضِحْكَةً خَافِتَةً، مُتَسَائِلًا كَمْ سَيَطُولُ الوَقْتُ قَبْلَ أَنْ
يُدْرِكَ القَيِّمُونَ أَنَّ أَثْرًا مَا لَمْ يَكُنْ يَنْتَمِي إِلَى مُحِيطِهِ.

الفصل ٨

قلّما تكلمت غريس مع رومان على مدى الأسابيع القليلة التالية. لقد اشتغل كما لو كان مُقيّدًا بسلسلة إلى طاولة تصميمه. أكان يستمتع بالعمل إلى ذلك الحدّ، أم كان فقط تواقًا لأن يُنجز المشروع ويضعه وراء ظهره، حتّى يتسنى له أن يمضي قُدّمًا بالرّسوم التي ما زالت على الحاملات، تلك التي كانت تاليا مُتلهفةً لأن تُضيفها إلى الأخرى التي أنهاها رومان لأجل المعرض الذي أرادت أن تُحدّد برنامجَه وموعده؟

هل كان الرّجل يعيش على القهوة؟ تساءلت غريس هل أكل شيئًا ما في الأيام القليلة الأخيرة، حتّى رأت غلب الغداء المُجلّدة وصواني الورق الفضيّ مدسوسةً في صفيحة القمامة. ذكّرت نفسها بأنّ حياة رومان الخُصوصيّة ليست من شأنها بتاتًا، وأحسّت ضميرها يُضايقها. ألا ينبغي للمُساعدة الشخصية أن تُعنى بصحّة رئيسها؟ مشّت غريس في

الزّواق وصعدت إلى المرسم في الدّور العلويّ. وقفت
بالباب، ولكنّ بدا رومان غاطسًا في شُغله. وقد بدا
أيضًا كأنّ به ضداً يُعمي البصر. ”هل لي أن أحضّر
لك شيئًا؟“

فرّك جبينه مُتجهّمًا. ”مزيدًا من القهوة“.

”رُبّما أصابك ضداً لأنّك لم تأكل طوّل النّهار. لا
يُمكنك أن تعيش على الكافيين، رومان. في وُسعي
أن أعمل لك سندويتشًا“.

”أجل، شكرًا“.

حسنًا، كان ذلك سهلًا. ”أثريده ههنا أم في
المطبخ؟“ لم يكن عند الرّجل طاولةٌ سفرة، إلا إذا
حسب تلك التي في الفناء المرصوف. كان الجوّ باردًا
فوق الحدّ، والرّيح هابّة، فما كان ذلك لينفع.

رمى رومان قلمَ الجبر داخلَ صينيّة. ”أحتاجُ إلى
استراحة“. وإذ وقف، تمطّى، فانسحب القميصُ
مشدودًا فوق صدره العَضل. ”بدأتُ أرى خُطوطَ
حمير الزّرد في كلِّ مكان“.

دخلت غريس المطبخ ونظرت داخلَ البرّاد. ”ليس
عندك كثيرٌ ههنا“.

”مهما وجدتي. قد يكونُ شيئًا من لحمِ العجلِ
المَشويّ متروكًا هناك في مكانٍ ما داخلَ البرّاد“.

مشى رومان إلى النّوافذ.

وضعت غريس خُبزًا وُصرةً لحمِ عجلٍ مَشويّ

فاخِر في المطبخ. ”هذه أوّل مرّة فيها أراك مُستمتِعًا بإطالَتك“. ووجدت أشياء أُخرى تُضيفُها إلى السّندويتش. ”سيشكّل المُطلّ لوحةً جميلةً“.

بادَلها رومان النّظر، مُعلّقًا إبهامِي يَدِيه داخل جيبِيه. ”ليس هذا ما أعتى به“.

”أمرٌ مؤسِف. ماذا تُحبُّ في سندويتشك؟ خردلًا؟ بعض الميُونيز؟ لاشيئًا؟“

”أيّ شيءٍ وكلّ شيءٍ في المُتناوَل“.

وجدت شرائح جُبِن، ورأس بَندورة، وبصلة حمراء ومُخللاً وخُبزًا وزُبدة. ”اتّصل هيكْتور. كاد أثره الفنّي يُنجز. ذهب إلى حديقة الحيوانات. أعجب بها“. دهنت شريحة خُبزٍ بكثيرٍ من الميُونيز. ”لم تُرد تاليا إزعاجك، ولكنها تُريدُ أن تُعيّن موعدًا للمعرِض. وقد جاءتك مُخابرةٌ من مُحافظ غولدين. إنه معنيّ بتكليفك أن ترسّم جداريةً للمدينة“.

”ما سمعتُ قطُّ بهذا المكان“.

”بحثتُ عنه في غوغل. هو حيّ جديدٌ وُلد من مدينة أشباح كانت في ما مضى بلدةً مُزدهرة في أثناء هجمة التّنقيب عن الذهب“.

”لا يُمكنك أن تُصدّقني كلّ شيءٍ من الإنترنت“.

”أعرف“. قطعت غريس السّندويتش الثّخين نصفين، ووضعتَه على صينية. ”شخصٌ اسمه جاسپر هاولي ترك رسالة“. زلّقت الطّبِق إليه. ”أرجو أن

يكون صديقًا، لأنّه قال إنه يريدُ سريّرًا لينامَ هُنا
ووجبةَ طعامٍ مَطهُوَّةٌ في البيتِ“.

ضحكَ رومان. ”أجل، حسنًا، هوَ مُعلِّمي في
مزرعة ماسترسن الجبليّة. إنّها بيتُ جماعيّ في أرضِ
الذهب، ربّما ليسَ بعيدًا عن مدينة غولدين القديمة
المبتكرة حديثًا“.

بيتُ جماعيّ؟ خَطَرَت فجأةً في رأسِ غريس
عشرةُ أسئلةٍ على الأقلّ.

جلسَ رومان لياكل. ”أليسَ لَدَيْكَ حتّى فضولٌ
كافٍ لتسألني؟“

علِمَت أنّها كانت بحاجةٍ إلى حُدودٍ مع هذا الرَّجُل.
”ماضيكَ المُتفاوتُ ليسَ من شأني في شيء“.

قضَمَ رومان قضمَةً كبيرةً من السّندويتش. وإذا
رفعَ حاجبيه، أطلقَ صوتَ سُرورٍ ذُكوريٍّ بثّ في
أوصالها وخزا خفيًّا لم تكن قد شعرت بمثله على
مدى مُدّةٍ طويلة.

لم تتمالكِ غريس نفسها عن ألا تكونَ فضوليّةً
بشأنِ رومان قيلاسكو، ولكنّ مُحيطُهُ كان كافيًا
لإخبارها بأنّه يُثمنُ خصوصيّةه. صبّت له كأسًا طويلةً
من عصير البرتقال.

بدا مسرورًا. ”تُحاولينَ أن تعتني بي؟“
”أعرِفُ من أينَ أكسِبُ معيشتي“. كان قد أتى
فعلاً على أوّلِ نصفٍ من سندويتشه. أكانَ طيبًا بذاك

المقدار، أم عنى ذلك أنه كان جائعًا جدًّا؟ كان أطول
قائمة من پاتريك، وكان في وُسعِ زوجها السابق أن
يتناول سندويتشين وثقافةً وغبوةً بطاطا مقليةً
دونَ جهد. دون شك، كان يقضي معظمَ وقته مُشغلاً
خارج البيت. ”هل أعملُ لك سندويتشًا آخر؟“ أو ما
برأسه مُوافقًا، فبسّطت شريحتي خبزٍ أُخريين.
”حسنًا. سأسأل. لماذا انتهى بك الأمرُ إلى بيتِ
جماعي؟“

”كان إمّا ذلك وإمّا السّجن.“ التّقظ كأس عصير
البرّتقال وسهّل التهامَ آخرِ لُقمة من السّندويتش.
السّجن؟ ”ماذا فعلت؟“

”جُنّ جنوني. وقّعتُ بأحرفِ اسمي الأولى على
بِضعةٍ مَبانٍ.“

لم تعلم غريس عمّا تكلم، وهو لم يشرح.
راقبها رومان وهي تعملُ السّندويتش الثّاني. ”ما
زال هاولي يُراقبني من كَثب. إنّه يدعُوني واحدًا من
صبيانهِ الثّائِهين. هُو يَتيقنُ بأنني أسلكُ سبيلًا سويًّا
وقويًّا، كما أحمّن.“ أنهى عصيرَ البرّتقال. ”نهايةُ
القِصّة.“

فهت ذلك بمعنى نهايةِ الموضوع، ولم تُلح. ”منذُ
متى أنت هنا؟“

”هنا؟ كما في توبنغا كانيون؟ فوقَ سنّةٍ بقليل.
سكّنتُ على شاطئِ قبلِ هذا.“

بِقَلَامِهِ، اسْتَطَاعَتْ بِسُهُولَةٍ أَنْ تَتَصَوَّرَهُ عَلَى لَوْحِ
رَكُوبِ مَوْجٍ فِي هَاوَايٍ مَعَ سِرْبٍ مِنْ جَمِيلَاتِ
الشَّاطِئِ السَّابِحَاتِ. ”فِي وَسْعِي أَنْ أَرَاكَ فِي كَوْخِ
عَلَى الشَّاطِئِ“.

”كُلُّ شَاطِئٍ يُشْبِهُ أَيَّ شَاطِئٍ سِوَاهُ. لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ
كَثْرَةِ النَّاسِ حَوَالِيَّ. أَرَدْتُ فُسْحَةً وَهَدْوَةً“.

”حَسَنًا، لَكَ هَذَا يَقِينًا“. وَضَعْتَ السَّنْدُوَيْتَشَ
الثَّانِيَّ عَلَى صَحْنِهِ. ”الْمَكَانُ هُنَا فَوْقَ هَادِيَّ“. أَطَبَقْتَ
عُلبَتِي لَحْمِ الْعَجَلِ الْمَشْوِيِّ وَالْجُبْنِ، وَلَفَّتِ الْخَسَّ،
وَأَعَادَتْ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى الْبَرَادِ. وَإِذْ رَطَبْتَ خِرْقَةً،
نَظَّفْتَ الْمَنْضِدَةَ. ”هَلْ مِنْ جِيدَانِ قَرِيبَيْنِ؟“
”سِوَالِكِ؟ لَا“.

مَا كَانَتْ بِالْحَقِيقَةِ قَدْ فَكَّرَتْ فِي الْبُعْدِ، أَوْ فِي كَوْنِهِ
هُوَ الْكَائِنَ الْبَشَرِيَّ الْوَحِيدَ فِي الْجِوَارِ.

”لَا تَهْلَعِي، مِزْ مُورِ. لَيْسَ لَدَيَّ أَيُّ دَوَافِعَ خَفِيَّةٍ
لِتَقْدِيمِ الْكَوْخِ لَكَ. إِنَّمَا بَدَأَ ذَلِكَ أَفْضَلَ حَلًّا لِكَلِينَا“.

اسْتَرَخَتْ قَلِيلًا. ”حَسَنًا، كَانَ بِالتَّأَكِيدِ اسْتِجَابَةً
صَلَوَاتِ“.

”صَلَوَاتِ!“ أَطْلَقَ ضِحْكَةً مُعْبَّرَةً. ”أَكْرَهُ أَنْ أُخَيَّبَ
أَمْلَكَ، غَرِيسَ، وَلَكِنَّ الصَّلَاةَ لَيْسَتْ هِيَ مَا أُعْطَاكَ هَذَا
الْمَكَانَ. أَنْتِ جَيِّدَةٌ فِي عَمَلِكَ. أَرَدْتُ أَنْ أَبْقِيَكَ عَلَى
مَقْرَبَةٍ مِنِّي. ذَلِكَ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ. لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ هُنَاكَ
فِي الْخَارِجِ يُصْفِي أَوْ يَتَوَقَّ أَنْ يَتَدَخَّلَ لِأَجْلِ

مصلحتنا“.

كانت غريس قد سمعت كثيرًا من الناس يصرفون النَّظَرَ عن الله كما لو كان شيئًا لَفَقَهُ الخيال للإتيان بالعزاء في الظلام. لَرُبَّما كانت توصلت إلى الاعتقاد عينه لو لم يحصل لها افتقادٌ لَمَّا كانت في السابعة من عُمرها، مُختبئةً في خزانة ملابس مُظلمة، مُرتعبةً من الليلِ والوَحشِ الذي يجيءُ معه. لم تتحدَّث بما جرى لَمَّا كانت فتاةً صغيرة. ثُمَّ إِنَّ پاتريك ما شعرَ قَطُّ بأية حاجةٍ إلى الإيمان بأيِّ شيءٍ سِوى نفسه، وإلاَّ كانَ شعرَ بالسُّوءِ بشأنِ ما فعله.

كانت قد تعلَّمت من زمانٍ أَلَّا تُجادِلَ في اللاهوتيات. فهي لم تُقبلَ إلى الإيمان لأنَّ شخصًا ما أعطاهَا جميعَ الأجوبة. لقد أقبلت إلى الإيمان لأنها قابلت وحادت شخصًا جعلها تشعر بأنها مُحاطةٌ بمحبَّة الله. معَ ذلكَ كانَ عليها أن تقولَ شيئًا ما لهذا الرَّجُلِ الذي بدا كأنَّ لديه كلَّ شيءٍ ولا شيء. ”أنا أومنُ بالله. قد تكونُ الحياةُ لا تُطاقُ إلى حدِّ بعيدٍ لولا وجودُ شيءٍ ما نؤمن به.“ تلقت حملةً رومان فيلاسكو، ولم تُشِح بِنظرها. لقد سمحت لِنفسها بأن تُشكَّ، وكلَّما شكَّت جاءت كارثةٌ في الأعقاب سريعًا.

”هل في البَرادِ مزيدٌ من عصيرِ البُرثقال؟“

تلقت الرِّسالة. لا مزيدَ من الحديث بشأن الرَّبِّ. ما كانت قد نوت أن تهديه إلى الإيمان. ”بقيَ قليلٌ بعد.

أثريده في كأسك، أم تفضل أن تشربه من القنينة مباشرة؟“

”لا بأس بالقنينة“. ابتسم ابتسامه عريضة إذناولته إياها.

”أنت بحاجة إلى بقالة“.

”تخميني أنك ستقومين برحلة قصيرة أخرى إلى ماليبو“.

”أنت الرئيس“.

أخرج رومان محفظته، وسحب ورقتي نقد من فئة المئة دولار. ”ما قولك في شيء من الطعام الحقيقي، على سبيل التغيير؟“

”سأحتاج إلى مواصفات. أتستطيع أن تطهو، أم الأمر مسألة إضافة تشكيلة جديدة ومازكات غداء يمكنك تسخينها بالمايكرويف؟“

”أستطيع أن أطهو. أستطيع حتى غسل ثيابي وتسوية سريرى. إنما هناك أشياء أخرى أحب القيام بها على نحو أفضل“. وابتسم ابتسامه خفيفة. ”كان ذلك سندويتشا عظيمًا، على فكرة. هل تستطيعين إعداد أي شيء آخر؟“

علمت غريس إلى أين كان متوجّهاً. فلائحة واجباتها ظلت تطول. ”قليلاً من هذا وقليلًا من ذلك“.

”أي شيء تطبخينه سيكون أفضل مما اعتدت أن

أعيش عليه. ثم إن سوق السيارة نزولاً إلى مطعم يستغرق وقتاً يفوق الحدّ.

مطعم؟ أكان يمزح؟ "لست رئيسة طهاة، رومان".
"لحم وبطاطا. لحم وخضار. لحم وسلطة. عدي
عن الكرنب والملفوف. أريد أن أبقى بصحة جيدة،
ولكن ليس بصحة ممتازة. أبقى الطعام بسيطاً".

كان يحسب أموراً كثيرةً تحصيل حاصل. "لم لا
أقوم برحلة إلى متجر ولمازت وأحضرت خلاطاً؟
تستطيع أن تطرح نصف كيلو من اللحم المفروم،
وبعض الخضر، وتكبس زراً. فيكون غداؤك جاهزاً
للتناول في أقل من دقيقة".

نظر إليها كما لو أن قرنين ذراً في رأسها. ضحكت
غريس. "أو أستطيع أن أشتري لك مخفوقات
البيروتين تلك". التقت قنينة عصير البرتقال
الفارغة. "هل تُعيد التدوير؟"

"لا أدري". وقف رومان، ثم جلس على مقعده من
جديد. بدا مشحوباً.

"كنت أمزح فحسب". ولما لم يقل أي شيء،
نظرت إليه نظرة أقرب. "أنت بخير؟"
"متعب فقط".

"ربما ينبغي أن تستلقي قليلاً".

"هل تعنين أن آخذ قيلولة؟" رمقها بنظرة تهكم.

”لستُ والدتك، ولكنك استغرقت ثلاثين دقيقةً كاملةً لتناول الغداء في الثالثة بعد الظهر.“
”هكتور ينتظر.“

كان هكتور غُذراً واهياً، ولكنها لم تكن في موقعٍ مُماحكة. ماذا كان يضغطُ على رومان بهذه الشدة البالغة؟ ليس المال. كان لديه وفرةٌ منه، ولم يُنفق الكثير. ”هكتور يشتغلُ عندك. هو في جدولِ مواعيدك.“

”أريدُ فقط أن يُنجَزَ الجدار.“ لم يتحسَّن لَوْنُ وجهه كثيراً. لماذا كان ينظر إليها هكذا؟ أمال رأسه، مُتأملاً إياها. ”أنتِ مُرخيةٌ شعركِ ليطول؟“

ارتفعت يدها غريزياً لتلمس الشعر الذي بات الآن يُغطي قفا رقبتِها. كانت قد قصته قصيراً مُعاقبةً للنفس. وقد قالت لها صديقاتها إن الأوان أن للكف عن مُعاقبة النفس. ”أظن ذلك.“

”ستكونين حسنة المنظر بِشعرٍ طويل.“
سبق أن قال لها پاتريك الشيء نفسه. ”الشعرُ القصيرُ عمليٌّ أكثر.“

قَطَبَ جبينه وفتحَ فمه كأنما همَّ بأن يقول شيئاً، ثمَّ غيَّرَ رأيه. ”شكراً على السندويتش.“ ووقفَ فترنَّحَ قليلاً. ”أعتقدُ أنني سأستلقي إلى حين.“
”سأتبضع الآن، إذا كان ذلك مُوافقاً.“

”يقيناً. أطفئي رنَّانَ التُّلفون.“ وثرَّدَ. ”متى

سَتَنْتَقِلِينَ إِلَى هُنَا؟“

”في نهاية هذا الأسبوع“.

كانت السَّاعَةُ قد قاربت السَّادسة لَمَّا رَجَعَت غريس إلى المنزل. تَوَجَّهَتْ إلى المَرَسَم لتسأل عن إمكانية التَّعْطِيل تعويضًا عن ساعات العمل الإضافية بدلًا من تقاضي أجرِهَا. وإذ مشَتْ في الزَّوَّاق، رأت رومان مُمدَّدًا على سريره. كان مُستقلِّيًا كأنما قد أُسْقِطَ كَشَجَرَةٌ ولم يتحرَّك مُنذُذٍ. فأحسَّت خوفًا مُبْهِمًا.

”رومان؟“ لم يُجِب، ولا تحرَّك أيضًا. هل كان بخير؟ خَطَّت فوق العتْبة، وقد استولى عليها تقريبًا حافِزُ نَزَعِ حذائه وتغطيته بِبَطَانِيَّةٍ.

كانت مُيولُ الرَّعاية قد ورَّطتها في عالمٍ من البلاء والألم مرَّةً من قبل. لن تسلك ذلك السَّبيلَ من جديد. ”رومان؟“ تكَلَّمَت بصوتٍ أعلى قليلًا هذه المرَّة. فأصدرَ صوتًا وتحرَّك على نحوٍ كافٍ تمامًا لِظَمَانَتِهَا.

انكفأت إلى المكتب، فكتبت ملاحظةً وتركتها في المطبخ، مع الوصل والفراطة المردودة. ثمَّ أغلقت البابَ الأماميَّ بِهدوءٍ وراءها.



استيقظ رومان مُتعرِّقًا، وقلبه يخفق بِشِدَّةٍ. تمدَّد ساكنًا، مُكافحًا حِسَّ الفرع الذي تدلَّى في الظلام

ضاغِظًا عليه بقوة. أَحَسَّ أَنَّهُ فِي السَّابِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ
مُجَدِّدًا، وَأُمُّهُ قَدْ غَادَرَتْ لِقِضَاءِ اللَّيْلِ. تَحَرَّكَتْ عَلَى
الجِدَارِ ظِلَالٌ قَاتِمَةٌ، فَأَضَاءَ النُّورَ بِسُرْعَةٍ. مَا كَانَ هُنَاكَ
أَيُّ شَيْءٍ. لَا دَاعِيَ لِلذُّعْرِ. تَبَاطَأَ نَبْضُهُ بِالتَّدْرِيجِ، وَتَبَدَّدَ
خَوْفُهُ. **شُدَّ حَيْكُكَ! مَا عُدْتَ وَلَدًا.**

كم من الوقت مضى وهو نائم؟ كان ضوء النهار
مُنْتَشِرًا لَمَّا اقْتَرَحَتْ غَرِيسٌ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَلْقِيَ إِلَى
حِينَ. لَمْ يَتَذَكَّرْ حَتَّى مَا جَرَى بَعْدَمَا مَشَى إِلَى دَاخِلِ
غُرْفَةِ نَوْمِهِ. أَشَارَتِ السَّاعَةُ الرَّقْمِيَّةُ إِلَى ١:٣٦. لَقَدْ
مَرَّتْ سَاعَاتٌ فِي مَا بَدَأَ كَدَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ. وَقْتُ ضَائِعٍ.
وَقْتُ مُبَدَّدٍ. وَإِذْ جَلَسَ عَلَى حَافَةِ سَرِيرِهِ، انْتظَرَ رِيثَمَا
يَزُولُ الأَرْتِيَاكُ الغَرِيبُ. ثُمَّ نَقَفَ مَفَاتِيحَ الكَهْرَبَاءِ لِأَجْلِ
مَزِيدٍ مِنَ النُّورِ، وَشَقَّ طَرِيقَهُ إِلَى المَطْبَخِ، حَيْثُ وَجَدَ
مُلاحِظَةً، وَوَضَلَ بِقَالَةٍ، وَفُرَاطَةً مُضْبُوطَةً.

دَجَاجٌ مَشْوِيٌّ وَسَلْطَةٌ فِي البَرَّادِ. أَرَاكَ السَّاعَةَ
الثَّاسِعَةَ صَبَاحًا.

قد يكون هو الفنان، ولكن كان لها خط أحسن.
جذاب، لطيف، أنيق، مع أثر ضئيل من شيء لم
يستطع تعريفه. على غرارها تمامًا. لقد كانت واثقة
بنفسها وأسلوبها. على خلاف بعض منا، نحن الذين
ما كنا قط مستريحين، مهما كان الدور الذي نوّديه.

أكل رومان نصف الفزوج والسلطة كلها. كان
ينبغي له أن يشتغل، ولكن مزاجه لم يكن مؤاتياً

لِيرْسَمَ قَطِيعَ حَمِيرِ الزَّرْدِ مُهَاجِرًا فِي الشُّهُولِ
الْأَفْرِيقِيَّةِ. وَإِذْ تَمَدَّدَ عَلَى الْأَرِيكَةِ الْجِلْدِيَّةِ السُّودَاءِ
فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، نَظَرَ خَارِجَ النَّوَافِذِ. كَانَتْ غَرِيسُ
عَلَى حَقِّ. مَا قَضَى وَقْتًا كَثِيرًا فِي الْإِعْجَابِ بِالْمَنْظَرِ،
وَقَدْ قَتَمَتْهُ الْآنَ الظُّلْمَةُ النَّبِيلِيَّةُ. لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الظُّلَامُ
حَالِكًا. بَدَا اللَّيْلُ ثَقِيلًا، مِثْلَ الزَّفْتِ، رَطْبًا وَبَارِدًا، مُنْذِرًا
بِشُوءٍ. كَافَحَ مِزَاجَهُ وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُحَدِّدَهُ. فَرَاغٌ
مُتَفَاقِمٍ؟ جَوْعٌ؟ إِيَامٌ؟

سَتَتَقَلُّ غَرِيسُ مُورٍ إِلَى كُوخِهِ فِي نَهَائَةِ هَذَا
الْأُسْبُوعِ. وَقَدْ دَاخَلَتْهُ أَصْلًا أَفْكَارٌ إِعَادَةٌ نَظَرَ. لَمْ يُرِدْ
أَنْ يَصِيرَ أَقْرَبَ مِمَّا يَنْبَغِي، وَوَجُودُهَا فِي الْمَسْكَنِ
الْمُجَاوِرِ قَدْ يُشْكَلُ إِغْوَاءً. فَاتَّ أَوَانُ الْقَلْقِ بِشَأْنِ ذَلِكَ
الْآنَ. لَقَدْ كَانَتْ صَفْقَةٌ مُبْرَمَةً، إِلَّا إِذَا غَيَّرَتْ غَرِيسُ
رَأْيَهَا. مَا كَانَتْ مُتَحَمِّسَةً بِضَرَاوَةِ الْفِكْرَةِ فِي الْمَقَامِ
الْأَوَّلِ، وَلَكِنَّ شِلَّةَ صَدِيقَاتِهَا نَاصَرَتْ قَضِيَّتَهُ. وَالْآنَ
رَأَتْ ذَلِكَ اسْتِجَابَةً صَلَاةً.

خَيْرٌ لَهَا أَلَّا تَبْدَأَ التَّحَدُّثَ بِالذِّينِ مَعَهُ. مَعَ أَنَّ عَلَيْهِ
أَنْ يَعْتَرِفَ بِأَنَّهَا، عَلَى خِلَافِ مُتَدَيِّنِينَ دَجَّالِينَ آخَرِينَ
التَّقَاهُمُ مُصَادَفَةً، ذَكَرَتْ الْإِيمَانَ بِطَرِيقَةِ طَبِيعِيَّةٍ.

لِمَاذَا يُؤْمِنُ النَّاسُ بِإِلَهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرَوْهُ؟
الْمَرَّةُ الْوَحِيدَةَ الَّتِي فِيهَا سَمِعَ اسْمَ يَسُوعَ يَوْمًا كَانَتْ
فِي شَتِيمَةٍ. وَقَدْ نَاسَبَتْ الْمِنْطَقَةَ الَّتِي سَكَنَ فِيهَا
حَتَّى الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ. وَلَمْ تَفْرِضْ مِزْرَعَةً آلَ

ماسترشن أمور الدين. كان لدى تشتت وسوزان قواعد، ولكنهما لم يُعلقا الوصايا العشر على جدار ما. وقال جاسپر لببي راي إنَّ طريقة استخدام المرء للغة تُحدِث فرقًا في المكان الذي يُمكن أن ينتهي إليه. فكلام الحمأة يُبقي المرء في الحمأة. وتعلّم رومان كيف يندمج، حتى وهو يعلم أنه لن ينتمي بتاتا. فكان في وسعه أن يُمثّل أيّ دور كان ضروريًا للتقدّم. وما بدأ إلا في الآونة الأخيرة يتساءل هل كان الأمر يستحقّ عناءه. لقد ظلّ قناع رومان قيلاسكو ينزلق.

ثرى، ماذا ستفكر غريس مور بشأنه إذا علمت من أين جاء وكيف بقي عائشا؟ صبيّ حيّ فقير بلا أب، وأمه بنت هوى. فتى هذب المخدرات إلى أن أقنع رئيس العصاة بجعله موقع رسوم الجرافيتي التي تُمثّلها. ماذا عساها تفكر في "العصفور" الذي سخّر من العالم الذي احتفى برومان قيلاسكو ولكنه لم يُرد أيّ جزء من ببي راي دين؟

ماذا كانت غريس تفعل في نهايات الأسابيع؟ هل كان لديها رفيق ثابت، شاب جميل المنظر يلبس قميصًا ذا أزرار من القبة حتى الخصر، موظّف في مكتب من التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساءً؟ شخص يصطحبها إلى الكنيسة كل يوم أحد؟

ثمّ لماذا كان يفكر في أحوالها بهذا المقدار؟ أطلق رومان شتيمه همسا، وجلس منتصبًا. لقد

ووظفها لأنها لم تكن من نوعه المفضل. والآن باتت لديه فتاة حسنة المنظر، يُعتمدُ عليها، جديرة بالثقة، تشتغل عنده. فتاةٌ سالحة. وقد كان كلُّ اختبارِه مع النوع الآخر.

لم يستطع أن يتصوّر غريس في نادٍ ليليّ، ناهيك بالسّعي إلى علاقةٍ عابرة ليلة الجمعة أو السبت. فهي لم تكن من نوع فتاةٍ تُقيمُ علاقةً حميمةً مع غريب، وتستدعي سيّارة أوبر لإقلالها إلى البيت في الثانية فجراً، ثمّ تذهبُ إلى العمل في الصّباح التّالي.

لقد بدّد وقتًا كافيًا في النّوم. ولم يُرد أن يُبدّد أيّ مزيدٍ في هواجس عن مُساعدته الشّخصيّة التي سبق أن أوضحت بوفرة أنّهما لن يصيرا شخصانيّين. فينبغي أن يكون سعيدًا بذلك.

من شأن العقل أن يصرف ذهنه عنها. توجه إلى المرسم ورسم بعضًا من حمير الزرد بعد. ثمّ ألقى ريشته في الصّينيّة.

ماذا كان فاعلاً بحياته؟ إلى أين كان ذاهبًا؟ ماذا أراد؟ أحسّ شوقًا موجهًا. ولكن كيف يُمكنه أن يعرف ذلك وهو لم يملك موطئًا قطّ؟

بعدها اختفت أمّه ووضعت خدمات حماية الأولاد في عهدّة أبوين بالتنشئة، كان يهرب من كلِّ عائلةٍ استقبلته ويشقُّ طريقه عائداً إلى الحيّ المُستهتر ليُفتش عن والدته. وقد علم بما جرى لها لَمّا كان في

العاشرة من عُمره. بعد ذلك أقامَ في بيوتِ تنشئة ما دام "الأبوان" يُعطيانه حُرِّيَّةً لِيَقومَ بما يُريد. وقد كانَ في أحسنِ حالٍ عندَ أولئك الذين كانوا مُهتمِّينَ فقط بمالِ الحكومة الذي تلقَّوه مُقابلَ إيوائه وإطعامه. إنَّما داخلًا ظلُّ بُبي راي هاربًا.

مِمَّ؟ وإلام؟ لم يَدِر. ذلك هو ما أربكُه. ذلك هو ما جعلَ الضَّغطَ في داخله يتراكم حتَّى باتَ على "العصفور" أن يطير.

كان البيتُ في توبنغا كانيون ساكنا وساكتًا. مهجورًا. أحسَّ كأنَّه شبَّحَ ينتابُ المكان. كانتِ الملكِيَّةُ تحتَ حَجزِ الرِّهن، فُرصةً استثنائيَّة وسعيدة هبَّطت في حِضنه. لم يقدر أن يتذكَّرَ حتَّى كيف حصلت، ولكنَّ الوسيطَ العقاريَّ قالَ إنَّ ذلك سيكونُ استثمارًا عظيمًا. فماذا يحدثُ إذا كان المكان كبيرًا جدًّا على شخصٍ واحد وفيه كوخُ ضيوفٍ لن يستعمله بتاتًا؟ لن يُضطرَّ إلى الإقامةِ هنا طويلًا. كانتِ القيمةُ في السُّوقِ آخذةً في الارتفاع. في وسعه أن يبيِعَ الآنَ ويمضيَ حائزًا مُدَّخراتٍ وافرةً. ثمَّ ماذا؟ يرجعُ إلى أوروبا؟ يطوفُ البلادَ على درَاجة هارلي؟ يشتري مركبًا ويجوبُ البحارَ السَّبعة؟

ها قد مضت سنةٌ وأكثر، وقد عكَّرَ الزَّمنُ ذاكرته. حتَّى تساءلَ أحيانًا هل تخيَّلَ ذلك اللقاءَ تخيُّلاً. كان مُنتشياً تلك الليلة، مُتقلِّمًا إلى أن رأى الشُّقراء. لم

تَكُنْ لَدَيْهِ إِلَّا ذِكْرِيَّاتٍ عَابِدَةً عَنِ رِحْلَةٍ صَامِتَةٍ طَوِيلَةٍ
بِالسَّيَّارَةِ إِلَى مَسْكِنِهِ، ثُمَّ إِلْحَاحٍ يَهْزُ الْقَلْبَ وَتَفْجُرِ
نُجُومٍ وَدُمُوعٍ. ثُمَّ غَادَرَتْ، كَحُلْمٍ لَمْ يَسْتَطِعْ تَذَكُّرَهُ
كَامِلًا. وَكَانَ قَدْ خَرَجَ فِي قَلْبِ اللَّيْلِ وَرَاءَهَا، وَرَأَاهَا
تَنْزِلُ إِلَى دَاخِلِ سَيَّارَةٍ أُسْرِعَتْ مُبْتَعِدَةً، وَعَيْنَا ضَوْءٍ
خَلْفِيَّ حَمْرَاوَانٍ تُحَدِّقَانِ رَجُوعًا إِلَيْهِ وَتَسْخَرَانِ بِهِ.

تِلْكَ اللَّيْلَةُ كَانَتْ الْيَقْظَةُ.

جَلَسَ رُومَانٌ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى طَاوِلَةٍ رَسِمِهِ، وَحَدَّقَ
إِلَى الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَحَمِيرِ الْوَحْشِ الْمُهَاجِرَاتِ. كَانَ
قِسْمٌ مِنْهَا يَرْكُضُ، وَقِسْمٌ يَمْشِي، وَكُلُّهَا مَاضِيَةٌ إِلَى
مَكَانٍ مَا بَدَافِعِ الْغَرِيْزَةِ. أَحَسَّ رُومَانٌ كَمَا لَوْ كَانَ
مَنْبُودًا وَسَطَ بَنِي جَنْسِهِ. لَمْ يَعُدْ يُحِبُّ التَّجْمَعُ عِنْدَ
بِرْكَةِ الْمَاءِ، أَوْ مُوَاقَعَةَ أَيَّةِ أُنْثَى سَلِيمَةٍ جَذَابِيَّةٍ مُنْتَقَاةٍ
مِنَ الْقَطِيعِ. مَا كَانَتْ لَدَيْهِ أَيَّةُ خُطْطٍ لِلْإِنْجَابِ. وَإِذَا لَمْ
يَقِرَّ لَهُ قَرَارٌ، أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مُهَاجِرًا إِلَى سَهْلِهِ الْعَشْبِيِّ
الْخَاصِّ، أَيْنَمَا كَانَتْ. وَخَشِيَ أَنْ تُوَدِّيَ بِهِ خُطْوَةٌ
خَاطِئَةٌ أُخْرَى بَعْدَ إِلَى حَافَةِ الْهَآوِيَةِ وَمِنْ ثَمَّ إِلَى
أَعْمَاقِهَا.

كَانَ شَيْءٌ مَا غَيَّرَ صَحِيحًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْرِ مَاذَا كَانَ
خَطَأً.

كَانَ قَدْ حَقَّقَ فِعْلًا مَا أَرَادَهُ مُعْظَمُ الْأَمِيرَكِيِّينَ:
الْبَيْتَ الْكَبِيرَ، السَّيَّارَةَ السَّرِيعَةَ، مِهْنَةً صَاعِدَةً، الْمَالَ،
الْجِنْسَ كُلَّمَا وَكَيْفَمَا أَرَادَهُ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ

سعيدًا. كان ينبغي أن يكونَ شبعانًا. ولكنه أحسَّ
جوعًا إلى المزيد. كم سيُعوزُه حتى يملأ الفراغ في
داخله؟

جَرَفَ الرَّسْمَةَ عَنِ الطَّاوِلَةِ، مُحَبِّطًا. وَإِذْ رَفَرَفَتْ
عَلَى الْأَرْضِيَّةِ، التَّقَطَّ عُلْبَةٌ رَشٌّ مِنْ مَارَكَةِ كَرَايْلُنْ
نَالَتْهَا يَدُهُ، وَتَوَجَّهَ إِلَى الْجِدَارِ الْخَلْفِيِّ لِمَرَسَمِهِ.

الفصل ٩

رومان، في الخامسة عشرة من عُمره

مُترَهَّلًا على المقعد الأمامي في سيارَة سام كارتر الشَّقِي إمبِالا البيضاء، شاهِدَ بِيي راي المِنطقةَ غيرَ المألوفة تَتواري بِسرعة. ما كان قد خَرَجَ من سان فرنسيسكو قَطُّ، مُتوَعِّلاً نحو الجَنوبِ بحيثُ لا يستطيعُ أن يَجِدَ طريقَهُ رجوعًا إلى الحَيِّ المُستَهتر. والآن، ها هو هُنا في البراري، حيثُ الأشجارُ أَكثَرُ من المنازل، وليس من طُرُق حُرَّة، بل طريقٌ مُتَمَعِّجٌ فحسب. وقد أَبقاه مُتَقصِّي السَّيرة في الخِدمات الاجتماعية تحت المُراقبة الدَّقِيقَة. ”أعرِفُ أَنَّكَ تُريدُ أن تهزَّبَ، بِيي راي. مهمَّتي أن أوصِلَكَ إلى البيتِ الجماعي. وما تفعلُهُ بعدَ ذلك مُتوقِّفٌ عليك“.

باتت جِبالُ سَيِّرا نيقادا أكبر. وكلَّما طالتِ المسافَةُ التي قطعها سام كارتر سائقًا، زادَ بِيي راي نرفزةً. كان مُتعوِّدًا الشَّوارِعَ الصَّاخبة والأزقة والضَّوضاء. وما برحتِ المُتنزَّهاتُ هي الأقربُ إلى ما

كان يراه هنا في أرض اللامكان. رمقه سام بنظرة.
”ستكون بخير“. أطبق ببي راى أسنانه بإحكام فيما
تحدث سام بشأن مزرعة آل ماسترسن الجبلية.
وحاول ببي راى أن يحجب صوت الرجل بمراجعة
الطريق في رأسه. سيضطر لأن يتذكر لكى يهتدي
إلى طريقه رجوعًا. وما كان قد رأى أية حافلات
سائرة على الطريق الجبلي.

”سوف يفهمك تشت ماسترسن، ببي راى“.

”نعم، صحيح. كما تفهمني أنت. كم علي أن أبقى
هنا؟“

”حتى تبلغ الثامنة عشرة“.

سنتان ونصف! حدق ببي راى خارج النافذة. لم يرد
نفسه باقيًا في بيت جماعي أطول من يومين. ليس
هنا خارجًا في الغابات. سيبقى أسبوعًا واحدًا، على
الأكثر. سيجد سبيلًا للخروج وسبيلًا للرجوع.

ثم أين يُقيم؟ ريدر ولاردو قد ماتا.

لمح لافتة. كويروبوليس. استغرق عبور البلدة
أقل من دقيقة. سبب ببي راى. ”أين نحن، على كل
حال؟“

”في أقرب مكان إلى السماء يُمكنك أن تصل إليه
يومًا“. ابتسم كارتد. ”أعصابك تتوتر، ببي راى؟“
وضحك. ”بعض الناس لهم الحظ كله، وهم أغبي من
أن يعلموا ذلك“.

”أبدو مثل غلامٍ ريفيٍّ لك؟“ التَّف التَّوتُّرُ في بطنِ بُبي راي. كم كيلومترًا كان يبُعدُ عن كلِّ شيءٍ مألوفٍ؟ لقد علِمَ كيف يبقى عائشًا في الشَّوارع. كيف يُدبِّرُ أموره بأقلِّ من لا شيءٍ. ”لقد حصلتُ على صفقةٍ جائرة، وأنتَ تعرفُ ذلك، يا سام. إذا كان يجب أن أكونَ في بيتِ جماعيٍّ، فلماذا ليس في بيتِ بالاميدا كاؤنتي؟“

”لأنَّها عبْرُ الخليجِ تمامًا، وأنتَ ستَهْرَبُ من جديد وتنتهي إلى حيثُ بدأتَ تمامًا.“

”هل تعتقدُ أنني لا أستطيعُ أن أهتديَ إلى طريقي رُجوعًا من هنا؟ سان فرنسيسكو موطني!“

”كونها تمامًا المكانَ الوحيدَ الذي وُجِدَتْ فيه يومًا لا يعني أنَّها أفضلُ مكانٍ لك.“

”ينبغي أن يكونَ الخيارُ لي، أليس كذلك؟“

”ما برحتَ تتخذُ خياراتٍ كلِّ حين، بُبي راي. وأخذُ خيارٍ سلِّمَ المحكمةَ حقَّ الاختيار. عندما نصلُ إلى مزرعة آل ماسترسن، سيكونُ عليكُ أن تختارَ بينَ استِعمالِ هذه المُدَّةِ لتعلِّمَ شيءٍ نافعٍ وبينَ حسابانها مُدَّةَ محكومِيَّة“. رَمَقَهُ سامُ بنظرةٍ سأمٍ أُخرى، وانعطفَ إلى طريقِ جبليَّةٍ ضيِّقةٍ أُخرى. ”لا تُظنَّ أنني لم ألاحظُ أنَّكَ تفحَّصتَ كلَّ لافتة. ولكني أفضلُ أن أهدِّدَكَ. إذا فزرتَ، فلن تبتعدَ كثيرًا. النَّاسُ هنا فوقَ يعرفونَ تشَّت. لا أحدٌ سيُقلِّكُ بسيَّارته إلى أيِّ

مكان“. وأوماً برأسه. ”هناك المكان“.

حظيرة كبيرة، زرائب، بيت مزرعة طويل من طبقة واحدة، شاحنتان صغيرتان مركوبتان في فناء أمامي مغبر. لقد تحقق كابوس أبي راي الأسوأ. كان ممكناً أيضاً أن تُرسله المحكمة إلى المريخ!

انعطف سام شمالاً على طريق مرصوفة بالحصى حديثاً. وإذ توقفا داخل الفناء، نبّح كلبا جيرمان شبيرد كبيران نباحاً مُنذراً بِشوء. فضحك سام ضحكة خافتة. ”سبب آخر لعدم الهروب“. وإذ نزل من السيارة، خرج من المنزل رجل طويل القامة، عريض الكتفين، ذو شعر داكن مقصوص قصيراً. بدا نصف ريفي أخرق بجزمته وجينزهِ، وقميصه المربع النقش، وشكله الشبيه بِدُميَّة واحدٍ من أبطال الأفلام. كان أبي راي قد رأى آخرين لهم مثل ثقته وهالته، أغلبهم ذوو أعين قاسية وقبضات قوية. إنما هذا الرجل كانت له خطوط ضحك حول فمه وعينيه. وقد أسكتت كلمة هادئة منه الكلبين. ”جيد أن أراك، سام!“ كان صوته عميقاً، يفتت الصخر في زلزال.

”كيف سوزان؟“

”على سفرٍ من جديد“. ضحك ماسترشن. ”هي في سان أنطونيو، تزور أهلها“. وتلقى أبي راي بنظرة عجلى. فتظاهر أبي راي بأنه لم يلاحظ أو يهتم. ضحك ماسترشن ضحكة خافتة. ”الطريق طويلة من

مَأَلْفِكَ فِي الْغَابَةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ، مِسْتَرِ دَيْن؟“ تَصَلَّبَ
بِي رَاي، مُوقِنًا أَنَّهُ تَعَرَّضَ لِلشُّخْرِيَّةِ. وَلَمَّا تَلَقَّى حَمَلَقَةَ
مَاسْتَرْسِن، ابْتَسَمَ الرَّجُلُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. ”يَسُرُّنَا أَنْ
نَسْتَقْبِلَكَ“.

”أَنَا غَيْرُ مَسْرُورٍ بِأَنْ أَكُونَ هُنَا“.

”لَمْ أَتَوَقَّعْ أَنْ تَكُونَ مَسْرُورًا. تَبْدُو كَأَنَّكَ صَبِيٌّ
خَشِينٌ. يَبْقَى أَنْ نَرَى كَمْ أَنْتَ خَشِينٌ حَقًّا“.

فَتَحَّ سَامُ صُنْدُوقِ السَّيَّارَةِ. قَالَ شَيْئًا مَا بِصَوْتِ
خَافَتٍ، فَضَحِكَ مَاسْتَرْسِنُ ضِحْكَةً مَكْبُوتَةً. ”لَنْ يَكُونَ
الْأَوَّلُ. يُمَكِّنُهُ أَنْ يُجَرَّبَ“. وَنَاوَلَهُ سَامٌ مَلَفًا ثَخِينًا.
”كُلُّ مَا يُعْوِزُكَ أَنْ تَعْرِفَهُ عَنْهُ مَوْجُودٌ هَهُنَا“. عَلِمَ بِي
رَاي أَنَّ الْمَلْفَ يَحْوِي تَارِيخَ عَائِلَتِهِ، وَلاِئِحَةَ بِيُوتِ
التَّنَشِئَةِ الَّتِي دَخَلَ إِلَيْهَا وَخَرَجَ مِنْهَا عَلَى مَدَى آخِرِ
سَبْعِ سَنِينَ وَنِصْفٍ، مَعَ تَقَارِيرِ آبَائِهِ وَأُمَّهَاتِهِ السَّابِقِينَ
بِالتَّنَشِئَةِ، وَسِجَلِهِ الْمَدْرَسِيِّ، وَسِجَلِهِ الْقَضَائِيِّ، وَأَيِّ
شَيْءٍ آخَرَ تَيَسَّرَ لِلنُّظَامِ أَنْ يَنْبِشَهُ وَيَكْتُبَهُ عَلَى وَرَقٍ
فِي مَحَاوِلَةٍ لِتَلْخِيصِ هُوِيَّتِهِ. لَا شَيْءَ يَسْتَحِقُّ أَيَّ
شَيْءٍ. فَلَا أَحَدَ عَرَفَهُ.

حَمَلَ مَاسْتَرْسِنُ الْمَلْفَ مُسَطَّحًا عَلَى يَدِهِ الْكَبِيرَةِ،
كَأَنَّهُ يَزِينُهُ. ”مُؤَثَّرٌ“. وَقَدَحَتْ عَيْنَاهُ الزَّرْقَاوَانِ شَرًّا.

بَدَأَ سَامٌ مُنْفَعِلًا، مُتَأَهِّبًا لِلرُّجُوعِ إِلَى الطَّرِيقِ.
”وَعَدْتُ ابْنِي بِأَنْ أَكُونَ فِي مُبَارَاةِ كُرَّةِ السَّلَّةِ الَّتِي
يَلْعَبُ فِيهَا اللَّيْلَةَ. إِذَا غَادَرْتُ الْآنَ، أَصِلُ فِي الْوَقْتِ

الْمُنَاسِبِ تَمَامًا“.

أَحْسَ بُيِّي رَايِ وَخَزَةَ حَسَدٍ. لَا بُدَّ أَنَّهُ أَمْرٌ حَسَنٌ أَنْ
يَكُونَ لِلْفَتَى أَبٌ يَحْضُرُ. لَا بُدَّ أَنَّهُ أَمْرٌ حَسَنٌ أَنْ يَكُونَ
لِلْفَتَى أَبٌ، وَنُقْطَةٌ عَلَى السَّطْرِ. ثُمَّ أَيْضًا يُمَكِّنُ دَائِمًا
أَنْ يَكُونَ لَكَ وَاحِدٌ مِثْلُ رِيَّيرِ أَوْ وُلْفٍ.

صَفَعَ مَاسْتَرَسُنَ سَامَ عَلَى ظَهْرِهِ. ”سَأَتَّصِلُ بِكَ بَعْدَ
أَسْبُوعَيْنِ وَأُعَلِّمُكَ كَيْفَ يُبْلِي“.

لَمْ يُخَطِّطْ بُيِّي رَايِ أَنْ يَبْقَى هُنَاكَ هَذِهِ الْمُدَّةَ
الطَّوِيلَةَ. ”إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟ إِلَى الْحَظِيرَةِ؟“

”أَبِقْ حَيْثُ أَنْتِ حَتَّى أَصِيرَ مُسْتَعِدًّا لِاصْطِحَابِكَ
إِلَى الدَّاخلِ، مِستَرِ دِينِ“.

عَبَّرَ بُيِّي دِينِ عَنِ رَأْيِهِ دَمْدَمَةً وَالتَفَتَ صَوْبَ
الْبَيْتِ. كَانَ قَدْ نَسِيَ الْكَلْبَيْنِ حَتَّى وَقَفَا وَكَشَّرَا عَنِ
أَنْيَابِهِمَا. سَبَّ ثَانِيَةً. ضَحِكَ مَاسْتَرَسُنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
نَفْسِهِ. ”لَحْمٌ طَارِجٌ جَيِّدٌ، يَا صَبِيَّانِ. اهِدَا الْآنَ. قِفْ
سَاكِنًا، مِستَرِ دِينِ. إِذَا رَكَضْتَ فَسَيَطْرَحَانِكَ أَرْضًا.
إِنَّهُمَا يُرْحَبَانِ بِكَ بِتَحِيَّةِ كَلْبِيَّةِ“.

”لَا تَتَوَقَّعْ مِنِّي أَنْ أَرُدَّ التَّحِيَّةَ بِمِثْلِهَا“.

ضَحِكَ مَاسْتَرَسُنَ. ”ذَلِكَ تَعْبِيرٌ كَبِيرٌ عَلَى فَتَى
شَارِعِ“.

أَعْطَى مَاسْتَرَسُنَ أَمْرًا لَطِيفًا آخَرَ، فَرِيضَ الْكَلْبَانِ
وَلِسَانَاهُمَا مُتَدَلِّدَانِ بِتَكَشِيرَةِ كَلْبِيَّةِ. رَجَعَ سَامَ إِلَى
دَاخِلِ السَّيَّارَةِ وَأَدَّى تَحِيَّةً لِبُيِّي رَايِ. فَرَفَعَ لَهُ بُيِّي رَايِ

إصبغَه.

”تعاليا“. أَمَرَ ماسترْسُن، ومشى الكلبانِ إلى كِلا جانبيهِ فتبِعَه بُيِ راي صارًا بأسنانه، مُثَبِّقًا بأن يجعل ماسترْسُن يعلم أَنَّهُ ليسَ واحدًا من حيواناتِهِ الأليفة. ”كَلِمَةٌ تحذير، مِستر دين. تَغَيَّبَ بلا إذن، فيُطارِدُكَ ستارِسْكي وهَتَش وهَتَش وَيَصْرَعَاكَ“. وكَشَّرَ لَهُ. ”إنَّهَما يَعْرِفَانِ رَائِحَتَكَ الآن. تَسْتَطِيعُ أَنْ تَهْرَبَ، وَلَكِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْتَبِئَ“.

أَحَسَّ بُيِ راي قُشَعْرِيرَةً تَسْرِي مِنْ أَعْلَى ظَهْرِهِ إِلَى أَسْفَلِهِ. هل كان هذا الرَّجُلُ جادًا؟ ”لا بُدَّ مِنْ وَجُودِ قَانُونٍ لِمَنَاهِضَةِ اسْتِخْدَامِ كَلْبِ هُجُومِيٍّ عَلَى وِلْد“.

”هل قلتُ إنِّي سأمرهما بالمهاجمة؟ كلُّ ما سأقوله هو «اذهبا جِدًا بُيِ راي». يُمَكِّنُ أَنْ يَضِيعَ فَتَى مَدِينَةٍ بِسُرْعَةٍ فَعَلِيَّةٍ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الثَّلَالِ وَالْأُودِيَةِ، مِستر دين. ستارِسْكي وهَتَش يَعْرِفَانِ كُلَّ شَجَرَةٍ وَشَجِيرَةٍ، كُلَّ صَخْرَةٍ وَسَاقِيَةٍ. إنَّهَما سَيَدْلَانِكَ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الْبَيْتِ“. وَرَمَقَ بُيِ راي بِنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ. ”أَرْجُو أَلَّا أُضْطَرَّ إِلَى إِرْسَالِهِمَا وَرَاءَكَ“.

لَمْ يَقُلْ بُيِ راي دِينَ أَيِّ شَيْءٍ بَعْدَ خَيْرٍ أَنْ يَنْتَظِرَ وَيَحْضُلَ عَلَى اسْتِشْعَارِ أَفْضَلِ لِمَنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ وَأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَكَانِ كَانَ يُدِيرُ. فَعَادَةً لَمْ يُعَوِّزَ بُيِ راي أَكْثَرَ مِنْ يَوْمَيْنِ لَكِي يَكْتَشِفُ كَيْفَ تَسِيرُ الْأُمُورِ.



استرخى في حُجرة الجلوس خمسة فتيان. كان
اثنان مُمدّين على أريكتي جلد بُنيتين وهما يقرآن.
وقد جلس آخران إلى طاولة يلعبان لعبة لَوْحِيَّة.
وكان آخَرُ يقرأ في كتاب ويكتب على دفترٍ
مُلاحظاتٍ ذي لَوَب. رَفَعُوا نَظَرَهُم وَرَمَقُوا بِي راي
بنظرةٍ فاحِصَةٍ عَجَلَى إِذ قَدَّمَهُ ماسْتَرَسُن بصفته
مِستَر بِي راي دين. أَجْرَى بِي راي ائْصَالَ بَصْرِيًّا بِكُلِّ
منهم لِيَعْرِفُوا أَنَّهُ لَمْ يَكُن خَائِفًا مِنْ أَيِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ،
حَتَّى لَوْ بَدَا بَعْضُهُمْ أَكْبَرَ سِنًا وَأَصْلَبَ عُوْدًا. وَتَسَاءَل
أَيُّ مِنْهُمْ سَيَكُونُ رَفِيقَ حُجْرَتِهِ، أَوْ هَلْ يَنَامُونَ كُلُّهُمْ
فِي مَبْنَى بَسِيطٍ فِيهِ أَسِرَّةٌ سَازِجَةٌ بِمَكَانٍ مَا.

كانت حُجرة الجلوس كَبِيرَةً وَحَسَنَةً الأَثَاث. وَقَدْ
صُرِفَ مَالٌ عَلَى الأَرَاكِ الجِلْدِيَّةِ وَطَاوِلَةِ القَهْوَةِ
الكَبِيرَةِ المَصْقُولَةِ، المَصنُوعَةِ مِنْ خَشَبِ السَّنْدِيَان.
وَعَطَّتْ رُفُوفٌ كَثِيبٌ مِنَ الأَرْضِيَّةِ إِلَى السَّقْفِ جِدَارًا
وَاحِدًا مُقَابِلَ مُسْتَوَقِدِ حَجْرِيٍّ ضَخْمٍ. وَكَانَ فِي
المِزْرَعَةِ مَرَكْزٌ تَسْلِيَّةٍ مُؤَثَّرٌ فِيهِ تَلْفِزِيونٌ كَبِيرُ الشَّاشَةِ
وَجِهَازٌ تَكْبِيرٌ لِلصَّوْتِ مُجَسِّمٌ. وَقَدْ انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ
رُجَاجِيَّةٍ مُنْزَلِقَةٍ إِلَى مَسْطَحِ عَشْبِيٍّ فِي أَحَدِ أَطْرَافِهِ
شَبَكَةٌ كُرَّةِ قَدَمٍ.

كَانَ البَيْتُ أَكْبَرَ مِنْ أَيِّ وَاحِدٍ دَخَلَهُ يَوْمًا، فِيهِ عُرْفُ
نَوْمٍ فَسِيحَةٌ وَحَمَّامَاتٌ بِمَغَاسِلٍ مُزْدَوِجَةٍ وَمِرْسَاتٌ

ومغاطس، ومطبخ احتِرافي موصول بغرفة سُفرة فيها طاولة طويلة وكراسٍ مُستقيمة الظهر. وكان في رواقٍ آخر غرفة غُسلٍ وحُجرة خزنٍ ومكتبٌ بدا أشبه بمكتبة. وأفضى بابٌ آخر إلى جناحٍ مُنفصل يُقيم فيه تَشَت وزوجته سوزان.

”نعيش حياةً بسيطةً ههنا، مستر دين.“ لَخَصَ ماسترشن الأمور بِسرعة. إذا أظهرت احتِرامًا ولياقة، يُمكنك أن تتوقعَ المُعاملةَ بِالمِثل، راجعِ اللُّوحَ يوميًا لأجل مُناوبتِك في تادية المهامِّ. كلُّ شخصٍ مُقيمٍ في مزرعة ماسترشن الجبليَّة تعلِّم فنونَ العازيين: كيف يطهو، ويفغسلُ الصُّحون، ويستعملُ المِكنسةَ الكهربائيَّة، ويفغسلُ الأرضيَّات، ويُنظِّف المِراحيز والحمامات، ويفغسلُ الثِّيَاب ويُصلِحُها. سُبَاشِرُ سوزان ماسترشن تدرِيبه حالما ترجعُ من تكساس، وذلكَ عصرَ غَدٍ. نداءُ الاستيقاظ في السَّاعة السَّادسة، الفطورُ في السَّادسة والنِّصف، المدرسة من السَّابعة والنِّصف، وقتُ حُرِّ عندما تُنجزُ فُروضك ومهامك. كان مُعلِّمٌ رئيسٌ يأتي يوميًا، وفي وُسعِ بِيي راي أن يُقرِّرَ نسبةَ تقدُّمه بنفسه. إذا أردتَ أن تُنهيَ دراستك الثَّانويَّة باكرًا، فاسعَ إلى ذلك. هل من اهتمامٍ بالجامعة؟ لا؟ حسنًا، لا شيءٌ مُقرَّرٌ نهائيًا. قد يُغيِّرُ رأيَه بعدَ أشهرٍ قليلةٍ من الاشتغال مع جاسپر هاولي. ستكونُ لِتَشَت حِصصٌ انفراديَّة مع بِيي راي ثلاثَ مرَّات في الأسبوع بدءًا من يومِ غَدٍ. ”هل من

أسئلة؟“

سبق أن أعطى بِي راي قواعد في ما مضى. وهو ما عاش قَطُّ بموجبها، ولم ينو أن يشرع في ذلك الآن.

ابتسم له تشت ابتسامة فهم بطيئة. ”إنها أمور كثيرة تستوعبها. سحرز الإدراك عاجلاً بما يكفي“. وأوما برأسه نحو حجرة الجلوس. ”ذلك هو خوسيه. أحضر عُدَّتكَ، مستر دين. سشاركه في غرفة. ثاني باب إلى اليمين في ذلك الرّواق“.

رفع خوسيه نظره لما دخلا حجرة الجلوس. من الواضح أنه قد سبق إعلامه. فالنظرة التي رمق بِي راي بها تضمّنت تحذيراً. ”السريز تحت النافذة لي. الجهة اليسرى من الميزينة لك“. وقد بدا ذلك كأنه صرف وإنذار. شال بِي راي حقيبته ومشى في الرّواق.

كلُّ شيءٍ بسيطٍ وعمليّ: سيرران مُزدوجان، مكتبان برُفوف، أحدهما مملوءٌ كُتُباً مدرسيّةً أصلاً، مصباحاً قراءة، لوحتا إعلانات، معروض على إحداهما علمُ المكسيك وستُّ صورٍ عائليّة، لوحٌ فلين واحدٌ وبِضعةٌ دبابيس تثبيت. فتح بِي راي جارور الميزينة الأيسر الأعلى وألقى فيه مملوكاته القليلة.

نظرَ حوالبه إلى الجدران البيضاء النّظيفة، وتلهّف لو أن في يده قلمَ رسمٍ أسود. وافته صور: مشهد

حَفَلَةٍ فِي شَقَّةٍ رَدَّ هُتَ، رِيَّـرٌ مُنْتَشِيًّا مِنْ الْمِيثِ، لَارِدُو
مَيْتًا، وَجَوَةٌ صَارِحَةٌ حَوْلَهُ، زِنَزَانَةٌ دَبَّتْ فِيهَا الْفَوْضَى
نِصْفَ مَمْلُوءَةٍ بِكَارِيكَاتُورَاتٍ نُزْلَاءَ مُتَآخِيْنَ، مِنْ النَّوْعِ
الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْتَزِعَ قَلْبَكَ بِمُوسَى حَادَّةٍ. قَعَدَ بُيِّي
رَايَ عَلَى طَرْفِ السَّرِيرِ وَفَرَكَ وَجْهَهُ، مُتَمَنِّيًّا لَوْ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يُزِيلَ الصُّوْرَ الْوَامِضَةَ فِي رَأْسِهِ وَالشُّعُورَ
الْمُوجِعَ لِلْأَحْشَاءِ بِالْخَسَارَةِ. كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَذَكَّرَ
أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ أَلَّا يُصَادِقَ أَحَدًا، أَيًّا كَانَ. فَالْأَصْدِقَاءُ
هُنَا الْيَوْمَ، وَرَاجِلُونَ غَدًا.

”مَا قَوْلُكَ فِي أَنْ أَطُوفَ بِكَ فِي أَنْحَاءِ هَذَا
الْمَكَانِ؟“ ائْتَا خُوسِيَه عَلَى الْبَابِ، وَرَمَى تُفَاحَةً عَالِيًّا
ثُمَّ التَّقَطَّهَا.

مُنْذُ مَتَى مَا بَرِحَ يُرَاقِبُهُ؟ وَقَفَّ بُيِّي رَايَ. كَانَ
أَطْوَلَ بِيضِ بُوصَاتٍ مِنَ الْفَتَى الْأَكْبَرِ سِنًّا، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ
أَنَّ الْحَجْمَ مَا كَانَ دَائِمًا لِيُكْسِبَ مَعْرَكَةً.

أَحْسَسَ بُيِّي رَايَ أَنَّ كُلَّ مَا يُحِيْطُ بِمَزْرَعَةِ آلِ
مَاسْتَرَشْنِ الْجَبَلِيَّةِ كَانَ غَرِيبًا، لَا سِيَّمًا الْهَوَاءَ الْمُثَقَّلَ
بِرَائِحَةِ الصَّنُوبَرِ. وَقَدْ كَانَتْ الْأَصْوَاتُ الْوَحِيدَةُ هِيَ
خَشْخَشَةُ الصَّنُوبَرِ وَصَهِيلُ الْأَحْصِنَّةِ وَزَقْزَقَةُ
العَصَافِيرِ.

جَالًا فِي أَنْحَاءِ الْمَكَانِ مُدَّةَ سَاعَةٍ، وَلَمْ يَرَ بُيِّي رَايَ
سَيَّارَةً وَاحِدَةً تَمُرُّ.

”هَلْ تَتَوَقَّعُ شَخْصًا مَا؟“ تَكَلَّمَ خُوسِيَه الْابْتِسَامَ.

”تنظرُ باستمرارِ صوبَ الطَّرِيقِ“.

”كم نبعُدُ عنِ البلدة؟“

”أبعَدَ من أن تهزُب، يا غُندور“. وأوماً برأسه نحوَ

الحظيرة. ”هل تُحبُّ الأحصنة؟“

فقال بُبي راي ساخِرًا: ”ما قابلتُ واحدًا قطُّ“.

رَجَّ خُوسيه رأسه: ”هيا إذا. سأعرِّفك بعددٍ منها،

أحصنة آل ماسترشن المُضافة. إحدى مهامنا أن

نُمرِّنها. بعضُ المالكين يأتونَ إلى الرِّيف ليركبوا كلَّ

يوم، ولكنَّ أغلبهم يعيشون في ساكرامنتو ولا يأتونَ

إلا في نهاياتِ الأسابيع أو أيَّامِ العُطل“.

فأحت من الحظيرة رائحةَ التُّبن والسَّماد الجديد.

فتحَ خُوسيه مَرِيطًا. ”هيا“.

نظرَ ببِي راي إلى حَجَمِ الحِصانِ المَخصِيِّ ووقفَ

بقربِ الباب. ”هل الرُّكوبُ جزءٌ من برنامجِ فنونِ

العازبين؟“

”إنَّه واحدٌ من أحسنِ الأجزاء في هذا المكان“.

أجرى خُوسيه يدهُ على ظَهرِ الحِصان. وكزَّه الحيوان،

فمسَدَ له الرُّقعةَ البيضاءَ على رأسه. أخرجَ خُوسيه

الثُّفاحةَ من قميصه وأطعمَ الحِصانَ إيَّاهَا. ”من أين

أنت، مِستر دين؟“

”سان فرنسيسكو“.

”أنا من سثُكنن. يصعدُ أهلي إلى هنا مرَّةً في

الشُّهر. حسنًا، أمِّي تصعد. أبي ألقى القبضَ عليه

لجريمة سرقة سيارة. ماذا عنك؟“

”ماذا عنِّي؟“

”ألك عائلة؟“

”ماذا يجعلك تعتقد أن هذا من شأنك؟“

ضاقت عينا خوسيه وغامتَا. ”علينا أن نعيش معًا. أودُّ أن أعرفَ مَنْ ينامُ في السرير الذي يبغُدُ عن سريري نحوَ مترٍ واحدٍ.“

”حسنًا، اطمئنْ. لستُ مثلِيًا، ولم أقتل أحدًا بعد.“

لقد حصلَ على ما يكفي من الحظيرة والأحصنة وخوسيه. ”هل انتهينا؟“

”منَ الجَولة، نعم. ولكننا بعيدانِ عن الانتهاء،

مِستر دين. ما نحنُ إلَّا في أوَّلِ الطَّريقِ.“

اتَّجهَ بُبي راي عائداً إلى المنزل. ماذا الآن؟ لم يعرفِ أيَّ واحدٍ من هؤلاء الفتيان، ولم يُردِ أن يعرفَهُم. بقَبْقِ الإحباطِ في داخله. مشى خوسيه مُتخَطِّبًا إيَّاه، ورجَعَ إلى الطَّاولة، حيثُ كان يقرأ ويُدوِّنُ ملاحظات. جالَ بُبي راي في العُرفة، مُتوقِّفًا لِيُنعمَ النَّظَرَ في رُفوفِ الكُتب: رواياتٌ كلاسيكيَّة، سيِّر، كُتبٌ في النَّجارة والزَّراعة وميكانيك السَّيارات والتَّكنولوجيا والعلوم.

أتاحَ له المِجازُ المُقنَّطُ إلى داخلِ المطبخ أن يُشاهدَ تَشَتَّ ماسترْسُن يشغَلُ مع أحدِ الفتيان. وفاحت من شيءٍ ما رائحةٌ طيِّبةٌ كفايةً بحيثُ جعلت

مَعِدَّةٌ بُيِّي رَاي تُوَجَّعُ جُوعًا. وَكَانَ فَتَى أَخَذَ يُكَدِّشُ
الصُّحُونَ وَالْمَنَادِيلَ وَأَنِيَّةَ الْمَائِدَةِ الْفِضِّيَّةَ فِي الْمَطْبَخِ.
”حَسَنًا، يَا سَادَةَ! تَعَالَوْا وَنَالُوا!“ وَقَفَ مَاسْتَرَسْنِ
فِي مَجَازِ الْمَطْبَخِ تَحْتَ الْقَنْطَرَةِ. ”لَحْمٌ مَطهُوٌّ بِالْفِلْفَلِ
وَخَبْزُ ذُرَّةٍ هَذَا الْمَسَاءَ“.

تَخَلَّفَ بُيِّي رَاي عَنِ الْآخَرِينَ حَتَّى تَوَجَّهَ كُلُّ وَاحِدٍ
إِلَى الْمَطْبَخِ، ثُمَّ حَذَا حَذْوَهُمْ. فَالْتَقَطَ صَحْنًا وَمِنْدِيلًا
وَأَنِيَّةَ فِضِّيَّةً وَخَدَمَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ. وَقَدْ وُضِعَتْ عَلَى
الطَّائِلَةِ كُؤُوسٌ مَاءٍ، وَأَبَارِيْقٌ عَلَى كُلِّ طَرَفٍ مِنَ
الطَّائِلَةِ. جَلَسَ بُيِّي رَاي عَلَى مَقْعَدِهِ مُتَوَثِّرًا. تَجَاهَلَ
خُوسِيَهُ بُيِّي رَاي، فِيمَا رَمَقَهُ الْآخَرُونَ بِنَظَرَاتٍ تَقْيِيمِ
سَرِيْعَةٍ قَبْلَ أَنْ يُنْشِبُوا مَلَاعِقَهُمْ فِي مَرَقِ اللَّحْمِ
أَمَامَهُمْ. كَانَ خُبْزُ الذُّرَّةِ سَاخِنًا كِفَايَةً لِيُذِيبَ الزُّبْدَةَ
وَالْعَسَلَ اللَّذِينَ دَهَنَهُ بُيِّي رَاي بِهِمَا. وَبَعْدَ أَوَّلِ لُقْمَةٍ
تَجْرِيْبِيَّةٍ، غَاصَ بُيِّي رَاي فِي وَجِبَةِ الطَّعَامِ. لَمْ يَسْتَطِعْ
أَنْ يَتَذَكَّرَ آخِرَ مَرَّةٍ أَكَلَ فِيهَا أَيَّ شَيْءٍ بِهَذَا الْمَذَاقِ
الطَّيِّبِ. وَلَمَّا نَهَضَ الْآخَرُونَ لِقَلْبِ صُحُونِهِمْ ثَانِيَةً،
عَمِلَ بُيِّي رَاي ذَلِكَ أَيْضًا.

أَزَالَ كُلُّ وَاحِدٍ صَحْنَهُ. وَقَالَ مَاسْتَرَسْنِ لِبُيِّي رَاي:
”الْمَطْبَخُ مَفْتُوخٌ إِذَا جُعْتَ لَاحِقًا. نَظِّفْ وَرَاءَكَ عِنْدَمَا
تَنْتَهِي“. ثُمَّ أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ نَحْوَ حُجْرَةِ الْجُلُوسِ.
”سُنْقِيْمُ اجْتِمَاعِنَا الْعَائِلِيِّ بَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةَ دَقِيقَةً“.

تَصَوَّرَ بُيِّي رَاي أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِلَ إِلَى الطَّرِيقِ

ويجري ثمانِي مئةِ مِترٍ قبلَ أن يَحينَ الموعدُ، ولكنّه
لَمَّا خطا خارجَ البابِ، استيقظَ ستارِسكي وهتَشَ
ووقفَا. نَزَلَ على الدَّرَجِ بحَذَرٍ، وباشَرَ المَشِي عِندَ
الفِناءِ. تَبِعَهُ الكلبانِ. ووكَّزَ أَحَدُهُمَا يَدَ بُي رايِ،
فتوقَّفَ. رُبَّمَا إذا صادَقَهُمَا يدَعَانِهِ يذهبُ. مَسَدَ رَأْسِ
أَحَدِ الكلبينِ، وحكَّ الآخَرَ وراءَ أُذُنِيهِ. حاولَ أن يُناوِرَ
حولَهُمَا، ولكنَّ سِيَّارَةً انعطفتَ داخِلَةَ الطَّرِيقِ الخاصَّةِ.
استقامَ بُي رايِ، فشاهدَ سِيَّارَةً دودجِ دازتِ
حمراءَ، قديمةً لَمَاعَةً، ذاتَ غِطاءٍ يُطوى، تتوقَّفُ بقُربِ
شاحنةِ الـ F-250 الخفيفةِ البُنِّيَّةِ التي تحتوي
مقصورتَها على مقعدينِ إضافيينِ صغِيرينِ خلفَ
السَّائقِ. وقد ترَجَّلَ من السَّيَّارةِ رَجُلٌ كهلٌ. كانَ له
لِحْيَةٌ مقصوفةٌ قصيرًا وشعرٌ أشعثٌ تخالطَ فيه
البِياضُ والسَّوادُ. انتزعَ سِتْرَةً رياضيَّةً مُغضَّنةً عنِ
المقعدِ الخلفيِّ ولَبَسَهَا مُتَلَوِّيًا فوقَ قميصِهِ المُرَبَّعِ
النَّقشِ، القصيرِ الكُمِّينِ، المفتوحِ القَبَّةِ، فيما الكلبانِ
يقفزانِ حولهً مُرَحَّبَيْنِ. نظرَ إلى بُي رايِ. ”جاسِپرِ
هاوليِ. وأنتِ مستر...؟“

”بُي رايِ دينٌ.“ إذا، هذا كانَ مُعلِّمَهُ. وقد بدأ بلا
ترتيبِ، وإن كانت قبضتُهُ شديدةً وعيناهُ صافيتَينِ.
أوما جاسِپرِ هاوليِ برأسه صوبَ المنزلِ. ”من
بَعْدِكَ.“

وجدَ بُي رايِ فُسحةً على الأريكةِ. طلبَ

ماسترشَن من الفِتيان أن يُشارِكوا بشيءٍ من تاريخهم
الشَّخصيِّ حتَّى يتسنى لِمِستر هاولي أن يتعرَّف
إليهم. وواحدًا بعد الآخر، تحدَّث كلُّ منهم بشأن
روابطِ العصابات، والبُيوت المُنهارَة، والمُثولِ مرارًا
أمامَ القضاء، والوقتِ المَقضيِّ داخلَ حبسِ الأحداثِ
وخارجِه. كان في وُسع بُبي راي أن يحكي قِصصًا عن
عدَدِ المرَّات التي نُقلَ فيها، أو الأماكن التي سَكَنَ
فيها، أو كيف كان دائمًا يجِدُ طريقَه رُجوغًا إلى الحيِّ
المُسْتَهتر. أوَّل الأمر، كان يجري راجعًا لأنَّه ظنَّ أن
أمَّه كانت ما تزالُ هناك في مكانٍ ما، في الشُّوارع أو
في نادٍ أو شقَّة. وبعدها عرَفَ الحقيقة، ظلَّ يرجعُ لأنَّ
ذلك الحيِّ كان مألوفًا.

”هل من شيءٍ تُريدُ أن تقوله، مِستر دين؟“ نظَرَ
ماسترشَن إليه.

”فقط لأنَّكم تُخبرونني قِصصكم الحزينة، لا يعني
ذلك أنني سأخبركم قِصتي“. أجالَ نظره في أنحاء
الغُرْفَة وتلقَّى حملةً كلِّ فتى. ”لا أريدُ أن أعرفكم“.
”أعرفُ شيئًا واحدًا عنه“. تكلفَ حُوسيه الابتسام.
”هو يخافُ من الكلاب والأحصنة“.

احتدَّ بُبي راي، ولكنَّ قبلَ أن يتمكنَ من الرَّدِّ،
ضحك الآخرون وشرعوا يحكون قِصص ستارشكي
وهتتش. كان أحدُ الفِتيان قد رفضَ أن يخطو خارجَ
البابِ الأماميِّ طَوالِ الأسبوعِ الأوَّل. وقد حاولَ أخذُ

أن يسبقهما في الرّكض. فانتزع ستارسكي رجلَ
بنظّلوئه، وغرز هتَش مِخلَبين في ظهره وألقاه أرضًا.
وظنَّ أنه هالكٌ لا مَحالة، حتّى بدأ يلعقانه.

”إِذَا، كُلُّ ما يفعَلانِه هو النُّباح، بلا عَضِّ؟“ نظَرَ
بُبي راي إلى خوسيه.

”لن أفرِض الفِكرة“. ابتسم خوسيه لِماسترْسُن
ابتِسامةً عريضة. ”قُمْتُ بهُجومٍ مُباغِتٍ على الرّئيس
مرّةً. كانت فِكرةٌ سيئةً“.

غيَّرَ ماسترْسُن الموضوع. طرَحَ جاسپِر هاولي
بعضَ الأسئلة، وتحدّثَ الفِتيانُ بكلِّ شيء، من
الرّياضة إلى السّياسة. كان لدى كُلِّ مِنْهُم آراءٌ قويّة،
مُتعارضةٌ أحيانًا، ولكنّهم لم يلبّجوا إلى الإهانات أو
المُجادلات.

بعدَ إطفاءِ الأنوار، استلقى بُبي راي على سريره،
والبَطّانيّةُ فوقه. وإذ كان مُنهكًا ومُكتئبًا، أرادَ أن ينام،
ولكنَّ الضّجيجَ في الخارج بدأ مُشتدًّا في الظّلام. ”ما
ذلك الصّوت؟“

”صدّاراتُ اللّيل“. أطلقَ خوسيه ضِحكةً خافتة.
”جعلتني أجنُّ أوّلَ أسبوع. انتظر حتّى تسمعَ
الضّفادِعَ بعدَ هطولِ بعضِ المَطَر“. وانقلبَ.
”ستعتادها“.



قيلُ بِي راي الهزيمة، على الأقلِّ إلى أن يتيسَّر له
سبيلٌ إلى خوض معركةٍ والفوزِ فيها. كانَ أمامه إمَّا
مُواكبةُ البرنامجِ وإمَّا المَوْتُ ضجْرًا. أعطاهُ هاولي
سلسلةَ امتحاناتٍ ليتبيَّن موقعهَ مدرسِيًّا. وسلَّمهُ كُتُبًا
مدرسيَّةً في الجبرِ العالِي، وعلمِ الأحياءِ، والإنشاءِ
الإنكليزيِّ. ولَمَّا خيَّرهُ هاولي بينِ الإِسْپانيَّةِ
والفرنسيَّةِ، قال: لِمَ ليسِ اللاتينيَّة؟ فضحكَ هاولي،
ثمَّ عادَ في اليومِ التَّالي بكتابٍ لاتينيٍّ مُستعملٍ على
مُستوى التَّعليمِ العالِي. ”اتفقَ تمامًا أن هذا واحدٌ من
اهتماماتي“.

”كنتُ أمزح“.

”تخافُ ألا تكونَ ذكيًّا كفايَّة؟ كانتِ اللاتينيَّةُ
مِعيارًا في المدارسِ الرِّسميَّة. إنَّها أساسُ لغتِنَا
وتقاليدِنَا ونُظْمِنَا الفكرِيَّة، وسياستِنَا وعلومِنَا. يُمكنُ
أن تُعلِّمَكَ دراسةُ اللاتينيَّةِ كيف تُفكِّرُ تحليليًّا“.

كانَ بِي راي مُتعوِّدًا مُعلِّمينَ يُمضونَ الوقتَ
فحسب، لا مُفعمينَ حماسَةً. إنَّما كانَ لدى هاولي
قِصصٌ في كلِّ موضوع، وقد علِّمَ كما لو كانَ يعرفُ
المادَّةَ من الدَّاخل فخارجًا، رأسًا على عقب، طردًا
وعكسًا. لقد كانَ مُتحمسًا تمامًا بشأنِ ما يُعلِّمه حتَّى
التقطَ بِي راي حماسته.

استدعى ماسترسُن بِي راي إلى المكتبِ ثلاثَ
مرَّاتٍ في الأسبوعِ. وثلاثَ مرَّاتٍ في الأسبوعِ، تجنَّبَ

بُي راي أسئلة التحقيق. وإذ أسخِط، نَفِدَ صَبْرُهُ.
”عندك كلُّ شيءٍ في الملف“.

”لستُ أبحثُ عن وقائع، مستر دين. أريدُ أن
أعرفَ كيف تُفكّر. أريدُ أن أعرفَ ما هو جارٍ داخلَ
دماغك المؤثّرِ ذاك“.

”لا، لستُ تُريد“. لم يكنُ بِي راي قطّ ينوي أن
يفتحَ ”غُلبَة پاندورا“ تلك.

”ما برحتُ أراقبُك. أنتَ تقومُ بكثيرٍ من الإصغاء.
محادّثك شخصًا يهتمُّ يُمكنُ أن تُساعدك كي تفهمَ
من أينَ جئتُ وكيف تصلُ إلى حيثُ تُريدُ أن
تمضي“.

”أتعاملُ مع شؤوني على طريقي“.

”وكيف يجري ذلك معك؟“ هزَّ ماسترشن رأسه.
”الحقيقةُ هي أنك لا تتعاملُ مع أيِّ شيء، بِي راي.
أنتَ تدفعُ كلَّ شيءٍ نُزولًا، حيثُ تُظنُّ أنه سيبقى
مدفونًا. إنه سيأكلُك حيًّا“.

كانت المُعاملة مع سُوزان ماسترشن أصعبَ منها
معَ تَشْت. تكسائيّةُ شقراء، زرقاءُ العينين، تُرخي
شعرها الطويلَ ذيلَ فرس، ترتدي جينزًا وقمصانًا
غربيّة، وتنتعلُ جزمةَ راعي بقرة. كان الفتیانُ كلُّهم
مُولَعين بها. ”كُن مواليا لي فتعرفَ طريقك في أنحاءِ
المطبخ. أبدٍ لي سوءًا، فتُنظّف الإسطبلات من
الرّوث“. وأخطأ بِي راي، فتبيّنَ له أنها امرأةٌ تحترِمُ

كلمتها.

بعدما تقرّحت يداها من استعمالِ رَفِشِ طَوَالِ النَّهَارِ، جَرَّبَ التَّعْقُلَ. لقد أعالَ نفسه منذُ الزَّمنِ الذي تعودُ إليه ذاكِرَتُهُ. وهو يستطيع أن يعمل سندويتشات، ومعرونةً مع الجُبِنِ. ويستطيعُ أن يقلّي نقانقَ ويصنع عُجَّةَ بيضٍ مخفوق. إلامَ بعدُ يحتاجُ المرءُ؟

واجهت سُوزانُ بُيِّي راي، ويداها على وَرِكَيْهَا، وقالت له إِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يُغَادِرَ المزرعةَ سَيَعْرِفُ كيف يطهو وجبةً من أربعة ألوان، ويكوي قميصه بنفسه رُغمَ كونه يعيش في عالمِ الكَيِّ الدَّائمِ، ويغسلُ ثيابه الخاصّة، ويُسَوِّي السريرَ مشدودًا تمامًا بحيث يُمكنُ أن ينقّفَ عليه قطعة نقدٍ معدنيّة فترتدّ عنه. وسيتعلّمُ حتّى تنظيفَ المرحاضِ وتذكُرُ إنزالِ الغطاءِ عليه. "سوف تُقدّرُ الزَّوجَةَ المُستقبليّةَ ذلك!" وقد رفعت صوتها بحيث استطاع تشّت أن يسمعه في مكتبه الخلفي.

ردّ تشّت بصوتٍ عالٍ، ضاحِكًا: "هل قلت شيئًا ما، حبيبتي؟"

"قف!" وضعت يدها فوق يد بُيِّي راي. "قشّر رأسَ بطاطا بهذه الطريقة، تسلّخ جلدَ إبهامك. لا أريدُ أيّ دَمٍ في البطاطا المهروسة". ثمّ أوضحت وناولته المقشرة من جديد. "بقي خمسة عشر رأسًا فقط

للتَّقشِيرِ“.

عَاندَ ثَانيَةً لَما أُخِذَتُ إِلى خِزانةٍ وَقالتَ لَه إِنَّ فِي
وُسعِهِ أَن يَنتَقِيَ شَئِئًا يَلبَسُهُ أَفْضَلَ مِمَّا لَدَيهِ. ”لَكَ
الْحُرِّيَّةُ بَأَن تَأْخُذَ مَهْمَا احتَجتَ إِليه، يُبي راي. أَغلبُ
فِتيانِنَا يَصلونَ وَلَدِيهِم قَليلٌ غَيرَ تَشكِيلَةٍ ثيابِ
واحدة“. مَدَّت يَدَها وَأَخرجتَ قَمِيصينِ مَكويينِ
مَطويينِ بِترتيب. فقالَ ”لا، شُكرًا“، لَأنَّهُ يُحِبُّ
القَمِصانَ غَيرَ المَزْرَرةِ وَالكَنْزاتِ المُقْلَنَسَةِ، بِاللَوْنِ
الأسودِ كَما يُفْضَلُ.

”ليست هذه نِهايَةَ الطَّرِيقِ، يُبي راي. أنتَ ذاهِبٌ
إلى الكَلِيبَةِ، أو أنتَ ذاهِبٌ إلى العَمَلِ. وفي كِلتا
الحالينِ، عَليكَ أَن تَتَعلَّمَ أَن تَكونَ مَطْمَئِنًّا في ثيابِ
سَئاتِكَ بِوِظيفَةٍ. يَنبغِي لَكَ أَن تَبدوَ جُزْءًا من أِيَّةِ
مِهَنَةٍ تَختارُها“.

”ليسَ مِن لِبائِسِ مَخْصَصِ لِتَعاطِي الحَشيشِ“.

”لا تَكنَ مَسطَولًا. كُوينِ نُو أَريسِغا، نادا غانا“.

”ماذا قُلتِ؟“

”دونَ مُغامَرةٍ بِشَئٍ ما، لا يُكسَبُ أَيُّ شَئٍ“.

هَزَّت رَأْسَها. وَقالتَ شاكيَةً: ”هاي، تَشَّت! ماذا جَري
لِتَعلَّمَ فِتيانِنَا الإِسْپانِيَّةُ؟“

”جاسِپِرُ يُعلِّمُ مِستَرِ دِينِ اللاتِينِيَّةِ“.

”اللاتِينِيَّةُ!“ ضَحِكتَ سُوْزان. ”عَجَبًا! نالَ جاسِپِرُ

أخِيرًا أَمْنِيَّتَهُ!“ وَابْتَسَمَت لِبي راي ابْتِسامَةً خَبيثَةً.

”يا لك من محظوظاً!“

كأيّ فتى آخر، قامَ بِيّي راي بِتوبته في تنظيف
الإسطبلات من الرّوث وتكديس القشّ. وقضى
خوسيه كلّ دقيقة من وقته الحُرّ مع الأحصنة. كان
يركّب كلّ يوم. حاولَ بِيّي راي ألاّ يُحبّ رفيق
حُجرتَه، ولكنْ نشأت بينهما علاقةٌ رُغمَ تصميمه.
استطاع أن يرى عالماً من الضّرر مُقبلاً. أمّا الآن،
فكانت للأمرِ صلّةٌ بخوسيه وحُبّه للأحصنة. وأرادَ
بِيّي راي أن يُحذّره. ”الأحصنة لا تُخُصك، أخي. بلايز
ستار أو ناش قد يكونان في مقطورةٍ أحصنة غداً،
خارجَ هذا المكان. هل فكّرتَ في ذلك مرّةً؟“

”يقيناً فكّرتُ فيه. لستُ غيبياً.“

”إذا لماذا تصيرُ مولعاً بحِصان؟“

”أتراني حاصلًا ذات يومٍ على فُرصةٍ كهذه من
جديد؟ قد أنتهي إلى قضاء مُدّةٍ في الحبس، على
غِرارِ رَجُلِي الكبير. سوف أتمتّع بهذا حتّى أبلغَ الثامنة
عشرة.“

في الثامنة عشرة، يصيرانِ خارجَ البرنامج، بعيداً
عن المزرعة، يعيشانِ مُستقلّين. فبهذه الطّريقة يجري
النّظامُ الحكوميّ.

انصرَفَ بِيّي راي إلى شؤونه الخاصّة، وأكبَّ على
دروسه. كان عليه أن يُذكّرَ نفسه مراراً وتكراراً أنّه لا
ينبغي له أن يُصادقَ أحداً أو يُعوّلَ على أحد. إذ كان

ذلك يؤدِّي إلى الهمِّ والغمِّ. وأحيانًا عندما يكونُ
الفتيانُ كلُّهم يتحدَّثون ويضحكون معًا، يُضطرُّ بِي
راي إلى الخروجِ خارجًا لكي يُقوِّمَ رأسه. إنَّما أغلب
الأحيان، بعكسِ رأيه الأفضل، كان يتحدَّثُ إلى
خوسيه بعدَ إطفاءِ الأنوار. وذاتَ ليلة، حكى له
خوسيه نُكتهً فضحك ضحكًا شديدًا حتَّى أحسَّ
دموعه تجري واضطرَّ إلى حبسِ نفسه قبل أن يبدو
غيبًا ويتعرَّضَ لسوء.

لما أعلنَ خوسيه في اجتماعِ عائليٍّ أنه ينوي أن
يلتحقَ بجنودِ البحريَّة، علمَ بِي راي أن أوانَ مُغادرتهِ
مزرعةَ آل ماسترسن الجبليَّة قد حان. فما إن أطفئت
الأنوار، حتَّى دسَّ ثيابه داخلَ حقيبتِه واتَّجه إلى
الباب. لحقَّ به خوسيه، لابسًا جينزَه بسرَّعة وهو
يُحاولُ أن يُدرِكَه. ”إلى أينَ أنتَ ذاهب؟“

”إلى أيِّ مكانٍ غيرِ هذا!“

”يُصيرُ عمري ثمانِي عشرةَ الشَّهرَ المُقبل. علينا
كلُّنا أن نُغادِرَ في وقتٍ ما، يا رجل. أنا أُحاولُ
التَّصرُّفَ بتعقُّل.“

”أطبِقْ فمك فحسب، وارجعِ إلى المنزل.“ وظهَرَ
ستارسكي وهتَش، فسبَّ بِي راي.

”تصرَّفْ على هَواك!“ توجَّهَ خوسيه نحوَ المنزل،
مُناديًا الكلَّيين. لم يأتيا.

قعدَ ستارسكي عندَ أحدِ جانبي بِي راي، وهتَش

عند الآخر. وإذ أراح بُبي راي حقيبتَه، نظَرَ من علٍّ،
عَبْرَ الطَّرِيقِ الخَاصَّةِ الطَّوِيلَةِ، إِلَى البَوَابَةِ وخطَّ
الطَّرِيقَ القَاتِمَ على طُولِ السِّيَاجِ. إلى أينَ يذهب؟
رجوعًا إلى سان فرانسيسكو؟ ما عادَ لَهُ أيُّ أَصْدِقَاءَ
هُنَاكَ. هل يرجِعُ إلى ساكرامنتو؟ سيُضطرُّ إلى العيش
في الشَّوَارِعِ. ماذا كانت خِيارَاتُه؟ تَفوُّهُ دونَ تَرَدُّدٍ
بِكَلِمَةٍ شَتِيمَةٍ سُوقِيَّةٍ، ثُمَّ بأُخْرَى، بِصَوْتٍ أَعْلَى. وبعَدَ
بِضْعِ دَقَائِقٍ أُخْرَى، رَجَعَ إلى المَنزِلِ. وألقى الحَقِيبَةَ
بِقُرْبِ سريره.

استدعى تَشْتِ بُبي راي إلى حِصَّةِ إرْشَادٍ في
الصَّبَاحِ التَّالِي. وإذ كانت قَبْلَ موعِدِهَا بيومٍ واحدٍ،
تَصَوَّرَ بُبي راي أَنَّ تَشْتِ عِلْمَ بِمُحَاوَلَتِهِ الهَرَبِ. فقَعَدَ
مُتَسَائِلًا كم يَوْمًا سيقضي في تَنظِيفِ الرُّوثِ هذه
المَرَّةَ.

احتلَّ تَشْتِ مَعْقَدَهُ وراءَ مَكْتَبِهِ. "يسُرُّني أَنَّكَ
غَيَّرْتَ فِكْرَكَ البَارِحَةَ". واثَّكَأ إلى الِوراءِ. "أُتْرِيدُ أَنْ
تَتَكَلَّمَ عَمَّا جَعَلَكَ تُرِيدُ أَنْ تَهْرَبَ؟"

حدَّقَ بُبي راي، بِوَجْهِهِ مُتَحَجِّجًا، إلى لا شَيْءٍ.
"السُّكُوتُ هو طَريقَةُ العَمَلِ لَدَيْكَ، أليسَ كَذَلِكَ،
مِستَرِ دِينِ؟ حَسَنًا. هذه المَرَّةَ، سَنَجْلِسُ هُنَا فحسبَ
حَتَّى تَبْدَأَ بِالكَلَامِ".

مَرَّتْ دَقَائِقٌ. بَدَأَ تَشْتِ مَاسْتَرِشَن مُسْتَرخِيًا كما
كَانَ لَمَّا دَخَلَ المَكْتَبِ. ازدَادَ بُبي راي تَوَثُّرًا. ما بِرِخِ هُوَ

مَنْ يَسْتَحْدِمُ الصَّمْتَ سِلَاحًا. يَجْلِسُ وَقْتًا طَوِيلًا
كَافِيًا، ثُمَّ يَقُولُ الشَّخْصُ الْآخِرُ شَيْئًا مَا، يَكُونُ فِي
الْعَادَةِ كَافِيًا لِأَنْ يَسْتَعْمِلَهُ بِي رَاي ضِدَّهُ. إِنَّمَا لَمْ يَبْدُ
تَشَّتْ مُنْزَعِجًا.

بَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةَ دَقِيقَةً مِنَ الصَّمْتِ، تَمَلَّلَ بِي
رَاي عَلَى كُرْسِيِّهِ. ثُمَّ قَالَ كَلِمَتَيْنِ مُزْمَجَرًا وَقَامَ.

”اقْعُدْ، مِسْتَرِ دِينِ“. تَكَلَّمَ تَشَّتْ مَاسْتَرِشْنْ بِهَدْوٍ،
لَكِنْ بِرَبَاطَةِ جَاشِ فُولَازِيَّةِ. ”عِنْدَنَا سَاعَةٌ كَامِلَةٌ“.

عَلَى الْأَقْلِ، لَاحَتْ نِهَآيَةً لِلْعِيَانِ. ثَلَاثُونَ دَقِيقَةً
جَعَلَتْ أَعْصَابَ بِي رَاي مَشْدُودَةً فِي عُقْدِ لَعْلِهِ لَمْ
يَمْلِكِ الْجُرَآةَ كِي يَهْزُبَ، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ كَيْفَ يُطْرَدُ. فَكُلُّ
مَا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ هُوَ أَنْ يَجِدَ غُلْبَةً رَشَّ طِلَاءِ. جَعَلَ
ذِهْنَهُ يُرَكِّزُ عَلَى مَا سِيرْسُمِهِ عَلَى جِدَارِ. وَبَعْدَ سَاعَةٍ،
كَانَ دَمُهُ قَدْ بَرَدَ إِلَى دَرَجَةِ جَيْشَانِ ثَابِتَةٍ.

بَدَا تَشَّتْ مُتَجَهِّمًا. ”مُؤَثِّرُ“. تَضَمَّنَتْ ابْتِسَامَتَهُ
حُزْنًا، لَا احْتِرَامًا. ”لَكَ أَنْ تَنْصَرِفَ، مِسْتَرِ دِينِ“.

ذَلِكَ الْمَسَاءَ، لَمَحَ قَلَمُ رَسْمِ أَسْوَدٍ عَلَى إِفْرِيزِ اللَّوْحِ
الَّذِي يُمَحَى بِمِمْحَاةٍ جَافَةٍ، فَأَحْسَسَ دَفْقَةً أُدْرِينَالِينِ.
وَإِذْ دَسَّهُ خِلْسَةً فِي جَيْبِهِ، فِيمَا الْآخَرُونَ مُسْتَلْقُونَ
يُشَاهِدُونَ مُبَارَاةَ بَيْسَبُولِ، تَوَجَّهَ إِلَى غُرْفَتِهِ.
وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَسْمَعَ الْفِتْيَانَ يَهْتَفُونَ لَدَى إِحْرَازِ
إِصَابَةٍ.

”هَآيَ، لِمَ لَا تَنْضُمُ إِلَيْنَا؟“ تَوَقَّفَ خُوسِيهِ دَاخِلَ

الباب تمامًا. وما لبث أن أطلق كلمة نايبة، ووقف
محملًا. ثم عاد خارجًا، وأغلق الباب وراءه.

أحسَّ بِي راي كأنه رُكِلَ في معدته، ثم رجعت
الدَّفقة طامسةً الألم، مُركزةً الغضب. فاستمرَّ يشتغل
مشدودَ الأعصاب.

سمعَ هممةً أصواتٍ من حُجرة الجلوس، فيما
ابتدأ الاجتماع المسائي من دونه. ما كان أحدٌ
ليفتقده عندما يرحل. بعد حين، سمعَ التلفزيون من
جديد. وبقي الباب مُغلقًا.

فرغَ قلم الرسم من الجبر قبلما أنهى الرّسمة،
ولكنه تصوّر أنه أنجز ما يكفي. ألقى القلم الفارغ في
سلة المهملات، وقعد على الأرض عند طرف سريرهِ.
تمنى لو كان في حوزته قلمانٍ آخران ليتمكن من
إكمال ما بدأه، ولكن الأمر لم يهَمَّ. لقد أنجز ما يكفي
ليطرّد من المزرعة.

طرق أحدُهم الباب وفتحَه. رأى بِي راي جزمةً
تشّت ماسترشن البنية البالية. ها قد أقبلت. حان
وقت الرحيل. كان ذلك هو ما أرادَه، ألم يكن؟

صعدَ الخوفُ من أعماقِ داخله، وأمسكَ بخناقهِ.
أين أذهبُ الآن؟ إلى أين سأنتهي هذه المرّة؟

”ها أنت تتكلّم أخيرًا، بِي راي.“ وقف تشّت
ماسترشن بهدوء، يتأمل الجدار. ”يبدو كأنّ لديك
كثيرًا تقوله.“



نَظَرَ جَاسِپَر هَاوَلِي مَا قَد رَسَمَهُ بُيِي رَاي. وَفِي الْيَوْمِ
التَّالِي، رَجَعَ حَامِلًا صُنْدُوقَ كُتُبٍ، ثُمَّ أَنْزَلَهُ عَلَى
الطَّائِلَةِ أَمَامَ بُيِي رَاي. "أَضْفَنَا فَنَ الرَّسْمِ إِلَى
مِنْهَاجِكْ".

"هَلْ تَتَوَقَّعُ مِنِّي أَنْ أَقْرَأَ هَذِهِ كُلَّهَا؟" وَبَعْدَمَا نَظَرَ
بُيِي رَاي أَوَّلَ كِتَابٍ، تَلَهَّفَ لِرُؤْيَا مَا يَوْجَدُ سِوَاهُ فِي
الصُّنْدُوقِ.

"لَدَيْكَ وَقْتُ". أَخْرَجَ الْكُتُبَ وَاحِدًا فَوَاحِدًا: تَارِيخُ
الرَّسْمِ، آثَارُ لِيُونَارْدُو دَاقْنَشِي، فَرَنْسِيْسِكُو غُويَا، يُولِ
سِيْزَان، قِنْسَانْت قَان غُوح، هَيْرُونِيمُس بُوْش، أَمِيل
نُولِدِي. فَتَحَ بُيِي رَاي الْكِتَابَ الْأَخِيرَ مَشْدُوهَا.
فَاسْتَرْجَعَهُ هَاوَلِي. "لَيْسَ الْآنَ. الْأُمُورُ الْأُولَى أَوَّلًا.
الرِّيَاضِيَّاتُ، اللَّاتِينِيَّةُ، الْاجْتِمَاعِيَّاتُ". وَبَسَطَ يَدَيْهِ
عَلَى كُذْسِ كُتُبِ الرَّسْمِ. "هَذِهِ حَوَافِزُ لِلانْكِبَابِ عَلَى
العَقْلِ. مَا إِنْ تَنْهَى فُرُوضَكَ، حَتَّى تَصِيرَ هَذِهِ كُلُّهَا
لَكَ".

أَنْهَى بُيِي رَاي وَظَائِفَهُ الصَّفِيَّةَ فِي سَاعَتَيْنِ. وَكَانَ
يَنْبَغِي أَنْ يُذَكَّرَ بِانْجَازِ مَهَامِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَتَمَّهَا بِسُرْعَةٍ. ثُمَّ
قَضَى سَاعَاتٍ يَنْظُرُ آثَارَ جَان سِنْفَر سَارْجَنْتِ الْمَائِيَّةِ
الْأَلْوَانِ عَنِ قِينِيْسَا، وَرُسُومًا بِرِيْشَةَ جَان وَلِيمِ
وُتْرَهَاوَسِ، مُنْتَقِلًا إِلَى أَمِكِنَةِ وَأَزْمِنَةِ أُخْرَى. وَقَدْ
رَاقَتْهُ أَلْوَانُ قَان غُوحِ الزَّاهِيَّةِ الْحَادَّةِ، وَوَجُوهُ نُولِدِي

المُقنَّعة، وصراحةً بيكاسو الصَّارخة.

لَمَّا أَحْضَرَ هَاوَلِي أَقْلَامًا وَدَفَاتِرَ رَسْمٍ، مَلَأَهَا بِي راي. وَقَدْ أَحْضَرَ هَاوَلِي كِتَابًا عَنِ رَاسِمِي الْجِدَارِيَّاتِ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. وَأَنْجَزَ بِي راي مَزِيدًا مِنَ الرُّسُومِ.

نَظَرْتُ سُوزَانَ مِنْ فَوْقِ كَتِفِهِ عَصَرَ ذَاتِ نَهَارٍ. ”هَلْ لِي أَنْ أُلْقِيَ نَظْرَةً؟“ وَالتَقَطْتُ كَرَّاسَةَ رُسُومِهِ قَبْلَ أَنْ يُتَاحَ لَهُ وَقْتُ لِلْإِجَابَةِ، ثُمَّ قَلَّبْتُ الصَّفْحَاتِ. ”أُووه، تُعْجِبُنِي هَذِهِ الرَّسْمَةُ“. وَوَضَعَ كَرَّاسَةَ الرُّسُومِ أَمَامِهِ. ”هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَرَسِّمَ عَلَيَّ جِدَارًا؟“

أَكَانَتْ تَمْزِحُ؟ لَقَدْ بَدَتْ جَادَّةً، بَلْ مُتَحَمِّسَةً بَعْضَ الشَّيْءِ أَيْضًا.

”سَأَعْطِيكَ الْجِدَارَ الَّذِي فِي الْمَطْبَخِ إِذَا رَسَمْتَ شَيْئًا كَهَذَا. لَطَالَمَا أُرِدْتُ أَنْ أَرَى إِيطَالِيَا. ارْسُمْ شَيْئًا مِنْ رُومَا. أَوْ أَمَاكِينَ رُبَّمَا رَأَاهَا قَاسِكُو دَا غَامَا فِي رِحْلَتِهِ حَوْلَ رَأْسِ هُوْرِنِ.“

”رُومَا وَقِيلاسكو“. لَوِي بِي راي قَسَمَاتِ وَجْهِهِ.

”قَاسِكُو“. أَطْلَقْتُ ضِحْكَةً. ”لَكِنْ مَهَلًا! رُومَانِ

قِيلاسكو. مِنْ شَأْنِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ اسْمُ رَسَامٍ عَظِيمًا!“

ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَيْهَا عَالِيًا وَكَأَنَّهَا تَوَطَّرُ الْجِدَارَ. ”رُومَانِ

قِيلاسكو عَاشَ هُنَا“.

”الْأَسْمَاءُ الْقَلَمِيَّةُ لِلْكِتَابِ“. ضِحْكَ تَشَتْ.

”قُولِي ذَلِكَ لِبِرُوسِ وَآيْنِ وَكَلَارِكِ كَنْتِ. إِذَا كَانَتْ

الأسماء المُستعارة جيِّدة كِفايةً للأبطال المُتفوّقين،
فلماذا لا يتسنّى لرسّامٍ أن يتَّخذَ اسمًا مُستعارًا؟“
كانت سوزان تمزح، ولكنها زرعت بِذرةٍ رُغمَ ذلك.
إنَّ بِيي راى دين كانَ الغُلامَ صاحبَ مَلَفِّ الخِدماتِ
الاجتماعيَّة الثَّخين، المنبوذ، النِّكرة الذي ينتمي إلى
لامكان. أمَّا رومان فيلاسكو فذُو منزلةٍ رفيعة. وبِاسمِ
كهذا، يُمكنُ أن تكونَ الحياةُ مُختلِفةً إلى حدِّ بعيد.

الفصل ١٠

أحبَّتْ غريس مَلَمَسَ صَمُوِيلَ مُكَنَّكَتًا بِلِزْقِ جِسْمِهَا، دَافِئًا وَمُسْتَرِيحًا فِي نَوْمِهِ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَضَعَهُ فِي الْمَهْدِ، وَلَكِنَّ كُلَّ دَقِيقَةٍ مَعَهُ كَانَتْ ثَمِينَةً. فَلَمْ تُرِدْ أَنْ تُفَوِّتَ حَتَّى دَقِيقَةً وَاحِدَةً. قَعَدَ رُوبِنُ وَسِيْلَاهُ مَعَهَا فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، سَاكِنِينَ، مُسْتَغْرِقِينَ فِي التَّفْكِيرِ. لَقَدْ فَتَحَا بَيْتَهُمَا لَمَّا كَانَتْ غريس أَكْثَرَ انْكِشَافًا وَانْجِرَاحًا، وَجَعَلَاهَا جُزْءًا مِنَ الْعَائِلَةِ. هَا هِيَ الظُّرُوفُ تَتَغَيَّرُ بِسُرْعَةٍ. وَقَدْ عَلِمَتْ غريس أَنَّ سِيْلَاهُ أَرَادَتْ أَنْ تُبْقِيَ الْأُمُورَ كَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ. لَا، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ صَحِيحًا. لَقَدْ أَرَادَتْ سِيْلَاهُ أَكْثَرَ. أَرَادَتْ أَنْ تَتَبَّنَى صَمُوِيلَ، حَتَّى إِنَّهَا رُبَّمَا شَعَرَتْ بِأَنَّ لَهَا الْحَقَّ فِيهِ بَعْدَمَا بَدَلَتْ الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ.

إِذِ اسْتَحَتْ غريس بِأَزْمَةِ حَمَلِهَا غَيْرِ الْمُخَطَّطِ لَهُ، أَبْقَتِ الْأَمْرَ سِرًّا حَتَّى بَدَأَ حَمَلُهَا يَظْهَرُ. كَانَ رُئِيسُهَا عَلَى مَدَى أَرْبَعِ سِنِينَ، هَارْقِي بَرْنِشْتَاينِ، قَدْ تَقَاعَدَ حَدِيثًا وَبَاعَ مَصْلِحَتَهُ التُّجَّارِيَّةَ، صَارِفًا إِيَّاهَا مِنْ

العقل. كان تعويضُ بطالتها سينفذُ قبلَ ميعادِ ولادةِ
الطفل. ولن تتمكنَ من الحصولِ على وظيفةٍ أُخرى
إلا بعدَ الولادةِ بِمُدَّة. وقد أفرغَ باتريك حسابَها
التَّوفيرِيَّ في أثناءِ الانسحابِ من زواجهما. فلم تعلمَ
أينَ تتوجَّه.

أخيرًا، إذ كتبتُ كبرياءها، أخبرتُ صديقاتها بعدَ
الكنيسة في أثناءِ غدائهنَّ الأسبوعيِّ.
بدتُ شائيس مريضةً بدنيًّا. ”أوه، غريس، أنا
أسيفة“.

أمسكتُ أشلي يدَ غريس. ”ماذا ستفعلين؟“
حدقتُ شائيس إلى نيكول. ”أحيانًا لا أفهمك،
نيكول. فيمَ تفكرين؟“

احمرَّ وجهُ نيكول. ”جيد. ما دام في حوزتكِ
جميعَ الأجوبةِ كلَّ حين، فماذا ستفعل؟“

”في وَسعِها أن تذهبَ إلى مركزِ إرشادٍ للحمل
وتتلقَى المُساعدة. يُمكنُها أن تُبقيَ الطفلَ ثمَّ تبذلهُ
للتَّبنيِّ“. نظرتُ إلى غريس، والدموعُ تملأُ عينيها.
”سأذهبُ معك. لستِ وحدكِ في هذا، يا فتاة“.

كانت غريس تعلمُ أنَّ شائيس ستعنى بما كانت
تواجهه أكثرَ ممَّا ستعنى به صديقاتها الأخرى.
وقد قالت، غيرَ مرَّةٍ واحدة، إنها تمنَّت لو تستطيعُ أن
تؤويَ غريس وتقدِّمَ مسكنًا لها وللطفلِ معًا. ولكنَّ
الشَّقةَ التي تشاركتُ فيها مع امرأةٍ أُخرى كانت أصغرَ

من أن تستوعب رفيقة حُجْرَة أُخْرَى.

استمعت مُفْرَضَةٌ في مركز أزماتِ الحَفْلِ إلى ظُروفِ غريس بِاشْفَاقٍ، لا بِإِدَانَةٍ. استغرق الأمرُ بضعةَ أسابيعٍ، ولكنَّ السَّيِّدَةَ وَصَلَتْ غريس بِسِيْلَاهِ وَرُوبِنِ غَارِسِيَا، المُرَشَّحِيْنِ لِتَبَنِّ مُعَلِّقٍ. وَوَجَدَتْ غريس نَفْسَهَا فِي بَيْتٍ مَعَ عَائِلَةٍ أَحَبَّتْهَا وَأَعْطَتْهَا رَجَاءً بِمُسْتَقْبَلٍ مُظْمَنٍ. فَعَلِمَتْ أَنَّ طِفْلَهَا سَيَكُونُ لَهُ بَيْتٌ مُحِبٌّ مَعَ سِيْلَاهِ وَرُوبِنِ غَارِسِيَا وَوُلَدَيْهِمَا المُرَاهِقِيْنِ، حَيَاةً أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ مِمَّا تَسْتَطِيعُ هِيَ أَنْ تُقَدِّمَ. وَقَدْ أَعَدَّتْ جَمِيعَ الْأُورَاقِ لِلتَّوْقِيعِ عَلَيْهَا حَالَمَا يُوَلَدُ الطُّفْلُ. كَانَتْ عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ التَّبَنِّيَّ كَانَ الخُطَّةَ الفُضْلَى، حَتَّى يَوْمَ وُلِدَ صَمُوِيلَ وَحَمَلْتَهُ عَلَى ذِرَاعَيْهَا. لَقَدْ ارْتَبَطَتْ بِهِ فِي الْحَالِ. لَمْ تَدْرِ كَيْفَ سَتُؤَمِّنُ مَعِيشَةً لِكِلَيْهِمَا، وَلَكِنَّهَا عَلِمَتْ أَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ إِعْطَاءَ ابْنِهَا لِشَخِصٍ آخَرَ كِي يُرَبِّيَهُ.

كَانَتْ غريس صَادِقَةً مَعَ آلِ غَارِسِيَا بِشَأْنِ تَغْيِيرِ رَأْيِهَا. وَقَدْ عَلِمُوا جَمِيعًا أَنَّ أَيَّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ نِهَائِيًّا، حَتَّى وَقَعَتْ غريس عَلَى الْأُورَاقِ، وَقَالَتْ لَهُمْ إِنَّهَا قَرَّرَتْ أَنْ لَيْسَ فِي وَسْعِهَا الْقِيَامُ بِذَلِكَ. فَهَمَّتْ سِيْلَاهِ فِي الْبَدَايَةِ، وَلَكِنْ بَاتَ وَاضِحًا عَلَى مَدَى الْأَشْهُرِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ أَنَّ تَعَلُّقَهَا بِابْنِ غريس صَارَ أَقْوَى.

”أَنْتِ عَلَى يَقِينٍ بِشَأْنِ هَذَا الْإِنْتِقَالِ، غريس؟“
بَدَتْ سِيْلَاهِ أَشْبَهَ بِأُمَّ حَزِينَةٍ مِنْهَا بِصَدِيقَةٍ مُعِينَةٍ.

”لا يُمكنني أن أقيم هنا إلى الأبد، سيلاه. أنا بحاجة لأن أعيش مُستقلَّة. لا يُمكن أن أبقى مُتَّكِلَةً عليك وعلى روبن.“

”أنتِ جزءٌ من العائلة. لا نطلبُ منك أن تذهبي.“

حملت غريس صمويل الصَّوقَ قليلاً. ”حالما أستقرُّ، سأبدأُ البحثَ عن حِضانة.“

بدأت سيلاه مسحوقة. ”لماذا تضعينه في عهدَةِ امرأةٍ غريبةٍ وعِندَكَ أنا؟“ وضعَ روبن يده على رُكبةِ زوجته. تجاهلته سيلاه. ”أنا هنا، غريس. ما برحتُ أمًّا منذُ أن وُلِدَ خافيير وأليشيا. ما برحتُ...“ وتردَّدت. ”تعليمن أن صمويل سيكونُ معي أسعدَ منه معَ غريبةٍ ما. أنتِ تعليمن ذلك. تستطيعين أن تُبقيه عندي في أثناء الأسبوع وتأخذه في نهاية كلِّ أسبوع. تستطيعين أن تأخذه يومَ السَّبت وتعيديه يومَ الأحد. سيكون في أمانٍ عندنا. أنتِ تُريدينه أمًّا. تعليمن كم نُحبُّه. إنَّه كأخٍ لطفلٍ لخافيير وأليشيا. رجاءً، غريس. لا تأخذه من ناسٍ يُحبُّونه وتُعطيه لامرأةٍ لا تكادينَ تعرفينها.“

شعرت غريس بالتمزُّق.

بدأ روبن قلقًا نظيرَ سيلاه، ولكنَّ غريس لم تكن مُوقِنَةً أنَّ ذلك كان من أجل السَّببِ نفسه. لقد قَبِلَ قرارَ غريس أن تحتفظَ بصمويل، ومع أنَّ سيلاه قالت إنَّها قَبِلت، فقد ظلَّا كلاهما يرجوان أن تُغيِّرَ رأيها

ثانيةً.

دخلت سيلاه غرفة الولادة مع غريس، حيث أمسكت يدها وشجعتها في أثناء ولادة عسرة. وكانت سيلاه أول شخص حمل صمويل بعدما وُلد. حتى بعدما غيّرت غريس رأيها بشأن التَّبني، أرادت لها سيلاه أن تبقى. وأصرّت على أن تبقى غريس في البيت وتُرضع صمويل أول ثلاثة أشهر قبل أن تُحاول العُثورَ على وظيفة جديدة.

وإذ رأت غريس انزعاج سيلاه، شعرت بأنها ناكِرَةٌ للجميل وأنانيّة. كيف لها أن تصطحب صمويل الآن، قبل أن تتمكن من العُثورِ على امرأةٍ تعتني به في أثناء انصرافها إلى العمل؟ إنّ فكرة وُضعه في حضانية جعلتها تُصابُ بالغثيان. ما برحت سيلاه أمّا له بقدر ما كانت هي، بل أكثر في الأسابيع القليلة الأخيرة، منذُ باشرتِ العملَ عند رومان قيلاسكو. وأخِرَ يومٍ سبت، بكى على ذراعيها ومدّ يديه لسيلاه. "صمويل مسرورٌ وناجحٌ هنا، غريس. لديه عائلة. أنتِ أردتِ لنا أن نكونَ عائلته، غريس".

أحسّت غريس غُصّةً حادّةً جِبالَ تذكيرِ سيلاه.

أمسك روبن يد سيلاه بإحكامٍ هذه المرّة. "سيلاه". وكانت لهجته مُفعمّةً بالرّفُض.

اغزورقت عينا سيلاه.

"لن نكبَحَ غريس، يا سيلاه. صمويل ابنتها، لا ابنتنا.

هل كنتِ لَتتخلى عن خافير؟“ شرعت سيلاه تتكلم من جديد، ولكنه أردف قائلاً: ”هذا جزء من انتقال سليم، حبيبتى. ما تزال غريس بحاجة إلى وقت كي تنتقل وتستقرّ قبل أن تتمكن من مباشرة البحث عن حضانة“.

كلما عجلت غريس في المغادرة، كان أفضل. ”عندي معظم ما أحتاج إليه مخزونًا في مستودع لتأثيث الكوخ. اتصلت بكنيستى. سيُساعدني متطوعون على الانتقال يوم السبت“.

قالت سيلاه لاهثة: ”يوم السبت! ليس لديك سرير طفل“. وبردت عيناها: ”أين سينام صامى؟ على الأرض؟“

”اشتريت سرير طفل أمس“. لقد رجعت إلى المتجر الاقتصادي، حيث اشترت سابقًا مقعد الطفل في السيارة، وكان مُستعملًا بلطف، وكُرسيّ طفل عاليًا، وبياضات سرير طفل، ولعبًا. ”لدي ما أحتاج إليه“. كان كلُّ شيء قد وُضع فعليًا على مقعد سيارتها الخلفي وفي صندوقها، وسيكون ذلك الأشياء الأولى التي تنقلها إلى الكوخ.

بدأت سيلاه موجهةً وغاضبة. ”ما تزالين بحاجة إلى وقت للعثور على حضانة“.

”أعرف“.

”يعوزك أن تراجع المراجع بدقة وحذر“.

”أعرف، سيلاه“. وقد كافحت غريس الدُموع.

لانت لهجة سيلاه. ”رجاء، لا تأخذه هكذا. سأهتم به لأجلك. ليس عليك أن تقلقي. وهذا سيُعطيني وقتًا قليلًا بعد“.

بدا روبن متأهّبًا للبكاء حِيالَ توّسلِ زوجته المَكروب. ورمقَ غريسَ بنظرةٍ استرحام. ”لعلّ وقتًا قصيرًا بعدُ يُساعد، أختاه. في وُسْعِك أن تتركي صمويلَ عندَ سيلاه ريثما تتقلين. يُمكنني أن أساعدَ أنا أيضًا. لا شُغلَ عندي يومَ السَّبت“.

علّمت غريس أنها لا تستطيع أن تُحسِنَ صنْعًا وعلى ذِراعِها طفل، وبدا أن سيلاه تفهّم أن كلَّ شيءٍ سيتغيّر. فلعلّ وقتًا قصيرًا بعدُ يكونُ جيّدًا. لم تُرد أن تتسرّع في اتّخاذِ قرارٍ بشأنِ الحِضانة. كانت سيلاه على حقّ. لا يُمكنُ أن يُبالغَ المرءُ في الحذرِ هذه الأيام. ستُضطرُّ إلى مُحادثةِ النَّاسِ، ومُراجعةِ المَراجع. وفي تلك الأثناء، سيكون صمويلَ سالمًا ومسرورًا معَ أشخاصٍ يعرفهم.

تحركَ صمويلَ على ذِراعِها. وبقلبٍ مُوجعٍ من التّرُد، قبّلت أعلى رأسه. كان ينبغي أن يكونَ نائمًا في مَهده، ولكنها أرادت أن تحمله حتى تكونَ قويّةً عندما تُحادثُ سيلاه وروبن. آلمها أن تقبلَ منطقَ حُججِ سيلاه. من شأنِ سيلاه أن تُوليّه عنايةً أفضلَ وأوفرَ ممّا سيتلقاهُ في دارِ حِضانة، حتى لو وجدت

وَاحِدَةٌ جَيِّدَةٌ. فَهُوَ سَيَكُونُ وَاحِدًا بَيْنَ اثْنَيْ عَشَرَ
طِفْلًا آخَرِينَ، أَمَّا هُنَا فَسِيَحْظَى بِانْتِبَاهِ سِيَلَاهِ الْكَامِلِ.
ذَلِكَ هُوَ مَا أَقْلَقَ غَرِيْسَ أَكْثَرَ الْكُلِّ. أَكَانَتْ تَتَصَرَّفُ
بِأَنَانِيَّةٍ؟ أَكَانَ الْحَسَدُ يُحَرِّكُهَا؟ أَمِنْ شَأْنِ تَرْكِهَا صَمُوَيْلَ
مُدَّةً أَطْوَلَ فِي عَهْدَةِ سِيَلَاهِ أَنْ يُسَاعِدَهَا عَلَى التَّكْيِيفِ
أَمْ أَنْ يَجْعَلَ الْأُمُورَ أَسْوَأَ؟ لَمْ تَعْلَمْ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ
أَنْ تَدَعَ تَوَجُّسَاتِهَا تَتَحَكَّمُ فِي حِسِّهَا السَّلِيمِ. ”لَا
أَحَاوِلُ أَنْ أَجْرَحَكَ، سِيَلَاهِ. سَيَكُونُ هَذَا وَقْتِيًّا“.
تَفَحَّصَتْ وَجْهَ سِيَلَاهِ، مُرِيدَةً لَهَا أَنْ تَتَفَهَّمُ. ”سَأَتْرُكُ
صَمُوَيْلَ عِنْدَكَ فِي بَحْرِ الْأُسْبُوعِ. وَسَأَدْفَعُ لَكَ مُقَابِلَ
الْحِضَانَةِ“.

”لَا أُرِيدُ مَالًا! أَفْعَلْ ذَلِكَ بِدَافِعِ الْمَحَبَّةِ“.

”أَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ جُزْءٌ مِنْ كَوْنِي مُسْتَقِلَّةً
مُجَدِّدًا. رَجَاءً! حَاوِلِي أَنْ تَفْهَمِي. أَنَا أُحِبُّكَ، سِيَلَاهِ. مَا
بَرَحْتُ كَأَخْتِ لِي. أَنَا أَقْدِرُ كُلَّ شَيْءٍ عَمِلْتَهُ لِي
وَلِصَمُوَيْلَ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ ابْنِي مَعِي كُلَّ حِينٍ
وَبِأَسْرَعٍ مَا يُمَكِّنُ“.

أَطْلَقْتُ سِيَلَاهِ نَفْسًا مُرْتَعِدًا. ”نَعَمْ، أَنَا أَفْهَمُ“.
وَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا، هَادِئَةً الْآنَ. ”سَيَجْرِي كُلُّ شَيْءٍ
حَسَنًا كَمَا يَنْبَغِي“.

صَلَّتْ غَرِيْسَ طَالِبَةً أَنْ تَكُونَ قَائِمَةً بِالْأَمْرِ الصَّائِبِ.
”سَأَخُذُ صَمُوَيْلَ عَصْرَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَقْلِ، وَآتِي بِهِ إِلَى
الْبَيْتِ عَصْرَ الْأَحَدِ“. لَمْ تَقْصِدْ أَنْ تَقُولَ ”الْبَيْتِ“.

وأحسّت دموعًا وشيكة، فطرّفت بعينيها وحبستها.
”نعم، جيّد“. تكلمت سيلاه برقة هذه المرّة. ”ما
برح الاعتناء بصمويل مسرتي. إنّه ملاكنا الصّغير“.
ومدّت ذراعها، استعدادًا لأخذ صمويل.

وقفت غريس. لا يمكن أن تحوزيه، أرادت أن
تصرخ عاليًا. كفي عن محاولة أخذه مني! ولكن أن
تقول أشياء من هذا القبيل كان أمرًا غير وارد بعد كلّ
ما فعله روبن وسيلاه لأجلها. ”أنا شاكرة لكما كليكما.
حقًا، أنا شاكرة“.

”نعلم ذلك“. فهم روبن، حتّى لو لم تفهم سيلاه.
”فات الوقت، وصمويل وأنا كلانا ينبغي أن نكون
في السرير“. ووضعت يدها على كتف سيلاه. ”شكرًا
لك“.

رفعت سيلاه نظرها إلى غريس. ثمّ رفعت يدها
واحتضنت بها قدم صمويل.
لم تضع غريس صمويل في مهده تلك الليلة، بل
أبقته مكنكنا في السرير بجانبها.



شاهد رومان أربعة رجال ينقلون أثاثًا وصناديق إلى
داخل كوخه. كانت غريس قد أدخلت شيئًا كبيرًا
ملفوفًا قبل ذلك، ثمّ أتت نقلتين إضافيتين
لصناديق. وبعدها حملت إلى الدّاخل مكنسة كهربائية،

لم تخرُج ثانيةً. تصوّرها رومان في الدّاخل، مُصدِرةً أوامِرَ كجنرالٍ صغير. ضَعُوا الأريكةَ هُناك، والكرسيَّ الدوّارَ الهزازَ هُنا، وطاولةَ القهوة هكذا تمامًا. كلُّ شيءٍ ينبغي أن يكون في مكانه المُناسب. لم تكن تملكُ الكثير، وهكذا لم تستغرقِ العمليّةُ وقتًا طويلًا. غادرَ ثلاثةٌ من الرّجال، وبقيَ الرّابع. مكسيكيٌّ، كما خَمَنَ رومان.

لَمَّا نظَرَ رومان ثانيةً في ما بعد، كانت غريس جالسةً مع الرّجل على الحائط الخفيض المُطلّ على الوادي، وكانا يتحدّثان. لم يبدُ الرّجلُ مُستعجلاً أن يرحل. فكَّرَ رومان كم تفاهمت مع هيكتور جيّدًا. لعلّ لدى غريس شيئًا بشأنِ الأميركيين اللّاتينيّين. وقد ظنَّ رومان خطأً أنّه أميركيٌّ لاتينيٌّ بضعَ مرّات، لا سيّما عندما سافرَ وخضعَ للتفتيش من قِبَلِ إدارةِ أمنِ الانتقال. كانت أمّه بيضاء، فكان تخمينُ أيِّ شخصٍ يُرجّحُ إلى أيِّ قومٍ انتمى أبوه. وقالَ جاسپر إنَّ فحصَ حمضِ نوويٍّ يُحدّدُ أسلافه. لم يُردِ رومان قبلاسكو أن يعرف، ولكنَّ بِيي راى دين فكرَ في الأمر أحيانًا.

ركّزَ رومان على ورقةِ النّقل. هذه هي الأخيرة، وقد انتهى تقريبًا. بعدَ أيّامٍ قليلة، أسبوعٍ على الأكثر، سيَتوجّهُ جنوبًا إلى سان دييغو. وسيَمكُثُ بقدر الوقت اللازم لإكمال المشروع، أسبوعين ورُبّما أقلّ.

إِذَا جَدَّ وَكَدَّ فِي الْعَقْلِ. سَيَبْدَأُ حَيْثُ ابْتَدَأَ هَيْكْتُورُ
وَيَتَابِعُ عَمَلَهُ عَلَى الْجِدَارِ. وَسِيضَعُ هَيْكْتُورُ الْغِشَاءَ
الْوَقَائِيَّ النَّهَائِيَّ.

أَلْقَى رُومَانُ الْقَلَمَ دَاخِلَ الصِّينِيَّةِ، وَلَيِّنَ أَصَابِعَهُ
الْمُتَشَنِّجَةَ. كَانَ قَدْ اشْتَغَلَ سَاعَاتٍ عَلَى زِرَافَاتِ
تَقْتَاتٍ مِنْ أَشْجَارٍ شَائِكَةٍ، مُكَافِحًا سُخْرِيَّةَ رَسْمِ
حَيَوَانَاتِ حُرَّةٍ فِي الْبَرَارِيِّ الْمَحْمِيَّةِ لِفُنْدُقِ يُوُوِي
سَيَّاحًا تَوَاقِينَ أَنْ يَزُورُوا حَيَوَانَاتِ مَاسُورَةٍ تَعِيشُ فِي
حِظَائِرِ مُسَيِّجَةٍ.

ذَرَعَ الْغُرْفَةَ زَهَابًا وَإِيَابًا، حَالِمًا أَحْلَامَ يَقْظَةٍ. كَيْفَ
سَتَكُونُ الْحَالُ إِذَا زَهَبَ فِي سَفَرِيَّةٍ تَصْوِيرٍ وَالتَّقْطِ
صُورًا قَرِيبَةً وَشَخْصِيَّةً لِلْأَسْوَدِ وَحَيَوَانَاتِ النَّوِّ؟ كَانَ
فِي حُوزَتِهِ الْمَالُ الْإِلْزَامُ لِقَضَائِهِ وَقَتٍ فِي أُفْرِيْقِيَا. إِنَّمَا-
وَالْأَسْفَاهُ!- لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَتْرُكَ هَذَا الْمَشْرُوعَ غَيْرَ مُنْجَزٍ.
لَعَلَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى سَفَرَةٍ أُخْرَى فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مَا.

زَهَبَ إِلَى صَفِّ النَّوَافِذِ الْمُطِلِّ عَلَى تَوْبَنْغَا كَانِيُونَ.
كَانَتْ غَرِيْسٌ مَا تَزَالُ تُحَادِثُ الرَّجُلَ. بِالنِّسْبَةِ إِلَى
امْرَأَةٍ لَمْ تَكُ تَقُولُ لَهُ عَشْرِينَ كَلِمَةً فِي الْيَوْمِ، كَانَ
لَدَيْهَا بِالتَّأَكِيدِ كَثِيرٌ تَقْوَلُهُ لَذَلِكَ الرَّجُلِ. وَقَفَا
وَتَصَافَحَا، وَقَبَّلَ الرَّجُلُ جَبِينَهَا. هُمَا صَدِيقَانِ صَالِحَانِ
إِذَا. ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الطَّرِيقِ الْخَاصَّةِ الْأَمَامِيَّةِ وَتَوَارِيَا.
وَلَمَّا رَجَعَتْ غَرِيْسٌ وَحَدَّهَا وَدَخَلَتِ الْكُوْخَ، أَزْدَادَتْ
حَالًا سُرْعَةً نَبِضِ رُومَانِ دَرَجَةً.

رُبَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْبُرَ وَيُسَلِّمَ عَلَيْهَا. سَيَكُونُ قِيَامُهُ
بِذَلِكَ هُوَ التَّصَرُّفُ اللَّائِقُ.

فِكْرَةٌ سَيِّئَةٌ. لَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَسَخَا حَدُودًا: رَئِيسُ
عَمَلٍ وَمَوْظِفَةٌ، وَالآنَ مَالِكٌ وَمُسْتَأْجِرَةٌ.

فَتَشَّ فِي الْخَزَائِنِ وَالْبَرَادِ عَنْ شَيْءٍ يُثِيرُ بِهِ
شَهِيَّتَهُ. لَمْ يَكُنْ جَائِعًا كِفَايَةً لِيُحَضِّرَ شَيْئًا مَا. وَإِذَا أَدَارَ
تَلْفِزِيُونَ السُّتَيْنِ بُوصَةَ الْمُعَلَّقِ عَلَى الْجِدَارِ، جَالَ عَلَى
القَنَوَاتِ. لَا شَيْءَ سِوَى الرِّيَاضَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَإِعَادَاتِ
الْبِرَامِجِ الْمُلْغَاةِ وَالْأَفْلَامِ الْقَدِيمَةِ. أَطْفَأَ الْجِهَانَ، وَوَقَّفَ
عِنْدَ نَوَافِذِ حُجْرَةِ الْجُلُوسِ، مُفَكِّرًا فِي مَدَى إِعْجَابِ
غَرِيسٍ بِالْمَنْظَرِ. لَقَدْ رَأَى أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ فِي أَثْنَاءِ
أَسْفَارِهِ. وَإِذَا كَانَ ضَجْرًا وَمُتَعَبًا، اسْتَلْقَى عَلَى الْأَرِيكَةِ
وَتَرَكَ ذَهَنَهُ يَسْرَحُ.

فَتَشَكَّلَتْ صُورٌ فِي خَيَالِهِ. وَإِذَا سَحَبَ الدَّفْتَرَ
الْأَسْوَدَ وَأَقْلَامَ الرَّصَاصِ مِنْ تَحْتِ الْأَرِيكَةِ، رَاحَ يَرَسُمُ
بِسُرْعَةٍ. بَادَلَتْهُ النَّظْرَ امْرَأَةٌ بِعَيْنَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ،
وَشَفَتَاهَا مَحْنِيَّتَانِ فِي ابْتِسَامَةٍ مُونَالِيزِيَّةٍ. وَإِذَا بَرَبَرَ
بِشْتِيمَةٍ، انْتَزَعَ الْوَرَقَةَ وَغَضَّنَهَا فِي يَدِهِ.

ضَغَطَ رُومَانَ عِقْبِي يَدَيْهِ عَلَى جَبِينِهِ. كَانَ صُدَاعٌ
آخَرَ سَيَلَمُ بِهِ. سَثَّسَاعِدُهُ جَوْلَةٌ بِالسِّيَّارَةِ وَنَوَافِذُهَا
مَفْتُوحَةٌ. سَيَقْتُلُ الْوَقْتَ مُتَمَشِّيًا عَلَى الشَّاطِئِ فِي
مَالِيَبُو. وَيَتَنَاوَلُ شَطِيرَةً هَمْبُرْغَرٍ قَبْلَ رَجُوعِهِ. وَقَدْ
يَلْتَقِي فَتَاةً جَذَابَةً مُنْدَفِعَةً. فَهُوَ مَا بَرَحَ عَازِبًا دَهْرًا.

بعد ذلك بساعتين، قعدَ رومان على الشاطئ،
يُراقِبُ تكسَّرَ الأمواج. كلُّ ما فعله أَنَّهُ غيَّرَ المنظر، لا
فِكْرَهُ. وكادَ يتمكَّنُ من سَماعِ صوتِ جاسِپرِ هاولي.
إلى أينَ أنتِ ذاهِبُ هذهِ المرَّةِ، بِيي راي؟ إلامَ
تتطلَّعُ؟

جُدور؟ أجنحة؟ لم يعلم. أعوزة فقط أن يخرج
من البيت ويتعدَّ عن جارتِه المُجاورة.

كانت الساعة قد تخطتِ الثانية فجراً لما وصل
إلى البيت من عشاءٍ في مطعمٍ لثمارِ البحر وجولةٍ
طويلةٍ بالسيارة على طولِ الساحلِ ذهاباً وإياباً. زلَّقَ
البابَ الزجاجيَّ حتَّى انفتح. خارجاً، تألقت النجوم
بضياءٍ نير، ولكنَّهُ انتهى ناظراً إلى الكوخ بالأحرى.
كانت الأنوارُ الداخليَّةُ مُضاءةً. لا بُدَّ أن غريس ما
تزالُ تُرتَّبُ المكان.

أو ربَّما كانت خائفة. فلا أنوارَ مدينةٍ هنا في
العراء.

لقد سبقَ أن استغرقَ تعودُ الظلامِ وقتاً بالنسبةِ
إليه أيضاً.

الفصل ١١

رومان، في سنِّ الخامسة عشرة

كان في المكتبة أروقةً كُتِبَ ومُختَلِيَاتٌ هادئة. سَحَبَ
بُيِّي راي كُتُبًا وَقَلَّبَ صَفَحَاتٍ، رَاسِمًا مُخَطَّطَاتٍ
سريعةً لِإِزَاتِ الحَرَبِ الأَهْلِيَّةِ وَعُدَّتِيهَا. وَقَدِ اسْتَفْرَقَ
فِي صُورِ غُتَيْسْبُرْغِ بِحَيْثُ نَسِيَّ أَمْرَ الوَقْتِ حَتَّى
مَغِصَ بَطْنُهُ جوعًا. لَمْ يَكُنْ قَدِ تَنَاوَلَ فَطورًا أَوْ غداءً.
وَفِيما الكُتُبُ ما تَزَالُ مَفْتُوحَةً عَلَى الطَّاولَةِ، غَادَرَ بُيِّي
راي المكتبة وتوجَّهَ إلى عَرَبِيَّةِ سُجُوقِ ساخن. اشترى
سندويتشي سُجُوقِ وَأَكَلَ عَلَى دَرَجِ قَاعَةِ الاستماعِ
المدنيَّةِ، مُتصوِّرًا ما يُمكنُ أَنْ يَرشُمَهُ عَلَى مُسَطَّحاتِ
المباني الحكوميَّةِ البيضاء غيرِ المُفسَدة.

لَمَّا أَنْجَزَ الرَّسْمَ، توجَّهَ إلى حَفَلَةِ رِيپِرِ، مُتصوِّرًا أَنَّها
ستكونُ ما تَزَالُ مُسْتَمِرَّةً بِقوَّةِ.

كانت سِيَّارةُ إِسعافِ وَسِيَّارتا شُرطةِ وَمَاضِةُ
الأضواءِ مُتوقِّفةً أمامَ مَبْنى شَقَّةِ رِيپِرِ. لَعَلَّهُ إِزعاجُ
أَهْلِيِّ آخِرِ. قَبْلَ يَوْمَيْنِ، ضَحِكَ رِيپِرِ عَلَى فَتَى طَعنته

بِالسَّكِينِ عَشِيقَتُهُ الْقَدِيمَةَ لَمَّا ضَبَطَتْهُ خَارِجًا مِنْ شَقَّةِ
امْرَأَةٍ أُخْرَى. اتَّجَهَ بُيِّي رَايَ إِلَى جَانِبِ الْمَبْنَى،
مُتَّصِرًا أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَسَلَّقَ سُلَّمَ الْحَرِيقِ
وَيَسْتَعْمَلَ الْبَابَ الَّذِي عَلَى السَّطْحِ لِيَدْخُلَ الْمَبْنَى. وَإِذْ
مَشَى بَيْنَ الْمُتَفَرِّجِينَ الْفُضُولِيِّينَ سَمِعَ مُصَادِفَةً رَجُلًا
يَتَكَلَّمُ. "...شَابَّانِ أُطَلِّقَتِ عَلَيْهِمَا النَّارُ فِي حَفْلَةٍ فِي
الطَّابِقِ الثَّلَاثِ..."

تَوَقَّفَ بُيِّي رَايَ. "مَاذَا تَقُولُ؟"
نَظَرَ الرَّجُلَ إِلَيْهِ وَتَجَهَّمُ. "أَنْتَ تَسْكُنُ فَوْقَ هُنَاكَ؟
لَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي الْجَوَارِ".

"لِي أَصْدِقَاءُ فِي الْمَبْنَى."
"أَمْرٌ حَسَنٌ أَنْكَ لَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ".

شَعَرَ بُيِّي رَايَ بِإِحْسَاسٍ سَيِّئٍ فِي قَعْرِ مَعَدَّتِهِ.
جَزَتْ حَفَلَاتٌ كُلَّ حِينٍ فِي هَذَا الْمَكَانِ. لَمْ يَعْزِ ذَلِكَ
أَنَّ أَيَّ شَخِصٍ يَعْرِفُهُ أُطَلِّقَتِ عَلَيْهِ النَّارُ أَوْ أُطَلِّقَهَا هُوَ.

أَخْرَجَ مُسْعِفَانِ طَبَّيَّانِ نِقَالَةً. وَزَفَرَ بُيِّي رَايَ شَتِيمَةً
لَمَّا عَرَفَ رِيَّيْرَ. كَانَ مَشْحُوبًا، غَائِبًا عَنِ الْوَعْيِ، وَأَنْبُوبَةٌ
وَرِيدِيَّةٌ مَوْصُولَةٌ بِذِرَاعِهِ. حَاوَلَ بُيِّي رَايَ أَنْ يَشُقَّ
طَرِيقَهُ بَيْنَ الْمُحْتَشِدِينَ، وَلَكِنَّ شُرْطِيًّا رَفَعَ إِحْدَى
يَدَيْهِ تَحْذِيرًا. "مَكَانُكَ! إِلَى الْوَرَاءِ".

"هُوَ وَاحِدٌ مِنْ أَصْدِقَائِي!"
"إِذَا سَتَرِيذُ لَهُ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمُسْتَشْفَى".

لَمْ يَبْدُ رِيَّيْرَ بِخَيْرٍ.

ما إن انطلقت سيارته الإسعاف مُبتعدةً، حتى توقفت في المكان الخالي سيارته فان لمُحققٍ في أسباب الوفيات. انتظر بيبي راي، شاعرًا بالغثيان. ولما خرج الرجال أخيرًا بالنقالة المدوّلة، عرف بيبي راي من حجم كيس الجثة وشكله أن لاردو كان في داخله. فكافح كيلا يذرف الدموع التي تحرق عينيه.



قضى بيبي راي باقي الليل يذس الغضب على جدران الحي المُستهتر. أفرغ قلم الرسم وكلّ غلّبة ريش طلاء في حقيبته الظهرية. جاءت سيارته شرطة، ودارت حول زاوية الشارع، ثم توقفت زاعقةً. وثب بيبي راي فوق غطاء المحرك وركض. زعقت العجلات إذ رجعت السيارة ودوّمت. اندفع بيبي راي إلى أقرب مجاز وقفز من فوق حائط. وإذ نزع قفازيه، ألقاهما داخل كومة قمامة. سمع الصفاة المتقطعة ورأى ومضات النور إذ طرح حقيبته الظهرية وراء حاوية نفايات. ودون إبطاء، عبر الشارع مباشرةً. توقفت سيارة أخرى أمامه تمامًا. وإذا بزخم بيبي راي يحمله فوق غطاء المحرك، ليهب بقوة على الرصيف وينظر مشدوهاً، لاهثًا لأخذ نفس.

وقف شرطي فوقه. "أنت بخير، يا فتى؟ هل من شيء مكسور؟"

تكلف بيبي راي ضحكةً. بخير؟ الشخص الوحيد

الذي كان في وُسْعِ بِي راي أن يعتمدَ عليه مُلقَى
داخِلَ كَيْسِ جُنَّة، في طريقه إلى مَعْرِضِ الجُثِّثِ في
المدينة. مكسور؟ أحسَّ دُموعًا غَدَارَةً تسيل. ضَغَطَ،
وهو ذليلٌ، عَقَبِي يَدِيهِ على عَيْنِيهِ. ما كان قد بكى
قَطًّا! طَلَبَ منه الشَّرْطِيُّ أن يبقى ساكنًا، إذ
سَتُسْتَدعى سَيَّارةُ إسعاف. جلسَ بِي راي منتصِبًا،
وهو يئنُّ. وإذ دَفَعَ عنه بعيدًا الأيديَ المُسَاعِدَةَ، وقَفَ
على رِجْلَيْنِ مُرتَعِشَتَيْنِ. لم يُردِ سَيَّارةَ إسعاف. لماذا
كُنْتَ تَرَكُّضُ، يا فتى؟ تَأخَّرْتُ وَأُمِّي ستكونُ قَلِقَةً.
أهذا هو الواقع؟ سَنُقَلِّكُ بالسَّيَّارةِ إلى البيت. أينَ
تسكنُ أمك؟ هل ارتكبتُ أيَّ خطأ، يا شَرْطِي؟ ذلك
هو ما أتساءلُ عنه، يا فتى. هل تُريدُ أن تُجربَ
قِصَّةً أُخرى؟ لماذا كنتَ تَرَكُّضُ؟

أقبلتُ سَيَّارةَ شُرْطِيَّةٍ أُخرى وتوقفتُ وراءهم.
ترجَّلَ منها شَرْطِيٌّ أكبرُ سنًا، أزاحَ حِزامَهُ الجِلْدِيَّ
الثَّخينَ وسَحَبَ مِنْهُ مِصباحًا يدويًا ثقيلًا. وتبَّعَهُ
شَرْطِيٌّ أصغرُ سنًا. سدَّدَ الرَّجُلُ الأكبرُ حُزْمَةَ أشعَّةٍ إلى
وجهِ بِي راي. "أمسكْ بك! هذا الفتى كان مشغولًا
الليلة".

أجفَلَ بِي راي، ولكنَّهُ لم يُشِحَ بِنَظَرِهِ. "لا أعلمُ عمَّا
تتكلمُ".

"مُدَّ يَدِيكَ".

فَعَلَ بِي راي ما طَلِبَ مِنْهُ، عالِمًا أن الشَّرْطِيَّ كان

يُفْتَشُّ عَنْ بُقْعِ طِلَاءٍ عَلَى أَصَابِعِهِ وَثِيَابِهِ. بَعْضُ
رَسَامِي الْغَرَافِيْتِي أَعَوَزَهُمْ دِمَاغٌ لِيَلْبَسُوا قُفَّازَاتٍ. ”أَنَا
نَظِيفٌ. أَتُرِيدُ أَنْ تَفْحَصَ مَا وَرَاءَ أُذُنِي؟“

”غَيْرُ ضَرُورِي“. سَأَلَ الشُّرْطِيِّينَ الْآخَرِينَ فِي أَيِّ
اتِّجَاهٍ كَانَ بُبِي رَاي يِرْكُضُ. وَسَرَّهُ جَوَابُهُمَا.

فَوَجَّى بُبِي رَاي إِذْ وَجَدَ يَدَيْهِ تُقَيِّدَانِ بِرِبَاطِي
شَرِيْطٍ بِلَاسْتِيكِي، كَمَا وَجَدَ نَفْسَهُ يُدْفَعُ إِلَى الْمَقْعَدِ
الْخَلْفِيِّ دَاخِلَ سَيَّارَةِ شُرْطَةٍ. فَاسْتَدَّ رَأْسَهُ عَلَى ظَهْرِ
الْمَقْعَدِ وَشَتَمَ. قَادَ الشُّرْطِيُّ الْأَكْبَرَ السَّيَّارَةَ، فِيمَا خَابَرَ
الْأَصْغَرَ الْمَخْفِرَ. نَظَرَ الشُّرْطِيُّ الْأَكْبَرَ إِلَى بُبِي رَاي فِي
الْمَرَاةِ. ”لَقَدْ تَوَرَّطْتَ قَلِيلًا اللَّيْلَةَ، بُبِي رَاي.“

إِذْ ازْدَادَ نَبْضُ بُبِي رَاي صَارُوخِيًّا، مِثْلَ دَوْرِ الْمَغْفَلِ.
”مَنْ هُوَ بُبِي رَاي؟“

”بُبِي رَاي دِينَ، مَا بَرِحْتَ عَيْنَايَ عَلَيْكَ مُدَّةً مِنْ
الزَّمَنِ. أَعْرِفُ أَيْنَ تَسْكُنُ. أَعْرِفُ مَنْ هُمْ أَصْدِقَاؤُكَ“.
وَنَظَرَ إِلَى الطَّرِيقِ أَمَامَهُ. ”أَنْتَ حَسَنُ الْحِطِّ لِأَنَّكَ لَمْ
تَكُنْ فِي تِلْكَ الْحَفْلَةِ اللَّيْلَةَ.“

”أَذَلِكَ هُوَ مَا تَعْتَقِدُهُ؟ أَنَا حَسَنُ الْحِطِّ؟“

”وَأَغْبَى مِنْ أَنْ تَعْلَمَ ذَلِكَ.“

إِذَا عَلِمَ الشُّرْطِيُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَفْلَةِ، فَلَعَلَّهُ عَلِمَ مَا
جَرَى. ”مَنْ أَطْلَقَ النَّارَ؟“

لَمْ يَتَلَقَّ جَوَابًا.

قضى بِي راي الأيَّام القليلة التَّالية في مركزِ احتِجازِ الأحداثِ، خاضعًا للإجراءات. كان كلُّ ما يملكه في حقيبتِه الظَّهرِيَّة، ورُبَّما تكونُ قد جُرِّفت أصلاً. وكان مُتَقصِّي سِيرَتِه، أليسُن وتكْمب، قد تقاعدَ وانتقلَ إلى فلوريدا. أخيرًا ظهَرَ المُتَقصِّي الجديد، سام كارتر، حاملاً مَلَفِّ بِي راي. لم يكن كارتر يملكُ سُخريَّةً وتكْمب، ولكنَّه كان واقعِيًّا.

”لن يكونوا مُتساهلين هذه المرَّة، بِي راي. جلسةُ الاستِماعِ في المحكمةِ غداً. وبعدها جلسةُ احتِجازِ“.

”أنت مُفترِضٌ أنني مُذنبٌ؟“

ابتسمَ له سام كارتر ابتسامةً ساخرة. ”أُريدُ أن تجلسَ هناك وتقولَ لي إنك غيرُ مُذنبٌ؟“

استشاطَ بِي راي غضبًا، فدفعَ الكرسيَّ إلى الورااء وقامَ ليَمشي. ”ليس لديهم أيُّ دليل!“

”لديهم كلُّ ما يحتاجون إليه. وقد يكونُ هذا أمرًا حسنًا، بِي راي.“

”أمرًا حسنًا؟ قل لي كيف؟“

”سيُخرجُك من الحيِّ المُستَهتر.“

”ماذا إذا لم أرِد أن أذهب؟“

”أشكُّ أنك تعرفُ ما تُريد. الآن تُقرِّرُ المحكمةُ.“

وجدَ بِي راي نفسَه عائشًا في حبسٍ مع فتِيانٍ

أكبر منه سناً وأصلب عُودًا. وعلم كيف يُخفي خوفه وهو نازل في مهجع مع أربعة عشر رفيق حجرة آخرين. فأبقى عينيه مفتوحتين وظهده إلى الحائط. وقلما نام، لأن كل صوت كان يوقظه راجًا إياه. وقد عامل الجميع بفتور، مُميِّزًا المؤذنين.

اصطحب حارس بُبي راى إلى غرفة أثائها طاولة معدنية وكُرسيَّان. توقع أن يرى سام كارتر، ولكن غريبًا طويل القامة، عريض الكتفين، مُرتديًا بزّة رمادية وقميصًا أزرق وربطة عنق، كان واقفًا بانتظاره. ابتسم الرَّجُلُ إذ مدَّ يده. "أنا ولازد رَش. أنا أتولى قضيتك". وكان ذا قبضة قوية. نظر ولازد رَش إلى الحارس، فخرج الرَّجُلُ، مُغلقًا الباب بهدوءٍ وراءه. "اقعد، بُبي راى، لدينا حديثٌ جدِّي نُجريه".

إذ شبك بُبي راى يديه على الطاولة، رمق رَش بنظرة فاترة، كما رجا. لقد علم أصلًا أن المحكمة ستحسبه قاصرًا تحت الوصاية. وتصور أن القاضي قد راجع أي أدلة ضئيلة في حوزة الشرطة وقرَّر أنها ليست كافية.

"عندك جلسة استماع في المحكمة يوم الخميس، الأسبوع المُقبل".

انقلبت معدته غثيانًا. أسبوع؟ ليس لديهم أي شيء عليّ. تغيّرت سيماء رَش كفاية بحيث جعلت بُبي راى ينسى خوفه ويستشيط غضبًا. "أتظن أنني

أَكْذِبُ؟“

”كَانَ عَلَى كُمَّكَ طِلَاءٌ يُضَاهِي الْغِرَافِيَّتِي عَلَى ثَمَانِيَةِ جُدْرَانٍ.“

”مَاذَا إِذَا؟ طِلَاءٌ قَلِيلٌ لَا يُثَبِّتُ أَيَّ شَيْءٍ. لَعَلِّي بِالصَّدْفَةِ مَسَسْتُ شَيْئًا مَا فَعَلِقَ الطَّلَاءُ بِي.“ وَمَالَ إِلَى الْأَمَامِ. ”يَحْتَاجُونَ إِلَى أُدْلَةٍ أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ.“

”سَيَحْتَاجُونَ إِلَى أَكْثَرَ فِي عَالَمِ الرَّاشِدِينَ، وَلَكِنَّكَ أَنْتَ حَدَثٌ. أَخَذَ مَكْتَبُ الْمُدَّعِي الْعَامِّ بُقْعَةَ الطَّلَاءِ الضَّئِيلَةَ تِلْكَ وَجَرَى بِهَا. إِنَّهُمْ فَاعِلُونَ مَا يَحْسِبُونَهُ الْأَفْضَلَ.“

كَانَ سَامُ كَارْتِرٍ قَدْ قَالَ شَيْئًا مُشَابِهًا. خَفَقَ قَلْبُ بُيِّي رَايَ كَأَنَّهُ طَبْلٌ حَزْبٍ. ”يَنْبَغِي أَنْ يَسْجِنُوا الَّذِينَ أَطْلَقُوا النَّارَ عَلَى أَصْدِقَائِي!“

”يَنْبَغِي أَنْ يَقْبِضُوا عَلَيْهِمْ أَوَّلًا. وَمَا دَامَ أَحَدٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَذَلِكَ سَيَسْتَغْرِقُ وَقْتًا.“ وَأَمَالَ رَأْسَهُ مُتَفَحِّصًا بُيِّي رَايَ. ”إِنْ كَانَ عَلِيٌّ أَنْ أَحْمَنَ، أَقُولُ إِنَّ مُطْلِقَ النَّارِ كَانَ يَسْعَى وَرَاءَ إِدْوَارْدُو جِيرِينَا، إِنَّمَا صَادَفَ أَنَّ أَصْدِقَاءَكَ كَانُوا فِي الْمَكَانِ الصَّحِيحِ فِي الْوَقْتِ الْخَاطِئِ.“

”مَنْ إِدْوَارْدُو جِيرِينَا؟“

”كَانَتِ الْحَفْلَةُ فِي شَقَّتِهِ. لَعَلَّكَ تَعْرِفُهُ بِاسْمِهِ السُّوقِيِّ، رَدَّ هُتَ. مِمَّا اسْتَنْتَجَهُ، كَانَ فِي السُّجْنِ. قُتِلَ فَتَى فِي مَسْرَحِ الْجَرِيمَةِ.“ طَوَالَ الْوَقْتِ الَّذِي فِيهِ

تكلّم رَش، أَحَسَّ بُيِّي راي الرَّجُلَ دارِسًا إِيَّاهُ من كَتَب،
مِثْلَ جُرْثومَةٍ تحتَ مِجْهَر. ”ماتَ أخو جيرينا على
الطَّريقِ إلى المُستشفى“.

إنَّ العالمَ الصَّغِيرَ الذي نَحْتَهُ بُيِّي راي على مدي
الأشهرُ القليلةِ الماضيةِ قد انفَجَرَ داخليًا. حاولَ أن
يجلِسَ ساكنًا وهادئًا، ولكنَّهُ في داخلِهِ اضطَرَبَ غضبًا
والَمًا. أغمَضَ عينيهِ وتصوَّرَ شَقَّةَ سَكْنِيَّةِ ذاتِ ألوانِ
خَلابة، نوافِذُها عُيونٌ وأبوابُها أفواهٌ صارخة.

”ما أنا إلا فُضولِي، بُيِّي راي. لماذا لم تكُن في
الحفلة؟“

ربِّما كان ينبغي أن يكونَ هُنَاكَ. لعلَّهُ استطاعَ أن
يفعَلَ شيئًا لإنقاذِ صديقِيهِ. ورُبِّما أَطْلَقَتِ النَّارُ عليه
أيضًا. أيُّ فرقٍ كانَ سيُحدِثُ ذلكَ؟ ”كانَ عندي أمورٌ
أخرى أقومُ بها“.

”أينَ كُنْتَ ذلكَ اليومَ؟“

”في المدرسة“.

”وبعدَ المدرسة؟“

دَفَعَ بُيِّي راي أصابِعَهُ عبْرَ شَعْرِهِ وأمسَكَ رأسَهُ.
كانَ ينبغي له أن يذهبَ إلى الحفلة. كانَ ينبغي له أن
يكونَ مع أصدقائه. ”في المكتبة“.

”ليسَ ذلكَ ما توقَّعتُ أن أسمعَهُ“.

احمرَّ وجهُ بُيِّي راي بشِدَّة. تمنَّى لو لم يُجب.

أَصْرَ رَشٍ. "ماذا كنت تفعل في المكتبة؟"

اكتفى بأن نظر إلى رَشٍ. لِيُفَكِّرِ الرَّجُلُ مَهْمَا أَرَادَ.
لقد فرغ من الكلام. طَرَحَ رَشٍ بِضَعَةَ أَسْئَلَةٍ أُخْرَى. لم
ينبِسْ بِي راي بكلمة. تنهَدَ رَشٍ، وكَدَسَ الأوراقَ، ثمَّ
وضَعَهَا فِي مِحْفَظَتِهِ الجِلْدِيَّةِ المُسَطَّحَةِ. وَقَفَ وَقَرَعَ
البابَ، ففتَحَهُ الحارسُ. "هو لك بجملته". مشى رَشٍ
خارجًا، تاركًا بِي راي وحده مع الحارسِ.

تلك اللَّيلةَ، حلَمَ بِي راي بأُمَّه من جديد. توَسَّلَ
إِلَيْهَا أَلَّا ترحلَ، ولكنَّها دَفَعَتْ يَدَيْهِ بَعِيدًا عَنْهَا، وَقَالَتْ
إِنَّهَا سَتَرْجِعُ. "أنا أَرْجِعُ دَائِمًا. لا تَتَمَسَّكْ بِي، يا
صغيري. عليَّ أن أذهبَ إلى العَمَلِ".

الفصل ١٢

استغرقت غريس في النوم صبيحة الأحد، واستيقظت على رنين هاتفها الخلوي فوق منضدة الليل. وإذ مدت يدها بحثًا عنه، رأت وجه شانيس على الشاشة فردت. "كم الساعة الآن؟"

"أين أنت؟ نحن في المطعم. أنت بخير؟"

"لا بأس. ما أزال في السرير. سهرت حتى الثالثة فجرًا."

"لم أعلم أن لديك ذلك المقدار من الأغراض للتوضيب والترتيب."

"ليس لدي. إنما لم أستطع أن أنام."

"عزيزتنا غريس، عندنا شيء نخبرك به. أردنا أن نخبرك شخصيًا. مؤسف أنك لم تأت."

لم تكن على يقين بأنها تستطيع أن تحتمل واحدة أخرى من أفكار شانيس.

"ما هو؟"

”لَدَيْكَ مَوْعِدٌ هَذَا الْأَرْبِعَاءَ الْمُقْبِلِ، السَّاعَةَ السَّابِعَةَ
مَسَاءً“.

”أَنْتِنِ زَاهِبَاتٌ إِلَى مُشَاهِدَةِ فِيلْمٍ أَمْ حُضُورِ دَرِيسٍ
لِلْكِتَابِ الْمَقْدَّسِ؟“

”أَنْتِ وَبَرِيَانِ هِنَلِي زَاهِبَانِ إِلَى عِشَاءٍ فِي مَطْعَمِ
لَاوَرِي. جَيِّدٌ، هَهُ؟“

قَالَتْ غَرِيْسٌ مُتَثَابَةً، وَهِيَ مُتَرَنِّحَةٌ: ”لَا أَعْرِفُ أَيَّ
شَخِصٍ اسْمُهُ بَرِيَانِ هِنَلِي“.

”حَسَنًا، سَتَعْرِفِينَ. سَجَلْنَاكِ فِي مَوْقِعِ تَعَارُفِ
مَسِيحِي، وَلَمَّا ظَهَرَ هَذَا الشَّابُّ الرَّائِعُ اسْتَجَبْنَا“.

انْفَتَحَتْ عَيْنَا غَرِيْسٍ. ”مَاذَا؟ أَنْتِ تَمْزِحِينَ
بِالْأَحْرَى، شَانِيْسِ“.

”أَصْغِي فَقَطْ. هُوَ أَرْمَلٌ، مُرْشِدٌ شَبَابٍ، حَامِلٌ
شَهَادَةَ مَا جَسْتِيرِ، وَسِيْمٌ جَدًّا، يُحِبُّ الْأَطْفَالَ. إِنَّهُ
مُمْتَازٌ لِك...“

أَنْذَاكَ اسْتَيْقِظْتَ غَرِيْسٌ تَمَامًا وَجَلَسَتْ فِي
السَّرِيرِ. ”لَا أَحْتَاجُ إِلَى رَجُلٍ وَلَا أُرِيدُهُ، شَانِيْسِ“.

”سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ. الْمَوْعِدُ مُقَدَّرٌ“.

”إِذَا تَمَّمِيهِ أَنْتِ“.

”لَقَدْ رَأَى صُورَتَكَ. سَيَتَوَقَّعُ أَنْ تُوَافِيَهُ. إِنَّهُ يَبْدُو
شَابًّا مُمْتَازًا، غَرِيْسِ. سَيَكُونُ أَمْرًا فِظًّا أَنْ تُصَدِّيَهُ“.

”قُولِي لِي كَيْفَ أَتَّصِلُ بِهِ، وَأَنَا س...“

”رجاءً، غريس. قومي بذلك لأجلي“.

علّمت غريس ما كان يُقلقُ شائيس. ”لماذا ما زلتِ تشعّرينَ بالذنب؟ ما حدّثَ لم يكنْ غلطتْكِ. كان غلطتي أنا. وأنا ما لُمْتُكِ قطّ“.

”أعرِف، حبيبتِي، ولكنني قد أشعُرُ بِتَحسُّنِ إذا ذهبتِ إلى هذا الموعد“.

”هذا ابتزاز“.

”ليس هكذا إذا ثبتَ أخيرًا أَنَّهُ كما نرجو كلُّنا“.

”وإن لم يحصلْ ذلك، فهل تعدّينَ بالأّ تفعلِي هذا لي ثانيةً بتاتًا؟“ انتظرت، ولكنْ شائيس لم تكُن فتاةً تقطَعُ وعدًا بخِفة. ”شائيس؟“

”قد يهْمُك أن تعرفِي كم شابًا تجاؤبوا مع صُورتكِ الوصفية“.

أنت غريس. ”بالحقيقة، لا“.

”حسنًا، حسنًا. لستِ مستيقظةً تمامًا. اتّصلتُ بكِ في وقتٍ رديء. ولكنك سوف تشكّرِيننا في ما بعد، أنا على يقين“.

استطاعت غريس أن تسمعَ آشلي في الخلفية مُتحدّثةً بمدى جاذبية بريان هنلي. إذا كان بريطانيًا، فلن تُضطرَّ غريس لأنْ تقلق. يُمكنُ أن تُرسلَ آشلي بدلًا منها.

أحسّت غريس أن حمامَ الرّشّ الساخن جيّد جدًا،

فتوانت. اغسِلْ عَنِّي جَمِيعَ خَطَايَايَ، يَا رَبُّ. طَهِّرْ
قَلْبِي وَعَقْلِي مِنْ تِلْكَ الذِّكْرِيَّاتِ الَّتِي تَسْخَرُ بِي
وَتُذِلُّنِي. اغسِلْنِي فَأَبْيَضَ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ. كَانَ فِي
وَسْعِهَا أَنْ تُبْقِيَ الْمَاءَ يَجْرِي إِلَى الْأَبَدِ.

مَشَّطْتَ غَرِيْسَ شَعْرَهَا الْمُبْتَلَّ وَهَزَّتَهُ حَتَّى انْحَلَّتْ
حُلَيْقَاتُهُ الطَّبِيعِيَّةُ النَّاعِمَةُ. مَا زَالَ عَلَيْهَا أَنْ تَجْعَلَ هَذَا
الْكُوْخَ بَيْتًا لَهَا وَلِصَّمُوَيْلَ.

كَانَ رُوبِنْ قَدْ رَكَّبَ، مَشْكَورًا، سَرِيْرَ الطِّفْلِ. كَانَتْ
تَنْوِي أَنْ تَقُوْمَ هِيَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ أَصْرَّ عَلَى أَنَّهُ يَمْتَلِكُ
مَا يَلْزَمُ مِنْ أَدْوَاتٍ وَخَبْرَةٍ. كَانَ عَلَى الْأَغْطِيَّةِ طَائِرَاتٌ
صَغِيْرَةٌ، حَمْرَاءُ وَزُرْقَاءُ وَصَفْرَاءُ. وَرَكَّبَتْ غَرِيْسَ جِهَازَ
”أَحْلَامِ الطِّفْلِ أَيْنِشْتَايْنِ الْبَحْرِيَّةِ“، وَمُوبَايْلَ غَايَةِ
الْمَطَرِ مِنْ صُنْعِ ”فِشَرِ پَرَايْسِ“، وَعَلَّقَتْ فِي الزَّائِيَةِ
الْمَصْبَاحَ الَّذِي يَعْرِفُ ”يَسُوْعُ يُحِبُّنِي“. كَانَ صَّمُوَيْلُ
يُحِبُّ الْبَطَّانِيَّاتِ ذَاتِ الْحَوَاشِي الْحَرِيْرِيَّةِ، وَقَدْ
اشْتَرَتْ غَرِيْسَ اثْنَتَيْنِ، وَاحِدَةً عَلَيْهَا أَفْيَالُ زُرْقٍ
وَالْأُخْرَى عَلَيْهَا زُرَافَاتٌ صَفْرَاءُ وَبُرْتَقَالِيَّةٌ. مَا كَانَتْ
تُطِيْقُ الْاِنْتِظَارَ بِضِعَّةِ أَيَّامٍ حَتَّى يَغْدُوَ صَّمُوَيْلُ لَهَا
وَحْدَهَا، وَلَيْسَ مِنْ سِيْلَاهُ تَوَاقِيَّةٌ لِأَنَّ تَنْزِعَ الطِّفْلِ مِنْهَا
أَوْ ثَلْبِيَّ اِحْتِيَاجَاتِهِ.

يَا رَبُّ، أَعْلَمُ أَنَّي أَتَصَرَّفُ بِأَنَانِيَّةٍ، وَلَكِنْ صَّمُوَيْلُ
لِي. أُرِيدُ أَنْ أَقْضِيَ مَعَ ابْنِي وَقْتًا أَطْوَلَ، لَا أَقْصِرُ.
أُرِيدُ أَنْ أَكُوْنَ أُمَّا صَالِحَةً، حَتَّى لَوْ لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيْعُ

أن أكون معه طوال الوقت.

كان متجر البقالة في ماليبو يحتوي على ما احتاجت غريس إليه، ولكن الأسعار كانت باهظة. ستبضع في مخازن ولمارت، أو تعمل باقتراح أشلي بالتبضع في مخازن كوستكو التي تُشرك العملاء في الأسهم. ففي وسعهما أن تتقاسما المؤونة والفاخرة وتوفرا كلتاهما مالا. وإذ وضبت ورثت جميع مشترياتها، فتحت الباب لثدخل هواء منعشا. وظل ذهنها يطن بالأفكار. ستحتاج إلى رفوف للكُتب المدرسية. إذ احتفظت بكل واحد من تلك الكُتب من الصفوف التي أكملتها، وأيضا من الصفوف التي انقطعت عنها لكي تشتغل بدوام كامل لتدعم پاتريك. وكان قد وعد بأنها تستطيع أن ترجع مجددا بعد تخرجه.

لا جدوى من التفكير في ذلك كله الآن. لقد عملت باجتهاد لاقتلاع أصل المرارة حتى يتسنى لها أن تسامح پاتريك.

أما مسامحة نفسها فكانت مسألة أخرى.



ساق رومان ضجرا سيارته نزولا إلى ماليبو مجددا وانتقى غداء من مطعم سندويتشات شهية داخل متجر البقالة. واشترى عفويا نبتة أوركيدا، متصورا

أَنَّهَا سَتَكُونُ بَادِرَةً تَرْحِيبٌ لَطِيفَةٌ بِمُستأجِرته
الجديدة. كان قد أعطاهَا عَطْلَةً نَهَارٍ وَنصف لَكِي
تستقرّ. فأَيُّ ضَرَرٍ يُمكنُ أن يكونَ في تَفْقُدهَا؟

كان بائِها الأماميُّ مفتوحًا على مصراعِيه. فهمَ
رومان ذلك على أنه دعوة. وتوقفَ قُبيلَ تَخْطِي
عَتَبَتِها. لم تُلاحظْهُ غريس قَطُّ وهي جالسةٌ إلى
طاوِلَةٍ صغيرة حاملةٌ كتابًا ثخينًا مفتوحًا، فيما تكتبُ
على دفترٍ ملحوظاتٍ ذي لَوَلب. وقفَ يُراقِبُها لحظةً.
”هل استقررتِ فعلاً؟“

أجفلت وسقطَ القلمُ من يدها. وإذ استعادت
وعِيها بسرعة، دفعت كُرْسِيَّها إلى الورااء ووقفت.
”أسفة. لم ألاحظك واقفاً هناك، مستر فيلاسكو.“
أكانت عيناها تضيقان بسببِ ضوء الشمس أم لأنه
تخطى حدًّا؟ كان قد أرادَ الاحترام، ولكن الآن أثارتِ
استياءَهُ المعاملة الرسمية في قولها ”مستر
فيلاسكو“ وكان في وَسْعِهِ تقريبًا أن يقرأ فكرها.
ماذا هو فاعلٌ هنا؟ لم تكن تلك هي السِّيماء المألوفة
التي يراها على وجهِ امرأة. ”كنتِ مُستغرقةً تمامًا
في التَّركيز“. وأقبلَ إلى الدَّاخل ليَرى ما كانت فاعلةً
بِكُوخه. إنَّه مالكُ المكان، رُغمَ كلِّ شيء. ”أردتُ فقط
التَّيقنَ بأنك لستِ تَطْلينَ الجُدْرانَ من جديد.“

”كنتُ سأسأل أوَّلًا.“

لا شكَّ أنَّها كانت ستسأل. لقد بدت مُتوتِّرة.

”تتلقين نسيمَ عصرِ النَّهارِ؟“

”لم أريدَ تشغيلَ المُكَيِّفِ. نسيْتُ أن أسألَ عن المرافِقِ.“

المرافِقُ؟ أكانتِ مُعسِرةً مادِّيًّا إلى هذا الحدِّ؟ ”بدلِ الإيجارِ يشتملُ عليها.“

”هذا يُذكِّرُنِي!“ أزاختِ أوراقًا والتقطتِ شيكًا. ”أجرةُ الشَّهرِ الأوَّلِ والأخيرِ“. وناولتهُ إيَّاهُ بيدها.

”أتَظنُّنَ أن تَتَقَلِّبِ أصلاً؟“ أخذَ الشَّيكَ ودسَّه في الجيبِ الأماميِّ لبنطلونه.

”هكذا تجري الأمورُ عادةً. وعربونُ تأمينٍ في حالِ طليثِ الجُدْرانِ من جديدِ“. وابتسمتِ.

بادلها رومانُ الابتسامِ. ”كلُّ شيءٍ بحسبِ الأصولِ، مز مُور“. ووضعَ نبتةَ الأوركيدا على الطاولةِ أمامها. ”هديةٌ صغيرةٌ“.

طرقتِ عيناها. ”شُكراً لك. إنها جميلةُ“.

إذا لماذا كانت تُحدِّقُ إليها وكأنه وضعَ أفعى على طاولتها؟ قدَّرَ رومانُ ألا يسأل. أرادَ أن يُلقِيَ نظرةً على حُجرةِ جلوسها. إنها تُحبُّ الأزرقَ والأخضرَ والقرنفليَّ والأصفرَ. كلُّ شيءٍ كان أنيقًا ودافئًا ومُريحًا، بثمنٍ زهيدٍ. وقد علَّقتِ على جدارها ثلاثَ لوحاتٍ فنِّيَّةٍ: ”كفُّوا واعلموا أني أنا اللهُ“ بخطِّ يدويٍّ مُلوَّن، وطبعتانِ لِرَجُلَيْنِ بلباسِ عربيٍّ، أحدهما راعٍ ذو لِحيةٍ يحملُ حملاً على كتفيه، والآخرُ حانِ رأسه

وشابك يديه في وضعيّة صلاة. ”ألديك شغف برجال الشرق الأوسط؟“

”لديّ شغف بيسوع المسيح.“

قالت ذلك بِمُنْتَهَى البساطة، دون أدنى تردّد، بِحَيْثُ وَقَعَ عليه وهو غيرٌ مُتِيّقٌ. وقد برّقت عيناها البُنَيْتَانِ بِصَفَاءٍ إِلَى أَنْ تَنَبَّهَتْ إِلَى مِزَاجِهِ، ثُمَّ بَاتَتْ مُرْتَبِكَةً. شيءٌ ما في طَريقَةِ إِمَالَتِهَا لِرَأْسِهَا جَعَلَ قَلْبَهُ يَخْفُقُ خَفَقَتَيْنِ غَرِيبَتَيْنِ. ثُمَّ ذَهَبَ ذَلِكَ الشُّعُورُ بِالسُّرْعَةِ الَّتِي بِهَا جَاءَ. ”كانت أنوارك مُضَاءً لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى البَيْتِ البَارِحَةِ. كان ذلك بَعْدَ السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ. هل كُلُّ شيءٍ على ما يُرام؟“

”مُجَرَّدُ قَلْقٍ وَأَرْقٍ. لم أستطع أن أنام. المكانُ هُنَا فِي العِراءِ ساكِنٌ تَمَامًا. لا أصواتٌ سِيَّاراتٍ. أتريدُ شيئًا من القهوة؟ ليست طازجة.“

أكانت تَرجو أن يقولَ لا؟ ”نعم، رجاءً!“ فتحت خزانة، فَظَهَرَ صَفٌّ مَرْتَّبٌ مِنَ الأَكْوَابِ غيرِ المُتَناسِبَةِ. ”لقد وَضَّبتُ جَمِيعَ أغراضِكِ فِعالًا“. وانجرفَت حَمَلَقَتُهُ إِلَيْهَا مِنْ فَوْقُ إِلَى تَحْتِ. بَدَتْ جَيِّدَةً فِي جِينِزِهَا الضَّيِّقِ. كانت حافية القدمين، وأظفارُ قَدَمِهَا مَطْلِيَّةٌ بِلَوْنِ قَرْنَفُلِيٍّ. وقد ارتفعَ قَمِيضُهَا كِفايَةً لِيُظْهِرَ بَشْرَةً باهتة. لا وشوم. ولا واحد يُمكنُ أن يراه على كُلِّ حال.

ألقي نظرةً من عُلٍّ إِلَى كِتَابِهَا المَدْرَسِيِّ. عِلْمٌ

النَّفْسِ السَّرِيرِيُّ الْمُعَاصِر. وَإِذْ فَوْجِيٌّ، أَطْلَقَ ضِحْكَةً طَفِيفَةً. ”تَقْوِمِينَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُطَالَعَةِ الْخَفِيفَةِ؟“

”الْكِتَابُ مِنْ صَفِّ اضْطَّرِرْتُ إِلَى الْإِنْقِطَاعِ عَنْهُ فِي جَامِعَةِ كَالِيفُورْنِيَا بِلُوسِ أَنْجَلِيسِ“. وَنَاوَلْتُهُ قَهْوَةً تُصَدِّرُ بُخَارًا. ”مُشَوِّقٌ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ عِلْمِ الْإِحْصَاءِ“. هِيَ فَتَاةٌ جَامِعِيَّةٌ. ”جَامِعَةُ كَالِيفُورْنِيَا؟ لَمْ تَذْكَرِي هَذِهِ فِي سِيرَتِكَ“.

”لَمْ أَتَخَرَّجْ“.

”أَلَمْ تُحِبِّي الدِّرَاسَةَ؟“

”بَلَى، أَحْبَبْتُهَا“.

”طَرِدْتِ بِسَبَبِ الرُّسُوبِ؟“

”كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْعَمَلِ بِدَوَامٍ كَامِلٍ“.

رَفَعَ رُومَانَ الْكُؤُوبِ وَقَرَأَ ”تَوَكَّلْ عَلَى الرَّبِّ بِكُلِّ قَلْبِكَ“. أَخَذَ رَشْفَةً، نَاطِرًا إِلَيْهَا مِنْ فَوْقِ حَاقَةِ الْكُؤُوبِ. ”مُتَشَدِّدَةٌ، أَلَسْتَ كَذَلِكَ؟“

”عِنْدِي كُؤُوبٌ عَلَيْهِ شِعَارُ فَرِيقِ ”دُودْجَرز“ (الْمُرَاوِغُونَ)، إِذَا كَانَ ذَلِكَ سَيَجْعَلُ مِذَاقَ الْقَهْوَةِ أَفْضَلَ. أَوْ شِعَارُ فَرِيقِ ”ذَا رِيدَرز“ (الْمُغِيرُونَ)“.

أَكَانَتْ تُنَاكِدُهُ؟ ابْتَسَمَ لَهَا ابْتِسَامَةً خَبِيثَةً. ”أَنَا مُغِيرٌ أَكْثَرَ مِنْ مُرَاوِغًا“. حَتَّى قَهْوَتُهَا الْعَتِيقَةُ كَانَتْ طَيِّبَةً الْمِذَاقِ. لَقَدْ بَدَتْ مِثْلَ مُرَاهِقَةٍ بِشَعْرِهَا الْمَدْسُوسِ وَرَاءَ أُذُنَيْهَا. وَقَدْ أَعْجَبَهُ شَكْلُ فَمِهَا

واكتيماله. بالحقيقة، أعجبه كل ما يتعلق بها، ذلك القليل الذي عرفه. لم يتكلم كلاهما. أخذت غريس نفسها لطيفًا. دارت حول الطاولة، ومشّت خارجة من الباب، ولم تتوقف حتى وصلت إلى الحائط، ثم أجرت يدها عليه.

وإذ التفتت، نظرت إليه بهدوء. "إنه نهار جميل، أليس كذلك؟"

لم يكن رومان مخدوعًا. لقد أرادت منه أن يكون خارج الكوخ. لا بأس. في وسعه أن يفهم التلميح. قعد في المكان الذي سبق أن احتله صديقها في أثناء مُحادثتهما الطويلة. لم يبد أن عندها أي شيء تقوله الآن.

"هل من شيء يُقلقك، غريس؟" أظنت أنه يلاحظها؟ قال لنفسه إنه كان يتفقد فحسب، كما لك صالح، مُتحققًا أن كل شيء يجري حسنًا. "هل كل شيء شغال؟ البراد؟ الفرن؟ الغسالة والنشافة؟" وهز ذقنه بشدة. "ما هذه إلا المرة الثانية التي فيها آتي إلى هذا المكان. لم أكلف نفسي حتى فحص الأشياء قبل أن تنتقلي".

"أصدقائي تولوا الأمر. كل شيء يشتغل على أكمل وجه. البراد والفرن، على كل حال. لم أقم بأي غسل بعد".

كانت مز مور هائمة على وجهها، مشدودة

الأعصاب. أحس أنه على أرض أرسخ. أراد أن يسأل هل استعملت حوض الاغتسال حتى الآن، ولكنه فكر في الأمر تفكيرًا أفضل.

نظفت حنجرتها مثنحينةً، ونظرت إليه. "كيف تجري رسمة النّقل الأخيرة؟"

هز كتفيه لامباليًا. "كلُّ واحدٍ في عجلةٍ دائمةً". ولا سيّما هو. لم يستطع الانتظار حتى يفرغ منها. كلما عجل في الرجوع إلى الشغل، ينتهي أسرع. أنهى القهوة، ومدّ يده بالكوب. "أنتِ تعملين قهوةً جيّدةً". ربّما وجب أن تُقدّم له كوبًا ثانيًا. ربّما تسنى لكليهما أن يسترخيا كفايةً بحيث يُجريان مُحادثةً حقيقيّةً، شيئًا لا علاقةً له بالعمل.

"أنت متعلّق بالكافيين فعلاً. ليس الإفراط نافعًا لك".

لم تُرد له أن يترث. "طيّب، ماما!" ووقف. "كلّنا متعلّقون بشيءٍ ما". ماذا كان إدمانها؟

"شكرًا لك على نبتة الأوركيدا، رومان. كانت باذرةً لطيفٍ منك".

ما كان قطّ قد اتّهم بذلك قبلاً.

تراجعت غريس مُبتعدةً. "سأراك غدًا صباحًا".

كان واضحًا أن علم النفس السّريريّ اشتمل على فتنةٍ أكثر ممّا اشتمل هو عليه. "أديري مكيفك كلما احتجت إليه، غريس. ليس من الحكمة أن تُبقي بابك

مفتوحًا في العراء ههنا. أنتِ في ريفِ بڑي. لا تُريدِين
أن يدخلَ إلى مَسْكِنِكِ أيُّ قَيْوِطٍ ماكرٍ.

ضحكت. ”لا! بالتأكيد لا أريدُ ذلك.“ وإذ باتتِ الآنَ
فوقَ العتْبة، أغلقتِ الباب.



رغمَ ازدحامِ السَّير، وصلتِ غريس إلى مطعم لاوري
في الوقتِ المُحدَّد. وقد عرّفت بريان هِنلي من
الصُّورة التي بعثت بها شانيس: شابٌّ وسيمٌ ذو شعرٍ
أشقرَ بلونِ الرَّمْل وعَيْنَيْنِ زرقاوين. رآها داخلَةَ
فوقف، مُميّزًا أيَّةَ صُورةٍ نشرتها صديقاتها. كان أطولَ
منها بمقدارِ رأس، ولَهُ بنيةٌ رياضيّة. مدَّ يده مُبتسِمًا.
”غريس مُور؟ أنا بريان هِنلي. من دواعي سُروري أن
أقابلك.“ لم يُحاول أن يُخفي راحته. دلَّتْهُما المُضيفَةُ
إلى مائدةٍ بينَ مقعدين مُتقابلينِ عاليي الظَّهر. بدا
بريان مُرتبِغًا مثلها، وشعرت هي بالغرابة لمُحاولتها
أن تُظمئنَ رجلًا لم تُردِ أصلًا أن تُلاقِيه.

”قيلَ لي إنَّك مُرشِدُ مجموعة الشباب.“

”قيلَ لك؟ أتقولين إنَّ هذه لم تكنِ فكرتك؟“

تورّد وجهُ غريس ارتباجًا. ”حسنًا...“ لماذا لا تكونِ
صادقة؟ ”تبدو شخصًا لطيفًا جدًّا، بريان، ولكنَّ
مُقابلةَ امرئٍ من موقعِ إلكترونيٍّ لم تكنِ على لائحة
الأُمور التي ينبغي لي القيامُ بها. لقد ابتكرت

صديقاتي صورتي الوصفية ورثبن هذا الموعد دون علمي. ولم يزودني بمعلومات للاتصال بك حتى أخابرك وأصلح الأمر.

ابتسم بريان ابتسامة عريضة. "مجموعة الشباب التي أخذتها عملوا لي الأمر عينه؟"
"جدياً؟"

أوما برأسه موافقاً. وضجكا كلاهما.
أتكا بريان إلى الورااء. "حسناً، يمكننا أن ندعو هذا أمسية الآن تماماً، أو نرى ما يجري".

أعجبها موقفه الداخلي. "ها نحن هنا. سادفغ حصتي". في وسعها أن تدفع ثمن عشاء سلطة. أمر مؤسف أن صديقاتها اقترحن مطعماً غالياً نظير هذا.
"مجموعة الشباب قدّموا لي بطاقة هدية سخية كفاية لدفع ثمن وجبتي عشاء جيّدين جداً، مع تحلية ونبيد".

"أنا لا أشرب".

"هذا يجعلنا اثنين".

تحادثا بسهولة. كان بريان قد التقى زوجته المستقبلية، شارلين، في مؤتمر أربانا الإرسالي للطلبة، وهما بعد في المرحلة الثانوية. اكتشفا أنّهما كليهما متوجّهان إلى كلية لدراسة الكتاب المقدس في ويتن، إيلينوي. اشتغلا كلاهما وذهبا إلى الكلية، وتزوجا بعد سنتهما الجامعية الثانية. وبينما بريان

يُحَضِّرُ لِشَهَادَةِ الْمَاجِسْتِيرِ، تَسَلَّمَ مَنَصِبًا فِي كَنِيسَةِ
ضَخْمَةٍ فِي ضَوَاحِي شِيكََاغُو. وَاشْتغَلَتْ شَارَلِينُ فِي
بِرْنَامِجِ حِضَانَةٍ بَعْدَ الْمَدْرَسَةِ. ثُمَّ ذَاتَ لَيْلٍ شِتَائِيٍّ،
عَلَى بُعْدِ كِيلُومِتْرٍ تَقْرِيبًا عَنِ الْبَيْتِ، انزَلَقَتْ سِيَّارَتُهَا
عَلَى الْجَلِيدِ، وَدَوَّمتْ خَارِجَةً عَنِ الطَّرِيقِ لِتَصْطَدِمَ
رَأْسًا بِشَجْرَةٍ.

اغْزُورَقَتْ عَيْنَا بَرِيَانِ. ”كَانَ ذَلِكَ مِنْذُ أَرْبَعِ سِنِينَ.
أَعُوْزَنِي أَنْ أبتَعِدَ عَنِ جَمِيعِ الْأَمْكِنَةِ الْمَأْلُوفَةِ. أَرْسَلْتُ
طَلَبَاتٍ فِي أَنْحَاءِ الْبَلَدِ وَانْتَهَيْتُ إِلَى هَهُنَا فِي لُوسِ
أَنْجَلِيسِ. مَا زِلْتُ فِي مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ، وَلَكِنْ فِي كَنِيسَةٍ
أَصْغَرَ كَثِيرًا. إِنَّهُ تَحَدُّ، فُرْصَةٌ لِلنُّمُوِّ“.

”كَمْ دَامَ زَوَاجُكُمَا، أَنْتِ وَشَارَلِينُ؟“

”سِتُّ سِنِينَ“.

”لَيْسَتْ تِلْكَ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ جَدًّا عِنْدَمَا تُحِبُّ شَخْصًا
مَا بِقَدْرِ مَا أَحْبَبْتَ زَوْجَتَكَ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ“.

”لَا، لَيْسَتْ طَوِيلَةٌ كِفَايَةً تَقْرِيبًا. مَاذَا عِنْدَكَ؟ هَلْ مِنْ
عَلَاقَاتٍ جَدِيدَةٍ؟“

تَنَهَّدَتْ غَرِيسُ دَاخِلِيًّا. قُولِي الْحَقِيقَةَ فَحَسْبُ. ”أَنَا
أَسِيفَةٌ. تَخْمِينِي أَنَّ صَدِيقَاتِي أَسْقَطْنَ بَعْضَ الْحَقَائِقِ
الْوَثِيقَةِ الصَّلَةِ مِنَ الصُّورَةِ الْوَصْفِيَّةِ الَّتِي ابْتَكَرْنَاهَا. أَنَا
مُطَلَّقَةٌ، وَعِنْدِي وَلَدٌ“. وَلَمَّا لَمْ يَقُلْ بَرِيَانُ أَيَّ شَيْءٍ،
تَصَوَّرَتْ غَرِيسُ أَنَّ هَذَا الْمَوْعِدَ الْوَحِيدَ سَيَكُونُ نَهَايَةَ
مَا كَانَ مُمَكِنًا أَنْ يَكُونَ عِلَاقَةً وَاعِدَةً.

”أنا مُصغٍ“.

رفعت نظرها مدهوشةً. كم تُخبرين شخصًا ما في موعِدِ أوّل؟ كانت قصّتها كئيبةً ومُحرّجةً بما يكفي لفضح غباوتها وحمّاقيتها المُعانِدة.

”كان ياتريك نجم كُرّة قَدَمٍ في المرحلة الثّانويّة يتصارعُ مع مادّة الجبر، وقال مُدرّبه إنني سأحسِنُ القيام بدورِ مُعلِّمٍ خاصٍّ جيّد. نال ياتريك علامةً فوق مُعدّل النّجاح، وطلّب منّي مُرافقتَه إلى حفلة التّخرّج. اعتقدُ أنّ تلك كانت طريقته في دفع أجرتي“. وأجفّلت. ”يبدو ذلك مُروّغًا“.

”هل ذاك صحيح؟“

”لست أدري. أفضلُ أن أعتقدَ أنّه أحبّني بِقدر ما أحبّته، ولكنّ خالتي لم تُظنّ ذلك“. لقد كانت الخالة أليزابيث دائمًا على حقٍّ بشأنِ أيِّ شيء. فلمَ لم تَرَ غريس لافتاتِ التّحذير؟

”ماذا عن أبويك؟“

لم تكن غريس مُتيقّنةً كم ينبغي أن تُشارك. أحسّت بريان مُتفحّصًا إيّاها. كان عليها أن تقول شيئًا ما. ”مات أبواي لَمّا كنتُ في السّابعة من عمري“. لم تُرد أن تتحدّث بشأنِ الظروف. ”ربّتي خالتي“. موضوعُ آخرٍ لم تُرد أن تُناقشه. إذ كانت الخالة أليزابيث قد أوت غريس في بيتها بدافع الواجب العائليّ، لا المحبّة. وما كانت غريس قد

قابلت أخت أمها قط قبل ذلك. فقد أدخلت غريس خدمات حماية الأولاد ليلة مات والداها، ووضعت في عهدتها تنشئة إلى أن ظهرت الخالة أليزابث. وكما علمت غريس في ما بعد، فبالحقيقة أن خالتها قد أخذت الوظيفة في مصلحة الإيرادات الداخلية لكي تكون أبعد ما يمكن عن أم غريس وأبيها. "كان أصدقائي يدعونني خارقة الذكاء، وكان باتريك مشغوفًا بالرياضة كثيرًا. وقد أحب المغامرة..." والنساء الأخر.

"إذا، كيف صرثما أنثما الاثنين معًا في الأخير؟"
"ذهبنا كلانا إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجليس. أعطيت منحة كزة قدم جزئية."
"وانت؟"

لم تُرد أن تتبجح. "ما يكفي لإكمال دراستي، ولكن باتريك كان بحاجة إلى إتمام دراسته أولاً."
ملست المنديل على حضنها، متجنبًا تحديد بريان إليها مُتفحّصًا. "تزوجنا في أثناء السنة الجامعية الأولى. ولما خسر منحته، كان معقولاً عندي أن أشتغل حتى يتسنى له أن يركّز على الدراسة."
ابتسمت له ابتسامة كئيبية. "كنا سنتبادل الأدوار."
ورفعت إحدى كتفيها. "بعد تخرجه بأشهر قليلة، جئت إلى البيت باكراً، ووجدته في السرير مع امرأة أخرى. قال إنه يحبها، وحزم أمتعته، ورحل."

أجفل بريان. "أمر مؤلم".

ليس مؤلماً كما كان ينبغي أن يكون. لقد باتت مجروحةً وغازبةً، وعلى نحوٍ مُعبّرٍ جداً: مُحَرَّرة. فأخِرُ سنّةٍ لهُما معاً كانت شاقّةً، وهي قد رأت الحقيقة. "كرهتُ نفسي أكثرَ من باتريك. رأيتُ لافتات تحذيرٍ كثيرةً، ولكنني اخترتُ أن أتجاهلها. حاولتُ أن أجعلَ العلاقةَ تنجح. ما القولُ القديم عن الحمقى إذ يعبرونَ مُندفعين؟"

"وعندك ولد".

تردّدت غريس، فاهمةً الافتراض الذي كان بريان مُفترضاً إيّاه. لم تكن على استعدادٍ للاعتراف بمزيدٍ من الخطايا. "نعم، ابن، صمويل. عُمره خمسة أشهر وهو حُبُّ حياتي". هل لاحظها تتورّد؟ بدا بريان شاعراً بشيءٍ ما، ولكنه لم يُلح.

"شارلين وأنا أردنا أولاداً. بتلك الطريقة توجّهتُ أخيراً إلى خدمة مجموعة الشباب. أنا أحبُّ الأولاد". علامةٌ جيّدة كما فكّرت غريس، ثمّ لامت نفسها. تحدّث بريان بشأن البرنامج الذي بدأ به والطرق التي كان يُجرّبها لجمع الجيلين الأكبر والأصغر معاً. وأطلق دُعاةً عن عددٍ من الناس الهائل ممّن يعتقدون أنّ الفُراهقين خارجون عن السيطرة، وقد تخطّوا إمكانية الإصلاح، وينبغي تجنّبهم مهما كان الثمن. ثمّ ضحك. "لم يتغيّر أيُّ شيء. فقد تحسّر أفلاطون

على جيل الشباب“. وأقرّ بأنّ المُراهقين يُمكنُ أن يكونوا مُخَيَّرين ومُحِبِّين، لا سيَّما الفتيات.

لم يكن على غريس أن تتساءل عن السَّبب. ”أستطيعُ أن أتصوّر كم مِنْهُنَّ يُصِبِحْنَ مُولَعَاتٍ بِكَ“. أرمَلُ شابُّ، وسيم، جذاب؟ ”يُحسُنُ بِكَ أن تكونَ حَذِرًا، حضرةُ المُرشِدِ بريان“.

”صدِّقيني، أنا حَذِر. إنني أتيقنُ بالأبقي وحدي بتاتًا مع فتاة، وأحظى بكثيرٍ من إشرافِ البالغين في المُناسباتِ الشَّبَابِيَّة. لا يُمكنُ أن يُبالغَ المُرشِدُ في الحَذِرِ هذه الأيَّام. لا يلزمُ الكثيرُ لِتدميرِ سُمعةِ رجل“.

أو سُمعةِ امرأة.

تحدّثا فوقَ وجبتي عشاءٍ من الأضلعِ الطَّرِيَّةِ المَشْوِيَّة. ثمَّ طلبتِ غريس قِشدةً بِالكِراميل. وأخذَ بريان حلوى الشُّوكولا الساخنة. وتوانيا على القهوة. لم تستطعِ غريس أن تتذكَّرَ أنَّها شعرتِ يومًا بِمثلِ هذه الراحةِ مع رَجُل. ثمَّ دسَّ بريان بِبطاقةِ الهديةِ مع ورقةِ عِشرينَ دولارًا لِلنَّادِلِ داخلَ الحافِظةِ الجلديَّةِ الصَّغيرة.

لاحظتِ غريس ثنائِيًا آخرَ مُغادِرًا. ”أظنُّ أنَّهما جاءا بعدنا“. وألقتِ نظرةً إلى تَلِفونها لِتُرى كم الساعة. ”أوه، عَجَبًا!“ ما بِرِحا، هي وبريان، يتحدَّثانِ طَوالِ ساعتين.

غادرا طاوَلتَهما وخَرَجَا خارِجًا. حملَ بريان عنها

كنزتها. مَشِيًا إِلَى سَيَّارَتِهَا، وَفَتَحَ لَهَا بَابَهَا.

”مَا الْمَسَافَةُ الَّتِي عَلَيْكَ أَنْ تَسُوقِي لِتَقْطَعِيهَا؟“

”سَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ عِنْدَ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ. سُرِرْتُ

حَقًّا بِمُقَابَلَتِكَ، بَرِيَانُ. شَكَرًا لَكَ عَلَى أُمْسِيَةِ رَائِعَةٍ.“

وَكَانَتْ يَدُهُ دَافِئَةً وَقَوِيَّةً.

”سَيُرِيدُ الشَّبَابُ أَنْ يَعْرِفُوا كَيْفَ جَرَّتِ الْأُمُورُ

الَّيْلَةَ. سَأَقُولُ لَهُمْ إِنَّ الْأُمْسِيَةَ فَاقَتْ تَوَقُّعَاتِي كَثِيرًا

جَدًّا.“

”سَتَسْأَلُنِي صَدِيقَاتِي أَسْئَلَةً مُمَاطِلَةً، وَسَأَقُولُ لَهُنَّ

مِثْلَ ذَلِكَ.“

ابْتَسَمَ بَرِيَانُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. ”فِي تِلْكَ الْحَالَةِ،

أَتَوَدِّينَ الْإِنْضِمَامَ إِلَيَّ مَعَ عَشْرِينَ مُرَاهِقًا وَأَكْثَرَ فِي

نُزْهَةٍ عَلَى الشَّاطِئِ يَوْمَ السَّبْتِ الَّذِي يَلِي الْمُقْبِلَ؟“

”هَلْ كُنْتُ تُعِدُّنِي لِذَلِكَ؟“ ضَحِكَتْ غَرِيْسُ. ”يَبْدُو

الْأَمْرُ مُمْتِعًا، إِنَّمَا فَقَطْ إِذَا اسْتَطَعْتُ اصْطِحَابَ

صَمُوِيلَ.“

”بِالتَّأَكِيدِ. لَا أَسْتَطِيعُ الْإِنْتِظَارَ حَتَّى الْأَقْيَكِ.“

حَالَمَا وَصَلَتْ إِلَى الْبَيْتِ، بَعَثَتْ شَانِيْسَ لَهَا بِرِسَالَةٍ

نَصِيَّةٍ. اتَّصَلِي بِي عِنْدَمَا تَرْجِعِينَ إِلَى الْبَيْتِ. أُرِيدُ

مَعْرِفَةَ التَّفَاصِيلِ.

رَدَّتْ شَانِيْسُ، السَّهَّارَةَ، عِنْدَ الرَّنَّةِ الثَّانِيَةِ. ”وَقْتُ

طَيِّبٌ؟“

”تبيّن أخيرًا أنها أمسيةٌ حسنةٌ جدًا“. وأبقت
غريس لهجتها لطيفة.

بدت شائيس مُخَيِّبةً. ”أوه“. وما لبثت أن أبدت
استيشارًا. ”حسنةٌ كفايةٌ حتى تزيه ثانية؟“
”نعم“.

”رائع!“ بدت مطمئنةً. ”أخبريني بكل شيء.“
”ستضطرين إلى الانتظار حتى يوم الأحد“. ثم
قالت غريس ”ليلة سعيدة“ وأطفأت هاتفها الخلوي.



استعمل رومان أسطوانةً طلاء على جدارٍ مرسمه
الخلفي قبلما ظهرت غريس صباح الاثنين. لم يرد أن
يرى سيماء وجهها إذا اكتشفت أين يكمن شغفه
الحقيقي بالفن. ولما دخلت حاملةً قهوته، كانت
رائحة الطلاء الجديد ما تزال عالقةً في الهواء
بكثافة. نظرت إلى الجدار الخلفي ”لقد طليت الجدار
من جديد“. وكشّرت. ”ماذا تُسمي ذلك اللون؟
وخلا؟“

”وصفٌ جيّد. إنه قليلٌ من هذا ومن ذاك مسكوبًا
في العلبة نفسها، وذلك هو ما تحصلين عليه“. وتردّد،
ثم أضاف: ”المدن تستعمله لتطمس الجرافيتي“.

”أرجو ألا تكون تلك فكرتك عن تجديد الزخرفة“.
وضّع مزيدًا من اللون الأحمر برفقٍ على الرّسمة

الباقية. كانت تاليا قد أخذت الأخيرين. ”أنجزتُ
قالب الرسم. أغادِرُ إلى سان دييغو عصرَ هذا النَّهار.
سأغيبُ أسبوعًا، على الأقل. رُبَّما اثنين.“ إلا إذا
اشتغلَّ ساعاتٍ طويلةً. وإذا نفدتَ لديه أيُّ تجهيزات،
ففي وسعه أن يطلبَ ما يُعوِزُه فيُسلِّمَ إليه. ”سأكملُ
هذه الرَّسمةَ قبلَ أن أذهب. تستطيعُ تاليا أن تأتي
وتأخذها في غضونِ يومين.“

”هل من شيءٍ مخصوصٍ تُريدُ منِّي أن أعمله في
أثناءِ غيابك؟“

ظَلَّتْ حَمَلَقَتُهَا تَنْجَرِفُ إِلَى ذَلِكَ الْجِدَارِ الْبَغِيضِ
الذي ما زال مُفسدًا بِخُطوطٍ واهيةٍ من الألوان
والأشكالِ الأقتَمِ تحتَ ظاهِرِهِ. أكانت تُحاولُ أن
تكتشفَ ما قد رسَم؟ عملَ ضربةٍ مُنحدرةٍ باللونِ
الأحمر، ورفعَ الفرشاةَ وأبعدها، ووضعَ لوحةَ الألوان
جانبًا. ”لماذا لا تشتري أثاثًا؟ قال جاسپر هاولي إنَّه
أرادَ سريرًا لِيَنامَ في المَرَّاتِ الثَّالِيةِ التي فيها يأتي
زائرًا.“

ظَلَّتْ تَنْظُرُ إِلَى الْجِدَارِ، مُمِيلَةً رَأْسَهَا قَلِيلًا.
”يُعوِزُنِي أَنْ أَعْرِفَ ذَوْقَكَ.“

”أيُّ شيءٍ سِوَى الْأَثِيْقِ الرَّخِيصِ أَوْ الرَّيْفِيِّ
الفرنسيِّ.“

ضحكت. ”أودُّ أن تعلمَ أنَّني دفعتُ مالًا لا بأسَ به
لِقَاءِ أَثاثي. فقط أفضلُ ما يُمكنُ أن يُقدِّمه «جيشُ

الخلاص».“.

”لست مضطرةً لأن تكوني مُقتصدةً إلى ذلك الحد في مالي القليل.“.

”ماذا عن مكملات السرير؟“

”تلك أيضًا. ووسائد للنوم عليها.“.

”ماذا عن الوسائد المزخرفة؟“

”مثل الخمس التي عندك على أريكتك؟“

بدت مدهوشةً. ”هل عدتها؟“

”أتذكر ما أراه. لديك واحدة أيضًا على كرسيك

الدوار، وفوق عشرٍ بعد، كما أحمّن. على سريرك.“.

مسح يديه بخرقه مزيّنة وقرّر أنه خيرٌ له أن يُغيّر الموضوع. ”اشترى شيئًا لا يبطل طرازه بتاتًا.“.

ما برح يكافح لأجل الجودة منذ بدائه في الحيّ المُستهتر، حيث كانت نادرةً نُدرةً المال.

”كم أنت مُستعدُّ أن تدفع؟“

”كلّفتني اثاثُ غرفةٍ نومي أربعين ألفًا.“.

فقالَت غريس لاهثةً: ”ماذا؟ أين تجدُ اثاثًا غاليًا

هكذا؟“

”استأجرتُ مُهندِسَ ديكورٍ داخليّ.“.

”أوه! لماذا لا تتصلُ بها؟ إنها ستعرفُ ما يُلائمك

أكثرَ ممّا أعرفُ أنا.“.

”ما الذي يجعلك تعتقدين أنها كانت أنثى؟ ثمّ

لَعَلِّي أَرِيدُ شَيْئًا مَا مُخْتَلِفًا هَذِهِ الْمَرَّةَ“. كَانَتْ غَرِيسٌ تَقْرِبِيًّا فَتَاةً مُخْتَلِفَةً بِقَدْرِ مَا يُمَكِّنُ عَنْ أَوْلَائِكَ اللَّوَاتِي قَدْ عَرَفَهُنَّ حَتَّى الْآنَ. ”شَيْئًا مَا، قَلِيلًا أَكْثَرَ... لَسْتُ أَدْرِي! أُنَاقَةٌ. اسْتَخْدِمِي قُدْرَاتِكَ الْفِطْرِيَّةَ“.

”قَدْ تَنْدَمُ“.

”هُوَ مُجَرَّدُ أَثَاتٍ، غَرِيسُ“.

نَظَرَتْ إِلَى الْجِدَارِ مَرَّةً وَاحِدَةً أُخِيرَةً. ”إِذَا تَرَكْتُ السَّلَامَ هُنَا فِي الدَّخْلِ، فَفِي وَسْعِي أَنْ أَطْلِي ذَلِكَ الْجِدَارَ مُجَدَّدًا بِلَوْنٍ أَبْيَضٍ جَمِيلٍ بِيَاضِ قِشْرَةِ الْبَيْضَةِ“.

”سَيَلِزْمُهُ أَكْثَرُ مِنْ طَبَقَةِ طِلَاءٍ وَاحِدَةٍ. ثُمَّ مَا الْغَرَضُ؟“

”سَيَكُونُ قُمَاشَةً نَظِيفَةً جَيِّدَةً لِيَتَسَنَّى لَكَ أَنْ تَبْدَأَ مِنْ جَدِيدٍ“.

يَبْدَأُ مِنْ جَدِيدٍ؟ فَقَطْ إِذَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

الفصل ١٣

بوجود رومان في سان دييغو، بدأ البيت الكبير فارغًا، ورددت أرضية خشب السنديان الرمادي المصقول كل خطوة من خطى غريس. أمضت اليوم الأول في طلاء جدار المرسم، ثم اتصلت بسيلاه. ”سأخذ صمويل بعد العمل. يمكنه أن يبقى معي هذا الأسبوع“.

قالت سيلاه إنه سيكون عبئًا ثقيلًا على غريس في أثناء عملها. فينبغي أن تتركه غريس عندها وثبقي على برنامج نهايات الأسابيع فقط. وأصررت غريس على أنها تستطيع أن تتولى الأمر. سألتها سيلاه هل طلبت إذنًا. كذبت غريس وأكدت أنها فعلت ذلك. لم تطلب، ولكن لماذا يهتم رومان ما دام العقل سيكون قد أنجز؟ عندما يعود، قد تسأله هل يمانع وجود طفل في المنزل.

لم تعتقد سيلاه أنها فكرة جيدة. ”لدى صمويل موعدًا عند طبيب الأطفال يوم الأربعاء. سضطرين

إلى أخذ عطلة جزئية لأجل ذلك، وأنت تعرفين كم يكون مضطربًا بعد الإبرة. إنه دائمًا يُصاب بارتفاع في الحرارة. سيكون أفضل له كثيرًا أن يبقى ههنا معي“.

وقفت غريس متأهبةً للنزال. لماذا وجب أن ينضوي الأمر على صراع شديد؟ ”أريد وقتًا أطول مع ابني، سيلاه“.

”أعلم أنك تريدان، حبيبتني، ولكن يجب أن تفكري في ما هو الأفضل له. سيظل صمويل ينظ ذهابًا وإيابًا كفاية في الوضع الحالي، باقيا معك في نهايات الأسابيع. إنه بحاجة إلى استمرارية. أنت لا تريدان له أن يحس كأنه يويو، أتريدان؟“

أرادت غريس أن تُصر، ولكنها شعرت بالأنانية من أجل الإلحاح. ربّما كانت سيلاه على حق. يمكن ألا يكون صمويل مسرورًا بتسليته نفسه داخل حظيرة نقالة في مكتبها. فلن تتمكن من تنجية واجباتها لثلاعبه متى أراد أو أرادت. أما سيلاه فستتمكن من تلبية كل حاجة لديه. ”يُخيل إلي أنك على حق“.

”كل شيء في وقته، أخيتني. إنه في حال جيدة. كل شيء سيجري بنجاح كما هو متوقع“. هذه كانت لازمة سيلاه، وهي صحيحة بما يكفي.

ذهبت غريس وتبصّعت أثاث غرفة ضيوف، ولم تنفق أي شيء يُناهز أربعين ألف دولار. عندما يرجع

رومان، سيكونُ كلُّ شيءٍ في مكانه الملائم، بما في ذلك اللَّمساتُ القليلةُ التي أضافتها لِتَجْعَلَ العُرْفَةَ أكثرَ ترحيبًا. ولَمَّا رجعت، تفقّدت بريدَ المكتبِ الصّوتيِّ، فوجدت رسالةً من رومان. "أينَ أنتِ؟ اتّصلي بي". بدا مُسَخَّطًا وكرَّرَ رقمَ هاتفه الخلويِّ مرّتين. "اتّصلي بي!" أضافت رقمه إلى لائحة الأرقام في هاتفها الخلويِّ، ولكنها عاودت الاتصالَ به على خَطِّ المكتب. لم يُتَخ لها حتى فُرصةً لِتقولَ "مرحبًا".

"لماذا لم تزدِّي على الهاتف؟"

"كنتُ أتبضعُ أثاثَ عُرْفَةِ نوم".

"أوه".

"رجعتُ تَوًّا. ستكونُ عُرْفَةُ نوم الضيوفِ عندك مفروشةً قبلَ نهايةِ الأسبوعِ، من ستكلي وابتهول". وقد رجّت أن تكون تلك المعلومةُ أوضحت أنها لم تكن تتشَمَّس على شاطئ ماليبو.

"مهما كان ذلك". بدا أهدأ. "أنا مُزِمِعُ أن أعجب به؟"

"لستُ أدري، ولكنّ ضيوفك سيكونون مُستريحين جدًا".

"ضيفي. بالمُفرد. جاسپر. ماذا عن البياضات والبطانيات...؟"

"اشتريتها سيكونَ لدى جاسپر وسادتانِ يختارُ منهما. سأرتبُ السريرَ حالما يصلُ كلُّ شيء. ستكونُ

الغرفة جاهزة قبل رُجوعك“. قالت له كم دفعت،
ورجعت أن يكون رجلاً يحترم كلمته فلا يصرخ عليها.
”هو من نوع الأثاث الذي تزداد قيمته“.

”أنا على يقين بأنه ممتاز“.

بدا متحيرًا. أكان في فكره شيء آخر؟ ”عندي
بضع رسائل لك“. كانت إحداها من مدقق حساباته
الرسمي، وأخرى من وسيط عقاري عنده شارٍ إذا كان
معنيًا بأن يبيع. فقال لها رومان أن تخبر مدقق
حساباته بأنه سيتصل به بعد المعرض الفني، كما
أخبرها بأنه غير مستعد لأن يبيع.

أطلقت غريس ضحكة لطيفة. ”يسرني أن أسمع
ذلك. لقد انتقلت إلى هنا تَوًّا“.

”أوه؟“ ضحك ضحكة خافتة. ”هل تنامين في
سريدي؟“

”عنيث الكوخ بالتأكيد“. على الأقل بات أحسن
مزاجًا. ”هل من شيء آخر تريد مني أن أعمله في
هذه الأنحاء ما عدا الأمور المعتادة، شيء ما لا
يشتمل على الدخول إلى غرفة نومك أو مرسمك؟
لقد طليت جدارك من جديد، على فكرة. ما قلت لي
إنني لا أستطيع“. ولما بقي صامتًا، تساءلت هل
تخطت الحدود؟ ”أرجو أن يكون ذلك موافقًا تمامًا“.

”أفكر فحسب. في وسعك أن تسلمي تاليا اللوحة
الأخيرة بدل أن تأتي هي لأخذها“.

”سَمِعْتُ أَنَّ لَآغُونَا بِيْتَش بَلَدَةٌ صَغِيرَةٌ جَمِيلَةٌ“.

”مَا زُرْتِهَا قَطُّ؟“

”لَا. كُلُّ مَا سَبَقَ أَنْ رَأَيْتَهُ يَوْمًا هُوَ مَا يَقَعُ بَيْنَ

فَرَسَنُو وَلُوسِ أَنْجَلِيسِ. وَالآنَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَضِيفَ

تُويْنِغَا كَانِيُونَ وَبُرْبَانِكُ وَمَتَجَرَ مَالِيوُ الْكَبِيرَ“.

مَا كَانَتْ تَمْلِكُ الْمَالَ أَوْ الْوَقْتَ لِتُسَافِرَ. ”ذَاتَ يَوْمٍ

سَأَذْهَبُ إِلَى دِرْزِي لَانْدَ“. مَعَ صَمُوِيلَ.

”لَقَدْ عِشْتُ حَيَاةً مُسْتَوْرَةً. حَسَنًا، هَذِهِ فُرْصَتُكَ

الْكَبِيرَةُ إِذَا أَرَدْتَ تَسْلِيمَ الْقِطْعَةِ بِالْيَدِ. هَذَا يُذَكِّرُنِي.

أَحْتَاجُ إِلَى رَقْمِ هَاتِفِكَ الْخَلَوِيِّ“.

أَعْطَتْهُ غَرِيْسَ الرَّقْمِ بِلَا تَرُدُّدَ.

”عِنْدَمَا أَتَّصِلُ، أَجِيبِي“.

”نَعَمْ، يَا رَيْسَ“. وَمَا إِنْ أَقْفَلَ رُومَانَ الْخَطِّ، حَتَّى

حَمَلَتْ رَنَّةً مُنَاسِبَةً، ثُمَّ خَابَرَتْ تَالِيَا لِتَحْدِيدِ مَوْعِدِ

لِلْقَائِمَا فِي صَالَةِ الْعَرِضِ يَوْمَ غَدَ.



لَمْ تَبْدُ تَالِيَا رَايْزَنَرَ فِي شَيْءٍ مِثْلَ سَيِّدَةِ الْأَعْمَالِ

الْجَدِّيَّةِ الْفِظَّةِ الَّتِي تَوَقَّعَتْهَا غَرِيْسَ. كَانَتْ تَرْتَدِي

تَنْوْرَةً ذَاتَ طَبَقَاتٍ مُتَعَدِّدَةِ الْأَلْوَانِ وَبُلُوزَةً رِيْفِيَّةً مَعَ

عِقْدٍ قَصِيرٍ غَلِيظٍ مِنَ الْمَرْجَانِ الْفِيْرُوزِيِّ وَالْأَحْمَرِ، وَقَدْ

رُفِعَتْ كُنْتَلَةٌ شَعْرِيهَا الْجَعْدِ الْأَحْمَرِ وَالرَّمَادِيِّ فِي كَعْكَةٍ

رِخْوَةٍ مَمْسُوكَةٍ بِدَبَابِيْسِ شَعْرِ يَابَانِيَّةٍ.

”غريس مُور!“ حَسَنٌ أَنْ أَلْتَقِيكَ شَخْصِيًّا فِي
الْأَخِيرِ“. تَجَاهَلْتِ تَالِيَا يَدَ غَرِيْسِ الْمَمْدُودَةِ وَعَانَقْتَهَا.
”هَلْ عَلِمْتِ أَنَّهُ وُجِدَتْ نَجْمَةٌ سِينِمَائِيَّةٌ بِالاسْمِ نَفْسِهِ؟
لَقَدْ عَاشَتْ غَرِيْسُ مُورَ قَبْلَمَا وُلِدْتِ أَنْتِ، وَكَانَ فِي
وُسْعِهَا أَنْ تُغْنِيَ كَالْعَنْدَلِيبِ. أَيْنَ اللَّوْحَةُ؟“

فَتَحَّتْ غَرِيْسُ صُنْدُوقَ سَيَّارَتِهَا. مَدَّتْ تَالِيَا يَدَيْهَا
إِلَى الدَّاخِلِ وَأَخْرَجَتْ بِحَرِيصٍ رَسْمَةَ رُومَانَ الْأَحْدَثِ.
”أُوهِ! انظُرِي مَا قَدْ صَنَعَ ذَلِكَ الْفَتَى هَذِهِ الْمَرَّةَ“.

ذَلِكَ الْفَتَى مُجَدِّدًا! لَمْ تَتَمَالَكِ غَرِيْسُ نَفْسَهَا عَنِ
الصُّحُكِ. أَطَبَقَتْ الصُّنْدُوقَ الْمَفْتُوحَ وَلِحِقَتْ بِتَالِيَا إِلَى
الدَّاخِلِ.

كَانَ فِي الصَّلَاةِ بِضَعُ غُرْفِ عَرْضٍ مَعَ تَشْكِيلَةٍ مِنْ
اللُّوْحَاتِ، لَا جُدْرَانٌ مُثْقَلَةٌ بِرُسُومٍ عَصْرِيَّةٍ كَمَا تَصَوَّرَتْ
غَرِيْسُ. تَوَقَّفَتْ لِتُعْجَبَ بِلَوْحَةٍ زَيْتِيَّةٍ لِزَهْرِيَّةٍ مِنْ
عَصْرِ النَّهْضَةِ مَمْلُوءَةٌ بِزَهْرِ اللَّيْلِكَ الْأَرْجَوَانِيِّ الَّذِي بَدَأَ
حَقِيقِيًّا بِحَيْثُ كَادَتْ تَتَنَشَّقُ رَائِحَتَهُ. أَعْجَبَتْهَا لَوْحَةٌ
أُخْرَى فِيهَا بَعْضُ طُيُورِ مَالِكِ الْحَزِينِ بِرَيْشٍ أَزْرَقٍ بَيْنَ
القَصَبِ. وَظَهَرَ عَلَى قَاعِدَةِ عَرْضِ حَوْثِ بُرونزِيٍّ مَعَ
صَغِيرِهِ؛ وَعَلَى أُخْرَى سِرْبٌ مِنْ سِنَّةٍ دَلَّافِينَ. وَبَدَأَ
طَبَقُ خَرْفِيٍّ كَبِيرٍ أَشْبَهَ بِسَّمَاءِ لَيْلٍ مُرْصَعَةٍ بِالنُّجُومِ.
مَالَتْ غَرِيْسُ إِلَى الْأَمَامِ وَقَرَأَتْ الشَّعْرَ. ”أُوهِ، عَجَبًا!“
”نَحْنُ نُلَبِّي أَصْحَابَ الذَّوْقِ الرَّفِيعِ“.

”كُلُّ قِطْعَةٍ هَهُنَا تُكَلِّفُ أَكْثَرَ مِمَّا أَكْسَبُهُ فِي سَنَةٍ“

كاملة“.

ابتسمت لها تاليا ابتسامة غريبة، ثم أسندت بحرص لوحة رومان إلى جدار. ”إِذَا، ماذا تظنين فيها؟“

”لا أكاد أكون شخصًا يُسأل“.

ضحكت تاليا ضحكة خافتة. ”لأنك تعرفين ما يُعجبك، وهذه ليست من الفن الحديث“.

وابتسمت لغريس ابتسامة ماكرة. ”سأقول لك سِرًا. أنا أيضًا لم أكن مُتحمسة لفن رومان في البداية“.

تراجعت قليلًا وتأمّلت اللوحة فيما هي تتكلم. ”دخل إلى هنا وعلى كتفه حمل بحجم جلمود. رافق صف المتفرجين ذهابًا وإيابًا، وما كان أحد لينظر حتى ما في سيارته“.

وضحكت. ”لقد شُطب من اللائحة. هل تعلمين ماذا قال لي؟“

”ألقي نظرة فحسب. إن لم تكن اللوحة جيّدة، فسأخرج من الباب“.

دون شك، بلغة أكثر حياةً وحيويةً بكثير“.

ثم أمالت تاليا رأسها. ”أعرف تمامًا إلى أي نوع من الإطار تحتاج هذه اللوحة“.

وما لبثت أن التقطت اللوحة ونقلتها إلى داخل مكتبها.

تبعثها غريس. ”ماذا غير رأيك؟“

”لا تُغامر بشيء، فلا تكسب شيئًا، كما يقولون. وقد كان يومًا بطيئًا جدًا. طلبت إليه أن يدخل أفضل ما عنده. صف لوحتين وتباعده فيما تأملتهما. كنتُ

سأقول له إنني آسفة، ولكن ما لبث أن دخل زبون.
أستطيع أن أعرف الشاري الجدي حين أرى واحداً.
جال في أنحاء صالة العرض في مهمة وتوقف عند
لوحتي رومان. أراد أن يشتري واحدة في الحال.
قلت له إنني لم أسعزها بعد. ولما ناولني بطاقته،
علمت أنني حظيت بشيء مُميز. لقد جذب رومان
انتباه قِيم على واحد من أحسن متاحف الفن
الحديث في البلد. كان في لاغونا بيتش في غطلة،
ليوم واحد فقط. حدثيني بشأن المصادفة. اشترى
قطعة رومان الأولى، لأجل مجموعته الخصوصية،
قائلاً إنها استثمار مهم.

نظرت غريس إلى الرّسمة من جديد. "واضح أنني
لا أقدر الفن".

"هي مسألة ذوق، ولكن بعض الناس يلتفتون إلى
الاتجاهات الجديدة السائدة. رومان يعلم ما يعمل".
أثرت جدارية رومان في غريس أكثر بكثير من
رسومات الفن الحديث التي نصبها على الحاملات
كخط تجميع. فربما لا ترى الجدارية الفعلية في سان
دييغو. "هذه القطعة مختلفة جداً عن عمله الآخر".

"تعين جدارياته". بدت تاليا عابثة. "رسم واحدة
لصديق لي. منظر من الريفييرا الإيطالية: أعمدة،
نبات البوغنفيليا المتسلق، جِرار، عرائش مروج
يسكن الماء من أباريق. لدى رومان حسّ دُعابة

خبث. وقد مضت سنة أشهر قبل أن يكتشف ليو الرمز الدائر. لاحظ بضعة ضيوف ذلك قبله، وعقدوا رهانات على طول المدة التي سيستغرقها حتى يكتشف الأمر.

”ماذا جرى لما اكتشفه؟“

”لدى ليو روح رياضية. ضحك. أخبرني منذ وقت قصير أنه يستمتع جدًا عندما يرى تعبيرات الناس حين يكتشفون الصورة الخفية. لا بد أن أقول إنها مشغولة بمهارة بالغة. دون شك، لم يتصور ليو أن رومان كان يُطلق عليه اسمًا بذيئًا. رجال مثل ليو لا يفعلون ذلك بتاتا.“ وهزت رأسها. ”لدى رومان مواهب أكثر من أن يعرف ماذا يفعل بها، ولكنه لم يجد نفسه بعد. كل ما عني به لما دخل إلى صالة عرضي كان تعليق اللوحات على جدار والثيقن بكونها ثباع. قلت له إن الرسام الحقيقي لا يهتم بما يعتقد الناس. فقال إنه لو استطاع ميكال أنجلو أن يتاجر بمواهبه، لاستطاع هو أيضًا أن يفعل ذلك. قلت له إنه إما أن يؤمن بما كان يفعله وإما ألا يؤمن. فقال إنه لا يؤمن بأي شيء.“

أحزن ذلك غريس. كانت قد لاحظت القلق لدى موظفيها، وكأنما حتى أفضل ما فعله لم يؤتِه أي شعور بالإنجاز أو بالرضى. لقد اشتغل باجتهاد، ولكنه لم يبدُ قانعًا قط.

أردفت تاليا قائلة: "لقد تعلق به شيء ما، فضلاً
عن مدى وسامته". والتوى فمها بابتسامة ذنوبية.
"وضعت صورته على كل كراسة. وجهه يأتي بالنساء،
ذوات المال أو ذوات الأزواج ذوي المال. وللأسف
رومان فيلاسكو رنة جميلة أيضاً، ألا تظنين ذلك؟
أوه، أجنبي ومكتف بالأسرار!"

التقطت غريس معناها. "ألا تعتدين أن ذاك هو
اسمه الحقيقي؟"

"أتعتدين أنت؟ من أي خليط كان، لا أظن أن فيه
قطرة دم إيطالي واحدة. هندي، ربما. عربي، ممكن.
أسود. ليس أن ذلك مهم. إنه ليس وسيماً فقط. إنه
ممتع. ألا تقولين هذا؟"

"أحافظ على مسافة بيني وبينه".

"ربما كان هذا من الحكمة".

لماذا يلجأ رومان إلى تركيب اسم؟ هل كان عنده
شيء ما ليخفيه؟ دفعت الفضول بعيداً. مهما كانت
أسبابه، فليس ذلك شأنها. إنها تشتغل عنده. لا يعني
ذلك أنه ينبغي لها أن تصير مَعْنِيَةً بشؤونه شخصياً.
أبقي الأمور مهنيةً، غريس. لا شرعي في التساؤل
عن رئيسك.

وقبلت غريس دعوة تاليا إلى الغداء. تالأت
الأمواج تحت ضياء الشمس، وكانت طيور النورس
تعلو وتغطس على الريح. تحدت تاليا بشأن الفن

والعملاء والأسفار. سُمِعَتْ رَنَّةُ رومان: أقيس يرسلني
يُغْنِي "يا رجلاً رئيساً كبيراً!"

"رومان". ضحكت تاليا فيما مدت غريس يدها
لإخراج تلفونها.

"نعم، يا رئيس؟" وابتسمت تاليا ابتسامة عريضة.
"أنتِ ذاهبةٌ إلى لاغونا بيتش اليوم؟"

"أنا في لاغونا بيتش الآن. سلّمتُ اللوحةَ سالمةً.
تاليا وأنا نُنهي غداءنا تَوًّا. سأتوجّهُ عائدةً عاجلاً".

"أنتِ في مُنتصفِ الطريقِ إلى سان دييغو. لماذا لا
تنزِلين إلى هنا؟"

جمّدت غريس. لا بُدَّ أنه يمزح! توقّف ضحكُ تاليا،
وراقبت غريس. سرّحت غريس نظرها إلى البحر،
وهي مُرتبكة. "جاوَزَ الوقتُ السَّاعةَ الثَّانيةَ.
سيستغرقُ رجوعي ساعات".

"اقضي الليلَ هنا".

"ماذا؟" ارتفعَ نَبْضُها بِسرعة. "لا!"

خفّت لهجته. "لستُ طالبًا منك أن تقضي الليلةَ
في عُرفتي، غريس". بدا مُتسلِّياً. أحسَّتِ التَّورْدُ يملأُ
خديها. لاحظت تاليا أيضًا، ثم جعلت الأمرَ أسوأ.
"يُمكِنُني أن أرتبَ لك الحُصولَ على جناحٍ صغيرٍ
حسن".

طرّحتِ الحذرَ مُتضايقةً. "لا، شكرًا لك".

”ألا تُريدِين أن تَدِي الجِدَارِيَّة؟“

”مَرَّةً أُخْرَى.“

”لن أكونَ هُنَا بَعْدَ إِنْجَازِهَا.“

”أَعْرِفُ.“

”عَجَبًا، كانَ ذلكَ بَارِدًا“. لم يَبْدُ مُسْتَأً.

”أنتَ طَلَبْتَهُ“. كانتَ عَوَاطِفُهَا الشَّخْصِيَّةُ مَسْأَلَةً

أُخْرَى. ”هلَ كانَ لَدَيْكَ مَهْمَةٌ أَرَدْتَ مِنِّي أنَ أَقُومَ

بِهَا؟“ حَاوَلَتْ أنَ تُبْقِيَ لَهْجَتَهَا حِيَادِيَّةً، حَتَّى لَا يُخَمِّنَ

مَا اسْتَطَاعَ أنَ يَفْعَلَهُ قَلِيلٌ مِنَ الإِغَاظَةِ.

”لا“. وَأَنْهَى المُكَالِمَةَ.

أَطْلَقَتْ غَرِيسَ لَهْتَةً رَقِيقَةً حِيَالِ الفِظَاطَةِ،

وَحَدَّقَتْ إِلَى تَلْفُونِهَا. وَإِذْ هَزَّتْ رَأْسَهَا، دَسَّتِ التَّلْفُونَ

فِي مَكَانِهِ.

”يُمْكِنُ أنَ يَكُونَ الفَتَى مُسَخِّطًا“. وَمَضَتْ عَيْنَا

تَالِيَا بِبَرِيقٍ تَحْزُرِيٍّ.

أَكْثَرَ مِمَّا أَرَادَتْ غَرِيسَ أنَ تَعْتَرِفَ بِهِ.



لَمْ يَتَّصِلْ رُومَانُ بَغَرِيسَ ثَانِيَةً. وَضَبَطَ نَفْسَهُ مُرَاقِبًا

السَّاعَةَ عَصَرَ كُلِّ نَهَارٍ نَحْوَ الثَّلَاثَةِ، عَادَةً قَبْلَ اتِّصَالِهَا

بِهِ بِدَقَائِقٍ. رَاجَعَتْ رَسَائِلَهُ وَأَيَّ بَرِيدٍ وَارِدٍ. سَأَلَتْ

كَيْفَ كَانَ العَمَلُ جَارِيًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعَ أنَ يَتَبَيَّنَ

أَكَانَتْ مُهْتَمَّةً فَعَلًا أَمْ كَانَتْ تُظْهِرُ تَأَدُّبًا فَحَسَبَ.

حذَفَ رومان الأسدَ الذي يلتهمُ طفلَ الزَّرَافَةِ قبلَما وصل هيكْتور لمُبَاشرةِ وُضْعِ الطَّبَقَةِ الوَقَائِيَّةِ النَّهَائِيَّةِ. وَقَفَ النَّاسُ على مَقْرِبَةٍ مِنْهُمَا، يُشَاهِدُونَهُمَا يُنْجِزَانِ العَمَلَ. بدا الجِدَارُ مُؤَثِّرًا. كان ذلك أفضلَ عَمَلٍ أَتَمَّهُ.

بينما هو يُزِيلُ التَّجْهِيزَاتِ والأَغْطِيَّةَ، تَسَاءَلَ عن سَبَبِ شُعُورِهِ الغَامِضِ بالخِيبَةِ، كما لو كان قد أَخْفَقَ في تَضْمِينِ الجِدَارِيَّةِ شَيْئًا مُهِمًّا.

”لستَ تبدو سعيدًا، سِنْيُور؟“ تكلَّمَ هيكْتور بِلِكنةٍ. ما بَرِحَ يَتَحَسَّنُ جَدًّا على مَدَى الأَسَابِيعِ القَلِيلَةِ المَاضِيَةِ، وقد أَحَسَّ رومان وخِزَّةَ غَيْرَةٍ.

”هل تُعَلِّمُكَ غَرِيسِ الإنكليزيَّةَ على انفراد؟“

ابتسَمَ هيكْتور ابتسامَةً عَرِيضَةً ورفَعَ حَاجِبِيهِ. ”لا، لقد التَّقَيْتُ فتاةً، على الشَّاطِئِ، جميلةٌ جَدًّا. هي تُعَلِّمُنِي الإنكليزيَّةَ. أنا أعلِّمُها الإِسْپَانِيَّةَ.“

استطاع رومان أن يَعْرِفَ من سِمْماءِ هيكْتور أنَّ الثَّنَائِيَّ قد تَخَطَّيا أَكْثَرَ من حَوَاجِزِ اللُّغَةِ. ”يبدو هذا تَرْتِيبًا حَسَنًا.“

أَخْرَجَ هيكْتور تَلْفُونَهُ الخَلَوِيِّ وتباهى بِصُورَةٍ ذاتِيَّةٍ. بدَتِ الفتاةُ هَائِمَةً بِحَبِيبِهَا اللاتينيِّ، وكانت مُمْتَلئةً الجِسمِ، حمراءَ الشَّعْرِ، لوَحَّتْهَا الشَّمْسُ. وقد بدا هيكْتور مُنتَصِرًا وهو يُطَوِّقُهَا بِذِرَاعِهِ.

وَضَعَ التَّلْفُونِ فِي جَيْبِهِ. ”هل غَرِيسِ نازِلَةٌ؟“

”أليست فتاةً واحدةً كافيَّة؟“

ضحك هيكتر. "كي تدي الجدارية، يا رجل".

"لست أدري". لم يكن رومان على وشك الإقرار بأنه قد دعاها وقالت لا. وضبط هيكتر ناظرًا إليه فبادله بحمقة. "ماذا؟"

أوما هيكتر برأسه نحو مكتب الاستقبال، حيث كان رجل يده إلى ثنائي في منتصف العمر.

واجه رومان هيكتر. "لنذهب ونتناول العشاء. لا أشعر بميل إلى اللعب مع غرباء حسب الأصول".

جلسا إلى مائدة بين مقعدين طويلين في مطعم أنيق إلى جانب الشارع. قضى هيكتر معظم الوقت يرأسل صديقه نصيًا. ما كانت المحادثة مع هيكتر سهلة قط. ولكن محادثة قصيرة، ولو متكلفة، كان من شأنها أن تكون حسنة. فمهما قالت الفتاة، جعل هيكتر يُقرّر أن يتوجه راجعًا إلى لوس أنجلوس بدل أن يبيت ليلته في فندق ذي خمسة نجوم. ودّعه رومان ملوًا بيده، وجلس وحده، وتناول كأس براندي.

لما رجع إلى جناحه في الفندق، كانت الساعة قد جاوزت الثامنة قليلًا. وقف عند النوافذ، شاعرًا بأنه هائم بلا هدى. لم تكن غريس قد اتصلت اليوم. ذريعة جيدة للاتصال بها. أخرج هاتفه الخلوي ونقر طلب الرقم السريع.

رنّ التلفون خمس مرات قبل أن يُسمع ردّ بريدها

الصَّوتِيَّ. لَمْ تُقَدِّمِ التَّرْحِيبَاتِ الْمُعْتَادَةَ أَوْ تَذَكَّرِ اسْمَهَا،
بَلْ أَعْطَتِ تَعْلِيمَاتٍ لَتَرْكِ رِسَالَةٍ فَحَسِبَ. حَتَّى إِنَّهَا لَمْ
تَقُلْ إِنَّهَا سَتُعَاوِدُ الْإِتِّصَالَ بِالْمُتَكَلِّمِ، أَيًّا كَانَ. لَمْ يَتْرُكْ
رُومَانَ أَيَّةَ رِسَالَةٍ. كَانَتْ تِلْكَ لَيْلَةً يَوْمِ جُمُعَةٍ، وَقَدْ
جَاوَزَتِ السَّاعَةُ الْخَامِسَةَ كَثِيرًا. فَلِمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَرُدَّ
غَرِيسَ؟

ازداد الثُّقْلُ فِي صَدْرِهِ. لَقَدْ أَفْرَطَ فِي تَنَاوُلِ شَرَائِحِ
اللَّحْمِ الْمَشْوِيَّةِ، كَمَا أَفْرَطَ فِي شَرِبِ النَّبِيذِ. وَجَعَهُ
حَنْكُهُ. سَبَقَ أَنْ قَالَ لَهُ طَبِيبُ أَسْنَانِ إِنَّهُ يَصِرُّ بِأَسْنَانِهِ
وَهُوَ نَائِمٌ، وَوَصَفَ لَهُ وَاقَاءَ فِيمَ مُوَصَّى عَلَيْهِ. ذَلِكَ
فَضْلًا عَنِ ضَغْطِ أَقْلٍ فِي حَيَاتِهِ. شَعَرَ بِشَيْءٍ مِنَ
الْإِعْتِلَالِ، وَلَيْسَ فَقَطْ لِأَنَّهُ تَنَاوَلَ بِضَعِ كُؤُوسٍ.

لِمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُتَوَثِّرًا؟ لَقَدْ كَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ
أَرَادَهُ كُلُّ شَخِصٍ سِوَاهُ.

إِذْ تَمَدَّدَ عَلَى سَرِيرِهِ، حَاوَلَ أَنْ يَنَامَ. أَحَسَّ أَنَّهُ
مُنْرَفِزٌ، فِي حَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ مَا. فِي وَسْعِهِ أَنْ يَعُودَ
إِلَى عَادَاتِهِ الْقَدِيمَةِ، فَيَذْهَبَ إِلَى نَادٍ وَيُجَالِسَ فَتَاةً.
وَلَكِنَّهُ كَانَ دَائِمًا يَشْعُرُ بِالْفِرَاقِ فِي مَا بَعْدَ فَالْتَوَثُّرِ
الدَّاخِلِيِّ مَا تَبَدَّدَ قُطًّا.

شَغَلَ التَّلْفِزِيُونَ، وَاسْتَأْجَرَ فِيلْمًا عَنيفًا كِفَايَةً
بِحَيْثُ يُلْهِيه. أَوْجَعَتْهُ ذِرَاعُهُ مِنْ رَفْعِهَا وَالْقِيَامِ بِالْعَمَلِ
الدَّقِيقِ طَوَالَ أَمْسٍ، وَكُلَّ يَوْمٍ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ
الْمَاضِيَةِ. فَزَكَ عَضَلَاتِهِ. جَرَعَهُ شَرَابٍ أُخْرَى قَدْ تُرِيحُ.

فَتَحَ الْمَشْرَبَ الصَّغِيرَ وَأَخْرَجَ ثَلَاثَ زُجَاجَاتٍ وَسَكَى
مِن ذَوَاتِ الْجُرْعَةِ الْوَاحِدَةِ.

اسْتَرَخَى رُومَانَ بَعْدَ الْجُرْعَةِ الثَّلَاثَةِ. إِنَّمَا الثَّقَلُ
بَقِيَ. اتَّصَلَ بِغَرِيسٍ ثَانِيَةً. أَجَابَتْ لَدَى الرَّنَّةِ الثَّانِيَةِ.
”مَاذَا؟“ بَدَتْ مُتْرَنِحَةً وَمُنزَعِجَةً.

”أَنْتِ نَائِمَةٌ؟“

زَفَرَتْ نَفْسَهَا بِحِدَّةٍ. ”لَا. أَنَا أُغْنِي فِي بَارِ كَارِيوكِي!
مَاذَا تَظُنُّ؟“

”يَا رَجُلَ، أَنْتَ نَكِدُ“. أَدَارَ رُومَانَ عُنُقَهُ لِيَنْظُرَ إِلَى
السَّاعَةِ الْمُعَلَّقَةِ فَوْقَ مِئْزِدَةِ اللَّيْلِ. ”كَيْمِ السَّاعَةِ؟“

”رَجَاءً، قُلْ لِي إِنَّكَ لَمْ تَتَّصِلْ لِتَسْأَلَ عَنِ السَّاعَةِ.
الْوَقْتُ تَخَطَّى نِصْفَ اللَّيْلِ. أَنْتِ فِي دَارِ سِينَمَا؟“

”أَنَا فِي عُرْفَتِي، أَشَاهِدُ فِيلْمًا. أَشُكُّ فِي كَوْنِهِ
وَاحِدًا يَرُوقُ“. وَأَطْفَاءُ التِّلْفِزِيِّونَ.

”مَاذَا تُرِيدُ، رُومَانَ؟“

إِيَّاكَ. وَافْتَهُ الْفِكْرَةَ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ. وَلَكِنْ مِنْ
دَوَاعِي السُّرُورِ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بِصَوْتٍ عَالٍ. آه، فِي
وُسْعِهِ أَنْ يَقُولَ لَهَا مَاذَا أَرَادَ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ أَبْعَدَ كَثِيرًا
مِنْ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا بِشَأْنِ الْأَمْرِ، وَمَا كَانَتْ لِتَفْعَلَ عَلَى
كُلِّ حَالٍ.

”أَنْتِ بِخَيْرٍ؟“

مَتَى بَدَأَ وَقَعَ صَوْتِهَا يُحَدِّثُ فِي جِسْمِهِ أَشْيَاءَ؟

”أظنُّ أنني أسرفتُ في الشُّربِ قليلاً اللَّيلةَ“.

”أستطيعُ أن ألاحظَ“.

”كيف؟“

”لستَ تبدو مثلَ نفسك“.

صَحَّاهُ ذلكَ قليلاً. كيف بدأ؟ مُنكَشِفًا؟ وإذ نَظَّفَ حَنجرتَهُ مُتَنَحِنِحًا، جَلَسَ مُنْتَصِبًا في السَّريرِ وفَرَكَ وجهَهُ. ”لم تُخابِريني لِثُطَلِيعيني على آخِرِ المَجرياتِ“.

”قلْتُ لكِ إنني لن أزعجُكِ إلا إذا كان الأمرُ ضروريًّا. لقد كانَ نهارًا هادئًا. لم يَكُنْ من سببٍ لِاتِّصَلِ“.

ماذا لو أرادَ أن يُزعجَ؟ ”أُنجزتِ الجِداریَّةَ“. تكلمَ بِحَذَرٍ، غيرَ مُريدٍ أن يبدؤَ سَكَرانًا كما أدركَ الآنَ أَنَّهُ كذلكَ. ”أنهى هيكْتورُ الطَّبقةَ الوقائيَّةَ مساءً أمسَ. لقد ذهبَ إلى دياره. لديه صديقة“.

”أعرفُ“.

”هل قابلتِها؟“ كم كانت هي وهيكْتور يتحدَّثان تَكَرَّارًا، ولماذا ينبغي أن يُقلِّقَهُ ذلكُ؟

”لا، حتَّى الآنَ. أراني صورتها. تبدو ظريفة“.

استطاعَ رومان أن يسمعَ غريس تتحرَّك في الجِوارِ، ورجا أن تكونَ مُريحَةً نفسَها. لم يُردَ أن يُنهيَ المُكالمةَ بعدَ.

”أقدِّمُ التَّهانِيَّ على إنجازِ الجِداریَّةِ. أحمِّنُ أنكَ

لهذا السَّبب كُنْتُ تَحْتَفِلُ“.

يَحْتَفِلُ؟ أَذَلِكَ هُوَ مَا ظَنَنْتَهُ؟ كُلَّمَا اشْتَغَلْتَ عِنْدَهُ
مُدَّةً أَطْوَلَ، أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ عَنْهَا أَكْثَرَ. لَقَدْ كَانَ فِي
غَرِيْسٍ مُورٍ شَيْءٍ مَا أَسْرَ انْتِبَاهَهُ مِنَ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ تَوًّا.
”فِي الْوَاقِعِ أَنَّنِي شَعَرْتُ فَقَطْ بِرَغْبَةٍ فِي السُّكْرِ دَاخِلًا
عُرْفَتِي“. وَأَدْرَكَ كَمْ بَدَأَ مُثِيرًا لِلشَّفَقَةِ. يَا لَهُ مِنْ
خَاسِرٍ! أَطَبِقْ فَمَكَ تَمَامًا، رُومَانَ، قَبْلَ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا
مَا أَكْثَرَ حِمَاقَةً.

”أَنَا آسِيفَةُ، رُومَانَ“.

”آسِيفَةُ عَلَامٌ؟“

”لَسْتُ أَدْرِي. عَلَى كَوْنِكَ وَحِيدًا بَعْدَمَا أُنْجِزَتْ
شَيْئًا سَوْفَ يَسْتَمْتَعُ النَّاسُ بِهِ طَوَالَ سِنِينَ آتِيَةٍ.
لَدَيْكَ كُلُّ سَبَبٍ فِي الدُّنْيَا لِتَكُونَ سَعِيدًا وَفَخُورًا بِمَا
أُنْجِزْتَهُ، وَأَنْتَ لَسْتَ كَذَلِكَ“. وَلَمْ تَقُلْ شَيْئًا بِضَعِّ ثَوَانٍ.
”مَا عَرَفْتُ يَوْمًا أَيِّ شَخِصٍ يَحْتَاجُ إِلَى الرَّبِّ أَكْثَرَ مِمَّا
تَحْتَاجُ أَنْتَ إِلَيْهِ“.

”الرَّبُّ؟“

”يَسُوعُ الْمَسِيحُ“.

أَحْسَسَ رُومَانَ الطَّاقَةَ تَتَسَرَّبُ مِنْهُ كَالهَوَاءِ مِنْ عَجَلَةٍ
مَثْقُوبَةٍ. فَكَّرَ فِي اللَّافِتَةِ الْمَرْفُوعَةِ فِي الْحَيِّ
الْمُسْتَهْتَرِ، عَبْرَ الشَّارِعِ تَمَامًا مُقَابِلَ الشَّقَّةِ الَّتِي كَانَ
يَسْكُنُ فِيهَا هُوَ وَأُمَّهُ. وَمَا لِبِثِّ أَنْ قَالَ مُتَهَكِّمًا:
”يَسُوعُ يُخَلِّصُ! كَانَ مِنْ عَادَتِي أَنْ أَقْعُدَ فِي نَافِذَةٍ

ليلاً وأطلب منه أن يُخلِّص أُمِّي. لم يعقل أدنى شيء.“

”أتريد أن تتحدّث، رومان؟“

تصوّر أنّه فعلاً قال أكثر جدًّا ممّا ينبغي. وعلم أنّه قد قال أكثر ممّا قصد أصلاً. وإذ نقرّ إنهاء المُخابرة، ألقى التّلفون على منضدة اللّيل.

الفصل ١٤

غريس، في سنّ الخامسة عشرة

باشرت غريس العقل في مطعم ماكدونالد حالما بلغت عمراً يكفي للحصول على إجازة عقل. كانت تشتغل فيما الأصدقاء يأتون ويذهبون. كانوا يُسلمون عليها ويطلبون شطائر همبرغر وبطاطا مقلية ومشروبات غازية، ثمّ يُودّعونها. أو كانوا يجلسون معاً إلى طاولة متحدثين وضاحكين فيما هي تعقل.

حاول سالم حداد، المُشرف عليها، أن يضعها في برنامج المناوبة أيام الأحد. "لا أستطيع، مستر حداد. أنا أذهب إلى الكنيسة مع خالتي". فقال إنه أمرٌ جيّد أن تأخذ مُراهقة الدين على محمل الجدّ، حتّى لو كانت مسيحية ملتزمة.

قال مستر حداد إنها كانت أفضل عاملة عنده. لو كانت أكبر سنّاً، لجعلها مُديرة. ما وقفت قطّ جانباً مُتكاسلة، حتّى في أوقات الهدوء، حين لا توجد سيارات في مقرّ الشراء ولا يوجد عملاء يودّون

الشراء. غَسَلَتِ الطَّائِلَاتِ، وَكَنَسَتِ الأَرْضِيَّاتِ، وَنَظَّفَتِ
المِشْوَايَاتِ، وَفَرَكَتِ حَمَامَ السَّيِّدَاتِ، وَأَعَادَتِ تَجْهِيْزَهُ
بِوَرَقِ المِرَاحِيْضِ وَالمِنَاشِفِ دُونَ أَنْ يُطَلَّبَ مِنْهَا ذَلِكَ.
وَظَفَّتِ مَكْنَآتِ خَفَقِ الحَلِيْبِ وَالمِشْرُوبَاتِ الغَازِيَّةِ
وَالقَهْوَةِ، وَأَعَادَتِ مَلءَ مُوزَعَاتِ المِنَادِيْلِ، قَائِمَةً بِأَيِّ
شَيْءٍ يُبْقِيْهَا مِشْغُولَةً فِي أَثْنَاءِ نَوْبَتِهَا. قَالَ لَهَا سَالِمٌ
إِنَّهَا تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَدْرُسَ، وَلَكِنَّهَا قَالَتْ إِنَّ ضَمِيْرَهَا لَا
يَسْمَحُ بِذَلِكَ. ”أَنْتِ لَا تَدْفَعُ لِي حَتَّى أَنْجِزَ فِرْضِي
الْمَنْزِلِيَّ“.

اليَوْمَ كَانَ سَالِمٌ مُنْدَفِعًا هُنَا وَهَنَا، مُدْمِمًا عَلَى
عَامِلٍ تَخَلَّفَ عَنِ الحُضُورِ. وَبَاتَ أَكْثَرَ إِحْبَاطًا لَمَّا لَمْ
يَتِمَكَّنْ آخِرَانِ، عَلَى مَا يَبْدُو، أَنْ يَفْعَلَا أَيَّ شَيْءٍ دُونَ
أَنْ يَصْطَدِمَ أَحَدُهُمَا بِالأُخْرَى. فَتَذَكَّرَتْ غَرِيْسٌ كَمْ
شَعَرَتْ بِالارْتِيَابِ فِي الأَيَّامِ القَلِيْلَةِ الأُولَى حَتَّى
اعْتَادَتِ الرُّوتِيْنَ. سَلَّمَتِ صِيْنِيَّةَ ”وَجِبَاتِ سَعِيْدَةَ“
إِلَى سَيِّدَةٍ مَعَهَا سِتُّ فِتْيَاتٍ لِابْسَاتِ بِرَّاتِ كُرَّةِ قَدَمِ.
وَفِيْمَا هِيَ تَمَلُّ الأُكُوبَ بِالشَّرَابِ، خَالَجَهَا شَعُورٌ
غَرِيْبٌ بِأَنَّهَا تَحْتَ المُرَاقَبَةِ.

لَمَّا غَادَرَتِ السَّيِّدَةُ وَالفِتْيَاتِ، وَقَفَتِ غَرِيْسٌ مَتَأَهِّبَةً
لِتَلْقَى الطَّلِبَ التَّالِيَّ.

تَقَدَّمَ بِاتْرِيَكِ مُورٍ إِلَى الأَمَامِ. ارْتَعَدَتِ مَعِدَّتُهَا
وَازْدَادَ خَفَقَانُ قَلْبِهَا. كَانَ قَدْ انْتَقَلَ مِنَ كُولُورَادُو فِي
أَوَّلِ السَّنَةِ وَانضَمَّ إِلَى فَرِيْقِ كُرَّةِ القَدَمِ. وَلَمْ يَمِضْ

وقت طويل قبلما أصبح الظهير الزبعي النجم. وقد
تعلقت كل فتاة في المدرسة بالشاب الأشقر، الأزرق
العينين، ذي الشمرة المكتسبة على منحدرات التزلج.
حتى الفتیان أعجبوا به. "مرحبا!" جعلتها ابتسامه
ياتريك تتورّد إذ نظر إلى بطاقة اسمها. "غريس..."
سألته متلعيمة عن طلبه. فانسغت بسمته إلى
ابتسامه عريضة مغيظة، مؤرّدة وجهها بمزيد من
الاحمرار.

"شطيرتا ماك كبيرتان، غلبتا بطاطا مقلية
كبيرتان، كؤوب صودا كبير. للتناول هنا".
سجلت غريس الطلب. أعطها عشرين دولارًا،
وردت له الفرامة. ثم وضعت الطعام على صينية.
ربما رافقته فتاة. قاومت حافز رؤية من هي.
لندساي؟ كانت مشجعة رئيسة، وما برحا ثنائيا طوال
مدة قصيرة. وضعت غريس الصينية. بدا ياتريك غير
مستعجل أن يأخذها. "حسن أن أراك غريس".

لم تدر ماذا تقول. شال الصينية وتقدم خطوة قبل
أن يستدير. "متى تنصرفين؟"

تعطل ذهنها لحظة. "الساعة السادسة".

"سأقلك إلى البيت".

"عندي دراجة".

"عندي منصب دراجة".

احتل ياتريك مائدة بين مقعدين، حيث يستطيع

أن ينظر مباشرةً إليها. حتى إنها لم تلاحظ رجلاً أكبر سنًا واقفاً أمامها حتى تكلم. "أه، ها هو كيوييد يقوّم بعمله القدر من جديد!" وضحك ضحكة خافتة. "سأخذ شطيرة وويّر".

ابتسمت. "سُضطرُّ أن تمشي في الشارع إلى مطعم بُرغر كِنغ".

قرأ ياتريك مور روايةً نابضةً بالحياة فيما هو ينتظر. ولما باتت غريس مستعدةً للانصراف، أخذت حقيبتها الظهرية وحملها. أحست أنها ضئيلة وهي تمشي بجانبه. رفع درّاجتها وثبتّها داخل منصّب على سيّارته البويك ريغال ذات اللون الأزرق الفاتح. "سيّارة جميلة". هل حسبها سطحيةً من أجل ملاحظتها ذلك؟

"أفضّل أن يكون عندي سيّارة جيب شيروكي عليها منصّب عدّة تزلج. هذه الطّفلّة عُمرها ثلاث سنين، وقد قطعت مئةً وثلاثين ألف كيلومتر تقريبًا. كان أبي يُسافر كثيرًا في وظيفته الأخيرة". فتح لها الباب. زلت إلى الدّاخل وثبتت حزام مقعدها. ولما جلس على مقعد السائق، التفت إليها. "سجّلها أبي بإسمي في عيد مولدي السّادس عشر".

"هديةً ظريفة". كانت في الخامسة عشرة، في عُمر يكفي للعمل، ولكن لا يكفي للسوق.

"يُمكن أن تزداد سرعتها فجأةً".

لم يتشبَّث پاتريك بالمِقوَد مثل الخالَة أليزابث. كانت يداه مُسترخيَتين. ساق مسافة سِتَّة صُفوف مَبانٍ، وابتسم لغريس ابتسامَةً جانبيَّة. ”سيكونُ عليك أن تقولي لي أين تسكنين“.

لو احمرَّ وجهها أكثر بعد، لأشعلت السَّيَّارة. ”تخميني أنه صعبٌ قليلًا أن أقرأ الأفكار“. وأعطته توجيهاتٍ بدَل العُنوان. سألت عن كولورادو. حكى لها قِصَّة حياتِه: وُلِدَ في فُورت كولنز، نشأ في سِبرِنغز، أحبَّ التزلُّج على زُحلوقَتين أو لوح، تأقلمَ مع فرَسنو بعد سلسلة جبال روكي. من حُسنِ حظِّه أنَّ الوصولَ إلى الشَّاطئ كان يَستغرِقُ بضعَ ساعاتٍ فقط. أرادَ أن يتعلَّم كيف يركبُ الأمواج. ”ماذا عنك؟“

ماذا يُمكنُ أن تقوله ممَّا لا يُضجِرُه؟ ”ليس عندي كثيرٌ أحكيه. ماتَ أبواي لَمَّا كنتُ في السَّابعة من عُمرِي. أوثني خالتي. أذهبُ إلى المدرسة. أدرس. أشتغل في المطعم. أذهبُ إلى الكنيسة كلَّ يومٍ أحد. تلكَ هي حياتي“. كانت أكثرَ اهتمامًا بِحياته. ”هل تنوي أن تلعبَ البيسبول هذه السَّنة؟“ لم تُرد أن تقولَ إنَّها علِمَت أنه لَعِبَ كُرَّةَ القدم وكُرَّةَ السَّلَّة أيضًا. ”صحيح“. ضحك. ”أحبُّ الرِّياضات، لَعِبَها ومُشاهدتها“.

”المُبارياتِ الحيَّة أم المنقولة على شاشة التلفزيون؟“

”كَلْتِيهِمَا“. ورمَقها بنظرةٍ سريعةٍ بِاسِمَةِ. ”ماذا عنك؟“

”لَعِبْتُ كُرَّةَ الْقَدَمِ فِي الْمَدْرَسَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ. مَا كُنْتُ بَارِعَةً فِيهَا“. لَمْ يَتَوَافَزْ لَهَا قَطُّ وَقْتُ لِمُشَاهَدَةِ التَّلْفِزِيُونَ كَثِيرًا، وَأَخِرُ شَيْءٍ كَانَ مِنْ شَأْنِ الْخَالَةِ أَلِيْزَابِثَ أَنْ تُشْغَلَ التَّلْفِزِيُونَ مِنْ أَجْلِهِ هُوَ بَرْنَامَجٌ رِيَاضِيٌّ. ”انْعَطِفْ يَمِينًا عِنْدَ التَّقَاطِعِ التَّالِي“.

تَوَقَّفَ بِاتْرِيكَ أَمَامَ الْبَيْتِ لِحِظَةٍ انْعَطَفَتْ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثَ إِلَى الطَّرِيقِ الْخَاصَّةِ.

”أَتَوَدُّ أَنْ تُقَابِلَ خَالَتِي؟“ وَمَا إِنْ خَرَجَتْ الْكَلِمَاتُ، حَتَّى أَدْرَكْتَ أَنَّ تَعْرِيفَ خَالَتِهَا بِفَتَى قَدْ يَبْدُو لَهُ أَكْثَرَ جِدِّيَّةً بِقَلِيلٍ مِنْ تَوْصِيلِهَا بِالسِّيَّارَةِ إِلَى الْبَيْتِ وَإِنْزَالِهَا أَمَامَهُ.

”حَتْمًا. ابْقِي جَالِسَةً“. تَرَجَّلَ وَاسْتَرْجَعَ حَقِيْبَتِهَا الظَّهْرِيَّةَ عَنِ الْمَقْعَدِ الْخَلْفِيِّ وَدَارَ لِيَفْتَحَ بَابَهَا. حَمَلَتْ الْحَقِيْبَةَ رِيْثَمَا فَكَّ دَرَّاجَتِهَا وَأَوْقَفَهَا عَلَى الرَّصِيْفِ.

وَقَفَتْ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثَ خَارِجَ الْمَرَّابِ تَمَامًا، تُرَاقِبُ وَتَنْتَظِرُ.

تَوَلَّتْ غَرِيْسَ التَّعْرِيفِ. ”بَاتْرِيكَ مُورِ طَالِبٌ فِي ثَانَوِيَّةِ فَرَسَنُو، خَالَتِي أَلِيْزَابِثَ. انْتَقَلَ إِلَى هُنَا مِنْ كُولُورَادُو. أَوْصَلَنِي بِسِّيَّارَتِهِ مِنَ الْعَمَلِ إِلَى الْبَيْتِ“. لَمْ يَبْدُ أَنَّ غَرِيْسَ تَسْتَطِيعُ التَّوَقُّفَ عَنِ الْكَلَامِ.

”اسْتَنْتَجْتُ أَنَّهُ أَقْلَكَ إِلَى الْبَيْتِ“.

أمسكت غريس بدرّاجتها، وهي مُرتبِكة. ابتسمت الخالة أليزابث ابتسامَةً ضيّقةً إذ صافحت پاتريك. ”حسنٌ أن التقيك، پاتريك“. تراجعت قليلاً فيما تشكّلت تقطيبَةٌ واهيةٌ على جبينها. ”مور...كولورادو. أنت قريبٌ لبايرن مور؟“

”نعم، هوّ أبي. هل تعرفينه؟“

”نحن نشتغلُ في المبنى نفسه.“

”إنّه عالمٌ صغير.“

”حقاً“. كانت ريحٌ قطبيّةٌ قد هبّت. ”حسنًا، شكرًا لك على إيصالِك غريس إلى البيت بسلامة“. ورمقت غريس بنظرةٍ ثاقبة. ”لديك أشياء تقومين بها.“

ماذا حدّثتوا؟ شكرت غريس پاتريك على التّوصيلة وراقبته يسوقُ مُبتعدًا. دحرجت درّاجتها إلى داخلِ المرّاب، فيما أخذت خالّتها كيسَ بقالةٍ عن المقعد الخلفيِّ في سيّارتها. وقد كان وجهها جافياً. ”ما الخطأ؟“ ماذا فعلتِ الآن لِتزعجِ خالّتها؟

”لا شيء“. كبست الخالة أليزابث الزّرّ لإغلاقِ بابِ المرّاب، فيما دخلت من الباب الخلفيِّ إلى المطبخ. حطّت كيسَ البقالة. فاحت من الفّرّوج الذي كانت قد وضعتّه في قدرِ الطّبخِ البطيء رائحةً الجاهزيّة للأكل. ”ساغِيرُ ثيابي“. ومشت مُجاوِزةً غريس. ”رتّبي المائدة.“

لما جلّستا للعشاء، تلت الخالة أليزابث صلاةً شكر،

وَحَطِطْتَ مِنْدِيلَهَا. عَلِمْتَ غَرِيسَ أَنْ شَيْئًا مَا كَانَ فِي فِكْرِهَا. ”هل فعلتُ شيئًا ما في غيرِ محلِّه؟“

”بيدو پاتريك مثل أبيه“. رفعت رأسها، زامةً فقها ”رگزي على المدرسة“.



فتحت غريس دَرَجَها المَقْفَلَ في المدرسة، وانتزعت منه كِتَابَ حِسَابِ التَّفَاضُلِ والتَّكَامُلِ. ولَمَّا أَغْلَقْتَهُ، دَارَتْ فَالتَقَتْ پاتريك مُور مُصَادَفَةً. وَإِذْ أَجْفَلْتَ، تَرَاجَعْتَ خَطْوَةً، وَقَدْ تَوَرَّدَ وَجْهَهَا إِذْ ابْتَسَمَ لَهَا مِنْ عُلِّ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. ”سأمشي معك إلى غُرْفَةِ الدَّرْسِ“. نَظَرَ الْجَمِيعُ إِلَيْهِمَا إِذْ سَارَا فِي الرِّوَاقِ. كَانَ فِي وُسْعِ غَرِيسَ أَنْ تَتصَوَّرَ مَا كَانُوا يُفَكِّرُونَ فِيهِ. مَاذَا يَفْعَلُ پاتريك مُور بِرِفْقَتِهَا؟ وَلَمَّا دَخَلَتْ غُرْفَةَ الدَّرْسِ، شَقَّتْ طَرِيقَهَا إِلَى مَكْتَبِهَا وَجَلَسَتْ دَائِخَةً.

انتشرَ الخَبْرُ بِسُرْعَةٍ. لَحِقَتْ بِهَا كَرِيسْتَالُ فِي اسْتِرَاحَةِ الغَدَاءِ وَأَرَادَتْ أَنْ تَعْرِفَ مِنْذُ مَتَى تَخْرُجُ مَعَ پاتريك. قَالَتْ غَرِيسَ إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَخْرُجُ مَعَهُ. ”نعم، صحيح. هَيَّا! أَخْبِرِينِي بِكُلِّ شَيْءٍ!“ أَصْرَّتْ غَرِيسَ عَلَى عَدَمِ وَجُودِ شَيْءٍ تُخْبِرُهَا بِهِ. شَخَّرَتْ كَرِيسْتَالُ. ”سَمِعْتُ أَنَّهُ أَقْلَكَ إِلَى البَيْتِ بَعْدَ انْتِهَاءِ نَوْبَةِ عَمَلِكَ فِي مَطْعَمِ مِيكِي دِي“.

أَحْسَتِ غَرِيسٌ، إِذْ لَهَّتْ، أَنَّ وَجْهَهَا يَسْخُنُ. ”مَنْ
أَخْبَرَكَ بِذَلِكَ؟“
”شَخْصٌ رَأَى كَمَا.“

انتشرت الإشاعات في الثانوية أسرع من الانزلاق
على منحدرٍ وحل، وشعرت غريس بالخزي إذ وجدت
نفسها في وسطها. رفضت أن تُجيب عن سؤال
كريستال، ولكن الفتاة كانت شرسةً في هجومها. ”إن
لم يكن من شيءٍ تُخبرين به، فلماذا يحقر وجهك؟
أما حدث شيءٌ بينكما بعد؟“

بعد؟! ”لقد أوصلي بسيارته إلى البيت. ذلك كلُّ
ما في الأمر. لقد أبدى لطفًا. ما حدث بيننا شيءٌ
قط.“ وتوجهت إلى الصف. فمشت كريستال بجانبها
وبلغتها النبا المثير عن پاتريك مور، سواءً أرادت
غريس أن تسمعه أم لم تُرد. ”لقد اصطحب لندساي
إلى اجتماعٍ شمل التلاميذ القادمي. هل تذكرين؟
حسنًا، ذهبنا طوال الطريق، ثم ألقاها كحجرٍ ساخنٍ
وخرج مع كمبرلي. لم يكن فنّا ناجحًا في اجتذاب
الفتيات، ولا فتى يُقبل ملكة المتخرجات ثم ينشر
الخبر، ولكن البنات يتحدثن.“. يحسنُ بغريس أن
تكون حذرة. أخيرًا، توقفت غريس مُحبطةً. ”لماذا
تُخبريني بهذا كله؟“

”لأنه كان يسأل عنك في حجرة الأدرج المقلّة
التي تخصّ الفتيان.“

”ثري، كيف عرفت ذلك؟“

”أخبرني ناثن.“

لم تُردِ غريس أن تتشبَّثَ بأملٍ زائفٍ بشأنِ باتريك مُور. وقد أحسنت صنعاً بالفعل إذ حدثت نفسها بذلك، حتى ظهرَ باتريك ثانيةً في المطعمِ يومَ السبت. أحضرَ فرضه المنزليَّ معه هذه المرَّة. ”سمعتُ أنك جيِّدةٌ في حسابِ التفاضلِ والتكامل.“ ساعدته في استراحاتها. أقلَّها إلى البيت بالسيَّارة مرَّةً أُخرى. تحدَّث بشأن أحلامه بالحُصول على منحةٍ تعليمية. سألت أين يريدُ أن يُتابعَ دراسته الجامعية. فقال في جامعة كاليفورنيا بسانتا كروز، ولكنَّ أباه قال إنها كئيبةٌ حزبية. وضحك باتريك. لقد أراد له أبوه أن يذهبَ إلى جامعة كاليفورنيا في بيركلي، ولكنَّه هزَّ رأسه. ”لستُ بذلك الذكاء.“ أصغت غريس إلى كلِّ كلمةٍ قالها طوالَ الطريقِ إلى الباب الأماميِّ في بيتِ خالتها. ثمَّ فاجأها من جديد. ”هل لي أن أخبرك؟“

”بالأكيد.“ أخرجت ورقةً لكتابة الملاحظات، كانت تُدوِّنُ أبيات شعرٍ عليها، وكتبت رقمَ تلفونِ خالتها ثمَّ نزعَت الورقة وناولته إيَّها. فتبسَّم إذ طواها ودسَّها في جيبِ قميصه، فوق قلبه.

اتَّصلَ بعدَ ليلتين، ولكنَّ الخالة أليزابث ردَّت على التلفون قبلما تمكَّنت غريس من الوصول إليه. رمقت

غريس بنظرة انزعاج. "أنا آسفة، پاتريك، ولكن غريس لا تستطيع أن تتكلم الآن تمامًا. إنها تُنجز فرضها المنزلي". مدت غريس يدها مع نظرة توسل، فأدارت خالتها ظهرها. "يُمكنك أن تراها غدًا في المدرسة". وأنهت المُكالمة.

أرادت غريس أن تصرخ. "لماذا فعلت ذلك؟"

"لأنني حسبته الأفضل. أنت في الخامسة عشرة

و..."

"أراد فقط أن يتكلم!"

"كيف تعرفين ما يُريده ذلك الفتى؟" وقد بدت

مُسَخطة.

"كل فتاة في المدرسة تموت كي يتصل پاتريك

مُور بها!"

"أذلك هو كل ما تُبالين به؟ شعبيته؟"

"لا! إنه ظريف! يُعجبني! وهو ذكي أيضًا."

"أه، أنا على يقين بأنه ذكي. يبقى أن يُرى كيف

يوظف ذكاهه". وغامت عيناها. "لا تنظري إلي هكذا.

لست مُحاولَة أن أدمر حياتك. أنا أحاول أن أعلّمك

شيئًا من الفطرة السليمة. لا تؤسسي قراراتك على

هُرمونات المُراهقة! لقد فعلت أمك ذلك، وانظري ما

جرى لها!"

أحست غريس كأنها لُكمت في معدتها. "لا شيء

مما أفعله سيكون أصلًا كافيًا في نظرك". وإذ

كافحتِ الدُّموع، دفعتِ كُرسيَّ المطبخِ إلى الوراء،
وجمعتِ كُتُبَها، وفرتِ إلى عُرفَةِ نومها. جلستِ
مُسندَةً ظهرها على اللوحة الرَّأسيَّة وضغطتِ بِعَقَبِي
يديها على عينيها. لم يُوقِفْ ذلكِ الدُّموع، ولكنها
استطاعتِ أن تُفكِّرَ من جديد.

قالتِ مِسز سِپنسر دائماً أن تُصَلِّي حينَ تسوءُ
الأُمور. وإذ مسحتِ غريس وجهها، سكبتِ قلبها. هل
تنوي أن تُسامِحنِي يوماً من أجل ما جرى لِأُمِّي؟

جاء الجوابُ كِذراعٍ تُطوِّقُ كِتفِيها وهَمِسَ لطيف.
ما أقلقُ الخالةَ أليزابث لم يَكُنْ غلطةَ غريس. اهدأي
وانتظري. أنا أَحِبُّكِ، وأنا هُنا. أنا دائماً هُنا. مسحتِ
دموعها، والتقطتِ كتابَ التَّربيةِ المَدنيَّة، وركَّزتِ على
ما ينبغي لها أن تُنجزَه.

ظَهَرَ پاتريك مُور عندَ دُرجِ غريس المُقفَلِ في
الصُّباحِ التَّالي. وفي ما بعد، عَضَرَ النَّهار، ظَهَرَ في
المطعم. ”ألقي نظرة“ وابتسمَ ابتِسامةَ عريضةٍ إذ
ناولها ورقةَ عَمَلِ حِسابِ التَّفاضُلِ والتَّكاملِ التي
أنجزها. لقد نالَ علامةَ مئةٍ من مئةٍ ومُلاحظةً من
مِستر أدرشائيم: ”إنجازٌ مُمتاز!“ ضحكَ پاتريك
بانْتِصار. ”أنتِ مُعلِّمةٌ أفضلُ منه“. فهل كانتِ غريس
مُستعدَّةً لِمساعِدتهِ ثانيةً؟

رَنَّ جَرَسُ إنذارِ خفيفٍ داخلَ رأسِ غريس. أكانَ
حِسابُ التَّفاضُلِ والتَّكاملِ هو السَّببُ الوَحيدُ لِلجِدِّ

في طلبها؟ أم كان حساب التفاضل والتكامل ذريعةً
لأنه مُعجَبٌ بها فعلاً؟



ما إن ركَّز پاتريك انتباهه على غريس، حتَّى حسبَهما
كُلٌّ من في المدرسة ثنائياً. كان يُرافقها إلى عُرفةِ
الدَّرس ويقعدُ معها في استراحةِ الغداء. غالبًا ما
شُوهدا معًا في المكتبة، مُنحنيين فوق الكُتب
المدرسيَّة ومُتحدِّثين همسًا. كان لغريس دائماً صيِّثٌ
بكونها فتاةً جميلةً ذات عقل، ولكن لما ارتفعت
علاماتُ پاتريك بات يرى أكثرَ من مُجرَّدِ فاريس
وسيم. ما زالتِ الفتياتُ يُلاحِقنَه، ولكنَّه لم يفعل أيَّ
شيءٍ حيال ذلك. لا شيئاً سمعت به غريس مرَّةً، على
كُلِّ حال.

كلَّما دعت غريس پاتريك إلى الكنيسة، كان لديه
دائمًا شيءٌ ما آخرُ جارياً. رافقها إلى خدمة يوم
الجُمعة العظيم وأمسك يدها في ضوءِ الشُّموع
الباهت حتَّى رمقتَهما الخالَّة أليزابث بنظرةٍ شرسة.
ضغَطَ على يدها وأفلتَها. ولما طلبَ پاتريك أن تُرافقه
إلى حفلة تخرُّج المرحلة الثانويَّة، لم تُظنَّ أنَّ الخالَّة
أليزابث ستسمحُ لها بالذهاب، ولكنَّها فاجأتَهما كليهما.
”لك أن تصطحبها بشرط أن تكونَ في البيت قبلَ
الساعةِ الحادية عشرة.“ بدا على استعدادٍ للمُجادلة
بشأنِ ”حَظرِ التَّجوُّل“ ولكنَّ نظرةً واحدةً إلى غريس

أسكته. في ما بعد، قالت الخالة أليزابث لغريس إنها ستضطر إلى دفع ثمن فستانها بنفسها، ولا يمكن سحب الثمن من حسابها التوفيري المخصص للدراسة الجامعية. عثرت غريس على ثوب أخضر بعشرة دولارات في متجر "جيش الخلاص" الاقتصادي، وأضافت قرطين من حجر الزاين كانت قد اشترتهما بدولارين.

بدا باتريك مثل عارض أزياء في سترته التاكسيدي، وكان يتقن الرقص. راقص غريس وسهل عليها مجاراته. وقد خالجتها رجفة كلما قاربها. لم يكن قد قبلها قط، ولكنه فعل ذلك الليلة. "يعجبني ألا يكون أحد سواي قد قبلك". تورّد خذاها وغمرها الحياء.

مسّت يدها صدره، فسرت في أوصالها ريشة خشية خفيفة إذ أحست كم كان قلبه يخفق بشدة وكم كان دافئًا. تراجع قليلاً وراح يتأملها، ثم تفوه بالقاعدة الملوكية: "حسنًا، أنت على حق. لسنا نريد أن نسلك السبيل الذي يسير فيه كثيرون جدًا".

لم تدر غريس هل كان خائبًا أو مُراحًا.

لما حلت غطلة الصيف، طار باتريك عائداً إلى كولورادو سيرنغز. اتّصل بها مرّتين أوّل أسبوع. كان يُقيم مع أصدقاء، ويقضي وقتًا ممتعًا. لم يعلم متى سيرجع. ولم تسمع منه أيّ خبرٍ من جديد. وفي

مُنْتَصِفِ تَمُّوزِ، دَخَلَ مَطْعَمَ مَآكِدُونَالِدِ وَهُوَ يَبْدُو
مَسْرُورًا. لَقَدْ عَادَ تَوًّا. أَبَدِي أَسْفَهَ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَّصِلْ، وَلَكِنَّهُ
كَانَ فِي رَحْلَةٍ فِي جِبَالِ رُوكِي مُتَنَقِّلًا بِحَقِيبَتِهِ
الظَّهْرِيَّةِ، وَلَيْسَ مِنْ اسْتِقْبَالِ خَلْوِيِّ هُنَاكَ. ”تَعَرَّضْنَا
لِعَاصِفَةٍ! سَأخْبِرُكَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَفْرغِينَ
مِنَ الْعَمَلِ“. لَقَدْ سَلَّمَ جَدًّا بِأَنَّهَا مَا بَرِحَتْ تَنْتَظِرُهُ
طَوَالَ هَذِهِ الْأَسَابِيعِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّهَا كَانَتْ كَذَلِكَ.

مِقَارَنَةً بِپَاتْرِيكِ، كَانَتْ حَيَاتُهَا رَوْتِيْنَا مُمَلًّا.
اسْتَمْتَعَتْ بِسَمَاعِهِ مُتَحَدِّثًا عَنِ التِّقَائِهِ ذُبًّا مِنْ كُتُبِ،
وَكَمِ اصْطَادَ مِنَ السَّمَكِ فِي جَدْوَلِ جَبَلِيٍّ، وَكَيْفَ كَانَ
مَذَاقُ الْأَسْمَاكِ بَعْدَ شَيْئِهَا عَلَى نَارِ مَكْشُوفَةٍ. وَاسْتَمْتَعَتْ
بَابْتِهَاجِ إِذْ تَحَدَّثَتْ عَنِ اضْطِرَارِهِ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ فِي
إِنْقَازِ وَاحِدٍ مِنْ رُفَقَائِهِ بِهَبُوطِهِ جُرْفِ جَبَلٍ بِوَاسِطَةِ
حَبْلِ مُزْدَوِجٍ. وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا أَنْ
تَتَحَدَّثَ بِشَأْنِهِ كَانَ رِوَايَةَ ”وَفَاةٌ فِي الْعَائِلَةِ“ لِجِيمَسِ
أَيْجِي، وَ ”أَنْطُونِيَايِ“ لِوِلَا كَاثِرِ، وَ ”الْمَازِقُ ٢٢“
لِجُوزِفِ هَلَرِ، وَأَرْبَعَةٌ كَثِيرَةٌ أُخْرَى أَوْ خَمْسَةٌ قَرَأْتُهَا مِنْ
لَائِحَةِ التَّمْهِيدِ لِلْجَامِعَةِ. وَقَدْ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُلَاحِظَ
مَتَى فَقَدَ پَاتْرِيكِ الْإِهْتِمَامَ، فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ أَسْئَلَةً
إِضَافِيَّةً. وَكَانَ مُمَكِّنًا أَنْ يَتَحَدَّثَ پَاتْرِيكِ سَاعَاتٍ
بِشَأْنِ بَرَارِي كُولُورَادُو.

أَدْخَلَتْ سَنَةَ التَّخْرُجِ تَغْيِيرَاتٍ عَلَى عِلَاقَتَيْهِمَا.
أَمْضِيَا فِي الدَّرْسِ وَقْتًا أَكْثَرَ مِنْ وَقْتِ الْخُرُوجِ. كَانَا

كلاهما بحاجة إلى منحة تعليمية. ووجه باتريك
طاقته إلى كرة القدم وانسحب من كرة السلة. "لست
طويل القامة كفاية للانضمام إلى فريق جامعي".
أحرزت غريس علامة معدّل عامّ كاملة، ولكنّ خالتها
أصرت على أنّها تحتاج إلى مزيد من الأنشطة
الأمّنهجية والخدمة الأهلية لأجل طلبات المستوى
الجامعي. تساءلت غريس هل كانت خالتها مُصمّمة
على ملء كلّ ساعة من ساعات يقظتها حتى لا يبقى
لها أيّ وقت لتكون مع باتريك. فأنقصت عشر ساعات
أسبوعياً في مطعم ماكدونالد لتتيقن بالأّلا يحصل
ذلك، ثمّ تطوّعت في برنامج المكتبة المحليّة
لمكافحة الأمّية. وتولّت تعليم الصّف الابتدائي الثالث
في مدرسة الأحد، وأمضت بعد ظهر كلّ يوم أحد في
مصحّ النّاقهين المحليّ ملبيّة طلبات الممرّضات، ممّا
عنى عادةً الجلوس والاهتمام بمرضى الخبل
المضطربين الذين لا يزورهم أحدٌ إطلاقاً.

لدى التّخرّج، كانت الخُطّط قد حلّت في مَواقِعها.
سيَتلقّى باتريك منحةً جزئيةً ليلعب كرة القدم في
جامعة كاليفورنيا بلوس أنجليس. كان أبواه قد وفّرا
بعض المدّخرات، ولكنّ ما زال عليه أيضاً أن يشتغل
بِدوامٍ جزئيّ خارج مَواسِم اللّعب. أمّا غريس فتأهّلت
لبضع منّح وتلقّت رسالتي قبول من بيركلي وجامعة
كاليفورنيا في لوس أنجليس. وإذا حافظت على
علاماتها العالية، فسُتضطرُّ فقط لأنّ تشتغل عشرين

ساعةً في الأسبوع، فضلًا عن الصيف، حتى تتخرّج
غيرَ مديونة. وقد قرّرتِ الذهابَ إلى جامعة
كاليفورنيا بلوس أنجليس.

أخرجتِ الخالةُ أليزابثَ المجرّفة، وذهبتِ كي
تشتغلَ في الفناء الخلفيِّ. وقفتِ غريسُ داخلًا تُراقبُ
خالَتها من خلالِ البابِ الزُّجاجيِّ المُنزلقِ. انقضتِ
الخالةُ أليزابثَ على الأرضِ بضراوةٍ، قابِلةً التُّربة. لم
يكنَ عليها أن تسألَ ما الذي أغضبَ خالَتها هذه المرّة.
”مَن كان أحمقَ فقط يتخلّى عن بيركلي من أجلِ
لوس أنجليس“. كانتِ الخالةُ أليزابثَ غاضبةً جدًّا
حتى اغزورقتِ عيناها. ”مهما قلتُ أو فعلتُ، يؤولُ
الأمرُ دائمًا إلى حالٍ واحدة! سأعقلُ باجتهد، خالتي
أليزابثُ“.

”أه، أعرفُ ذلك“. بدتِ عليها سيماءُ كَرِبٍ لم
تفهمها غريسُ.

ذلكَ الصَّيفَ الأخيرَ، قلّما رأى پاتريكُ وغريسُ
أحدَهما الآخرَ. لم يظهرَ في مطعمِ مكدونالد. تساءلتِ
هلِ تسلّمَ وظيفة. حاولتِ مُوجعةً أن تُخرجهُ من
بالها. لم تسألِ الخالَةَ أليزابثَ ولم تقلِ أيَّ شيءٍ عنه.

انتقلتِ غريسُ إلى مهاجعِ الجامعة، واشتغلتِ
عشرَ ساعاتٍ أسبوعيًّا في مقهى داخلِ الحرمِ
الجامعيِّ ليَتوافقَ لها قليلٌ من المالِ الإضافيِّ. وقد
نجحتِ في دروسها. التقتِ پاتريكَ مُصادفةً ذاتَ

مرّة. كان قد احتقر الفهاجِعَ واستأجرَ شقّةً صغيرة،
عالمًا أيضًا أنّه سوف يكونُ قد استنفدَ جميعَ
مُدّخراتِ أبويه عندَ انتهاءِ السّنة الجامعيّة. كان
مُسْتَعجِلًا ولم يتحدّثا طويلاً. مرّ شهران، ثمّ اتّصل.
كان يخوضُ صراعًا مع علاماته. أصغت إليه. أخبرها
كم كان مُوحشًا. هي أيضًا كانت مُوحشة. وقال لها
كم افتقدَ الوجودَ معها. قالت إنّهُ يُمكنُ أن يتلاقيا في
المكتبة ويدرسا معًا كما اعتادا أن يفعلا في المرحلة
الثانويّة. فقال إنّهما سيُنجزانِ المزيدَ إذا جاءت إلى
شقّته. علّمت أنّ تلكَ لم تكن فكرةً جيّدة، ولكنّه بدا
كئيبيًا، فوافقت.

ذلكَ اليومَ الأوّل، قبلاً أحدهما الآخر مرّةً واحدة.
في اليوم الثّالي، استطاعا أن يدرّسا بِضعِ ساعاتٍ
قبل أن يسترخيا. وفي المرّة الثّالية، استرسلَ
پاتريك. ”أنا أحبُّك كثيرًا جدًّا. لقد أحببتُك منذ دخلتُ
مطعمَ ماكدونالد ورأيتُك. أنا بحاجةٌ إليك، غريس. لا
تصدّيني“.

اعتقدت غريس أنّها أحبّته هي أيضًا، ولكنّها علّمت
أنّ الثّمادي كانَ خطأً. واستطاعت أن تسمعَ همسًا في
مؤخّرِ ذهنها. ليس هذا ما أريدُه لك، يا محبوبّة.
غادري هذا المكان.

حاولت أن تنصّرف، ولكنّ پاتريك تشبّث بها.
خالجها شعورٌ بالذنب من أجلِ تهاوُنِها. وقبل أن تعقدَ

عزمها، سبق السيف العذل. "لنتزوج! نحن كبيران كفاية. غريس، لا أطيق الحياة بعيدًا عنك". ثم غرز أصابعه في شعرها، وقال لها متوسلاً: "لا تقولي شيئًا لخالتك".

لم تُرد غريس أن تفكر في ما جرى. لم تُرد أن تحلل ما كانت تشعر به آنذاك. أهي فقاعة دُعر؟ الشعور بأنها عند تقاطع طريق وثوشك أن تنعطف انعطافاً خاطئاً أخرى؟

أغلقت غريس ذهنها حيال الصوت المبتكت. لا يهمني. هو يحبني. هكذا قال. وما كان قد كان. أرادت أن تحب. أكان ذلك خطأ فادحاً؟ "نعم، لنتزوج!" لعل كل شيء سيكون عندئذ كما يُرام تماماً.

لم تُفاجأ عائلة پاتريك لما اتصل مبلغاً خبرَ زهابهما إلى لاس فيغاس بدل إقامة عرس في فرسنو. ما كان ممكناً أن يكون بايزن مور أكثر دعماً. "ستقول أليزابث إنكما صغيرا السن جداً، ولكنكما وفرثما عليها مبلغاً كبيراً من المال". وضحك. "وأنا أعتقد أن ابني يعرف فكره".

اقترح آل مور إقامة حفلة استقبال في عطلة الربيع. وافق پاتريك. لا بُدَّ أن الأصدقاء يريدون أن يُقدّموا هدايا ومالاً.

كان على غريس أن تستجمع شجاعته كي تتصل

بِالْخَالَةِ أَلِيْزَابِثَ لِتُبَلِّغَهَا خَبْرَ زَوَاجِهَا مِنْ يَاطْرِيْكَ.
وَحَبَسَتْ نَفْسَهَا، رَاجِيَةً أَنْ تَقُوْلَ خَالَتُهَا شَيْئًا مُّظْمِنًا.
أَطْلَقَتِ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثَ تَنْهَدَةً هَزِيْمَةً وَقَالَتْ: "لِمَاذَا
لَمْ أَفَاجَأُ؟" قَبْلَ أَنْ تُنْهِيَ الْمُكَاَلِمَةَ.

الفصل ١٥

لاقت غريس بريان صباح السبت. حضر أيضا ستة راشرين آخرين للإشراف على نزهة المراهقين في شاطئ زوما. ساق تشارلي، أحد شامسة الكنيسة، الحافلة فيما تحدثت بريان مع الفتيان. كان قد حمل أيفون بترانيم حماسية. اعتقدت المراهقات الجالسات وراء غريس أن صمويل فاتن. التفتت غريس على مقعد الحافلة جانبا لتتمكن من حمله في أثناء التحدث معهن. سألت إحداهن غريس هل هي السيدة التي خرجت إلى مطعم لاوري مع المرشد بريان. أقرت غريس بأنها هي.

مالت إلى الأمام فتاة جميلة ذات حاجب مثقوب وعلى عنقها وشم فراشة. "إنه رائع جدا. أيتها فتاة تريد أن تكون صديقتي".

أرادت أن تخمد أيتها إشاعة. "المرشد بريان لطيف جدا. ونحن صديقان. لهذا السبب جئت معكم كي أساعد اليوم".

تشاركت المراهقتان في نظرةٍ باسمِةٍ وغيَّرتا الموضوع.

ما إن انعطَفَ السَّائِقُ بالحافلةِ إلى موقِفِ الشَّاطِئِ، حتَّى عَيَّنَ بريانُ مُراهِقينَ للمُساعدةِ في إنزالِ المَوْنِ وَحَجَزِ مكانٍ للشَّواءِ. ”لا مُتَهَرِّبينَ! ساعدوا بعضُكم بعضًا“. وقد اشتغَلَ باجتهادٍ أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخر. كان الوقتُ باكراً والجوُّ مُنَسِّماً وبارداً، ولكنَّ هُوَاةَ الشَّاطِئِ كانوا قد بدأوا يَصِلونَ فعلاً. سيتبدَّدُ البَرْدُ عاجلاً وتُشرقُ الشَّمْسُ، ويزدحمُ الشَّاطِئُ. تدمرتِ الفتياتُ من أجلِ شعورهنَّ بالبَرْدِ. كلَّفَ بريانُ بعضَ الفتيانِ أن يُساعدوه في نَصِبِ شبكَةِ للكرةِ الطائرة، وباشَرَ مُباراةً. وفي غُضونِ دقائق، خُلِعَتِ الكَنزاتُ الفضاضة.

أقبلتِ بضعُ فتياتٍ على غريسِ وسألنَّها هل يستطعنَ أن يحمِلنَ الطِّفْلَ. وإذ رأتِ غريسُ أنَّ صمويلَ كان مسروراً جداً معهنَّ، انضمتِ إلى المُباراةِ. عندَ الظُّهرِ، ارتفعتِ الشَّمْسُ في السَّماءِ وحميت، وتلاأتِ أجسامُ الجميعِ بقرهمِ الوقايةِ من الشَّمْسِ. ركبَ بريانُ والفتيانُ الأمواجَ وتناوبوا على اعتلاءِ ألواحِ ركوبِ الموجِ. لم يُردِ مُعظَمُ الرّاشدينَ أن يُبللوا أقدامهم. خاضتِ غريسُ الماءَ حتَّى الرُّكبتينِ، حاملةً صمويلَ أمامها بحيثُ تسنى له أن يُحسَّ الماءَ المالحَ المُزِيدَ مُدغِداً أصابعَ قَدَميه. وقد رَفَسَ برجليه،

صائِحًا بابتهاج. ضَحِكْتَ غريس، شاعِرَةً بالسُّرور أوَّلَ مرَّةٍ منذُ شُهور.

”يُرِيدُ أن يسبِّحَ من الآن.“ انضمَّ بريان إليها.

قضاءً يومٍ تحتَ الشَّمسِ جعلَ المُراهقينَ مَرِحِينَ ومُستعدِّينَ للمُحادثةِ في طريقِ العودَةِ. أُعجِبَت غريسُ بطريقَةِ تواصُلِ بريانِ مع ”صِغاره“. لقد مازَحَهُم وحوَّلَ بِسُهولةٍ المُحادثةَ الخفيفةَ إلى المُباحثةِ الأكثرِ جِدِّيَّةِ في شؤونِ الإيمانِ وما يَعنيه السَّيرُ معَ اللهِ. ولدى طَرحِ أسئلةٍ مُحدَّدةٍ عليه، تحدَّثَ بصِراحةٍ بشأنِ صِراعاتِهِ وأخطائِهِ. وقد فوجئتُ غريسُ إذ أصغَتِ إليه يتحدَّثُ بشأنِ العَلاقاتِ وتحديِّ المُحافظةِ على العَفافِ حتَّى الزَّواجِ. غايَظَهُ بعضهم أوَّلَ الأمرِ، ولكنَّ عددًا قليلًا تبادَلوا نَظراتٍ بلَّغَتِ غريسَ أنَّهم رُبَّما جاوَزوا الحدَّ أصلاً.

”جميعُ أصدقائنا يُقيمونَ عَلاقاتٍ، حضرةُ المُرشِدِ“.

”قد يبدو الأمرُ كذلك.“ ألقى بريانُ ذِراعَهُ على أعلى ظَهرِ المقعدِ. ”كان الجميعُ يقولونَ إنَّه لا بأسَ بذلكِ، في أيَّامِ أيضًا.“ وقالَ عددٌ منهم إنَّ العَلاقاتِ لم تُعدْ أمرًا خَطرًا. ما دامَ الطَّرَفانِ مُوافقينَ، فليسَ ذلكَ شأنَ أيِّ شخصٍ آخر. فقالَ بريانُ بِحزمٍ. ”إنَّه شأنُ اللهِ! لا تخذعوا أنفُسَكم. ما برِحَتِ العَلاقاتُ كلَّ حينٍ أمرًا خَطرًا. فلاخبرُكم بما تعلَّمْتُهُ.“ حظيَ بكاملِ

انتباههم. ”الفتيات يعبثن بالعلاقات ليحصلن على الحب، والفتيان يعبثون بالحب ليحصلوا على العلاقات. شارلين وأنا أردنا أن نفعل كل شيء على طريقة الله. وقد عنى ذلك أن نبقى عفيفين حتى تزوجنا“.

سأل فتى من المؤخر: ”كيف تأتى لكما ذلك؟“ وتفوّه آخز بجوابٍ فجّ، فطلبت منه فتاة أن يطبق فقه.

رفع بريان يده. ”سأل برادي سؤالاً. كيف تأتى لنا أن نبقى عفيفين؟ قزينا موعدا الزواج“. ضحك المراهقون جميعاً حيال ذلك. ”تزوجنا ونحن بعد في الجامعة. قضينا مئة سنين عظيمة قبلما فقدتها في حادث سير. أي من نظر إلى وجهه، فلا بد أن يعلم أنه ما زال يحبها ويفتقدّها.“ ما أحاول أن أقوله لكم هو أن العلاقات جبارة. في الإطار الصحيح، هي عطية جميلة من الله. فإذا استعملت بالطريقة الخاطئة، يمكن أن تجرح القلوب وتفطرها. يمكن أن تدمر الحياة“.

في وسع غريس أن تشهد لذلك. انتقل الحديث إلى المخدرات وإقامة الحفلات والموسيقا والآباء والأمهات. ثم مشى بريان إلى الأمام وتكلّم إلى الشّمس الذي يسوق الحافلة. ومن ثمّ واجه المجموعة. ”من جائع؟“ فارتفعت الأيدي،

وابتسم بريان ابتسامةً عريضةً. "ذلك جيّد، لأننا سنتوقّف لتناول البيتزا". فعلا الهتاف والترحيب.

انعطفت الحافلة إلى موقفٍ واحدٍ من مطاعم بيتزا "راوند تيبيل"، فترجّل الجميع وتوجّهوا إلى الدّاخل. جلست غريس مع فتاتين، فيما تنقل بريان من طاولة إلى طاولة، مُتحدّثًا إلى الفتية والفتيات. كان فتى من غير مجموعتهم جالسًا إلى طاولة قريبة. فتوقّف بريان وتحدّث إليه أيضًا. وبعد دقيقتين، زلّ إلى المقعد المُقابل له. فكّرت غريس في رومان. لقد كان هو أيضًا مُستوحّدًا، وإن أمكنّ التّقرب منه على خلاف ما بدا أوّل الأمر.

كان المُراهقون هادئين في رحلة العودة إلى الكنيسة. نام بعضهم، وتحادث آخرون بأصوات خفيضة. نام صمويل في حضن غريس، ورأسه على صدرها. نظر بريان إليه وابتسم لها. "لا شيء مثل نوم الأبرياء". ومال فمه. "تلّقينا توًّا خبرًا انتظارنا مولودًا لَمّا تعرّضت شارلين للحادث. لو جاء طفلنا، لكان عمره أربع سنين تقريبًا الآن".

"أنا آسفة جدًا من أجل خسارتك، بريان". لم تدر غريس ما تقول بعد.

"لا يُمكن أن تحسبي أيّ شيء في الحياة أمرًا مُسلّمًا به". ولانت قسمائه. "سُررت بمجيئك معنا اليوم. لقد شغف بك المُراهقون".

”شَغِفُوا بِصَمَوِيلَ“.

”هُوَ فَاتِنٌ صَغِيرٌ“. ثُمَّ نَهَضَ وَتَحَرَّكَ مِنْ جَدِيدٍ،

مُتَّفَقًا الْجَمِيعَ شَخْصًا شَخْصًا.

مَا إِنْ دَخَلَتِ الْحَافِلَةُ مَوْقِفَ الْكَنِيسَةِ، حَتَّى جَمَعَ التَّلَامِيذُ مَنَاشِفَهُمْ وَحَقَائِبَهُمْ وَلَاقُوا أَهْلَهُمْ فِي مَوْقِفِ السَّيَّارَاتِ، أَوْ تَوَجَّهُوا إِلَى سَيَّارَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ. انشَغَلَ بَرِيَانُ بِالتَّحَدُّثِ إِلَى الْكِبَارِ وَالتَّيَقُّنِ بِأَنَّ الْجَمِيعَ أَمَّنُوا إِقْلَالَهُمْ إِلَى بِيوتِهِمْ. ثَبَّتَ غَرِيْسَ صَمَوِيلَ عَلَى مَقْعَدِهِ الْخَاصِّ فِي السَّيَّارَةِ. وَلَمَّا اسْتَقَامَتِ، انضَمَّ بَرِيَانُ إِلَيْهَا. ”أَرْجُو أَنْ تَكُونِي قَدْ اسْتَمْتَعْتِ بِوَقْتِ طَيِّبٍ“.

رَفَعَتْ نَظْرَهَا إِلَيْهِ مُبْتَسِمَةً. ”بِالْأَفْضَلِ مِنْذُ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ“.

”يَسُرُّنِي سَمَاعُ هَذَا. لَمْ نَقِضْ وَقْتًا مَعًا بِقَدْرِ مَا رَجَوْتُ أَنَا آسِيفٌ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ“.

لَمْ يَقْضِيَا مَعًا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ دَقَائِقَ كُلَّ مَرَّةٍ طَوَالَ النَّهَارِ، وَلَكِنَّهَا أَمَضَتْ مُعْظَمَ النَّهَارِ مُرَاقِبَةً بِرِيَانِ هِنَلِي، وَتَعَلَّمَتِ الْكَثِيرَ عَنْ نَظْرَتِهِ إِلَى النَّاسِ وَمُعَامَلَتِهِ لَهُمْ. حَتَّى الْغُرَبَاءُ مِثْلُ الْفَتَى الَّذِي كَانَ جَالِسًا وَحْدَهُ إِلَى طَاوِلَةٍ فِي مَطْعَمِ الْبِيْتَزَا. ”بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَجْمُوعَتِكَ أَلْفَةٌ عَظِيمَةٌ، بَرِيَانُ. إِنَّهُمْ يُصْغَوْنَ إِلَيْكَ وَيَحْتَرِمُونَكَ“.

لَقَدْ كَانَ وَاضِحًا أَنَّهُ كَسَبَ الْإِصْفَاءَ وَالْاحْتِرَامَ كِلَيْهِمَا.

”صَمَوِيلُ أَيْضًا تَمَتَّعَ بِوَقْتِ طَيِّبٍ“. ضَحِكَتْ.

”وَجَمِيعُ أَوْلَادِكَ الْمُرَاهِقَاتِ الْجَمِيلَاتِ حَائِمَاتٌ حَوْلَهُ“.

”حُلْمٌ كُلُّ فَتَى!“

”تَوَسَّلْتُ إِلَيَّ عَشْرُ جَلِيسَاتٍ أَطْفَالٍ لِأَجْلِ الْعَمَلِ“.

”وَجَمِيعُهُنَّ يَتَمَنَّيْنَ أَنْ يَكُونَ فِي عَهْدَتِهِنَّ طِفْلٌ

صَغِيرٌ رَائِعٌ مِثْلَهُ تَمَامًا“.

”عَلَى أَمَلٍ إِلَّا يَكُونَ ذَلِكَ فِي الظُّرُوفِ عَيْنِهَا“.

تَكَلَّمْتُ بِلا تَفْكِيرٍ، وَاحْمَرَّ وَجْهُهَا. وَلَمَّا نَظَرَ بَرِيَانُ إِلَيْهَا،

رَفَعَتْ كِتْفَيْهَا. ”لَمْ نَكُنْ كُلُّنَا حُكَمَاءَ عَلَى غِرَارِكُمْ أَنْتَ

وشارلين“.

”أَذَلِكَ شَيْءٌ مَا تُرِيدِينَ أَنْ نَتَحَدَّثَ بِشَأْنِهِ؟“

هَلْ كَانَ يَلْبَسُ قُبْعَةَ الْمُرْشِدِ الَّتِي لَهُ؟ ”لَيْسَ

الْيَوْمَ“. رُبَّمَا بَتَاتًا. فَالكَثِيرُ تَوَقَّفَ عَلَى مَدَى تَقَدُّمِهَا،

هِيَ وَبَرِيَانُ، بِصُورَةٍ حَسَنَةٍ.

لَمْ يُلَخَّ بَرِيَانُ. ”أَحِبُّ أَنْ أَرَاكَ ثَانِيَةً، خَارِجَ

الْأَنْشِطَةِ الْكَنْسِيَّةِ“.

”أَحِبُّ ذَلِكَ أَنَا أَيْضًا“. فَتَحَتْ غَرِيْسُ بَابَ السَائِقِ

وَزَلَّتْ إِلَى الْمَقْعَدِ. وَضَعَتْ الْمِفْتَاحَ فِي الْمُشْعَلَةِ

وَأَنْزَلَتْ النَّافِذَةَ. وَإِذْ كَلَّبَتْ حِزَامَ مَقْعَدِهَا، رَفَعَتْ

نَظَرَهَا إِلَى بَرِيَانِ. ”شُكْرًا لَكَ عَلَى دَعْوَتِي إِلَى

مُرَافَقَتِكُمْ الْيَوْمَ“.

وَضَعَ بَرِيَانُ يَدَيْهِ عَلَى الْبَابِ وَانْحَنَى. ”سَرَّنِي

تَمَكُّنِكَ مِنَ الْمَجِيءِ. مَا قَوْلُكَ فِي تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ مَعًا

مَسَاءَ الْاِثْنَيْنِ؟ إِنَّهُ يَوْمٌ غُطِّلْتِي. سَأُصْطَحِبُكَ مِنْ

مَنْزِلِكِ؟ كُلُّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ الْعُنْوَانُ“. وَإِذْ سَرَّهَا ذَلِكَ، زَوَّدَتْهُ بِالْمَعْلُومَاتِ. مَا كَانَتْ قَدْ تَوَقَّعَتْ مِنْهُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهَا الْخُرُوجَ مَعَهُ عَاجِلًا هَكَذَا، لَا سَيِّمًا بَعْدَ مُمْلِحَاتِهَا الْمُتَهَوِّرَةِ. أَخِيرًا تَرَاجَعَ قَائِلًا: ”سُوقِي بَانْتِبَاهَ. سَأُرَاكِ بَعْدَ غَدٍ“.

حَتَّى لَدَى هَذَا التَّعَارُفِ الْقَصِيرِ، أَحَسَّتْ غَرِيسٌ يَقِينًا أَنَّ بَرِيَانَ يَتَحَلَّى بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ الَّتِي حَلَمَتْ بِهَا فِي زَوْجِ مُسْتَقْبَلِيٍّ وَأَبٍ لِبِنْتِهَا: رَجُلٌ يُطِيعُ اللَّهَ وَيَخْدُمُهُ، صَادِقٌ، يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، ذَكِيٌّ، جَذَابٌ. شَخْصٌ لَطِيفٌ ظَرِيفٌ، شَخْصٌ يَحِبُّ الْأَوْلَادَ، شَخْصٌ يَشْتَغِلُ لِكَسْبِ مَعِيشَتِهِ. لَمْ تَكُنْ مُنْجَذِبَةً إِلَيْهِ جَسَدِيًّا، وَلَكِنْ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ أَمْرًا حَسَنًا. فَهِيَ لَمْ تُرِدْ لِلْعَاطِفَةِ أَنْ تُغَشِّيَ حُكْمَهَا.

يَا رَبُّ، بَرِيَانَ هُوَ رَجُلٌ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ بِهِ يَوْمًا مَا، إِذَا تَزَوَّجْتُ ثَانِيَةً أَصْلًا. إِنَّهُ شَابٌّ صَالِحٌ، صُلْبٌ، جَدِيرٌ بِالثِّقَةِ، ظَرِيفٌ، فِي وَسْعِهِ أَنْ يُحِبَّ امْرَأَةً مَا رُغِمَ أَخْطَائُهَا وَإِخْفَاقَاتُهَا الْفَاضِحَةَ. شَخْصٌ مِثْلُ بَرِيَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يُحِبَّ صَمُوِيلَ كَابِنٍ لَهُ. لِذَلِكَ أَطْلُبُ. إِذَا كَانَتْ هَذِهِ خُطَّتْكَ، يَا رَبُّ، فَأَوْضِحْ لِي الْأَمْرَ، رَجَاءً. أَنْتِ تَعْلَمُ كَمْ يُمَكِّنُ أَنْ أَكُونَ حَمَقَاءً، وَعَمِيَاءً حِيَالِ حَقِيقَةِ النَّاسِ. رَجَاءً، رَبُّ، أَحْمِنِي. لَسْتُ أُرِيدُ أَنْتِ أَنْتَقِي الشَّابَّ الْخَاطِيَّ ثَانِيَةً.



استيقظ رومان متأخرًا، رأسه ينبض بقوة، وهو عطشان. وإذ بات مُستيقظًا الآن، أراد أن يرجع إلى ثوينغا كانيون. حلق وجهه في الحمام، واتصل بمستخدم المراب لإحضار سيارته. ألقى ثيابه وعبء زينته داخل حقيبته، ثم أقفلها بالسحاب وعلقها على كتفه. انتقى كوب قهوة بخمسة دولارات من آلة البيع في ردهة الفندق وانطلق خارجًا منه. غريس تُعد قهوة أفضل. السبت والأحد كانا يومي عطلتها. سيكون عليه أن ينتظر حتى صباح الاثنين ليُشرب فنجان قهوة طيبًا.

حل عصر النهار قبلما أدخل رومان سيارته إلى المراب. كان بريده في المطبخ، حيث كانت الرسائل مفتوحة ومكدسة بترتيب حسب تسلسلها الزمني، وقد ألصقت وريقات ملاحظات على التبليغات الأهم التي تحتاج إلى عنايته الشخصية. وكانت غريس قد رصدت حساباته وتركت تقرير كمبيوتر عن مدخوله ومصاريفه، حيث دُون كل شيء بترتيب ضمن خانات. لا بُد أن يُعجب بعملها مُحاسب ضرائب رومان.

في طريقه إلى غرفة نومه، رأى غرفة الضيوف، فتراجع خطوة. لقد نسي أنه أوصى غريس بتجهيز الغرفة بالأثاث. كانت قد اختارت سرير مزلجة من

خَشَبِ المَاهُوغَانِي، وَمِنْضُدَّتِي سَرِيرِ بِمَصَابِيحِ،
وَمِزِينَةً عَالِيَةً. لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى أَثَاثِ غُرْفَةِ النَّوْمِ، بَلْ
أَضَافَتْ كُرْسِيًّا مُرِيحًا، وَمِصْبَاحَ قِرَاءَةٍ، وَبِسَاطًا
عَجْمِيَّ الطَّرَازِ. حَظَّ رُومَانِ حَقِيبَتُهُ فِي الزَّوَاقِ وَدَخَلَ
لِيَتَفَرَّجَ. أَغْطِيَةٌ بِأَلْوَانِ زَرْقَاءَ وَخَضْرَاءَ وَمَسْحَاتٍ
حَمْرَاءَ وَصَفْرَاءَ، لَكِنْ بِلَا زَخْرَفَةٍ. كَانَتْ الْغُرْفَةُ تَتَّسِمُ
بِالزُّجُولِيَّةِ دُونَ أَنْ تَكُونَ ذُكُورِيَّةً. وَكَانَتْ غَرِيْسٌ قَدْ
عَلَّقَتْ طَقْمِي مَنَاشِفَ زَرْقَاءَ. وَظَهَرَتْ ثَلَاثُ غُلْبِيَّاتٍ
زُجَاجِيَّةٍ، إِحْدَاهَا مَمْلُوءَةٌ بِصَدْفِ الْبَحْرِ، وَالْأُخْرَى
بِخَصِي نَهْرِيَّةٍ زَاهِيَةِ الْأَلْوَانِ، وَالصُّغْرَى بِصَابُونٍ
مَلْفُوفٍ.

كَانَتْ قَدْ تَرَكَّتْ سَلًا مَمْلُوءًا بِمَغْسُولَاتٍ مَطْوِيَّةٍ
خَارِجَ بَابِ غُرْفَةِ نَوْمِهِ الْمَغْلُوقِ. اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْزَرَ لِمَاذَا
لَمْ تَدْخُلِ الْغُرْفَةَ. لَقَدْ تَرَكَّهَا بِكَامِلِ بَهَائِهَا: السَّرِيرُ غَيْرُ
مُسَوَّى، الْمَنَاشِفُ وَالْمَلَابِسُ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ، أَبْوَابُ
الْخَزَانَةِ مَفْتُوحَةٌ.

نَزَعَ رُومَانِ أَغْطِيَةَ سَرِيرِهِ، مُرْتَبِكًا أَكْثَرَ مِنْهُ
مُنْزَعِجًا. جَمَعَ الْمَنَاشِفَ الْوَسِخَةَ وَتَوَجَّهَ إِلَى حُجْرَةِ
الغَسْلِ. رَبَّمَا كَانَ ذَاكَ وَقْتًا مُؤَاتِيًّا كِي يَعْبُرَ إِلَى الْكُوخِ،
فَيَقُولُ لَهَا إِنَّهُ قَدْ رَجَعَ وَإِنَّهَا قَدْ أَحْسَنْتَ صُنْعًا بِتَأْثِيثِ
غُرْفَةِ الضُّيُوفِ. قَرَعَ بِأَيْهَا الْأَمَامِيَّ. لَا جَوَابَ. حَاوَلَ
ثَانِيَةً، مُصَغِيًّا. لَا وَقَعَ أَقْدَامُ. لَا صَوْتٌ رَادِيُو. لَمْ يَكُنْ
لَدَيْهَا تَلْفِزِيُونٌ.

لقد خرجت. لماذا ينبغي أن يُفاجئَهُ ذلك؟

رجعَ إلى البيت الكبير، وقتلَ الوقتَ مُشاهدًا
مُباراةً في كُرَّةِ السَّلَّةِ، ومُصوِّرًا مُخطَّطاتٍ في الدَّفترِ
الأسود الذي يحتفظُ به تحت الأريكة. عبَّرَ ثانيةً فيما
الشَّمسُ تَغيب. أيضًا، لا جواب.

إنَّهُ السَّبْتُ، يا غبيُّ. هُوَ يَوْمٌ عَطَلْتِهَا. لماذا لا
ينبغي أن تكونَ حُرَّةً في مكانٍ ما، تسرِّحُ وتمرحُ؟
لَعَلَّ لَدَيْهَا صديقًا.

أقلقتُهُ تِلْكَ الفِكرة. لم يُردِ التَّفكيرَ في السَّببِ.

وَضَعِ الأَغْطِيَّةَ والمناشِفَ في النَّشَافَةِ، ودخَلَ
المطبخَ ليعمَلَ سندويتشًا لنفسه. لاحقًا، وهو يُسوِّي
سريزَه، فكَرَّ في مزرعة آلِ ماسترْسِن و"فُنونِ
العازبين". لقد عَلَّمَتْهُ سُوزان. وعلى نحوٍ غريبٍ
كفايةً، أعجبهُ الرُّوتينُ والترتيبُ، والوَجباتُ المنتظمةُ،
وقواعِدُ مُعامَلَةِ النُّزلاءِ بَعْضِهِم لِبَعْضِ.

متى تحوَّلَ إلى أخرق؟ ولماذا؟

اهتزَّت صُورَةُ التِّلْفزيونِ وبرَقَ ضوؤها إذ فازَ أحدُ
الفريقين. لم يعرفِ رومانُ أيَّ الفريقين، ولم يهَمَّهُ
ذلك. التَقَطَ جِهَازَ التَّحَكُّمِ من بُعد، وأطفأَ التِّلْفزيونَ.
صعدَ إلى مَرَسِمِهِ، ولاحظَ أنَّ أنوارَ الكوخِ كانت
مُضاءة. لقد عادتِ غريسُ إلى البيتِ.

كانت أنوارُ الطَّاقةِ الشَّمسيَّةِ قد ضاءت على طُولِ
القَمَرِ بين البيتِ الكبيرِ والكوخِ. قرَعَ البابَ بدلَ أن

يَرِنُ الجَرَسَ. أَكَانَ ذَكَ طِفْلاً يَبْكِي؟ انْفَتَحَ البَابُ
وَظَهَرَ عَلَى سَيِّمَاءَ غَرِيْسَ أَيُّ شَيْءٍ سِوَى التَّرْحِيْبِ.
كَانَتْ تَحْمِلُ طِفْلاً أَحْمَرَ الوَجْهِ بَاكِئًا عَلَى ذِرَاعَيْهَا.
لَوَى رومانَ قَسَمَاتِ وَجْهِهِ. ”لَا يَبْدُو مَسْرُورًا“. وَلَا
هِيَ بَدَتْ مَسْرُورَةً.

”قَضَى نَهَارًا كَبِيرًا. أَحْيَانًا، عِنْدَمَا يُحْفَظُ فَوْقَ الحَدِّ،
يَهْتَاجُ فَيَصْغُبُ إِرْضَاؤَهُ.“
خَمَّنَ رومانَ أَنَّهَا جَالَسَتْ الطِّفْلَ مَرَّاتٍ كَافِيَةً
تَجْعَلُهَا تَعْلَمَ.

لَمَّا تَرَكَتْ غَرِيْسَ البَابَ مَفْتُوحًا فِيمَا مَشَتْ
مُبْتَعِدَةً، حَسَبَ رومانَ ذَلِكَ دَعْوَةً لِلدُّخُولِ. ”عَبْرَتْ
لَأَقُولَ لِكَ كَمَ تَبْدُو عُرْفَةُ الضُّيُوفِ عَظِيمَةً“. وَقَدْ
أَغْلَقَ البَابَ وَرَاءَهُ.

بَادَلَتْهُ غَرِيْسَ الِابْتِسَامَ. ”شُكْرًا لِكَ“. بَدَا الطِّفْلُ
أَهْدَأَ، مُسِنِدًا رَأْسَهُ عَلَى صَدْرِهَا وَنَاظِرًا إِلَيْهِ، فِيمَا
رَجَّحَتْ جِسْمَهَا هَازَةً صَمُوِيلَ بِرِفْقٍ. كَانَ لَهُ شَعْرٌ
كَثِيفٌ أَدْكَنَ، وَبَشْرَةٌ بُنْيَةٌ فَاتِحَةٌ، وَعَيْنَانِ بُنْيَتَانِ
دَاكِئَتَانِ.

بَدَا مَكَائِهَا كَوَاحِيَةً. كَانَ كِتَابٌ مُقَدَّسٌ مَفْتُوحًا عَلَى
طَاوِلَةِ المَطْبِخِ، مَعَ مُفَكَّرَةٍ. أَرَادَ رومانَ، مُجِبًّا
لِلِاسْتِطْلَاعِ، أَنْ يَلْتَقِظَهَا وَيَقْرَأَ مَا قَدْ كَتَبْتَهُ. لَيْسَتْ
فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ. ”هَا هُوَ الطِّفْلُ عِنْدَكَ مَرَّةً أُخْرَى“. رُبَّمَا
أَلْصَقَتْ شَانِيْسَ غَرِيْسَ بِطِفْلِهَا كُلَّمَا أَمَكَنَ حَتَّى

يتسنى لها هي أن تنطلق بعيدًا إلى مكانٍ ما لحضور
حفلة أنيس وسمر.

فركت غريس ظهرَ الطفل. "أبقيه عندي كلما
سنحت فرصة".

"لا أظنُّ أنه بحاجةٍ إلى قيلولة".

"من قلة الحظ أنه نام نومةً طويلةً في طريق
الرجوع من الشاطئ".

وضعت غريس الطفلَ في وسط بطانية، لها
شريطٌ في حواشيها، على الأرضية المكسوة بالسجاد.
"لا بأس، يا رجلًا صغيرًا". ناولت صمويل خُشخيشة.
هزَّها بضعَ مرَّات، ثمَّ قذفها. مدَّت غريس يدها
لاسترجاعها، فظهرت بشرتها البيضاء عند نطاق
جينزها. انقلب صمويل على بطنه ودفع نفسه
ضعودًا.

ضحك رومان ضحكةً خافتة. "يبدو كأنه يُفضِّل
القيامَ بتمارين الضَّغط".

ضحكت وربَّت ظهرَ الطفل. وفيما بقيت على
ركبتيها، رفعت نظرها إلى رومان. "سرني أن غرفة
الضيوف أعجبتك".

لم تكن تدفعه خارج البيت. ابتسم ابتسامةً
خفيفة. "غُليات صدف البحر والحصى كانت زائدة
قليلاً".

"لديَّ الإيصالات. يُمكنني أن أرجعها".

”كنتُ أمزح. قد أكلُّك تجديداً غرفة نومِي.“

”آه، لا. محاولةٌ حسنة، ولكنني لن أنظف فوضاك!“

ابتسم لها ابتسامةً ساخرة. ”جُرِّدْتُ سريري وغسلتُ الأغطية. ها هي على السرير من جديد. ما برحتُ أجري الغسل منذ رجوعي.“

أحدثَ الطفلُ صمويلُ جلبةً جليئةً، جاذبًا انتباهَهُما. ولما احمرَّ وجهُ الطفلِ مُمتقِّعًا، ضحكَ رومان. ”يُخيلُ إليَّ أنكِ ستُجربين غسلاً أنتِ أيضًا.“

تنهَّدت غريس. ”هذه هي الصيغة. من دواعي الشكر أنه يلبسُ حفاضًا يمكنُ التخلُّص منه.“

”ظننتُ أنكِ ناشطةٌ إعادةً تدوير.“

”ضمنَ حدودِ المعقول.“ نهضت غريس ودخلت غرفةَ النوم. راقبَ رومان صمويلَ يدفعُ ركبتيه تحت صدره. ترجَّحَ الطفلُ ذهابًا وإيابًا ثمَّ انقلبَ ومسَّ وجهه الأرضَ أولًا. وإذ دفعَ نفسه إلى فوق ثانيةً، أطلقَ زعقةً ضارية. وما لبثت أن ظهرت غريس وفي يديها لوازمُ تغييرِ الحفاض.

رفعَ رومان يديه. ”لم أعقلُ أيَّ شيء.“

”إِذَا، لا تظهري شاعراً بالذنب هكذا.“ وإذ جثت على ركبتيها، قلبت صمويل. ”يستطيع أن يجلس. الآن يُريدُ أن يحبو.“ وفي أقلَّ من دقيقتين، أزالَت الحفاضَ الوسخَ ونظفت مقعدةَ الطفل، وألبسته

واحدًا جديدًا. ثُمَّ انحنّت ونفخت على بَطْنِهِ. فَتَشَبَّثَ
صَمُوِيلُ بِشَعْرِهَا وَأَطْلَقَ قَهْقَهَةً طِفْلِ. وَإِذْ قَلْبَتُهُ ثَانِيَةً،
رَبَّتْ مَقْعَدَتَهُ الْمُحَفَّضَةَ تَوًّا. فَدَفَعَ نَفْسَهُ صَعُودًا مِنْ
جَدِيدٍ، وَنَظَرَ إِلَى رُومَانَ. ابْتَسَمَتْ غَرِيْسٌ. ”إِنَّهُ
يَتَسَاءَلُ عَمَّنْ يَكُونُ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ“.

قَعَدَ رُومَانٌ عَلَى كُرْسِيِّ دَوَّارٍ هَزَّازٍ وَمَالَ إِلَى
الْأَمَامِ. ”أَنَا رَأَيْتُهَا، يَا وَلَدُ“.

”اسْمُهُ صَمُوِيلُ“.

”مَرْحَبًا، صَامِي...“

”أَفْضَلُ أَنْ تُنَادِيَهُ صَمُوِيلُ“.

لَمْ تُتِحْ لَهَجَّتِهَا فُرْصَةً لِلْمُسَاوَمَةِ، وَقَدْ جَعَلَتْهُ
سِيْمَاءُ وَجْهَهَا يَتَسَاءَلُ عَنْ سَبَبِ كَوْنِ هَذَا الشَّيْءِ
الصَّغِيرِ مُهِمًّا. ”مَاذَا تَدْعُوهُ شَانِيْسُ؟“

بَدَتْ غَرِيْسٌ مُرْتَبِكَةً. ”تَدْعُوهُ «الرَّجُلُ الصَّغِيرُ».

ذَلِكَ هُوَ لَقْبُهُ التَّحْبِيْبِيُّ، لَا صَامِي“. رَنَّ تَلِفُونُهَا، مُلْهِيًا

إِيَّاهَا. نَهَضَتْ مُسْرِعَةً وَذَهَبَتْ إِلَى طَاوِلَةِ الْمَطْبَخِ. كَانَ

فِي وُسْعِ رُومَانَ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ لَهَجَّتِهَا أَنَّ الْمُتَّصِلَ لَمْ

يَكُنْ وَاحِدَةً مِنْ صَدِيقَاتِهَا. ”إِنَّهُ مُتْعَبٌ، وَلَكِنَّهُ بِخَيْرٍ.

لَقَدْ دَهَنَتْهُ بِطَبَقَةٍ كَثِيفَةٍ مِنْ مَرَهَمِ الْوَقَايَةِ مِنْ

الشَّمْسِ“. كَانَتْ لَهَجَّتِهَا قَدْ بَاتَتْ أَدْفَأَ عَلَى نَحْوِ

مَلْحُوظٍ. لِمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ يُزْعِجَهُ ذَلِكَ؟

لَمَّا نَظَرَتْ غَرِيْسٌ إِلَى رُومَانَ، وَقَفَتْ. وَإِذْ انْحَنَى،

رَبَّتْ ظَهْرَ صَمُوِيلِ. ”اسْتَمْتَعْ وَامْرَحْ، يَا رَفِيقًا!“ طَلَبَتْ

إلى المُتَّصِلِ أَنْ يَنْتَظِرَ لِحِظَةٍ، مُرِيدَةً دُونَ شَكِّ
خُصُوصِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنَ الَّتِي لَهَا الْآنَ. لَمْ يُتَخَّ لَهَا رُومَانَ
فُرْصَةً لِتَقُولَ أَيَّ شَيْءٍ. "سَأُرَاكَ صَبَاحَ الْاِثْنَيْنِ".

لَدَى رُجُوعِ رُومَانَ إِلَى الْبَيْتِ الرَّئِيسِ، قَدَّرَ أَنْ يُلْقِيَ
عُزُوبِيَّتَهُ الْمَفْرُوضَةَ ذَاتِيًّا فِي مَهَبِّ الرِّيحِ وَيَقْضِي مَا
بَقِيَ مِنَ الْمَسَاءِ فِي نَادٍ.

الفصل ١٦

لم تعلم غريس ما كان يُقلِّقُ رومان. ما بِرِخٍ مُختلِفًا منذُ سفَرَتِه القصيرة إلى سان ديبغو. كان ينبغي ان يكونَ متحمِّسًا بشأنِ مَعْرِضِ صالَةِ العرضِ في لاغونا بيتش. ولكنَّه بدلًا من ذلك ما بِرِخٍ مُنعزلًا ومُستبطنًا. بقيَ في مَرَسَمِه مُخطِّطًا، ولكنَّه لم يُحرزِ أيَّ تقدُّم. سمِعته غريس يشتمُّ غيرَ مرَّة. وأخِرَ مرَّةٍ دخلت مجاله، كانت لفائفٌ ورقٍ مُبعثرةٌ حولَه بلا ترتيب. فلما باشرتِ التِّقاظَها، طلبتُ أن تتركها.

رنَّ جرسُ البابِ في دندنةٍ بسيطة، بدلًا من جَلجَلَةٍ الأنغامِ التي كانت تُثيرُ أعصابَ رومان. هُرِعتُ غريس من المكتب، ولكنَّها تباطأت لَمَّا سمِعَت موسيقا صاخبةً مُنبِعثَةً من غرفةِ تَمَرُّنِ رومان. كان يجري على جهازِ الركضِ مرَّةً أُخرى. توقَّعتُ أن تجدَ تاليا عند البابِ الأماميِّ، تَوَاقَةً لِمُراجَعَةِ تفاصيلِ الدَّقِيقَةِ الأخيرةِ لأجلِ مَعْرِضِ رومان في صالَةِ عَرِضِ لاغونا بيتش مساءً ذلك اليوم. كانت تلكِ المِسْكِينَةُ مُتَوَثِّرةً

الأعصابِ مثل مُتَنزِّهِ في الغابةِ يَحْمِلُ حَقِيبَتَهُ
الظَّهْرِيَّةَ وقد واجَهَ دُبًّا رَمادِيًّا، آخِرَ مَرَّةٍ حَدَثَتْ
رومان. لقد وُزِّعَتِ الدَّعَوَاتُ، وتدفَّقتِ الاستجاباتُ.
سُتُقَدِّمُ تاليا شامپانيا وخبزًا مُحَمَّصًا عَلَيْهِ جُبْنٌ
وكاثير. وقال رومان إنَّه لا يُبالي إذا قَدَّمتِ بيرةً
وبسكويتًا مالِحًا.

”ماذا يَلْتَهُمُه الآن؟“

هزَّتْ غريس كَتِفَيْهَا. ”ليس لديَّ أيَّةُ فِكْرَةٍ“.

لم يكن قارعَ الباب تاليا، بل رجلٌ طويلُ القامة، ذو
شعرٍ أبيضٍ قصيرٍ وعَيْنَيْنِ بُنْدَقِيَّتِي اللَّوْنِ تَشَعَّانِ
ذَكَاءً. كان يَحْمِلُ بِيَدِهِ حَقِيبَةً سَفْرَ، وقد ظَهَرَتْ عَلَيْهِ
أماراتُ الدَّهْشَةِ. ”حَسَنًا، هَلُوا!“ ومدَّ يده. ”أنا جاسپر
هاولي، وأنتِ...؟“

”غريس مُور، مُسَاعِدَةٌ رومان الشَّخْصِيَّةُ“. كان
للسَّيِّدِ الأكبرِ سَنًا مُصَافِحَةً يَدٍ شَدِيدَةً وابتِسَامَةً
مُنْبَسِطَةً. ”تَفَضَّلِي ادْخُلِي!“ وتراجعت قليلاً. لا بُدَّ أَنْ
يكون هذا هو الرَّجُلُ الَّذِي أَرَادَ سَرِيرًا فِي غُرْفَةِ
الضُّيُوفِ.

”من سيماءِ وجهكِ أرى أن رومان نسي أن يقولَ
لكِ إنني سأتي زائرًا“. وضحك ضحكةً خافتةً.
”ونسي أيضًا أن يُخبرني عنكِ“.

”في ذهنه أمورٌ كثيرة“.

”أنا على يقينٍ بأن ليس ذلك هو السَّببُ“. توقَّفَ

جاسپر في حُجْرَةِ الجلوس. ”ما زال من دُعاةِ
الاكتفاء بالقليل“. وردَّ لها ابتسامةً عريضة. ”أعندي
سريزٌ هذه المرَّة، أم أحضِرُ كيسَ نومي ووسادتي من
سيَّارتي؟“ اصطحبتهُ في الرِّواقِ إلى غُرْفَةِ الضُّيوف.
”يا للعجب! ما أروعَ هذا المكان! إنَّه أفضلُ من جناحِ
في فُنْدُقٍ من الدَّرَجَةِ الأولى. وضعَ حقيبةَ سفره على
طَرَفِ السَّريرِ المُزدَوِّجِ الكبير. ”يُخَيِّلُ إليَّ أنني
سأنتقلُ إلى هنا“.

”لا تُراهِنِ على ذلك“. وقَفَ رومان في مدخلِ
الباب، ماسِحًا بِمِنشَفَةِ العَرَقِ عن وجهه. بدا شبيهاً
برياضيٍّ في شُورتهِ المُخصَّصِ للرَّكضِ وقميصه
المُبَلَّل. تمتَّت غريس لو كانَ عليه مَزِيدٌ من الثَّيابِ،
والأفضلُ بِزَّةٍ رياضيَّةٍ تُغطِّي كاملَ جِسمه. تحوَّلت
حَمَلَةٌ رومان إليها. أحدثَ قلبُها خفقةً خفيفةً مُنذِرةً
بِخَطَرِ.

تطلَّعَ جاسپر حَوالِيه. ”جُدرانٌ عارية؟ خيِّلِ إليَّ
أنَّكَ ستكونُ الآنَ قد رسمتَ على كُلِّ بُوَصَةٍ مُربَّعة“.

وجدتَ غريس ذلك تصریحًا غريبًا.
”أقومُ بما يكفي من الرِّسمِ على القُماشِ هذه
الأيَّامَ، هاولي“.

تجاهلَهُ جاسپر ونظَرَ إلى غريس. ”أنا واثقٌ بأنَّه ما
أخبَرَكَ قطُّ عن رُسومه الغرافيتيَّة“.

نظرتَ غريس إلى رومان. ”أوه! أذلك هو ما تعنيه

بِالتَّوْقِيعِ التَّذْيِيلِيِّ؟“

رفع جاسپر حاجبيه قليلاً وشرع يقول شيئاً ما، ولكن رومان رمقه بنظرة تهدئة. ”أنت هنا لإحداث بلاء؟“

دارت غريس لثمضي. أرادت أن تتركهما وحدهما لتسوية أية مشكلة بدا أنّها أطلت برأسها البشع.

وضع رومان يده على الباب، مانعاً بفعالية خروج غريس.

”هل سمعت شيئاً من تاليا هذا الصباح؟“ وكان قريباً كفاية بحيث نشقت غريس رائحة عرق العافية الشبابي.

”لم تتصل بعد، ولكنها قالت سابقاً إنها ستأتي هذا الصباح للتحدث بتفاصيل الدقيقة الأخيرة.“

تفوه بكلمة لم تكن قد سمعتها منذ أول يومٍ جاءت فيه لتشتغل عنده. ”ليتنى لم أورط نفسي قط في هذا“. وأنزل ذراعَهُ ليدعها تمر.

سمعت غريس اتفاقاً جاسپر وهي متجهة لتسير في الرواق. ”كيف لم تذكر غريس قط؟“

”هي مُسَاعِدَتِي الشَّخْصِيَّةُ.“

كانت لهجته الصارفة جارحة. ما هم ذلك؟ لقد عرفت أي نوع من الشبان كان لحظة رآته. وكانت تُعدُّ إبريق قهوة طازجة لما خرج جاسپر من غرفة الضيوف وانضم إليها في المطبخ.

”سيخرُج رومان بعدَ دقائق قليلة“. جلس وهي تملأ الغرّافة. ”منذ متى تشتغلين عنده؟“

”منذ أربعة أشهرٍ ونصف“. وابتسمت له ابتسامةً ساخرةً. ”أحيانًا تبدو المُدَّة أطول“.

ضحك ضحكةً خافتة. ”لا أشك في ذلك. هو عُقدة عَسِرَة الحل“. أرادت أن تسأل عن سبب ذلك، ولكنها شكّت أن يكون لدى جاسپر هاولي أيُّ أجوبة. وإذا كان لديه، فلماذا يُطلِعها عليها؟ تفحصها. ”لن تسألي أيَّ أسئلةٍ عنه، أثنوين أن تسألي؟“

”لا، لن أسأل“.

”لا بُدَّ أن يكون قد أعجب بك ما دُمت هنا منذ خمسة أشهرٍ تقريبًا. إذا، أخبريني عن نفسك، غريس“.

”ليس من كثيرٍ أخبر به“. ابتسمت له ابتسامةً عرَضيةً. ”استأجرتني رومان من وكالة توظيفٍ وقتي، ثم وظفني بدوام كامل. أجيّب عن الرّسائل، أرُدُّ على المُكالماتِ الهاتفية، أدفعُ الفواتير، أوّدي القهائم“. وهزّت كتفها. ”أنا هنا لأجعل حياة رومان أسهل“.

نظرت صوب جدار الزُّجاج. ”إنه نهارٌ جميل. أتودُّ أن نجلس في الفناء المرصوف، مستر هاولي؟“ قد يعترض رومان، ولكن جاسپر هاولي كان الضيف، وما أرادَه يجلس في المرتبة الأولى.

”ناديني جاسپر، رجاءً، والفناء المرصوف سيكونُ

ممتازًا“. ولَمَّا استقرَّا كِلَاهُمَا، والقَهوةُ الطَّازجةُ
أمامَهُمَا، تَأَمَّلَهَا من فَوْقِ كُوبِ القَهوةِ المَغليَّةِ التي
يتصاعد منها البُخار. ”منظرٌ جميل، أليس كذلك؟“
وأومأ برأسه نحو الوادي. ”يجعَلُ المرءُ يتساءل لِمَاذا
لا يرشُّهُ بتاتًا؟“

”لقد تساءلتُ عن ذلك بعينه“.

”الفتى مُعقَّد“.

الفتى! مِثْلَ تاليا، قال جاسپر الكلمة بِتسامحٍ
وتأثُر. أَطَلَقَتْ غريس ضِحكةً رقيقةً. ”ما كُنْتُ لِأَدعُوهُ
فتى“.

”الأمرُ يتوقَّفُ على تعريفِك للكلمة. وهو ما بَرِحَ
يُدعى بأَسْمَاءِ شَيْءٍ من قِبَلِ أَشْخاصِ شَيْءٍ“.

إذ رَدَّتْ غريس على المُخابرات التَّلفونيَّةِ طَوَالَ
الأشهرِ القليلةِ الماضيةِ، عَلِمَتْ ذلك جيِّدًا جدًّا.
وأحدتُ مُتَّصلةً كان لَدَيْهَا بِضعةُ أَشياءٍ مُمتازةٍ تقولُها
عن رومان، لم تُردِ غريس سَماعَ أَيِّ منها. ”أنتِ
الضَّيفُ الوحيدُ الذي استقبَلَهُ رومان هُنَا منذُ باشرتِ
العَمَلَ عنده. ما عدا تاليا رايزنر التي تأتي في زياراتٍ
عَرَضِيَّةٍ قصيرة“.

”لا بُدَّ أَنَّها صاحِبَةٌ صالَّةٍ العَرَضِ حيثُ سَتُقَامُ
الحفلةُ اللَّيلة“.

”نعم. هي لطيفةٌ جدًّا، ومُثيرةٌ للاهتمام. إنَّها
تعتقِدُ أنَّ رومان يحوزُ إمكانيَّةً عظيمةً.“

”وأنتِ؟“

لم تدرِ ما كان وراءَ سؤاله. وما يدعو إلى الشُّكر أن البابَ الزُّجاجيَّ المُنزلقَ انفتحَ وقاطعَ حديثَهما. وما لبثَ أن خدَجَ رومان، وشعرُهُ ما زالَ مُبللاً من الحَمَّام، مُرتديًا جينزًا وقميصًا أحمر. ثمَّ احتلَّ مقعدًا وأجالَ نظره على كليهما.

كانتِ ابِتسامه جاسِرَ نصفِ مُغايظة. ”تبدو ذا لياقةٍ بدنيَّةٍ مُمتازة، رُومان“.

”لستُ إلاَّ مُحاولًا إلاَّ أغدو كبيرَ السنِّ ومُترهلاً مثلك“.

”أما زلتِ تعدو؟ أم لي أن أرجو أنكِ تتمرَّنُ لأجل الماراثونِ الحقيقيِّ؟“

أحسَّت غريس أنَّ الحديثَ كانَ ضعيفَ العلاقةِ بما كان يُقال. فشعرت أنها تعترضُ في السَّبيلِ وشرعت تقوم. ”أحسنُ لي أن أعودَ إلى عملي“.

رمَقها رومان بنظرةٍ سريعة. ”اجلسي!“ لم تكن تلكَ دعوة، ولم يَرُقها أن تُخاطبَ كحيوانٍ أليفٍ مَربوطٍ بِرَسَن.

”كانت غريس تُخبرُني توًّا أنكِ قابلتها بواسطة وكالةِ توظيفٍ وقتي“.

”ماذا ظننت، هاولي؟ انتقيتها في نارٍ؟“

امتلاً وجهه غريس حرارةً.

بدا جاسپر مفاجاً، ثمّ مُنزعِجاً.

وإذ أرادت غريس أن تنجو، قامت من جديد، عاقدة العزم هذه المرّة. لم يقل رومان أيّ شيء إذ توجّهت إلى البيت.

جلست واضعة مرفقيها على مكثيها، ووجهها في يديها. ومرّت دقائق قليلة قبل أن تشعّر بخديها يبّزدان مجدّداً. أكان المعرض هو ما جعله متوتراً جدّاً؟ أكان قلقاً حيال احتمال ألاّ يعجب فنه الناس؟ أشغلت نفسها بمراسلات رومان، وردّت على بضعة اتصالات هاتفية. رنّ جرس الباب بنغمته البسيطة. اندفعت تاليا داخلة، وكثلة شعرها الجعد مربوطة ومرفوعة بوشاح زاهي الألوان.

”أين هو؟ أغلب الرّسامين يُجنّونني إذ يريدون أن يعرفوا كلّ تفصيل لما يجري القيام به لأجل معرضهم، ورومان لا يمكن أن يُبالي أقلّ ممّا هو مُبالٍ!“ لوّحت بيديها في الهواء ولمحّته في الفناء المرصوف. فتقدّمت عبر الباب الزجاجي المنزلق وخرّجت للانضمام إلى الرّجلين.

إذ رجعت غريس إلى المكتب بسلامة، تنفّست بسهولة أكثر. أنجزت عملها واتّصلت بسيلاه لتتفقّد صمويل. ”إنه يلعب على البساط. إنه يحبّو.“

كانت غريس قد علّمت أنّ الحدث المنتظر آتٍ ورجت أن تكون ممّن يشهدونه.

”يُريدُ أرنَبَهُ. إِنَّه يَتَعَلَّمُ بِسُرْعَةٍ“. وَضَحِكْتَ سِيْلَاهُ.
”لَقَدْ كَانَ مَسْرُورًا جَدًّا بِنَفْسِهِ“. كَانَ مِنْ شَأْنِ سِيْلَاهُ
أَنْ تُوَاصِلَ الْكَلَامَ، وَلَكِنَّ غَرِيْسَ قَالَتْ إِنَّهَا يَجِبُ أَنْ
تَشْتَغَلَ وَأَنْهَتْ الْمُكَالِمَةَ. غَاصَ الْأَلَمُ عَمِيْقًا. هَلْ تَكُونُ
سِيْلَاهُ مَنْ يَسْمَعُ كَلِمَةَ صَمُوِيْلِ الْأُوْلَى وَتَرَى خُطُوَاتِهِ
الْأُوْلَى؟ إِذَا كَانَ الْخِيَارُ بِيَدِهَا، فَهَلْ تُفَضِّلُ أَنْ تَكُونَ
سِيْلَاهُ هِيَ الَّتِي تَرَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ أَوْ عَامِلَةً حِضَانَةً؟
حَدَّقَتْ تَالِيَا إِلَى الدَّخْلِ. ”هَلْ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا
يُرَامُ؟“

رَفَعَتْ غَرِيْسَ نَظْرَهَا مُجْفِلَةً. ”نَعَمْ. لَا بَأْسَ“.

”بَدَوْتُ جَدِيَّةً جَدًّا“.

”كَيْفَ كَانَ؟“

”رَهِيْبًا. لَيْسَ الْمَعْرِضُ هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدَ الَّذِي فِي
فِكْرِهِ. حَسَنًا، لَقَدْ انْطَلَقْتُ، وَأَنَا أَتَقَدَّمُ. أَرَاكَ هَذَا
الْمَسَاءَ“. وَانْدَفَعَتْ خَارِجَةً بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ عَادَتْ
فَدَخَلَتْ. ”مَاذَا تَعْرِفِينَ عَنِ الرَّائِعِ جَاسِپِرِ هَاوَلِي؟“
”لَيْسَ الْكَثِيرُ“.

”أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَ ذَلِكَ السَّيِّدَ أَفْضَلَ“. وَرَفَعَتْ
حَاجِبِيَهَا ثُمَّ خَفَضَتْهُمَا. فَضَحِكْتَ غَرِيْسَ وَتَمَنَّتْ لَهَا
التَّوْفِيقَ.

دَخَلَ الرَّجُلَانِ وَتَحَدَّثَا فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ. حَسِبَتْ
غَرِيْسَ أَنَّهَا سَتَخْرُجُ وَتُنْظَفُ طَاوِلَةُ الْفِنَاءِ الْمَرْصُوفِ،
وَلَكِنَّ الصِّينِيَّةَ مَعَ كُوْبِي الْقَهْوَةِ كَانَتْ فِي الْمَطْبَخِ. بَدَأَ

جاسپر مسرورًا برؤيتها. ”قال رومان إنك ذهبت إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس“.

”لم أخرج“.

”ولكنك تدرسين بعض المواد. علم النفس السريري. كيف توفقين بين الدرس وعمل كامل الدوام والإقامة في الضواحي الريفية؟“

”أخذ صفاً واحداً على الإنترنت كل مرة“.

ظهرت على وجه رومان سيماء غريبة. ”لست أدري لما ترتبكين. أدفع لك أكثر مما ستحصلين يوماً بصفة عاملة اجتماعية، فتلك الوظيفة هي كل ما تؤهلك له شهادة بكالوريوس في علم النفس السريري“. ورمق جاسپر بنظرة. ”ستحتاج إلى شهادة دكتوراه للحصول على أي شيء أفضل“. ثم رفع لها حاجبيه. ”كم سيكون عمرك في ذلك الحين، غريس؟“

لقد سئمت كونها عند الطرف المتلقي لمزاجه السيئ. ”في مثل عمرك تقريباً... وأسعد بكثير“.

ضحك جاسپر.

وإذ شعرت غريس بالحرج، انتظرت أن يقول رومان شيئاً بذيئاً. التوى فمه قليلاً. أكان ملقياً لها بطعم؟ تجاهلته وخاطبت جاسپر. ”الآن تماماً، الشيء الوحيد الذي أدرسه هو كتابي المقدس“.

”مسعى يستحق عناه. عرف عني أنني شخصياً

أقرأ الكتابَ الكريمَ.“

بدا رومان مشغولَ البالِ. ”غريس، أحتاجُ إليكِ
جاهزةً الساعةَ الخامسةِ. تاليا تُريدُ مِنَّا أن نكونَ هُنَاكَ
بَاكِرًا“.

”سَيَصْطَحِبُنِي بَرِيَانُ السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ. أَخْبِرْتِ تَالِيَا
بَأَنِّي...“

”بَرِيَانُ؟“ ضَاقَتْ عَيْنَاهُ. ”مَنْ بَرِيَانُ؟“

”صَدِيقٌ. هُوَ مُهْتَمٌّ بِآثَارِكَ الْفَنِّيَّةِ“.

”مَاذَا يَشْتَغَلُ لِكَسْبِ مَعِيشَتِهِ؟“

”هُوَ مُرْشِدٌ مَجْمُوعَةِ الشَّبَابِ“.

”لَا يَقْدِرُ عَلَى شِرَاءِ أَيِّ أَثَرٍ مِنْهَا، وَأَنْتِ سَتَكُونِينَ
قَائِمَةً بِعَمَلِكِ“.

تَرَكَتِ الْإِهَانَةَ وَالتَّذْكَيرَ كِلَيْهِمَا يَمْرَانِ. وَكَانَ جَاسِپِرُ
يُشَاهِدُ الْمُبَادَلَةَ بِقَدْرِ مِنَ الْإِهْتِمَامِ يَفُوقُ الْحَدَّ جَدًّا.

حَدَّقَ رُومَانَ إِلَيْهَا. ”لِمَ لَا تَأْخُذِينَ مَا بَقِيَ مِنْ عَصْرِ
النَّهَارِ عَطْلَةً؟ سَيُعْوِزُكَ وَقْتُ لَلِاسْتِعْدَادِ“.

انْفَرَجَتْ شَفْتَاهَا. هَلْ ضَمَّنَ كَلَامَهُ فِعْلًا أَنَّهَا

سَتَسْتَغْرِقُ سَاعَاتٍ لِتَجْعَلَ نَفْسَهَا حَسَنَةً الظَّلْعَةِ؟

”سَأَحَاوِلُ إِلَّا أَخَيَّبَ أَمَلِكِ“. وَتَمَنَّتْ لَوْ يَفْعَلُ هُوَ الْأَمْرَ

عَيْنَهُ. شَرَعَ رُومَانٌ يَقُولُ شَيْئًا مَا، ثُمَّ ضَمَّ شَفْتَيْهِ مَعًا.

فَنظَرَتْ إِلَيْهِ وَانْتَظَرَتْ. لَعَلَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَهَا مَاذَا

سَتَرْتِدي. وَلَمَّا لَمْ يَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ آخِرًا، ابْتَسَمَتْ لِجَاسِپِرِ

ابتِسامةً اعتِذارِيَّة. ”سأراك لاحقًا“.

”نعم، ستريني“.

سيحتاجُ رومان إلى مُدبِّر.

رجعتُ غريس إلى الكُوخ. ستكونُ أمسيةً طويلةً مُتوتِّرة، إذا كانت هذه الصَّبِيحةُ أيِّ مؤشِّر. على الأقلِّ لن تقلقَ بشأنِ ما ترتديه. لقد اصطحبتُها شانيس للتَّبضعِ الأسبوعَ الماضي. ”لقد خرجتِ لأجلِ القهوةِ ووجباتِ العشاءِ العابرةِ معَ بريان، ولكن هذه فُرصَتُك كي تتألقي، يا فتاة! ينبغي لك أن تكتسي بلباسٍ أنيق!“ كانت تعرفُ مَحَلًّا أنيقًا صغيرًا في نُورث هوليوود تُباعُ فيه ملابسُ مُصمَّمةٌ بأسعارٍ مُريحة. وقد وجدتا ثوبًا أسودَ صغيرًا مُمتازًا بِقَبَّةٍ باليه، وخَصِرٍ مُكسَّم، وتُتُّورة ضيِّقة. ”غريس، أنتِ باهرةٌ الجمال بهذا الثوب!“

”لن يكون أحدٌ ناظرًا إليّ، شانيس. هذه ليلةٌ رومان“.

”أنتِ هُناك معَ بريان. تُريدُ من رومان أن ينظرَ إليك. أبقِي شعركِ مُرخَى. لو كان لي مثلُ شعركِ، لتركتهُ حتَّى يصلَ إلى خَصري“.

كانت قد أبقتَهُ قصيرًا مدَّةَ سَنَةٍ أو نحوها، ولكنَّهُ كان صائرًا أطولَ قليلًا الآن. كان ياتريك يحبُّ الشَّعرَ الطَّويل، فأرختَهُ فيما كانا معًا. وكان أيضًا يُحبُّ الشُّقر، فصبغتُ شعرها بلونٍ أبيضٍ تقريبيًا. وقد سرَّها

أَنْ تَخَطَّتْ تِلْكَ التَّفَاهَةَ.

إِذْ تَوَافَرَ لَدَى غَرِيسٍ بِضَعُ سَاعَاتٍ إِضَافِيَّةٍ، تَفَقَّدَتْ لِتَرَى هَلْ تَلَقَّتْ أَيَّ رَدٍّ عَلَى إِعْلَانِهَا عَنْ حَاجَتِهَا إِلَى حَاضِنَةٍ. كَانَتْ ثَلَاثُ مُتَقَدِّمَاتٍ قَدْ أُجِبْنَ عَنْ أَسْئَلَةِ غَرِيسٍ وَذَكَرْنَ أَسْمَاءَ مَرَاجِعِ السُّؤَالِ عَنْهُنَّ. فَأُجِرَتْ غَرِيسٌ بِضَعَةِ اتِّصَالَاتٍ وَحَذَفَتْ اثْنَتَيْنِ. وَكَانَتْ الثَّلَاثَةُ قَدْ تَسَلَّمَتْ بِالْفِعْلِ وَظِيْفَةَ مُرَبِّيَّةٍ بِدَوَامٍ كَامِلٍ.

أَخَذَتْ غَرِيسٌ وَقْتَهَا فِي الْإِسْتِعْدَادِ. وَلَمَّا وَصَلَ بَرِيَانٌ، لَمْ تُضْطَرَّ غَرِيسٌ لِأَنَّ تَتَسَاءَلَ هَلْ تَبْدُو أُنِيقَةً. فَقَدْ شَمَلَهَا بِحَمَلْتِهِ مِنْ سَاقِيهَا إِلَى شَعْرَهَا. "عَجَبًا!" سَرَّتْهَا اسْتِجَابَتُهُ. قَالَتْ إِنَّهُ يَبْدُو وَسِيمًا جَدًّا بِبَدَلْتِهِ السُّودَاءِ. فَاعْتَرَفَ بِأَنَّهَا كَانَتْ هَدِيَّةً مِنْ سَيِّدَةٍ فِي الْكَنِيسَةِ، أَرْمَلَةٍ كَانَتْ زَوْجُهَا نَاشِطًا فِي مَحْفَلِ مَاسُونِيٍّ. وَقَدْ أَحْتَاجَ إِلَى بَدَلَةٍ جَيِّدَةٍ لِإِجْرَاءِ مَرَامِيسِ الزَّيْجَاتِ. ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً وَقَالَ إِنَّهُ تَصَوَّرَ أَنَّهَا مُلَائِمَةٌ لِاحْتِفَالِ صَالَةِ عَرَضِ.

تَسَاءَلَتْ غَرِيسٌ هَلْ كَانَ رُومَانٌ يَمْلِكُ بَدَلَةً، وَأَحْسَتْ قُشْعَرِيرَةً خَشِيَّةً لِكُونِهَا لَمْ تُفَكِّرْ حَتَّى تَسْأَلَ.

تَحَدَّثَتْ إِلَى بَرِيَانٍ طُولَ الطَّرِيقِ إِلَى لَآغُونَا بِيْتَشْ بِشَأْنِ الْأَحْدَاثِ الْمُقْبِلَةِ لِمَجْمُوعَةِ الشَّبَابِ، وَآخِرِ الْأَخْبَارِ الْمُحَلِّيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ، وَعَنْ رِحْلَةِ إِرسَالِيَّةِ صَيْفِيَّةٍ مُقَرَّرَةٍ إِلَى الْمَكْسِيكِ. كَانَ فِتْيَانُهُ وَفِتْيَانُهُ قَدْ أَقَامُوا مُنَاسِبَتَيْنِ لِجَمْعِ الدَّعْمِ الْمَالِيِّ وَقَدْ

تَطَوَّعَ فِعْلًا عَدَدٌ كَافٍ مِنَ الرَّاشِدِينَ لِلْمُسَاعَدَةِ فِي تَعْلِيمِ التَّلَامِيذِ وَالْإِشْرَافِ عَلَيْهِمْ.

عَلِمَتْ تَالِيَا كَيْفَ تَكُونُ مَعْرِضًا وَثَقِيمًا وَاحِدًا أَيْضًا. لَقَدْ بَدَتْ مِثْلَ أَثَرِ فَنِّيٍّ غَنِيٍّ بِالْأَلْوَانِ فِي قَفْطَانِهَا الْبُوهِيمِيِّ. صَافَحَتْ بَرِيَانَ وَعَانَقَتْ غَرِيْسَ. ”أَنْتِ مَذْهَلَةٌ! سَيَكُونُ هَذَا الْمَسَاءُ رَائِعًا! أَشْعُرُ بِذَلِكَ فِي عِظَامِي!“ لَقَدْ أَشْرَقَتْ حِمَاسَةً وَتَأَثَّرًا. ”أَنَا وَاثِقَةٌ بِأَنَّهَا سَتَبِيعُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ لُوحَاتِ رُومَانَ قَبْلَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ“. ضَحِكَتْ وَمَالَتْ أَقْرَبَ. ”حَتَّى بِالْأَسْعَارِ الْخَيَالِيَّةِ الَّتِي وَضَعْتُهَا عَلَيْهَا“.

لَمْ تُفَاجَأْ غَرِيْسَ لَمَّا دَخَلَ رُومَانَ لِابِسًا جِينزًا أَزْرَقًا، وَقَمِيصًا أبيضَ قَبْتَهُ عَلَى شَكْلِ الرَّقْمِ ٧، تَحْتَ سِتْرَةٍ جَلْدِيَّةٍ سُودَاءَ كَالَّتِي كَانَ يَرْتَدِيهَا أَصْلًا طَيَّارًا قَازِفَاتِ الْقَنَابِلِ. إِنَّمَا الَّذِي فَاجَأَهَا كَانَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي بِهَا أَزْدَادَ خَفَقَانُ قَلْبِهَا. أَشَاحَتْ بِنَظَرِهَا مُرْتَاعَةً، وَتَلَقَّتْ حَمَلَةً جَاسِپِرَ هَاوَلِي. فَبَسَطَ يَدَيْهِ كَمَا لَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ فَعْلِ أَيِّ شَيْءٍ بِشَأْنِ رُومَانَ.

أَنْتِ تَالِيَا. ”كَانَ يَنْبَغِي أَنْ أَعْلَمَ أَنَّهُ يُفْضَلُ أَنْ يَمُوتَ عَلَى أَنْ يُحْبَسَ فِي بَدَلَةٍ“.

عَلِمَتْ غَرِيْسَ أَنَّ تَالِيَا مَا كَانَتْ لِثِبَالِيٍّ لَوْ ظَهَرَ رُومَانَ بِلَا قَمِيصٍ وَفِي شُورْتِ هَرَوَلَةٍ، مَا دَامَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْحَفْلَةِ.

كرة رومان الحُشود. كرة أن يكون مَحَطَّ الانتباه. وكرة أكثر بعدُ تحدُّث النَّاسِ كما لو أنَّهم قد فهموا فنَّه وعرفوا شيئًا ما عن طريقة اشتغالِ عقله من النَّظَرِ إلى ما رسَّمه. على الأقلِّ عن طريقة اشتغالِ عقله من النَّظَرِ إلى ما رسَّمه. على الأقلِّ شعَرَ بالرَّضى لِمْشاهدَتِهِم يدفعون أثمانًا أعلى جدًّا ممَّا ينبغي لِقَاءِ لوحاتٍ لم تعنِ أيُّ شيء، ناهيك بِإظهارها أسرارًا مخبوءةً عن عقلَيْتِه. يومًا ما، سيكتشف أحدُ ما أنَّه كان مُحتالًا بلا نَسَبٍ أو ثقافة أو موهبةٍ حقيقيَّة.

مسَّ شخصٌ ما ذِراعَه، فنظَرَ من عُلِّ إلى شقراءٍ شهوانيةٍ في عباءةٍ مُصمَّمة، صارخةٍ بالثراء. وقد تحدَّثت بشأنِ بحثِها عن المواهبِ الجديدة، وكم أحبَّت أن تجمعَ آثارًا فنيَّةً لرسَّامين قلَّما يُعرفون. وأبقته بِسمِّها مُوقِنًا أيُّ نوعٍ من المجموعات كانت تتحدَّثُ بشأنه. قبلِ بضعةِ أشهر، كان من شأنه أن يُلَبِّيَ دعوتها. أمَّا الآن، فكانَ مُحاولًا أن يكونَ مؤدِّبًا ومُهدِّبًا. وقد نظَرَ إلى جاسپر، شاكرًا لَمَّا اقتربَ أكثرَ وشاركَ في المُحادثةِ الآتية من طرفٍ واحد. وأجالَ رومان نظره في أنحاءِ العُرفةِ فلمَحَ غريس.

كانَ الثَّوبُ الأسودُ مُناسبًا تمامًا. وقد ابتسمت رافعةً نظرها إلى أمير الأحلام الواقف بجانبها تمامًا، مُرتديًا بدلة. كانَ الشَّابُّ واضعًا يدهُ على ظهرِ غريس، وهما يتحدَّثانِ معَ ثنائيِّ أكبرِ سنًا، في لَمسةٍ امتلاك.

وبريان، مهما كان اسمه، بدا رجلاً من النوع الذي يجلس في مكانه أينما كان. أكان ذلك الشاب رجلاً دين؟ هل تمادى في علاقته بغريس؟ هل مرشدو مجموعة الشباب أعفَاء؟ لماذا ينبغي أن يُبالي بطبيعة علاقتهما؟

جرع رومان كأسه المملأ شامپانيا وخبّطها على قاعدة عريض عليها نسر برونزي طائر. وسرعان ما التقطها نادل.

”أستطيع أن تُحاول الابتسام؟“ قدّمت تاليا لرومان قطعة خبز مُحَمَّصَة عليها جبن وكافيار. ”لعل كأس شامپانيا أخرى تُساعد“. انتزعت واحدة عن صينية وقدّمتها له.

”يُخيّل إليّ أنّ ما أتاني قد كفاني“. لم يكن يتحدث بشأن الشامپانيا.

كان جاسپر يُراقبه أيضاً، وفي عينيه وميض تحذّر غريب.

حدّق رومان إليه. ”ماذا؟“

”أنت قل لي“. رفع جاسپر كأس شامپانياه. ”ما تصوّرت قط أنني سأرى هذا اليوم“.

أراد رومان أن يُقجم قبضته في واحدة من لوحاته، حتّى لو كلفته خمسين ألف دولار. وقال همساً كلمة كان من شأنها أن تهزّ كيان غريس، لو كانت قريبة كفاية بحيثُ تسمع. لقد وقفت في الجهة

المُقابِلة من العُرْفَة، أبعدَ عنه ما أمكَنها أن تكون. قال
الكلمة ثانيةً. أرادَ أن يكون في أيِّ مكانٍ ما عدا هُنا.
ستكونُ هذه ليلةٌ مؤاتيةٌ لِحِيارَةِ حَقِيبَةِ ظَهريَّةِ
مَحشُوةٍ بِعُلبِ رَشِّ طِلاء. وسيُباشِرُ شُغلَه على جانبِ
كوخِه الخاصِّ.

التفتت غريس، كما لو أَحسَّتِ انتِباَهه. تلاقَت
أعيُنُهُما، وشعَرَ بأشياءَ عِلمَ أَنَّها ستأتي بِبِلاء. قال
أحدُهم له شيئًا ما، وتظاهرَ بأنَّه مُهتَمٌّ. كان المكانُ
يضجُّ بِالغَمغمات، وكان رومان مَركَزَ الانتِباَه. فكان
ينبغي أن يستمتعَ بذلك كثيرًا. كان ينبغي أن يُمتنعَ
نفسَه.

ثرثَرَ أَحَدُ الرِّجالِ كثيرًا عن فنِّ رومان. وإذ نَفَدَ
صَبْرُ رومان، استأذَنَ بالانصرافِ وشقَّ طريقَه عَنوَةً
تقريبًا بينَ ضُيُوفِه فيما اتَّجَهَ إلى مؤخِرِ صالةِ
العرض. هل كان هُناكَ بابٌ خلفيٌّ للخروجِ من هذا
المكان؟

أدرَكتُه تاليا قبلَ أن يتمكَّنَ مِنَ الفِرار. ”أنتَ
بِخَيْر؟“

”ما كان ينبغي لنا أن نُقيمَ هذا.“

”بل كان ينبغي لنا دونَ شكِّ. أَلديكَ أَيَّةُ فِكرَةٍ عَمَّن
يكونُ بعضُ من هؤلاء القوم؟“

”لا أعيِزُّ ذلك أدنى...!“

”ما خطبُكَ اللَّيلة؟“

”ما عليك إلا أن تقولي للجميع إنني رسّامٌ
مِزاجي“.

”في وَسْعِهِم أن يزوا ذلك أصلاً. ينبغي أن تكون
سعيدًا، رومان. لقد كَسَبْتَ مئةَ ألفِ دولارٍ حتّى الآن،
وما زال الاحتفالُ في أوائله تقريبًا.

سعيدًا؟ أجل، صحيح. أحسّ الحماوةَ تغمّره تمامًا،
ودقّ قلبه بشدّة.

دخَلَ رومان الحمامَ وأقفلَ الباب. وإذ أمرّ أصابعَ
يديه في شعره، حاولَ أن يسترخي. أجبرَ نفسه على
التنفسِ ببطء. أقبَلت مَوْجَةُ الضَّعفِ المعهودة. أطبقَ
عينيه وسبَّ هامِسًا. ثمّ جلسَ القُرْفُصَاءَ ووضعَ رأسه
بين رُكبتيه، أملًا ألا يُغمى عليه. ليس الآن. ليس هنا.
أكانتِ الشَّامِپانيا السَّبَب؟ لقد شربَ كأسين فقط.

زال الضَّعف. أمهلَ نفسه دقيقةً قبلَ أن يقف،
ودقيقةً أُخرى قبلَ أن يفتحَ الباب.

وقفت غريس في الرّواقِ المُضاءِ بثورٍ مُعتَم.
”أنت بخير، رومان؟“

كانت عيناها البُنِّيَّتَانِ مُفعمَتينِ بِالقلق. ”لِمَ لا
أكون؟“

”أنت مُتعرِّق؟“ رفعت يدها نحو جبينه.

سحبَ رومان رأسه إلى الورااء كأنّ لمستها
سُحرِقُه. أطبقت يدها وأنزلتها. كان الثورُ مُعتَمًا جدًّا،
فلم يزَ رومان ثورُدها، ولكنّه علمَ أنّه قد أربكها، مرّةً

جديدة. فما بَرِحَ يُوجِّهُ إليها طَلَقَاتٍ مُسَدَّدَةً طَوَالَ
اليوم.

وقفا مُتقارِبَيْنِ، مُحدِّقَيْنِ أَحَدُهُمَا إلى الآخر. كان
يَلْقَى صعوبةً في التَّنْفُسِ بصورةً طبيعِيَّةً. أراد أن
يقتربَ أكثر. هل كانت ترتجف؟

شَهَقَتْ نَفْسًا رَقِيقًا. ”لم أقصدُ أن أعاملكَ كدجاجةٍ
أمِّ. أنتَ بحاجةٌ إلى أيِّ شيء؟“
إِلَيْكَ.

زَعَزَعَتْهُ الفِكرة.

جذبتَ حَرَكَةَ انتِباهِهِ. كانَ أَمِيرُ الأحلامِ واقفًا في
مدخلِ العُرفةِ الرَّئِيسِيَّةِ. ماذا سَيَفْعَلُ الفتى إذا جذبَ
رومانَ غريس الآنَ تمامًا إليه وقبَلَهَا؟ نَظَرَ إليها رومان
مِنَ عُلِّ ثَانِيَّةً. ماذا ستفعل؟ تَغَيَّرَتْ ملامحُهَا كِفايَةً
بِحَيْثُ أَعْلَمْتَهُ بِأَنَّهَا أَحَسَّتْ شَيْئًا خَطِرًا يَجْرِي دَاخِلَ
رَأْسِهِ. تراجعتَ خطوةً، وَعَلِمَ رومان ما ستفعله.
سَتَّصَفَعَهُ على وجهه، وتخلَّى عن وظيفتها، وتنتقلُ
من الكُوخِ، ولن يراها ثانيةً بتاتًا.

قد يكونُ الأمرُ مُستَحِقًّا عِناهُ. ستكونُ قد رحلت،
وسيكونُ هوَ في مَأْمَنٍ.

”رومان“. ظَهَرَ جاسِپرُ هاوِلي من حيث لم يدرِ،
فأطلقَ رومانَ نَفْسَهُ. حتَّى تلكَ الثَّانِيَّةِ، ما كان يدرى
أنَّهُ حابِئُهُ. مسَّتْ غريسُ ذِراعَهُ قَبْلَمَا دَارَتْ مُبْتَعِدَةً.
إِعَادَةُ طمأننة؟ مشَّتْ في الرِّواقِ. أسبَلَ بريانَ هِنلي

يدَهُ وِراءَ خَصْرِها وِوَجَّها بَعِيدًا.

أمالَ جاسِپرَ رأسَهُ، مُتأملًا رومان. ”هذا شيءٌ جديدٌ بِالنَّسبَةِ إِلَيْكَ“.

”لستُ على يقينٍ بأنَّني سأوافقُ على أيِّ مَزِيدٍ من أفكارِ تالِيا“. فَركَ رومانَ قفا رِقَبَتِهِ. كانَ رأسُهُ قد بدأ يَنْبِضُ بِشِدَّةٍ.

”لم أَكُنْ أَتحدَّثُ بِشأنِ المَعْرِضِ“.

”ماذا إذا؟“ لم يَكُنْ في مِزاجٍ يُتِيحُ له تَلَقِّي مَلاحِظاتِ جاسِپرِ الغامِضَةِ.

”لا يُمكِنُكَ أن تُحوِّلَ عَينِكَ عن غَريسِ“.

”يُفترِضُ أن تكونَ قائِمةً بِعَمَلِها“.

”هل تَبَحُّثُ عن ذَريعَةٍ لِطردِها؟“

حدَّقَ رومانَ إِلَيْهِ. ”قلتُ إنَّها أعجَبَتكَ“.

”أعجَبَتني كَثيرًا، ولكن لا يَهُمُّ ما أشعُرُ بِهِ. لقد تَغَلَّغَت تحتَ جِلدِكَ. لستُ مُستَريحًا إلى عِلاقَةِ العَمَلِ، أنتُ مُستَريحٌ؟ لَعَلَّكَ مُضطرٌّ لِأنَّ تَلعبَ لِعِبَةِ مضمونَةٍ فَتتخلَّصُ من غَريسِ“.

عِلِمَ رومانَ ما كانَ جاسِپرَ فاعِلَهُ، ولكنَّهُ لم يَكُنْ في مِزاجِ التَّصَرُّفِ بِطَريقَةٍ مُشرِّفةٍ. ”دَعكَ من ذلك، جاسِپرِ“.

تقدَّمَ جاسِپرَ خُطوةً ووقفَ قُدَّامَهُ. ”مِمَّ أنتُ خائفٌ، بِييَ راي؟“

”لا تُنادِني بذلك“.

”ليس من خطإ في مَنْ أنت“.

”ومَنْ ذاك؟“

”لديك فُرصةٌ حقيقيَّةٌ هُنا، بُنيّ. فُرصةٌ للصداقة

والمودَّة، ورُبَّما للحُبِّ. فماذا ستفعلُ بها؟“

احتدَّ رومان. ”لقد أسأتَ قِراءةَ الوضع“.

”الغضب! مكانُ اختبائك المُفضَّل“.

”هل فرغتَ الآن؟“

هزَّ جاسپر رأسه، وارتسمَ على سيمائه فيضٌ حنوٌّ.

”اعملُ معي معروفًا. حاولْ ألا تسحقَ غريس في

الثُّراب ليتسنَّى لك أن تُخمدَ النارَ“. وتنهَّد. ”دعها

تشتعل، بُبي راي. اقتربْ أكثر. تعرّف إلى غريس.

انظر ما يحدث“.

”إنها لا تعرّف ما أنا“.

بدا جاسپر مُتحيِّرًا. ”ما أنت؟“

”أنت تعرّف أفضلَ من أيِّ شخصٍ آخر من أينَ أنا.

أيُّ شيءٍ مُشتركٍ بيني وبين فتاةٍ مثلها؟“

أطلقَ جاسپر نفسه. ”رحمتك، يا ربُّ. ها نحنُ

نصلُ أخيرًا إلى مكانٍ ما“. واقتربَ أكثر. ”أنت لا

تعرّف غريس أفضلَ ممَّا تعرّفك هي. هَوْنٌ عليك.

أصغ. تعلّم. انظر ما يجري“.

تساءلَ رومان هل يستحقُّ الأمرُ المغامرة.



جلست غريس صامتةً فيما أقلها بريان بسيارته إلى البيت بعد معرض لاغونا الفني. كانت الأمسية طويلةً، وأحيانًا مشحونةً بالدراما. بينما خالطت هي وبريان الآخرين، بقيت مُتنبهةً إلى رومان. كان قد ذكَّرها عصرَ ذلك اليوم بأنها ستكونُ مُشتغلةً في أثناء المعرض، ولكنه تجنبها مُعظمَ الأمسية. إذا احتاج إلى أي شيء، فهو لم يطلب منها. راجعت الترتيبات مع تاليا ولكن كل شيء كان مُنظمًا بحيث لم تدع الحاجة إليها.

لما توجه رومان إلى البهو الخلفي، ارتابت غريس بوجود خطب ما. انتظرت بضع دقائق قبل أن تُسرد إلى بريان بأنها ذاهبة لتفقد رئيسها. كان رومان مشحوبًا لما خرج من حمام الرجال. لما نظر إليها، شعرت بالصدمة. حتى الآن، وهي جالسة في السيارة مع بريان، شعرت بالقلق حيال جدّة رومان. فيم كان يفكر؟ ماذا كان ممكنًا أن يقول - أو يفعل - لو لم يكن جاسپر وبريان على مقربة منه؟

بعد تلك اللحظة المُتوترة في الرواق، هدأ رومان، وتحدث إلى الناس. حتى إنه ابتسم أحيانًا. وفي الساعة العاشرة، كان خارج الباب مثل سندريلا في نصف الليل. لحق به جاسپر. وقد باتت تاليا ساخطةً. "ظننت أنك ستبقى هنا".

كأنما كانت لغريس أيّة سيطرةٍ على الرّجل.

نظر بريان إليها نظرةً خاطفة. "أنتِ ساكنةٌ تمامًا".

"كانت أمسيّةٌ غريبةٌ".

"هل رئيسك دائمًا على تلك الحال؟"

على أيّة حال؟ مزاجي، مُستحيلٌ أن يفهم؟
"أغلب الأوقات".

"هل كان المعرضُ ناجحًا؟"

التفتت غريس إلى بريان. "لا شكّ عندي. كنتُ
مُتلهيةً قليلًا".

رمقها بريان بنظرةٍ كئيبة. "لاحظتُ ذلك. ماذا
جرى بينك وبين رومان في الرّواق؟"

"لا شيء. بدا مريضًا. قال إنه بخير". وهزّت
رأسها. "أعتقدُ أنّ المعرضَ عنى له أكثرَ ممّا أرادَ أن
يعترفَ به".

قامَ بريان بالتّفاقة. "بدا كأنّ الأمسيةَ أحرزت
نجاحًا مُدوّيًا من حيثُ كُنْتُ واقفًا. لديه عددٌ لا بأس
به من المُعجّبين".

غمغمت غريس بصوتٍ مهموس: "لا سيّما من
النّساء". ثمّ نظرت من النّافذة إلى الخارج. لم يكن
رُومان قد أمضى في صالة العرض خمس دقائق لَمّا
اقتربت إليه شقراءٌ ترتدي ثوبًا لا بُدَّ أن يكونَ قد لُوّنَ

رَشًا. حَتَّى مِنْ طَرَفِ الْغُرْفَةِ الْآخِرِ، عَلِمَتْ غَرِيسُ أَنَّ الْمَرَأَةَ كَانَتْ مُهْتَمَّةً بِالْفَنِّ أَكْثَرَ مِنْهَا بِالْفَنِّ.

”أَنْتِ قَلِقَةٌ عَلَيْهِ؟“

رَفَعَتْ كِتْفَيْهَا. ”لَا دَاعِي لَأَنْ أَكُونَ قَلِقَةً“. لَمْ تُرِدْ أَنْ تَقْضِيَ بَعْدَ أَيِّ جُزْءٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ مُفَكَّرَةً فِي رُومَانَ قِيلَاسْكَو. ”هَلِ اسْتَمْتَعْتَ بِالْمَعْرِضِ؟“

”كَانَ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْمُثِيرِينَ لِلْاهْتِمَامِ“. وَتَحَدَّثَتْ بِشَأْنِ بَضْعَةِ أَشْخَاصِ الثَّقَافَةِ. ”مُحَامِيَانِ يَجْمَعَانِ الْآثَارَ الْفَنِّيَّةَ الْعَصْرِيَّةَ، طَيَّارٌ، ضَابِطٌ مِنْ قِسْمِ شُرْطَةِ لُوسِ أَنْجَلِيسِ وَزَوْجَتُهُ. تَحَدَّثْتُ إِلَى تَالِيَا بِضَعِ دَقَائِقٍ فِيمَا كُنْتُ تَتَفَقَّدِينَ رُومَانَ. إِنَّهَا سَيِّدَةٌ مُشَوِّقَةٌ.“

ابْتَسَمَتْ غَرِيسُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. ”أَحْزَنُ مَاذَا دَرَسْتَ فِي الْجَامِعَةِ؟“

”تَارِيخَ الْفَنِّ“.

”ذَلِكَ هُوَ مَا ظَنَنْتُهُ أَنَا“. وَضَحِكَتْ. ”تَخَصَّصْتَ تَالِيَا فِي الْاِقْتِصَادِ وَالتَّسْوِيقِ“. لَقَدْ عَلِمَتْ غَرِيسُ عَنْ تَارِيخِ تَالِيَا الشَّخْصِيِّ عَلَى غَدَاءٍ وَاحِدٍ أَكْثَرَ مِمَّا عَرَفَتْ عَنْ رُومَانَ بَعْدَ أَشْهُرٍ مِنَ الْعَمَلِ عِنْدَهُ. ”ذَهَبْتُ فِي السَّبْعِينِيَّاتِ إِلَى جَامِعَةِ كَالِيفُورْنِيَا فِي بِيرْكَلي، كَعَضْوَةٍ مُسَجَّلَةٍ فِي الْحِزْبِ الْجُمْهُورِيِّ. وَكَانَ صَدِيقُهَا يَدْرُسُ لِيَصِيرَ ضَابِطًا فِي الْجَيْشِ. تَزَوَّجَا حَالَمَا تَخَرَّجَا، حَتَّى يَتَيْسَّرَ لَهَا أَنْ تَحْبَلَ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ إِلَى

قبتنام أخيرًا. وقد رجَّع إلى الوطن، إلا أنه مات
بالسرطان في أربعينياته. وهي تُلقَى اللوم على
”العامل البرتقالي“، تلك المادة الكيميائية التي كانوا
يُرشونها على ضفاف الأنهار لإزالة الأوراق والأعشاب
من الأدغال. وقد رزقا ابنةً هي الآن مُخطَّطة عَقاراتٍ
ناجحةً في فلوريدا، حيثُ تنعمُ بزواجٍ سعيدٍ ولها
صبيانٌ صغيران. وتاليا تُسافرُ بالطائرة راجعةً إلى
هناك لِتُزورها مرَّةً كلَّ سنة.

”ليس ما توقَّعته. كيف آلت إلى صالة العرض
الفنيَّة؟“

”تزوَّجت من المالك. كانت مُستشارته الضريبية.
علَّما عن الفنِّ، وعلَّمتُه عن الأعمال. عاشا معًا إحدى
عشرة سنةً سعيدةً قبل وفاته.“

انعطف بريان إلى الطريق الخاصَّة. كانت الأنوارُ
مُضاءةً في البيت الرئيس. وإذ مشَّت مع بريان على
القمرُ المُفضي إلى بابها الأمامي، أمسك بيدها.
ففوجئت وابتسمت له، ولاحظت الأنوارَ المُضاءةً
داخل القرسِم في الدور الأعلى. ماذا كان رومان
يفعل؟ ولماذا كانت مُفكرةً فيه من جديد؟

أدركت أن بريان لم يقل أيَّ شيء منذُ أوقفَ
السَّيَّارة وساعدها على التَّرجُّل منها. ”شكرًا على
مجيئكَ إلى صالة العرض معي الليلة، بريان.“ حرَّرت
يدها من يده، وأخرجت مفاتيحها من جِردانها، ثمَّ

فَتَحَتِ الْبَابَ.

”هل لنا أن نتحدّث دقائق قليلةً قبل أن أمضي،
غريس؟“

تردّدت، مُتسائلة هل يُمكن أن تكونَ تلكَ اللَّيلةُ
نقطةَ تحوّلٍ في علاقتهما. ”أتريدُ أن ندخلَ الكوخَ؟
أستطيعُ أن أعملَ قهوةً.“

نظَرَ بريان إلى البيت الرّئيس وهزّ رأسه. ”الجوّ
لطيفٌ هنا في الخارج.“ كان هو أيضًا قد رأى الأنوارَ
مُضاءةً. وينبغي للمرشد أن يُعنى بالمظاهر. وإذ جلسا
على الحائط معًا، أمسك بيدها من جديد. ”تُعجبيني
يا غريس. تُعجبيني جدًّا. وأعتقدُ أنّك تعرفين ذلك.“

كان هذا ما تمنّته، أمّا كان؟ فلماذا لم تشعُر بأدنى
قسطٍ من التأثير. ”أنت أيضًا تُعجبني، بريان.“
وتوتّرت لما رفعَ يده ودفعَ شعرها فوقَ كتفها.

”هل تسمحين لي بتقبيلِ جبينك؟“

كانت قد قبّلت رجلين فقط في حياتها، ولم يكن
أيٌّ منهما قد طلبَ إذنًا. فسُتّرت مُفاجأتها، وقالت: ”لا
بأس.“ ثمّ أمالت رأسها نحوه، مُتسائلةً كيف سيكونُ
شغورُها.

قبّل بريان جبينها برقّةٍ وحنوٍّ وحرارةً. لم تشعُر
بمثلِ التأثير الضّئيل الذي شعرت به لما قبّلها پاتريك،
غريبونًا لِشيءٍ لم يحصل قط. كما أنّها ما شعرت بأكثرَ
من ذلك مع والدِ صمويل.

سوف يكبرُ ابْنُها ذاتَ يومٍ ويسألُ مَنْ كانَ والدَهُ.
فماذا يُمكنُها أن تقولَ؟ التَّقِيئَةُ في نادٍ. ولَمَّا طَلَبَ
مَنِّي أن أذهبَ معه، وافقْتُ، وأنتَ كُنْتَ الثَّمَرَةَ. لن
يكونَ عَلَيها أن تعترفَ إذا تنازلتَ عن صَموِيلَ لسيلاه
وروبن. ففي وَسعِ سيلاه أن تقولَ له بِصَدقِ إنَّها
خَطَّطت واختارته لِيكونَ ابْنُها.

ثمَّ لماذا كانَ فِكْرُها سارِحًا هُنَا وهُنَا لَمَّا قَبْلَ
بريان هِنلي جِبِينْها؟

انكفأ بريان، وفي سِيمائِهِ غُموض.

”ما خَطْبُكَ، غريس؟“

”لستُ صالِحَةً لَكَ كِفايَةً.“

”كُنَّا خُطاةً، والصَّدَاقَةُ مكانٌ جيّدٌ لِمُبَاشَرَةِ علاقةٍ
تدوم. هكذا بدأنا، شارلين وأنا.“ ثمَّ مالَ وأمسكها
بِكِلتا يَدَيها، وأوقفها معه.

ربّما كانَ أمرًا جيّدًا أنَّها لم تَنجذبِ إِلَيهِ جَسديًّا.
لقد فُتِنَتْ بِپاتريك، وكانت تلكَ العلاقةُ كارثةً. كما
كانتِ الثانيةُ أسوأً. لقد سمحتَ للغضبِ والعذابِ أن
يكونا ذريعةً لِليلةٍ فيها سلكتَ سبيلَ جُمهورِ الرّاشِدينَ
الشُّبابِ الذين اعتقدوا أنَّ العلاقاتِ العابرةَ مُسَوِّغَةٌ
تمامًا بينِ بالغينَ مُتوافقين. كانت مُوحِشَةً وبائسةً،
يائسةً وتائقةً لأنَّ تشعُرَ بشيءٍ ما، بأيِّ شيءٍ. لم تكذِّ
تذكُرُ تلكَ السَّهرةَ، ولكنَّها تذكُرُ أنَّها استيقظت ليلاً
في غيرِ سريرِها، فارتدت ثيابها بِسرعةٍ وفرّت.

وركضت على الشاطئ باكيةً. ثمَّ صعدت إلى الطريق، حيث كان لها من الصَّحو ما يكفي لطلبِ سيارَةٍ عُموميَّة.

لقد أحبَّت بريان. كان لطيفًا وعطوفًا. وكان وسيماً. وتسنى لهما أن يتحدَّثا بكلِّ شيءٍ وأيِّ شيءٍ. وكان الإيمانُ مُشترَكًا بينهما. لقد أرادت أن تعيش حياةً يرضى الله عنها، وكانت دَعوةُ بريان الواضحةُ أن يخدمَ الرَّبَّ. وقد شعرت بالأمان معَ بريان، دونَ أدنى إغواء. يقينًا أنَّ تلك كانت إشارةً حسنة.

فتحَ بابها الأماميَّ وردَّ لها المفتاح. "هل تذهبينَ معي في نُزهةٍ على الأقدام في دَرَبِ سُولستيس كانيون يومَ السَّبتِ الآتي؟ سأحضِرُ مَحْمِلًا ظهريًا لأتمكَّنَ من حَمْلِ صَمويل."

"يبدو الأمرُ رائعًا."

"سأَتَّصِلُ بكِ غداً." ثمَّ انحنى قليلًا وقبَّلَ جبينها برِقَّة. وتمنَّتْ غريس لو شعرت بِشِراة.

طرَحَت جِردانها على طاولة الرُّكن. إذا كان التَّنْزُهُ مَشِيًّا في الغابة تسليَّة بريان المُفضَّلة، فأحسنُ لها أن تستثمرَ في شيءٍ ما أكثرَ من جِذاءِ تِنِس. ستحتاجُ إلى جِزْمَةٍ خاصَّةٍ بِنْزِهِ السَّير على الأقدام في الغابات. لعلَّ رومان يسمُحُ لها باستعمالِ عُرفَةٍ تَمَرُّنِهِ حتَّى تُقوِّيَ عُضلاتها كِفايَةً بحيثُ تستطيعُ أن تحمِلَ على ظهريها مَحْمِلَ طِفْلِ. أطلقت ضِحكةً بلا مَرَح.

لبست ثياب النوم، وغسلت وجهها، ونظفت
أسنانها بالفرشاة. سمعت أليس يرسلني "يا
رجل، يا رئيسًا كبيرًا". وإذ تسارعت دقائق قلبها،
دخلت إلى المطبخ وسحبت تلفونها من جزدانها.
التفتت إلى ساعة المايكرويف، وردت. "الساعة
جاوزت نصف الليل، رومان".

"ما زلت مستيقظة".

"ليس إلى وقت طويل".

"أنا في مرسمي. لو دعوت أمير الأحلام ليبيت
عندك، ما خابرت".

لهت غريس، وخذها متأججان. "هل كنت
تراقبنا؟"

"دفعني حب الاستطلاع لأعرف ما يفعله مؤمنان
في ختام موعد". وضحك في خوف. "تلك القبلة
مناسبة للأطفال".

أنهت غريس المكالمة. كان من شأنها أن تطفئ
التلفون نهائيًا، لو لم يكن حبل سلامتها الوحيد بينها
وبين صمويل في حال الطوارئ. وضعت على منضدة
سريرها وزلت إلى السرير. غنى أليس من جديد.
وضعت مخدة فوق رأسها.

الفصل ١٧

رومان، في السابعة من العمر

استيقظ بُي راي دين على نعيق صفارة سيارة شرطة، وأضواء حمرة تومض على السقف. جذب البطانية الكريهة الزائحة إلى الأعلى فوق كتفيه. حدق نعسانا إلى لافتة "يسوع يخلص" النيونية بألوانها البرتقالي والأحمر والذهبي، في الجهة المقابلة من الشارع. وإذ كان ما يزال بردانا، كُنْ بين الوسائد البالية على الأريكة العتيقة.

انبعثت أصوات من وراء باب غرفة النوم، حيث كان رجل ساخطا وماما تتملقه. علم بُي راي أنه كلما جاء معها رجل إلى البيت من العمل، كان عليه هو أن يغادر السرير وينام على الأريكة.

هدرت معدة بُي راي. كان قد وجد رقائق حبوب في الخزانة ليأكلها على العشاء، ولكن لم يكن أي حليب في البراد. كانت الخزائن فارغة إلا من القناني التي احتفظت بها ماما لضيوفها. تمنى أن يترك

صديقٌ ماما الجديدُ ما يكفي من المال لشراء بعض
عُلب يَخْتَنِي دِنْتِي مُور وشيءٍ من اللَّحْمِ المُعَلَّبِ، وربَّما
أيضًا قليلٍ من البيض والخُبْز والحليب. فمُعْظَمُ ما
كسبته صُرِفَ لِقاءِ المسحوقِ الأبيض الذي ساعدها
على نسيانِ كُلِّ شيءٍ والشُّعورِ بالسرورِ إلى حينٍ،
حتى تُضْطَرَّ إلى النهوض والتذكُّرِ من جديدٍ.

في وَسْعِهِ أن يحصلَ على شيءٍ يملأُ به بطنه في
مطعم "جيش الخلاص"، وسيحصلُ على غداءٍ في
المدرسة مجانًا. ولكنَّ ذلك كان يبعُدُ عنه مسافةً
ساعات، والطريقة الوحيدة لتخفيف الألم الآن كانت
أن يعودَ إلى النوم. وقد كان ذلك صعبًا بوجودِ
الأضواء الوامضة. ظلَّ يُفَكِّرُ في دكان البقال.
استطاع أن يسرق ثُفَّاحَةً ذاتَ مرَّةٍ، ولكن في المرَّةِ
التَّالِيَةِ مَدَّ يَدَهُ لِأَخْذِ مَوْزَةٍ، فأمسك البقالُ بِمِعْصِمِهِ،
وقال له أن يُريَهُ دُولارًا، وإلا فأحسنُ له أن يُرخِي
المَوْزَةَ. فرفسه بُيِّي راي وأطلق ساقِيهِ لِلرَّيحِ، والمَوْزَةُ
الخضراءُ ما تزالُ في قبضتِهِ المُحْكَمَةِ. طارَدَهُ البقالُ
مسافةً صَفِيَّ مَبانٍ، قبلَ أن يتمكنَ من الإفلات. ولم
يمرَّ بِقُرْبِ ذلك الدُّكانِ ثَانِيَةً.

كفَّت ماما عن الكلام في غُرْفَةِ النَّومِ، وجعلت
أصواتٍ أُخْرَى بُيِّي راي يجذبُ البَطَانِيَةَ النَّتِنَةَ فوق
رأسه ويسدُّ أذُنِيهِ. ربَّما كان عمره سبعَ سِنِينَ فحسب،
ولكنَّهُ عِلْمٌ ما سمَّحت ماما بأن يفعلَهُ الرِّجالُ بها حتى

تتمكّن من دَفْعِ بَدَلِ الإِيجَارِ. على الأقلّ، هذا الرَّجُلُ
بدا لطيفًا. كان آخِرُ وَاحِدٍ قد طَوَّحَ بُيِّي راي عنْدَ
الغُرْفَةِ. وقد قَفَزَتْ ماما على ظَهْرِهِ، فَضْرَبَهَا أَيْضًا
ورَفَسَهَا قَبْلَمَا مَضَى.

زَحَفَتْ ماما إلى بُيِّي راي، باكيةً بُكَاءً مُتَقَطِّعًا مع
تَنَهُدٍ، وشالتهُ على ذِراعَيْهَا. ”أنا آسِفةٌ، يا صغِيرِي.
آسِفةٌ جدًّا. بأيِّ سِوَةٍ آذاك؟“ ولَمَّا رَفَعَتْ ذِقْنَهُ، بَكَتْ
بُكَاءً أَشَدًّا. وطلبت منه أن يقولَ لِمُعَلِّمِهِ إِنَّهُ وَقَعَ على
الدَّرَجِ في حادِثِ طارئٍ. ”لا أريدُ أن يأتِي مسؤُولو
خِدماتِ حِمايَةِ الأَوْلادِ ليأخذوكِ بعيدًا مِنِّي، فلا نرى
أحدنا الآخِرَ ثانيةً بتاتًا“. وقد أَفْرَعَتْ بُيِّي راي فِكْرَةً
أخِذهِ بعيدًا عن ماما أكثرَ ممَّا أَفْرَعَهُ الرَّجُلُ الذي آذاهُ
وَأذى ماما.

سمعَ بُيِّي راي أصواتَ غَضَبٍ في الشَّارِعِ تَحْتِ.
كانت ماما قد قالت له ألاَّ يَنْظُرَ بتاتًا إلى الخارِجِ، لأنَّه
لا يَعْلَمُ متى يُمكنُ أن يبدأ النَّاسُ بإِطلاقِ النَّارِ. ”ابقِ
مُنخَفِضًا وسالِمًا، يا صغِيرِي“. تصايحَ رَجُلانِ، وتكسَّرَ
زُجاج.

بدأ صديقُ ماما يتكلَّمُ في غُرْفَةِ النَّومِ. ضحِكتْ
ماما. ”ليس الأمرُ خطرًا. اسْتَلِقِي، حبيبي. نحنُ نقضي
وقتًا مُمتِعًا جدًّا...“ قال الرَّجُلُ إِنَّه ينبغي له أن
يذهب. فقد يتساءلُ النَّاسُ أين كان. مزيدٌ من
الحديثِ، أكثرُ هدوءًا الآن. انفتَحَ بابُ غُرْفَةِ النَّومِ،

وخرَجَ الرَّجُلَ لابسًا نصفَ ثيابه. تَبِعْتَهُ ماما، مُرتديَةً رُوبَها القَرْنُفُليَّ. ”حَسَنًا، إِذَا كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَمْضِيَ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَمْضِيَ“. وَنَقَرَتِ مِفْتَاحًا كَهْرِبَائِيًّا، فَغَمَرَ النُّورُ الغُرْفَةَ. كَانَ صَدِيقُ ماما يَنْتَعِلُ حذاءً أَسْوَدَ لَمَاعًا وَيَرْتَدِي بَنْطَلُونًا دَاكِنًا أُنِيقًا، وَحِزَامًا جَلْدِيًّا بَرَّاقًا. وَقَدْ تَلَمَّسَ أَزْرَارَ قَمِيصِهِ الأَبْيَضِ. وَإِذْ ضَبَطَ بُيِّي راي نَاطِرًا إِلَيْهِ، أَحْمَرَ وَجْهَهُ أَحْمَرًا شَدِيدًا. ”أَسِيفُ، بُنْيَّ“. فَجَعَلَ الاعْتِذَارُ بُيِّي راي يُحِشُّ نَحْسَةَ الخَطِئِ القَوِيَّةِ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاةِ ماما، وَكَرِهَ الرَّجُلَ مِنْ أَجْلِ تَذْكِيرِهِ بِذَلِكَ.

حَمَلَتْ ماما السُّتْرَةَ لِلرَّجُلِ كِي يَلْبَسَهَا بِسُرْعَةٍ. وَلَمَّا اسْتَصْعَبَ الرَّجُلُ عَقْدَ رِبْطَةِ عُنُقِهِ، أَزاحت ماما يَدَيْهِ. ”فَلْأَعْقِدْهَا لَكَ“. ثُمَّ بَوَّزَتْ تَبْوِيزَةً رَقِيقَةً. ”خَمْسُونَ دُولَارًا لَا تُسَعِفُ كَثِيرًا هَذِهِ الأَيَّامِ. أَجْمَعُ بَدَلَ الإِيجارِ بِشِقِّ النَّفْسِ، وَلَدَيَّ صَبِيٌّ يَكْبُرُ، عَلَيَّ أَنْ أَطْعِمَهُ“. ضاقت عينا الرَّجُلِ، وَقَدْ زَمَّ شَفْتَيْهِ بِأَحْكامِ. تَنَهَّدَتْ ماما وَهِيَ تَنْفُضُ الغُبَارَ عَنْ مَقْلَبِ سِتْرَةِ الرَّجُلِ. ثُمَّ تَراجَعَتْ خَطْوَةً. ”مَاذَا تُحِبُّ أَنْ تَتَنَاوَلَ عَلَى العِشاءِ اللَّيْلَةَ، بُيِّي راي“.

”رَقائِقُ تَشِيرِيوز“.

”وَأَنْتِ قَدْ شَرِبْتِ مَا بَقِيَ مِنَ الحَلِيبِ قَبْلَ يَوْمَيْنِ، أَمَا شَرِبْتِ يَا صَغِيرِي؟ أَنَا أَسِيفَةُ. ماما تَبْذِلُ أَفْضَلَ جَهْدِ تَسْتَطِيعُهُ“.

”ألا تقبضين مالَ إنعاش؟“

رفعت ماما نظرها إلى الرَّجُل. ”الإيجازُ في الحيِّ المُستهترِ أغلى منه في وتشيِّتا. ولكن لا بُدَّ أن تعلمَ ذلك، بالنَّظرِ إلى الفُنْدُقِ الذي تنزلُ فيه لأجلِ مؤتمرِ الأعمالِ الذي تحضُّره.“

رمقَ الرَّجُلُ بِي راي بنظرةٍ خائبةٍ وسحبَ محافظته. لاحظَ بِي راي الخاتمَ الذهبيَّ في إصبعه إذ اختارَ بضعَ ورقاتٍ نقديةٍ ودفَعها إلى كَفِّ ماما الممدودة. أبقت يدها ممدودةً قليلاً بعد، فأضاف ورقةً أخرى قبلَ أن يَطويَ المحافظَةَ ويُدسِّها في جيبه. لم يبدُ مسروراً. تبسَّمت ماما. ”لكَ قلبٌ طيبٌ.“ وقد بدت مُخلصةً. ثمَّ توجَّهت إلى الباب، فأزالت السُّلَيْسِلَةَ وبرَّمت سُقَّاطَةَ القفلِ مرَّتين، وفتحتِ الباب. ”خُذ حِذْرَكَ خارجاً هناك. أنتَ لم تُعد في كنساس.“ وأطلقت ضحكةً خفيفةً، كما لو كانت قد حَكَت نُكْتة.

بدا الرَّجُلُ مُضْطَرِباً. ”تركْتُ سيَّارتي المُستأجرةَ بقربِ النَّادي. كنتُ سَكْرانَ قليلاً. كيف أرجع؟“

”انعطفْ شمالاً، امشِ مسافةَ صَفِي مَبانٍ، انعطفْ يميناً، فترى أنوارَ الفُنْدُقِ.“ أغلقت ماما الباب في وجهه. أدارت السُقَّاطَةَ مرَّتين وعلَّقت السُّلَيْسِلَةَ من جديد. تلاشتِ ابتسامتها مع أيِّ أثرٍ من الشُّرورِ إذ التقطت حقيبتها الظهريةَ التي كانت قد ألقَتْها على

الطاولة الرُكنية البرتقالية العتيقة. أقحمت المال في داخلها، وطرحتها من جديد. وإذ تشاءبت فاتحةً فمها كثيرًا، فزكت ظهرها. ”أنا بحاجة إلى حمامٍ ساخنٍ طويل. ثم سأنامُ حتى الظهر“. انحنت إلى الأمام وقبّلت بِيي راي. ”أيقظ نفسك صباحًا واستعدّ للمدرسة، حبيبي“. ودخلت إلى الحمام.

فعلَ بِيي راي ما كان مُضطّرًا إلى فعله. سرَق ورقةَ عشرينَ دولارًا من جِردانِ ماما.



حالما صُرف التلاميذ من المدرسة، توجهَ بِيي راي إلى المتجرِ الاستهلاكيّ، ودفعَ أمانةً عَرَبيةً أكبرَ منه على القمّراتِ ذهابًا وإيابًا. كان كلُّ شيءٍ يُكلّف كثيرًا جدًّا! قرَّ قراؤه على مرطبانٍ زُبدةٍ فُسْتُقٍ وأصابعِ هُلامٍ عَنبٍ، ورغيفِ خُبزٍ تخينٍ، وعُليبةٍ فيها اثنا عشرَ قلمَ تلوينٍ، وأربعةَ أقلامٍ رصاصٍ مع مِبراةٍ صغيرةٍ في حُزْمَةٍ واحدةٍ، ودفترٍ مُسطّرٍ معروضٍ بِسعرٍ مُخفّفٍ يبلغُ دولارًا واحدًا. ربّما ذهبتِ ماما لِلتَّبضعِ بِباقي المالِ الذي أعطاهَا الرَّجُلُ إيَّاه البارحة. وربّما يكونُ في البَرادِ حليبٍ، وفي الخزانةِ رقائقُ حُبوبٍ.

كانت ماما مُستيقظةً ولابسةً لأجلِ الدُّبِّ، كما كانت تقول. وقد كانت مسرورةً أيضًا، ما عنى أنّها حصلت على كميّةٍ أُخرى من حُبوبِ المنع. ”إِذَا ماذا اشتريتِ بالعشرينَ دولارًا التي أخذتها، يا صغيري؟“

أَخَذَتْ كَيْسَ النَّايِلُونِ مِنْهُ وَفَرَّغَتْهُ عَلَى الطَّائِلَةِ، فِيمَا مَضَى هُوَ لِيَنْظُرَ دَاخِلَ الْبَرَادِ. لَا حَلِيبَ. ”أَسِيفَةَ، حَبِيبِي. مَا كَانَ عِنْدِي وَقْتُ كَيْ أَذْهَبَ لِلتَّبْضُوعِ. كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَ نَفْسِي حَسَنَةً الْهِنْدَامِ. اسْمَعِ مَا أَقُولُ لَكَ! سَأَجِدُ رَجُلًا لَطِيفًا يَصْطَحِبُنِي إِلَى مَطْعَمٍ فَاخِرٍ ثُمَّ أَحْضِرُ لَكَ كَيْسَ طَعَامٍ“. وَضَحِكَتْ. ”مَطْعَمٍ أَلِيُوتُوا! كَيْفَ وَقَعُ هَذَا؟ أَوِ الْمَطْعَمِ الْفَرَنْسِيْسْكَانِي! سَأَطْلُبُ كَزْكَندًا!“ ”ثُرَيْدُ سِنْدُوَيْتَشَا، مَامَا؟“ لَمْ يُرِدْ بَيْبِي رَايَ لَهَا أَنْ تَمْضِي. ”سَأَحْضِرُهُ لَكَ“. عِنْدَمَا تَكُونُ سَعِيدَةً هَكَذَا، تَبْقَى غَائِبَةً طَوَالَ اللَّيْلِ.

”لَا، يَا صَغِيرِي. ذَلِكَ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ لَكَ“. عَلَّقَتْ جِزْدَانَهَا الْكَبِيرَ عَلَى كَتْفِهَا وَتَوَجَّهَتْ لِلخُرُوجِ. ”أَقْفِلِ الْبَابَ بَعْدَ ذَهَابِي“.

كِرَةٌ بَيْبِي رَايَ أَوْقَاتَ مُغَادِرَةِ أُمِّهِ وَهِيَ مُرْتَفِعَةٌ الْمَعْنَوِيَّاتِ وَمَسْرُورَةٌ. أَخِرَ مَرَّةً فَعَلَتْ ذَلِكَ، لَمَّا رَجَعَتْ بَكَتَ طَوَالَ الْيَوْمِ التَّالِي، وَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَضَعُ كَثِيرًا مِنَ الْمَاكِيَاكِجِ لِتُغَطِّيَةَ الرُّضُوضِ قَبْلَ ذَهَابِهَا إِلَى الْعَمَلِ فِي النَّادِي. ”مَامَا، لَا تَذْهَبِي. مَامَا، رَجَاءً“. ارْتَعَشَتْ شَفْثُهُ، وَتَرَكَ الدُّمُوعَ تَجْرِي أَمِلًا أَنْ تُحَدِّثَ فَرْقًا.

رَجَعَتْ مَامَا مَكْرُوبَةً. ”أَه، حَبِيبِي، أَنْتِ تَعْلَمُ أَنْ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ. مَامَا تُدَبِّرُ الْأُمُورَ بِطَرِيقَةٍ أَفْضَلَ جَدًّا عِنْدَمَا تَحْضُلُ عَلَى قَلِيلٍ مِنْ شَيْءٍ مَا لِلْمُسَاعَدَةِ. هَلْ تَعْرِفُ؟ أَنَا أَبِذُلُ أَفْضَلَ جَهْدٍ أَسْتَطِيعُهُ، يَا صَغِيرِي.

أحيانًا أنا...“ هزّت رأسها، ووضعت يدها على رأسه. “لا تنظر إلي هكذا، بُبي راي“. ثم انحنّت واحتضنت وجهه بكفيها. “أنت تعلم أنني أحبك أكثر من أي شيء في هذا العالم كله. سأعتني بك عناية جيّدة، يا صغيري. انتظر فتري.“

“ماما...“ عانقها بشدة. كانت ناعمة وفاحة منها رائحة العطر الطيب. تشبّت بها كالبلابل المعتريش على حائط من قرميد.“

“أفلتني، بُبي راي“. أبعدت ماما ذراعيه عنوة وثبّته بأحكام على مسافة ذراع واحدة. “كف عن هذا الآن الآن! أنت تعلم أنني سأرجع. ألا أرجع دائمًا؟ كُن صالحًا الآن. ابق في الداخل. أقفل الباب. لك أن تشاهد التلفزيون حتى أي وقت متأخر تريده“. ثم انصرفت دون النظر إلى الورا من جديد.

ذهب بُبي راي إلى النافذة وحاول أن يفتحها. عارك السقّاطة، ولكنها أبت أن تتزحزح. ظهرت ماما في الشارع تحت. دق على الزجاج، ولكنها لم تنظر إلى فوق. كانت تمشي كأنها تعلم تمامًا إلى أين هي ذاهبة. تمنى لو يعلم أين ذلك المكان.

فتح غليبة أقلام التلوين الجديدة، ورسم على صفحة ورقة صحيفة. أكل سندويتش زبدة فستق ومربى هلامي. لما غابت الشمس، شاهد التلفزيون. جرّ قلقًا كرسي مطبخ إلى النافذة، وقعد ينتظر ماما

حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى الْبَيْتِ. انْبَعَثَتْ لَافِتَةً النَّيُونَ عَبْدَ
الشَّارِعِ. تَسَاءَلَ عَنْ يَسُوعَ مَنْ يَكُونُ. قَالَتْ مَامَا إِنَّ
بَابَاهَا كَانَ مُتَدِينًا وَحَاوَلَ إِخْرَاجَ قَوَى الْجَحِيمِ مِنْهَا
بِالْقُوَّةِ. اتَّخَذَ بُيِّي رَايَ مِنْ ذِرَاعِيهِ وَسَادَةً، وَرَكَّزَ عَلَى
جَمَالِ تِلْكَ الْأَضْوَاءِ الْقَوِيَّةِ الْخَلَّابَةِ. حَاوَلَ أَنْ يُبْقِيَ
عَيْنَيْهِ مَفْتُوحَتَيْنِ.

نَبَّهَهُ ضِحْكُ صِبْيَانِيٍّ. كَانَ مُرَاهِقٌ لَابَسَ ثِيَابًا
سُودَاءَ، يَرَسُمُ بِطِلَاءِ الرَّشِّ عَلَى الْجِدَارِ عَبْدَ الشَّارِعِ.
وَقَدْ وَقَفَ مُرَاهِقٌ آخَرُ عِنْدَ الزَّاوِيَةِ مُتَوَلِّيًا الْجِرَاسَةَ.
أَصْفَى بُيِّي رَايَ وَرَاقِبَ إِذْ فَتَحَ الرَّسَامُ حَقِيْبَةَ ظَهْرِيَّةٍ
وَأَخْرَجَ عُلْبَةَ رَشِّ أُخْرَى، صَفْرَاءَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، ثُمَّ
خَضْرَاءَ فِي الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ. أَشَارَ إِلَيْهِ الْحَارِسُ أَنْ
يُسْرِعَ. اشْتِغَلَ الرَّسَامُ بِسُرْعَةٍ، رَاسِمًا حُرُوفًا كَبِيرَةً
مَنْفُوحَةً، فِيمَا بُيِّي رَايَ يُشَاهِدُ مَفْتُونًا. صَفَرَ الْمُرَاهِقُ
الَّذِي عِنْدَ الزَّاوِيَةِ. خَبَأَ الرَّسَامُ طِلَاءَ الرَّشِّ، وَعَلَّقَ
حَقِيْبَتَهُ عَلَى كَتِفِيهِ، وَتَوَارَى خَلْفَ الزَّاوِيَةِ تَمَامًا حِينَ
وَصَلَتْ سَيَّارَةٌ شُرْطِيَّةٌ إِلَى التَّقَاطُعِ. تَوَقَّفَتِ السَّيَّارَةُ،
وَفَتَّشَتْ حُزْمَةً ضَوْءٍ فَأَظْهَرَتِ الْجِدَارَ الْمَرْسُومَ
حَدِيثًا. انْعَطَفَتِ سَيَّارَةُ الشُّرْطَةِ فِي الْإِتِّجَاهِ الَّذِي كَانَ
الْفَتْيَانِ قَدْ رَكَّضَا فِيهِ، وَحُزْمَةُ الضَّوْءِ تَتَحَرَّكُ مِنْ أَحَدِ
جَانِبِي الشَّارِعِ إِلَى الْآخَرِ.

تَخَلَّى بُيِّي رَايَ عَنْ يَقْظَتِهِ وَصَعِدَ إِلَى السَّرِيرِ الَّذِي
تَشَارَكَ فِيهِ مَعِ مَامَا. التَّفُّ بِشَكْلِ كُرَّةٍ عَلَى الْجِهَةِ الَّتِي

تشغلها ماما. ستوقظه حين تصل إلى البيت. ولعلها تأتي برجلٍ معها إلى البيت. رجلٍ لطيفٍ كأخٍ واحد، على استعدادٍ لأن يُناولها عشرين دولارًا إضافيةً. ثم نامَ نومًا مُتقطِّعًا.

كانت ماما ما تزال خارج البيت في الصُّباحِ الثَّالي. لم يعلمَ بِيي راى أيذهبُ إلى المدرسة أم ينتظر. ثم التقطَ كُتبه، مُرتاعًا وغازبًا، وتوجَّهَ نازلًا على الدَّرَج.

خرجَ مستر سَلقاغيو من شقته، وقد بدا شبيهًا بِبِقطينةٍ في كنزته الفضاضة من ماركة "جاينت". "هاي! أين أمك تلك؟ هي مديونة لي بالإيجار!" اندفعَ بِيي راى حوله كالسهم. "هاي! أنا مُتكلم إليك، يا صبي!" وثبَ مستر سَلقاغيو بِسرعةٍ وراءَ بِيي راى، ولكنَّ هذا ركضَ بِسرعةٍ جُرذٍ نحوَ البابِ الأماميِّ.

صاحَ مستر سَلقاغيو عاليًا عبرَ الدَّرَج: "هاي، شايلًا! أحسنُ لك أن تدفعي الإيجار، وإلا فأنا وابن عمِّي غويدو سنُخرجُك إلى الشَّارعِ نهائيًّا. هل تسمعيني؟"

مُرتعبًا ومُتسائلًا عمَّا سيَجري إذا لم يكن في حوزة ماما أيُّ مالٍ عندَ رُجوعِها إلى البيت، ذهبَ إلى النَّادي اللَّيليِّ حيث كانت تشتغل. انسلَّ من بابٍ جانبيِّ فيما كانت حُمولةٌ تُفرغ. كان النُّورُ في الدَّاخِلِ مُعتِمًا، وفاحت من المكان رائحةٌ كريهة. وقَّع رجلٌ يرتدي قميصًا بِكُمين وربطة عُنقٍ محلولةٍ أوراقًا على

لَوْحٍ مِشْبَكِيٍّ، وَسَلَّمَهَا إِلَى سَائِقِ الشَّاحِنَةِ. وَإِذْ فَتَحَ
صُنْدُوقًا، أَخْرَجَ قِنِينَةً ثُمَّ لَمَحَ بِي بِي رَايَ. ”مَاذَا تَفْعَلُ
هُنَا؟“ وَأَنْتَا ذَقْنَهُ. ”انصَرِفْ مِنْ هُنَا، يَا صَبِي! أَتُحَاوِلُ
أَنْ تَتَسَبَّبَ فِي إِغْلَاقِ حَانْتِي؟“

وَقَفَ بِي بِي رَايَ فِي مَكَانِهِ إِذْ أَقْبَلَ الرَّجُلُ نَحْوَهُ.
”أَنَا أَبْحَثُ عَنْ أُمِّي“. وَقَدْ ارْتَعَشَ صَوْتُهُ.

”كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَنْ هِيَ أُمُّكَ؟“ أَمَسَكَ بِهِ
الرَّجُلُ مِنْ كَتِفِهِ وَدَفَعَهُ نَحْوَ الْبَابِ. ”انصَرِفْ مِنْ هُنَا،
وَابْقَ خَارِجًا“.

بَقِيَ بِي بِي رَايَ فِي الدَّاخِلِ، مُكَافِحًا الدُّمُوعَ. ”اسْمُهَا
شَايِلَا دِينَ. تَشْتَغِلُ هُنَا“.

تَفَوَّهَ الرَّجُلُ بِكَلِمَةٍ بَدِيئَةٍ. ”لَمْ أَعْلَمْ أَنَّ شَايِلَا لَهَا
وَلَدٌ. أَوَدُّ أَنَا أَيْضًا أَنْ أَعْرِفَ أَيْنَ هِيَ. كَانَ مُفْتَرَضًا أَنْ
تَرْقُصَ الْبَارِحَةَ، وَلَمْ تُكَلِّفْ نَفْسَهَا عَنَاءَ الْحُضُورِ“.

لَمْ يَدِرِ بِي بِي رَايَ فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ يُفْتَشُّ، وَلَمْ يُرِدْ
أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الشُّقَّةِ السَّكْنِيَّةِ وَيَتَعَرَّضَ لِخَطَرِ إِمْسَاكِ
مِستَرِ سَلْقَاغِيُو بِهِ، فَذَهَبَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ. كَانَ الدَّرْسُ
قَدْ بَدَأَ أَصْلًا، فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْسَلَّ إِلَى دَاخِلِ الصَّفِّ
حِينَ يَكُونُ مِستَرُ تَالِبَتْ مُخَوَّلًا نَظَرَهُ وَيَزِلَّ إِلَى
مَقْعَدِهِ، أَمِلًا أَلَّا يَقُولَ أَحَدٌ أَيَّ شَيْءٍ. لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ
شَيْئًا، وَلَكِنَّ مِستَرُ تَالِبَتْ أَجَالَ نَظَرَهُ بَيْنَ بِي بِي رَايَ
وَسَاعَةِ الْجِدَارِ، ثُمَّ رَجَعَ لِشَرْحِ الْمَسْأَلَةِ الْحِسَابِيَّةِ الَّتِي
كَانَ قَدْ كَتَبَهَا عَلَى اللَّوْحِ الْأَسْوَدِ. عَلَى الْأَقْلِ، لَمْ

يُرْسِلُهُ مِستَر تالِبْت إلى مِكتَب النَّاظِر لِإِحْضارِ قُصاَصَةٍ تَأخَّر. وإلَّا كان عليه أن يُلْفِقَ كِذْبَةً أَمامَ النَّاظِر.

كانت عُرْفَةُ الصَّفِّ أدفاً من الشَّقَّة، وكافَحَ بِيي راي لِإِبْقاءِ عَيْنِيهِ مِفتوحَتَيْن. حاوَلَ أن يفهَمَ المِساوِلَ الجِسايَّةَ التي وزَّعها مِستَر تالِبْت. وَجَعْتَهُ مَعِدْتَهُ. وَضَعَ رَأْسَهُ بَيْنَ ذِراغِيهِ.

أيقِظَهُ الجِرْسُ مُجفَلاً. توَجَّهَ الأولادُ خارِجاً لِأجلِ الاستِراحة. وَقَفَ مِستَر تالِبْت بِجانِبِ مِكتَبِ بِيي راي. “هل كلُّ شِئٍ بِخَيْر، بِيي راي؟”

قال بِيي راي إنَّ كلَّ شِئٍ حَسَن. وَعِندَ الغِداء، أَكَلَّ فقط نِصْفَ سِندويْتِشِهِ، واحْتَفَظَ بِالباقي خَشِيَةً أَلَّا يَكُونَ لَهُ أَيُّ شِئٍ يَأْكُلُهُ لِاحِقًا.

لَمَّا انصَرَفَتِ المِدرِسة، رَكَضَ بِيي راي طوَلَ الطَّرِيقِ إلى البِيت. كانت الشَّقَّةُ غَيْرَ مُقْفَلَةٍ. قَفَزَ قَلْبُ بِيي راي أَمالاً، وَرَكَضَ إلى عُرْفَةِ النُّومِ، مُتَوَقِّعًا أن يَرى ماما نائمة. لَم تَكُنْ هُنَاكَ. وَلَمَّا خَرَجَ، رَأى المِسااحةَ الخالِيةَ حَيْثُ كانَ التِلفِزيون. هلِ اقْتَحَمَ لُصوَصٌ؟ أم هلِ أَخَذَ مِستَر سَلْقاغِيو الشِئَ الوَحيدَ الَّذِي لَهُ قِيمَةٌ ما في الشَّقَّة؟ خافَ بِيي راي أن يَنْزِلَ وَيَسأل. وَبَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، خَرَجَ ثائِيَةً وَفَتَّشَ فِي الجِوارِ عَنِ ماما.

قالَ صاِحِبُ مَتَجَرِ الكُحولِ إِنَّهُ لَمْ يَرَ شايِلا دِينِ عَلى مَدى ثِلاثَةِ أَيَّام. مَشى بِيي راي حَتَّى مُلتَقى

شارع ثورك ومازكت، وسارَ في مازكت إلى غرانت حيث تخطى المسرح حتى وصل إلى لقنوزت وتوجهَ إلى ثورك من جديد. وكان الظلامُ قد حلَّ لَمَّا رجعَ إلى البيت. كانت أنوارُ الشَّقة مُطفأةً، ولم تُضئ لَمَّا نَقَرَ المفتاحَ الكهربائي. وقد كانت ماما ما تزالُ غائبةً عن البيت.

مُرَهقًا وجائعًا وخائفًا، جلسَ بُبي راي على الأريكة العتيقة. ماذا ينبغي له يفعلَ الآن؟ أينَ ينبغي أن يُفتش؟ كانت ماما دائمًا ترجعُ إلى البيت قبلَ الصُّباح. فلماذا لم ترجع؟

مَطَّ بُبي راي زُبدةَ الفُسْتُق وأصابعَ الهَلَام والخُبْزِ الثَّخينَ على مدى ثلاثة أيَّام. كانَ ما يزالُ لديه دولاران في جيبه، ولكنه خاف أن يصرِفَهُما.

سأله مستر تالبت ثانية هل كلُّ شيءٍ بخير، فقال نعم أيضًا، مُصْطَنِعًا وضعًا جسمانيًا بسيطًا ليجعلَ جوابه يبدو صحيحًا. "لماذا لا أكونُ بخير؟"

"لأنَّك ما برحتَ لابسًا القميصَ نفسه على مدى ثلاثة أيَّام".

"لم تتفرَّغ ماما لغسلِ الثَّياب. مفهوم؟"

"لا بأس، ولكن أينَ فرضُك المنزليُّ؟ أنت دائمًا تُنجِزُ فروضك، ولم تُسلمني أيَّ شيءٍ طوالَ يومين. ثمَّ إنَّك لا تُنجِزُ ما أعطيك إياه في الصَّف. ليسَ ذلكَ شبيهًا بك، بُبي راي. ماذا يجري؟"

”نَسِيْتُ فِعْلًا. ذَلِكَ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ. سَأُنْجِزُهُ.
سَأَسْأَلُكَ إِيَّاهُ غَدًا“.

كان عليه أن يُقاومَ بِقُوَّةٍ حَتَّى لَا يَبْكِي لَمَّا وَضَعَ
مِستَر تالِبَت يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ وَضَغَطَ بِرِفْقٍ. ”ستقول
لي إذا احتجت إلى مُساعدة، أَلن تقول؟“
اشترى بُي راي موزةً ولَوْحَ سنيكرز في طريقه
إلى البيت. اشتغلَ بفرضه المنزلي على طاولة
المطبخ. قرعَ أحدهم الباب، فازدادت سُرعة قلب بُي
راي. وقف على رؤوس أصابع قدميه ووصوص من
خلال ثقب الباب. كان مِستَر تالِبَت واقفًا خارج الباب.
وقرعَ ثانيةً. ”مِسز دين؟ بُي راي؟“ ثُمَّ قرعَ مُعلِّمه
أيضًا، قرعًا أعلى هذه المرّة. وهدرَ صوت رجلٍ من
الأسفل، فقال مِستَر تالِبَت إِنَّهُ يَتَفَقَّدُ تَلْمِيذًا. وما لبث
أن ابتعدَ عن الباب، فلم يعد بُي راي يستطيع أن
يراه. ماذا كان مِستَر سَلْقاغيو قائلًا له؟

ارتاب بُي راي بشأن تلك الزيارة. حاول أن يُركِّزَ
على فرضه المنزلي ويُنجزَ كل ما كان مُفترَضًا أن
يُنجزَه. استحَمَّ، وغسلَ شعره، ونظفَ أسنانه
بالفرشاة، أملًا أن تفتحَ ماما بابَ الحمام وتقول له إِنَّهُ
تباطأ كثيرًا جدًّا.

ليس ثيابًا مُختلفةً صباحَ اليومِ التَّالي. نظرَ إليه
مِستَر تالِبَت فاحِصًا، ولم يقل شيئًا. هدرت مَعِدَةُ بُي
راي عاليًا حَتَّى ضحكَ التلاميذُ الذين حولَه. وإذ

احمرَّ وَجْهَهُ كَثِيرًا، أَبْقَى رَأْسَهُ مُنْخَفِضًا، فِيمَا دَعَاهُمْ
مِيسْتَر تَالِبْت إِلَى الْهُدُوءِ الْوَاجِبِ وَتَابَعَ شَرْحَ الدَّرْسِ.

لَمَّا رَجَعَ بُيِّي رَايَ إِلَى الْبَيْتِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ، كَانَ
مِيسْتَر سَلْقَاغِيُو فِي رِوَاقِ الْمَدْخَلِ مَعَ رَجُلٍ لَمْ يَعْرِفْهُ.
أَوْمَأَ مِيسْتَر سَلْقَاغِيُو بِرَأْسِهِ نَحْوَ بُيِّي رَايَ. "إِنَّهُ هُوَ. لَا
أَحَدٌ يُخْطِئُهُ". دَسَّ الرَّجُلُ لَفِيفَةً أَوْرَاقٍ نَقْدِيَّةً فِي يَدِ
مِيسْتَر سَلْقَاغِيُو ذَاتِ الْأَصَابِعِ السَّمِينَةِ، فِيمَا صَعِدَ بُيِّي
رَايَ الدَّرَجَ رَاكِضًا. كَانَ الْبَابُ مَفْتُوحًا هَذِهِ الْمَرَّةَ.
"مَامَا!" حَلَّ الْأَطْمِئِنَانِ حَتَّى رَأَى غُرْفَةَ الْجُلُوسِ
الْفَارِغَةَ. كَانَ كُلُّ الْأَثَاثِ غَيْرَ مَوْجُودٍ. "مَامَا!" رَكَضَ
نَحْوَ غُرْفَةِ النَّوْمِ. وَإِذْ لَمْ يَجِدْهَا هُنَاكَ، خَرَجَ مِنْ جَدِيدٍ
مُرْتَبِكًا. كَانَتْ الشَّقَّةُ خَالِيَةً، مَا عَدَا صُنْدُوقَيْنِ مِنْ
ثِيَابِ مَامَا فِي وَسْطِ الْغُرْفَةِ.

دَخَلَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ مَعَ مِيسْتَر سَلْقَاغِيُو إِلَى
الشَّقَّةِ. "سْتَذْهَبُ مَعِي، يَا صَبِيَّ".

تَرَاوَجَ بُيِّي رَايَ مُبْتَعِدًا. "أُمِّي آتِيَةٌ إِلَى الْبَيْتِ".
"مَتَى كَانَتْ آخِرُ مَرَّةٍ فِيهَا رَأَيْتَ أُمَّكَ؟ قَبْلَ أَرْبَعَةِ
أَيَّامٍ، كَمَا سَمِعْتُ. لَقَدْ رَحَلَتْ. أَنَا سَاهَتُمْ بِكَ". لَمَّا
حَاوَلَ بُيِّي رَايَ أَنْ يَتَخَطَّاهُ مُنْدَفِعًا نَحْوَ الْبَابِ، أَمْسَكَهُ
بِذِرَاعِهِ. وَلَمَّا قَاوَمَ بُيِّي رَايَ وَصَرَخَ، أَطْبَقَ الرَّجُلُ فَمَّهُ
بِيَدٍ قَوِيَّةٍ. عَضَّهُ بُيِّي رَايَ. صَفَعَهُ الرَّجُلُ بِقَفَا يَدِهِ
صَفْعَةً شَدِيدَةً جَدًّا بِحَيْثُ رَأَى نَقْطًا صُفْرًا وَشُودًا قَبْلَ
أَنْ يُلْقَى عَلَى كَتِفِ الرَّجُلِ وَيُحْمَلَ إِلَى خَارِجِ الشَّقَّةِ،

وساقاه مُثَبَّتَانِ بِإِحْكَامٍ عَلَى صَدْرِ الرَّجُلِ الصُّلْبِ
كَالصَّخْرِ.

”ماذا تظنُّ أنّك فاعِلٌ؟“ سمعَ بُيِّي راي صوتَ
مُعلِّمه مِستَرِ تالِبْتِ آتِيًا مِنْ مُنْبَسِطِ الدَّرَجِ فِي الأَسْفَلِ،
فصرخَ مُستَغِيثًا وَهُوَ يَضْرِبُ ظَهَرَ الغَرِيبِ.

”أنزلِ ذلكَ الصَّبِيَّ!“ كانَ رَجُلٌ آخَرٌ يَطْلُبُ رُؤْيَةَ
بِطَاقَةِ الهُوِيَّةِ. أَحَسَّ بُيِّي راي أَنَّهُ طَرِحَ. ارْتَدَّ نُزُولًا
سِتَّ دَرَجَاتٍ قَبْلَمَا أَمْسَكَ بِهِ أَحَدُهُمْ. ”لقد أَمْسَكْتُ
بِكَ!“ ثَمَّ حَمَلَهُ مِستَرِ تالِبْتِ، فِيمَا صَعِدَ شُرْطِي الدَّرَجِ،
مُتَكَلِّمًا بِسُرْعَةٍ عِبْرَ جِهَازِ اتِّصَالٍ لاسَلْكَيٍّ مُثَبَّتِ عَلَى
كَتِفِهِ. ”مئةٌ وَثمانونَ سَنْتِيْمَتْرًا، سِتَّةٌ وَثمانونَ
كِيْلُوغْرَامًا، البَشْرَةُ بَيْضَاءُ، الشَّعْرُ مَقْصُوصٌ قَصِيرًا،
سِتْرَةٌ طَيَّارٍ بُنْيَّةٌ، جِينزٌ لِيْقايِسَ وَجِذاءٌ أَسْوَدٌ...“

سألَ مِستَرِ تالِبْتِ بُيِّي راي هل تَأْذِي. وَجِعَهُ كُلُّ
مَكَانٍ مِنْ جِسمِهِ. أَجْلَسَهُ مِستَرِ تالِبْتِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ
وَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ. ”لا بأسَ، بُيِّي راي. نَحْنُ هُنَا
لِنُساعِدُ“. انضَغَطَ بُيِّي راي بَيْنَ ذِرَاعِي مُعلِّمه، وَهُوَ
يَبْكِي بَكَاءً مُتَقَطِّعًا، وَقَلْبُهُ ما زالَ يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ مِنْ
الخَوْفِ. ”مَنْ كانَ ذلكَ الرَّجُلُ؟ شَخْصًا تَعْرِفُهُ؟“ لَمْ
يَكُنْ بُيِّي راي قَدْ رَأَهُ قَطُّ مِنْ قَبْلِ. ”أَيْنَ أُمَّكَ؟“

اعتراهُ فُواقٌ. ”لستُ أدري. وَعَدتُ بأن تَعُودَ. إنَّها
دائمًا تَعُودُ“. وَلَمَّا سُئِلَ مِنْذُ متى غادَرْتَ، فَركَ عَيْنَيْهِ
وَحاوَلَ أَنْ يُفَكِّرَ. لَمْ يُرِدْ أَنْ يَقُولَ مِنْذُ خَمْسَةِ أَيَّامٍ.

”لقد أنجزتُ فرضي المنزلي“.

تبلّت عينا مستر تالبت. ”لا ينشغلُ بالكَ بذلك الآن. لا ينشغلُ بالكَ بأيّ شيء. مفهوم؟ سنأتي لك بِمُساعدة“.

رجع الشرطي نازلاً على الدّرج. كان الرّجلُ الغريبُ قد رحل. جلسَ مستر تالبت على المقعد الخلفي في السّيّارة مع بُبي راي، وقال إنّ كلّ شيء سيكوّنُ على ما يُرام. تكلمَ الشرطي عبْرَ جهازه اللاسلكي.

لم يُرد بُبي راي أن يمضي. كيف ستجده أمّه إذا غادرَ الشّقة؟ بكى وصرّخ بِشتائم، رافِسا ظهرَ مقعدِ الشرطي.

لما وصلوا إلى قسم الشرطة، جلسَ مستر تالبت معه حتّى جاءت سيّدة يرتسمُ الحزنُ في عينيها. أجرى مستر تالبت يده فوق رأس بُبي راي. ”اعتنِ بنفسك!“ عندئذٍ علمَ بُبي راي أنّه لن يرى مُعلّمه ثانيةً بتاتاً.

”أريدُ أمّي!“

أوماتِ السيّدة برأسها مُوافقةً. ”سنحاولُ أن نجدَها. وفي هذه الأثناء، عندنا لك مكانٌ آمنٌ تبقى فيه“.

بات بُبي راي أخيراً في طرفِ البلدة الآخر مع غُرباء. كيف ستجده أمّه؟ لم يُجادل أو يقل أيّ شيء. أكَلَ ما وُضع أمامه. استحمّ كما طلبت منه الأمُّ

بالتَّشَّة، وارْتدى ملبسَ النوم، وأوى إلى السَّرير
دونَ كلمة. وما إن سادَ الشُّكونُ المَنزِلَ، حتَّى لبسَ
ثيابه من جديد، وتسَلَّقَ خارجًا من النَّافذة.

قبضت عليه الشرطَةُ في الحيِّ المُستَهترِ اليومِ
التَّالي، قُربَ الشَّقَّةِ السَّكنيَّةِ التي كانَ هو وماما قد
أقاما فيها. أرسلته السُّلطاتُ إلى عائلةٍ تنشئةٍ أُخرى
أبعدَ كثيرًا. راقبه أهلُ البيتِ من كَثب، ولكنَّهُ رُغمَ
ذلك نجحَ في هُروبه قبلَ مُضيِّ أسبوعٍ واحد.

الفصل ١٨

أعدَّ رومان قهوةً وحضَّرَ فطورًا لجاسپِر باكرًا صباح الاثنين. طوى عُجَّةَ البيض وزلَّقَها على صحنِ جاسپِر. وإذ ألقى المِقلَاةَ داخلَ حَوْضِ المغسل، اقترح أن يجلسا في الخارج.

”ألن تأكل؟“

”رُبَّما في ما بعد.“

أزاح جاسپِر البابَ الزُّجاجيَّ حتَّى انفتح. ”الهواءُ مُنعشٌ قليلًا هنا.“

لم يكن ضبابُ الصُّباحِ الخفيفُ قد انقشَع بعد، وما كانَ لِيَنقشِعَ في غضونِ ساعات. ”يُمكِنُني أن أُعيرَكَ سِترةً.“

”أنا بخير.“ أتى جاسپِر على العِجَّةِ واثكأ إلى الورااء. ”ماذا في بالك، بُبي راى؟“ ورفعَ كُوبَ قهوَتِه.

”لستُ على يقينٍ بما سأفعلُه تاليًا.“

”أعِنِ الرَّسِمِ تتكلمُ أم عن غريس مُور؟“

”كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هَذِهِ الْمُحَادَثَةِ؟“

”أَذَلِكَ هُوَ مَا يَدُورُ بَيْنَنَا؟ مُحَادَثَةٌ؟“

نَهَضَ رُومَانٌ وَمَشَى إِلَى الْحَائِطِ. وَإِذَا غَدَا نِصْفَ جَالِسٍ، التَفَتَ نَازِلًا إِلَى جَاسِيدٍ. اسْتَطَاعَ رُومَانٌ، مِنْ مَوْقِعِهِ الْمُتَمَتِّازِ، أَنْ يَرَى دَاخِلَ الْمَنْزِلِ، عَبْرَ حُجْرَةِ الْجُلُوسِ إِلَى الْمَدْخَلِ، طَوَّلَ الطَّرِيقَ حَتَّى الْبَابِ الْأَمَامِيِّ. أَهْوَى عَتِيدًا أَنْ يَنْفَتَحَ أَمْ سَيَبْقَى مُغْلَقًا؟ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَّصِلَ بِغَرِيسِ الْبَارِحَةِ. وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَضْحَكَ عَلَيْهَا. ”أُظُنُّ أَنَّي رَسَمْتُ نَفْسِي فِي زَاوِيَةٍ.“

”مَاذَا تَعْنِي؟“

”أَرَسَمْتُ مَا يُبَاعُ. ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنَّهُ يَرُوقُنِي.“

”الْعَمَلُ أَمْ الْمَالُ؟“

وَقَفَ رُومَانٌ غَاضِبًا. ”أَيُمْكِنُ أَنْ نُجْرِيَ مُحَادَثَةً وَاحِدَةً فِيهَا لَا تَطْرَحُ عَلَيَّ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَسْئَلَةِ؟“

”هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي بِهَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَدْفَعَكَ إِلَى التَّكَلُّمِ. لَسْتُ هُنَا لِأَقُولَ لَكَ مَا نَعْمَلُ.“

أَطْلَقَ رُومَانٌ ضِحْكَةً شَدِيدَةً. ”مَا بَرِحَتْ تَحْشُرُ أَنْفَكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْذُ يَوْمٍ قَابَلْتُكَ.“

”كُنْتُ تَحْتَ وَصَايَةِ الْمَحْكَمَةِ وَمَصْدَرِ أَلْمِ هَائِلًا لَمَّا وَصَلْتُ إِلَى الْمَزْرَعَةِ، وَلَكِنَّا عَلِمْنَا أَنَّكَ كُنْتَ شَيْئًا مُمَيِّزًا. كَانَ فُتُوكَ نِدَاءً اسْتِغَاثَةً.“

”كنت أرجو أن أطرّد“.

”اقعد، بُني. إنك تُوتّر أعصابي“. وانتظر جاسپر حتى لبي رومان طلبه. ”كان لديك شيء ما لتقوله في ذلك الزمان. ولكنك توقفت عن الكلام فحسب“.

”الرسمُ الغرافيتي لا يُربح كثيرًا“.

”صحيح، وقد يؤدي بك إلى الحبس“. شرب جاسپر نصف قهوته. ”ولكن ذلك لا يُوقفك عنه. فالغدة في مرسمك وذاك الجدار الخلفي الذي عليه طبقة جديدة من الطلاء يقولان لي ذلك“. وخط جاسپر الكوب. ”لقد خرجت البارحة“.

”لم أعمل أي شيء“. لَمَّا لم تزد غريس على التلّفون، تعامل رومان مع عواطفه كما كان يتعامل دائمًا. ملأ حقيبة وتوجّه إلى المدينة. ثم ساق السيارة في أنحائها مدة ساعة قبل أن يتوجّه راجعًا إلى البيت، حيث أفسد جدار مرسمه الخلفي.

”كان رسمُ الغرافيتي وسيطك الذي تلجأ إليه عندما تكون أعصابك مشدودة. ماذا يُزعجك هذه الأيام؟“

لم يتملّص رومان ويتخلّص من جاسپر هذه المرّة. ”أحبّ تدفّق الأدرينالين. إنه يتغلّب على إقحام قبضة في جدار“.

”ما كنت غاضبًا، بُبي راي. كنت تتأجج غيرًا. لم تُرّق مرافقة غريس رجلًا آخر“.

أرادَ رومان إنكارَ الأمر. "ليسَ من شأني في شيءٍ
مَن تُرافِق. إنَّها تشتغلُ عندي. ذلكَ كلُّ ما في الأمر".
"لِمَ لا تُحاولُ أن تتعرَّفَ إلى غريس مُور بوصفها
شخصًا لا مُجرَّدَ موظِّفة؟ لم أكِّدُ أعرفُ الفتاة، وقد
أعجبتني".

"لديها أسوارٌ أكثرُ ممَّا لدي".

"هذا سببٌ إضافيٌّ لاكتشافِ ما وراءَ الأسوار. إنَّما
لا تخترقها اقتحامًا أو تُحاولُ أن تتسلَّقَ من فوقها.
فتش عن بؤابة. وعندما تجدها، اقرع؛ لا تدقَّ بشدَّة!"
وابتسم ابتسامَةً خفيفة. "ثمَّ انتظر".

"ما كان عليَّ قطُّ أن أنتظرَ من قبل".

"إذا كانت العلاقةُ العابرةُ هي كلُّ ما تُريده، فدعها
وشأنها. ليست غريس من نوعِ الفتيات اللواتي
يتعلَّقنَ بِفَتَى ما ولا يُبالينَ عندما يرحل".

انفتحَ البابُ الزُّجاجيُّ المُنزلق، وأقبلت غريس إلى
الخارج. "صباحُ الخير". ابتسمت لجاسپِر. "كنتُ أملُ
ألا أفوتك قبلَ توجُّهك إلى ديارك".

"ما كنتُ لأغادرَ دونَ أن أودِّعك". وقام.

بقيَ رومان قاعدًا فيما عانق جاسپِر غريسِ عناقًا
أبويًا. منذُ متى باتا ودودينِ هكذا؟

"سرَّني التقاؤك، جاسپِر. أرجو أن أراك ثانيةً".

"سترينني". وابتسم من فوقِ كتفه ابتسامَةً

عريضة لرومان. ”إلا إذا انتقل صديقنا ثانية دون أن يترك عنوانًا للاتصال به“.

تحدثا بضع دقائق، ثم دارت غريس لترجع إلى داخل المنزل. ”أحسن لي أن أباشر العمل، وإلا فإن الرئيس سيطرُدني“.

نظر جاسپر إلى رومان بحاجب مرفوع. ”وأحسن لي أن أنطلق في طريقي، وإلا فلن يفرش لي بساط الترحيب المرة التالية“.

لحق رومان بهما إلى الداخل. توجه جاسپر إلى حجرة الضيوف لإحضار حقيبة سفره. ووقف رومان عند مشرب الفطور، مُراقبًا غريس وهي تشطف الصحون وتضعها في غسالة الأواني. ”ما زلت غاضبة علي“.

”استشطت غضبًا، ولكنني تخطيت ذلك“. أغلقت غسالة الأواني بإحكام، ثم استقامت. ”ما دمت الآن مقيمة في جوار شخص موصوص، فساكون أكثر حذرًا“.

”لم أكن أنظر عبر نوافذك. كنثما واقفين خارجًا في العراء“.

”لا بأس باعتذار“.

ما كان قط قد اعتذر لأحد في حياته، ولم ينو أن يبدأ بذلك الآن تمامًا. ”لندع ذلك إساءة حُكم“.

قلبت عينيها وتوجهت إلى المكتب.

بعدما غادرَ جاسپر، لم يكن عندَ رومان أيُّ شيءٍ يعملُه. لم يشعُر بِقيلِ إلى التَّصميمِ أو الرَّسم. ولمَّا رنَّ التَّلفون، اتَّخذَ من ذلك ذريعةً لاستيفسارِ غريس. لم تنظرِ إليه واقفًا في مدخلِ الباب. كانت ما تزالُ على الخطِّ. أميرُ الأحلام؟ التفتت إليه، وكتبت ملاحظةً سريعة، وناولته الورقة. تاليا. هل تريدُ الأرقام؟ هزَّ كتفيه. ”ها هو هنا“. وناولته التَّلفون.

لقد بيعت جميعُ لوحاته المعروضة في الصَّالة. بات في مدَّخراته ما يكفي لأخذِ عُطلةٍ سنَّةٍ كاملة. لعلَّ ذلك يُتيحُ له وقتًا كافيًا لكي يُقرَّرَ ما يريدُ أن يقومَ به. ”شكرًا، تاليا“.

ضحكت تاليا. ”قل ذلك ثانيةً. لستُ على يقينٍ بأنني سمعتُ جيّدًا“.

”لقد سمعتني“. أنهى رومان المُكالمة وناولَ غريس التَّلفونَ من جديد. ”كانت لنا أمسيةٌ جيّدة“.

”أخبرتني تاليا“. كانت قد أدارت كُرسِيَّها وجلست مُواجهَةً له. رنَّ التَّلفون من جديد. شرعَ رومان في المُغادرة حالما ردَّت غريس، ولكنها رفعت إحدى أصابعها. ”أمرٌ غريب. هو هنا تمامًا. أسأليه“. ومدت يدها بالتَّلفون.

”ماذا؟“

”تقولُ تاليا إنَّ شُرطيًّا جاء إلى المَعْرِضِ البارحة؟“

أخذ رومان التليفون. "ماذا أريد؟"

أجابت تاليا: "لست متيقنة. طرح أسئلة كثيرة".

"عم؟"

"عنك. لم يسأل أي شيء لم يسأله آخرون قبله،

ولكن بدا الأمر أشبه باستجواب".

"اتكأ على الباب، متظاهراً بأن الحديث لم يكن أي

شيء مهم. "لعلها عادة. هل اشترى أي شيء؟"

"كان مهتماً بلوحة الشحارير التي رسمتها. سألني

هل أعرف أي شيء عن العصفور. قلت له إنني لست

عالمة بالطيور".

ظل نبض رومان يتسارع. كان في وسعه أن

يحس العرق منبعثاً. "متى كان هذا؟"

"لما تواريت داخل حمام الرجال. كنت سأعرفه

بك، ولكنه تلقى مكالمة. لم أراه بعد ذلك. هل من

شيء ينبغي أن أعرفه؟"

"عم؟"

"قل لي أنت".

تكلّف رومان ضحكة. "ليس لدي أي مبررات بارزة

أعلم بها. لعله يجب طيور الشحور. هل عرض ثمنًا

لقاء اللوحة؟"

"هل تمزح؟ من راتب شرطي؟" لقد باعها لمنتج

سينمائي مشهور بأفلام الخيال العلمي. ثم نسي

الشَّرْطِيُّ إِذْ تَحَدَّثَتْ بِشَأْنِ بَضْعَةِ أَشْخَاصٍ مُهِمِّينَ قَابِلَتَهُمْ. قَالَ لَهَا رُومَانٌ إِنَّ لَدَيْهِ عَمَلًا يَقُومُ بِهِ، وَنَاوَلَ غَرِيسَ التَّلْفُونِ مُجَدِّدًا. "سَاكُونٌ فِي مَرَسَمِي".

بَيْنَمَا بَقِيَ يَتَعَرَّقُ مِنَ الْحَدِيثِ، تَمَنَّى لَوْ لَمْ يُسْمَحْ لِتَالِيَا قَطُّ بِأَنْ تُخْرِجَ تِلْكَ اللُّوْحَةَ مِنَ الْمَنْزِلِ. كَانَ فِي مِزَاجِ قَاتِمٍ لَمَّا رَسَمَ سِرْبَ الشَّحَارِيرِ الْمُهَاجِمَةِ لِرَجُلٍ غَرِيبِ الشَّكْلِ جَالِسِ الْقُرْفُصَاءِ وَمُلْتَوٍ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ. مَا كَانَ يَنْوِي أَنْ يُرِيَ أَحَدًا اللُّوْحَةَ، نَاهِيكَ بِوَضْعِهَا فِي صَالَةِ عَرْضِ لِلْبَيْعِ. كَانَتْ تَالِيَا قَدْ رَأَتْهَا عَلَى الْحَامِلِ، وَقَدْ وَصَفَتْهَا بِأَنَّهَا الْأَثْرُ الْفَنِّيُّ الْأَكْثَرُ إِثَارَةً لِلْمَشَاعِرِ بَيْنَ مَا رَسَمَهُ. فَرَفَعَ تَقْيِيمُهَا الظُّلْمَةَ وَأَنْعَشَ كِبْرِيَاءَهُ. وَقَدْ اسْتَدْعَى الْبَلَاءَ لَمَّا سَمَحَ لَهَا بِعَرْضِ اللُّوْحَةِ.

سَرَى وَخَزُّ خَوْفٍ صَعُودًا دَاخِلَ عَمُودِهِ الْفِقْرِيِّ. كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُقْبِضَ عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْأَيَّامِ السُّودَاءِ. كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُوَضَعَ "الْعُصْفُورُ" فِي قَفْصِ. أَمَّا الْآنَ، فَلَدَيْهِ أُمُورٌ فَوْقَ الْحَدِّ يَخْسَرُهَا.

رُبَّمَا حَانَ الْوَقْتُ لِلخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِضِعَّةِ أَيَّامٍ. فَبَعْدَ جِدَارِيَّةِ سَانَ دِييَغُو، ثُمَّ إِنْجَازِ جَمِيعِ اللُّوْحَاتِ الْإِلَازِمَةِ لِلْمَعْرَاضِ، شَعَرَ بِالْجَفَافِ وَالْإِعْيَاءِ. وَإِذَا كَانَ شَرْطِيُّ يَنْتَقِصِي الْأَخْبَارَ عَنِ "الْعُصْفُورِ"، يَكُونُ هَذَا وَقْتًا مُوَاتِيًا لِلْقِيَامِ بِرِحْلَةٍ.

هَلْ مِنْ اِحْتِمَالٍ أَنْ تَذْهَبَ غَرِيسٌ مَعَهُ؟ أَمْرٌ

مَشْكُوكٌ فِيهِ. إِلَّا إِذَا طَلَعَ بِسَبَبِ وَجِيهِ لِاصْحَابِهَا.
وَلَكِنَّ فِكْرَةَ تَرْكِهَا فِي الْبَيْتِ هِيَ فِكْرَةٌ خَالِيَةٌ مِنْ أَيِّ
رَوْتَقٍ. لَقَدْ قَالَ لَهُ جَاسِپَرٌ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْهَا. لَعَلَّهُ يَجِدُ
ذَلِكَ أَسْهَلَ إِذَا كَانَ بَعِيدِينَ عَنِ الْمَكْتَبِ. فَكُلَّمَا بَاشَرَا
أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الْحَدِيثِ الشَّخْصِيِّ، اتَّخَذَتْ مِنَ الْعَقْلِ
ذَرِيعَةً لِلانْسِحَابِ.

فَكَّرَ مَلِيًّا فِي الاحْتِمَالَاتِ حَتَّى صَعِدَتْ إِلَى الدَّوْرِ
الْفَوْقَانِيِّ حَامِلَةً رِسَائِلَ. التَّفْتَتُ إِلَى طَاوِلَةِ الرَّسْمِ.
”أَعْتَقِدُ أَنَّي مَا رَأَيْتُ قَطُّ وَرَقَةً فَارِغَةً مِنْذُ بَاشَرْتُ
الْعَقْلَ عِنْدَكَ“.

”يَنْقُضُنِي الْإِلَهَامُ الْآنَ“.

”مَا بَرِحَ الْمَنْظَرُ خَارِجَ نَافِذَتِكَ قَائِمًا كُلَّ حِينٍ“.

”الْمَنَاظِرُ الطَّبِيعِيَّةُ لَيْسَتْ الْمَوْضُوعُ الْمَفْضَلُ
عِنْدِي“. وَلَكِنَّهَا وَفَّرَتْ لَهُ الْمَدْخَلَ الَّذِي كَانَ بِحَاجَةٍ
إِلَيْهِ. ”أَمَا كَانَ لَدَيْكَ اسْتِفْهَامٌ عَنِ رَسْمِي جِدَارِيَّةً
لِبَلَدَةٍ مَا فِي بِلَادِ الذَّهَبِ؟“

”سَاحِضٌ لَكَ الْمَلْفُ“. ثُمَّ رَجَعَتْ بَعْدَ دَقَائِقٍ
وَنَاوَلَتْهُ إِيَّاهُ. ”غُولِدِن! لَا مَعْلُومَاتٍ كَثِيرَةً عَنِ
الْمَكَانِ“.

قَلَّبَ الْأُورَاقَ، وَنَاوَلَهَا الْمَلْفَ مِنْ جَدِيدٍ. ”أُرِيدُ أَنْ
أَرَى الْبَلَدَةَ“.

”السَّيِّدُ الَّذِي اتَّصَلَ سَيَكُونُ مَسْرُورًا جَدًّا بِسَمَاعِ
ذَلِكَ. يُمَكِّنُنِي أَنْ أَخَابِرَهُ وَأُعَلِّمَهُ بِأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَقُومَ

بالرَّحلة. متى تَنوي أن تذهب؟“

”يُمْكِنُنا أن نَنطَلِقَ من هُنَا صَبَاحَ غَدٍ.“

جَمَدَت. ”نَحْنُ؟“

”نَعَمْ، نَحْنُ. يُخَيِّلُ إِلَيَّ مُدَّةَ يَوْمَيْنِ.“

”مُدَّةَ يَوْمَيْنِ؟“

كان واضحًا أنها لم تكن تَوَاقِفَةً إلى البقاء معه وحدها كما كان هو تَوَاقِفًا إلى البقاء معها وحده. خُيِّلَ إليه أن أميرَ الأحلام كان السَّبب. ”لستِ مُضطرَّةً إلى إعادة كلِّ ما أقولُه. ثُمَّ لا تَتَّصِلِي بِالرَّجُلِ وتَقُولِي إنَّنا ذاهبان. آخِرُ شَيْءٍ أريدُه هو الدَّعاية. غايةُ الرِّحلة أن أرى هل أريدُ أن يكونَ لي أيُّ شَأْنٍ أَفَعَلُه في...“ - نَظَرَ إلى المَلَفِّ مُجَدِّدًا - ”غُولِدِن“.

”لا أَسْتَطِيعُ أن أذهبَ معكَ.“

”أنتِ مُسَاعِدَتِي الشَّخْصِيَّة. سِتراْفِقِينِي لِثَدُونِي مَلاحِظَاتٍ وَتَعْطِينِي رَأْيَكَ.“

”ما سَأَلتَ قَطُّ عن رَأْيِي قَبْلًا.“

”في هذه الحَالَةِ، أريدُه.“

”حَسَنًا، كلُّ ما يَنبَغِي أن يُعْرَفَ عن غُولِدِن مَوْجُودٌ في المَلَفِّ. لا يَبْدُو المَكَانُ مُسْتَحَقًّا وَقْتِكَ.“

”ما زِلْتُ أريدُ أن أذهبَ، وأريدُ أن تُراْفِقِينِي. قد تَرِينِ شَيْئًا يَفُوتُنِي.“

”أنتِ الرِّسَامُ! سَتَرِي أَيَّ شَيْءٍ تُريدُ أن تَراه.“ بَدَتِ

مُرْتَعِدَةً، وَقَدْ ارْتَفَعَ وَانْخَفَضَ أَحْمِرَارٌ فِي خَدَّيْهَا.
”لَسْتُ ذَاهِبَةً فِي رِحْلَةٍ مَعَكَ“.

مَا رَأَاهَا قَطُّ مُنْزَعِجَةً هَكَذَا. لَعَلَّهَا لَمْ تَكُنْ لَامْبَالِيَةً
كَمَا تَصَوَّرْتَ. لَمْ يَكُنْ يَنْوِي أَنْ يُعَرِّضَ عِلَاقَتَهُمَا
الْحَالِيَةَ لِلْخَطَرِ إِلَّا إِذَا... مَاذَا؟ ”أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَى أَنَّكَ
لَسْتَ مُسْتَرِيحَةً إِلَى الْفِكْرَةِ، وَلَكِنِّي لَا أَرَى مُشْكِلَةَ
النَّاسِ يَقُومُونَ بِرِحَالَتِ عَمَلٍ مَعًا كُلَّ حِينٍ. أَلَمْ
تُسَافِرْ مَعِ رَئِيسِكَ السَّابِقِ؟

”كَانَ هَارْقِي فِي السَّادِسَةِ وَالسِّتِينَ مِنَ الْعُمُرِ
وَمُتَزَوِّجًا سَعِيدًا فِي زَوَاجِهِ“. وَمَا إِنْ خَرَجْتَ الْكَلِمَاتُ
مِنْ فَمِهَا، حَتَّى غَمَرَ الثَّوْرُودُ خَدَّيْهَا مِنْ جَدِيدٍ.

”إِذَا ثَمَانِينَ لِأُنِّي فِي الرَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ وَعَازِبُ“.
”لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَذْهَبَ، رُومَانَ. لَدَيَّْ مَسْئُولِيَّاتُ“.

”مِثْلًا؟“

”يَكُونُ صَمُويلُ مَعِي مِنْ مَسَاءِ الْجُمُعَةِ إِلَى مَسَاءِ
الْأَحَدِ“.

”فَلْتَهْتَمِي شَانِيْسَ مَعَ طِفْلِهَا، عَلَى سَبِيلِ التَّغْيِيرِ“.
انْفَعَرَ فَمُ غَرِيْسَ. ”ظَنَنْتُ أَنَّكَ عَلِمْتَ. صَمُويلُ هُوَ
ابْنِي، لَا ابْنُ شَانِيْسَ“.

”ابْنُكَ؟“ حَاوَلَ رُومَانَ أَنْ يَسْتَوْعِبَ النَّبَأَ الْمُفَاجِئَ.
كَانَتْ غَرِيْسَ أُمًّا؟ ”لَا، مَا عَلِمْتُ. أَنْتِ لَمْ تَقُولِي لِي“.
أَطْبَقَتْ يَدًا عَلَى مَعِدَتِهَا. ”مِسْزُ سَانْدُوْقَالِ عَلِمْتَ“.

كان ذلك مذکورًا في طلبی. ولم یکن سِرًا قَطُّ.

”ما قرأتُ الطَّلَبَ قَطُّ. یُخَيَّلُ إِلَیَّ أَنَّهَا عَلِمَتْ ما كنتُ بحاجةٍ إِلَیْهِ وأرسلتک“. لا بُدَّ أن تكونَ لدى غریس وصایةٍ مُشترَكةٍ مع زوجها السابق إذا كانت تأخذُ ابنتها في نهايةِ كُلِّ أسبوعٍ.

”صمویل هو السَّببُ الذي من أجله لم أُرِد أن أشتغلَ بعيدًا جدًّا عن بُربانک“.

”ظننتُ أنَّ المالَ غَیْرَ رأیکِ“.

احمَرَ خدَّاهَا. ”علیَّ أن أكسبَ مَعیشةً لائقةً“.

”ماذا عن نفقةِ الطَّلَاقِ؟“

”دعمتُ زوجي مادِّيًّا في أثناء دراسته الجامعیة. رحَل بعدَ تخرُّجه بأشهرٍ قليلةٍ. من دواعي الشُّكر أنه لم یطلبَ أيَّ حقوقٍ“.

ظنَّ رومان أنها كانت تمزح، ولكنها بدت جادةً تمامًا. رجلاً من أيِّ نوعٍ تزوَّجت؟ على الأقلِّ كان الرَّجُلُ مُهتَمًّا كفايةً بابنه حتَّى أراد أن یكونَ عنده في أثناء الأسبوع. ثمَّ خَطَرَت فِكرةٌ أُخرى. لعلَّ غریس كانت تُواعِدُ فتی الأحلام على أملِ أن تجدَ شخصًا أفضلَ یشتغلُ مكانَ الأبِ نسبةً إلى صمویل. لن تكونَ أوَّلَ امرأةٍ تری في الزَّواجِ حلًّا لجميعِ مشكلاتها. كانت أمُّه دائِمًا تظنُّ أنَّ رجلاً ما سیقبِلُ ویعتنی بها جيِّدًا، ولكنَّ كلَّ ما فعلَهُ الرَّجالُ كان الدَّفْعَ لِقاءِ خِدماتِها. لقد باعت نفسها بِرُخصٍ لِإبقاءِ سَقْفِ فوقِ

رَأْسِيهِمَا وَطَعَامٍ عَلَى الطَّائِلَةِ. ثُمَّ إِنَّ بَعْضًا مِنْهُمْ خَلَفُوا رُضُوضًا، وَوَاحِدٌ مِنْهُمْ خَلَفَهَا حُبْلَى بِهِ!

وَقَفَتْ غَرِيْسٌ صَامِتَةً، تَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَقَدْ بَدَتْ مَشْحُوبَةً جَدًّا، حَتَّى تَسْأَلَ أَيُّ مَلَامِحٍ كَانَتْ تَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِهِ. فَتَكَلِّفُ بِسَمَةِ يَسِيرَةً. كَمِ مِنَ الْمُفَاجِآتِ الْآخَرَى قَدْ يَكْتَشِفُ عَنْ غَرِيْسٍ مُورٍ فِي رِحْلَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ؟

”سَتَرْجِعُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. اسْتَعِدِّي لِلذَّهَابِ بَاكِرًا. أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ عَلَى الطَّرِيقِ السَّاعَةَ السَّابِعَةَ“.

”أَيْنَ سَتُقِيمِ؟“

”فِي فُنْدُقٍ. أَيْنَ تَعْتَقِدِينَ؟“

”أَعْنِي فِي آيَةِ بَلَدَةٍ. لَيْسَ فِي غُولِدِينَ فُنْدُقٌ“.

”لَا تَقْلِقِي، غَرِيْسٌ. سَتَجِدُ مَكَانًا تُقِيمِ فِيهِ“. وَرَفَعَ يَدَيْهِ لِيَصُدَّ سَبِيلَ الْاِعْتِرَاضَاتِ الَّذِي أَمَكْنَ أَنْ يَرَاهُ آتِيًا. ”سَتَكُونُ لَكَ غُرْفَةٌ وَحَمَّامٌ خُصُوصِيَّانِ فِي أَيِّ مَكَانٍ غَيْرِ قَرِيبٍ مِنِّي“. وَكَادَ يَقْتَرِحُ أَنْ تَتَّصَلَ بِأَمِيرِ الْأَحْلَامِ وَتُنَاقِشَ الْأَمْرَ مَعَهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدَّرَ إِلَّا يَفْعَلُ ذَلِكَ. إِذَا كَانَ لَدَى الرَّجُلِ أَيُّ مَشَاعِرَ تُجَاهَ غَرِيْسٍ، فَلَنْ يُرِيدَ لَهَا أَنْ تُسَافِرَ وَحَدَّهَا مَعَ عَازِبٍ، حَتَّى لَوْ كَانَ رَأْسِيهَا فِي الْعَمَلِ.

”أَفِي وَوَسِعْنَا أَنْ تُنَاقِشَ هَذَا، رَجَاءً؟“

لَمْ يُرِدْ أَنْ يَتَجَادَلَ مَعَهَا. ”عَلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ مِنْ هُنَا“. وَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْبَابِ. رُبَّمَا كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى

مُتَحَفٍ غَتِي. فهو لم يتوجّه إلى هُنَاكَ مِنْذُ مُدَّةٍ.
”السَّابِعَةَ صَبَاحًا، غَرِيْس. إِنْ لَمْ تَكُونِي قَدْ نَهَضْتِ
وَاسْتَعَدَدْتِ، فَسَاعِبْزُ وَآتِي بِكِ“.



رِحْلَةُ عَمَلٍ حَصْرًا، هَكَذَا قَالَ رُومَان. فَلِمَاذَا خَالَجَهَا
شُعُورٌ بِأَنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ دَارَتْ حَوْلَ أَيِّ شَيْءٍ مَا عَدَا
الْعَمَلِ. يَا رَبُّ، أَنَا مُبَالِغَةٌ فِي رِدِّ فِعْلِي؟ كَانَ هَارِثِي
قَدْ اصْطَحَبَهَا إِلَى مُؤْتَمَرَاتٍ. وَقَدْ حَسَبَ بِاتْرِيكَ ذَلِكَ
فُرْصَةً عَظِيمَةً لَهَا. فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْمَاضِي، عَلِمْتَ
لِمَاذَا كَانَ تَوَاقِفًا لِأَنَّ تَقْضِي وَقْتًا بَعِيدًا عَنِ الْبَيْتِ.

أَيُّ عُذْرٍ يُمَكِّنُهَا أَنْ تُقَدِّمَ لِرُومَانٍ عَنِّ عَدَمِ الذَّهَابِ؟
لَنْ تَأْخُذَ صَمُويلُ حَتَّى نِهَآيَةِ الْأُسْبُوعِ. إِنْ مُجَرَّدَ
إِدْرَآكِهَا لِجَآذِبِيَّتِهَا لَمْ يَعْني أَنَّهُ كَانَ لَدَى رُومَانٍ دَوَافِعُ
خَفِيَّةٌ، مَعَ أَنَّهُ أَحْيَانًا نَظَرَ إِلَيْهَا بِطَرِيقَةٍ جَعَلَتْهَا
تَتَسَاعَلُ. رَبِّمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَى شَخِصٍ
تَثِقُ بِهِ.

فَهَمَّتْ شَانِيْسُ حَالًا. ”حَقِيقَةُ كُونِكِ تَسْأَلِينَ عَمَّا
أَفْكَرُ فِيهِ تَقُولُ لِي إِنَّكَ مُتَوَثِّرَةٌ بِشَأْنِ الذَّهَابِ إِلَى أَيِّ
مَكَانٍ مَعَهُ. هَلْ وَفَّرَ سَبَبًا لِلارْتِيَابِ؟“

”مَا صَدَرَتْ مِنْهُ قَطُّ أَيْةٌ إِيمَاءٍ إِغْرَاءٍ، إِذَا كَانَ ذَلِكَ
مَا تَعْنِيْنَهُ. قَالَ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرَى غُولِدِينَ“.

”طَيِّبٌ، بِشَأْنِ أَيِّ شَيْءٍ أَنْتِ قَلِقَةٌ حَقًّا؟“

فَرَكَتْ غَرِيْسَ جَبِيْنَهَا مُتْنَهَّدَةً. ”لَسْتُ بَارِعَةً فِي قِرَاءَةِ الرِّجَالِ“.

”حَسَنًا، أَنَا بَارِعَةٌ“.

فَهِيْمَتْ غَرِيْسَ أَنَّ صَدِيْقَتَهَا كَانَتْ تُشِيْرُ إِلَى أَيَّامِ التَّرَدُّدِ عَلَى عَدَدٍ مِنَ النَّوَادِي فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ قَبْلَ إِيْمَانِهَا بِالْمَسِيْحِ. حَتَّى إِنَّ شَانِيْسَ، بَعْدَمَا صَارَتْ مُؤْمِنَةً، لَمْ تَرَ أَيَّ خَطِيٍّ فِي قِضَاءِ وَقْتِ مُتَمَتِّعٍ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ فِي نَادٍ. إِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ تَغْيِيْرٌ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

”ظَنَنْتِ أَنَّهُ كَانَ لَاعِبًا، شَانِيْسَ؟“

”مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ أَحْكُمَ. التَّقِيْثُ الرَّجُلَ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ. مُجَرَّدُ كَوْنِ الرَّجُلِ حَسَنَ الْهَيْئَةِ لَا يَعْنِي أَنَّهُ أَحْمَقُ كِيَاتَرِيْكٍ. مَا بَرِحَتْ تَشْتَغِلِيْنَ عِنْدَ رُوْمَانَ قِيْلَاسِكُو مُدَّةَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ. يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ لَدَيْكَ الْآنَ فِكْرَةٌ مَا عَنِ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الرِّجَالِ هُوَ“.

”إِنَّهُ مُدْمِنٌ عَقْلٍ، وَالْآنَ تَمَامًا لَيْسَ عِنْدَهُ مَشْرُوعٌ“.

حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَضِعْ قُمَاشَةً رَسِمٍ جَدِيْدَةً عَلَى أَيِّ حَامِلٍ“.

”يَبْدُو كَأَنَّهُ يُفْتِّشُ عَنِ شَيْءٍ مَا يُلْهِمُهُ“.

شَعَرَتْ غَرِيْسَ بِأَنَّهَا أَقْلٌ خَوْفًا بِقَلِيْلِ. ”مَا ذَهَبْتُ قَطُّ إِلَى شِمَالِ كَالِيْفُوْرْنِيَا“.

”الْأَجْوَاءُ جَمِيْلَةٌ هُنَاكَ فَوْقُ“.

”مَا ابْتَعَدْتُ قَطُّ شِمَالًا أَبْعَدَ مِنْ فَرَسُنُو“.

”أوه، حبيبتي، إذا اذهبي. إن كان أحدٌ يستحقُّ شيئًا من الرَّاحة والاستِجْمام، فذاك أنتِ“. وأطلقتِ نَفْسًا. ”انسِي أنني قلتُ ذلك“.

علِمَتِ غريس لماذا سحَبَتِ شانيِس كلامها بهذه السُّرعة. ”ما أنا إلا مُتوتِّرةٌ الأعصاب قليلاً بشأن قَضائِ النَّهارِ كُلِّهِ معه“.

”أنتِ تقضينَ النَّهارَ كُلَّهُ معهُ كلَّ يوم“.

”هو في مَرَسَمِهِ. أنا في المكتب. نتحدَّث بما يكونُ في البرنامجِ صباحًا. أتفقُّدُ الرِّسائلَ ظَهْرًا وأقومُ بالواجبِ حتَّى أنصَرِفَ“.

”أوه، حسنًا. لا يبدو كأنَّ عليكِ أن تقلقي“.

بدا كلُّ شيءٍ بالفعل عملاً بالمعنى الحصريِّ مع رومان، ولكنَّ غريس شعرت في ما بعد بتَّياراتٍ خفيَّة، لا سيَّما في المعرض في لاغونا. لعلَّها كانت تتخيَّل شيئًا لم يكن موجودًا.

”أصغي، غريس. إذا وجدتِ نَفْسَكَ مرَّةً جديدةً في وَضْعٍ مُعَقَّدٍ ومُربِكٍ فوق الطَّاقة، فاتَّصلي بي. ولا اعتقِده أمرًا مُضِرًّا أن تحضلي على رأي رجلٍ في هذه الرِّحلة. لِمَ لا تتَّصليينِ بـبريان وتحدِّثينِ إليه بشأنها؟“

”أظنُّ أنني سأفعلُ ذلك“. إذا كان بـريان مُهتَمًّا بها حقًّا، فلن يُريدَ لها أن تذهبَ بعيدًا في رِحلةٍ مع رجلٍ آخر. وقد يكونُ ذلك أيضًا طريقةً لاكتشافِ مدى غُمقِ مَشاعرِهِ حيالها.

طَرَحَ بَرِيَانُ الشُّوَالِ الَّذِي كَانَتْ شَانِيْسٌ قَدْ طَرَحَتْهُ
بِعَيْنِهِ. وَبَعْدَ حَدِيثٍ قَصِيرٍ، وَمُخَيَّبٍ نَوْعًا مَا، تَرَكَ
الْأَمْرَ لَهَا.

اتَّصَلَتْ غَرِيْسٌ بِسِيْلَاهُ لِتَطْلُبَ نَصِيْحَتَهَا. ”أُوهُ،
ذَلِكَ رَائِعٌ. جَيِّدٌ دَائِمًا أَنْ تَذْهَبِي إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ
وَتُشَاهِدِي أَشْيَاءَ جَدِيدَةً. هَذِهِ فُرْصَةٌ عَظِيمَةٌ لَكَ،
أَخِيَّتِي. اسْتَمْتِعِي. إِذَا قَرَّرَ مِسْتَرُ قِيْلَاسْكُو أَنْ يُمَدِّدَ
الرَّحْلَةَ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُعَلِّمِينِي. لَا تَقْلَقِي بِشَأْنِ أَيِّ
شَيْءٍ. صَامِيٌ بِخَيْرٍ“.

تَسَاءَلَتْ غَرِيْسٌ هَلْ قَصَدَتْ سِيْلَاهُ أَنْ تُلَمَّحَ إِلَى أَنْ
صِمُوِيْلٍ مَا كَانَ لِيَفْتَقِدَ أُمَّهُ الْأَصْلِيَّةَ. وَمَا آَلَمَهَا أَكْثَرَ
بَعْدُ هُوَ عِلْمُهَا بِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ صَحِيْحًا.

الفصل ١٩

في الصُّبَّاحِ التَّالِي، ألقى رومان حَقِيبةً دَاخِلَ صُنْدُوقِ سَيَّارَتِهِ. نَظَرَ إِلَى سَاعَتِهِ. إِنَّهَا السَّادِسَةُ وَسَبْعُ وَخَمْسُونَ دَقِيقَةً. أَقْبَلَتْ غَرِيسٌ مِنْ حَوْلِ الزَّاوِيَةِ، مَرْتَدِيَةً جِينزًا وَكَنْزَةً قَرْنُفَلِيَّةً خَفِيفَةً، لَا بِزَّةَ عَمَلِهَا الْمُعْتَادَةِ. بَدَتْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلسَّفَرِ بِحَقِيبَةِ سَفَرِهَا الصَّغِيرَةِ، وَحَقِيبَتِهَا الظُّهْرِيَّةِ، وَكَيْسِ النَّسُوقِهَا الْقَرْنُفَلِيَّ، وَجِزْدَانِهَا. حَمَلَ حَقِيبَةَ السَّفَرِ وَكَيْسِ النَّسُوقِ. وَلَمَّا أَخَذَ حَقِيبَةَ الظُّهْرِ، كَشَّرَ. "مَاذَا لِكَ فِي هَذَا الشَّيْءِ؟ قَرْمِيدٌ؟"

"حَاسُوبِي وَكِتَابَانِ دِرَاسِيَّانِ".

رَتَّبَ رومان حَقِيبَةَ السَّفَرِ وَالْحَقِيبَةَ الأُخْرَى بِحَيْثُ تَحْمِيَانِ حَقِيبَتِهَا الظُّهْرِيَّةِ. جَلَسَتْ غَرِيسٌ عَلَى مَقْعَدِ الرَّكَبِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَكَّنَ رومان مِنْ تَمَثِيلِ دَوْرِ السَّيِّدِ وَفَتَحَ البَابَ لَهَا. وَإِذَا انزَلَقَ إِلَى مَقْعَدِ السَّائِقِ، نَظَرَ إِلَيْهَا. "لَا نَحْتَاجُ إِلَى خَرِيْطَةِ طَرِيقٍ". ثُمَّ وَضَعَ إصْبَعَهُ عَلَى كَبْسَةِ الإِشْعَالِ فَهَدَرَ المُحَرِّكُ دَائِرًا. "فِي

السَّيَّارَةَ نِظَامًا لِتَحْدِيدِ الْمَوَاقِعِ“.

”أَحِبُّ الْخَرَائِطَ. أَعْلَمُ أَنَّهَا عَتِيقَةُ الطَّرَازِ قَلِيلًا“.
وَرَفَعَتْ كِتْفَيْهَا.

”قَلِيلًا؟“ وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً.

”أُرِيدُ فَقَطْ أَنْ أَرَى الصُّورَةَ الْكُبْرَى وَأَعْرِفَ إِلَى
أَيْنَ نَحْنُ ذَاهِبَانِ وَكَيْفَ سَنَصِلُ إِلَى هُنَاكَ“.

”تَعْنِينَ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِكَ كُلُّهَا مُخَطَّطَةً تَمَامًا“.

”لَمْ يَكُنْ لِي حِطٌّ كَثِيرٌ فِي ذَلِكَ“. وَلَمَّا أَشَاحَتْ
بِنَظَرِهَا، تَلَقَّى الرَّسَالََةَ: لَا تَسْأَلْ! ”حَسَنًا، سَنَقُومُ بِالْأَمْرِ
عَلَى طَرِيقَتِكَ. أَنَا أَسُوقُ، وَأَنْتِ تُرْشِدِينَ“.

بَدَتْ مُفَاجَأَةً. ”أَنْتِ عَلَى يَقِينٍ؟“

”إِذَا تَهْنَا، يَعْثُرُ عَلَيْنَا نِظَامُ تَحْدِيدِ الْمَوَاقِعِ“. لَمْ
يَقُلْ لَهَا إِنَّهُ عَرَفَ أَصْلًا كَيْفَ أَرَادَ أَنْ يَصِلَ إِلَى حَيْثُ
كَانَا ذَاهِبَيْنِ، عَلَى الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ.

”إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَصِلَ إِلَى غَوْلِدِنِ قَبْلَ عَصْرِ الْيَوْمِ،
يَنْبَغِي أَنْ نَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْحُرَّةَ“.

”أَكْرَهُ الطَّرِيقَ الْحُرَّةَ“.

نَظَرَتْ إِلَى الْخَرِيطَةِ وَاقْتَرَحَتْ سُلُوكَ الدَّرْبِ
السَّرِيعِ السَّاحِلِيِّ بَدَلًا مِنَ التَّوَجُّهِ دَاخِلِيًّا إِلَى الْمَدِينَةِ
ثُمَّ السَّيْرِ نَحْوَ الشَّمَالِ. كَانَتْ مُتَوَثِّرَةً بِشَأْنِ هَذِهِ
الرَّحْلَةِ أَمْسَ، وَلَكِنَّهَا بَدَتْ مَطْمَئِنَّةً، بَلْ تَوَاقَّةً أَيْضًا،
هَذَا الصَّبَاحِ. ”مَاذَا غَيَّرَ رَأْيَكَ؟“

”فيم؟“ أعادت طَيَّ الخريطة إذ ساق رومان نحو ماليبو.

”مُرافقتي في هذه الرّحلة على الطّريق“.

نظرت إليه. ”لم تُسمّها رحلةً على الطّريق. قلت إنّها رحلةً عمليّ حصراً“.

”هوّني عليك. لستُ مختطفك!“

”أنحنّ ذاهبان إلى غولدين أم لا؟“

”سنصلُ إلى هناك“. وأوماً برأسه إلى الخريطة في يدها. ”جدي أوجايي“.

أعادت التّركيزَ على الخريطة، مُقطّبةً جبينها قليلاً.



التفت رومان ناظرًا إلى غريس. كانت تنظرُ إلى الخارج من النّافذة. لم تكن قد تكلمت تقريبًا في الطّريق إلى أوجايي. هل كان يتلقّى مُعاملة الصّمت؟ تساءل رومان عمّا كانت تُفكّر فيه، ولكنّه لم يجرؤ على سؤالها. لقد خدعها. ولم تعرف كاملَ المدى بعد.

”هل ذهبتِ إلى أوجايي مرّةً؟“

كانت بسمّتها مُسترخية. ”ما سُقتُ السّيّارة عبْرَ قنتورا حتّى اليوم“.

رمقها مُفاجأً بنظرةٍ خاطفةٍ قبلما انعطفَ إلى ساحةٍ موقِفٍ على الشّارع الرّئيسيّ. ”ستفقدُ بضِعَ صالاتٍ عرض بعدَ الفطور. قد يكونُ جيّدًا أن أرى ما

يبيعه أناس آخرون“. وكان أيضًا يحبُّ استطلاع ما يجذبُ نظرَها. لقد علمَ أنها لم تُبالِ بنتاجه الفنيِّ.

وجدَ مطعمًا على شارعِ جانبيِّ بقربِ القيدان المسقوف بالقناطر. أجلسَتْهُما المضيفَةُ بقربِ النَّافذة. شكرَتْها غريس. وإذ دسَّت جِردانها تحت كُرسِيَّها، نظرت إليه فوق الطاولة. ”هل من خطأ ما؟“
”لا، بتاتًا. ما أنا إلا مُبتدئٌ أن أدركَ كم قليلٌ ما أعرفُه عنك.“

”في وسعي أن أقولَ ذلكَ بعينه.“

”أين وُلِدتِ؟“

انكأَتْ إلى الورا، مُتفحِّصَةً إِيَّاه. ظنَّ لحظةً أنها لن تقولَ له. ”ممفيس، تَنيسي. وأنت؟“

”سان فرنسيسكو. ألكِ أهلٌ في ممفيس؟“

اكفَّهت ملامحَها. ”كنتُ صغيرةً لَمَّا تُوفيَ والداي. أحضرتني خالتي إلى فرَسنو لَمَّا كنتُ في السَّابعة من عُمرِي. هل والداك في سان فرنسيسكو؟“

لم تُرد أن تتحدَّث بشأن والديها، ممَّا أثارَ فضولَه ليعرفَ كيف ماتا. أحسنُ أن يُجيبَ عن سؤالها قبل أن يسألها آخر. ”بينك وبينني شيءٌ مُشترك. كنتُ في السَّابعة آخرَ مرَّةٍ رأيتُ أمِّي. خرَّجت ذات ليلةٍ ولم ترجعِ قطُّ. تولَّت أمري خِدماثُ حِمايةِ الأولاد بعدما اختفت أمِّي. تنقَّلتُ كثيرًا من مكانٍ إلى آخر.“
تصريحٌ مكبوحٌ سطحِيٌّ، إذ لم يَكُن يستطيعُ أن يتذكَّر

حتى جميع بُيوتِ التَّنَشِئَةِ التي هَرَبَ منها.

كان رومان تَوًّا قد أَخْبَرَهَا عن ماضيه أَكْثَرَ ممَّا أَخْبَرَ يَوْمًا أَيَّةَ امْرَأَةٍ. من دواعي الشُّكْرِ أَنَّهَا لم تَنْظُرْ إِلَيْهِ بِشَفَقَةٍ. لم يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْلَمَ فِي مَا كَانَتْ تُفَكِّرُ. اسْتَسَلَّمَ لِحُبِّ الاسْتِطْلَاعِ. ”كَيْفَ مَاتَ وَالِدَاكَ؟“

زَفَرَتْ نَفْسَهَا بِرِقَّةٍ وَتَجَنَّبَتْ تَمَعُّنَهُ. عَلِمَ أَنَّهَا لم تَكُنْ سَخِيبَةً لَمَّا جَاءَتِ النَّادِلَةُ بِقَهْوَتَيْهَا وَسَأَلَتْهُمَا هَلْ بَاتَا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلطَّلَبِ. قَالَ رومان إِنَّهُمَا بِحَاجَةٍ إِلَى دَقَائِقٍ قَلِيلَةٍ بَعْدَ تَفَادَتِ غَرِيسٍ مِنَ الاسْتِرْسَالِ فِي الْحَدِيثِ بِإِخْفَاءٍ وَجْهِهَا وَرَاءَ قَائِمَةِ الطَّعَامِ. رَجَعَتْ النَّادِلَةُ وَتَلَقَّتْ طَلْبِيَهُمَا. وَاجْهَتَهُ غَرِيسٍ مِنْ جَدِيدٍ، وَسِيمَاؤُهَا مُبْهِمَةً. ”مَتَى قَرَّرْتَ أَنْ تَصِيرَ رَسَامًا؟“

لم تُرِدْ أَنْ تَتَكَلَّمَ عَنْ وَالِدَيْهَا. لَا بِأَس. ”لَمْ أُقَرِّرْ.“ حَدَّثَ ذَلِكَ بِبَسَاطَةٍ. ضَبَطَنِي مُعَلِّمٌ أَرَسُمُ عَابَثًا فِي غُرْفَةِ الدَّرْسِ، وَقَالَ إِنَّهُ يَقْبَلُ رُسُومًا بَدَلًا مِنَ الْفُرُوضِ الْمَنْزِلِيَّةِ النَّاقِصَةِ.“

”قُلْتَ لِي إِنَّكَ عَمِلْتَ رُسُومَ غِرَافِيَّتِي عَلَى جُدْرَانِ الْمَبَانِي. هَلْ كُنْتَ فِي عِصَابَةٍ؟“

ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً ضئيلةً. ”عَلَى سَبِيلِ الْمُقَايِضَةِ.“ لَقَدْ أَجَابَ عَنْ أَسْئَلَتِهَا. هَزَّتْ رَأْسَهَا.

كَانَ الْفَطُورُ شَأْنًا هَادئًا. فِي طَرِيقِ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَطْعَمِ، تَوَقَّفَ رومان عِنْدَ مَنَصِبٍ عَلَيْهِ كِرَارِيشُ سِيَاحِيَّةٍ. ”لِنَقْمِ بِنُزْهِةٍ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ.“ جَارَتْهُ

غريس في مشيِّته. وجدَّ أوَّل صالَّة عَرَضَ حَوْلَ
الزَّاوية من السَّاحة المسقوفة. تنقَّلَ رومان في أنحاء
الصَّالة، مُلاحِظًا أينَ تباطأت غريس. لقد راقَّتها
المناظرُ البحريَّة والمناظرُ الطبيعيَّة والألوانُ المائيَّة.
لا عَجَبَ في أنَّها لم تُحِبَّ رسومَه. ولكنَّ آنذاك، لم
يُحِبَّها هوَ أيضًا. ولا بُدَّ أنَّها شعرت به ناظرًا إليها، لأنَّها
التفتت. ”وقْتُ الذَّهابِ؟“ وانَّجَّها إلى السَّيَّارة.

شعَرَ رومان بِتَرْفةٍ لَمَّا ظَلَّت صامتةً وهو يسوق.
ما كانَ قَطُّ قد لقيَ صُعبوَّةً في مُباشرةٍ حديثٍ مع
امرأة. توقَّفَ عندَ دُكَّانِ قهوةٍ في قنَّتوكوپيا. ”أحتاجُ
إلى استراحةٍ كافيين. وأنتِ؟“ طلبت غريس لاتييه.
تحدَّثت إلى امرأةٍ عندَ قسمِ المخبز. التفتت ناظرةً لَمَّا
أحضرَ رومان طلبهُما. تبادلَت المرأتانِ بِضَعِ كلماتٍ
أخرى، ومسَّت غريس ذراعَ المرأةِ قبلَما انضمت إليه.
ناولها اللاتييه. ”لا تلقينَ أيَّةَ صُعبوَّةٍ في كسبِ
الأصدقاء، أتلقينَ؟“ تمنى لو تكونُ مُنفتحةً ووَدودًا
هكذا معه.

”تقولُ فيرونیکا إنَّ الزَّهرَ البرِّيَّ ما زال مُتفتِّحًا
في سهلِ كاريزو.“

فيرونیکا. ربَّما عرَّفت غريس تاريخَ عائلةِ المرأةِ
كلَّه.

وراءَ المقوِّدِ من جديدٍ على الطَّريقِ، تحدَّثت
غريس أكثر. كانت خالَّتُها صاحِبةٌ مهنةٍ ولم تستمتع

بالسَّفَر. ”كان علينا أن نُسافرَ بالطَّائرة في بِضْعِ رحلاتٍ وَصَلِ من مَمفيس إلى فرَسنو. تلك هي المرَّة الوحيدةُ التي فيها كُنْتُ داخلَ طائرةٍ يومًا ما“.

أخبرَها رومان عن سَفَرِهِ بالطَّائرة إلى روما وتجوَّاله في أنحاء أوروبا على درَّاجةٍ نارِيَّة. وكلَّما تحدَّث أكثر، بدت مطمئنَّةً أكثرَ.

”لقد زُرتَ أماكنَ سأراها فقط على قنَّاةِ السَّفَر“.

التفتَ ناظرًا إليها. ”لستَ تعلمينَ بتاتًا ما قد يجري“.

”هل درستَ في أوروبا؟“

”ما درستُ قطُّ في أيِّ مكان. رسميًا، على كلِّ حال“.

رفعَ قدمه عن دوَّاسةِ الوَقودِ إذ دارَ حولَ مُنعطف. ”ما أبلِثُ حسنًا قطُّ في بيئةٍ كانَ شخصٌ ما فيها يقولُ لي ما أفعلُه أو كيفَ أفكِّر“.

”قالتَ تاليا إنَّك لا تلتزمُ القواعد. ربَّما من أجلِ ذلك يُحبُّ النَّاسُ نتاجك كثيرًا“.

”أمَّا أنتِ فلا“.

”أنا لا أهِمُّ“. نظرتَ بعيدًا ولهتت. ”قف!“.

ضغَطَ رومان على المكابح بقوة، مُتيقَّنًا بأنَّه كان على وشكِ الاصطدام بشيءٍ ما. ترجَّحَ مؤخَّرُ السَّيَّارة. عدَّلَ الشُّرعةَ ومالَ إلى جانبِ الطَّرِيق. تلفَّظَ بكليمةٍ بذيئة. ”بِمَ اصطدمتُ؟“

”لا شيء. أنا آسفةٌ لأنِّي جفَلْتُكَ“. وفتحت بابَ
السيَّارة.

”إلى أينَ أنتِ ذاهبةٌ؟“

”رومان، انظُرِ حِوَالَيْكَ!“ ضحِكت مُتألِّقةً الوجه.

كانت مُنحدراتِ الثَّلالِ مَكسوَّةٌ بِزَهْرٍ بِرِّيٍّ أَرجوانيٍّ
وأَصْفَرٍ وبُرْتُقاليٍّ. رَمَقَ الزُّهورَ بِنِظْرَةٍ خاطِفةً، وشاهدَ
غريسَ تُشَقُّ طَريقَها داخِلَ الحَقْلِ. نظَرت حِوَالَيْها
مَشدوهِةً، ثُمَّ نظَرت إليه مُجدِّداً. ”كانت قيرونيا
على حقٍّ. هل سُقتَ في هذه النَّاحية من قبل؟“

”مرَّةً واحدةً“. لم يَكُن قد اختار هذه الطَّريقَ
ليرى مُنحدراتِ الثَّلالِ المرشوشة بالألوان. ”ستزولُ
بعدَ أسابيعٍ قليلةً“.

”إذا التَّوقيتُ مُمتازاً لِوُجودنا ههنا“. بسَطَت
ذراعِها. ”انظُر ما يَستطيعُ اللهُ أن يَفعَلَهُ بالأعشاب“.
الله مرَّةً أُخرى!

ظَلَّت تتوغَّلُ داخِلَ الحَقْلِ. انحنَّت لِتَلتقطَ شيئاً ما،
ثُمَّ دَسَّتْهُ في جيبِها. أَخْرَجَ رومانُ تَلِفونَهُ والتَقَطَ
صورةً لها واقِفةً بينَ زُهورِ الثُّرْمُسِ والخَشخاشِ. ثُمَّ
انكأَ على سيارته وأخَذَ بِضَعِ صُورٍ أُخرى. ولَمَّا اتَّجَهَت
راجِعةً، وَضَعَ التَّلْفونَ في جيبه.

نظَرت إليه. ”تخميني أنك تُريدُ استئْنافَ السَّيرِ“.

”لسنا على عَجَلَةٍ“. كانت تُريه عالِماً لم يَسبقَ أن
رآه قَطُّ. ”لماذا لا نتوقَّفُ في فرَسنو لِنبيتِ اللَّيلة؟“

سيتأخ لي أن ألتقي خالتك“.

غادر الفرخ وجهها. ”الخالة أليزابث لا تحب المفاجآت“.

”أفهم أن علاقتكما ليست على ما يُرام“.

”علاقتنا حسنة. أتصلُ بها مرّتين في الشهر، وأزورها عندما أستطيع“.

لم يكن رومان قد لاحظَ ظهورَ أيّة امرأةٍ كبيرة السنّ في الكوخ، ولم يسبق أن ذكرت غريس الذهاب في أيّة سفرات، قصيرة أو طويلة. ”أتصلي بها. يمكنُ أن نُعرجَ عليها في طريقِ العودة“. أرادَ أن يلتقي المرأة. وقد تكونُ الخالة أيضًا أكثر استعدادًا لتقديم المعلومات.

لم تُخرج غريس تليفونها من جِردانها.

لمس رومان شاشةَ كمبيوترِ السيّارة وأجرى تفتيشًا عن فنادق مرسد التي فيها بركٌ سباحة. بعدَ نهارٍ في السيّارة، سيكونُ مُنعشًا أن يسبح المرءُ بِضعِ دورات. ”هل أحضرتِ ثوبَ سباحة؟“ نظرت إليه كأنما طلّع له قرنان. استخدمَ رومان نظامَ تفعيل الصوت ليسأل عن توجيهاتٍ إلى مخزنٍ لوازمِ رياضيّة. ”سأشتري لك ثوبَ سباحة“. ولما اعترضت، قاطعها. ”لك أن تتنقيه أنت، أو أختاره أنا، وأنا سأدفعُ ثمنه. أنا محروور. أنا مُتعب، وأريدُ أن أسبح“.

”أنا مُساعدتك الشخصيّة، رومان، لا مُنقذتك من

الغرق“.

”أنتِ تحتاجينَ إلى الابتعاد بقدرِ ما أحتاجُ أنا إليه“. انعطَفَ إلى مركزِ تَسوُّق، وأوقفَ السَّيَّارة. ”تعالِي“. خرَجَ من السَّيَّارة، وتمهَّلَ حتَّى تستطيعَ أن تلتحقَ به.

لَمَّا دخلا المتجر، تسكَّعتْ غريس حتَّى نظَرَ مُحدِّقا إلى ثوبِ سباحةٍ ذي قِطعتين، قرَنفليٍّ بَرَّاقٍ على تِمثالِ عَرَض، فابتسمَ ابتِسامةً عريضةً. وسرعانَ ما وجَدَتْ غريس ثوباَ عمليًّا أسودَ ذا قِطعةٍ واحدة.

دفعَ ثَمَنَ ثوبِ السَّباحةِ قبلَما أدركَ أنَّها قد فتحت جِردانها وأخرجتَ مِحْفَظَةَ نُقودِها. لم تشكُرْه، أو تنظُرَ إليه على الأقلِّ، في الطَّريقِ إلى السَّيَّارة. التفتَ رومان ناظِرًا إليها لَمَّا صعدَ إلى السَّيَّارة، فرأى الاحمرارَ المُتأجِّجَ الذي تسلَّقَ على عُنُقِها وملاً وجهها. لماذا ارتبكتَ هكذا؟ ”إنَّه ليسَ لباسًا داخليًّا، غريس“.

قالَ رومان لكاتبِ الفُنْدُقِ إنَّهما بحاجةٌ إلى عُرفَتين، في دَورَينِ مُنفَصِلين. وما إنِ ناوَلَ الكاتِبُ غريسَ بِطاقةٍ مِفْتاحًا، حتَّى علَّقتْ حقيبتَها الظَّهرِيَّةَ على كتفِها، وشالتْ حقيبةَ سفرِها وكيَسَ تَسوِّقِها، وتوجَّهتْ نحوَ المِصعدِ. أوقفَ رومان بابَ المِصعدِ قُبيلَ انغِلاقِهِ. ”سأراكِ عندَ البركةِ بعدَ عِشرينَ دقيقةً“.

”نعم، سيدي“. حملتْ إليه. ”أتريدُ أن تدخُلَ؟“

”أعتقد أنه يحسنُ بي أن أنتظر“. أفلتَ البابَ وتراجعَ خطوةً فيما كبستِ الزَّرَّ. فيمَ أخطأ؟

خُيِّلَ إليه أنه سيكونُ وحده مع غريس في البركة وأن في وَسعِهما أن يتحدَّثا. إنما كان الأولادُ في كلِّ مكان! وإذ أطلقَ شتيمَةً بِصوتِ مهموس، فتَحَّ البوابة. في وَسعه أن ينسى دوراتِ السَّباحة. كانت ثلاثُ نِساءٍ جالساتٍ على درجِ البركة. لم تكن غريس واحدةً مِنْهُنَّ. خَلَعَ رومان قميصَهُ، وألقاهُ مع منشفتِهِ على كُرسيِّ طويلٍ خالٍ. نظرتِ إليه النِّساءُ الثلاثُ. كانَ الوشمُ القبليُّ الحُرُّ الأُسلوبِ، ذاك الذي صَمَّمَهُ لِيَلْتَفَّ حَوْلَ قَفْصِهِ الصِّدْرِيِّ وَصَدْرِهِ، يجذبُ الانتِباهَ عادةً. وقد عانى ساعاتٍ من الألمِ ودفعَ أُلوفَ الدُّولاراتِ لكي يُحَبَّرَ. لن يهدِرَ الوقتَ والمالَ مرَّةً أُخرى.

لمَحَ رومان غريس في الطَّرْفِ الضَّحَلِ. استحققتِ حُرقةَ الكلورِ عناءها لرؤية غريس تحت الماء. كان لها ساقا راقِصَةٍ باليه، ومُنحنِياتٌ أَكثَرُ مِمَّا تصوِّر. ولَمَّا صَعِدَ إلى سطحِ الماءِ أمامها تمامًا، تراجعتِ مُجفلةً. كانَ شعرُها الأَدَكْنُ مُبَلَّلًا ومُملَسًا على رأسِها، وقد تَلَأَّتْ كِتفاها الباهِتتان.

إذ أَرَجَعَ رومان شعرَهُ بأصابعِ يَدَيْهِ، ابتسمَ لها مُفْتَرًّا. ”يؤتي الماءُ شعورًا حسنًا، أليس كذلك؟“

”بلى“. ابتعدت عنه مَسافةً. ”كُنْتُ على حقِّ“.

وابتسمت له ابتسامَةً عَفْرِيتِيَّةً. ”ولكنَّكَ ستَقْضِي
وَقْتًا شاقًّا إِذْ تَقُومُ بِدَوْرَاتِ سِبَاحَةٍ“.

”تَخَلَّيْتُ عَنِ الْفِكْرَةِ لَمَّا خَرَجْتُ مِنَ الْبَابِ“. اقْتَرَبَ
أَكْثَرَ إِلَيْهَا مِنْ جَدِيدٍ“. مَا قَوْلُكَ فِي لُعْبَةٍ غُمِيضَةٍ
مَارِكُو يُولُو؟“

”إِنَّهَا تَخَالَفُ الْقَوَانِينِ“.

”الْقَوَانِينُ وُضِعَتْ لِتُخَالَفَ، غَرِيْسُ“.

تَرَجَّرَجَتْ عَيْنَاهَا. ”لَيْسَ مِنْ قِبَلِي، وَيَقِينًا لَيْسَ مَعَ
رَيْسِي“. وَسَبَّحَتْ مُبْتَعِدَةً.

مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْثَبَ مَعَهَا. سَتَكُونُ أَكْثَرَ تَوَثُّرًا
بَعْدُ فِي عِلَاقَتِهَا بِهِ. مَشَتْ صَاعِدَةً الدَّرَجِ وَجَلَسَتْ
بِقُرْبِ امْرَأَةٍ تَحْمِلُ فِي حُضْنِهَا وَلَدًا أَوَّلَ مَشِيهِ.
وَسُرْعَانَ مَا بَاشَرَتَا حَدِيثًا سَهْلًا. عَجَّ الطَّرْفُ الْعَمِيقُ
بِالْأَوْلَادِ. رَمَى أَحَدُهُمْ كُرَّةً إِلَى رُومَانَ، فَتَلَقَّفَهَا بِيَدِ
وَاحِدَةٍ وَقَذَفَهَا رُجُوعًا. نَادَتْهُمْ الْمَرْأَةُ الْجَالِسَةُ بِقُرْبِ
غَرِيْسٍ: ”يُرِيدُ الرَّجُلُ أَنْ يَسْبِحَ فَحَسْبُ“. وَلَمَّا ظَلُّوا
يَعْتَرِضُونَ فِي الطَّرِيقِ، نَادَتْهُمْ كَيْ يَرْجِعُوا إِلَى
الطَّرْفِ الضَّحْلِ، حَيْثُ جَمَعَتْ صِفَارَهَا وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ
الْبَوَابَةِ.

كَانَتْ غَرِيْسُ قَدْ رَجَعَتْ إِلَى الْبِرْكَةِ، وَلَكِنَّهَا
حَافِظَتْ عَلَى بُعْدِهَا عَنْهُ. وَلَمَّا رَفَعَتْ نَفْسَهَا وَجَلَسَتْ
عَلَى الْإِفْرِيْزِ سَبَّحَ إِلَيْهَا. وَإِذْ صَالَبَ ذِرَاعِيَهُ عَلَى حَافَةِ
الْبِرْكَةِ، ابْتَسَمَ رَافِعًا نَظْرَهُ إِلَيْهَا. ”يَبْدُو أَنَّكَ بَرَدْتِ

وهدأتِ“.

”أنا آسفة لأني غَضبت“.

”لم أرد أن أربكك. كانت فكرتي أن نسبح، وصحيح أنني دفعتُ ثمنَ ثوبِ السباحة. ليست تلك صفقة كبيرة، غريس. لم أكن أتوقعُ أيَّ شيءٍ في المقابل“.

اخرس، يا غبي. رفعَ نفسه وجلسَ بقربها. وعلى خلاف النساءِ الأخر اللواتي قابلهنَّ، لم تنظر إلى جسمه. أشاحت بنظرها، ثم نظرت أمامها مباشرةً. ”نحنُ ذاهبانِ إلى يوسيميتي غدًا“. جعلها ذلك تديرُ رأسها.

”ماذا عن غولدين؟“

”لن تذهب غولدين إلى أيِّ مكان! هل ذهبتِ يومًا إلى يوسيميتي؟“

”لا، ولكن...“

”إذا ظننتِ أن الزَّهرَ البرِّيَّ شيءٌ عظيم، فانتظري حتى تذي هاف ذوم“. قوَسَ يده فوق حافة البركة، أقربَ ما أمكنه إلى يدها، دون أن يلمسها. سحبَت يدها بعيدًا. بدت غير مُستريحة. وقف ومدَّ يده. ”لنرتد ثيابنا ونجد مكانًا نأكل فيه“. ترددت قبل قبول مُساعدته. كانت يدها باردة، وارتجفت. التقط رومان منشفته عن الكرسي الطويل ولفها حولها. ”متى تريدان أن نخرج للعشاء؟“ أخذ منشفةً أخرى من الكومة بقرب البوابة.

”متى أردت“.

نَظَرَ إِلَيْهَا مِنْ عُلَى. ”أَنَا جَائِعٌ الْآنَ الْآنَ“. وَلَيْسَ إِلَى
الطَّعَامِ فَقَطْ. ”مَتَى تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَسْتَعِدِّي
بِسُرْعَةٍ؟“

بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ، جَلَسَ رومان فِي الرَّدْهَةِ مُنْتَظِرًا.
خَرَجَتْ غريس مِنَ الْمِصْعَدِ، لَابِسَةً بِرْتَهَا مُجَدِّدًا:
بَنْطَلُونَ أَسْوَدَ، بُلُوزَةٌ بِيضَاءُ فَضْفَاضَةٌ، عِقْدٌ لَوْلُؤِيٌّ ذُو
طَاقٍ وَاحِدٍ، حِذَاءٌ أَسْوَدٌ مُنْخَفِضُ الْكَعْبَيْنِ. لِبَاسٌ
كَلَّاسِيكِيٌّ، مِهْنِيٌّ. هَلْ كَانَتْ مُحَاوَلَةً أَنْ تُذَكِّرَهُ بِأَنَّ
هَذِهِ الرَّحْلَةَ كَانَ مُفْتَرَضًا أَنْ تَكُونَ لِلْعَمَلِ حَصْرًا؟

كَانَ كَاتِبُ الْفُنْدُقِ قَدْ أَعْطَاهُ تَوْجِيهَاتٍ إِلَى مَطْعَمِ
شَرَائِحِ لَحْمٍ جَيِّدٍ. أَعْطَى رومانَ الْمُضَيَّفَ عَشْرِينَ
دُولَارًا لِيُجْلِسَهُمَا إِلَى مَائِدَةٍ هَادئةٍ بَيْنَ مَقْعَدَيْنِ
طَوِيلَيْنِ عَالِيِي الظَّهْرِ. وَلَمَّا سُئِلَا هَلْ يُرِيدَانِ أَنْ يَطْلُبَا
شَرَابًا، طَلَبَتْ غريسُ مَاءً. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رومانَ هُوَ
السَّائِقُ، لَطَلَبَ كَأْسَ وَسْكِ، أَوْ رُبَّمَا اثْنَتَيْنِ. كَانَ قَدْ
بَدَأَ يَشْعُرُ بِالتَّوَثُّرِ مِثْلَمَا بَدَتْ هِيَ مُتَوَثِّرَةٌ. وَلَمَّا التَّقَطَّ
قَائِمَةُ الْمَشْرُوبَاتِ الْكحولِيَّةِ، قَلَبَتْ كَأْسَهَا.

”طَيِّبٌ“. ألقى القائمة على الطاولة وتأمَّلَ غريسُ.
”مَا خَطْبُكَ؟“

”كَمْ سَنَبَقِي غَائِبِينَ عَنِ الْبَيْتِ، رومان؟“
أَكَانَ ذَلِكَ هُوَ كُلُّ مَا يُقْلِقُهَا، أَمْ كَانَ هُنَاكَ أَكْثَرُ؟
”سَنَرِجُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. يُمَكِّنُ أَنْ نُعْرَجَ وَنصْطَجِبَ

ابنك في طريقنا إلى البيت. سيوفّر ذلك عليك رحلة
الرجوع إلى حيث يكون عندما لا يكون معك.“
تغيّرت ملامحها، كأنما أسدل على وجهها حجاب.
”هل من مشكلة في ذلك؟“

”ليس المكان على طريقنا.“

سينتظر. لعلها تثق به كفاية حتى تتحدّث بما كان
جاريًا في حياتها. عندئذ أيضًا، كم من حياته هو كان
على استعداد للمشاركة فيه؟ لم يرد أن يتحدّث بشأن
ماضيه. ربّما كان ينبغي له أن يتحدّث. ورّبما كان من
شأن ذلك أن يجعلها منفتحة وصریحة هي أيضًا.
فضلاً عن الانجذاب المتزايد، كان شيء ما جاريًا هنا.
لم يرد أن ينكفئ مُبتعدًا هذه المرّة. لم لا يعمل
بنصيحة جاسپر، على سبيل التّغيير، ويرى ما جرى؟

بدت على استعداد لركوب الحافلة رُجوعًا إلى
الديار.

”حاولي ألا تقلقي، غريس. هذا يتعلّق بي أكثر ممّا
يتعلّق بك.“ كذبة. ”كنت بحاجة إلى الخروج من
المرسم إلى حين، كي أفكر.“ صحيح. ”وما دمت
قلت لي إنك لم تدي أماكن كثيرة، فكّرت: لم لا نرى
شيئًا ما على الطّريق؟ كان قد ذهب إلى وادي
يوسيميتي وهاف دوم، ولكنه لم يعبر قطّ مجاز
تيوغا، ولا نزل إلى بحيرة مونو.“ هل ذهبت يومًا إلى
بوداي؟“

”بُوداي؟“ هزّت رأسها نفيًا. ”ما ذهبت قط إلى أيّ مكان.“

سبق أن قالت له ذلك. إنّما أراد لها أن تتذكّر. وكان قد قرأ كراريس قليلة من منصب المعلومات السياحية في الفندق، في أثناء انتظاره لها حتى تنزل إلى الدور الأرضي. ”هي مدينة أشباح تبعد ستة عشر كيلومترًا عن الطريق العام“. وقضى الدقائق القليلة التالية مُخبرًا إيّاها بكلّ شيء تذكّره من الكُرّاسة. وقد بدأ يبدو كوكيل سفرٍ يُحاول أن يبيع جولةً سياحيّة.

لم تبدُ غريس كأنّها أرادتُه دليلًا. ”ذلك مقدارٌ كبيرٌ من الكيلومترات يُقطعُ في يومين.“

”عندنا وقت. لنستمتع بالجولة.“

وضعت يدها على الطاولة كما لو كانت تستجمع قواها. ”لماذا نقومُ بهذه الرّحلة حقًا، رومان؟“

أخرج نفسه ببطءٍ واثكًا إلى الورا، مُلقيا عليها نظرةً عامّة. ”لست أدري. أريدُ المزيد، كما أحمّن.“

ابتسم ابتسامةً خفيفة، مُحاولًا أن يُسكّن القلق الخافق في عينيها. ”مزيدًا من الحياة. أريدُ مهما كان لديكِ ممّا يجعلك تزيّن ما يفوئني.“

لم تقل أيّ شيء، ولكنّ وجهها لانّ إذ تفحصت وجهه. ”لمّا باشرتُ العملَ عندك، كان لديّ الانطباع الجليّ بأنك تُريدُ الملاءمةً دون تعقيدات.“

”أَوْ تَعْتَقِدِينَ أَنَّ تَعْرِفَ أَحَدِنَا بِالْآخِرِ سَيُعَقَّدُ
عِلَاقَتَنَا؟“

”أَرْجُو أَنْ لَا“.

مَا تَوَقَّعَ أَنْ يَشْعُرَ بِالْأَذَى. هَلْ كَانَتْ قَلِقَةً بِشَأْنِ مَا
قَدْ يَظُنُّهُ أَمِيرُ الْأَحْلَامِ؟ لِمَاذَا كَانَ يَعْمَلُ بِاجْتِهَادٍ بِالْغِ
لِلتَّقَرُّبِ مِنْ هَذِهِ الْمَرَأَةِ؟ ثُمَّ أَوْمَأَ لِلنَّادِلِ.

”عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلطَّلَبِ، سَيِّدِي؟“

نَظَرَ رُومَانَ إِلَى غَرِيْسٍ لِأَجْلِ جَوَابِ. وَدُونَ أَنْ
تَنْظُرَ قَائِمَةَ الطَّعَامِ، طَلَبَتْ سَلْطَةَ. وَإِذِ انزَعَجَ رُومَانُ،
طَلَبَتْ مِنَ النَّادِلِ أَنْ يُمَهِّلَهُمَا دَقِيقَةً أُخْرَى. وَمَا لِبِثَّ أَنْ
مَالَ إِلَى الْأَمَامِ. ”لَمْ آتِ بِكَ إِلَى مَطْعَمِ شَرَائِحَ لَحْمٍ
لِتَتَعَشَّى سَلْطَةَ؟“

لَهَّتْ. ”مَا أَصْعَبَ التَّعَامُلَ مَعَكَ!“ وَمَالَتْ إِلَى
الْأَمَامِ هِيَ أَيْضًا. ”تَبْدِيدُ لِمَالٍ أَنْ تَشْتَرِيَ شَرِيحَةً لَا
أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُلَهَا“.

”أُوهِ، أَنْتِ نَبَاتِيَّةٌ“.

”لَا، وَلَكِنِّي لَسْتُ شَرِيحَةً أَيْضًا“.

عَلَى الْأَقْلَّ اسْتَدْرَجَهَا إِلَى رَدِّ فَعَلِ غَاضِبَةً. ”كُلِّي
مَا تَسْتَطِيعِينَ“. وَأَوْمَأَ لِلنَّادِلِ ثَانِيَةً. فَاقْتَرَبَ الرَّجُلُ
بِحَذَرٍ، مُقَلِّبًا نَظْرَهُ بَيْنَهُمَا.

لَمْ يَدِرْ رُومَانُ أَيْنَ يَسْتَأْنِفُ الْحَدِيثَ بَعْدَ ذَلِكَ
التَّقْرِيعِ.

كانت ناظرةً إليه من جديد، ولكنَّ غضبها كان قد تبدّد فعلاً. ”ما أصعب أن تُقرأ! هل تعلم ذلك؟“

ضحك ضحكةً واهية. ”أتقولين ذلك لي؟ لقد ارتسم شيءٌ جديدٌ في سيمائها. ”ماذا؟“

حنت رأسها، مُقلّسةً المنديلَ على حِضنها قبلما نظرت إليه من جديد. ”لستُ مُتيقّنةٌ ما تريدُ مني.“

ولا هوَ كان مُتيقّناً، إلاَّ أنّها فتحتِ البوّابة. استطاعَ

أن يسمَعَ صوتَ جاسپر في رأسه. لا تُلح. انتظر

حتى تُدعى للدُّخول. كان له في حادثتهِ ثلاثةُ

أصدقاءٍ فقط، ماتوا كلُّهم قبلَ بلوغهم السادسةَ

عشرة. والمسؤوليّةُ عن موت أحديهم أمكنَ أن تُلقى

على عاتقه. فربّما كان ذلك هو السبب الذي من أجله

لم يتقرّب من أيِّ شخصٍ منذ ذلك الحين، ولا من

امرأةٍ قط. وقد كانت لجاسپر هاولي نظريّاته الخاصّةُ

بشأن أسبابِ بِيي راي دين. إلاَّ أنّ رومان لم يُرد أن

يُعرف.

”أودُّ أن أكتشفَ إذا كان مُمكنًا أن نصيرَ

صديقين.“



جلست غريس إلى المكتب في عُرفتها بالفندق،

مُجاوبةً عن رسالةٍ دردشةٍ من شانيس إذ سألت كيف

كانت تجري الرّحلةُ على الطّريق.

يُرِيدُ أَنْ يَكْتَشِفَ إِذَا كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ نَصِيرَ
صَدِيقِينَ.

وَمَاذَا قُلْتِ؟

لَمْ أَقُلْ لَّا. مَا بَرِحَ مُخْتَلِفًا مِنْذُ غَادِرْنَا تُوَيِّنَا
كَانِيُونَ.

مُخْتَلِفًا كَيْفَ؟

لَا أُدْرِي تَمَامًا. مَا بَرِحْنَا نَتَحَدَّثُ أَكْثَرَ.

تَتَحَدَّثَانِ بِمِ؟

الْأَمَاكِنَ الَّتِي رَأَاهَا. كَانَتْ لَدَيْهِ دَرَّاجَةٌ نَارِيَّةٌ وَجَالٌ
رَاكِبًا فِي أَنْحَاءِ أُوْرُوْپَا كُلِّهَا. لَهُ وَشَمٌ مُلْتَفٌّ حَوْلَ
قَفْصِهِ الصَّدْرِيِّ صُعُودًا عَلَى صَدْرِهِ.

وَكَيْفَ عَرَفْتِ هَذَا؟

سَبَحْنَا فِي الْفُنْدُقِ. أُمَّهَاتٌ وَأَوْلَادٌ كَثُرُوا. لَا تَقْلِقِي.
عُرَفْتِي فِي دَوْرٍ مُخْتَلِفٍ. مَا بَرِحَ سَيِّدًا مُحْتَرَمًا.
مُعْظَمَ الْوَقْتِ. مَا زَالَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَكُونَ مُغْضِبًا
وَفِظًا.

هَلْ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَقْلَقَ عَلَيْكَ؟ لَا تَنْسِي بَرِيَانَ.

كَانَتْ غَرِيْسٌ قَدْ نَسِيَتْ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ بَرِيَانَ. لَمْ
تَكُنْ تَلِكْ عِلَامَةً حَسَنَةً. طَبَعَتْ بِإِبْهَامِيهَا جَوَابًا. لَمْ
يَتَغَيَّرْ أَيُّ شَيْءٍ بِخُصُوصٍ ذَلِكَ.

أَحْسَنُ لِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَى الدَّرَاسَةِ.

جَيِّدٌ. سَأَتَفَقَّدُكَ ثَانِيَةً. كُونِي حَذِرَةً.

هذا المساء، على العشاء، التقطت غريس من رومان لمحةً لم ترها من قبل: الانكشاف. وقد فاجأها ذلك، لأنه كان يظهر دائماً كرجلٍ يعرفُ تمامًا من هو وكيف يحصلُ على ما يُريده. هل كان يلعبُ معها؟ لم تكن بحاجةٍ لأن تطلبِ شائيس منها أن تكون حذرة. لقد أصبح ذلك هو ميلها الطبيعي.

مهما كانت نية رومان الحقيقية، ينبغي لها أن تتعرفَ إليه. ربما كان يتعلقُ بالرجل أكثر مما عرفتَه أصلاً. حتى هذا المساء، حسبت أنه كان مُستوحداً ساخراً ساخراً دفعَ إلى النجاح. لقد اشتغلَ بجدٍ وكدٍ، وجنى من فنه واستثماراته مالاٍ ملاء شاحنة، واستخدمَ جزءاً منه ليشتريَ لنفسه قلعة.

يقيناً أن رومان قِيلاسكو لم يكن فارساً في درعٍ لماعة. بلى، كان لديه درعٌ حقاً، ومدافعٌ مَصوبَةٌ إلى أيِّ شخصٍ تجرأ على التطفل. لقد خرجَ بينَ حينٍ وآخرٍ ليعبثَ مع فتاةٍ ريفية. وهي قد تعلّمت عن حاجات الرجل الطبيعي من پاتريك. وسيلقى رومان بلاءً قليلاً في العُثور على فتاةٍ راغبة، على غرارِ پاتريك.

لقد تعلّمت من زواجها بياتريك أنها لم تعلم ما يدورُ في أذهان الرجال. كانت أحياناً تُحسُّ تلميحا إلى أن شيئاً ما كان غيرِ سويٍّ، أن علاقتهما كانت مُتصلةً بالحبِّ أقلَّ من اتصاليها بأهدافِ پاتريك. لم

يَكُنْ قَدْ أَرْغَمَهَا عَلَى التَّخْلِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ
كَيْفَ يَجْعَلُهَا تَشْعُرُ بِالذَّنْبِ كِفَايَةً بِحَيْثُ تَتَنَازَلُ عَنْ
كُلِّ أَحْلَامِهَا لِيَتَسَنَّى لَهُ أَنْ يُحَقِّقَ هُوَ أَحْلَامَهُ.

لَقَدْ انْتَقَتَ لَهَا صَدِيقَاتٌ، تَثِقُ بِهِنَّ، بَرِيَانٌ. وَقَدْ
عَرَفْنَ الرِّجَالَ أَكْثَرَ مِمَّا عَرَفْتَهُمْ هِيَ. وَقَدْ رَاقَهَا بَرِيَانٌ.
فَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُفَكِّرَ تَفَكِيرًا قَوِيمًا مَعَ رَجُلٍ نَظِيرِهِ. لَنْ
يَكُونَ مِثْلَ پَاتْرِيكٍ، مُعَوِزًا ذَاتَ لِحْظَةٍ وَكَثِيرَ الْمَطَالِبِ
فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ. فَمَعَ بَرِيَانٍ شَعَرَتْ بِالْأَمَانِ.

لَمْ يَكُنْ رُومَانٌ مَأْمُونًا. وَأَحْيَانًا شَعَرَتْ كَمَا لَوْ كَانَتْ
فِي مِيَاهٍ عَمِيقَةٍ مَعَهُ، وَالْوَحُوشُ تَدُورُ وَتَصْعَدُ مِنْ
تَحْتِ. يَا رَبُّ، لَا أَعْلَمُ هَلْ يَنْبَغِي أَنْ أَصَادِقَ هَذَا
الرَّجُلَ. لَهُ صَدِيقَانِ فَقَطْ: تَالِيَا رَايْزَنِرَ وَجَاسِپَرَ
هَآوَلِي. لِمَاذَا ذَلِكَ؟ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ فِكْرَةً سَيِّئَةً، فَآوَدُ
أَنْ أَعْلَمَ بِطَرِيقَةٍ أَفْهَمُهَا. رَجَاءً، يَا رَبُّ.

نَامَتْ نَوْمًا مُتَقَطِّعًا، حَالِمَةً بِأَمِّهَا نَاطِرَةً إِلَى الْخَارِجِ
مِنْ نَافِذَةِ الْمَطْبَخِ، وَوَجْهَهَا شَاحِبٌ مِنَ التَّوْتُرِ. ثُمَّ
حَصَلَ ذَلِكَ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَجَاءَ الْخَوْفُ كُلُّهُ مُنْدَفِعًا مِنْ
جَدِيدٍ. فَصَرَخَتْ غَرِيْسٌ وَجَلَسَتْ فِي السَّرِيرِ. وَفِيْمَا
هِيَ مُرْتَجِفَةٌ، وَجِسْمُهَا مُبَلَّلٌ بِالْعَرَقِ الْبَارِدِ، أَصْفَتْ
بِانْتِبَاهٍ، مُنْتَظِرَةً تَقْرِيْبًا أَنْ يَدْخُلَ أَبُوْهَا عَبْرَ الْبَابِ.

أَنَا فِي فُنْدُقٍ. كَانَ هَذَا كَابُوسًا. كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا
يُرَامُ الْآنَ.

عَادَتْ فَاسْتَلَقَتْ مِنْ جَدِيدٍ. وَإِذْ جَذَبَتْ الْبَطَانِيَّةَ

إلى فوق، التفت على جنبها. كان ذلك الكابوس قد
انتابها قبلاً مرّات عدّة، ولكن ذلك جرى منذ سنين
كثيرة، لما جاءت بها خالّتها أوّل مرّة إلى فرّسنو.
فماذا أيقظهُ اللّيلة؟ المساء مع رومان؟ يا ربّ،
رجاءً، لا تدعهُ ينبعث من جديدٍ حيثُ ولى. اللّهُمَّ،
رجاءً.

الفصل ٢٠

غريس، في السابعة من عمرها

جلست غريس إلى طاولة المطبخ، وكتابُ تلوينها "حوريّة البحر الصّغيرة" مفتوحٌ أمامها على صفحةٍ يظهرُ فيها أربيل وفلاوندر وسيبستيان مُستكشفين الصُّخورَ البحريّة. "مامي، ما هذه الأشياء؟" تابعت أمُّها تقشيرَ البطاطا على المغسل، وقد رفعت نظرَها لِتُرى خارجَ النّافذة ثانيةً. سيرجُ دادي إلى البيت عاجلاً. كان على غريسي أن تُنهي تلوينَ رسَمَتِها بِسرعة. إذا أحسنت عملاً، فقد يبتسمُ دادي. "مامي؟"

"أوه، غريسي. ماذا قلتِ؟" غسلت أمُّها يديها ونشفتُهما بِمنشَفةٍ صغيرة. والتفت خارجَ النّافذة أيضًا قبلَ أن تنظرَ من فوق كَتِفِ غريسي. "هذه شقائق البحر". ونقرتِ الصُّورة. "وهذا قنُفُدٌ بحريٌّ شائك. وهذا مرجان، وذاك عُشبٌ بحريٌّ". ثمَّ نظرت خارجَ النّافذة من جديد. وقد جعلت ملامحُ مامي

مَعِدَّةٌ غَرِيسِي تَتَشَنِّجُ. هَلْ يَرْجِعُ دَادِي إِلَى الْبَيْتِ
غَاضِبًا مَرَّةً أُخْرَى؟

”بَائِي أَلْوَانٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا؟“

”لَا أَعْرِفُ، حَبِيبَتِي“. عَضَّتْ مَامِي شَفَتَيْهَا وَنَظَرَتْ
بَعِيدًا مِنْ جَدِيدٍ، مُتَحَيِّرَةً. ”أَلَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَتَذَكَّرِي
كَيْفَ ظَهَرُوا فِي الْفِيلْمِ؟“ انسَفَقَ بَابُ سَيَّارَةٍ خَارِجًا
أَمَامَ الْبَيْتِ، فَارْتَعَشَ جِسْمُ مَامِي قَلِيلًا. تَقَدَّمَتْ إِلَى
الْمَغْسَلِ وَنَظَرَتْ خَارِجَ النَّافِذَةِ. انطَلَقَ نَفْسُهَا. ”اذهبي
إِلَى غُرْفَتِكَ، غَرِيسِي“.

”وَلَكِنِّي لَمْ أَنْتَه...“

”الآن!“ أَمْسَكَتْ مَامِي بِذِرَاعِ غَرِيسِي وَنَثَرَتْهَا عَنِ
الْكُرْسِيِّ وَسَحَبَتْهَا بِسُرْعَةٍ إِلَى الرَّوَّاقِ الْأَمَامِيِّ. ”دَادِي
يَشْعُرُ بِالِاسْتِيَاءِ مَرَّةً أُخْرَى“. وَإِذْ انْحَنَّتْ، تَكَلَّمَتْ
بِصَوْتِ مَكْبُوحٍ، وَعَيْنَاهَا مُضْطَرِبَتَانِ وَمُتَّجِهَتَانِ بِجِدَّةٍ
إِلَى الْبَابِ الْأَمَامِيِّ. ”جِدِي مَخْبَأً الْأَفْضَلَ وَابْقِي
سَاكِنَةً وَسَاكِنَةً كَفَارَةً صَغِيرَةً حَتَّى تَجِيءَ مَامِي
وَتَجِدَكَ. اذهبي الآن“. أَفْزَعَتْ مَامِي وَجِهَ مَامِي
غَرِيسِي جَدًّا حَتَّى شَرَعَتْ تَبْكِي. أَسْكَنَتْهَا مَامِي.
”اذهبي! أَسْرِعِي!“

فَرَّتْ غَرِيسِي فِي الرَّوَّاقِ حَالَمَا فَتَحَ دَادِي الْبَابَ
الْأَمَامِيِّ. لَعَلَّ صَوْتُ دَادِي كَعَاصِفَةٍ هَادِرَةٍ. ”أَيْنَ كُنْتِ
عَصَرَ الْيَوْمِ؟“

فَتَّشَتْ غَرِيسِي مَذْعُورَةً عَنْ مَكَانٍ تَخْتَبِي فِيهِ.

”كنتُ هنا“. كانَ صوتُ مامي عاليًا ومرعوبًا.

”كذّابة!“ سَمِعَت غريسي ضجّةً أُخرى وصرخةً مامي الحادّة من الألم. باتَ صوتُ دادي مُكفّهراً.

”اتّصلتُ مرّتين! لم تزدّي. معَ مَنْ كُنْتِ؟“

زلّقتُ غريسي بابَ خزانةِ مامي ذا المرآة فانفتحت، وتوارت داخلها. أغلقتُ البابَ بهدوء، وخَطت فوق بعض الأحذية، ثمّ لَبَدت في الزاوية الخلفيّة. ضَمّت رُكبتيّها إلى صدرها وقلّصت نفسها إلى أصغرِ حجمٍ استطاعته.

ظلّ دادي يُصرّخ، وتكلّمت مامي بسرعة، مُترجّيةً إيّاه أن يُصغي. ”ذهبْتُ أتسوِّقُ البقالة، براد. اشتغلْتُ في الحديقة الخلفيّة. أحضرتُ غريسي من المدرسة. كنتُ على خَطِّ التّلفون مع...“ صاحَ دادي:

”اخزسي!“ وتكسّر زُجاج. صرّخت مامي. سَمِعَت غريسي خبطةً قويّة وغَطّت أذنيها.

بعدَ لحظة، أنزلت يديها، لاهثةً بصوتٍ خفيض، وقلبها يخفقُ بقوة. باتَ دادي يتكلّم الآن، وقد هدأت العاصفة، وكان صوتُهُ مُختلفًا تمامًا عن أيِّ شيءٍ سمعته غريسي قبلاً. هل كان يبكي؟ قال شيئًا ما بصوتٍ خفيضٍ ومُتقطّع: ”لين، حبيبتي، أنا آسف. لين... ماذا فعلتُ؟“

استطاعت غريسي أن تسمعَ دادي مُتحرّكًا، يذرَع الأرضيّة ذهابًا وإيابًا، باكياً بكاءً مُتقطّعًا. ”ماذا

سأفعل؟ ماذا سأفعل؟“ ولَمَّا مَشَى فِي الرَّوَّاقِ،
جَمَدَتْ غَرِيْسِي رُعْبًا. ثُمَّ دَخَلَ غُرْفَةَ النَّوْمِ حَيْثُ كَانَ
هُوَ وَمَامِي يَنَامَانِ كِلَاهُمَا. سَمِعَتْ جَوَارِيْرَ الْمَزِيْنَةِ
تَنْفُتِحُ وَتَنْغَلِقُ بِقُوَّةٍ. أَصْدَرَ دَادِي صَوْتًا أُنِينًا. ”أَيْنَ
خَبَاتِهِ، لِيْن؟ أَيْنَ هُو؟“ انْضَغَطَتْ غَرِيْسِي بِشِدَّةٍ عَلَى
جِدَارِ الْخَزَانَةِ.

انْفُتِحَ الْبَابُ ذُو الْمِرَاةِ بِعُنْفٍ. ظَهَرَتْ جَزْمَةٌ دَادِي
الْوِظِيْفِيَّةِ وَبَنَطَلُوْنُهُ الرَّمَادِيُّ. تَنَاوَلَ صَنْدُوْقًا عَنِ الرَّفِّ
وَأَلْقَاهُ مِنْ فَوْقِ كَتِفِهِ، ثُمَّ صُنْدُوْقًا آخَرَ. أَطْلَقَ نَفْسَ
رَاحَةٍ وَأَخَذَ شَيْئًا مِمَّا فِي صَنْدُوْقِ خَشْبِيٍّ لِمَاعٍ. انْزَلَقَ
مَعْدِنٌ عَلَى مَعْدِنٍ مَعَ فَرْقَعَةٍ حَادَّةٍ، فَفَرَعَتْ مَثَانَةً
غَرِيْسِي. أَحَسَّتِ الدَّفْءَ يَنْتَشِرُ فِي سُرُوَالِهَا التَّحْتَانِيِّ،
ثُمَّ عَلَى الْبِسَاطِ تَحْتِهَا. انْبَعَثَ أُنِينٌ فَزِعٍ، وَجَمَدَ دَادِي.
انْضَغَطَتْ غَرِيْسِي إِلَى الْوَرَاءِ بِشِدَّةٍ، حَتَّى وَجِعَتْهَا
عِظَامُهَا. رَفَعَ أَبُوْهَا يَدَهُ وَزَلَّقَ حَمَّالَاتِ الثِّيَابِ عَلَى
الْعَمُودِ الْمَعْدِنِيِّ حَتَّى تَحَطَّمَتْ مَعًا فَوْقَ رَأْسِ
غَرِيْسِي، كَاشِفَةً مَخْبَأَهَا.

التَوَى وَجْهَهُ، وَبَدَأَ خَدَّاهُ شَاحِبَيْنِ وَمُبَلَّلَيْنِ. مَا عَادَ
دَادِي يَبْدُو شَبِيْهًا بِدَادِي. حَدَّقَ إِلَيْهَا، وَفَمُّهُ يَتَحَرَّكُ كَمَا
لَوْ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا مَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ. أَغْمَضَ
عَيْنَيْهِ بِإِحْكَامٍ وَخَطَا رَاجِعًا، ثُمَّ جَرَّ حَمَّالَاتِ الثِّيَابِ
رَجُوعًا إِلَى مَكَانِهَا حَتَّى بَاتَتْ غَرِيْسِي مُخْبِئَةً مِنْ
جَدِيدٍ. وَلَمَّا أَسْبَلَ ذِرَاعَهُ، رَأَتْ غَرِيْسِي الْمُسَدَّسَ فِي

يده. كان يرتجف. سمعت باب الخزانة يُغلق من جديد. انتظرت مُصغيةً إلى خطواته تقطع الرّواق نحو حُجرة الجلوس.

قفزت غريسي لدى خبطةٍ عاليةٍ من حُجرة الجلوس.

رنّ جرسُ الباب، ففتحت عينيها، مُحَدِّقةً في الظلام. رنّ الجرسُ مرّةً ثانية، ثمّ ثالثة. قرعَ أحدهم البابَ الأمامي ونادى: "شُرطةٌ ممفيس. افتحوا الباب".

مزيدٌ من الأصوات خارجًا، مُبتعدةً عن المنزل. أوامرٌ بصوتٍ عالٍ.

أصغت غريسي مُرتعشةً، ولكنها لم تتحرك. انتظرت مامي حتى تأتي وتجدّها. لماذا تأخّرت طويلاً؟ ثرى، هل تستاء لأنّ غريسي بلّلت سروالها؟ وإذ فرّكت عينيها من الدُموع، غطت رأسها.

سمعت صفاراتٍ من بعيد، ثمّ اقتربت. وسمعت غريسي عَجَلاتٍ تزعق. مزيدٌ من الصّراخ خارجًا، وسكوتهٌ داخلًا. ضربَ البابَ الأمامي شيءٌ كبير، وحصلَ تحطّم. دخلت خطواتٍ بِسرعة. تحدّث رجالٌ بأصواتٍ خفيضة. "جئةُ امرأةٍ في المطبخ. رجلٌ مَيّت في حُجرة الجلوس. الرّقم ٣٥٧، على الأرض. يبدو كأنّه انتحار. قالت جارةٌ إنّ هناك بنتًا صغيرة. غريس".

ابقي ساكنةً وساكنة كفاًرة صغيرة! هكذا قالت
ماما، وهكذا فعلت غريسي.

انفتح باب الخزانة منزلقاً. وإذا برجل كبير مرثد
جزمة سوداء ذات سُيورٍ مشدودة، وبنطلوناً أسود
فضفاضاً ذا جُيوب، وصدرةً سميكةً عليها أحرف
بيضاء، وخوذة، يدفع الثياب جانباً. ”وجدتها!“
انضغطت غريسي إلى الخلف من جديد، مُجفلةً.
جلس الرجل القرفصاء، مُبتسماً بحزن. ”لا بأس،
غريس. تستطيعين أن تخرجي الآن“. ولما لم تتحرك،
مدَّ شرطي الفرقة الخاصة يده، وكفها إلى فوق.
”تعالِي إلي. لن أؤذيك“.

كان صوت الشرطي عميقاً كصوت دادي.
لما لم تخرج غريسي، انحنى الرجل الأسود الثياب
إلى الداخل، ودس يديه الكبيرتين تحت ذراعيها،
وشالها إلى الخارج. فتحت فمها، ولكن لم يخرج أي
صوت. أحست أنها مغمورة بقوة. ”أنت في أمان،
غريس. لن يؤذيك أحد“. ثم حملها بسهولة، وقال
بصوت لطيف: ”لي بنت صغيرة في مثل عمرك.
اسمها ألي“.

وقف وراءه شرطي آخر في ثياب سوداء، ولكنه
دار ومضى، مُتكلاً عبر لاسلكيٍ مُحمل على كتفه.
ارتجف بدن غريسي كأخِر ورقة خريف مُتشبّهة
بُغصن مكسور.

”سُخِّرْجُكِ مِنْ هُنَا، غَرِيسُ. أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَضَعِي رَأْسَكَ عَلَى كِتْفِي وَتُغْمِضِي عَيْنَيْكَ جَيِّدًا“.

تَلَوَّتْ غَرِيسِي عَلَى ذِرَاعِيهِ. ”أُرِيدُ مَامِي. أَيْنَ مَامِي؟“

اشْتَدَّتْ ذِرَاعُ الشُّرْطِيِّ تَحْتَهَا، وَأَحْسَّتْ يَدَهُ تَحْتَضِنُ قَفَا رَأْسِهَا. ”أَغْمِضِي عَيْنَيْكَ، حَبِيبَتِي. دَقِيقَةً وَاحِدَةً فَقَطْ. هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَفْعَلِي ذَلِكَ لِأَجْلِي، غَرِيسُ؟“

”أُرِيدُ مَامِي“. تَهْدَجُ صَوْتُهَا وَجَرَّتْ دُمُوعُهَا.

أَخَذَ الشُّرْطِيُّ الْآخِرُ سِتْرَةَ قَرْنَفُلِيَّةِ اللَّوْنِ ذَاتَ قُبْعَةٍ مِنَ الْخَزَانَةِ. ”اسْتَعْمِلْ هَذِهِ“.

”فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ“. أَنْزَلَ الشُّرْطِيُّ غَرِيسَ، وَأَلْبَسَهَا السِّتْرَةَ. ثُمَّ جَرَّ السَّحَابَ إِلَى الْأَعْلَى بِالْكَامِلِ، وَأَنْزَلَ الْقُبْعَةَ عَلَى رَأْسِهَا كُلِّهِ. وَلَمَّا حَاوَلَتْ دَفْعَ الْقُبْعَةَ إِلَى الْوَرَاءِ لِتَتِمَكَّنَ مِنَ الرُّؤْيَةِ، أَزَاخَ يَدَهَا بَعِيدًا. ”اتْرَكِيهَا“. وَحَمَلَهَا مِنْ جَدِيدٍ.

مَحْمُولَةٌ فِي الرِّوَاقِ عَلَى ذِرَاعَيْنِ قَوِيَّتَيْنِ، شَعَرَتْ غَرِيسِي بِالْهَوَاءِ يَتَحَوَّلُ مِنْ دَافِيٍّ إِلَى بَارِدٍ. وَلَمَّا خَطَا الشُّرْطِيُّ نَازِلًا، عَلِمَتْ غَرِيسِي أَنَّهَا بَاتَتْ خَارِجَ الْمَنْزِلِ. اخْتَلَسَتْ النَّظْرَ مِنْ تَحْتِ الْقُبْعَةِ فَرَأَتْ سِيَّارَاتِ شُرْطَةِ مَرْكُونَةَ أَمَامَ الْمَنْزِلِ، وَأَنْوَارَهَا الْحَمْرَاءَ وَمَاضَةَ. وَقَدْ سَحَبَ رَجُلَانِ شَيْئًا مَا عَلَى عَجَلَاتٍ إِلَى خَارِجِ عَرَبِيَّةٍ كَبِيرَةٍ مُقْفَلَةٍ. وَظَهَرَتْ مِسْرُ تَشَانِيْنِغْ، الْجَارَةُ الْمُجَاوِرَةَ،

واقفةً على المسطح العشبي، باكيةً ومطوّقةً نفسها
بذراعَيْها، وهي تتحدّثُ إلى شرطيٍّ آخر.

صارعت غريسي. ”مامي!“ لم تستطع أن تراها
في أيِّ مكان. أين كانت؟ ”مامي!“

أنزلها الشرطيُّ إلى الأرض. وإذ قرّصَ أمامها،
أمسكها بذراعَيْها. ”ستكونين بخير“.

”أريدُ مامي“.

تبَلَّتَ عَيْنَاه. ”أعرفُ أنّك تُريدينها، بُنَيَّتِي. ما كان
أبوكِ وأُمُّكِ ليُريدا أن تزيههما على هذه الحال“.

ماذا عنى ذلك؟ فاضتِ الدُموعُ على خديها. كان
رجالٌ يدخلون البيت ويخرجون منه. لماذا كان هؤلاء
الناسُ كلُّهم هُنا؟ لماذا لم يدعها الشرطيُّ تعودُ إلى
الدَّاخل؟ لماذا لم تأتِ مامي لَمَّا نادتها؟ لماذا كان في
حوزةِ دادي مُسدّس؟ لماذا كانت مِسز تشانينغ تبكي
وهي مُنحنيّةٌ تمامًا؟ حاولت غريسي أن تفرّ، ولكنَّ
الشرطيَّ أبى أن يُفلتَ ذراعَيْها. صرَّخت طالبةً مامي.
كانت مامي في المطبخ. علِمَت غريسي أنّها كانت
هُناك. ما زالَ النُّورُ مُضاءً. وكان رجلانِ واقفينِ هُناك
في الدَّاخل. استطاعت أن تراهما عبْرَ النّافذة.
”مامي!“

توقّفت عربةٌ مقفلةٌ أُخرى، على جانبها أحرفُ
كبيرة. انفتحَ البابُ الجانبيُّ مُنزلقًا، وترجّلت امرأةٌ
بسرعة، حاملةً ميكروفونًا، مع رجلٍ يحملُ كاميرا.

قال الشرطي الذي يحتجزُ غريسي كلمةً حادَّةً قصيرةً كان دادي يقولها عندما يغضب، ونظرَ حوَالِيه. "أستطيعُ أَحَدًا أن يُسَاعِدَنِي هُنَا؟"

هَرِغَت مِيز تشاينغ. "أستطيعُ أن آخُذَهَا إِلَى بَيْتِي". أمسكتُ غريسي بِيَدِهَا. "تعالِي، بُنَيْتِي الحبيبة. سأعْمَلُ لِكَ بَعْضَ الكَاكَاو السَّاخِن وَأَقْرَأُ لِكَ قِصَّةً. سِيَّاتُون لِيَأْخُذوكِ بَعْدَ قَلِيلٍ". ظَنَنْتُ غريسي أَنَّ الجَارَةَ عَنَّت أَنَّ مامي ودادي سِيَّاتِيَان، فَذَهَبْتُ مَعَ مِيز تشاينغ طَوْعًا. وَلَمَّا دَخَلْنَا البَيْتَ المُجَاوِرَ، سَأَلْتُ مِيز تشاينغ غريسي هل هِيَ جَائِعَةٌ. أَتُرِيدُ عِشَاءً مَا؟ أَمْ شَيْئًا مِنَ الكُعَيْكَاتِ المُحَلَّلَةِ؟ أَمْ تُرِيدُ مُشَاهِدَةَ التِّلْفِزِيُون؟ "أه، حبيبتِي، أَنْتِ مُبَلَّلَةٌ". بَدَتْ مِيز تشاينغ عَلَى وَشِكِّ البُكَاءِ مِنْ جَدِيدٍ. "مَا زَالِ عِنْدِي قَلِيلٌ مِنْ ثِيَابِ ابْنَتِي. هِيَّا الآنَ. لِنُهَيْئِ لِكَ حَمَامًا دَافئًا مُرِيحًا".

لَمْ يَكُنْ مامي ودادي هُمَا مَن جَاءَ لِأَخْذِ غريسي. إِنَّمَا جَاءَتْ امْرَأَةٌ دَاكِنَةٌ الشَّعْرَ، غَرِيبَةٌ لَمْ تَرَهَا غريسي قَطُّ مِنْ قَبْلِ. لَمْ تَكُنْ مِيز تشاينغ أَيْضًا تَعْرِفُهَا، وَلَكِنَّهَا أَخَذَتْ بِطَاقَةِ التَّعْرِيفِ مِنْ يَدِهَا وَدَعَتْهَا إِلَى الدَّاخلِ. وَقَبْلَمَا تَمَكَّنَتْ غريسي مِنْ فَهْمِ مَا كَانَ جَارِيًا، وَجَدَتْ نَفْسَهَا مُثَبَّتَةً بِالْجِزَامِ عَلَى المَقْعَدِ الخَلْفِيِّ فِي سِيَّارَةِ المْرَأَةِ. حَاوَلَتْ أَنْ تَفْتَحَ البَابَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُقْفَلًا. فَانْعَطَفَتْ وَدَارَتْ عَلَى المَقْعَدِ، مُحَاوِلَةً أَنْ تَشُقَّ

بِالأظفار طريقها إلى النَّافذة الخلفيَّة، وهي تُصْرِّخُ
طالِبَةً مامي. تحدَّثتِ المرأةُ بِصوتٍ هادئٍ وهي
تُسوق، واختفى بيتُ غريسي وراءها.



أظلمَ اللَّيْلُ فيما انتقلتِ غريسي من سيَّارة إلى
مكتب، حيثُ غريبةٌ أُخرى، سيِّدةٌ شائبةٌ الشَّعرِ هذه
المرَّة، طلبتِ إلى غريسي أن تنامَ على الأريكة. غطَّتْها
المرأةُ ببَطَّانيَّةٍ ناعمة، ومَشَّطت لها شعرها برفقٍ
مُرَجِّعَةً إيَّاهُ عن وجهها. ”ما عليكِ إِلَّا أن تُغمِضي
عينيكِ وتُحاولي أن تنامي.“ قَلَّبَتِ المرأتانِ أوراقًا
وتحدَّثتا بصوتٍ خفيف. وأجرت إحداهما بِضَعِ
مُكالماتٍ هاتفيَّة. لم تُردِ غريسي أن يغلبها النُّعاس.
ولكنَّها استيقظت مُشَوَّشةً لَمَّا وضعتِ السيِّدةُ الشَّائبةُ
الشَّعرَ يدًا على كتفها. ”عندنا مكانٌ لك.“ وقالت إنَّ
زَوْجِي تَنَشُّةٌ لطيفينِ كانا ينتظرانِ لِقَاءها. ماذا كان
زَوْجِ التَّنَشُّةِ؟

”أريدُ مامي.“ بَكَتِ غريسي.

جلستِ السيِّدةُ الشَّيباءُ مع غريسي على الأريكة،
ووضعتِ ذراعًا على كتفها. ”أعرفُ أنَّكِ تُريدينِ
ماماكِ، ولكنَّها رحلت، حبيبتِي. وباباكِ أيضًا رحل.“

رحلا؟ إلى أينِ رحلا؟ ”إنَّهما في البيت.“

”مِستر ومِيسز آرنولد شخصانِ لطيفانِ جدًّا.

سيعتنيان بك أيامًا قليلة. لدينا أشياء نرتبها. إنهما
يُحَبَّانِ الأولاد. ستكونين في أمان.“



اشتاقت غريسي إلى مامي، ولكن كُلمًا سألت عنها،
قالت ميسز آرنولد إنها ذهبت إلى السماء. لم تقل إلى
أين ذهب دادي. حلّمت غريسي أحلامًا سيئة كل ليلة.
كانت تسمع دادي صارخًا ومامي باكية. ثم تسمع
أصواتًا أخرى وتري غُرباء في كل مكان. فتختبئ في
الخزانة وتصرخ طالبة مامي. وإذا بميسز آرنولد تفتح
باب الخزانة المنزلق، فتشيلها وتجلسها في حضنها
وتهزئها. ”أنت في أمان معنا، حبيبتي. لا داعي لأن
تختبئي أو تخافي بعد.“ ثم تُعيد غريسي إلى السرير
وتغطّيها مع الدّبّوب الجديد تمامًا، ذاك الذي أعطها
إياه آل آرنولد. ”سيجعلك تشعّرين بأنك أحسن
حالة“.

ذات صباح، قالت لها ميسز آرنولد: ”خالّتك أليزابث
ستكون هنا غدًا، غريس. هي أخت أمك. ستأتي طول
الطريق من فرسنو، كاليفورنيا. أليس ذلك رائعًا؟ هي
سوف تعتني بك“.

لم تبدُ الخالة أليزابث مثل مامي في أي شيء.
كانت لابسًا جِذاءً أسودَ لَمَاعًا، وبنطلونًا وسترةً
أسودين، وبُلوزةً بيضاء، مع عقِدٍ لؤلؤيّ ذي طاقٍ
واحد. كانت جميلة، لكنّها لم تبدُ سعيدةً، أو ودودًا.

تحدّثت ميسز آرنولد والخالة أليزابث، فيما قعدت غريس على الأريكة، والدبدوب المحشوّ على ذراعها. أبقت رأسها مَحْنِيًّا، وهي مرعوبة، إلا أنّها سمعت كل كلمة.

”لا أرى حاجةً إلى المزيد من الكلام.“ تكلمت الخالة أليزابث بحزم.

”ولكنّها اجتازت في محنة رهيبة، مس وُكْر.“ بدت ميسز آرنولد متضايقّة.

”نعم، والتأخير سيجعل الأمور أسوأ فحسب.“ وقفت الخالة أليزابث وعلقت جزدانها على كتفها. نظرت من علّ إلى غريسي بعينين كئيبتين. ثمّ واجهت ميسز آرنولد ومدّت يدها. ”شكرًا لك على اعتنائك بابنة أختي حتّى تمكّنت من المجيء إلى هنا. إنّي أقدرُ ذلك فعلاً.“

”هي ملاكٌ صغيرٌ كامل.“

”تعالِي، غريس.“ توجّهت الخالة أليزابث نحو الباب. وإذ فتحتّه نظرت إلى الوراء، وقد ضاق فمها. ”آن الأوانُ للذهاب إلى الديار.“

وثب قلبُ غريسي. وإذ تشبّثت بالدبدوب بإحدى ذراعها، ركضت إلى خالتها. لم تُمسك الخالة أليزابث بيدها، بل تقدّمتها ماشيةً إلى سيّارة بيضاء مركونة عند حافة الطريق. فتحت الباب الخلفي، وألقت حقيبة سفر غريسي الصغيرة على الطرف البعيد من

المقعد الخلفي، وأومات لغريسي. "اصعدي!"

كانت غريسي تعرف كيف تثبت حزام الأمان حولها. راقبت الخالة أليزابث حتى طقطقت البكرة، ثم سفت الباب. قالت مسز آرنولد شيئاً ما، فواجهتها الخالة أليزابث من جديد. أخيراً، دارت الخالة أليزابث حول مقدم السيارة، ثم صعدت وجلست على مقعد السائق. ودون أن تقول أية كلمة، أو تلقي نظرة إلى الورا على غريسي، أدارت المحرك وسافت السيارة في الشارع.

ضربت غريسي المقعد الخلفي بكعبي حذائها من فرط ابتهاجها.

"كفي عن ذلك الآن الآن!" قطبت الخالة أليزابث جبينها ناظرة في مرآة الناظر الخلفية.

جمدت غريسي. انتظرت وانتظرت. "هل وصلنا إلى هناك؟"

"ما زلت أسوق."

"كم من الوقت..."

"يقدر ما تستغرق الطريق! لا تسألي ثانية."

سافت الخالة أليزابث بسرعة، مُحَدِّقَةً أمامها مباشرةً، وكتا يديها مُتَشَبِّهَتَانِ بِعَجَلَةِ الْقِيَادَةِ. تشنجت معدة غريسي بشدة حتى ألمتها. نظرت إلى وجه الخالة أليزابث في المرآة، ورأت غضبها. قابلت الخالة أليزابث نظرتها. "كفي عن التّحديقِ إليّ! هذا عدَمُ

تهذيباً! فنظرت غريسي إلى تحت، وضمت
الدَّبْدوبَ إلى صدرها.

بعدَ حين، لمحت غريسي مكتبَ البريد، حيثُ
كانت مامي تشتري الطَّوابعَ وتبعثُ بالرسائل. ورأتِ
المكتبة، حيثُ اصطحبتُها مامي لِتسمعَ راويةَ
القِصصِ تقرأ. ورأتِ الكنيسة، حيثُ أخذتها مامي إلى
مدرسةِ الأحدِ فيما دادي نائمٌ في البيت. لقد عرفتِ
البيوت. مرَّتِ الخالةُ أليزابثُ أمامَ المُتنزَّهِ بقربِ
المدرسة. كانت مامي دائماً تجلسُ على بَنكِ تحت
شجرةَ المغنوليا، فيما تلعبُ غريسي مع أولادِ آخرين.

انعطفتِ الخالةُ أليزابثُ إلى الشارعِ الذي كانت
غريسي تسكنُ بجانبه، وسافت على الطريقِ الخاصَّة.
وقبلما توقفتِ السَّيَّارةُ تماماً، فكَّتِ غريسي حزامَ
الأمانِ عنها ودفعت بابَ السَّيَّارةِ حتَّى انفتح.
ضغطتِ الخالةُ على المكابحِ بشدَّة، فصدمت غريسي
المقعدَ الأماميَّ بقوة. وإذ زلَّت من السَّيَّارة، ركضت.
فوقعت وقشرت رُكبَّتها، إلاَّ أنَّها وثبتت واقفةً من
جديد. ”مامي!“ حاولت أن تفتحَ البابَ الأماميَّ،
ولكنَّهُ كان مُقفلاً. ”مامي، رجعتُ إلى البيت!“

إذ أمسكت غريسي بكتفيها، وغرِزَتْ غرْزاً، واجهتِ
الخالةُ أليزابثُ بوجهها المشحوب. ”كُفِّي عن هذا! هل
تريدين أن يسمعك الجيرانُ كلُّهم؟“ كافحت غريسي،
فتحرَّرت وقرعتِ البابَ بقوة. ”اللَّهُمَّ، ساعدني.“

تهدج صوت الخالة أليزابث. وإذ فتحت قفل الباب، دفعت الباب فانفتح. "تقدمي وانظري".

ركضت غريسي إلى الداخل، مُناديةً مامي. جرت من المطبخ إلى حجرة الجلوس، إلى غرفة النوم الرئيسية. فتشت في الحمام وفي حجرة الجلوس. ثم خرجت خارجًا. "مامي! أين أنت؟ مامي!" ركضت راجعةً إلى الداخل، وهي مُشوَّشةٌ ومسلوخةٌ ومرعوبةٌ، فوجدت الخالة أليزابث واقفةً كتمثال. "مامي!" صرخت غريسي، باكيةً الآن بكاءً مُتقطِّعًا. لماذا لم تزد ماما؟ لماذا لم تأت؟

أمسكت بها الخالة أليزابث من يديها بإحكام، وأعادتها إلى حجرة الجلوس. لاحظت غريسي أن كرسي دادي لم يعد موجودًا هناك. وكان مُربَّعٌ كبير من السجادة قد اقتطع حيث كان الكرسي سابقًا. جلست الخالة أليزابث على الأريكة، وأمسكت بغريسي من ذراعيها. "انظري إليّ، غريسي. أمك ماتت. وكذلك أبوك. هل تفهمين ما يعنيه ذلك؟ إنهما ليسا هنا". ثم ضمت شفثيها معًا، وأشاحت بنظرها. وإذ طرفت بعينيها حبسًا للدموع، بلغت ريقها ثم نظرت إلى غريسي من جديد. "سنبقى هنا فقط المدة اللازمة لتفريغ البيت وعرضه للبيع. عليّ أن أرجع إلى عملي. لذلك ستذهبين معي إلى فرسنو. هي في كاليفورنيا، في حال كنت لا تعرفين".

”لا أريد أن أذهب“.

”ذلك سيء جدًا، لأن ما تُريدينه لا يهم. أنتِ تنالين ما قدّمته لك الحياة، بسبب ذلك الوعد...“
توقّفت وهزّت رأسها. ”أعرف أن ذلك ليس ما تُريدينه. وهو ليس ما أريده أنا أيضًا. ولكننا مُلتصقتان إحدانا بالأخرى. أمك كتبت ذلك في وصية“.
لقد بدت غاضبةً. ”ذلك يقول لك شيئًا ما عن وضعها“. انطبقت يداها وانفتحتا إلى جانبيها. تطلّعت خارج النافذة وأطلقت تنهدةً ثقيلة. ولما نظرت إلى غريسي من جديد، كانت عيناها باردتين، لكن غير ساخطين بعد. ”من الآن فصاعدًا، ستعملين مثلما أقول. أنا لست أمك، ولكنها جعلتني الوصية عليك. سأعمل أفضل ما أستطيعه لأجلك. الآن، اذهبي إلى غرفتك ونامي قليلًا ريثما أنجز عملاً ما“.



أخيرًا، رأت غريسي مامي مُجددًا. اصطحبتها الخالة أليزابث إلى مبنى كبير فيه غرفة صغيرة لها نوافذ زجاجية مُلوّنة جميلة. كانت مامي مُمددةً بلا حراك داخل صندوقٍ من خشب مُبطّنٍ بساتانٍ أبيض لامع. وكانت يداها مطويتين حول باقةٍ من الوردِ القرنفليّ. وقد بدت مُختلفةً. ”مامي؟“

”تقدّمي“. وقفت الخالة أليزابث بجانبها. ”المسيها. لعلّ هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها

سْتَفْهَمِينَ“.

رَبَّتْ غَرِيسِي يَدَ مَامِي بِرِفْقٍ. كَانَ جِلْدُهَا بَارِدًا
وَعَرِيبَ الْقَلَمَسِ. ”اسْتَيْقِظِي“.

”هل تبدو شبيهةً بأُمَّكِ؟“

نَقَلْتُ غَرِيسِي نَظَرَهَا مِنْ مَامِي إِلَى الْخَالَةِ أَلِيزَابْثِ،
ثُمَّ رَجَوًّا إِلَى مَامِي. ”مَامِي لَا تَضَعُ الْمَاكِجَاجَ. دَادِي
لَا يَحِبُّهُ“.

”ليست هي هنا، غريس. لقد ذهبت نفسها إلى
السَّمَاءِ“.

”هل دادي في السَّمَاءِ أيضًا؟“

أَطَلَقْتُ الْخَالَةَ أَلِيزَابْثَ شَخْرَةَ سُخْطٍ. ”طَلَبْتُ
إِحْرَاقَ جُثَّتِهِ“. تَكَلَّمْتُ عَبْرَ شَفَتَيْنِ مَزْمُومَتَيْنِ بِصَوْتٍ
خَفِيفٍ. ”بدا ذلك نِهَايَةً لائِقَةً بِهِ“.

عَرَّفَ قِسِّيْسُ الْكَنِيسَةِ الْخَالَةَ أَلِيزَابْثَ بِنَفْسِهِ. جَاءَ
آخَرُونَ قَلِيلُونَ مِنَ الْكَنِيسَةِ لِلتَّعْزِيَةِ وَالْمَوَاسَاةِ. كَانَتْ
مَامِي مِنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ قَدْ بَدَأَتْ حُضُورَ الْكَنِيسَةِ وَأَخَذَ
غَرِيسِي إِلَى مَدْرَسَةِ الْأَحَدِ. لَمْ يَكُنْ كَثِيرُونَ يَعْرِفُونَهَا.
بدا الْقِسِّيْسُ مَتَأَسِّفًا بِشَأْنِ ذَلِكَ. ”بَدَتْ نَفْسًا رَقِيقَةً“.

أَقَلَّتْ سَيَّارَةً سَوْدَاءَ كَبِيرَةً صُنْدُوقَ مَامِي إِلَى
مُتَنَزِّهِ لَهَا مَدخُلٌ فَوْقَهُ قَنْطَرَةٌ عَالِيَةٌ، وَبَوَّابَةٌ حَدِيدٍ
مَفْتُوحَةٌ. رَكَنْتِ الْخَالَةُ أَلِيزَابْثَ سَيَّارَتَهَا وَجَلَسَتْ
صَامِتَةً عَلَى الْمَقْعَدِ الْأَمَامِيِّ. أَمْسَكْتُ عَجَلَةَ الْقِيَادَةِ
بِيَدَيْنِ بِيضَاوِينَ، مُغْمِضَةً عَيْنَيْهَا. وَلَمَّا تَرَجَّلتُ مِنْ

السَّيَّارَةَ، دَارَتْ حَوْلَهَا لِأَخْذِ غَرِيسِي. وَإِذْ أَمْسَكْتَهَا
بِيَدِهَا، اقْتَادَتْهَا عَبْرَ الْعُشْبِ إِلَى حُفْرَةٍ كَبِيرَةٍ فِي
الْأَرْضِ، وَصُنْدُوقُ مَامِي فَوْقَ. تَكَلَّمَ الْقَسَّيسُ عَنِ
النُّرَابِ وَالرَّمَادِ. ارْتَجَفَتْ يَدُ الْخَالَةِ وَتَوَثَّرَتْ، حَتَّى
بَكَتْ غَرِيسِي. ثُمَّ أَفْلَتَتْهَا فَجَاءَتْ وَصَالَبَتْ ذِرَاعَيْهَا.
صَلَّى الْقَسَّيسُ، وَدَلَّى صُنْدُوقَ مَامِي دَاخِلَ الْأَرْضِ.
انْحَنَّتِ الْخَالَةُ أَلِيزَابَثَ، وَأَخَذَتْ قَبْضَةَ نُّرَابِ، وَذَرَّتْهَا
عَلَى صُنْدُوقِ مَامِي. ”تَجَارِبُكَ انْتَهَتْ، لَيْلِي. اِرْقُدِي
بِسَلَامٍ“. وَنَظَرَتْ مِنْ عُلَى إِلَى غَرِيسِي. ”قُولِي وَدَاعًا
لِأُمَّكَ“.



تِلْكَ اللَّيْلَةَ، جَمَعَتِ الْخَالَةُ أَلِيزَابَثَ مُتَعَلِّقَاتِ غَرِيسِي
فِي حَقِيبَةٍ سَفَرٍ. انْتَزَعَتْ دَبْدُوبَ غَرِيسِي الْمَحْشُوءَ عَنِ
ذِرَاعَيْهَا. ”أَنْتِ أَكْبَرُ سِنًّا مِنْ أَنْ تَلْعَبِي بِهِذَا!“ ثُمَّ
أَخَذَتْهُ إِلَى الْخَارِجِ وَرَمَتْهُ فِي صَفِيحَةِ الْقُمَامَةِ.

فِي الصَّبَاحِ التَّالِيِ، سَاقَتِ الْخَالَةُ أَلِيزَابَثَ السَّيَّارَةَ
طَوْلَ الطَّرِيقِ إِلَى سَنَسِنَاتِي. شَالَتْ الْخَالَةُ حَقِيبَةَ
سَفَرِهَا وَحَقِيبَةَ سَفَرِ غَرِيسِي مِنْ صُنْدُوقِ السَّيَّارَةِ.
سَمِعَتْ غَرِيسِي هَدِيرًا عَالِيًّا، وَرَفَعَتْ نَظْرَهَا نَحْوَ
طَائِرَةٍ فَوْقَ رَأْسِهَا، ارْتَفَعَتْ كَطَائِرِ عِمْلَاقٍ دَاخِلِ
الْفِضَاءِ. قَالَتْ لَهَا خَالَتُهَا أَنْ تَبْقَى قَرِيبَةً مِنْهَا
وَتَجَارِبِهَا. مَا كَانَتْ غَرِيسِي يَوْمًا بِقُرْبِ نَاسٍ كَثِيرِي
الْعَدَدِ هَكَذَا، وَقَدْ تَبِعَتْ الْخَالَةُ أَلِيزَابَثَ عَلَى الْأَثَرِ.

انتظرتنا في صف طويل، حيث كان لدى الجميع حقائب سفر. ولما وصلنا إلى مكتب الاستقبال، كلمت الخالة أليزابث الكاتب. ثم علق رجل قصاصات تعريف على حقيبتيهما ووضعهما على حزام متحرك.

كان لدى غريسي أسئلة كثيرة جدًا، ولكن الخالة أليزابث بدت متوترة وقلقة. مشت بسرعة، وكان على غريسي أن تجاهد لثجاريها. جلسنا في مكان انتظار، حتى حان وقت الوقوف في صف آخر والصعود إلى طائرة. داخل الطائرة، أقحم الناس حقائب صغيرة وأكياس تسوق ورزماً في الحجيرات الفوقية قبل أن يزلوا على مقاعدهم. اقتادت الخالة أليزابث غريسي طول الطريق إلى مؤخر الطائرة، وطلبت منها أن تجلس قرب النافذة. وأطلقت تنهدة كئيبه لما جلست على المقعد بجانب غريسي. "حاولي أن تنامي. ذلك هو ما أنوي أن أفعله. عندنا رحلتنا طيران أخريان بعد هذه. سيكون لنا يوم طويل جدًا. لا توقيظيني إلا إذا أردت دخول الحمام". ونخعت رأسها نحو ذيل الطائرة. "المرحاض وراءنا تمامًا".

نسيت غريسي كل شيء لما هدرت الطائرة على المدرج. أول الأمر، أحست جاذبية الأرض البليدة، ثم أقلعت الطائرة، ثقيلة ومن ثم صائرة أخف كلما ارتفعت أكثر. نظرت غريسي إلى تحت، وتعجبت كيف صارت السيارات والبيوت أصغر. ثم دخلت

الطَّائِرَةُ الْغُيُومِ، وَظَلَّتْ تَعْلُو وَتَعْلُو. فَصَلَّتْ غَرِيسِي أَنْ
يَذْهَبُوا إِلَى السَّمَاءِ لِتَرَى مَامِي وَيَسُوعَ.

الفصل ٢١

اتَّسَمَتْ يوسيميتي بِجِمالٍ يَبَعُثُ الرَّهْبَةَ، بِأوديتيها
المُعَلَّقَةِ، وشَلَّالاتها، وقِبابِها وتِلالها الصَّوَانِيَّةِ الضَّخْمَةِ.
ولكنَّ رومان لم يَسْتَطِعْ أن يُحوِّلَ عَيْنِيهِ عن غريس.
كان واضحًا أَنَّها مُسْتَمْتِعَةٌ، وقد أَشْرَقَ وجهُها بذلك.

”لو كانت لي مَوْهَبَتُكَ، رومان، لرَسَمْتُ هذا
المنظر“. وبَسَطَتْ ذِراعَيْها شاملةً الواديَ أمامَهُما.

”مع عَدَمِ الوصولِ إلى أيِّ مكانٍ. لقد تَمَّ ذلكَ أَلْفَ
مَرَّةً“. وَضَعَتْ تَلْفُونَهُ في جَيْبِهِ، وانضَمَّ إليها.

نظَرَتْ إليه. ”ماذا كُنْتَ تَفْعَلُ؟ تتواصَلُ نَصِيًّا مع
صديقة؟“

”ليس لي صديقة“. ابتسَمَ ابتسامَةً ضئيلةً. ”ليس
من النَّوعِ الذي تَعْنِيَنَّهُ، على كُلِّ حالٍ“.

”لماذا إِذَا تَحْمِلُ ذلكَ الشَّيْءَ في يَدِكَ؟ تَفوُثُكَ
أشياءٌ كثيرةً“.

كانَ قد شَاهَدَ المنظرَ قَبْلًا، ولكنَّهُ رَأَهُ مُخْتَلِفًا هذه

المرة. ”هاف دُوم مَشهَدِيَّةٌ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ. لِنَ أَمَانَعِ
تَسْلُقُ تَلِكَ الصُّخُورِ يَوْمًا مَا“.

”سَيُعَوِّزُكَ الكَثِيرُ مِنَ الخَبْرَةِ بِتَسْلُقِ الجِبَالِ“.

”تَعَوِّدُ أَنْ أَتَسْلُقَ تَلِكَ المَبَانِي“.

”أَكِيدُ، سَوِيرْمَانِ“.

رَاقَتُهُ ابْتِسَامَتُهَا. ”مَا كَانَتْ بِهَذَا الارتفاعِ الشَّاهِقِ.

سِتَّةُ أَدْوَارٍ أَوْ خَمْسَةٌ“. رَفَعَ نَظْرَهُ إِلَى هَافِ دُومِ.

”أَرَدْتُ أَنْ أَعْمَلَ مَوَاقِعَ سَمَاوِيَّةٍ. كَلَّمَا كَانَ المَوْقِعُ

أَعْلَى، كَانَ أَفْضَلَ“. وَالتَفَّتْ إِلَيْهَا. ”أَكْسِبُ صِدْقِيَّةَ

الشَّارِعِ!“ لَمْ تَفْهَمِ كَلِمَةً وَاحِدَةً مِمَّا قَالَهُ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَ

مُسْتَعِدًّا لِلشَّرْحِ. ”لَا بِأَس. لِمَاذَا لَا نَعُودُ إِلَى الطَّرِيقِ

وَنَقْطَعُ مَزِيدًا مِنَ المَسَافَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْقُضِيَ النَّهَارُ؟“

رَفَعَتْ نَظْرَهَا إِلَى هَافِ دُومِ مُجَدِّدًا. ”أَمْرٌ يَدْعُو

إِلَى الأَسْفِ“.

”أَنْتِ المُضْطَّرَّةُ لِأَنْ تَرْجِعِي يَوْمَ الجُمُعَةِ“.

”نَعَمْ، لَا بُدَّ مِنَ ذَلِكَ. أَيْمِكُنْ أَنْ تَنْتَظِرَ دَقِيقَةً

وَاحِدَةً؟“ مَشَتْ إِلَى الجَدُولِ وَالتَقَطَتْ حَجْرًا صَغِيرًا.

”مَاذَا سَتَفْعَلِينَ بِذَلِكَ؟“

”أَتَذَكَّرُ يوسِيمِيَّتِي“.

كَانَا قَدْ قَطَعَا مَسَافَةً لَا بِأَسَ بِهَا مِنَ الطَّرِيقِ لَمَّا

طَلَبَتْ غَرِيسَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَوَقَّفَ. أَرَادَتْ بِضَعِّ دَقَائِقَ

فَحَسِبَ لَتَرَى بُحَيْرَةً دَائِرِيَّةً. لَحِقَ بِهَا رومانُ إِلَى

الحافة. وقفت غريس مُوجَّهةً نَظَرَهَا إلى الجبل، ثُمَّ إلى صُورتهِ المُنعَكِسةِ على سطحِ الماء. ”إنَّها مِثْلُ مِرآةٍ بَيضويَّة. وهذا يُضَاعِفُ الجمال.“

كانَ مشهَدًا رائِعًا. ”ما كُنْتُ لِأُحَاوِلَ رِسمَ هذا المنظرِ بتاتًا. لم أَسْتَطِعِ الاقْتِرَابَ أَكْثَرَ إلى ما تُشَاهِدُهُ ههنا.“

واجهته. ”لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ.“

”بعضهم يَقتَرِبُونَ أَكْثَرَ.“

”أليسَ مَدَارُ الفَنِّ كُلُّهُ هو التَّفْسِيرُ.“

”جُزئيًّا“. وَقَعَدَ على صَخرٍ أَمْلَسَ.

التفتت ناظرةً إلى البُحيرةِ من جديد. ”كانَ يَنبَغِي لي أن أَشْتَرِيَ بِطَاقَاتٍ بَرِيدِيَّةً مُصَوِّرةً“. أخرجت تَلِفونَها والتقطت بِضَعِ صُورٍ، ثُمَّ أَقْبَلت وَقَعَدت بِقُربِهِ. ”حدَّثني بِشأنِ رُسومِك. لستُ أَفْهَمُها، كما تَعلَمُ. الجداريَّة، بلى. الارتحالُ الكبير، وهي جميلة. آثارك الفَنِّيَّةُ الأخرى تُرَبِّكُنِي.“

انحنى إلى الأمام، وأَسَدَّ سَاعِدِيهِ على رُكْبَتِيهِ. ”هُمُ أَشْخَاصٌ عَرَفْتُهُم، مُنْكَشِفُونَ، لَكن مُتَنَكِّرُونَ بِحيثُ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أن يُمَيِّزَهُم“. وأطلقَ ضِحْكَةً حزينَةً. ”حينَ أَكوُنُ قد أنجزتُ الرِسمَ، لا أَعْلَمُ حتَّى مَن هُمُ.“

”مَن كانوا عِنْدَما بدأتُ؟“

أمه، صاحبُ مَبْنَى الشَّقَّةِ السَّكِنِيَّةِ في الحَيِّ

المُسْتَهْتِر، أفرادَ عائلاتٍ تنشئةً سابقين، عُقالَ خِدْماتِ
حِمايةِ الأولاد، الفتاةَ التي عرّفته بِالشَّهوةِ، أصدقاءَ
عِصابات، فتى عِصابةٍ طامحًا لأنَّ يصيرَ رسَّامَ
غرافيتي لم يعرف كيف يبقى حيًّا. ”بعضًا أريد أن
أتذكّرهم، آخرينَ أتمنّى لو أستطيعُ أن أنساهم“.

التقطَ حجرًا، ثمَّ وقفَ ورماهُ بِحيثُ جعلهُ ينزلقُ
بِسُرعةٍ ويثبُ تكرارًا فوقَ سطحِ الماء. فانتشرت
تفوّجاتٌ دائريّةٌ أفسدتِ الصُّورةَ المُنعكسةَ على
المياه. ثمَّ التقطَ حجرًا أبيضَ وألقاهُ إليها. ”لأجل
مجموعتك. أحسنُ لنا أن نذهب“.

بلغًا قِمةً مجازٍ تيوغا، وابتسمَ لها رومان ابتسامةً
عريضة. ”تمسّكي جيّدًا. سيكونُ شوطٌ انجدارٍ
مروّعًا“.

”تستطيعُ أن ترى من بُعدٍ أميال!“

”تلكَ بُحيرةٌ مُونو هناك في الأسفل“. عانقتِ
السّيارةُ المنعطفاتِ على الطّريقِ الشّديدةِ الانجدار.
وقد بدت غريسُ مُشوّقةً أكثرَ منها مُروّعةً. ”انا واثقٌ
بأنك تُحبّين ركوبَ عرباتِ الأفعوانيّة“.

”ما ركبْتُ في إحداها قطّ“.

زعقتِ العجلاتُ إذ قطعَ رومانُ مُنعطفًا آخر. وسمعَ
استنشاقَ غريسِ نفسِها، فأبطأ عندَ المنعطفِ الثّالي.
”ما من نُزّهٍ إلى مُدُنِ الملاهي أو الأسواقِ الرّيفيّةِ؟“

”ما من نُزّهٍ إلى أيِّ مكان. خالتي لم تأخذَ عُظلاً

كثيرة، وأنا وجدتُ عملاً حالما صرْتُ كبيرةً كفايةً
للحصول على إجازة عقلٍ.“

”ومتى تزوّجتِ؟“

”كنتُ أشتغلُ.“

كفى ذلكَ القدرُ من نَمَطِ الحياةِ المُرفَّهة التي سبقَ
أن تصوّرها. سحبتُ خريطةَها من جيبِ الباب
وفتحَتها. ”يوجدُ مركزُ زوّارٍ هناكَ في الأسفل.“

”وثرّيدينَ أن نتوقّف.“

”أنت الرّئيس.“

”حسنًا“. ولجّ الكمبيوتر وسألَ عن فنادقٍ لي
قايينغ. وإذ انتقلَ إلى نظامِ الهاتف، أجرى المُكالمةَ
وحجَرَ عُرفَتين. أعادت غريس الخريطةَ المَطوَّيةَ إلى
جيبِ الباب. لم يستطِع أن يعلمَ هل كانت مُستاءةً أم
نِفدَ لَدَيْها ما تقوله. ”خَيْلَ إليّ أنّه ينبغي أن نحجَرَ
شيئًا ما حتّى يُتاحَ لنا وقتٌ للتّفرُّج ولا نشعُر بأننا
على عَجَلَةٍ بالِغة.“

أطلقت ضحكةً رقيقةً وهزّت رأسَها. ”لستُ بحاجةٍ
إلى مُساعدةٍ شخصيّةٍ في هذه الرّحلة. فسيّارتُكَ
تستطيعُ أن تفعلَ كلَّ شيءٍ لأجلك. أنا واثقةٌ بأنّها
تستطيعُ أن تدوّنَ المَلاحَظَاتِ وتُجريَ مُحادَثة.“

”ربّما، مع تلقينات.“ وابتسمَ لها ابتسامَةً عريضة.

”لستِ غَيْرِي، أنتِ؟“

”أوه، كيف أحورُ نصفَ دماغِها؟“

أمضيا فوق ساعة في مركز الزُّوَار، قارئين جميعَ المعلومات، قبل أن يخرجَا إلى مُنتَجَعِ ثُوفَا على بُحيرةِ مُونو. وقد خَلَبَ كُلُّ شَيْءٍ لُبَّ غَرِيس. ”هذا أغرَبُ مكانٍ رأيته يوماً“.

”حسنًا، أنتِ لم تَرِي الكثير“.

أشارت بيدها. ”تبدو تلكَ شبيهةً بمدينة قديمة هُنَالِكَ. أمكَنَ أن تكونَ سدومَ وعمورةَ بعدما أمطَرَ اللهُ نارًا وكِبْرِيئًا“. وتساءلت بصوتٍ عالٍ إذا كانت بُحيرةُ مُونو تُشبهُ في شيءٍ البحرَ المَيْتَ في فلسطين. وقد كان ذلكَ مكانًا آخرَ ترغَّبُ في زيارته. بدتِ السَّمَاءُ أكثرَ زُرْقَةً في خَلْفِيَّةِ التَّشكُّلاتِ البيضاء. أشارت هي إلى أشكال، ورأى هُوَ ظلالًا. سألتُهُ كيفَ كان لِيَرسَمَ هذا المكان. كان سَيَسْتَعْمِلُ ألوانًا زاهية، وخطوطًا حادَّةً مُسنَّنة، بيضاءَ وسوداءَ. أصغَت بتركيز، كأنَّها تُحاولُ أن تسمعَ أكثرَ ممَّا كان يقولُهُ.

اشترى سندويتشين من مطعمٍ داخلَ مركزِ تسوُّوق، وجلسا إلى طاوِلَةٍ نُزِه. استمتعت غريس بمنظرِ بُحيرةِ مُونو. كانت تستقبلُ كلَّ شيءٍ حوَالِيهَا، مُتَشَرِّبَةً ومُتذَوِّقَةً إيَّاه. وهبَّت نَسْمَةٌ، فأغمضت عينيها. واستطاعَ رومان أن يرى سُرورَ الراحة في وجهها. أكانت قد بدأت تَلِينُ حِيَالَهُ، أم كان هو قد بدأ يَلِينُ حِيَالَهَا؟

إلامَ كان يتطلَّعُ تمامًا في هذه الرِّحلة؟ جعلُهُ عَدَمُ

معرفة مؤثرًا. ما كان قط قد حسب غريس جميلة، ولكنها أثرت فيه تأثيرًا عميقًا. كان دائمًا يحصل على تدفق الأدرينالين لديه من رسم الجرافيتي والإفلات من مطاردة الشرطة. ونظرت إليه، فأحس نبضه يتسارع بشدة.

سبق أن انجذب إلى نساء قبلها، ولكن ليس بمثل الطريقة التي بها انجذب إلى غريس. لقد أفرغته. في وسعه أن يضع حدًا الآن تمامًا لما كان قد بدأ يحدث بينهما، مهما كان ذلك. قال جاسپر إن ذلك كان نموذجًا. تكلم الصوت القديم داخل رأسه. لا تقرب فوق الحد، ببي راى. أنت تعلم كم يوجع الحب. امش مبتعدًا قبل أن تشعر بأي شيء أكثر مما تشعر به أصلًا. سوف تسلم قلبك منك.

قال جاسپر إن ذلك صلة ما بأمه. لم يكن في وسع ببي راى أن يثق بالنساء لأن المرأة التي احتاج إليها أكثر الكل قد تخلت عنه. هل كان ذلك هو السبب الذي من أجله أبقى علاقاته بالنساء سطحية وجسدانية؟ أكان أي شيء مرةً بتلك البساطة؟

لم يسترجع قصصًا قديمة، أو يفتح أبوابًا مغلقة، أو يعرف ما كان تحت غطاءً صفيحة قمامة؟ لم تف أمه بوعدها. إنها لم ترجع قط. كيف أمكن أن ترجع؟ لقد كانت ميتة. حاول جاسپر أن يجعله يُعالج الأمر، ويُنهي الموضوع. بقي ببي راى على قيد الحياة. لماذا

الزُّجوعُ إلى الماضي؟ أرادَ رومان أن يبقى سائرًا إلى الأمام.

إذا كان لديه قضايا تَحَلُّ، فماذا إذا؟ كانت أمُّه أقلَّ مَلومِيَّةً من الرَّجُلِ الذي أنجبَه. ربَّما لم يعلمَ قَطُّ. وربَّما علمَ وأدارَ ظهرَه لِشَايلا دين. ما بَرِحَ رومان حذرًا كلَّ حين، حتَّى أوَّلَ مرَّة. لم يُردِ لِوَلَدٍ يُنجِبُه أن ينشأ بلا أب، مع أمٍّ تُضطرُّ إلى تسليَّةِ الرجالِ لأجلِ لُقْمَةِ العَيْشِ.

غَضَّنتَ غريس الورقة التي كان سندويتشها ملفوفًا بها، وأقمَحَمَتها داخلَ كُوبِ الكرتون الذي كان فيه مَشروُبُها الغازيُّ. وابتسَمَت له. "شكرًا لك على العشاء". ثمَّ جمَعَت مُهَمَلاتِ رومان وتوجَّهَت إلى صفيحةِ القمامة.

راقبها رومان تمشي مُبتَعِدَةً. أعجَبَتُه مِشِيَتُها. غَمَرَ الدَّفءُ جِسْمَه. أحسَّنْ له ألا يُفكِّرَ في سلوكِ ذلك السَّبيلِ الانجِداريِّ مع هذه الفتاة.

ليس بهذه السُّرعة، على كُلِّ حال.

رجَعَت وجلَسَت بِحَيْثُ يتسَنَّى لها أن تُشاهدَ الغُروب. دارَ حولَ الطَّاولَةِ وجلسَ بقُربِها. رفَعَت وجهها مُبتَسِمةً له. "المنظرُ جميل، صحيح؟"

آثَرَ أن ينظُرَ إليها بدلًا من الغُروب، ولكنَّه تعقَّل. "مُدَّةٌ قصيرةٌ فقط، ثمَّ يزول."

"مُتَشائم. سيحصلُ ثانيةً غدًا. كلُّ غُروبٍ

مُخْتَلِفٌ“.

”للألوان علاقةٌ بالملوثات في الهواء“.

رمقته بنظرةٍ إشفاق. ”الألوانُ تأتي من ظاهرة تُسمَّى التَّفَرُّق. فأطوالُ الضَّوءِ الفَوْجِيَّةُ وأحجامُ الجُسيماتِ تُحدِّدُ الألوان. تعلَّمتُ ذلك في صفِّ علومٍ في الجامعة“.

ما درسَ قطُّ مُقرَّرًا جامعيًّا، لكنَّهُ طالعٌ كثيرًا. ”بالجُسيماتِ كانوا يعنون الملوثات“.

”أنتَ ترى الأمرَ كما ترغب، رومان، ولكنني أرى الشُّروقَ عبارةً عن قولِ الله «صباحُ الخير» والغروبَ عبارةً عن قولِ الله «ليلةٌ سعيدة»“. ثمَّ أخرجتَ تليفونها وتحققت من الوقت. ”يَحسُنُ بنا أن نذهبَ إلى الفندقِ، ألا تعتقدُ ذلك؟“

”أفترضُ أنكِ تُريدينَ أن تُباشري إتمامَ فرضكِ المنزليِّ“. لم يُرد أن يقضيَ المساءَ وحيدًا، ولكنَّهُ تذكَّرَ حقيبتها الظهريةَ الثقيلةَ. أيستطيعُ أن يُقنعها بتأجيلِ ذلك؟ رُبَّما، ولكن فتيٌّ من أيِّ نوعٍ يجعلُ فتاةً تتخلَّى عن شيءٍ مُهمٍّ في نظرها؟ ”لِنذهبْ“.

سجَّلَ رومان اسميهما في الفندقِ. ولَمَّا أنزلَ حقائبهما من صندوقِ السيَّارة، جمعتَ حقائبها. عرضَ رومان أن يُساعدَها، ولكنَّها قالت إنَّها تستطيعُ أن تُدبِّرَ الأمورَ. لقد لاحظَ ذلك أصلًا. ”مؤسفٌ أنني لم أحضر شيئًا ما للمُطالعة“. وقد تقصَّدَ أن يبدوَ جديرًا

بالشفقة.

”تَفَقَّدِ الْمِنْضَدَةَ بِجَانِبِ سَرِيرِكَ. أَنَا عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّكَ سَتَجِدُ كِتَابًا مَقَدَّسًا“.

ضحك. ”شُكْرًا جَزِيلًا. يَبْدُو كِتَابًا مُشَوِّقًا بِالْفِعْلِ“.

فَتَحَتِ بَابَ غُرْفَتِهَا فِي الْمَوْتِيلِ، مُبْتَسِمَةً ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. ”مَا بَرِحَ يَتَصَدَّرُ لَائِحَةَ الْكُتُبِ الْأَكْثَرِ مَبِيعًا عَلَى مَدَى سَنِينَ“.

ثُمَّ دَخَلَتْ وَأَغْلَقَتِ الْبَابَ وَرَاءَهَا.

التَّقَطَ رُومَانٌ، وَهُوَ ضَجْرٌ، أَدَاةُ التَّحَكُّمِ وَشَغَلَ التَّلْفِزِيُونَ. أَخْبَارَ رِيَاضَاتٍ. مُسَلَّسَاتٍ كُومِيدِيَّةٍ سَخِيفَةٍ. مَزِيدٌ مِنَ الْأَخْبَارِ. كَبَسَ جَمِيعَ الْقَنَوَاتِ، وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا أَثَارَ اهْتِمَامِهِ. أَطْفَأَ الْجِهَانَ، وَاسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ. ثُمَّ حَامَ فِكْرَهُ حَوْلَ غَرِيسٍ. وَإِذْ سَبَّ بِصَوْتٍ مَهْمُوسٍ، نَهَضَ وَأَخَذَ دُشًّا بَارِدًا. لَمَّا بَرَدَ، أَدَارَ زِرَّ الْحَرَارَةِ صَعُودًا، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا فَسَدَ هَوَاءُ الْغُرْفَةِ. فَشَغَّلَ مُكَيِّفَ الْهَوَاءِ. وَإِذْ اسْتَجَابَ لِنَزْوَةِ، التَّقَطَ الْهَاتِفِ وَدَقَّ رَقْمَ الْخَطِّ، ثُمَّ اتَّصَلَ بِغُرْفَةِ غَرِيسٍ. وَفِيمَا تَمَدَّدَ عَلَى السَّرِيرِ، وَضَعَ ذِرَاعَهُ وَرَاءَ رَأْسِهِ. ”مَاذَا تَفْعَلِينَ؟“

”أَنْتِ تَعْلَمُ مَا أَفْعَلُهُ“.

”إِحْصَائِيَّاتٌ؟“ وَانْدَفَعَ طَالِبًا شَيْئًا مَا لِتَأْخِيرِ نَهَائَةِ الْمَحَادَثَةِ. ”أَخْبِرِينِي عَنْ سَدُومَ وَعَمُورَةَ“.

”تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْرَأَ عَنْهُمَا بِنَفْسِكَ“. سَمِعَهَا تَفْتَحُ وَتُغْلِقُ جَارُورًا. ”فِي غُرْفَتِي نُسخَةٌ مِنَ الْكِتَابِ“

المقدّس. أنا مُتيقّنةٌ بوجودِ واحدةٍ في غرفتك. اقرأ
سِفْرَ التَّكْوِينِ“.

”أينَ هو؟“

”في أوّلِ الكتابِ. القِصَّةُ هي في موضِعٍ ما من
النِّصْفِ الأوّلِ. انتظِرِ دقيقةً واحدةً“. حطّتِ الهاتفِ.
استطاع أن يسمَعَ تَقْلِيْبَ الأوراقِ وتَنْقِيْبَ الصَّفْحَاتِ.
ثمّ التَّقَطَّتِ الهاتفِ من جديد. ”الأصْحاحُ التَّاسِعُ
عَشَرَ. أراكِ في الصَّبّاحِ“.

لم تكنْ تلكَ أوّلَ مرّةٍ فيها تُنهي غريسُ مُكالمته. ما
زالتِ مَوْظَفَتَه، وساعاتُ الوظيفةِ قد انتهت. على
الأقلِّ لم يكنْ مُتَّصِلًا لِيخْرِها بشأنِ قُبلةٍ هادئةٍ من
أميرِ الأحلامِ. على الأقلِّ لم يكنْ غاضِبًا هذه المرّة.

أدار رومانُ التِّلْفِزيونِ ثانيةً. وبعدَ خمسِ عشرةٍ
دقيقةً استسلم، فأطفأَ الجهازَ وفتحَ جارورَ منضدةِ
السَّريرِ نترًا. إذا كان الكتابُ المقدّسُ مُمِلًا كما بدا،
فسيكونُ نائمًا في غضونِ خمسِ دقائق.



تساءلتِ غريسُ هل كان رومانُ مُستاءً منها، في
الصَّبّاحِ التَّالِي. لم يتكلّمَ كثيرًا عندَ الفَطورِ. والآن،
بعدَ ما صارَ على الطَّرِيقِ، مُتوجِّهينِ شمالًا نحو بُوداي
بردجپورت، لم يعودا يُطيقانِ السُّكوتِ. ”ألمَ تَنمَ
جَيِّدًا البارحة؟“

”لا، لم أنم جيّدًا، بِفَضْلِكَ“.

”أنا؟“

”قرأتُ حتّى الثّانية فجّرًا. التّكوين. الخُروج. استّسلمتُ عند اللّاوِيّين. كائِنَ مَنْ كانوا. هل تُصدّقين ذلكَ الكلامَ كُلَّهُ؟“ وقد بدا مُستعدًّا لمُجادلة. لم تَكُن فتاةً من النّوع التّوّاق إلى ارتداء قُفّازي مُلاكمة، ولكنّها مع ذلكَ أرادت أن تعرّف. ”أيّ كلامٍ تعني؟“

”الله خلق كلَّ شيءٍ في سبعة أيّام. الحيّة في الجنّة، طرّد آدمٌ وحواء، الملاكُ الذي يمنعهما أن يعودا، ضرّباتُ مصر. ذلكَ كُلَّهُ“.

قرّرتُ ألاّ تتجنّب الإجابة بصراحة. ”نعم، أصدّقه“.

رمّقا رومان بنظرة تهكّم. ”أنتِ جادّة؟“

لم يكن أوّل شخصٍ يرفض ما آمنت به. لقد تدمّر پاتريك لَمّا ذهبَت إلى الكنيسة أيّام الأحد. أرادها في البيت معه. وثق كثيرًا جدًّا حتّى تخلّت عن الكنيسة. وسرعانَ ما أدركتُ أن كلَّ ما أرادَه كان طبّاخةً تُحضّرُ على وَجِه السرعةِ صلصةً يغمسُ فيها رقائقه وهو يُشاهدُ المبارياتِ الرّياضيّة على شاشة التّلفزيون، أو امرأةٌ تُلبّي في الحال رغباته الجسدانيّة ليستطيع أن ينام نومًا عميقًا حتّى صباح الاثنين. ولكنّ التّخلّي عن الكنيسة لم يُغيّر الحصيلة الحتميّة لعلاقتهما.

وقد رجعت إلى الربِّ مجروحةً ومُتعثرةً. ومن ثمَّ أصبحَ العَقلُ وسيلتها الوحيدةً لمواجهةِ هُموجِ الحياة، إلى أن أقنعتها صديقةٌ عَطوفٌ بالذهابِ إلى نادِ ذاتِ ليلة.

آلت غريس على نفسها ألا تتيه ثانيةً. أمسك بي بقوة، يا ربُّ، لا تُرخني بتاتا. وإذ باتت وحيدةً، عَلِمَت أنها غرقت وجُرِفَت على شاطئِ رمليٍّ. نظَرَ إليها رومان من جديد. "لماذا؟"

عنتِ الكلمةُ الوحيدةُ ضمناً أنها كانت مُغفلةً. "لأنِّي أصدِّقُ أنه صحيحٌ". "أيعقل هذا؟"

"لا داعي للإهانة. أنا جادةٌ بشأنِ إيماني، كما أنتِ بشأنِ إيمانِكِ". "أنا لا أؤمنُ باللهِ".

"أنتِ تؤمنُ بنفسِكِ. تؤمنُ بأنك مُسيطر على حياتك وتستطيعُ أن تعيشَ وفقاً لذلك. ذلك هو دِينُك".

لم يقل أيُّ شيءٍ طوالَ الكيلومتراتِ الثمانيةِ التالية. تمتَّت غريس لو ظلت ساكته. كفى هذا القدرُ من الصداقةِ بينهما. "لم أقصدُ أن أُغيظك، رومان". "مَنْ غَسَلَ دِمَاغَكِ؟ خالْتِكِ؟"

"الأمرُ لا يهمُّ". لن يُصدِّقَ بتاتا أن ملاكاً جاءَ إليها،

كما لم تُصدِّقِ الخالَةَ أليزابث ذلك. لقد فتحَ ذلكَ الافتقادُ قلبَها لِلرَّبِّ. فكيف تُفسِّرُ ذلكَ النَّوعَ من الاختبارِ لِملحدٍ؟ أم كان لأدريًّا؟ وهل كانَ ذلكَ مُهمًّا؟
”أودُّ أن أسمع“.

بدا جادًّا، ولم تستطع أن ترى مفزًّا. ”يوجدُ نظامٌ في كلِّ مكان: النُّجوم، المَواسِم، تياراتُ المُحيط، الهواءُ الذي يتحرَّكُ فوقَ كوكبِ الأرض، حتَّى الخلايا التي يتكوَّنُ منها كلُّ شيءٍ حيٍّ. لا أعتقدُ أن ذلكَ حصلَ بالصدفةِ أو نتيجةَ سلسلةٍ من الحوادث. لا بُدَّ من الذِّكاءِ لخلقِ ذلكَ كلِّه- الذِّكاءِ الذي يفوقُ أيَّ شيءٍ تستطيعُ الكائناتُ البشريَّةُ فهمه. ذلكَ جزءٌ من أسبابِ إيماني بالله“.

”كانَ في الجنَّةِ حيَّةٌ“.

أكان يهزأُ بها، أم كان يُريدُ جدِّيًّا أن يتحدَّثا بما تؤمن به؟ ”الشَّيطان“.

”تؤمنينَ بوجودِ إبليس؟“

تمامًا حينَ كانت قد بدأت تستمتعُ برفقته! هل كان باقي الرِّحلة سيَجري على هذا المِنوال؟ ”نعم، وأومنُ بوجودِ جهنَّم أيضًا. الجميعُ في هذه الأيامِ يحبُّون أن يعتقدوا أنَّهم سوف يذهبون إلى السَّماء، أو إلى مَوضعٍ أفضلٍ في مكانٍ ما. إنَّما الحقيقةُ هي أن ثَمَنَ الخطيئةِ هو الموتُ وِجهنَّم. لهذا السَّببِ جاءَ المسيح. لهذا السَّببِ أرسلَ اللهُ ابنَه الحبيب. فالرَّبُّ

يسوع المسيح وحده استطاع أن يعيش حياة دون الخطيئة، ويكون القربان الكامل لافتدائنا. وكل ما يطلبه هو أن نؤمن. وأنا أؤمن.“

”لا بُدَّ أنني كبستُ زراً واستمعتُ إلى التَّسجيل.“

”أنت سألت.“ هددتها دموعٌ، ونظرت خارج النافذة. يا ربُّ، تعامل أنت معه. ”زوجي السابق لم يؤمن أيضاً.“

”إذا كان الإيمانُ مهمًّا جدًّا هكذا، فلماذا تزوجتِ به؟“

ضحكت ضحكةً كئيبة. ”ليس لك أيَّة فكرةٍ كم مرَّةٍ سألتُ نفسي ذلك السؤال. كان بحاجةٍ إليّ. خيَّل إليّ أنني أحببته. حُذرتُ.“ من قبلِ خالتِها، وأيضاً بالصَّوتِ الهادئِ داخلِها. ”لم أشأ أن أصغي فحسب.“ كانت مُستميتهً لأنَّ يُحبِّها أحدٌ ما حتى صدقت كذبة. لم يرقها أن تشعُر بالانكِشاف. فليَتولَّ رومان الحديث. ”لِمَ لا تقولُ لي بماذا تؤمن؟“

”نحنُ وُلدنا. نحنُ نعيشُ على أفضلِ نحوٍ نستطيعُه. نحنُ نموت. نهايةُ القِصة.“

نظرت إلى جانبِ وجهه. بدا مُتجهِّمًا، كأنما الرِّجاءُ غيرُ موجود. ”لا عجبَ أنكِ بائسٌ جدًّا.“ وأشاحت وجهها. ”لِمَ لا تقرأُ سفرَ الجامعةِ اللَّيلة؟ بينك وبين الملكِ سُليمانِ أشياءٌ مُشتركةٌ كثيرة. ومن الجُملةِ وُلوعُه بالنِّساءِ.“

رَمَقَهَا رومان بِنِظْرَةٍ مُسَخِّطَةٍ، وانعطف نحو بُوداي.

تنهّدت. ”أثريدُ أن تسمعَ شيئًا من التَّاريخ؟“

”شيئًا ما غيرَ الكُرَّاسَةِ التي قرأتها وتلوّثها عليكِ فعلاً؟“

تنفّست غريس شهيقًا وزفيرًا على مهل، فيما أجزت بحثًا على شاشةٍ تليفونها. قرأت عن مدينة الذهب والفضة المزدهرة، تلك التي تباهت في أيام عزّها بعشرةٍ آلافٍ ساكن، وكان فيها خمسة وستون حانة ومقامرون وبغايا، ولها صيِّتٌ بالعنف والفجور. وإذ سمعت بنتٌ صغيرة إلى أين كان أبوها ناويًا أن ينقل العائلة، قالت: ”وداعًا، يا الله! نحنُ ذاهبون إلى بُوداي.“

أوقف رومان السيَّارة وترجَّل منها.

تمشَّى بين المباني الخربة. توقفت غريس لِتُحدِّقَ عبْرَ النّوافذ، فيما وقَّفَ هو ينتظر، ويداهُ في جيبَي سِتْرَتِهِ. كنيسة، حانة، متجر. ونظرت عبْرَ نافذة بيتٍ صغير، حيث قدّمت بغيٌّ خدماتها في الماضي. ”أية حياةٍ بائسةٍ كانت تلك حتمًا!“

”هي اختارتها.“

بدأت تُتابع المشي، ثمّ قرّرت ألا تدعَ تعليقه يمضي دونَ تحدٍّ. ”هل تعتقدُ حقًا أنّ امرأةً ما تريدُ أن تكونَ بغيًّا؟ لا أستطيعُ أن أتصوّرَ أيّ شيءٍ أسوأ“

من أن تبيع المرأة جسدها لأي رجل أراد استعمالها.
أعتقد أن النساء يقمن بذلك النوع من العقل حاسبات
إياه السبيل الوحيد الباقي“.

بدا غاضبًا الآن. ”إنهن لا يدفعن بالقوة إلى ذلك“.
سئمت كونها محط الوطأة العظمى من مزاجه
السئى. ”ذلك يتوقف على ما يشكّل القوة في
قاموسك، مستر قبلاسكو“.

”تكلّمت مثل فتاة جامعيّة، مزّمور“.

”ماذا لو فقدت امرأة زوجها في طريق السفر إلى
الغرب؟ لم يكن للنساء مثل ما كان للرجال من حقوق
وفرص، ولا القوة الجسمانيّة نفسها. ماذا لو كانت
شابة في قافلة عربات ومات أهلها بالكوليرا أو
الثيفوس؟ هل تستطيع امرأة أن تفلح حقلاً وتبني
كوخًا وحدها؟“ كانت الطريقة الوحيدة التي بها
استطاعت أن تمنع نفسها من قول المزيد هي أن
تمشي مبتعدةً عنه. وراح يمشي إلى جانبها مجاريًا
خطواتها، فضاغت سرعتها.

”كان يمكنها أن تتزوج ثانية“.

”ماذا لو كان جميع الرجال مثلك؟“ تورّد خدًا
غريس، ولكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على
الاعتذار. ”إذا كانت المرأة متعلّمةً بقدر ما، فربّما
وجدت عملاً في التعليم مثلاً. ولكنّ معظم النساء لم
يكن مسموحًا لهنّ أن يحظين بامتياز التعلّم في ذلك

الزَّمان الماضي“. وحزَّكت يدها في إشارةٍ شاملة
عمَّت بُوداي. ”كم مبنى مدرسةٍ ترى خارجًا هناك؟“
”ماذا عنِ الوضعِ الآن؟“

”الآن؟“ لم تعلمَ عمَّا كان يتكلَّم.

”أيُّ عُذرٍ لدى المرأةِ الآن؟“

كيفَ أمكنه أن يكون مُتبلِّدَ الشُّعورِ هكذا؟ ”أحيانًا
يرتكبُ النَّاسُ أخطاءً لا يُمكنهم أن يُبطلوها. وأحيانًا
يُطرَحُ النَّاسُ بِحَيْثُ لا يَعْرِفون كيف يقومون مُجدِّدًا.
وسيكونُ هُنالك دائمًا أناسٌ يُريدون أن يُبقوهم حيثُ
هُم“.

”وانتِ كيفَ تعرفينَ هذا؟ من كُتِبَ مدرسةٍ ما؟“
واجهتهُ غريس مُرتجفةً من الغضب. ”ماذا يحدثُ
لمُراهقةٍ تحبُّ ويطردها أبواها؟ ماذا لو كان صديقها
يستغلُّها فحسب ولا يهتمُّه ما تفعله؟ كيف تكسبُ
عَيشها؟ النَّاسُ الذين ظنَّت أنَّهم يحبُّونها، لا يُحبُّونها.
أين تذهبُ الآن؟ كيف تجني مالًا لِتشتريَ طعامًا أو
تُبقي سقفاً فوق رأسها؟ وهكذا تبيعُ نفسها مرَّةً، فقط
لِتستطيعَ أن تأكل. ثمَّ تشعُرُ بأنَّها قذرةٌ جدًّا بِحَيْثُ لا
يهمُّ أيُّ شيءٍ بعدَ ذلك. فالنَّاسُ ينظرون إليها كما لو
كانت قمامةً على كلِّ حال. والآن هي تعتقدُ أنَّها
كذلك. فلا يُمكنها أن ترى أيَّ سبيلٍ للخروج“.

خرَجَ الغَضْبُ كُلُّهُ منه. ”هل حدثَ لكِ أيُّ شيءٍ من
ذلك يومًا؟“

”لا، ولكن هذا لا يعني أنه لا يمكن أن يكون لدي تعاطف“. كان واضحًا أنه هو لم يكن لديه ذلك. وإذا شعرت بشيء من الغثيان، مشيت مُبتعدةً.

لم يلحق رومان بها، ولكنها أحست أنه كان يُراقبها. ذهبت إلى الزاوية الثالثة من تقاطعات المدينة قبل أن تنظر إلى الورا. كان واقفًا حيث تركته، مُقحمًا يديه في جيبَي سترته الجلدية الطيارية السوداء، ناظرًا إلى البيت المُتداعي للسقوط، حيث عاشت البغايا في الماضي.

تلاقيا عند السيارة، وكلاهما هادئان. ”أنا آسفة، رومان. لم أقصد إلقاء خطبة في الهواء الطلق“.

كبس زر الإشعال. ”يمكنني أن أفهم لماذا تُحبين علم النفس. في وسعك أن تتخذي لك مهنة في إنقاذ الناس ما بقي من حياتك“.

أمثال باتريك! ”لا، شكرًا. كنتُ هناك، وفعلتُ ذلك، وكانت العاقبة وخيمة. أواجه ما يكفي من البلاء في ترتيب حياتي الخاصة كي أكون ذات نفعٍ ما للآخرين“.

”يبدو كأنه قد يكون بيننا شيءٌ مشتركٌ آخر“.

الفصل ٢٢

رومان، في العاشرة من العمر

حسب بُي راي أنه مرَّ بأكثرَ من خمسة عشرَ بيتَ تنشئةٍ حتَّى الآن. وقد هربَ من ثمانيةٍ منها. فإن لم يستطعِ الفرار، طردَ طردًا. أضرمَ النَّارَ في مرابٍ واحد. رمى دراجةً أخٍ بالتنشئة تحت عجلات السيارات المارة. رفس جانبَ عربةٍ قانٍ جديدة تمامًا لدى عائلةٍ تنشئة، وأحدثَ فيه بـعجات. رمى كيسَ برازٍ كلابٍ داخلَ حوضِ الاستحمام الساخن في بيتِ تنشئةٍ آخر. وقد قبضَ بعضُ من الأزواج والزَّوجات في بيوت التنشئة تعويضًا ماليًا شهريًا وتركوه يسلك على هواه، حتَّى وجدته الشرطةُ في شارعِ ثورك من جديد.

كان ذكيًا. كان داهية. جربَ معه كلَّ أسلوبٍ والديَّة في الكُتبِ الدَّراسيَّة، فلم يُفلح أيُّ أسلوب. لم يتآلف مع الأولاد الآخرين. لم يثق بالراشدين. قال بعضُ العائلات إنَّ الصَّبِيَّ بحاجةٍ إلى بيتٍ دائم،

وحاولوا أن يتبنّوه. شايلا دين كانت أمّه، وما كانت
أية امرأة لتحل محلها بتاتا. لقد كانت خارجا في
المدينة، في مكان ما، وكان هو سيجدها.

كانت مس بشل، العاملة الاجتماعية المتعبة
الحزينة العينين، قد سلّمت قضية ببي راى لمراقبها
اليسن وتكّمب، وهو رجل قضى خمسًا وعشرين سنة
في الخدمات الاجتماعية. ومهما كانت مشاعر الأمل
والعزم التي خالجه لقا باشر مهنته المختارة، فإنها
قد تلاشت منذ أمد بعيد في حمل القضايا الثقيل
الحافل بالغمّ والمآسي البشرية. فقد كان ببي راى
مجرد فتى آخر مضطربٍ عديم الجذور ذي ملف
ثخين. تحدّث وتكّمب مع متقّصي سير آخر في
المجاز، فيما جلس ببي راى منتظرا ومصغيا.

”على الأقل لم يقتل أحدا“.

ضحك وتكّمب ضحكة كئيبة. ”أعطه وقتا“.

جلس وتكّمب على مقعد خلف المكتب. بدا مرهقا.
فتح غلّبة أقراص مضادة للحموضة، ودس قرصين
في فمه بسرعة. كان معلقا على جداره ملصق فيه
صورة شاطيء رمليّ أبيض عليها فلوريدا بأحرف
براقة. سأل ببي راى كم مرّة كان ينوي أن يهرب.

”بقدر ما يتطلّب الأمر“.

”للقيام بأيّ شيء؟“

”للغثور على أمي“.

لم يقل وتكلم كلمة واحدة بعد ذلك. لم يضغط أو يحدق مُستطليعا، ولا حاول حتى جعل أبي راى يتكلم. اكتفى بأن اتكأ إلى الوراى، وطوى يديه، وتفحص أبي راى. فردَّ أبي راى حَمَلتته غاضبا. كان يعرف اللعبة، فلم يقطع التواصل البصري.

”أنت لا تعمل لنفسك أي معروف، يا بُني“.

قال أبي راى لوتكلم ما يمكنه هو أن يعمله لنفسه. خبط وتكلم الملف على المكتب. ”سأغيب خمس دقائق، ثم سأرجع“. تلقى أبي راى الرسالة. وما إن غادر وتكلم المكتب، حتى التقط الملف.

بُي راى دين. الأب: مجهول. الأم: شاىلا دين

قرأ أبي راى بسرعة.

...ألقي عليها القبض أربع مرّات من أجل البغاء...أطلقت بناء على إقرارها الالتزامى...ماتت بجرعة هىروىن مفرطة فى فندق ستارلاىت، سُجّلت مجهولة الهوية قبلما عُرفت من بصمات الأصابع.

توقف قلب أبي راى. أعاد قراءة الجزء الأخير، راجيا أن يكون قد فهمه خطأ. هوت معدته ونزت البرودة فى أوصاله. ماما ماتت. كيف أمكن حصول ذلك؟ أما كان قد شعر بشيء ما؟ أو علم بطريقة ما، مهما كانت؟

رجع وتكلم، فأخذ الملف من سلة المهملات، وأعادَه داخل خزانة الملفات المعدنية. ”إذا الآن أنت

تعلّم، بُيِّي راي.“

ظَلَّتْ ماما تَتَكَلَّمُ إِلَيْهِ فِي أَحْلَامِهِ أَحْيَانًا. ”أنا
أقومُ بأفضلِ ما أستطيعُه، يا صغيري. أنتَ تعلمُ
أنني سوف أرجع. أما أرجعُ دائمًا؟“

الفصل ٢٣

رجوعًا على الطريق الجبليّ، مرًا بقرب مروجٍ عالية
وبُحيراتٍ جليديّة، وأشجارٍ صنوبرٍ باسقة. طال
صمتُ غريس جدًّا، حتّى التفت رومان ليرى هل
كانت نائمة. لقد كانت مُستيقظةً تمامًا، مُستغرقةً
قليلاً في تفكيرٍ عميقٍ كئيب. ”ماذا في بالك؟“

”أودُّ لو يرى صمويلُ هذا كلّه. لا يُمكنُ أن تنظرَ
إلى هذا الجمال كلّه ولا تؤمن. الأمرُ أصعبُ في
المدينة. فهناك أشياء فوق الحدِّ تجري، ومُلهياتٌ
مُفرطة.“

”وإغواءات؟“ رمقها رومان بنظرةٍ مُغايظة.
”ناهيكُ بجميع أولئك القوم الغاضبين فوق الطُّرقِ
الخُرّة. إنَّهم دائمًا على عجلةٍ للوصول إلى مكانٍ ما.“
على غرارهِ، يُحتَمَلُ أنَّهم لا يدرون أين يُريدون حقًّا
أن يذهبوا، أو كيف يصلون إلى هناك.

”هل لنا أن نتوقف؟“ وقد بدت كمن يعتذر. ”بضع
دقائق فقط.“

خَرَجَ رومان عن الطَّرِيقِ في البُقعة الواسعة
الثَّالِية. شَكَرتهُ غريس وترَجَّلت من السَّيَّارة. دارَ حولَ
السَّيَّارة، وأَسَنَدَ ظَهْرَهُ إليها، مُراقِبًا غريس. فاحت من
الهواء رائحةُ الصَّنوبَرِ القويَّة. شَقَّتْ غريس طريقها
صعودًا بينَ بعضِ الصُّخورِ الملساءِ وتسلَّقت إفريزَ
صَوَّانٍ مُطَلًّا على وادٍ عميقٍ ضيِّقٍ. هبَّ نسيْمٌ مُنعِشٌ،
فبَسَطَت ذِراعَيْها كما لو هَمَّت بالتَّقدُّمِ بِضَعِ خَطَواتِ
وامتِطاءِ الرِّيحِ. رَفَعَ رومان تَلِفونَهُ. تقدَّمت خُطوةً
أُخرى، فترنَّحَ قلبُه.

”غريس، قفي!“ وَضَعَ تَلِفونَهُ في جيبه وَلَجِقَ بها.
لم يَسْتَطِع أن يراها ثواني قليلةً، وكادَ يُذَعِرُ.
”غريس!“

”أنا ههنا!“ كان هُناكَ إفريزُ آخَرَ تحتَ الذي كانت
عليه تَمامًا. ”أستطيعُ أن أمشيَ عَشْرَ خَطَواتٍ أُخرى
وأبقى في أمان.“ وتقدَّمت خَطَواتٍ أُخرى.
لَجِقَ بها حالًا، وتشبَّثَ بِذِراعِها. ”اقتربِ كفايةً.“
ولَمَّا نظرت إليه مدهوشةً، أفلتَها.

”أنت كُنْتَ مَنْ تحدَّثَ عن تسلُّقِ هاف دُوم.“

”كفى تجوالٍ. لنذهب.“

مشى رومان قُدَّامَها، وساعدها على النُّزولِ عن
السَّطحِ الصَّخريِّ. أطلَّقت ضِحكةً مُتوتِّرةً رقيقةً.
”أنت ثابتُ القَدَمينِ كما عَزِ الجبَلُ.“

”نتيجةً لِمَمارَسَةِ رِياضَةِ الوُثبِ وتَخَطِّي

الحواجز“. التَّقَطَّت كَوْزُ صَنُوبِرٍ فِي الطَّرِيقِ إِلَى
السَّيَّارَةِ. ”هَلْ تَنْوِينُ أَنْ تَحْتَفِظِي بِذَلِكَ؟“
”إِنَّهُ التَّذْكَارُ الْمُفْتَانُ، أَلَا تَعْتَقِدُ ذَلِكَ؟“ قَرَّبَتْهُ إِلَى
أَنْفِهَا وَتَنْشَقَّت. ”هَدِيَّةٌ مِنَ الرَّبِّ، رَائِحَتُهَا كَرَائِحَةُ
الغَابَةِ“.

كَانَ قَدْ بَدَأَ يَتَعَوَّدُ الطَّرِيقَةَ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي بِهَا
تَتَحَدَّثُ غَرِيسٌ بِشَأْنِ اللَّهِ. فَتَحَّ لَهَا بَابَ السَّيَّارَةِ. زَلَّتْ
إِلَى الدَّاخِلِ وَدَسَّتْ كَوْزَ الصَّنُوبِرِ فِي كَيْسِ تَسْوُوقِهَا،
مَعَ الحِجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ جَمَعَتْهَا عَلَى الطَّرِيقِ.
”لَا بُدَّ أَنْ يَزْنَ كَيْسُكَ طُنَّا الْآنَ“.

”التَّقَطُّ العِبْرَانِيُّونَ حِجَارَةٌ كَبِيرَةٌ لَمَّا عَبَرُوا نَهْرَ
الأَرْدُنِّ. وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى أَرْضِ الآبَاءِ، أَقَامُوهَا نُصْبًا
تَذْكَارِيًّا حَتَّى لَا يَنْسُوا مَا قَدْ فَعَلَهُ اللَّهُ“.

كَانَ قَدْ قَرَأَ قِصَّةَ الخُرُوجِ اللَّيْلَةَ قَبْلَ البَارِحَةِ،
وَلَكِنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَخُوضَ حَدِيثًا آخَرَ بِشَأْنِ اللَّهِ. رَبَّمَا
كَانَ اللَّهُ مَوْجُودًا، وَلَكِنْ رُومَانُ شَكَّ فِي كَوْنِهِ يَهْتَمُّ.
وَمِنْ ثَمَّ انْطَلَقَ بِالسَّيَّارَةِ إِلَى الطَّرِيقِ مِنْ جَدِيدٍ. ”نَبْعُدُ
عَنْ غُولِدِنِ سَاعَتَيْنِ فَقَطْ“.

”هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ سَتَقْبَلُ المَهْمَةَ؟“

”أَمْرٌ مَشْكَوْكٌ فِيهِ“. وَقَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِمَاذَا يَقُومَانِ
بِالرَّحَلَةِ إِنْ كَانَ قَدْ حَسَمَ خِيَارَهُ أَصْلًا، طَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ
تَتَّصَلَ بِجَاسِپِرِ. ”تَحَقَّقِي هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَافِقِنَا إِلَى
مِزْرَعَةِ مَاسْتَرْسِنِ“. كَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يُجْرِيَ المُكَالِمَةَ

هُوَ نَفْسُهُ بِكَبْسَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ إِبْهَامِهِ عَلَى عَجَلَةٍ الْقِيَادَةِ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُغَيِّرَ الْمَوْضُوعَ.

وَفِي مَا التَّلْفُونُ إِلَى أذُنِهَا، نَظَرَتْ إِلَيْهِ. ”هَلْ نَبِيْتُ اللَّيْلَةَ هُنَاكَ؟“

”لَا. سَتُعْرَجُ فَقَطْ لِئَسَلَمَ“. رُبَّمَا كَانَ مَنْزِلُ آلِ مَاسْتَرْسِنِ مُزْدَحِمًا بِالنُّزْلَاءِ. تَسَاءَلَ رُومَانٌ أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الْإِسْتِقْبَالِ سَيَتَلَقَّى بَعْدَ سِنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ تَجَنُّبِ هَذِهِ الزِّيَارَةِ. كَانَ يَرَى جَاسِپَرَ فَقَطْ لِأَنَّ الرَّجُلَ أَصَرَ عَلَى الظُّهُورِ دُورِيًّا، سِوَاءَ دُعَايِ أُمِّ لَمْ يُدْعَ. لَمْ يَكُنْ رُومَانٌ قَدْ رَأَى تَشْتِ وَشُوزَانَ مِنْذُ أَنْ خَرَجَ مِنْ بَرْنَامَجِ الرَّعَايَةِ لَدَى بُلُوغِهِ سِنِّ الثَّامِنَةِ عَشْرَةِ. وَكَانَا يُرْسِلَانِ إِلَيْهِ بِطَاقَةَ مِيلَادِيَّةٍ فِي شَهْرِ كَانُونِ الْأَوَّلِ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، مَعَ دَعْوَةٍ مَكْتُوبَةٍ بِخَطِّ الْيَدِ لِيُزَوِّرَهُمَا سَاعَةً يَشَاءُ. ”الْبَابُ دَائِمًا مَفْتُوحٌ“. تَصَوَّرَ رُومَانٌ أَنَّهَا كَانَتْ مُجَرَّدَ بَادِرَةٍ لُطْفٍ. فَلَمَّاذَا قَدْ يُرِيدَانِ أَنْ يَرِيَاهُ مِنْ جَدِيدٍ؟

رُبَّمَا كَانَ التَّعْرِيجُ عَلَيْهِمَا فِكْرَةً سَيِّئَةً.

”هَلْ مِنْ خَطْبٍ مَا، رُومَانُ؟“

مِنْذُ مَتَى كَانَتْ نَاطِرَةً إِلَيْهِ؟ ”كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٌ“.



لَا حَتَّى الْحَظِيرَةُ الْقَدِيمَةُ لِلْعِيَانِ إِذْ دَارَ رُومَانٌ حَوْلَ مُنْعَطِفِ الطَّرِيقِ الرَّيْفِيَّةِ الضَّيِّقَةِ. وَفَاجَأَهُ أَنْ يَرَى أَوَّلَ

جِدَارِيَّةٌ قَدْ رَسَمَهَا مَا تَزَالُ هُنَاكَ، وَقَدْ بَاخَتْ بَعْدَ
سِنَوَاتٍ مِنْ إِنْجَازِهَا. كَانَتْ الْبَوَابَةُ مَفْتُوحَةً وَسَيَّارَةٌ
جَاسِپِرَ الشَّقِيِّ الزَّرْقَاءُ مَرْكُونَةٌ أَمَامَ الْبَيْتِ. وَعَلَى
الشُّرْفَةِ وَقَفَ كَلْبَا جِيرْمَانِ شِيْبِرْدِ وَنَبْحَا. فَتَذَكَّرَ
رُومَانَ لِقَاءَهُ الْأَوَّلَ بِالْكَلْبَيْنِ سِتَارْسِكِي وَهَتَشَ قَبْلَ
عِشْرِينَ سَنَةً تَقْرِيْبًا.

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سِتَارْسِكِي وَهَتَشَ قَدْ مَاتَا مِنْ
زَمَانٍ، وَلَكِنَّ هَذَيْنِ الْكَلْبَيْنِ يُمَكِّنُ أَنْ يُنْسَبَا إِلَيْهِمَا.

أَقْبَلَ تَشْتٌ خَارِجًا وَنَادَى. "كُونَا مُهَذَّبَيْنِ، يَا
صَبِيَّانِ!" فَتَغَيَّرَ سَلُوكُ الْكَلْبَيْنِ إِلَى سَلُوكِ تَرْحِيْبِ
حَذِرٍ. اسْتَشَمَّا رُومَانَ بِضَعِ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْتَقَلَا إِلَى
غَرِيْسٍ. وَمَدَّتْ يَدَهَا، فَلَحَسَهَا أَحَدُهُمَا. ثُمَّ تَحَرَّكَ
الْكَلْبَانِ حَوْلَهَا مُبْصِبِصَيْنِ بِذَنْبَيْهِمَا. وَإِذِ ابْتَسَمَتْ،
رَبَّتَتْ أَحَدَهُمَا، حَتَّى مَدَّ الْآخِرُ خَطْمَهُ مُنْتَظِرًا دَوْرَهُ.

انْضَمَّ جَاسِپِرُ وَسُوزَانُ إِلَى تَشْتٍ عَلَى الشُّرْفَةِ.
كَبَتْ رُومَانَ مَدَّ الْعَوَاطِفِ الْمُرْتَفِعِ. بَيْنَ جَمِيعِ الْأَمْكِنَةِ
الَّتِي كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ يَصْطَحِبَ غَرِيْسَ إِلَيْهَا، لِمَاذَا أَتَى
بِهَا إِلَى هُنَا؟ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَاصِلَ السُّوقَ، بَدَلًا أَنْ
يُغَامِرَ بِمَا أَمَكَّنَ - وَوَجِبَ - أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى أَمْرِ مُذِلِّ.
نَزَلَ تَشْتٌ عَلَى الدَّرَجِ. مَا زَالَ الشَّعْرُ مِلَّءَ رَأْسِهِ، وَإِنْ
كَانَ أَبْيَضَ الْآنَ. كَانَتْ مِشِيَّتُهُ أَبْطَأَ، وَكَتِفَاهُ مُنْحِنِيَّتَيْنِ
قَلِيلًا، وَجِسْمُهُ أَنْحَفٌ. أَمَّا سُوزَانُ فَكَانَتْ مَا تَزَالُ
شَقْرَاءَ، وَشَعْرُهَا مَا يَزَالُ طَوِيلًا وَمَرْفُوعًا بِشَكْلِ ذَيْلِ

فَدَس، وما تزال ترتدي جينزًا وقميصًا ذا أزرارٍ كاملة
مُرَبَّعَ النَّقْشِ. كان وزنها قد زادَ قليلًا، ولكنَّهما كليهما
بدوا جيِّدينِ نِسبَةً إلى سِتِّينَ سنةً من العُمرِ.

مدَّ رومان يده، ولكنَّ تشت شدَّة في عِناقِ عاطفيِّ
قويِّ. ”حانَ تقريبًا وقتُ رُجوعِكَ إلى الدَّيار!“ لم
يستطع رومان أن يتكلَّم عبْرَ الغُصَّةِ التي سدَّت
حَنجرتَه. لماذا لم يرجع؟ أيُّ أعذارٍ لديه يُقدِّمها؟
أفلتَه تشت وصفَعَه على ظهرِه. ”انظُرْ هيئتكَ! ما
عُدتَ فتىً نحيلاً“.

وضعت سوزان يديها على وركيها. ”ينبغي أن
أكونَ غاضبةً عليك من أجل غيابِكَ الطَّويلِ جدًّا“.
طوّقت رومان بذراعَيْها ضاحكةً مُبتَهجةً. ولما
انكفأت، نظرت إلى غريس. ”ومن هذه السيِّدة
الجميلة؟ زوجتُك؟“

بدَّد رومان سوءَ الفهمِ ذاك بِسرعة. وإذِ ابتسمت
غريس مستريحةً، صافحت تشت وسوزان. وسلَّم
عليها جاسپر مُقبلاً جبينها كما لو كانا صديقين من
زمان. بقي الكلبانِ بقرب غريس. حكَّت أحدهما وراءَ
أذنيه. لو كان هَذَا، لخرَّخر.

”ذلك هو ديئزو“. ضحك تشت في خُفوت.
”وأعتقد أن لديهِ وُلوعًا بك. أمَّا الآخر فهو جِبْس.
وظقطع بلسانه، فلحقَّ به الكلبانِ نحو المنزل.“

”هيا إلى الدَّاخِل“. وأومات سوزان بيدها للجميع

باتجاه البيت. "لدينا قهوة وشاي وليموناضة".

نظرَ رومان حوَالِيهِ. كان المكان هادئًا، ولكن ما زالَ في الزَّرِيبةِ أَحْصِنَة. "أما زِلْثَمَا تُووِيَانِ فِتْيَانَا، تَشْتِ؟"

"على نحوٍ مُتَقَطِّعٍ، إذ نُحَاوِلُ أَنْ نُخَفِّفَ عَلَى أَنْفُسِنَا حِينَ نَتَقَاعِد. بِعِنَا خَمْسِينَ فِدَانًا وَأَبْقِينَا مَا يَكْفِي لِإِعْطَائِنَا مِسَاحَةً كَبِيرَةً مِنَ الْأَرْضِ الْمَكْشُوفَةِ. مَا زِلْنَا نَسُوْشُ أَحْصِنَة. هَلْ تَتَذَكَّرُ خَوْسِيَه؟"

"فَتَى الْعِصَابَةِ مِنْ سَتُكْتِنْ؟ نَعَمْ، أَتَذَكَّرُهُ". كَانَا قَدْ سَكْنَا مَعًا فِي غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ مُدَّةَ سَنَةٍ قَبْلَمَا تَخْرَجَ خَوْسِيَه مِنَ الْبَرْنَامَجِ. "لَقَدْ التَّحَقَّقَ بِالْجِيْشِ، صَحِيْحٌ؟"

"خَدَمَ سِتِّ سِنِينَ فِي الْبَحْرِيَّةِ، وَخَرَجَ رَقِيْبًا. هُوَ وَزَوْجَتُهُ، أَبِي، يَهْتَمَّانَ بِالْمَزْرَعَةِ الْآنَ. وَهَذَا يُحَرِّزُنَا، سَوْزَانُ وَأَنَا، لِئَسَافِرَ عِنْدَمَا لَا يَكُونُ لَدَيْنَا أَيُّ فِتْيَانٍ مُقِيمِينَ. سَوْفَ نَنْطَلِقُ مُجَدِّدًا فِي رِحْلَةِ آخِرِ الشَّهْرِ. سَنَقْضِي مُدَّةً فِي يَلُوسْتُونِ ثُمَّ غَلَاْسِيْر. مَاذَا عِنْدَكَ؟"

أَحْسَ رُومَانُ كَمَا لَوْ كَانُوا يَسْتَأْنِفُونَ مِنْ حَيْثُ تَوَقَّفُوا قَبْلَ سِتِّ عَشْرَةِ سَنَةٍ، دُونَ مُدَّةٍ فَاصِلَةٍ. أَخْبَرَهُمَا عَنْ سَفَرِهِ فِي أَنْحَاءِ أُوْرُوبَا امْتِثَالًا لِئَصِيْحَةِ جَاسِيْر. وَقَدْ مَشَتْ غَرِيْسُ قُدَّامَهُ بِضَعِ خَطَوَاتٍ، مُتَحَدِّثَةً إِلَى جَاسِيْرٍ وَسَوْزَانِ.

كَانَتْ حُجْرَةُ الْجُلُوسِ قَدْ جُدِّدَتْ وَفُرِشَتْ بِسَجَادٍ

يَلُونِ الصُّوفِ الطَّبِيعِيِّ الْبَاهِتِ. وَحَلَّتْ أُرَائِكَ حِنطِيَّةُ
اللَّوْنِ مَحَلَّ الأُرَائِكَ الْجِلْدِيَّةِ الْبُنِّيَّةِ، إِلَّا أَنَّ آلَ
مَاسْتَرَسْنِ لَمْ يَطْلُؤُوا الْجِدَارَ الَّذِي رَسَمَهُ رُومَانٌ لَمَّا كَانَ
فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ.

”نَعَمْ، مَا زَالَ هُنَا“. ابْتَسَمَتْ تَشْتِ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً.
”إِنَّهُ حُجَّتُنَا لِإِحْرَازِ الشُّهْرَةِ. «رُومَانٌ قِيلَاسِكُو» أَقَامَ
هُنَا“.

صَارَعَ رُومَانٌ عَوَاطِفَهُ. ”ظَنَنْتُ أَنَّكَ سَتَكُونُ الْآنَ
قَدْ اِكْتَسَبْتَ ذَوْقًا أَفْضَلَ“.

”هَيَّا إِلَى الْمَطْبَخِ“. سَارَتْ سُوزَانٌ فِي الطَّلِيْعَةِ،
نَاطِرَةً إِلَى الْوَرَاءِ مِنْ فَوْقِ كَتِفِهَا وَهِيَ تَضْحَكُ. ”إِنَّا
جَمِيعًا نَنْتَهِي إِلَى هُنَا عَلَى كُلِّ حَالٍ“.

تَرِيثَتْ غَرِيْسٌ، مُتَأَمِّلَةً الْجِدَارِ. وَضَعَ رُومَانٌ يَدَهُ
عَلَى ظَهْرِهَا، مُرِيدًا أَنْ يُبْعِدَهَا. ”لَا يُعْجِبُكَ فَنِّي،
أَتَذَكِّرِينَ؟“

”مَنْ هِيَ شَايِلَا؟“

جَمَدَ رُومَانٌ. ”مَاذَا؟“

”شَايِلَا. الْاسْمُ هُنَا تَمَامًا. وَرِيْبِرْ“. أَمَالَتْ رَأْسَهَا.
”وَيْتَ بُوِي. وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ مُتَحَيِّرَةً. ”عَلَى الْجِدَارِ“. ثُمَّ
نَظَرَتْ إِلَى الْجِدَارِ ثَانِيَةً. ”وَفِي الزَّوَايَةِ عُصْفُورٌ طَائِرٌ.
أَمْ هَذِهِ أَحْرُفٌ أَيْضًا؟ BRD؟“

”بُي رَاي دِينِ“. خَفَقَ قَلْبُهُ بِقُوَّةٍ. ”سَتَتَحَدَّثُ بِهَذَا
لَا حَقًّا“.

وقف جاسپر في باب المطبخ. "هل من مشكلة؟"
"لا مشكلة". نظر رومان من فوق كتفه. "سكون
معكم بعد دقيقة". ثم اعترض غريس وخفض
صوته. "لا تقولي أي شيء عن الجدار". ما برح تشت
وسوزان ينظران إليه على مدى سنين، ولكن رومان
شك في أن يكونا قد رأيا يومًا ما قد رسمه عليه.
كيف حدث أن غريس أبصرت ما كان هو حريصًا جدًا
على إخفائه؟ "رجاءً!"

ترجرت عيناها من الدهشة، ولكنها أومات
برأسها موافقة.

كان المطبخ أيضًا قد زُخرف من جديد، حيث ولت
مناظر إيطاليا التي رسمها من زمان طويل، وحل
محلها جدران صفراء باهتة وزخرفات غليا بيضاء.

زلقت سوزان ضلعًا ممتازًا من لحم العجل داخل
الفرن، وأعلنت أن العشاء سيكون جاهزًا في السادسة
والنصف.

"سبقى فقط ساعة أو ساعتين".

رمقته بنظرة تذكرها من زمن إقامته في هذا
البيت. "ستبقيان للعشاء، وستبيتان هنا الليلة".

كان في وسع رومان أن يُعاند أيضًا. "لدينا مسافة
طويلة علينا أن نقطعها".

"تشت، اذهب أخرج الهواء من عجلات سيارته
الفاخرة، أو اعطب الكمبيوتر فيها".

”أَوْ فِي وَسْعِكَ أَنْ تَدَعَهُ يَمْضِي“. هَزَّتْ غَرِيْسَ كَتِفَيْهَا. ”وَلَكِنْ إِذَا كُنْتَ مُوَافِقًا، فَأَنَا أَوْدُ الْبَقَاءِ“.

بَدَا تَشْتِ وَسُوزَانَ مُفَاجِئًا، ثُمَّ ضَحِكَ. وَابْتَسَمَ جَاسِپِرَ لِرُومَانَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. ”يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَا نَفُوقَكَ عَدَدًا“.

اسْتَرَخَى رُومَانَ. ”لَا بَأْسَ، وَلَكِنْ لَا تُصْفِي إِلَيَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ. إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَنِي جَيِّدًا كَمَا يَعْتَقِدُونَ“.

انْدَفَعَ تَشْتِ وَسُوزَانَ بِجُرْأَةٍ إِلَى التَّحَدُّثِ بِشَأْنِ الْعَذَابِ الَّذِي مَثَّلَهُ رُومَانَ لَمَّا جَاءَ إِلَى الْمَزْرَعَةِ أَوَّلَ الْأَمْرِ. ”مَا كُنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُطَلِّعَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ دَمْدَمَةٍ“.

”مَا زَالَ يُدْمِمُ“. ابْتَسَمَتْ لَهُ غَرِيْسُ، مُسْتَمْتِعَةً بِإِنْزِعَاجِهِ كَمَا بَدَا وَاضِحًا.

صَبَّتْ تَشْتِ لِنَفْسِهِ فِنْجَانَ قَهْوَةٍ. ”لَمْ نَعْلَمْ كَيْفَ نَصِلُ إِلَيْهِ حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى بَعْضِ الطَّلَاءِ“. وَغَمَزَتْ غَرِيْسَ بِعَيْنِهِ. ”الآنَ نَضَعُ الْمُشَاكِسِينَ فِي غُرْفَتِهِ الْقَدِيمَةِ“. ثُمَّ رَفَعَ فِنْجَانَهُ لِرُومَانَ. ”إِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ تِلْكَ الرَّسْمَةَ. لَقَدْ أَطْلَقْتَ مُحَادَثَاتٍ كَثِيرَةً“.

”أَيُّ غُرْفَةٍ؟“ نَظَرَتْ غَرِيْسُ إِلَى رُومَانَ. ”أَيُّ رَسْمَةٍ؟“

لَمْ يُجِبْ رُومَانَ. أَوْمَأَ تَشْتِ بِرَأْسِهِ نَحْوَ الْبَابِ. ”أَذْهَبِي عَبْرَ بَابِ غُرْفَةِ الْجُلُوسِ وَامْشِي فِي الرِّوَاقِ، وَادْخُلِي ثَانِيَّ بَابٍ إِلَى الْيَمِينِ. لِيَكُنْ أَنْ تَشْغَلِي تِلْكَ

الغرفة الليلة، إذا أردتِ“.

لَمَّا دَفَعَتْ كُرْسِيَّهَا إِلَى الْوَرَاءِ، تَكَلَّمَ رومان بِسُرْعَةٍ.
”لَا تُتَعَبِي نَفْسَكَ“.

”لِمَ لَا؟“

”سُتَسَبَّبُ لِكَ كَوَابِيسٍ“. وَلَمَّا دَارَتْ نَحْوَ الْمَدْخَلِ،
أَمَسَكَ رومان بِمِعْصِمِهَا. ”لَنْ تَرَوْقَكَ، غَرِيسُ“. وَمَا
لِئْتِ أَنْ أَفْلَتْهَا حَالًا، إِذْ تَنَبَّهَ إِلَى أَنَّ الْجَمِيعَ كَانُوا
يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ الْآنَ.

”لَا يَبْدُ عَلَيْكَ قَلْقُ زَائِدٍ. عَلَى كُلِّ حَالٍ، لَا يَنْبَغِي أَنْ
يَكُونَ رَأْيِي مَهْمًا“.

تَمَّتْ بِكَلِمَةٍ بَدِئَةً لَمَّا غَادَرَتْ غَرِيسَ الْمَطْبَخِ.
وَوَقَفَ غَيْرَ مُتَيَقِّنٍ أَيْتَبَعُهَا أَمْ يَنْتَظِرُ. ثَارَ الدُّعْرُ، وَمَرَّتْ
دَقِيقَةٌ أَوْ دَقِيقَتَانِ قَبْلَمَا أَدْرَكَ أَنَّ تَشْتِ وَسوزان
وَجاسِپِرَ كَانُوا يُرَاقِبُونَهُ. ”لَا يُعْجِبُهَا فَنِّي“. أَحْسَسَ
دُورًا.

”وَلَا يُعْجِبُكَ أَنْتِ أَيْضًا“. سَحَبَ جاسِپِرَ أَقْرَبَ
كُرْسِيَّ إِلَى الْوَرَاءِ. ”اقْعُدْ! لَا تَبْدُو بِخَيْرٍ“.

تَهَالَكَ رومان عَلَى الْكُرْسِيِّ، وَتَسَاءَلَ عَمَّا بِهِ مِنْ
سوءٍ.

أَمَسَكَ جاسِپِرَ كَتِفِي رومان. ”طَاطِئِي رَأْسَكَ“.
وَضَغَطَ. ”هَلْ أُجْرِي لَكَ فَحْصَ طِبِّيِّ عَامٌّ فِي الْآوَنَةِ
الْأَخِيرَةِ؟“

”أَنَا بِخَيْرٍ“.

”لا أعتقد أن ذلك الجدار سيُخيف غريس
ويُبعدها، بُني“.

سمعَ رومان صوتَ جاسپر عبرَ نَفق. زالَ الإعياءُ،
وشعرَ رومان بتحسن. أفلتهُ جاسپر وجلسَ على
كُرسِيٍّ، مُتفحِّصًا إيَّاه. استأنفَ تشتت وسوزان الكلام،
مُخبرين إيَّاه كيف تتبَّعا سيرته الفنيَّة. وجاءا على
ذِكْرِ بعض الفتيان الآخرين الذين كانوا في المزرعة
لَمَّا كان هو فيها، وقد بات مُعظَّمهم مُتزوِّجين ولَهُم
أولاد.

لماذا تأخَّرت غريس كثيرًا؟ مالَ جاسپر إلى الأمام.
”ينبغي أن تُراجعَ طبيبًا“.

أطلقَ رومان ضحكةً تهكُّم. ”أنا في الرَّابِعة
والثلاثين، في عِزِّ الصِّحَّة“.

”حصلَ لك عارضانٍ من هذا القبيل لَمَّا كُنْتَ هُنا.
أكان يحصلُ لكِ مثل ذلك طَوالَ هذه السَّنين؟“
هزَّ رومان كتفيه لامباليًا. ”نومٌ غيرُ كافٍ“.
وابتسمَ لِتشت ابتسامَةً ساخرة. ”نداءُ الاستيقاظ في
الخامسة صباحًا، كما أذكر“.

”يا لك من باكٍ شاكٍ!“ قَطَبَ تشت جبينه. ”وقعتَ
مرَّةً عن سطح الحظيرة، هل تتذكر؟“

”تحذاهُ أخذهم كي يمشي على حَرَفِ السُّطح“.

”أمرٌ جيِّد أنك سقطتَ على كومةِ قَشٍّ“. هزَّت
سوزان رأسها. وابتسمتَ لَمَّا رجعتَ غريس. ”ما رأيك“

في تلك الرّسمة؟“

”تختلّف كثيرًا عمّا يقومُ به رومان الآن“. ونظرت غريس إليه. ”معِي أكثرُ كشفًا“.

شعرَ رومان بأنه مفضوح. ”رسمتُ حُفرةً في الجِدار“.

”كان مُحاولًا أن يُطرَد“. غمزَ جاسپر غريس بعينه.

”المكانُ الذي كان سيذهبُ إليه هو ما أجده مُشوقًا“.

دفعَ تشتت كُرسیّه إلى الورااء. ”ما الرأيُّ في جولةٍ داخلَ البيت القديم؟ لِنَمدِّدْ أَرْجُلَنَا قَلِيلًا قَبْلَ العشاء“.

وقَفَ رومان وأوماً برأسه لغريس كي تُرافِقَهُم. وفجأةً تكَلَّمَت سوزان. ” غريس، لِمَ لا تُلازميني

وتدعِينِ الرِّجالَ يتحدَّثونَ معًا؟“

”تبدو فِكْرَةً جيِّدة“.

وقَفَ رومان في مدخل الباب. ابتسمت له سوزان ابتسامَةً عريضة. ”لا ينشغلُ بِالكِ كثيرًا. أنا على يقينِ بِأنّها تعرفُ أصلًا أنّك لست ملاكًا“.



لم تستطع غريس أن تفهم لماذا كان رومان مُضطربًا. كان واضحًا أنّ آل ماسترسن أحبُّوه. لقد رحّبوا به كإبن ضالّ. ”منذُ متى لم يأتِ رومان زائرًا؟“

”منذ ستّ عشرة سنة“. تنهّدت سوزان. ”لم يرجع منذ تخرّج من برنامج الرّعاية. ما إن يبلغ الفتيان الثامنة عشرة، حتّى يستقلّوا عنّا. كان ممكناً أن يبقى، ولكن...“ رفعت كتفها. ”قرّعت فرصةً بابه، فلبيّ.“

لو كان لغريس عائلةٌ مُحبّةٌ كهذه في حياتها، لكانت تجدُ وظيفةً على مقربة من البيت. ولكنها تزورُ كلّما سنّحت لها فرصة. عرضت أن تُساعد في تحضيرات العشاء، ولكنّ سوزان قالت لها إنّها ستنجزُ كلّ شيءٍ في دقائق قليلة. ”هذا يرافِقُ إعدادَ الطّعام لبيت حافلٍ بالفتيان“. ثمّ غسلت رؤوس البطاطا، ونقرّت ثقباً فيها، ووضعتها في الفرن. ”كيف يروقك العملُ عند رومان؟“

”يقضي معظمَ وقته في المرسم. أنا في المكتب“. وعلمت أنّ كلامها لم يُجب عن السؤال. جلستا معاً إلى طاولة المطبخ. ”في وسعه أن يحوّز دائرةً واسعة من الأصدقاء في عالم الفنّ، إذا أراد“. ابتسمت سوزان ابتسامةً شيطنة. ”جاسپر يُبقينا مُطلّعين على ما يجري لصبيّنا. يقول إنّ رومان يملك مكاناً جميلاً على قِمّةِ جبلٍ مُطلّاً على وادٍ“.

”مع إطلالةٍ رائعةٍ على السّاحل طويّلة المدى“. وهو لا يستمتع بها أدنى استمتاع.

”وانتِ جارته القريبى“.

تورّد خدّاً غريس. بماذا يُمكن أن تُفكّر سوزان

ماسترسن بشأن ذلك القرب؟ ”لم أستطع تحمّل مشقّة الانتقال يوميًا إلى العمل ومنه. عرض عليّ رومان أن أستأجر...“

”أعرف. أخبرني جاسپر. لست أُلَمَّحُ إلى كونِ أيِّ شيءٍ جاريًا. رومان لا يسمحُ بتاتًا للناس بأن يقتربوا إليه فوق الحدِّ“. وقد كانت ابتسامتها تبريريّة. ”كنتُ أعلمُ أنّكما، أنثما الاثنين، غيرُ متزوِّجين. ولكن أردتُ فقط أن أرى ردَّ فعلِ رومان لما قلتُ ذلك“.

من شأنه أن يضع الأمر في نصابه حالًا. ”أنا موظّفته، لا أكثر“.

”ذلك لا يعني أنّكما، أنثما الاثنين، لا يُمكنُ أن تصيرا صديقين ودودين“.

لم تكن غريس على يقينٍ بأن ذلك مُمكنٌ بعد. كانت مشاعرها متغيّرةً ومتوجّهةً في اتجاهٍ غير مُرحّبٍ به. ”إنّه ليس شخصًا سهلُ فهمه“.

”لا أتصوّر أنّك تختلفين عنه في ذلك أنت أيضًا“. وضعت سوزان يدها مبسوطةً على الطاولة. ”كان أذكي صبيّ أويناه يومًا هنا في المزرعة. كان فائق الذكاء بالحقيقة، سريع التعلّم، ذا ذاكرةٍ فوتوغرافيّة. كان ممكنًا أن يذهب إلى الجامعة، ولكنّه لم يُرد أن يُملّي عليه أحدٌ ما يفعله. لقد واكبناه على الإنترنت، وجاسپر مُتتبعٌ جريء. إنه يقاتل لأجلِ فتياهه ولا يُفليتهم بتاتًا، لا سيّما ذوي الجراح الأعمق. ألقى

جاسپر نظرةً واحدةً على ذلك الجدار في غرفة النوم،
فعرّف كيف يتقرّب أكثر. أحضَرَ كُتُبًا عن فنِّ الرَّسْمِ،
فالتَّهَمَهَا رومان. وظلَّ جاسپر ينفُخُ على تلك الشُّعْلَة.
ووجدنا لرومان أمكنةً يُجري فيها تجارب. لقد ملأ كلَّ
كُرَّاسَةٍ رَسْمٍ أعْطَيْنَاهُ إيَّاهَا. ما زلتُ أحتفِظُ بها كلِّها.
”أودُّ رؤيتها“.

”ظننتُ ذلك. ابقِ في مكانك“. خرجت سوزان
من المطبخ واجتازت الرِّواق الخلفي. ثمَّ رجعت
حاملةً كُدْسًا قصيرًا من الدفاتر.

أخذت غريس دفترًا وقلّبت صفحاته على مهل:
فتى يُمشِطُ شعرَ حصان، السنديانة السوداء أمام
البيت، تشت يدخن واقفاً عند لوح أسود. بيّنت كلَّ
كُرَّاسَةٍ تقدّمًا ثابتًا، وأعطت غريس تَبصُّراتٍ في
رومان. وقد أحسّت حنجرتها مشدودةً.

”لم نجلس ليُصوِّرنا“. بدت سوزان داميةً.
”استمدَّ الرُّسومَ من الذاكرة. بعد إطفاء الأنوار، على
ضوء مصباح يدوي“. وهزت رأسها. ”ما راقته
القواعدُ قطّ“.

”هذه رُسومٌ جيّدةٌ حقًا“.

”ما زالت الغرارة في آثاره الفنيّة حتى الآن، ولكنه
لم يعد يرسم أشخاصًا بالفحم أو بالألوان، أيرسم؟“
تنهّدت سوزان. ”لديه قضايا خاصّة، يُمكن فهمها بعد
ما اجتازه“.

حطت غريس كُرَّاسَةَ الرَّسْمِ من يدها. ”هل لك أن تُخبريني؟“

تأمّلت سوزان غريس. ”غادرت أمُّه ذات ليلة ولم ترجع قط. انتقل من بيتٍ تنشئةٍ إلى آخر. كان يهربُ دائماً وينتهي به المطافُ أخيراً إلى الحيِّ المُستهتر من جديد، حيثُ كان يسكنُ مع أمِّه. ليست هذه قصةٌ جديدة. فقد آوينا فتياناً كثيرين من عائلاتٍ مختلة، أو بلا عائلاتٍ قطعاً. إنهم لا يقيمون علاقاتٍ بالناس. فإنشاء الثقة يستغرقُ زمناً، وبعضُ منهم يبذلون قُصاراهم لإفسادِ أيّة علاقة، لا سيّما إذا شرعوا يشعرون بأنهم شيءٌ ما. ذلك كان رومان من أوّل الطريق.“ وتلاّأت عيناها. ”ترك كَراريس الرّسم هنا ليتسنى له أن ينسانا.“

وفيما غريس تتصفّحُ كُرَّاسَةَ الرَّسْمِ الأخيرة، هزّت رأسها. ”أعتقد أنه تركهنّ لتعلما كم أحببكما.“

مسحت سوزان دُموعها. ”أودُّ أن أصدّق ذلك.“ نهضت وتفقّدتِ الفرن. ولما جلست من جديد، كانت عيناها صافيتين. ”سأصدّق ذلك.“

تأمّلت غريس صورةً لشابّةٍ سمراءٍ البشرة داكِنةِ الشَّعرِ والعَيْنين. ”صديقة؟“

”أمُّه. كان ابنٌ سبعِ سنينَ لما اختفت. وقد مرَّ دُخولاً وخروجاً على ثلاثينَ بيتٍ تنشئةٍ بينَ سنّينِ السَّابعةِ والرَّابعةِ عشرة. يوجدُ كثيرٌ من الغضبِ

الكامن عميقًا لدى وَلَدٍ تُخَلِّي عنه. وبعضُ الأولاد يتحوّلون إلى العُنف. وقد استخدَمَ رومان الطّلاءَ للرّدِّ والدِّفاع.

”وبعضُهم يختبئون ويصيرون من طالبي رِضى النَّاسِ“. أدركت غريس أنّها تكلمت بِصوتٍ عالٍ. هزّت كِتْفَها لامبالاةً. ”كنتُ في السّابعة لَمَّا فقدتُ والديّ. ربّنتي خالتي“. نظرتُ إلى أمِّ رومان، محاولةً أن ترى أيّ شَبّهٍ بين الأمِّ والابن. لا بُدَّ أنّهُ شابهَ أباه. هل كان مُذكّرًا دائمًا لأمِّهِ بِشخصٍ أحبّته؟ أو بِشخصٍ استغلّها وتخلّى عنها؟ تذكّرتُ ما قالهُ رومان عن البغايا في بُوداي. ”يتحدّثُ رومان بشأن أسفاره، إنّما ليس بشأن ماضيه“.

”لا تتكلّم. لا تثق. لا تُحسّ“. تنهّدت سوزان. ”تلكَ لازمةُ الأولادِ الذين عانوا على أيدي والديهم“.

غريس أيضًا لم تتكلّم قطّ عن ماضيها. لقد أحسّت دائمًا أنّها كانت مسؤولةً عمّا جرى في ممفيس، وإن كانت لم تدرِ السّبب. وقد قالت خالّتها كلامًا كهذا لِميرندا سِپنسر. وما همّ ذلك أكثرَ من أنّها كانت عاجلاً تلقى التّسكيث والتّوبيخ. لقد سمعتُ غريس، وانغرست البذرة. فنشأت فاعلةٌ مهما أرادَ النَّاسُ منها أن تفعل. الخالةُ أليزابث فوقَ الآخرين جميعًا، إلى أن أقبلَ پاتريك واغتصبها. ولطالما حاولت غريس كلَّ حينٍ أن تُعوّضَ عمّا فعلتهُ خطأً.

كَيْفَ تُجْرِي إِصْلَاحًا لِشَيْءٍ لَا تَفْهَمُهُ؟

أَقْبَلْتُ أَصْوَاتَ رِجَالٍ مِنَ الْخَارِجِ. وَأَعْلَنْتُ خَطَوَاتِي عَلَى الشُّرْفَةِ رُجُوعَهُمْ. أَطَبَقْتُ سِوْزَانَ كُرَّاسَةِ الرَّسْمِ الَّتِي كَانَتْ تَنْظُرُهَا. ”هَذِهِ الرَّسُومُ جَيِّدَةٌ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ قَرِيبَةً حَقًّا إِلَى مَا يَسْتَطِيعُ إِنْجَاؤُهُ. نَزَلْنَا، تَشْتِ وَأَنَا، الْأُسْبُوعَ الْمَاضِيَّ إِلَى سَانَ دِييَغُو، حَيْثُ قَضَيْنَا بِضْعَةَ أَيَّامٍ. أَرَدْنَا أَنْ نَرَى جِدَارِيَّةَ رُومَانَ“. وَالتَّقَطَّتْ كَرَارِيْسَ الرَّسْمِ. ”إِنَّهُ صَائِرٌ دَائِمًا أَحْسَنَ فَأَحْسَنَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُدَانَ بَعْدُ إِمْكَانَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةَ. وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَدَعِ الْمَاضِيَّ وَشَأْنَهُ، فَلَنْ يُدَانِيَهَا بَتَانًا“.

عَلِمْتُ غَرِيْسَ أَنَّ الْحَقِيقَةَ عَيْنَهَا انْسَحَبَتْ عَلَيْهَا.



دَعَا آلَ مَاسْتَرْسَنَ خُوسِيَهَ وَأَبِيَّ مَعَ صَغِيرَيْهِمَا الْيَافِعَيْنِ. وَكَانَ الْعِشَاءُ نَابِضًا بِالْحَيَاةِ بِفَضْلِ الْمُحَادَثَةِ. كَانَ خُوسِيَهَ فَتَى عِصَابَةٍ فُظًّا لَمَّا تَشَارَكَ رُومَانَ فِي غُرْفَةٍ مَعَهُ. وَالْآنَ بَاتَ مُسْرِعًا إِلَى الضَّحِكِ، لَائِقًا وَقَانِعًا. أَمَّا زَوْجَتُهُ أَبِي، وَهِيَ شَابَةٌ عَادِيَّةُ الْمَنْظَرِ ذَاتَ شَعْرِ بُنِّي وَعَيْنَيْنِ بِلَوْنِ الْبُنْدُقِ، فَقَدْ جَعَلَتْ كَارْلُوسَ وَتِينَا يُحْسِنَانِ التَّصَرُّفِ. أَحْضَرَتْ أَبِي فَطِيرَتِي كَرَزٍ مِنْ صُنْعِ الْبَيْتِ لِأَجْلِ التَّحْلِيَةِ. تَحَدَّثَ كَارْلُوسَ وَتِينَا، وَهُمَا بَعِيدَانِ مِنَ الْاسْتِحْيَاءِ، بِشَأْنِ الْمَدْرَسَةِ وَالْأَصْدِقَاءِ، وَمَا يُرِيدَانِ أَنْ يَفْعَلَاهُ عِنْدَمَا يَجْلُ الصَّيْفُ مَرَّةً جَدِيدَةً. غَايِظَا أَبَاهُمَا بِشَأْنِ التَّبْطُلِ

والاسترخاء في أنحاء المزرعة على ظهر حصان،
فيما يُضطرَّانِ إلى تنظيفِ الإسطبلات من الرّوث.
فقال خوسيه إنه أنجز ذلك في أيامه، والآن دورهما.
وذكره رومان بالسّاعات التي أمضاها معًا محمّلين
بالرّفش سماد الخيل في عربّتي يدٍ وناشريّين إياه في
حقلٍ مساحتُه فدّانٌ كاملٌ.

لما قامت سوزان لإزالة الصُّحون، ساعدتها غريس
وأبي. ودعاهم تّشت إلى غرفة الضيوف. تحدّثوا في
الرياضة والسّياسة المحليّة. ثمّ انضمت إليهم النّساء.
جلست أبي في جوار خوسيه. بدوا متناغمين معًا.
وقد وضع خوسيه يده على فخذ زوجته، وابتسمت
هي له. كان واضحًا أنّ اثنتي عشرة سنةً من الزّواج
لم تُطفئ النّار. وقد وقفت غريس بقرب رُفوف
الكتب، مُتحدّثةً إلى جاسپير.

لما همّ رومان بالنّهوض، استرعت سوزان انتباهه.
”خبّرنا عن معرض لاغونا بيتش“.

لا بدّ أنّ جاسپير قد أخبرهم عن ذلك الحدّث.
”بيعت اللّوحات“.

”كان رومان بارِعًا في الكلام دائمًا“. ابتسم له
ابتسامةً عريضة. ”إلى أين أنت وغريس ذاهبان
غدا؟“

”جنوبًا“. لم يکن على استعدادٍ للذهابِ إلى البيت،
ولكنّه سبق فوعّد غريس بأنّهما سيرجعان غدا حتّى

تُحَضِّرُ ابْنَهَا لِقَضَاءِ نِهَايَةِ الْأُسْبُوعِ.

كانت غريس جالسةً على الأريكة مُقابِلَه. ”يُريدُ مسؤولو غُولدن أن يُكَلِّفُوا رومان رِشْمَ جِدَارِيَّةِ مدينة“.

”غُولدن؟“ ضِحْكٌ خُوسِيَه. ”سَتُضْطَرُّ إِلَى اخْتِرَاعِ شَيْءٍ مِنَ التَّارِيخِ“.

نَظَرَ رومان إلى غريس بانْتِبَاهٍ مُرَكِّزٍ. لا شكَّ أَنَّهَا ما بِرِحَتْ تَتَلَقَّى سَيِّلاً مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ حَيَاتِهِ الْخُصُوصِيَّةِ. لَقَدْ نَوَى أَنْ يَعْرِفَ الْمَزِيدَ عَنْ حَيَاتِهَا الْخُصُوصِيَّةِ. ”سَتَتَخَطَّى غُولدن وَنَذْهَبُ إِلَى فَرَسَنُو“. لم تَبْدُ سَعِيدَةً بِذَلِكَ الْإِعْلَانِ. ابْتَسَمَ لَهَا ابْتِسَامَةً فُولاذِيَّةً. ”لَمْ تَرَ غريس خَالَتَهَا مِنْذُ مُدَّةٍ. تَبْدُو الزِّيَارَةُ فِي وَقْتِهَا“.



جَلَسَتْ غريس، مُطْبِقَةً قَبْضَتَيْهَا بِإِحْكَامٍ، عَلَى طَرَفِ السَّرِيرِ فِي حُجْرَةِ الضُّيُوفِ، وَحَدَّقَتْ إِلَى الْجِدَارِ. مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَوَدَّ لَوْ تَخَطَّوْا عِبْرَ الْحُفْرَةِ الَّتِي رَسَمَهَا رومان فِي الْجِدَارِ وَتَهْرَبُوا. لِمَاذَا كَانَ رومان مُصَمِّمًا عَلَى التَّوَقُّفِ فِي فَرَسَنُو؟ حَتَّى لَوْ اتَّصَلَتْ غريس بِالْخَالَةِ أَلِيزابِثَ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ فِي الصَّبَاحِ، فَإِنَّ الْخَالَةَ سَتَرَى الرِّسَالَةَ الصَّوْتِيَّةَ الْقَصِيرَةَ خَرَقًا فَادِحًا لِآدَابِ الْمَعَاشِرَةِ. وَمَا إِنْ دَخَلَ رومان غُرْفَةَ النَّوْمِ حَامِلًا

حقيبة سفرها، حتى هبت واقفة.

”تركث حقيبتك الظهرية في السيارة. لم أظن أنك ستبقين ساهرةً للدرس حتى وقت متأخر هذه الليلة.“

”لن تلقى في فرسنو مثل الترحيب الحار الذي لقيناه هنا.“

وضع الحقيبة على الميزينة. ”لماذا ذلك؟“

”ما عليك إلا تصديق كلامي بشأن الأمر.“ لم ترد أن تتحدث بشأن الخالة أليزابث. ”قلت إنك ستخبئني من شايلا وريپر وويت بوي وبي آر دي.“

”بي آر دي، ببي راى دين. ذلك هو الاسم الموجود في وثيقة ولادتي، هو واسم والدتي شايلا دين. ليس من اسم والد. سوزان وتشت طلعا بالاسم رومان فيلاسكو. للأدباء أسماء مستعارة. لم لا يكون للرسامين؟ كانا يمزحان.“ نظرت إلى الجدار، وارتجت عضة في حنكه. ”خيل إلي أن رومان فيلاسكو سيحظى بمكانة مرموقة أكثر من تلك التي أمكن أن يحظى بها ببي راى دين يوماً.“

”شايلا هي أمك؟“

”نعم.“

”وريپر وويت بوي؟“

”فتيان عرفتهما في الجوار. أحدهما مات بإطلاق نار في حفلة كان ينبغي لي أن أكون فيها. والآخر

مات في سقطة“.

ثلاثة أسماءٍ لتكريم الموتى؟ أم رأى هو أيضًا نفسه ميتًا؟ هل شعر بأنه مُذنبٌ لأنه كان حيًّا وهم لم يكونوا أحياءً؟ أحسّت غريس أن دمَّعها يكادُ يجري. لقد فهمت ذلك الشعور.

”لماذا لا تريدان أن تذهبي إلى فرسنو؟“

لم يدر أنه كان ينكأ جراحًا قديمة. ”أوتني خالتي لما مات والداي. قامت بذلك تنفيذًا لرغبات أمي، لأنها أرادتني. لقد رُحِبَ بك داخل حياة آل ماسترسن. أنا لم يُرْحَبَ بي في حياتها.“

”كان هذا عملاً مدفوعَ الأجرة، وقد أرسلتُ إلى هنا بموجب أمرٍ قضائي.“

”للمباشرة، ولكنهم يحبونك كائن.“

”خالتك قريبة دم.“

”الدم لا يهم دائمًا. كان عليّ أن أنشئ عائلة.

شانيس، نيكول، أشلي، آل غارسيا.“

”من آل غارسيا؟“

أناس ظنَّت أنها تستطيع أن تثق بهم، والآن تساءلت بأية ضراوة ينبغي لها أن تُقاتل كي تستعيد ابنها. أحسّت حُرقة الدمع، وهزَّت رأسها، مُشيحةً بنظرها. وابتلعت ريقها بصعوبة. ”لا ينبغي أن تبقى هنا.“

”سَأْغَادِرُ عِنْدَمَا تَقُولِينَ لِي مَا رَأَيْكَ فِي هَذِهِ
الرَّسْمَةِ“. وَأَوْمَأُ بِرَأْسِهِ نَحْوَ الْجِدَارِ الَّذِي رَسَمَهُ.

”تَبْدُو شَبِيهَةً بِتَحْطِيمِ سِجْنِ. مَا أَوْدُّ مَعْرِفَتَهُ هُوَ
لِمَاذَا قَدْ تُرِيدُ أَنْ تَهْرَبَ مِنَ الْحُبِّ وَتَرْجِعَ إِلَى حَيْثُ لَمْ
يَكُنْ لَدَيْكَ رَجَاءٌ؟“

”عَرَفْتُ مَنْ وَمَا كُنْتُ فِي الشَّوَارِعِ“. وَتَوَثَّرَ حَنْكُهُ.
”غَدًا، سَأُحَاوِلُ أَنْ أُكْتَشِفَ مَا تُخْفِيَنَّهُ“.

الفصل ٢٤

حملَ رومان حقائقَ السَّفَرِ في صُنْدُوقِ سَيَّارَتِهِ، ثُمَّ راقَبَ التَّوَدِيعَاتِ العاطفيَّةَ. عانقت سوزان غريس وهمست لها بشيءٍ أتى بِابْتِسامَةٍ إلى وجه غريس. وكان لِتشت وجاسپِرَ دَوراهُما. ما استراحَ رومان قَطُّ إلى العواطفِ الطَّبيعيَّةِ، ولكنَّه هذه المرَّة لم يُمانع. وقد وقَّفَ تشت معه. ”إن لم تبقَ على اتِّصال، فقد نظهرُ فعلاً عند عتبة بابك دونَ سابقِ إخبار“.

”البابُ مفتوحٌ دائماً“. وقد عنى رومان ذلك.

بدا جاسپِرَ مُعتدّاً بنفسه، ولكنَّه لم يتباهَ. ”سأنزلُ بعدَ نحوِ أسبوعينِ لِأرى كيفَ تسيِّرُ الأمورَ“. وقد نظَرَ إلى غريس.

تلقَى رومان الرِّسالةَ. ”لستَ تملكُ جميعَ الأجوبةَ، يا عجوزُ“.

”لا أَحَدٌ مِنَّا يملكُها يوماً“. عانقهُ جاسپِرَ عناقاً وجيزاً وصفَعَهُ على ظهره. ”على الأقلِّ أنتِ تثبتُ

أَنَّكَ جَرِيءٌ كَفَايَةً بِحَيْثُ تَسُوْقُ إِلَى الْأُمَامِ بَدَلًا مِنْ التَّحْدِيقِ فِي مِرَاةِ النَّاضِرِ الْخَلْفِيَّةِ“.

قَبْلَ الصُّعُودِ إِلَى السَّيَّارَةِ، لَمَحَ رُومَانٌ شَيْئًا مَا عَلَى الْأَرْضِ. وَإِذِ انْحَنَى، التَّقَطَّ بِلُوطَتَيْنِ عَلَى غُصَيْنِ. ثُمَّ أُعْطَاهُمَا لَغْرِيسَ بَعْدَمَا ثَبَّتَتْ حِزَامَ مَقْعَدِهَا. ”لَأَجْلِ مَجْمُوعَتِكَ“. وَمَا إِنْ كَبَسَ زِرَّ الْإِشْعَالِ، حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى ظَهْرِ مَقْعَدِهِ رَاجِعًا بِالسَّيَّارَةِ.

بَقِيَ تَشْتِ وَسُوزَانُ وَجَاسِپِرُ خَارِجًا، مُلَوِّحِينَ بِالْأَيْدِي، فِيمَا انْعَطَفَ رُومَانٌ إِلَى الطَّرِيقِ الْعَامِّ. رَدَّتْ غَرِيسُ مُلَوِّحَةً بِيَدِهَا، ثُمَّ أَغْلَقَتِ النَّافِذَةَ. وَالتَفَتَتْ رُومَانٌ نَاضِرًا إِلَيْهَا. ”يَقِينًا أَنَّهُمَا أُولِعَا بِكَ بِسُرْعَةٍ“.

”يَرُوقَانِي“.

”أَعْتَقِدُ أَنَّهُمَا يَرْجُونَ أَنْ تَصِيرِي أَخِيرًا أَكْثَرَ مِنْ مُسَاعِدَتِي الشَّخْصِيَّةِ“. وَرَأَى اللَّوْنَ الْوَرْدِيَّ يَصْعَدُ إِلَى خَدَّيْهَا. ”قَلْتُ لَهُمَا إِنَّكَ تُوَاعِدِينَ قِسِّيَسًا شَابًّا“. فَلَمْ تَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ تَصْحِيحًا لِمَا قَالَهُ. وَرَكَزَتْ عَلَى الطَّرِيقِ. ”هَلْ اتَّصَلْتِ بِخَالَتِكَ؟“

”هِيَ مُشْغُولَةٌ هَذَا الصَّبَاحِ، وَلَكِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ. سَاعَاوِدُ الْإِتِّصَالَ بِهَا إِذَا فَضَّلْتِ مُتَابَعَةَ السَّيْرِ. إِنَّهَا لَنْ تُمَانِعَ“.

عَلِمَ مَا تَمَنَّتْ أَنْ يَقُولَهُ. ”لَدِينَا مُتَسَعُّ مِنَ الْوَقْتِ“. ”يَنْبَغِي أَنْ نَتَغَدَّى قَبْلَ أَنْ نَذْهَبَ“.

تَلَقَّى الرِّسَالَةَ. لَا تَتَوَقَّعُ مِنْ خَالَتِي أَنْ تُقَدِّمَ لَكَ

حَتَّى خُبْرًا وَمَاءً. ”يُمْكِنُنَا أَنْ نَشْتَرِيَ سِنْدُوِيْتَشَاتٍ مِنْ مَطْعَمٍ وَنَأْكُلَهَا فِي مَثْنَزِهِ مَا“.

لَمْ يَتَكَلَّمَا حِينَئِذٍ. وَكَانَ فِي وُسْعِ رُومَانَ أَنْ يُلَاحِظَ أَنَّهَا كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَأْخُودَةٍ بِالمَنَاطِرِ خَارِجِ النَّافِذَةِ. ”كَيْفَ هِيَ خَالَتُكَ؟“

”هِيَ شَخْصٌ طَيِّبٌ. لَقَدْ تَيَقَّنْتُ بِأَنْ يَكُونَ لِي كُلُّ شَيْءٍ أَحْتَجُّهُ إِلَيْهِ. مَا طَلَبْتُ مِنِّي قَطُّ أَنْ أَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلْتَهُ هِيَ نَفْسُهَا“. طَوَّتْ غَرِيْسَ يَدَيْهَا. وَكَانَ قَدْ لَاحِظَ أَنَّهَا تَفْعَلُ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَكُونُ مُتَوَثِّرَةً. ”قَالَتْ لِي أَنْ أَبْذِلَ قُصَارَايَ فِي كُلِّ مَا أَقُومُ بِهِ. إِنَّهَا مُجْتَهِدَةٌ جَدًّا فِي عَمَلِهَا وَمُتَفَانِيَّةٌ فِي وَظِيفَتِهَا“.

”مَاذَا تَشْتَغَلُ؟“

”كَانَتْ مُدِيرَةً فِي مَصْلَحَةِ الصَّرَائِبِ الدَّاخِلِيَّةِ“. وَابْتَسَمَتْ قَلِيلًا. ”لَا دَاعِيٍّ لِلقَلْقِ حِيَالَ ذَلِكَ. لَهَا الْآنَ مَصْلَحَتُهَا الْخَاصَّةُ بِصِفَةِ مُسْتَشَارَةٍ تَحَالِيلَ جِنَائِيَّةٍ لِلصَّرَائِبِ“.

أَطْلَقَ ضِحْكَةً يَسِيرَةً. ”سَأَحَاوِلُ أَلَّا أُتَعَرَّضَ لِجَانِبِهَا السَّيِّئِ“.

”رَبِّمَا كَانَ أَسْلَمَ لَوْ عَدَلْنَا عَنِ الزِّيَارَةِ بِجَمَلَتِهَا“.

”لَا بَأْسَ بِالمُحَاوَلَةِ، غَرِيْسَ. أَهِيَ أَيْضًا تَسْتَحْدِمُ الْكِتَابَ المَقْدَّسَ لِلهَجُومِ؟“ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ قَصَدَ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ.

”الخالة أليزابث اصطحبتني إلى الكنيسة كل يوم أحد. ولكن لا، لا تتخذ من الكتاب المقدس سبيلاً للهجوم. ولا مُعلّمتي في مدرسة الأحد فعلت ذلك. ربّما تُعرّجُ ميرندا سينسر زائرةً فيما نحنُ هناك“.

أحسّ رومان أنه كان هناك مزيداً أمكن أن تُخبّره به، ولكنّه تصوّر أنّه سيكتشف ما أراد معرفته بسرعة كافية. توقفا واشترىا سندويتشاتٍ وماءً ونبته كوبيّة قرنفليّة وزرقاء هديّة للخالة. أعطته غريس توجيهاتٍ إلى مُتنزهه ودوارد المحليّ، حيثُ وجدا بنكا تحت شجرة سنديان، بقرب مجازٍ على طول شطّ البحيرة.

”هل اصطحبتك خالتك إلى هنا في نزهة؟“ وتناول رومان قضمّةً من سندويتشه المعروف بأنّه شطيرة الصّبيّ الفقير.

”لا، بل جئتُ مع پاتريك، زوجي السابق“ طوّت غريس الورقة بحرص حول الكروسان المحشوّة لحم ديك روميّ. بدا أنّها فقدت شهيتّها. أشاحت بنظرها. ”أتمنّى لو استطعنا أن نذهب إلى حديقة شنزن للصّداقة اليابانيّة. إنّها جميلة حقاً، ولكنها تُفتح فقط في نهايات الأسابيع في هذه الفترة من السنّة“.

مكانٌ آخر قصّدت إليه مع زوجها سابقاً؟ نزع غطاء قنيّة مائه. ”أستطيع أن أتصوّرَكَ قائمةً برحلة عبّر الأرياف. من شأنك أن تُريدي التوقّف عند كلّ مصيدةٍ سياحيّة صغيرة غريبة: خيام السكّان

الأصليين المخروطينة في أريزونا، متاحف الكائنات الفضائية الغربية في نيومكسيكو، نُزل طريق لَدِيهِ ثورُ روديو في تكساس“.

”وتكونُ أنتِ سائقًا بسرعة هائلة على الطريق الجاري بين الولايات“ . ابتسمت له ابتسامة حزينة. ”وأنتِ على حقٍّ. من شأني أن أريد التوقف في محطات كثيرة. هل علمت بوجود أكثر من عشرين مُتنزهاً عامًّا ومعلمًا تذكاريًّا في أريزونا وحدها، وثمانية عشرة غيرها في نيومكسيكو؟ لَدِيَّ خرائط“ . ابتسم ابتسامة عريضة. ”أنا على يقين بأنَّ لَدَيْكَ، وجميعُ الطُّرقاتِ مُعلَّمةٌ بالأحمر بدقَّةٍ وإتقان“.

”كلُّ إنسانٍ لَدِيهِ حُلْمٌ“.

”أنا ليس لَدِيَّ“.

”ذلك مُحِيطٌ“.

أتى رومان على قنينة ماء. ”أخبريني عن حُلْمِكَ“.

أخذت غريس قنينة الماء البلاستيكية منه، وجمعت كلَّ شيء، ثمَّ طرحته في صفيحة القمامة. ”خالتي تكره الأمر حين يتأخَّر الناس“.

تطلَّع رومان حوَالِيهِ، فيما غريس تُعطيهِ التوجيهات. لقد نشأت في حيِّ طبقةٍ وُسطى حسن. بدت المنازل المبنية على أرضٍ مُشتركةٍ مُقسَّمةٍ مُتشابهةً كُلِّها، ما عدا المسطحات الخضراء الأمامية،

وقد اعثنِي بها جيِّداً. أشارت غريس إلى المنزل، فتبيَّن أنَّه الأَجْمَلُ في صَفِّه. وقد كانت له جاذبيَّة خارجيَّة كافية لِيُعَدَّ حُلْمَ وَسِيطِ عَقَارِيٍّ. وأمكَنَ أن يكونَ البابُ الأماميُّ الأَحْمَرُ إمَّا ترحيبًا وإمَّا تحذيرًا.

لم تُخْرِجْ غريس مِفْتَاحًا من جِردانها. رنَّت جرسُ الباب وتراجعت خطوةً كأنَّها مُتوسِّلةٌ غيرُ مُرحَّبٍ بها تستعدُّ لأن يُسْفَقَ البابُ في وجهها. أراد رومان أن يضعَ يدهُ على ظهرها، ولكنَّه أولى ذلك تفكيرًا أحسن. رمقته بِنظرةٍ اعتذاريةٍ. ”إن لم تُجِب، فلا تحسب ذلك أمرًا شخصيًا“.

”لماذا قد أحسبُه؟ إنَّها ما قابلتني قط“.

انفتح الباب. كان رومان قد توقَّع امرأةً أكبرَ سنًا مُتجهِّمةً الوجه، ترتدي بنطلونَ بوليستير وعباءةً مُزهرةً. بدت أليزابث وُكْرَ متأهِّبةً لمباشرةِ الوظيفة. كانت جذابةً ولائقةً بالنسبة إلى امرأةٍ في أربعينيَّاتها، ماكياجها مُمتاز وشعرها الداكن أملس. كان طولها فُويقَ مترٍ ونصف، تنتعلُ حُفًّا أسود، وتلبسُ بنطلونًا أسودَ وبُلوزةً حريريَّةً بيضاءَ وعِقدَ لؤلؤٍ ذا طاقٍ واحد. لقد علِمَ رومان الآن أينَ تعلَّمت غريس أن ترتدي لباسَ مُحترِفة.

”مرحبا، خالتي أليزابث“. قدَّمت غريس لها نبتةً الكُوبيَّة. قَفَّ شعرُ رومان لما أخذتها المرأةُ كَمَلِكةٍ تقبلُ هديَّةً من فَلَاحةٍ أدنى منها كثيرًا بِحيثُ لا

تستحقُّ أن تقولَ لها "شُكْرًا لِكِ". ثُمَّ خَطَرَ فِي بَالِهِ أَنَّهُ غَالِبًا مَا عَامَلَ هُوَ غَرِيسٌ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا.

أَفْسَحَتْ أَلِيْزَابِثُ وَكَّرَ لَهَا كِي يَدْخُلَا. تَرَكَّزَتْ عَيْنَاهَا الْبَارِدَتَانِ، الْبُنْدَقِيَّتَا اللَّوْنِ، عَلَى رُومَانِ إِذْ خَطَا فَوْقَ الْعَثْبَةِ. تَوَلَّتْ غَرِيسَ التَّعْرِيفَاتِ الرَّسْمِيَّةِ. كَانَ لِأَلِيْزَابِثِ سَيْطَرَةٌ حَازِمَةٌ. لَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَدَامَتِ النَّظَرَ إِلَيْهِ قَبْلًا نِسَاءً كَثِيرَاتٍ، وَلَكِنْ لَمْ تَنْظُرْ إِلَيْهِ أَيَّةً وَاحِدَةً مِنْهُنَّ عَلَى غِرَارِ هَذِهِ الْمَرَاةِ. خَالَجَهُ شُعُورٌ بِأَنَّهَا تَوَدُّ أَنْ تَقْتَطِعَ قَلْبَهُ وَتَضَعَهُ عَلَى مِيزَانٍ.

"لِمَاذَا لَا نَقْعُدُ فِي الْحَدِيقَةِ؟" تَقَدَّمَتُهُمَا أَلِيْزَابِثُ عَبْرَ حُجْرَةِ جُلُوسِ مُتَقَنَةٍ وَجَيِّدَةِ التَّصْمِيمِ. لَقَدْ أَحَبَّتِ الْأَلْوَانَ الَّتِي أَحَبَّتَهَا غَرِيسٌ تَمَامًا، لَكِنْ بِدَرَجَاتٍ أَكْثَرَ دُكْنَةً وَجِدَّةً. تَبَعَ رُومَانِ الْمَرَاتَيْنِ إِلَى الْخَارِجِ عَبْرَ الْبَابِ الزُّجَاجِيِّ الْمُنْزَلِقِ، حَيْثُ دُعِيَ إِلَى الْجُلُوسِ تَحْتَ تَعْرِيشَةٍ بِيضَاءٍ تُحِيطُ بِهَا أَرْضٌ عَجَائِبَ طَبِيعِيَّةً. وَقَدْ كَانَ مُمَكِنًا أَنْ يُسْتَخْدَمَ الْمَسَطَّحُ الْأَخْضَرُ مِثْلَ مَلْعَبِ غُولْفٍ. وَتَدْفَقُ مَسْقُطُ الْمَاءِ فِي الزَّاوِيَةِ الْخَلْفِيَّةِ إِلَى بَرَكَةٍ فِيهَا أَوْرَاقُ زَنْبِقٍ مَائِيٍّ طَافِيَّةٍ مُزْهِرَةٍ. وَكَانَتِ الْعَصَافِيرُ تُرْفِرُفُ وَتُرْقِرِقُ حَوْلَ مَطَاعِمِهَا الْمُعَلَّقَةِ، وَالتَّحُلُّ يَطْنُ. لَمْ يُضْطَرَّ رُومَانِ لِأَنْ يَتَسَاءَلَ أَيْنَ كَانَتِ الْحَيَّةُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ هَذِهِ الصَّغِيرَةِ الزَّائِفَةِ. وَقَدْ جَلَسَتْ أَلِيْزَابِثُ عَلَى وَسَادَةٍ كُرْسِيِّ خَيْزُرَانٍ مَجْدُولٍ، أَبْيَضِ اللَّوْنِ، بَدَا شَبِيهَا بِعَرْشِ.

بَدَتْ غَرِيْسٌ مُفْعَمَةً بِالزَّهْبَةِ. ”هَذَا جَمِيْلٌ، خَالْتِي أَلِيْزَابَثُ“.

كَانَ وَاضِحًا أَنَّ غَرِيْسَ لَمْ تَزُرِ الدِّيَارَ فِي الْآوْنَةِ الْأَخِيْرَةِ.

”يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ جَمِيْلًا، بِالنَّظَرِ إِلَى الْوَقْتِ وَالْمَالِ اللَّذِيْنَ أَنْفَقْتُهُمَا عَلَيْهِ“. وَطَعَنْتِ رُوْمَانَ بِتَيْنِكَ الْعَيْنَيْنِ الْبَارِدَتَيْنِ. ”قَالَتْ لِيْ غَرِيْسٌ إِنَّكَ رَسَامٌ، مِسْتَرُ قِيْلَاسِكُو. أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الرَّسُوْمِ تُنْجِزُ؟“

”قَلِيْلًا مِنْ هَذَا وَذَاكَ“. فِي وُسْعِهِ أَنْ يُرَاهِنَ بِثَمَنِ إِحْدَى لَوْحَاتِهِ عَلَى أَنَّهَا قَدْ تَصَفَّحَتْ مَوْقِعَ غُوْغِلَ عَنْهُ، أَوْ اتَّصَلَتْ بِأَحَدِ مَرُؤُوسِيْهَا لِيَسْحَبَ مَلَفَ ضَرَائِبِهِ. ”قَالَتْ غَرِيْسٌ إِنَّكَ اشْتَفَلْتِ فِي مَصْلِحَةِ الضَّرَائِبِ الدَّاخِلِيَّةِ“. فِي وُسْعِهَا أَنْ تَحْضُلَ عَلَى الصُّوْرَةِ الْكَامِلَةِ عَنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الرَّسُوْمِ أَنْجَزَهُ. لَوْحَاتٌ تِجَارِيَّةٌ.

”كَانَ مَا كَانَ. لَا بُدَّ أَنْ تَكُوْنَ نَاجِحًا إِذَا احْتَجَّتْ إِلَى مُسَاعِدَةِ شَخْصِيَّةٍ. مَاذَا تَعْمَلُ عِنْدَكَ غَرِيْسُ بِالضَّبْطِ؟“

تَكَلَّمَتْ غَرِيْسٌ بِسُرْعَةٍ. ”أُرْتَبُ الْاِتِّصَالَاتِ، أَجِيْبُ عَنِ الرَّسَائِلِ، أَدْفَعُ الْفَوَاتِيْرَ، أَتَسَوَّقُ الْبِقَالَةَ...“

قَاطَعَ رُوْمَانُ السَّبِيْلَ. ”تَتَوَلَّى غَرِيْسُ الْقِيَامَ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَى إِتْمَامٍ حَتَّى أَتَفَرَّغَ لِلرَّسْمِ“.

”إِذَا، لَيْسَ فُنُكُ كُلُّهُ عَنِ انْتِظَارِ الْإِلْهَامِ“.

رَدَّ مُحَدِّقًا إِلَيْهَا. "أرْسُمُ مَا تُرِيدُهُ الشُّوقُ". انْتَظَرَ
تَعْقِيبًا دَنِيئًا، وَلَكِنَّهَا أَوْمَأَتْ بِانْحِنَاءِ رَأْسِ بَسِيطَةٍ، ثُمَّ
طَلَبَتْ مِنْ غَرِيسٍ أَنْ تُقَدِّمَ المُنْعِشَاتِ. "عَلَى طَاوِلَةِ
المَطْبِخِ قَالَبٌ كَاتُو مُضَلَّعٌ، وَفِي البَرَادِ لَيْمُونَاةٌ.
اعْمَلِي إِبْرِيْقَ قَهْوَةٍ أَيْضًا. سَتَحْضُرُ مِيرَنَدَا بَعْدَ قَلِيلٍ.
أَنَا سَأَخُذُ شَايًا مَعَ لَيْمُونٍ".

تَدَفَّقَتِ الحَرَارَةُ فِي عُرُوقِ رُومَانٍ. التَفَتَ نَاطِرًا
إِلَى غَرِيسٍ، فَرَأَى أَنَّهَا لَمْ تَبْدُ مُسْتَاءَةً بِأَدْنَى دَرَجَةٍ لِأَنَّ
خَالَتَهَا عَامَلَتْهَا كخَادِمَةٍ. إِذْ وَقَفَتْ وَتَوَارَتْ فِي
الدَّاخِلِ. وَاتَّكَأَتْ أَلِيْزَابِثُ إِلَى الوَرَاءِ مُصَالِبَةً سَاقِيهَا،
وَقَدْ اسْتَقَرَّتْ يَدَاهَا عَلَى ذِرَاعِي عَرِشِهَا. "إِذَا لِمَاذَا
أَنْتُمْ هُنَا، مِسْتَرِ قِيلَاسِكُو؟ أَعْلَمُ أَنَّ الزِّيَارَةَ التَّلْقَائِيَّةَ
لَمْ تَكُنْ فِكْرَةً غَرِيسٍ".

"لِمَ لَا؟"

"إِنَّهَا تَعْرِفُنِي جَيِّدًا كِفَايَةً بِحَيْثُ تُعَلِّمُنِي قَبْلَ
أَسْبُوعٍ".

اتَّكَأَ إِلَى الوَرَاءِ، هُوَ أَيْضًا. "دَفَعَنِي حُبُّ
الاسْتِطْلَاعِ".

"حُبُّ اسْتِطْلَاعِ مُتَبَطِّلٌ؟ أَمْ وَرَاءَ الزِّيَارَةِ قَصْدٌ
مَا؟"

"لِمَاذَا يُخَالِجُنِي شَعُورٌ بِأَنِّي لَا أَرُوقُكَ؟"

"لَيْسَ لَدَيَّ مَشَاعِرٌ بِشَأْنِكَ بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى".

أَمَالَتْ رَأْسَهَا وَرَفَعَتْ حَاجِبًا. "حَتَّى الْآنَ".

”أحببتُ أن أستطِيعَ أيَّةَ عائلةٍ جعلتِ غريس كما هي.“

ضاقت عيناها. ”وكيف هي؟“

”تعلمُ باجتهادٍ وثبلي حسنًا. أستأمنُها على مواردي الماليَّة.“ ينبغي أن يقولَ هذا لهذه المُحاسبة شيئًا ما. ”إنَّها فتاةٌ صالحةٌ.“ وذلك ينبغي أن يقولَ لها الباقي.

”أتلكَ هي طريقُك في إخباري أنكما، أنثما الاثنين، لا تتشاركان في سريري واحد في رحلة عمليكَ هذه؟“

”لابنةٍ أختكِ أخلاقياتٍ راهبة، أيُّها الأُمُّ وُكر.“

بدت مُضحكةً، لا مُهانةً.

تصوّرَ رومان أنه لن يكتشفَ أيَّ شيءٍ إن لم يهدأ تمامًا. ”قالت غريس إنَّك آويتها بعدما ماتَ والداها.“

”نعم.“ وتمهَّلت. ”كُنْتُ القريبة الوحيدةَ الباقية،

وكانت هي في السَّابعة فقط. كان عليَّ أن أسافرَ

بالطَّائرة رُجوعًا إلى ممفيس وأرتبَ الأمور. لم يكذ أن

يكونَ ذلك أمرًا يسهُلُ القيامُ به، نظرًا إلى الظروف.

ثمَّ عدتُ بها إلى فرسنو هنا لِتُقيمَ معي.“

”الظُّروف؟“

رفعت ذلك الحاجبَ ثانيةً. ”أنت في بعثة صيد

سمك، مستر فيلاسكو؟ سيكونُ عليك أن تسألَ

غريس طلبًا للتفاصيل. ربَّما لا تتذكَّرُ كلَّ شيء، وفي

تلك الحالة سيكونُ عليك أن تُجريَ شيئًا من البحث.
ذلك كلُّه في الوثائق الرَّسميَّة“.

رنَّ جرسُ الباب. وقفت أليزابث، مُنهيَّةً الحديث.
استأذنت ودخلت إلى الدَّاخل، تاركَةً البابَ الزُّجاجيَّ
مفتوحًا. استطاعَ رومان أن يسمعَ غريس وأليزابث
وامرأةً أُخرى مُتكلماتٍ بغيرِ وضوح. وما لبثت أن
تبعت أليزابث إلى الخارجِ امرأةً أكبرُ سنًا ترتدي
فستانًا مُنقشًا بالأسود والأبيض. كان شعرُها الشَّائبُ
مقصوصًا قصيرًا، وعيناها الزُّرقاوان مُفعمتين
بالحيويَّة والحنان ومُستطليعتين بجلاء. لم تنتظرِ
التَّعريفاتِ الرَّسميَّة، بل تقدَّمت إلى رومان بيدي
ممدودة. ”أنا ميرندا سپنسر، وأنت رومان فيلاسكو
المشهور! يسرُّني جدًّا أن ألتقيك“. ثمَّ نظرت وجهَ
غريس الجافي، فلم يُرَوِّعها لتسكُت. ”ما بَرِحنا نُحبُّ
الاستِطلاعَ منذُ أن ذكرتَ غريسَ وظيفتها الجديدة.
ليس عليَّ أن أسألَ كيفَ حالها. إنَّها دائِمًا تبذلُ
قُصاراها في أيِّ شيءٍ تقومُ به“.

خرجت غريس حامِلةً صينيَّةً، وحطَّتها على
الطاولة. قدَّمت القهوةَ لميرندا أوَّلًا، ثمَّ صبَّت فينجانَ
شايٍ وأضافت شريحةَ ليمونٍ لخالتها. وقدَّمت
لرومان كأسَ ليموناضةٍ باردةً جدًّا قبلما قطعت
شرائحَ من قالبِ الكاتو المُضلع. ولاحظَ رومان أنَّ
غريس لم تأخذَ لِنَفْسِها أيَّ شيءٍ. استقرَّت ميرندا

على كُرسِيَّ خَيْرَانَ مَجْدُولٍ آخَرَ، أَقْلٌ مُلُوكِيَّةٌ مِنْ
كُرسِيَّ أَلِيْزَابِثَ. ”كَلَّمْنَا عَنْ نَفْسِكَ، رُومَانَ. لَمْ أَلْتَقِ
رَسَامًا قَطُّ، وَالْإِنْتِرْنَتَ لَا تُخْبِرُنَا كَثِيرًا عَنْكَ، إِنَّمَا عَنْ
نِتَاجِكَ الْفَنِّيِّ فَحَسَبَ، وَهُوَ مُمْتَعٌ جَدًّا، بِالْمُنَاسَبَةِ. لَا
تَبْدُو مُسْتَقِرًّا عَلَى أَيِّ أَسْلُوبٍ بِعَيْنِهِ.“

لَقَدْ جَاءَ رُومَانَ لِيَسْتَعْلِمَ عَنْ غَرِيْسَ، لَا لِتَحَدِّثَ
عَنْ نَفْسِهِ.

رَمَقَتْهُ غَرِيْسَ بِنِظْرَةٍ تَعَاطُفٍ. ”خُذِي شَيْئًا مِنْ
الْكَاتُو، مِيرِنْدَا“. وَنَاوَلَتْهَا شَرِيحَةً تُخِينَةُ.

أَيُّ شَيْءٍ لِيُوقِفِ الْأَسْئَلَةَ. ”لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ كَثِيرٍ آخَرَ
يُقَالُ“.

”أَنْتَ مُؤْمِنٌ؟“ وَتَلَقَّتْ مِيرِنْدَا حَمَلَقَتَهُ.

لَمْ يَفْهَمُ. ”مُؤْمِنٌ بِمَ؟“

”أَحْسَبِي ذَلِكَ نَفِيًّا“. بَيَّنَّتْ لَهُ ابْتِسَامَةً أَلِيْزَابِثَ
الْمُتَكَلِّفَةَ أَنَّهَا اسْتَمْتَعَتْ بِانْزِعَاجِهِ.

لَمْ تَبْدُ مِيرِنْدَا مَصْدُودَةً، وَلَكِنَّهَا وَفَّرَتْ عَلَيْهِ
اسْتِجْوَابًا إِذْ حَاوَلَتْ تَسْقُطُ آخِرِ أَخْبَارِ غَرِيْسَ. أَمَّا
زَالَتْ تَأْخُذُ دَرُوسًا لَيْلِيَّةً؟ كَيْفَ حَالُ صَمُوِيلَ؟ كَيْفَ
دَبَّرَتْ شُؤُونَهَا؟ أَجَابَتْ غَرِيْسَ بِعُمُومِيَّاتٍ وَأَعَادَتْ
الْتَّرَكِيْزَ عَلَى رُومَانَ. تَحَدَّثَتْ بِشَأْنِ نِتَاجِهِ الْفَنِّيِّ ثُمَّ
عَنِ الْمَعْرِضِ فِي صَالَةِ الْعَرِضِ فِي لَاجُونَا بِيْتَشَ.
”بِيَعَتْ جَمِيْعُ لُوحَاتِ رُومَانَ قَبْلَ انْتِهَاءِ الْمَسَاءِ“.

وَأَخْبَرَتْهُمَا عَنْ غُولْدَنَ وَعَنْ طَلَبِ جِدَارِيَّةٍ تُمَثِّلُ تَارِيخَ

المنطقة، ولكنها لم تعترف بأنهما لم يكلفا أنفسهما حتى المرور بالسيارة عبر المكان. كانت تتكلم بتخبُّط وتوتُّر، وقد لاحظتِ المرأتان ذلك.

”كم يومًا مضى وأنثما على الطريق؟“

”غادزنا صباح الثلاثاء.“

لما تبادلَت المرأتان نظرةً، قرَّرَ رومان أن يُنقِذَها من أسئلةٍ إضافية. ”اصطحبْتُها إلى مزرعة ماسترسن حيثُ احتُجِزْتُ ثلاثَ سنين. المالكان صديقان وثيقان لي“. وجعلَ ذلك المرأتين تنسيان كلَّ شيءٍ عن غريس وأية خطايا مُمكنة رُبما أُغويت بارتكابها على الطريق.

كرَّرت ميرندا بعينين واسعتين: ”احتُجِزْتُ؟“

ما كان موقعٌ غوغل ليتضمَّن تلك المعلومة.

”بسبب رَسْمِي رُسومَ غرافيتي.“

تأمَلتُه أليزابث من فوقِ فِنجانِ شايبها. ”من الرِّسْمِ

غيرِ الشرعيِّ إلى الرِّسْمِ الشرعيِّ.“

”بعضُ النَّاسِ يعتقدون أنَّ الفنَّ ينبغي أن يكونَ

حُرًّا.“

وضعتُ فِنجانَ شايبها على صُحيفَتِها. ”ومع ذلك

سمحتُ لنفسك بأن تصيرَ رأسماليًّا.“

وقفتُ غريس، شاحِبَةً ومُتوتِّرة، وجمَعَتِ صُحونَ

التحلية. أرادَ رومان أن يأخذها من غريس ويرمي

كلَّ شيءٍ في حِضنِ أليزابث وُكِر. ابتسمت أليزابث

ابْتِسَامَةً طَفِيفَةً. ”اقْعُدِي، غَرِيسُ“. وَقَدْ تَكَلَّمْتُ
بِلُطْفِ هَذِهِ الْمَرَّةِ. ثُمَّ وَقَفْتُ وَأَخَذَتِ الصِّينِيَّةُ. ”كُلُّ
شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ“. وَلَمَّا قَعَدَتِ غَرِيسُ، رَأَى رُومَانُ
ارْتِبَاكًا، ثُمَّ دُمُوعًا قَبْلَمَا اسْتَعَادَتِ السَّيْطَرَةَ.



شَاهَدَتِ غَرِيسُ رُومَانُ يَزْدَادُ نَرْفِزَةً إِذْ تَحَدَّثَتْ مِيرِنْدَا
بِشَأْنِ الْكَنِيسَةِ وَالْإِيمَانِ، وَكَمْ عَنِيَا لَغَرِيسُ دَائِمًا فِي
أَثْنَاءِ نَشَائِطِهَا. ”حَفِظْتِ آيَاتٍ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ تَلْمِيزٍ فِي
صَفِّي“.

قَالَتِ الْخَالَةُ أَلِيزَابْثُ بَرِيقَةً: ”أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ
التَّعَامُلَ مَعَ مِيرِنْدَا. تَعَالَى مَعِي. أُرِيدُ أَنْ أُرِيكَ بَعْضَ
التَّغْيِيرَاتِ الَّتِي أَجْرَيْتُهَا فِي الْحَدِيقَةِ مُنْذُ جِئْتُ إِلَى
هُنَا آخِرَ مَرَّةٍ“.

شَدَّدَتِ غَرِيسُ عَزِيمَتَهَا لِأَجْلِ الْأَسْئَلَةِ الْحَتْمِيَّةِ عَنِ
صَمُوبِيلِ وَعَمَّا سَتَفَعَلَهُ بِشَأْنِ الْمُسْتَقْبَلِ. وَسَارَتَا مَعًا
فِي صَمْتٍ مُتَوَثِّرٍ.

تَنَهَّدَتِ خَالَتُهَا. ”أَيْرُوقُ الْعَمَلِ عِنْدَ هَذَا الرَّجُلِ؟“

”نَعَمْ، أَكْثَرَ مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ“.

التَفَتَتْ الْخَالَةُ أَلِيزَابْثُ نَاطِرَةً إِلَى الْاِثْنَيْنِ
الْجَالِسَيْنِ تَحْتَ التَّعْرِيشَةِ. ”حَسَنًا، مِنْ دَوَاعِي الشُّكْرِ
أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَ پَاتْرِيكِ. لَقَدْ رَأَيْتُ عِبْرَةً أَوَّلَ مَرَّةٍ قَابِلَتُهُ.
هَذَا الرَّجُلُ لَا تَسْهُلُ قِرَاءَتُهُ كَثِيرًا. إِنَّهُ لَا يَحِبُّ التَّكَلَّمَ

عن نفسه، وما قاله فعلاً لم يكن شيئاً ما ليَجعلَ نفسه يبدو صالحاً“.

”لا أعتقد أن رومان يُبالي بما يعتقدُه النَّاسُ“.

”كانت فكرته أن تُعزِّجا إلى ههنا، ألم تكن؟“

”لم أعتقد أنك تُريدين أن تريني. لقد أخبرتني برأيك في وضعي“.

”أتيح لي وقتٌ لِأفكّرَ بمزيدٍ من الصِّفاء. ليس أنني قد غيرتُ رأيي بشأنِ أشياءٍ مُعيَّنة“.

أشاحت غريس بنظرِها. ”أنا أفهم. صدِّقيني“. أحياناً كانت تشعُرُ بِالخِزيِ غامراً تقريباً، إلى أن تحملَ ابنتها. وفاجأها أن تُحسَّ لمسةَ خالتيها الخفيفةَ على ذراعها.

”ما كان لي الحقُّ بأن أدينك أو أقولَ الأمورَ التي فعلتها، غريس“.

امتلات عينا غريس بِدموعٍ عاجلة. كان ذلك أقربَ كلامٍ إلى الاعتذار تلقته من خالتيها يوماً.

بدت الخالة أليزابث مَعنيَّة. ”كيفَ أحوالك؟“

”لم أتخذ قراراً بعد. أعرفُ ما أريدُه، ولكنني لا أعرفُ هل هو الأفضل“. وهزَّت رأسها، غيرَ قَادِرَةٍ على قولِ المزيد.

”أنتِ وأنا نحتاجُ لأنْ نتحدَّثَ بشأنِ عائلتنا، غريس“. بدت الخالة أليزابث رازحةً تحت ثقلِ

الماضي، وقد عرفت غريس السَّبب. لم تُرد أن تسمع ما قد سمعته بالصدفة أصلاً.

أشاحت غريس بنظرها. ”الحديقة جميلة“.

”ما برح يُراقبنا، وأنتِ تعلمين“.

التفتت غريس ناظرةً إلى رومان. ”رُبَّما يُريدُ أن يذهب“.

قصفت الخالة أليزابث بضعة براعم مَيْتة. ”ما برحتُ حذرةً طولَ عمري، غريس، رُبَّما حذرةً فوق الحدِّ“. ورمت البتلات المَيْتة في الحديقة.

”كنتِ على حقٍّ بشأنِ پاتريك. حاولتِ أن تُحذريني. لم أريدُ أن أصغي“.

”نعم، كنتِ على حقٍّ، ولكن ذلك لا يعني أنك لا تستطيعين بتاتاً أن تثقي بقلبك من جديد“. وأومات برأسها نحو رومان. ”يُريدُ أن يعرفَ المزيدَ عنك. أنتِ على أرضِ أرسخ الآن. تعرفين كم يُمكن أن يكونَ القلبُ خداعاً“. ثمَّ توجَّهت رُجوعاً نحو الفناء المرصوف. ”لا تتواري وثعاقبي نفسك ما بقي لك من حياتك. ليست تلكَ طريقةً صحيحةً للعيشة“.



راقب رومان غريس فيما هو مُصغٍ إلى ميرندا. تكلمت المرأة عن ”الرَّبِّ“ كما لو أنَّ الله كان صديقاً وكان جالساً معها في الحديقة الآن تماماً. يجبُ أن

يكونَ هذا مصدرَ غَسَلَ دِمَاحِ غَريس. بدتِ غَريس مطمئنَّةً أكثرَ لَمَّا انضمتَ إليه تحتَ التَّعريشة. مَهما قالتَ خالَتُها، بدا أَنه بددَ التَّوثر. علِمَ أَنه لم يكن سيكتشفُ أيَّ شيءٍ وهو مُتسكِّعٌ حولَ هذا البيت، وقد أزعجته مِيرندا سِپنسر بحديثها بشأنِ الرَّبِّ يسوع. ولَمَّا وقف، علِمَتِ النِّسوةُ الثَّلاث أَنه يهَمُّ بالمُغادرة مع غَريس.

رافقتَه أليزابث وُكر عبَرَ المنزل، فيما تمهَّلت مِيرندا وغَريس في اثبَاعِهما. ”يسرُّني أَنك عرَّجت عليَّ، رومان.“

”صحيح؟“ لم يُصدِّق ذلكَ ثانيةً واحدة.

”كنتُ مُحبَّةً للاستطلاعِ حيالكَ كما أنتَ مُحبٌّ للاستطلاعِ حيالي.“

لم يكتشفِ الكثيرَ عن أيِّ شيء. ”إذا كان لي أن أحمِّن، أقولُ إنني لم ألقَ استِحسانَكَ.“

”لم تكن تطلبُه، أكنتُ؟ أنتَ هنا لِثدَّقِ في حياة ابنةِ أختي.“

لم يشعُر بِمِيلٍ إلى التَّشاحنِ معها. ”لقد أبلِيتُ حسنًا في تربيَتِكَ لها.“

”ما كان لي خيارٌ كثير، وليس لي فضل. لدى غَريس جِيناتُ أمِّها.“ تعانقتِ غَريس ومِيرندا في رواقِ المدخل. خفَّضت أليزابث صوتها. ”إذا أذيت ابنةَ أختي، أقسمُ إنني سأطارِدُكَ كحيوانٍ مسعور

وَأَنْتَزِعْ قَلْبَكَ بِمِلْعَقَةٍ كَلِيلَةَ“.

أطلق ضحكة رقيقة. ”هل تعلمين شيئًا، مز وكر؟
تروقيني أفضل كثيرًا جدًّا من أجل قولك ذلك. كنت
قد بدأت أتساءل هل تُبالين فعلاً“.

”لقد لقيت ما يكفي من الأذى بمعاملة
المتعجرفين لها“.

”ليس من قبلي“.

”ليس حتى الآن، على كلِّ حال“.

الفصل ٢٥

خَلَعَتْ غَرِيسَ كَنْزَتِهَا وَطَوَّتْهَا، وَدَسَّتْهَا بِتَرْتِيبٍ خَلْفَ مَقْعَدِهَا. ”بَدَأَ أَنْكَ تَأَلَّفْتَ مَعَ خَالَتِي“.

”لَيْسَتْ مُفْعَمَةٌ بِالْحَيَوِيَّةِ وَالْحُنُوِّ وَالْحَمَاسَةِ تَمَامًا. زَادَ سُرْعَةً عَلَى الطَّرِيقِ الحُرِّ، وَسَارَ مُتَعَرِّجًا بَيْنَ السَّيَّارَاتِ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَلَى الْمَجَازِ السَّرِيعِ. ”مَعَ أَنَّ مِسزَ سِپِنَسَرَ كَانَتْ مُفْرِطَةً الْحَمَاسَةِ“.

”كَانَتْ كَأُمَّ ثَانِيَةً لِي. مَا سَبِيلُهَا إِلَّا أَنْ تُحِبَّ النَّاسَ. إِذَا احْتَجَّتْ إِلَى أُمُومَةٍ، كَانَتْ الْخَالَةُ أَلِيْزَابَثُ تَتَّصِلُ بِهَا. مَا كَانَتْ خَالَتِي لِتُطِيقَ قَلْقَ الْمُرَاهِقَةِ وَالثَّقَلَبِ الْهَرْمُونِيِّ“.

”قَلْقَ الْمُرَاهِقَةِ؟“ رَمَقَهَا رُومَانُ بِنِظْرَةٍ تَهْرِيجٍ. ”كَيْفَ بَدَأَ ذَلِكَ عَلَيْكَ؟“

”فِي الْخَفَاءِ. لَمْ يَكُنْ عِنْدِي وَقْتُ لِلْعَوَاطِفِ. كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَبْقِيَ عِلَامَاتِي عَالِيَةً لِأَفُوزَ بِمِنْحَةٍ دِرَاسِيَّةٍ، وَأَتَوَلَّى وَظِيفَةً مَا لِيَتَسَّنَى لِي أَنْ أُدْخِرَ لِأَجْلِ نَفَقَاتِ

المعيشة“.

”ألم تُقدِّمِ لِكِ أَيْةَ مُسَاعَدَةٍ؟ بَدَتِ كَأَنَّهَا كَانَتْ مَيْسُورَةً“.

”مَا طَلَبْتُ قَطُّ“. عَلِمْتُ أَنَّ الْجَوَابَ سَيَكُونُ لَا. ”أَعْطَتْنِي مَسَكِينًا. وَكَانَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَادَتْ حَقًّا أَنْ تَقُومَ بِهِ“.

”مَاذَا عَنِ الْحُبِّ؟ هَلْ كَانَتْ قَادِرَةً؟“

”رُبَّمَا كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَفْحَصَ حَيَاتَكَ الْخَاصَّةَ قَبْلَ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى خَالَتِي“. أَيُّ حَقٍّ حَازَ لِيَكُونَ نَاقِدًا؟ لَقَدْ قَاطَعَ تَشَتَّ وَسُوزَانَ سِنَوَاتٍ كَثِيرَةً. وَكَانَ جَاسِپِرَ صَدِيقَهُ الْحَقِيقِيَّ الْوَحِيدَ، فَقَطَّ لِأَنَّ جَاسِپِرَ بَدَلَ كُلِّ جَهْدٍ. ”أَنْتَ لَا تَعْرِفُهَا“.

لَمْ يَقُلْ أَيُّ شَيْءٍ وَقْتًا طَوِيلًا حَتَّى شَعُرَتْ بِالْخَجَلِ. لَمْ تُرِدْ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ، وَهِيَ هُنَا قَائِمَةٌ بِذَلِكَ. ”أَنَا آسَفَةٌ“.

”عَلَامَةٌ؟“ كَانَتْ لَهْجَتُهُ رَقِيقَةً. ”أَنْتِ عَلَى حَقٍّ“.

”لَمْ تَكُنْ حَيَاتُهَا سَهْلَةً. غَادَرَتْ مَمْفِيسَ لِكِي تَهْرَبُ، ثُمَّ جُرَّتْ رُجُوعًا إِلَيْهَا لَمَّا...“ أَمْسَكَتْ لِسَانَهَا. فَمَا كَانَتْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ الْمَزِيدَ دُونَ أَنْ تَأْتِيَ عَلَى ذِكْرِ مَا لَمْ تُرِدْ أَنْ تَتَذَكَّرَهُ.

تَمَنَّتْ لَوْ كَانَ لَدَيْهَا وَقْتُ لِإِتْمَامِ مُقَرَّرِهَا فِي عِلْمِ النَّفْسِ، وَرُبَّمَا لِأَخْذِ مُقَرَّرَاتٍ أُخْرَى فِيهِ. وَقَدْ كَانَتْ جَمِيعُ الْمُقَرَّرَاتِ الَّتِي خَلَبَتْ لِبَّهَا ذَاتَ صِلَةٍ بِالسُّلُوكِ

البشريّ. ما الذي جعلَ أباهما ينهار؟ لماذا بقيت أمّها في علاقةٍ مُتعلّفة؟ هل كانت هي ابنة أمّها، كما اعتقدتِ الخالة أليزابث، مُعرّضةً لارتكابِ الأغلطِ نفسها؟ أكان عليها أن تُكرّرَ الأنماطَ ذاتها؟ لماذا كان سهلاً على الخالة أليزابث أن تقرّأ خُلقَ باتريك، ومُستحيلاً عليها هي أن تُبصر؟ وإذا كان في وُسع الخالة أليزابث أن ترى النَّاسَ على حقيقتهم، فأيّ أمرٍ رهيبٍ رأت في غريس بحيثُ لم تتمكنَ قطُّ من أن تحبّها، حتّى كابنةٍ أخت؟

أسئلةٌ كثيرة. عَقْدٌ من سِنِي البَحْثِ عن أجوبةٍ ومُحاوَلَةِ اتِّخاِذِ قَراراتٍ صائِبَةٍ.

”لَمَّا ماذا؟“ بدا رومان مُنزعِجًا. ”أكملي ما كُنْتِ ستقولينه“.

خفق قلبُها بشِدَّة. لم تُرد أن تفتحَ صُندوقَ پاندورا مَلاَنًا بِكواييسِ الطُّفولةِ.

لانت سيماء رومان. ”مهما تُخبريني به يبق لديّ. من سأخبرُ به؟“

”قد تنشره في وسائلِ التّواصلِ الاجتماعيّ“.

أملت أن الاستخفافَ بالأمر سيُنهي المُحادثة.

”أريدُ أن أعرفَ المزيدَ عنك، غريس. أريدُ أن أعرفَ ما يجعلُك تنطقين. نحنُ نحاولُ أن نكونَ صديقين. هل تذكّرين؟“

إذا أرادت أن تعرفه على مُستوى أعمق، فلا بُدَّ أن

تَضَطَّرَ إِلَى الْمَغَامِرَةِ. هَلْ كَانَتْ تَمَلِكُ الشَّجَاعَةَ كِي
تَفْتَحَ الْبَابَ إِلَى دَاخِلِ الظُّلْمَةِ الْقَدِيمَةِ، مَكَانِ
الْكَوَابِيسِ ذَلِكَ الْمُرْوَعِ؟

وَافْتَهَا الْهَمْسَةُ الرَّقِيقَةُ: قُولِي لَهُ.

زَفَرَتْ نَفْسَهَا بِرِقَّةٍ. لَقَدْ عَرَفَتْ ذَلِكَ الصَّوْتِ الرَّقِيقِ
الْهَادِيَّ. لَمْ تَفْهَمْ لِمَاذَا أَرَادَ لَهَا الصَّوْتُ الْإِلَهِيُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ،
وَلَكِنَّهَا أَطَاعَتْ.

”الْخَالَةُ أَلِيزَابْثُ كَرِهَتْ أَبِي. لَمْ تَقُلْ لِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ
بُعِيدَ مَجِيئِي لِلْإِقَامَةِ فِي بَيْتِهَا، سَمِعْتُ مُصَادِفَةً
حَدِيثًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ مِيرِنْدَا. كَانَتْ أُمِّي أُخْتِ الْخَالَةِ
أَلِيزَابْثِ الْوَحِيدَةِ وَأَصْغَرَ مِنْهَا بِسِتِّ سِنِينَ. وَيَبْدُو
أَنَّهَا كَانَتْ مُتْقَارِبَتَيْنِ جَدًّا حَتَّى بَدَأَتْ أُمِّي تُوَاعِدُ
أَبِي. حَذَرَتْ الْخَالَةُ أَلِيزَابْثَ أُمِّي مِنَ الْارْتِبَاطِ بِهِ.
قَالَتْ إِنَّهُ كَانَ مِثْلَ أَبِيهِمَا تَمَامًا. وَلَكِنْ أُمِّي أَبَتْ أَنْ
تُصْغِيَ. وَقَدْ كَانَتْ حُبْلَى بِبِي، بِي أَنَا. ثُمَّ فَرَّتْ مَعَهُ
لِيَتَزَوَّجَا. قَالَتْ الْخَالَةُ أَلِيزَابْثُ لِمِيرِنْدَا إِنَّهَا عَلِمَتْ مَا
سَيَحْدُثُ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَمَّلَ الْمُشَاهَدَةَ. غَادَرَتْ
مَمْفِيسَ قَبْلَمَا وُلِدْتُ وَلَمْ أَلْتَقِ خَالَتِي قَطُّ حَتَّى يَوْمَ
جَاءَتْ لِأَخْذِي. اتَّصَلَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً. قَالَ أَبِي لِأُمِّي إِنَّهَا
أَحَبَّتْ أُخْتَهَا أَكْثَرَ مِنْهُ. كَانَتْ تَلِكِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَرَاهُ
يَضْرِبُهَا“.

تَنْقَلَتْ يَدَا رُومَانَ عَلَى عَجَلَةٍ الْقِيَادَةِ. ”هَلْ ضَرَبَكَ
يَوْمًا؟“

أغمضت عينيها. "كسرت ذراعي مرّة. بكى وقال إنه آسف. أخذتني أمي إلى الطبيب. قالت لي على الطريق إنه لم يقصد أن يؤذيني. لم يعرف قوته. لقد لف الطبيب ذراعها في جبيرة وسأل عما جرى. وكانت أمها قد علمتها أن تقول إنها وقعت عن شجرة. وقد فسّر ذلك الرضوض الأخرى أيضًا.

"لقد قتلها، أما قتلها؟"

سماعه يقول ذلك بصوت عالٍ جعل الكرب القديم يبرز. "خالتي تعتقد هذا أيضًا. سمعتها مُصادفةً تقول لميرندا إن مُحقق الوفيات ذكر في تقريره أن الموت كان غير مُتعمّد. وقد سقطت أمي في المطبخ وكسرت عنقها. لا أعرف أيّ شيءٍ أكثر من ذلك."

"أين كنتِ لما حدث ذلك؟"

شبكت يديها لئلا تمنعهما من الارتجاف. "كانت أمي تُراقب دائمًا النافذة الأمامية بانتظار أبي. فإذا جاء إلى البيت والغضبُ بادٍ عليه، كانت تقول لي إننا سنلعبُ الغُميضة مرّةً جديدةً. وكنتُ أختبئُ حتى تأتي وتجدني. كنتُ مُختبئةً في مؤخر الخزانة في غرفة نومهما. لم أسمع ما قاله، ولكن أمي كانت تتكلمُ بسرعةٍ زائدة. كانت تبكي وتقول: رجاءً أصغ، رجاءً أصغ..."

أغمضت عينيها. "غطيتُ أذني. ساد السكونُ بضغٍ دقائق، وأصغيتُ آملةً أن تأتي أمي. ولكن كان أبي

يتكلم. كان صوته مُخْتَلِفًا. ظلَّ يقول: لين، لين...بدا مُرْتَعِبًا. ثُمَّ بدأ يفتح الأبواب والخزائن. ظننتُ أنه كان يُفْتِش عَنِّي. كان يشتمُّ ويبكي. استطعتُ أن أسمعَهُ يرمي الأشياء في أنحاء غُرْفَةِ نومِهما. ثُمَّ زلَّقَ بابَ الخزانةِ فانفتح. أنزلَ عُلْبًا عن الرَّفِّ الأعلى ووجدَ عُلْبَةً خشبيَّةً صغيرة. ولَمَّا فتحها، أخرجَ مُسدِّسًا. لا بُدَّ أنِّي أحدثتُ صوتًا ما، لأنَّهُ أزعجَ الثُّيابَ ورآني في الزَّاوية الخلفيَّة.“

ساق رومان وعيناها إلى الأمام مباشرة. ”هل قال أيُّ شيء؟“

مسحت دموعها بيدي مُرتجفة. ”لا، بل وقف هناك مُحدِّقًا إليّ فقط.“ تهدج صوتها وأشاحت وجهها لحظةً. وإذ أغمضت عينيها، كادت تتمكنُ من رؤية وجه أبيها. ”بعد دقيقة، دفع الثُّياب على طول القضيب المعدني فلم أعد أستطيعُ أن أراه. ثُمَّ أغلق بابَ الخزانة. وسمعته يُغادرُ الغرفة ويُغلق البابَ وراءه. كنتُ خائفةً أن يرجع، ولكن بعد ذلك بدقائق قليلة سمعتُ طلقة النَّار.“

التفتت غريس ناظرةً إلى رومان، مُتسائلةً عمَّا كان يُفكِّرُ فيه. وأطلقت ضحكةً كئيبةً رقيقة. ”أنا واثقة بأنك نادِمٌ لأنك سألت.“

”لا، لستُ نادِمًا. ولكن ليست هذه هي الحياة التي تصوِّرتُ أنك عشتها.“

”آخرونَ اجتازوا ما هو أسوأ“. وبُي راي دين واحد منهم.

ارتسَمَت على فَمِه اِبْتِسَامَةٌ ساخِرة. ”افترضتُ أنّك نشأت في عائلةٍ حسنة في حيِّ طبقةٍ متوسطة، وكان لك أصدقاءٌ كثيرون، وذهبتِ إلى الكنيسة كلَّ يومٍ أحد...“ ثمَّ كَشَرَ وتَفَوَّهَ بِلَعْنَةٍ. ”أَكُنْتِ أنتِ من وجدَه؟ أباك؟“

”لا، اقتحمت فرقةً أمنيّةً خاصّةً البابَ الأماميَّ. وجدَه شُرطيّ. وَضَعَ معطفَ أمي عليّ وغطّى رأسي قبلما أخرجني. استبقّني جارةٌ عندها حتّى جاءت خدماتُ حمايةِ الأولاد. وَضَعَتْ في عَهْدَةٍ تنشئةً حتّى وصلتِ خالتي“. أرادت لِرومان أن يفهم. ”كان ذلك قاسيًّا على الخالة أليزابث، رومان. كانت قد فقدت أختها تَوًّا. رُبّما لو كنتُ أشبهُ أمي... من النكِدِ أنّها كلّما نظرت إليّ...“

”لم تكن تلك غلطتك، غريس.“

”بطريقةٍ ما، كانت. ما كانت أمي لتتزوَّجَ من أبي لو لم تحبُّ بي. لَمَّا تزوّجتُ پاتريك، قالتِ الخالة أليزابث إنني كنتُ مثلَ أمي تمامًا“. ولم تقصِدَ أن تقولَ ذلك.

نظَرَ رومان إليها. ”كنتُ حُبلى، وكان هو مُعتسِفًا.“

”لا“. أَحَسَّتِ الحرارةَ تتدفَّقُ إلى خديها. ”لم نتخطَّ الحُدودَ في الثَّانويّة. ثمَّ التقينا مُصادفةً في

جامعة كاليفورنيا بِلوس أنجلِيس، وبدأنا ندرُس معًا.
وهو، حسنًا... نحنُ...“ وأشاحت بنظرِها مُرتبِكةً.
”أقمثما عَلاقةً“.

يا لها من طَريقةٍ فِظةٍ للتعبير عن الأمر. ”أردتُ أن
أجعلَ الأمورَ صحيحةً. وأرادَ پاتريك أن يجعلَ الأمورَ
سهلةً“.

”وصمويل؟“

”جاء ابني في ما بعد“.

”كم بقيتُما متزوَّجين؟“

”مُدَّةٌ كافيةٌ لإتمامِ پاتريكِ دراسته في الجامعة“.
وهزَّت كتفِها. ”بعدَ ذلكَ بيضعةَ أشهرٍ، رجعتُ إلى
البيت من الشُّغلِ باكراً فوجدتهُ في السرير مع امرأةٍ
أخرى. كان أبوها يملكُ الجِمنازيوم، حيث كان پاتريك
يشتغلُ“.

أجفلَ رومان. ”لا بُدَّ أنَّ ذلكَ آلمك“.

”ليس بِقدرِ ما كان ينبغي. أعتقدُ أنني علمتُ لماذا
تزوَّجَ بي في البداية. إنَّما لم أريدُ أن أواجهَ الحقيقةَ.
لقد احتاجَ پاتريك إليَّ ليصلَ إلى حيثُ أرادَ أن
يمضي. ما أحببني قطُّ. كنتُ بائسةً إلى حدِّ بعيدٍ،
عندما أفكَّرُ في ذلكَ“.

لم تُردِ أن تمضي في التحدُّثِ
بشأنِ حياتِها. لم تُردِ أن تُحشِرَ بأيِّ أسئلةٍ أخرى قد
تنشأ، لاسيَّما عن صمويل. ”دورك في الكلام“.

”كما أشرتِ قبلَ حينٍ، كان لديَّ آل ماسترسن

وجاسپر. لقد أحبوني.“

”ما زالوا يحبونك.“

”لا فكرة لديّ عن السبب. لم أسهّل الأمر.“

لم يُسهّل أيّ أمر. ”كان الله مُعْتَنِيًا بك“. لقد اعتنى الله بها هي أيضًا، حتّى عندما لم تُدرك ذلك.

”ها هو الموضوعُ يبرزُ من جديد“. ابتسم لها رومان نصف ابتسامة. ”موضوعُ الله، تحدّثتِ ميرندا عن يسوع كما تتحدّثين أنتِ. كما لو كان صديقًا لصيقًا“.

كان مُمكنًا أن تدعّ غريس الأمرَ يمرُّ، ولكنّ همّ ما فكّرَ رومان فيه، الآن أكثرَ من أيّة مرّة. ”إنّ الرّبّ يسوع هو صديقُها الألق. وهو كذلك عندي. إنّما لم أكن تلميذة جيّدة جدًا“. يقينًا، لقد فاتها أن تُضيءَ بأيّ نورٍ لرومان أو ببي راي دين أو أيّا كان. إذا عرّفَ كاملَ قصّتها، فماذا يظنُّ فيها عندئذٍ؟

كانت ابتسامته مُتلطّفة. ”متى بدأتِ تؤمنين؟ في مدرسة الأحد؟ ألن تقولي أيّ شيء؟ وهُنا أنا اعتقدتُ أنّ المؤمنين بالمسيح كانوا دائمًا تواقين إلى هداية الآخرين“.

”كم واحدًا منهم تعرف؟“

”قابلتُ بعضهم. في النوادي“. وأضافتِ ابتسامته السّاخِرة الباقي.

نظرت خارج النّافذة وأغمضت عينيها.

”كلميني، غريس“.

تغيّرت طباعه بسرعة. ”أقبلت إلى الإيمان لما كنت في السابعة من العمر، بعدما نقلتني خالتي إلى فرسنو“.

”ذلك تقريبًا ما تصوّرتُه“.

عنت لهجته ضمناً أنه عرّف كل شيء، ولكنه لم يعرف قط أي شيء. أطبقت أسنانها بإحكام. كرهت لهجته التهكمية. ما برحا يتحدثان بأمور مهمة. من بدأ هذا الحديث، ولماذا؟ ”لم تتوخّ خالتي الهداية، على حدّ تعبيرك، وكنت قد ذهبت إلى مدرسة الأحد مرّات قليلة فحسب. كنت ما أزال أختبئ كل ليلة لما...“ اسكتني فحسب. وليفكّر مهما أراد أن يفكّر.

”لما ماذا؟“

أخبريه، يا محبوبه. الآن، ما دام يوجد وقت.

وقت؟ لم تفهم. هي ورومان كان لديهما وقت كثير، أما كان؟ فهي تشتغل عنده. ولكن شيئاً ما دفعها لأن تُطيع الأمر. ”أمنت“. تلك كانت الحقيقة. أو جزءاً منها على كل حال. وما كانت لتقول المزيد إلا إذا سأل.

”كذلك فحسب، أمنت. كيف؟ لماذا؟ لتسري

خالتي؟“

”لم يسرّ ذلك خالتي!“ ورفعت يديها. ”لتتحدّث

بأمر ما سوى هذا“.

يا محبوبة، أطيعيني. ثقي بي.

التفت رومان ناظرًا إليها. "أريد أن أعرف".
"ستضحك".

ألح رومان. "لست ضاحكًا الآن، أنا ضاحك؟
اصحطبتك خالتك إلى الكنيسة، ولكنها لم ترد لك أن
تصيري مؤمنةً بالمسيح؟ ماذا يفوثنني؟"

أطبقت يديها بإحكام. يا رب، رجاءً، دعه يؤمن.
"أينما كنت، نمت في خزانة ملابس. في البيت، ولما
كنت في عهد تنشئة، وفي منزل خالتي. كان ذلك
هو المكان الوحيد الذي فيه شعرت بالأمان". لم يقل
أي شيء. "كنت خائفة من خالتي، وخائفة من
الكوابيس التي وافت دائمًا. أردت أمي. كانت الخالة
أليزابث غاضبة كل حين، لا كما كان أبي، ولكنني
أحسست ذلك حتى عندما حاولت إخفاءه".
وأغمضت عينيها بإحكام. "كنت خائفة من كل
شيء".

زفرت نفسها برقة، مستجمعة الشجاعة لإخباره
بالباقى. "ذات ليلة، رأيت نورًا تحت باب الخزانة.
كان مختلفًا. لا أستطيع أن أفسره، ولكنني كنت
محببة للاستطلاع، لا خائفة. خرجت ورأيت رجلًا
واقفًا يقرب سريري. لم يبدو شبيهًا بأي شخص رأيت
يومًا من قبل. كان أكبر من أبي، وقد أحاط به النور
من كل جهة. تبدد كل الخوف الذي كنت شاعرة به.

صعدتُ إلى سريري، وجلستُ هناك، وتحدثتُ إليه. أخبرته بكلِّ ما حدث. قال لي إنَّه لا ينبغي لي أن أخاف بعدَ الآن، وأنا صدَّقته. وأطلقتُ تنهدةً راعدةً. ”لم أنم قطُّ في الخزانة مرَّةً أخرى“.

”أنتِ تقولين إنَّ ملاكًا جاء إليك“.

لم يكن على غريس أن تتساءل هل كان شاكا. فقد كان ذلك مكتوبًا على وجهه كلِّه. حسنًا، يا ربُّ، لقد فعلتُ ما قلته لي. إنَّه لك بجمليته. ونظرتُ خارج النَّافذة.

”ماذا قالت خالتك لما أخبرتها؟“

”لم أخبرها. لم أخبر أحدًا عن الرَّجل حتَّى عيد الميلاد، لما تحدثت ميّرندا بشأن الملائكة في صفِّي في مدرسة الأُحد. عرضتُ صورًا، وقلتُ أنا إنَّ الملائكة ليسوا بناتٍ، وليس لهم أجنحة، وإنَّ ملاكي كان كبيرًا وقويًا ومثوَّهًا. دون شكِّ، ضحك عليَّ باقي الأُولاد. تمامًا كما تضحك أنتِ“.

”لستُ أضحك“. بدا غاضبًا، ولكن ما لبثت أن غضبتُ هي.

”سمعتُ خالتي بذلك في ما بعد. استشاطت غضبًا. قالت لي أن أكفَّ عن إطلاق الأكاذيب لكي أحظى بالاهتمام. فلم أذكره قطُّ ثانية“.

”حتَّى الآن“. لانت قسمائه، فزفرَ نفسه وساق يضع دقائق، مُستغرِّقًا في التَّفكير. ”بالنَّظر إلى ما

خُضِّتِهِ، لَيْسَ مُفَاجِئًا أَنَّهُ كَانَ لِكَ صَدِيقٌ وَهَمِيٌّ“.

أَرَأَيْتَ، يَا رَبُّ؟ ”لَمْ يَكُنْ وَهَمِيًّا، رُومَانًا. لَا أَتَوَقَّعُ مِنْكَ أَنْ تُصَدِّقَ الْأَمْرَ، وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ حَقِيقِيًّا وَكُلُّ مَا قَالَهُ كَانَ صَحِيحًا“.

”مَاذَا قَالَ؟“

”قَالَ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّنِي. صَدَّقْتُهُ. وَمَا زِلْتُ أَصَدِّقُ. قَالَ لِي إِنَّنِي لَنْ أَكُونَ وَحْدِي بَتَانًا، وَصَدَّقْتُ ذَلِكَ أَيْضًا. مَا تَوَقَّفْتُ قَطُّ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، حَتَّىٰ عِنْدَمَا أَصْغَيْتُ إِلَىٰ أَنَاسٍ لَمْ يُؤْمِنُوا“. وَبِاتْرِيكَ وَاحِدًا مِنْهُمْ. لَمْ تُخْبِرْهُ قَطُّ عَنِ الْمَلَائِكَةِ. رَبِّمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَتَذَكَّرَ ذَلِكَ قَبْلَمَا صَبَّتَ ذِكْرَهَا الْأَثْمَنَ عَلَىٰ رُومَانَ قِيْلَاسْكُو-بِي رَايَ دِينَ. مَاذَا كَانَتْ رَاجِيَةً أَنْ يَحْضُلَ؟ هَلْ أَبَدِي يَوْمًا أَدْنَىٰ اهْتِمَامٍ بِالْأُمُورِ الرُّوحِيَّةِ؟

”أَمَا زَالَ يَأْتِي إِلَيْكَ؟“

تَأَمَّلْتُ غَرِيْسَ جَانِبِ وَجْهِ رُومَانَ قَبْلَمَا أَجَابَتْ. ”لَا. أَحْيَانًا أَتَمَنَّىٰ لَوْ يَأْتِي“.

”لَمَاذَا تَرَكْتَ حَسْبَمَا تَظُنُّينَ؟“

”تَسَاءَلْتُ عَنْ ذَلِكَ كَثِيرًا. أَظُنُّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّنِي لَمْ أُعِدِّ أَحْتَاجَ إِلَيْهِ. لَمَّا قَبِلْتُ يَسُوعَ الْمَسِيحَ مُخَلِّصًا لِي وَرَبًّا، جَاءَ الرُّوحُ الْقُدُسُ لِيَسْكُنَ فِيَّ. ذَلِكَ مَا عَنَاهُ الْمَلَائِكَةُ لَمَّا قَالَ إِنَّنِي لَنْ أَكُونَ وَحْدِي بَتَانًا. أَجِسُّ حِينَ يَتَكَلَّمُ اللَّهُ إِلَيَّ. لَيْسَ عَلَيَّ أَنْ أَرَىٰ مَلَكًَا. وَالْمُؤَسِّفُ أَنَّنِي مَا أَصْغَيْتُ دَائِمًا“. حَلَمْتُ بِمَلَائِكَةٍ بِضَعِ مَرَاتٍ

على مدى السنين القليلة الماضية. وذلك بعدما رحل
ياتريك، لَمَّا كانت حُبلى بِصمويل. كان صديقها فقط
يأتي ويجلس بجانبها ولا يقول أي شيء. وكان
حضوره عزاءً كافيًا. ولكن حين يطلع الفجر، كان
القلق يعود: الخوف من أن ترتكب غلطةً أخرى، غلطةً
كبرى.

هل كانت ترتكب غلطةً الآن، مُخبرةً هذا الرَّجُل
بأسرارها، سامحةً له أن يرى ما في داخلها؟ هل كانت
تأمل أن يُبادلها بالمثل؟

بدا رومان مُتضايقًا جدًّا، حتَّى شعرت يقينًا بأنّها
قد أخفقت. "ليس لديك أدنى فكرةً بشأن ما أتكلّم
عنه".

هزَّ كتفيه. "لقد ذهبتُ إلى القاتيكان وبعض أشهر
الكاتدرائيات في أوروبا. وقد رأيتُ أناسًا يؤمنون. ما
كنتُ أبحثُ عن الله. كنتُ هناك من أجل الفنِّ".

لم يتحدثا وقتًا طويلًا. تساءلت عمّا كان يُفكّر
فيه، ولكنها لم تسأله.

"كنتُ بحاجةٍ لأن تؤمني بأن شخصًا ما يهتمُّ".
كان يُحاول أن يُفسّر ما يتعدّر تفسيره. "شخص
ما يهتمُّ فعلاً، رومان".

تحركت يداهُ بِقلق على المقود. "خرجت أمي ذات
ليلة ولم ترجع قط. وضعتني خدمات حماية الأولاد
في عُهدة تنشئة. لنقل فحسب إنني لم ألتزم

البرنامج. ظَلَّكَ أَفْتَشُّ عَنْهَا حَتَّى عَمَدَ أَحَدَهُمْ أَحْيَرًا
إِلَى إِخْبَارِي بِأَنَّهَا مَاتَتْ“. وَابْتَسَمَ لَهَا ابْتِسَامَةً سَاخِرَةً.
”كَانَتْ بَغِيًّا كَاللَّوَاتِي دَافَعَتِ عَنْهُنَّ فِي بُودَايِ. مَاتَتْ
بِجُرْعَةٍ زَائِدَةٍ فِي الثَّلَاثَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ الْعُمُرِ. كُنْتُ
فِي السَّابِعَةِ لَمَّا اخْتَفَتْ. فِي وُسْعِكَ أَنْ تَسْتَنْتَجِي“.

حُبْلَى فِي سِنِّ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ، طِفْلٌ عَلَى ذِرَاعَيْهَا
فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ.

بَدَا رُومَانٌ بَاهِتًا، شِبْهَ شَاحِبٍ شُحُوبَ الْمَوْتَى.
وَتَلَفَّظَ دُونَ تَرْدٍ بِكَلِمَةٍ لَمْ يَقْلُهَا مِنْذُ أَوَّلِ يَوْمِ بَاشَرَتْ
فِيهِ الْعَقْلَ عِنْدَهُ. ”لَسْتُ أُدْرِي لِمَاذَا أَخْبَرْتُكَ بِذَلِكَ
كُلَّهُ“.

كَانَ فِي وُسْعِهَا أَنْ تَرْجُوَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَجْلِ
الْأَسْبَابِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي جَعَلَتْهَا تُطْلِعُهُ عَلَى أَسْرَارِهَا.

انْتَقَلَ إِلَى الْمَجَازِ السَّرِيعِ مِنْ جَدِيدٍ. ”أَيْنَ كَانَ اللَّهُ
فِي كُلِّ مَا اجْتَزْنَا فِيهِ أَنْتَ وَأَنَا، غَرِيسٌ؟ قُولِي لِي.
أَيْنَ كَانَ اللَّهُ لَمَّا كَانَ أَبُوكَ يَضْرِبُ أُمَّكَ حَتَّى الْمَوْتِ
ثُمَّ فَجَّرَ دِمَاغَهُ؟ أَيْنَ كَانَ اللَّهُ لَمَّا كَانَتْ أُمِّي تَبِيعُ
جَسَدَهَا لِإِبْقَاءِ سَقْفِ فَوْقَ رَأْسَيْنَا؟ اسْتَخْدَمَتْ
الْمُخَدَّرَاتِ لِتَشْعُرَ بِأَنَّهَا أَحْسَنُ حَالًا. رَبِّمَا حَاوَلْتَ أَنْ
تَنْسِيَ أَنَّ لَهَا وَلَدًا. أَيْنَ كَانَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ؟“

تَشَبَّثَتْ بِطَرْفِ مَقْعَدِهَا. هَلْ أَدْرَكَ بِأَيَّةِ سُرْعَةٍ زَائِدَةٍ
كَانَ يَسُوقُ؟ ”لَيْسَ لَدَيَّ أَجْوِبَةٌ. لَدَيَّ إِيمَانٌ“.

”أَنَا لَا أُوْمِنُ بِاللَّهِ“. وَقَدْ انضَوَتْ نَظْرَتُهُ عَلَى تَحَدُّ.

”إذا كان موجودًا، فهو ساديٌّ. إنه سيّد دُميَّة يضجّر من النَّاس ويرمبهم في القمامة. إنه...“ واستخدم كلماتٍ كان من شأنها أن تجعلَ غريس تشدُّ أذنيها، لو لم تسمعِ الألمَ الكامِنَ وراءها.

”إذا كانت جهنم موجودة، فهي ههنا على الأرض. والسَّماءُ الوحيدةُ التي نحصلُ عليها هي ما يُمكنك أن تصنعيه لِنفسك. هذه الحياةُ هي كلُّ ما عندنا، أحببنا ذلك أم كرهناه.“

سَمِعَا كِلَاهُمَا الصَّفارةَ في الوقتِ نفسِه. التفت رومان إلى مرآةِ الناظر الخلفيَّة وشتمَ من جديد. اقتربت سيارَةُ الشرطَةِ حتَّى صارت وراءهُما تمامًا، وأنوارها ومَاضة. أبطأ رومان وسارَ يمينًا حتَّى وصلَ إلى كَتِفِ الطَّريق. ثمَّ أسندَ رأسه على ظهر المقعد وأغمَضَ عينيَّه. ”تمامًا ما أحتاجُ إليه لِتتويج اليوم!“ ونقَّبَ عن محفَظته.

نقَرَ الشرطيُّ على النَّافذة. ”أنزلها رومان وناوَله دفترَ سيارته وإجازةَ سوقِه. انحنى الشرطيُّ. ”هل تعلمُ بأيةِ سرعةٍ كنتَ تسوق؟“ فوقَ مئةٍ وسبعةٍ وسبعين كيلومترًا!“ أخذَ الشرطيُّ الأوراقَ ورجَعَ إلى سيارَةِ الدَّوريَّة.

أمسك رومان المقودَ بِكِلتا يديَّه، وقد ابيضَّت مفاصلُ أصابعه. ورأت غريس النَّبضَ يخفقُ في عنقِه.

رجع الشرطي وناولهُ بطاقة المُخالفة. ”أبقِ
السُّرعة تحت مئة وخمسة كيلومترات، مستر
قيلاسكو“. وبقيت سيارَةُ الشرطَةِ وراءَهُما فيما رجَع
رومان إلى الطَّريقِ الحُرِّ من جديد.

لم يتكلم رومان مسافة ثمانية كيلومترات. ثمَّ
شغَلَ الرّاديو. ومضى أقلُّ من دقيقة قبل أن يُطفئه.

”طيب. لئنِه هذه المُحادثة ونفزعُ من الحديد
بشأن الله“. ورمقها بنظرةٍ كالِحَة، كما لو كان يُوشِكُ
أن يُبلِّغَ خبرًا سيِّئًا. ”قرأتُ مقدارًا لا بأس به من
الكتابِ المقدَّس، ذاك الذي نصَّحتني به. صحيحٌ أن
فيه بعضُ القصص العظيمة، أفضلُ ممَّا كان على
شاشة التِّلْفزيون تلك اللَّيلة. ولكنَّ ذلك هو كلُّ ما فيه،
غريس، مجموعةٌ من القصص وشيءٌ من التاريخ
مخلوطين معًا. والأمرُ نفسُه ينسحبُ على جميع
الأديان الأخرى في هذا العالم. ليس من إله. ليس من
شيطان. ليس من سماءٍ ولا جهنَّم. نحنُ وُلدنا. نحنُ
نبذلُ أفضلَ ما نستطيع. نحنُ نموت. انتهتِ اللُّعبة!“

اغزورقت عينا غريس. بدا رومان كأنَّه أرادَ للحياة
أن تكونَ سريعةً وقصيرةً.

الفصل ٢٦

غريس، في سنِّ السابعة

استيقظت غريسي من نومها صارخةً، إذ أمسكت بها الخالة أليزابث من ذراعها وأقامتها بخشونة وجفاء. "اسكُتي! أوقفي تلك الضجة الآن!" ثم أوقفت غريسي أمامها. وإذ انحنت، حدقت في وجهها. "عندك سريرٌ جيّدٌ بشكلٍ مُمتاز، وأنا أجِدُك في خزانة الملابس". بدت مُسَخطةً، شعرها مُشعث، ووجهها نظيفٌ من الماكياج.

"أنا آسفة". طأطأت غريسي رأسها وحدقت إلى طلاء أظفارِ قَدَمي الخالة أليزابث بلونه الأحمر، وساقِي ثياب النوم السَّاتانِ القَرنفليَّة.

"لستِ آسفة، وإلَّا فما كُنْتِ فعلتِ ذلكَ من جديد". تنهَّدتِ الخالة أليزابث. "انظري إليّ!" وصالبت ذراعَيْها، كما لو كانت تدفعُ عنها بُرودةَ اللَّيل. "لماذا، يا ثرى، كُنْتِ في الدَّاخلِ هناك؟" ثم ارتخت يداها، وهدأ صوتُها. "كُفِّي عن البكاء، غريس. لن أُؤذيك.

عُودي إلى السَّرير فحسب“. ودسَّت أطراف الأَغْطِيَّةِ
والبَطَّانِيَّاتِ تحت الفِرَاشِ بِأَحْكامٍ شَدِيدٍ حَتَّى لَمْ تَكُدْ
غَرِيسِي تَقْوِي عَلَى الحَرَكَةِ. ”أَغْمِضِي عَيْنَيْكَ
وَنَامِي“. ثُمَّ نَقَرَت كَبْسَةَ النُّورِ فَأَطْفَأَتْهُ وَهِيَ تُغَادِرُ
الغُرْفَةَ، مُغْلِقَةً البَابَ وَرَاءَهَا.

اسْتَلَقَتْ غَرِيسِي مُسْتَيْقِظَةً تَمَامًا حَتَّى سَمِعَتْ
بَابَ الخَالَةِ أَلِيزَابْثِ يَنْغَلِقُ، ثُمَّ غَادَرَتِ السَّرِيرَ مُتَلَوِّيةً،
فَتَأَبَّطَتْ وَسَادَتَهَا وَرَجَعَتْ إِلَى دَاخِلِ الخَزَانَةِ، مُغْلِقَةً
البَابَ بِهَدْوٍ خَلْفَهَا. اسْتِطَاعَتْ أَنْ تَتَنَفَّسَ مِنْ جَدِيدٍ.
شَعَرَتْ بِالأَمَانِ إِذْ كُنْكَتْ فِي الزَّاوِيَةِ الخَلْفِيَّةِ،
مُخْتَبِئَةً فِي الظَّلَامِ. وَتَمَنَّتْ لَوْ كَانَ مَعَهَا الدَّبْدُوبُ
الَّذِي أَعْطَتْهَا إِيَّاهُ مِيسز آرنولد، وَلَكِنَّ الخَالَةَ أَلِيزَابْثِ
تَخَلَّصَتْ مِنْهُ.



أَخَذَتِ الخَالَةُ أَلِيزَابْثِ غَرِيسِي إِلَى الكَنِيسَةِ وَسَجَّلَتْهَا
فِي مَدْرَسَةِ الأَحَدِ. لَمْ يُغَايِظْ أَحَدٌ غَرِيسِي أَوْ
يُضَايِقُهَا. اسْتَعْمَلَتْ مِيسز سِپِنْسِرَ لَوْحَ لِبَّادِ، وَتَحَدَّثَتْ
بِشَأْنِ مَحَبَّةِ الرَّبِّ يَسُوعَ لِلأَوْلَادِ. وَضَعَتْ شَكْلَ بِنْتِ
صَغِيرَةٍ إِلَى جَنْبِ يَسُوعِ. ظَلَّتْ غَرِيسِي تَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ
الشَّكْلِ اللَّبَّادِيِّ. كَانَ مِنْ عَادَةِ دَادِي أَنْ يَحْمِلَ غَرِيسِي
فِي حِضْنِهِ أَحْيَانًا وَيَسْأَلُهَا أَسْئَلَةً. ”مَاذَا فَعَلْتُمَا أَنْتِ
وَمَامِي اليَوْمَ؟ هَلْ كَلَّمْتِ مَامِي أَحَدًا؟ قُولِي لِي الحَقَّ،
حَبِيبَتِي“. وَكُلَّمَا فَرِغَ دَادِي مِنْ طَرِحِ الأَسْئَلَةِ، كَانَ

يقول: "فتاةٌ سالحةٌ"، ويَبوشُ خَدَّها، ويَطْلُبُ منها أن تذهبَ لِتَلعبَ.

هل يَحْمِلُها الرَّبُّ يسوعُ في حِضنه ويسألُها أسئلةً أيضًا؟ هل يُريدُ أن يَعْرِفَ كُلَّ شيءٍ فَعَلته الخالَةُ أليزابث؟ لم يَكُن لَدَيْها أدنى فِكْرَةٍ عَمَّا كانت خالِثُها تَفْعَلُه اليَوْمَ كُلُّه.

"غريس؟"

أجفَلتُ غريسِي، فرَكَّزَت على مِيزِ سِپِنسِر. "نعم، مَدام؟" وخَفَقَ قلبُها بِقُوَّة. كان مُفْتَرَضًا أن تَنْتَبِهَ إلى مُعَلِّمِتها في مَدْرَسَةِ الأَحد. من شَأْنِ الخالَةِ أليزابث أن تَسألَ مِيزِ سِپِنسِر هل كانت مُنْتَبِهَةً. والآن لم تَعْرِفَ حَتَّى ما قالته مِيزِ سِپِنسِر.

لأنت قَسَماتُ وجهِ مِيزِ سِپِنسِر بِابْتِسامَةٍ. "هل تَعْرِفينَ أَنَّ الرَّبَّ يسوعُ يُحِبُّكَ، غريس؟ تمامًا مِثْلَ تلكِ البِنْتِ الصَّغِيرَةِ الواقِفَةِ بِجانِبِهِ على لَوْحِ اللِّبَادِ". ثُمَّ وضَعَت على اللُّوحِ صُورَةً أُخْرَى. "هُوَ يُحِبُّ الصُّبِيانَ الصَّغارَ أيضًا". وَغَمَزَت بِعَيْنِها. "حَتَّى المُشاغِبِينَ مِثْلَ بَرِيانِ".

تباطأت دَقَّاتُ قلبِ غريسِي. وأصغَت بِتَركِيزٍ إلى كُلِّ كَلِمَةٍ قالَتها مِيزِ سِپِنسِر بعد ذلك. ثُمَّ لَمَّا بدأ النَّاسُ يُرَنِّمونَ في الدَّورِ الأعلى، جمَعَت مِيزِ سِپِنسِر أشكالِ اللِّبَادِ وطلَبَت إلى الأَوْلادِ أن يُحْضِرُوا كَنزاتِهِم وَسِتراتِهِم. انْتَهت كَنيسَةُ الكِبارِ، وسيأتي أهاليهِم

عاجلاً.

كان الأولاد الآخرون كلهم قد ذهبوا قبلما جاءت الخالة أليزابث. اعتذرت إلى ميسز سپنسر، داعية إياها ميّرندا. "كل شخص أراد أن يعرف ما جرى هناك في تنيسي، كأن ذلك من شأنهم في شيء". نظرت الخالة أليزابث إلى غريسي وهي جالسة وحدها إلى الطاولة. "كيف تصرفت هذا الصباح؟" "كانت ملاكاً صغيراً ممتازاً".

التوى فم الخالة أليزابث بابتسامة حزينة. "ربما كان فيها من أختي أكثر من ذلك..." وضعت ميسز سپنسر يداً على ذراعها، فتوقفت. وإذ أغمضت الخالة أليزابث عينيها، هزت رأسها. "هيا، غريس. حان وقت الذهاب".

في أثناء سوقة الرجوع إلى البيت، سألت الخالة أليزابث غريس عما تعلّمته.

فكرت غريسي في الأشكال على لوح اللباد. "الرب يسوع يحب الأولاد الصغار".

"أنا على يقين بأنك قد تعلمت ذلك المقدار أصلاً في الكنيسة التي حضرتها أمك. أي قصة حكّت لكم ميسز سپنسر هذا الصباح؟" ثم نظرت في مرآة الناظر الخلفية وقطبت جبينها. "لم تُصغي، أصفيت؟ ميسز سپنسر تشتغل بكلّ اجتهاد لتُحضّر الدروس جيّداً. أنت لست هناك لتلعب. أنت هناك لتتعلّم عن الله.

المرة الثالثة، كوني مُنتبهة. سأسأل ميسز سپنسر كيف
تُبلين، وأنا أريد أن أسمع أخبارًا طيبة. هل تفهمين؟“
”نعم مدام.“

”لا تُناديني مدام. ناديني الخالة أليزابث.“ ولما لم
تزد غريسي، حدقت الخالة أليزابث إليها في المرآة.
”هل سمعتني؟“

”نعم، م... الخالة أليزابث.“

”تمام. نفهم إحدانا الأخرى.“ وصلت إلى إشارة
ضوئية. استرخت يداها على عجلة القيادة. ”لست
أحاول أن أكون مُزعجة، غريس.“ انطبق حنكها
بإحكام. وانعطفت حول زاوية. ”أنا أعرف أنك لست
مسرورة.“ ثم أقت نظرة خاطفة في المرآة قبلما
ركزت على الطريق من جديد. ”حسنًا، ولا أنا أيضًا.“
وإذ استأنفت السير، سكتت حينًا. ”سوف أبذل
أفضل جهدي، وأتوقع منك أن تتعاوني.“

لم تعلم غريسي ما معنى تتعاوني.

بدأت الخالة أليزابث قادرة على قراءة أفكارها.
”أن تتعاوني يعني أن تقومي بما أطلبه منك عندما
أطلبه. لا إضاعة للوقت. لا أحلام يقظة. لا مُجادلات.
هل تفهمين؟“

”نعم، الخالة أليزابث.“



تعلّمت غريسي أن تُسوّي سريزها بترتيبٍ على طريقة المُمرّضات. وتعلّمت أن تستعمل المكنسة الكهربائية. وطوّت مناشف الحمام تمامًا كما علّمتها خالّتها. كانت ترفع الصُّحون عن الطاولة، ولكن لم يُسمح لها أن تغسلها، لأنّ الخالة أليزابث لم تُرد أن تنكسر أيّة قطعة من أوانيها الفاخرة. الشيء الوحيد الذي لم تستطع غريسي أن تُرتبه حسنًا كان شعرها. مشّطته بالفرشاة، ولكنها لم تستطع أن تُصفّفه بشكلٍ ذيلٍ فريسٍ مُرتّب. فكان على الخالة أليزابث، كل صباح، أن تُسبله وتمشّطه من جديد وتعيد رفعه.

ذات صباح، فقدت الخالة أليزابث صوابها. "كفى!" أخرجت مقصًا من جارور، ونثرت ذيل الفرّس إلى فوق، وقصّته تمامًا تحت رباط المطاط المتشابك. فأطلقت غريسي لهثة ألم وانفجرت باكية، عالمةً أن مامي ستستاء جدًا. إذ قالت دائمًا إنّها تحب شعر غريسي الداكن الجعد. "هُوَ مَثْمُوجٌ، تمامًا كشعر دادي".

وقفت الخالة أليزابث وذيل الفرّس المقطوع في يدها، وحدّقت إلى غريسي. وإذا ارتمت على كرسي مطبخ، أسقطت المقص وذيل الفرّس، وغطت وجهها وبكت. "لا يمكن أن أفعل هذا!" وقد بكت بكاءً مُتقطّعًا أشدّ من بكاء غريسي. "لا أستطيع! يا الله، لماذا فعلت هذا بي؟"

بعد بضع دقائق، كفت الخالة أليزابث عن البكاء، فمسحت وجهها، والتقطت ذيل الفرس وألقته في صفيحة القمامة تحت المغسل. ورمت المقص في الجارور من جديد. "لا نفع من البكاء عليه. انتهى الأمر. لا نستطيع أن نرذده. لنتناول الفطور، هيا بنا!" لم تقل الخالة أليزابث كلمة أخرى حتى أوقفت السيارة أمام المدرسة. ولم تنظر في مرآة الناظر الخلفية أيضًا. "تذكري إلى من تنتهين، غريس. اذهبي الآن، وإلا تأخرت".

تحسست غريس شعرها بأصابعها، فيما حدق الجميع إليها. كشرت مسز تايلر. وفي الاستراحة، ضحكت البنات. "ماذا فعلت بشعرك؟ منظرُك رهيب!" ثم أقبل صبيان وقالوا إن غريس تشبه كلبًا جعاريًا قصير الشعر. نفخت مسز تايلر في صفارتها، فتفرق الصبيان.

لما انتهت المدرسة، وقفت الخالة أليزابث خارج الباب. ذهبنا إلى صالون تزيين، حيث قدمت الخالة أليزابث غريس إلى كرستينا ألقاريز التي سئسوي شعرها.

"يمكنني أن أسوي هذا جيّدًا". أجلست كرستينا على كرسي جلد أسود كبير وضخت دواسة لرفعه. "هل تريدنه أقصر، أم أسويه بهذا الطول؟" كانت ناظرة إلى غريس، ولكن الخالة أليزابث جاوبت.

”قصيرًا وهيئًا“.

غمزت كرسيتينا غريسي بعينها في المرأة، وانحنت هامسةً. ”ما رأيك أنت، غريس؟ هل تُريدينه أقصر؟“ هزت غريسي رأسها على مهل. ظهرت غمازتان في خدي كرسيتينا لما ابتسمت. ”طيب، إذا. سنشتغل بما عندنا“. برمت الكرسي وخفضته، غاسلةً شعر غريسي في مغسلة معلقة في الجدار. وإذ جففت شعر غريسي بالمنشفة، زغبتُه من جديد. ”يدفع الناس مالا كثيرا ليكون لهم حليقات كالتي لك“. وقد تكلمت وهي تمشط وتقص وترتب، ثم تقص قليلا بعد.

”انظري!“ وضعت يديها على كتفي غريسي، وواجهتا كلتاها المرأة. ”ما رأيك؟“ ألقت الخالة أليزابث المجلة على الكرسي من جديد، ووقفت بجانبها. وقد بدت مطمئنة أكثر منها مسرورة. ”أفضل بكثير“.

”شعر يُغسل ويلبس“. غمزت كرسيتينا غريسي بعينها. ”فقط اغسله بالشامبو، واشطفه، وجففيه بالمنشفة. استعملي قشة للتخلص من أي تشابكات“- ناولت غريسي مشطا بلاستيكيًا أبيض ذا أسنان كبيرة- ”ثم زغبيه بأصابعك. أمر هين هين. دقيقتان، وتكونين مُستعدةً للانطلاق“.



استقرت الحياة على نقيط رتيب. الأحد، كنيسة. من الاثنين إلى الجمعة، مدرسة وحضانة بعد المدرسة وفروض منزلية. مهام كل يوم من الأسبوع. يوم السبت، تلبس الخالة أليزابث جينزا وقميصًا وقباجًا بلاستيكيًا، وتخرج لتشتغل في الحديقة. وقد توقعت من غريسي أن تساعدها. ضوء الشمس جيد للنفس، كما قالت الخالة، والخضر والفواكه جيدة للجسد. وقد أنبتت الخالة أليزابث كوسا وخيارًا وطماطم وجزرًا وفلفلًا حلواً. وكان لديها أيضًا أشجارًا مثمرة: مشمش، دراق، كرز، تفاح. أحببت غريسي الوجود في الفناء. كانت خالتها أحيانًا تجلس على عقيبها فتمسح العرق عن جبينها بقفا يدها، وتبدو سعيدة. وكانت الخالة أليزابث جميلةً عندما تبسّم، ناعماً وجهها وهادئًا.

جاءت ميسز سپنسر زائرة. كان في وسع غريسي أن تلاحظ أن المرأتين تحبان إحداهما الأخرى. إذ تعانقتا عند الباب وقبّلتا الواحدة خدي الأخرى. وعرضت الخالة أليزابث على ميسز سپنسر شايًا وكعيكات، فرحبت ميسز سپنسر. "هل من خطب مع غريس؟"

ضحكت ميسز سپنسر. "بتاتا. إنها جيدة كالذهب. لا ينبغي لك أن تقلقي كثيرًا". ورأت غريسي واقفة في مدخل الباب، فأومات لها. ثم أجرت يدا لطيفة

على رأس غريسي. "أردتُ فقط أن أُعَرِّجَ لأرى كيف حالكما كلتيكما".

طلبتِ الخالة أليزابث من غريسي أن تذهب وتلعب في عُرفتها، ثم دعت ميسز سپنسر إلى المطبخ.

هل نسيَتِ الخالة أليزابث جميعَ لُعبِ غريسي ودُماها قد تُرِكَت في تنيسي؟ لقد وُضِعَ كلُّ شيءٍ في صناديقٍ وحُملَ في الشَّاحنة التي أخذت أثاث مامي ودادي. فكان في وسع غريسي أن تجدَ أشياءَ تقوِّمُ بها في الخارج. وإذ عبَّرت غريسي المدخلَ من جديد، استطاعت أن تسمع المرأتين تتحدَّثان. وقد بدتِ الخالة أليزابث غاضبةً مرَّةً أُخرى. فتَّوارت غريسي حولَ الزَّاوية إلى داخلِ عُرفة الجلوس. إذا فتحتِ البابَ الزُّجاجيَّ، فلا بُدَّ أن تسمعها خالتها. وهكذا جلست على الأريكة.

"أبت لين أن تُصغي. عرَفْتُ أوَّلَ مرَّةٍ التَّقِيثَ فيها براد أنَّه بلاء. تعرفينَ كيف يُمكنك أن تُحسِّي ذلك أحيانًا". قالت ميسز سپنسر إنَّها تعرفُ فعلاً. "حسنًا، خرَّجت معه على كلِّ حال، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى جعلها حُبلى. قلتُ لها ألا تُضيفَ غلطةً أُخرى على تلك التي ارتكبتها أصلاً. كانَ براد قد قطعها عن الصَّدِيقَاتِ فعلاً، وهو لم يُحِبَّنِي. دون شكِّ، قالَ إنَّ ذلك كانَ لأنني لم أُحِبَّه، وهذا صحيح. لماذا أبت أن

تُصغِي إِلَيَّ؟“

”نَادِرًا مَا يُصغِي الْأَشخَاصُ الْوَاقِعُونَ فِي الْحُبِّ،
بَث“.

”إِذَا كَانَ لَكَ أَنْ تُسَمِّيَ ذَلِكَ حُبًّا“. تَكَلَّمَتِ الْخَالَةُ
أَلِيْزَابِثَ بِلَهْجَةٍ سَاخِرَةٍ. ”قَالَتْ إِنَّهُ كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا.
مَا بَرِحَ يَنْتَظِرُهَا طَوْلَ حَيَاتِهِ. لَقَدْ عَلِمَ تَمَامًا مَا أَرَادَتْ
أَنْ تَسْمَعَهُ. كَانَ يُشْبِهُ أَبَانَا، وَسِيمًا وَسَاخِرًا. إِبْلِيْسًا!
لَقَدْ جَعَلَ حَيَاةَ أُمِّي جَحِيمًا مُقِيمًا، وَحَيَاتِنَا أَيْضًا مَعَ
حَيَاتِهَا. ذَكَرْتُ لَيْنَ كَيْفَ تَرَبَّيْنَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ
تَرَى التَّشَابُهَاتِ. قَالَتْ إِنَّ بَرَادَ لَمْ يَكُنْ يُشْبِهُ وَالِدَنَا فِي
شَيْءٍ“.

”أَتَعْتَقِدِينَ أَنَّهُ قَتَلَهَا؟ أذَلِكَ هُوَ مَا تُفَكِّرِينَ فِيهِ؟“
”حَسَبَ مُحَقِّقُ الْوَقَايَاتِ مَوْتَهَا حَادِثًا. وَقَعَتْ لَيْنَ
وَصَدَمَتْ رَأْسَهَا. وَلَكِنْ كَيْفَ تَقْعِينَ بِهَذِهِ الشَّدَّةِ إِنْ لَمْ
يُدْفَعْ أَحَدٌ؟ عَلَى الْأَقْلَى، شَعَرَ بِأَنَّهُ مُذْنِبٌ كَفَايَةً حَتَّى
فَجَرَ دِمَاغَهُ“.

”بَث!“

سَمِعَتْ غَرِيْسِي فِنْجَانَ شَايٍ يُحَطُّ بِقُوَّةٍ عَلَى
صُحَيْفَةٍ. ”أَعْرِفُ، أَعْرِفُ!“ أَطْلَقَتْ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثَ
تَنْهَدَةً. ”اللَّهُ يَقُولُ لَنَا أَنْ نُسَامِحَ، وَلَكِنِّي أَرْجُو أَنْ
يَكُونَ بَرَادٌ مُحْتَرِقًا فِي جَهَنَّمَ. أَسَامِحُ؟ تَمَامًا... لَا
أَسْتَطِيعُ“.

”لَيْسَ بِقُوَّتِنَا الذَّائِيَّةِ، بَث“.

”غادرتُ تنيسي لَمَّا تزوّجا. هل أخبرتكِ بذلك؟ لم أريد أن أبقى على مقربةٍ منهما وأشاهدَ ما علمتُ أنّه سيحدثُ.“ بدتِ الخالَةَ أليزابث كما لو كانت تبكي. ”كانَ قد عُرضَ عليّ أصلاً عقلٌ لدى مصلحة الضرائب الداخليّة، فحزمتُ أمتعتي وجئتُ إلى فرَسنو. ولكنْ كان ينبغي لي أن أبقى! ربّما كانت تركتُه لو كان لها مكانٌ ما تذهبُ إليه. والآن، سبقَ السيفُ العَدل. لين ماتت، وعندي البنتُ التي جعلت أختي تستسلمُ لذلك الوغد.“

”لا يُمكنك أن تلومي البنت.“

”أعرفُ ذلك في رأسي، ولكنْ كلّمنا نظرتُ إليها، أرى عينيه وشعره الأدكنَ الجعد.“

”أليس فيها أيُّ شيءٍ من أختك؟“

”تبكي كثيرًا.“ كان صوتُ الخالَةَ أليزابث مؤنسًا. ”وهي تختبئ.“

”تختبئ؟“

”في خزانةٍ ملابسها. كلّ ليلة.“

طأطأت غريسي رأسها.

قبلما غادرتُ ميسز سپنسر، اجتازتِ الرّواق إلى غرفةٍ نومٍ غريسي، ثمّ خرجت منها ودخلت حُجرة الجلوس. ”ها أنتِ هُنا.“ وتأملتُ غريسي بسيماءٍ قلق. ثمّ عانقتها بحرارةٍ وقبّلت كِلا خديها. ولمّا اعتدلت، كانت عيناها مُغرورقتين. تكلمت هي

والخالة أليزابث برقة عند الباب الأمامي. وعانقتها
ميسز سپنسر وقبّلتها أيضًا. وما إن انغلق الباب
الأمامي، حتى جاءت الخالة أليزابث إلى غرفة
الجلوس.

”هل كنت تُصغين طول الوقت؟“ لم تُجب
غريسي. تهدّلت كيفا الخالة أليزابث قليلاً. ”إذا الآن
تعرفين كل شيء.“

بلى، عرّفت غريسي. لن تأتي مامي بتاتا لتأخذها.
الخالة أليزابث مسرورة لأن دادي مات، وهي لم تحب
غريسي لأنها تشبه أباها. لما أنامتها الخالة أليزابث
في السرير وغطتها تلك الليلة، أجزت إحدى يديها
برقة على رأسها. ثم تأملت وجه غريسي، وعيناها
تتالآن بالزطوبة. ”حاولي أن تبقي في السرير
الليلة.“ أدارت غريسي ظهرها قبلما انغلق الباب.
حدقت عبر النوافذ إلى ضوء الشارع. انتظرت وقتًا
طويلاً، ثم أخذت وسادتها ودخلت الخزانة. جرت
الدموع على خديها إذ جلست ورُكبتها مسحوبتان
إلى الأعلى فوق صدرها. ألقت رأسها على الوسادة،
راغبة في العويل والصراخ طلبًا لمامي، ولكنها لم
تجرؤ على إصدار صوت. فارتدّ نفسها في تقطعات
الم قصيرة.

شعّ النور تحت باب الخزانة. لم تكن غريسي قد
سمعت الخالة أليزابث تدخل الغرفة أو تكبش زرّ

النُّور. انتظرت، حابسةً نفسها خوفًا، ولكنَّ الخالة أليزابث لم تفتح البابَ ذا المرايا وتثقل لها أن ترجع إلى السرير هذه الدَّقيقة. لم يحدث شيء. بقي النُّور، توهُّجًا دافئًا رقيقًا، لا ذلك الضَّوء الأبيض المتألِّق الصَّادر من إنارة السَّقْف أو المِصباحِ على منضدة الليل.

بتَرَدُّدٍ وحبِّ استِطلاع، شَقَّتْ غريسي بحذرِ البابِ المُنزلقِ بعضَ الشيء وحدقت خارجًا. كانَ شخصٌ ما جالسًا على حافةِ سريرها. ابتسمَ لها، ولكنَّهُ لم يقل أيَّ شيء. أحسَّت أنه يقولُ لها إنها تستطيع أن تخرج. لن يؤذيها. تلاشى الخوف، وخرجت. لم يبدُ الرَّجُلُ شبيهاً بأيِّ شخصٍ سبقَ أن رآته يومًا. كانَ بَرَّاقًا. حدقت إليه بعينين مُتسعَتين. وقَّفَ بِقَامَةٍ ارتفعت فوقها كعملاق، ولكنَّها لم تخف منه قط، بل بالأحرى شعرت بأنها محبوبه. جلسَ على الكرسيِّ بقرب النَّافذة، وصعدت هي إلى سريرها من جديد، جالسةً في الوسط. تكلمَ إليها بلطف، كلماتٍ تعزيةٍ بلغةٍ ما سمعتها قط من قبل، ولكنَّها فهمتها بطريقةٍ ما. لم تعلم من أو ما كانَ ذلك، سوى أنَّه كانَ صديقها ولا داعيَ لأن تخاف منه. قالَ لها إنها تستطيعُ أن تنامَ الآنَ بلا قلقٍ من جهةِ الغد. إنَّ الغدَ سيهتمُّ بنفسه، وإنَّه هوَ سيتولَّى حِرَاسَتَها. ولَمَّا استلقت وجذبت الأغطيةَ فوقها، رنمَ فوقها.

أيقظتها الخالة إيزابث في الصّباح. "نمت في سريرك. جيّد. حان وقت الذهاب إلى المدرسة".

رجع صديق غريسي مرّةً أخرى تلك اللّيلة. وهذه المرّة خرجت حالاً من الخزانة وصعدت إلى السرير. لم يقل لها كلاماً بقدر ما سبق، ولكنها شعرت بأنه لم يمانع حين حدّثته همساً بشأن المدرسة، وافتقادها مامي ودادي، وما قالتها الخالة أليزابث لميسز سپنسر. لم يسكتها أو يقل لها أن تنام، بل أصغى، وقد جعلها بريّقة الهادئ المريح دافئةً داخل كيانها.

في اللّيلة الثّالية، لم تدخل غريسي الخزانة، وهو ظهر فعلاً، كما لو كان في الغرفة كلّ حين وهي لم تتمكن من رؤيته حتّى تلك اللّحظة.

لما علقت الخالة أليزابث بخبر ملاك غريسي، غضبت. "لا تبدأي بتلفيق قصص كي تحظي بالانتباه".

"لم أفعل ذلك".

"لا تُجادليني. وإياك أن تتجاسري فتكذبي. ميرندا- أعني ميسز سپنسر- قالت إنك أعلنت للصفّ كلّه أنّ ملاكاً يأتي إلى غرفتك كلّ ليلة".

"إنه يأتي فعلاً".

"آه، حُبّاً بالسّماء، أينبغي لي أن أصطحبك إلى

عالم نفسي؟"

تلك اللّيلة، أنامت الخالة أليزابث غريسي في

السَّرِيرَ وَغَطَّتْهَا. وَبَعْدَ سَاعَةٍ، فَتَحَتِ الْبَابَ وَاسِعًا
وَدَخَلَتْ. وَقَفَتْ عِنْدَ طَرَفِ سَرِيرِ غَرِيسِي، وَاضِعَةً
يَدَيْهَا عَلَى وَرَكَيْهَا، وَنَظَرَتْ بِتَرْكِيزٍ فِي أَنْحَاءِ الْغُرْفَةِ.
”إِذَا؟ الْعِيَانُ إِيْمَانُ. أَيْنَ هُوَ؟ هَذَا الْمَلَاكُ صَدِيقُكَ“.

لَمْ تَدْرِ غَرِيسِي مَا تَقُولُ.

”لَا حَدِيثَ بِشَأْنِ الْمَلَايِكَةِ بَتَاتًا فِي مَا بَعْدَ“.
تَكَلَّمَتِ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثُ بِصَوْتِ قَائِسٍ. ”إِنَّ ذَلِكَ يَجْعَلُكَ
تَظْهَرِينَ مَجْنُونَةً“. ثُمَّ خَرَجَتْ، مُغْلِقَةً الْبَابَ بِأَحْكَامٍ
وَرَاءَهَا.

نَظَرَتْ غَرِيسِي إِلَى صَدِيقِهَا. ”لِمَاذَا لَمْ تَسْتَطِعِ أَنْ
تَرَكَ؟“

”الإِيْمَانُ عِيَانُ“.

الفصل ٢٧

نِدَمَ رومان على صَبِّ جامِ خَيْبَتِهِ. جَلَسَتْ غريس ساكتة، غيرَ باذِلَةٍ أَيِّ جَهْدٍ لِمُجَادَلَتِهِ. لم تَبْدُ غاضِبَةً. ولكنْ ماذا عِلِمَ بعد؟ هل كان يَرجو أن تُناقِشَ، وأن تُثَبِّتَ أَنَّهُ على خَطِئٍ؟ لقد شكَّ في أنَّ أَيَّ شَيْءٍ قالَهُ قد يُبيدُ إيمانَها. أكان ذلك هو الأمرَ الذي ما بَرِحَ رومان يُحاولُ أن يفعله؟ أم كان يمتحنُها ليرى مدى عُمقِ إيمانِها.

ملاك، بلا أجنحة، رَجُل. لقد أُسَّسَتْ غريس إيمانَها على ما حَسِبَتْ أَنَّها رَأَتْهُ فتاةً صغيرةً خائفةً فَقَدَتْ أَبَويها حديثًا، ثُمَّ نَقَلَتْها عَبْرَ البِلادِ خالَةً مُغتَاظَةً لم تُرد أن تَنظُرَ إليها، فما بالك بالاعتناء بها؟ ثُمَّ إِنَّها اعتقدت أن الله أحبَّها؟ كانت مُقتنِعةً أَنَّهُ أحبَّها فعلاً؟ كيف يحدثُ ذلك؟ عانى رومان الخوفَ، مرارًا كثيرة، ولكنَّه ما تخيَّلَ قَطُّ بِمِثْلِ هذا العُمقِ البالغِ كائناً سماوياً ما آتياً لِلنَّجدةِ، أو مُقدِّماً كلماتٍ تشجيع. لقد واجهَ خَوْفَهُ، ساحقاً إِيَّاهُ بالغَضَبِ.

ما بَرِحَتْ جَمِيعُ افْتِرَاضَاتِهِ بِشَأْنِ غَرِيسٍ مُورِ
خَاطِئَةً. مَا كَانَ قَدْ تَوَقَّعَ أَنْ يُشَاطِرَهَا جُذُورًا
مُشْتَرَكَةً: خَسَارَةً مُدْمِرَةً، خَوْفًا، وَجَعًا، لَا مَحَبَّةَ. كَانَتْ
غَرِيسٌ قَدْ اخْتَبَأَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ، وَجُرِّحَتْ تَكَرَّارًا، وَمَعَ
ذَلِكَ سَكَبَتْ رَجَاءَهَا كُلَّهَا فِي إِلَهٍ غَيْرِ مَنْظُورٍ.

حَتَّى بِوُجُودِ خَلْفَيْتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ، أَحَسَّ الْفَرْقَ.
كَانَ لَدَيْهِ مَنْزِلٌ، وَسَيَّارَةٌ فَاحِرَةٌ، وَمَالٌ فِي الْمَصْرِفِ.
وَهِيَ كَافِحَةٌ لِثِقَفِ مُسْتَقِلَّةٍ. لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ أَيُّ شَخِصٍ
يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ. وَهِيَ لَهَا وَلَدٌ، ابْنٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا. كَانَ لَهُ
أَصْدِقَاءُ أَقْلَاءٌ، وَأَبْقَاهُمْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْهُ. وَهِيَ
جَاهَدَتْ لِقِضَاءِ وَقْتِ قَصِيرٍ مَعَ صَدِيقَاتِهَا. هُوَ لَمْ تَعُدْ
لَدَيْهِ أَهْدَافٌ. وَهِيَ مَا زَالَتْ تَسْعَى إِلَى أَهْدَافِهَا. هُوَ
عَاشَ مِنْ يَوْمٍ إِلَى الثَّالِي، عَامِلًا مَهْمًا بَدَأَ صَائِبًا فِي
نَظَرِهِ، وَأَحَسَّ أَنَّ بِلَا جُذُورٍ وَهَائِمٌ بِلَا هُدًى. وَهِيَ
عَاشَتْ لِثُرُصِي صَدِيقًا وَهَمِيًّا، وَبَدَتْ رَاسِخَةً الْأَسَاسِ،
أَمِينَةً فِي إِيْمَانِهَا، إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ.

ارْتَفَعَ الشَّارِعُ الْعَامُّ وَتَعَرَّجَ عَبْرَ جِبَالِ تِيهَاتشَاطِي.
نَظَرَتْ غَرِيسٌ خَارِجًا إِلَى الْجِبَالِ. التَفَتَتْ رُومَانًا نَاطِرًا
إِلَيْهَا. لَمْ يَسْتَطِعِ احْتِمَالُ سُكُوتِهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ
قَدْ اعْتَذَرَ إِلَى أَيِّ إِنْسَانٍ، لَا سِيَّمَا لَمَّا آمَنَ بِكُلِّ مَا قَالَهُ.
”هَلْ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ؟“

ابْتَسَمَتْ لَهُ. ”سُقْتُ عَلَى هَذَا الشَّارِعِ فَوْقَ عَشْرِ
مَرَّاتٍ، وَكُلَّ مَرَّةٍ بِمُفْرَدِهَا أَرَى شَيْئًا جَدِيدًا. تَوَقَّفْتُ

مَرَّةً فِي فُورَت تِيَجُون لَمَّا كَانَ الْمُتَنَزُّهُ مُضِيْفًا إِعَادَةً
تَمثِيلٍ لِلْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ. مَدَافِعُ تُطَلِّقُ قَذَائِفَهَا، رِجَالٌ
يُطَلِّقُونَ نِيرَانَ الْبُنْدُوقِيَّاتِ، بَعْضٌ يَصْرُخُونَ وَيَسْقُطُونَ
أَرْضًا كَأَنَّهُمْ قَدْ أُصِيبُوا. كَانَ الْأَمْرُ مُرَوِّعًا إِلَى حَدِّ
بَعِيدٍ.

اسْتَرَا ح رُومَانَ. لَمْ تَكُنْ سَاخِطَةً عَلَيْهِ. "قَدْ يَكُونُ
مَعْرِضٌ نَهْضِيٌّ أَكْثَرَ إِمْتَاعًا. يُوجَدُ وَاحِدٌ فِي إِرُونْدَايِلَ.
رُبَّمَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَيْهِ".

"لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَصَوَّرَكَ فِي مَعْرِضِ نَهْضَةٍ". بَقِيَتْ
بَسْمَتُهَا، وَكَانَتْ سِيْمَاوَهَا مُؤْنِسَةً إِذْ نَظَرَتْ إِلَيْهِ. "قَدْ
رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ الْقَلِيلَةَ أَمَاكِنَ حَلَمْتُ بِرُؤْيَيْتِهَا
مُجَرَّدَ حُلْمٍ، رُومَانَ. شَكَرًا لَكَ عَلَى إِصْرَارِكَ أَنْ
أَرَا فِقْكَ. حَتَّى لَوْ كَانَ بَدِيهِيًّا أَنْكَ لَمْ تَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَيَّ
فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ".

أَحْتَاجُ إِلَيْكَ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْلَمِينَ.

"يَسْرُنِي أَنْكَ اسْتَمْتَعْتِ. مَا بَرِحْتَ الرَّحْلَةَ جَيِّدَةً
عِنْدِي أَيْضًا. لَمْ يُرِدْ لِلرَّحْلَةِ أَنْ تَنْتَهِيَ، وَلَكِنَّهُ عِلْمٌ
أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُحَاوَلَ إِطَالَتِهَا. أَرَادَتْ غَرِيْسُ أَنْ
تَقْضِيَ نَهَايَةَ الْأُسْبُوعِ مَعَ طِفْلِهَا. وَقَدْ تَدْعُو قِسِّيْسَهَا،
ذَاكَ الْأَنْبِيَّ الرَّشِيْقَ، إِلَى غَدَاءِ شِوَاءٍ، وَتَدْعُهُ يُقْبَلُ
جَبِينَهَا مَسْرُورَةً، فَقَطْ لَتَعْرِفَ هَلْ تَكُونُ الْجَوْلَةَ
الثَّانِيَةَ أَفْضَلَ مِنَ الْأُولَى. وَمَاذَا يَكُونُ إِذَا كَانَتْ
كَذَلِكَ؟

شَدَّدَ قَبْضَتَكَ، بُيِّي رَاي. غَرِيْسُ مُورِ تَسْتَحَقُّ شَابَا
مِنَ النَّوْعِ الصَّحِيْحِ. حَتَّىٰ لَوْ كَانَ وَاحِدًا مِّنَ النَّوْعِ
غَيْرِ الصَّحِيْحِ يُرِيدُهَا.

لَقَدْ مَدَّ مَجَسًّا بِفِكْرَةِ اصْطِحَابِهَا إِلَىٰ مَعْرِضِ
نَهْضِيٍّ. وَبَلَغَهُ جَوَابُهَا عَالِيًّا وَجَلِيًّا. شُكْرًا، يَا رِيْسُ.
أَرَاكَ صَبَاحَ الْاِثْنَيْنِ. أَنَا أَشْتَعِلُّ عِنْدَكَ، هَلْ تَذَكَّرُ؟ أَرَادَ
رُومَانَ أَنْ يَحْتَرِمَ حُدُودَهَا. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكْتَفِي. لَقَدْ
انْطَلَقَ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ عَلَى الطَّرِيقِ لِغَايَةِ وَاحِدَةٍ: أَنْ
يَتَعَرَّفَ إِلَىٰ غَرِيْسِ. وَكَانَتِ الْمَشْكِلَةُ أَنَّهُ كَلَّمَا عَرَفَ
الْمَزِيدَ، أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَكْثَرَ؛ وَكَلَّمَا غَدَا أَقْرَبَ، أَرَادَ أَنْ
يَتَقَرَّبَ أَكْثَرَ. وَقَدْ أَخْبَرَهَا عَنْ نَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَخْبَرَ أَيَّ
شَخِصٍ يَوْمًا. إِلَّا أَنَّهُ احْتَفَظَ بِسِرِّ وَاحِدٍ فَقَطْ، سِرِّ
عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ يُفْسِدُ كُلَّ مَا حَاوَلَ سَابِقًا أَنْ يُشْكِلَهُ مِنْ
حَيَاتِهِ.

خَرَقَتْ هِيَ الصَّمْتَ هَذِهِ الْمَرَّةَ. ”هَلْ رَأَيْتَ فِي
أَثْنَاءِ الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ الْقَلِيلَةَ أَيِّ شَيْءٍ أَلْهَمَكَ؟“
أَوْه، نَعَمْ، كَثِيرًا. ”التَّقَطُّ بِعَضِّ الصُّورِ“.

”سَهْلُ كَارِيْزُو، يُوْسِيْمِيْتِي، بُحَيْرَةُ مُونُو، مُنْتَجِعَاتُ
الدَّرْدِيْنِيْلِ. هَذِهِ تَكْفِي لِأَنْ تُلْهِمَ عُمْرًا مِنَ الرَّسْمِ“.

التَفَتَ رُومَانٌ نَاطِرًا إِلَيْهَا. كُلُّ كِيلُوْمِيْتِرٍ سَاقَهُ
قَرِيْبَهُمَا إِلَىٰ نِهَايَةِ مَهْمَا كَانَ جَارِيًّا فِي هَذِهِ السَّيَّارَةِ.
يَجِبُ أَنْ نَتَوَقَّفَ لِلْغَدَاءِ“.

”أَوْه، جَيِّدٌ. أَنَا جَائِعَةٌ جَدًّا“.

ضحك. "لماذا لم تقولي شيئًا ما؟"

"بدوت مُستعجلاً أن ترجع". وابتسمت له ابتسامة عريضة. "فوق مئة وسبعة وسبعين كيلومترًا في الساعة. ما سرتُ بهذه السرعة قط من قبل".

كان قد نسي بطاقة الضبط في جيب الباب. "أتريدين أن نُعيدَها؟"

"إيّاك أن تُفكر في ذلك مُجردَ تفكير!"

جاوزا لافتة. "سانتا كلاريتا هي التالية. ينبغي أن يُوجد مطعمٌ جيّدٌ بقرب ماجيك ماونتين". سلكَ رومان المخرج التالي، مُتمنيًا لو يستطيع أن يرى كيف تحتل جولة في أفغوانية. "ألايك ميل إلى ثمار البحر أم إلى وجبة مكسيكية؟"

"يروقني أيُّ شيءٍ لم أطههُ أنا".

انعطف إلى داخل فسحة تحت شجرة ظليلة، وطلب أن تبقى في مكانها. ثم دار حول السيارة وفتح باب غريس. ولما مدَّ يده، ترددت قليلاً قبل أن تقبل مُساعدته لها. ارتجفت يدها في يده. حسنٌ أن يرى أنها لم تكن لامبالية تمامًا. ما برح في جولة بأفغوانية طوال هذه الرحلة: مُرتفعاتٌ ومُنخفضاتٌ، ثم هبوطٌ مُفاجئٌ في معدته وتسارعٌ في نبضه حين تنظر إليه. الشعور الذي كان يُخالجه الآن تمامًا، لا توازن.

تَعْتَرُ رومان قليلاً. تَشْوَشُ ذِهْنُهُ. شَعَرَ فِجَاءً
بِالاعتِلالِ.

”رومان“ أمسكت بذراعِهِ جيِّداً. ”أَنْتَ بخير؟“

ظَنَّ أَنَّهُ سَيَتَحَسَّنُ حالَما يَدْخُلانِ المَطْعَمَ المُكَيَّفَ
الهواءِ، وَلَكِنَّهُ بالكادِّ وَصَلَ إلى الرِّصيفِ قبلَما صارت
رِجلاهُ كَالهَلامِ. فَصرَختَ غَريسَ عالياً، مُحاولَةً أن
تحوَلَ دونَ سُقوِطِهِ، إلاَّ أَنَّهُ أسَقَطَها مَعَهُ. أرادَ أن
يسألَ هل كانت بخير. أرادَ أن يقولَ إِنَّهُ آسِفٌ إذا كان
قد آذاها. كانت تصرُخُ مُستغيثَةً، وَقَلْبَتُهُ على ظَهِرِهِ.
لم يشعُرَ بشيءٍ، سِوى إحساسِ ساجِبٍ ثقيلٍ.
احتضنت وجهَهُ بِكَفِّها. ”رومان. آه، يا اللهُ... يا رَبُّ
يسوعُ، ساعِذه. ساعِذنا!“

لم يستطعَ رومان أن يُحسَّ يَدَيها. وتلاشى صوتُها
إذ غاصَ في بحرٍ من ظلامٍ.



لم يشعُرَ رومان بأيِّ ألمٍ. لا حاجةَ لأنْ يتنَفَّسَ. غارَ
الأسِمنْتُ السَّاخِنُ تحتَهُ ثُمَّ قَذَفَهُ بِقوَّةٍ إلى فِوقِ،
خَفيفاً وَخُرّاً. رأى جَمعاً حوَلَ جِسمِ و غَريسَ جاثيةً
على رُكبتَيها، مُجريةً تَنفُّساً اصْطِناعياً وإِنعاشاً. ثُمَّ
ظَهَرَ رِجْلٌ فَأَمسَكَ كَتِفَها بِإِحكامٍ وجثا بِجانِبِها. تولى
هُوَ الأمرُ. وكان آخرون قد أخرجوا هوائِهم الخَلوِيَّةَ،
وأخذَ مُعظَمُهم يَلتَقِطونَ صُوراً وَيَنقُرونَ رسائلَ

نَصِيَّة، فِيمَا تَكَلَّمَ وَاحِدٌ أَوْ اثْنَانِ. نَظَرَ رُومَانٌ إِلَى الرَّجُلِ الْمَيِّتِ الْمُمَدِّدِ عَلَى الرَّصِيفِ. يَا لِلْهَوْلِ! كَانَ ذَلِكَ هُوَ نَفْسَهُ! أَكَانَ يُهْلُوسُ؟

وَإِذْ أَشَاحَ بِنَظَرِهِ عَنِ الْمَشْهَدِ عَلَى الرَّصِيفِ، لَاحَظَ رَجُلَيْنِ وَاقِفَيْنِ عِنْدَ كِلَا جَانِبَيْهِ. فَنَفَرَ غَرِيزِيًّا وَانْكَمَشَ. كَانَ مَنْظَرُهُمَا عَادِيًّا، يَصْعُبُ وَصْفُهُ، وَلَكِنَّ شَيْئًا مَا فِيهِمَا أَفْرَعَهُ. وَأَبْدَى أَحَدُهُمَا أَسْنَانًا مُثَلِّمَةً. ”حَانَ وَقْتُ الرَّحِيلِ، بُيِي رَاي“.

”ابْعُدَا عَنِّي!“ تَرَاجَعَ رُومَانٌ خِطْوَةً.

”لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَهْرَبَ الْآنَ“. حَدَّقَتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ سَوْدَاءٍ غَائِرَةٌ وَهِيَ تَقْتَرِبُ.

”يَا لِلْجَحِيمِ! مَنْ أَنْتُمْ؟“ وَتَرَاجَعَ خِطْوَةً أُخْرَى رَافِعًا قَبْضَتَيْهِ.

ضَحِكَ. ”أَنْتَ تَعْرِفُ مَا نَحْنُ“. تَحَرَّكَ بِسُرْعَةٍ، وَتَشَبَّثَا بِهِ كِلَاهُمَا بِيَدَيْنِ فِيهِمَا مَخَالِبُ.

فِيمَا صَرَخَ رُومَانٌ مِنْ خَوْفٍ كَمَا مِنْ أَلَمٍ، حَاوَلَ أَنْ يَتَحَرَّرَ مِنْهُمَا. لِمَاذَا كَانَ هُوَ ضَعِيفًا جَدًّا، وَكَانَا هُمَا قَوِيَّيْنِ جَدًّا؟ وَإِذْ بَاتَ مُرْتَاعًا الْآنَ، تَقَلَّبَ بِقُوَّةٍ. ”أَفْلِتَانِي!“ سَرَتْ أَنْهَارٌ نَارٍ فِي أَوْصَالِهِ، وَصَرَخَ.

وَمَضَى الْهَوَاءُ كَسَرَابٍ فِي صَحْرَاءٍ، فِيمَا انْتَقَلَ رُومَانٌ عَبْرَ حِجَابٍ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ. انْفَتَحَ أَمَامَهُ نَفَقٌ مُظْلِمٌ، وَجَرَّهُ إِلَى دَاخِلِهِ شَيَاطِينٍ. كَانَتْ الْجُدْرَانُ وَالسَّقْفُ الْمُتَقَوِّسَةُ زَاخِرَةً بِمَخْلُوقَاتِ ذَاتِ وُجُوهِ

مُلْتَوِيَةٌ وَغَرِيْبَةٌ وَمُخِيْفَةٌ. وَقَدْ دَبَّتْ فَوْقَهُ وَحَوَالِيْهِ،
مُتَلَفِّظَةً بِأَسْمَاءِ بَدِيئَةٍ، مُتَمَعِّجَةً، قَابِضَةً عَلَيْهِ،
وَأَفْوَاهُهَا تُطْقِطِقُ كَأَسْمَاكِ قَرِيْشٍ كَبِيْرَةٍ بِيْضَاءَ جَائِعَةٍ
إِلَى اللَّحْمِ.

مُنْكَمِشًا، مُنْحَنِيًّا، مُرَاوِعًا، حَاوِلَ رُومَانَ أَنْ يَرْجِعَ.
وَإِذْ سَحَبَهُ آسِرُوهُ إِلَى الْأَمَامِ، رَأَى الظُّلْمَةَ قُدَّامَهُ
وَأَحْسَّ حَرَارَةً ثَائِرَةً. وَسَمِعَ صُرَاخَ بَشَرٍ وَأَنَاتِ أَلَمٍ.

تَفَجَّرَ الْأَلَمُ دَاخِلَ صَدْرِ رُومَانَ. تَقَوَّسَ، مُتَصَلِّبًا
جِسْمَهُ، وَعَيْنَاهُ تَنْفَتِحَانِ عَلَى نُورٍ وَأَصْوَاتٍ حَوَالِيْهِ.

”تَوَقَّفْ! تَوَقَّفْ! لَقَدْ عَادَ!“ صَاخَتْ غَرِيْبِسَ.

رَفَعَ غَرِيْبٌ يَدَيْهِ وَأَبْعَدَهُمَا، وَحَاوَلَ رُومَانَ أَنْ يَأْخُذَ
نَفْسًا. أَحْسَّ الظُّلْمَةَ تَكْتِنِفُهُ مِنْ جَدِيْدٍ. فَقَالَ بِصَوْتِ
أَجَشٍّ: ”لَا تَتَوَقَّفْ. لَا...تَتَوَقَّفْ!“

وَإِذْ ابْتَلَعَتْهُ الظُّلْمَةُ مِنْ جَدِيْدٍ، أَخَذَ يَرْفِسُ آسِرِيْهِ
وَيُكَافِحُ سَيَطْرَتَهُمْ. ضَحِكَ الشَّيَاطِينُ أَعْلَى، وَمَا زَالُوا
مُتَشَبِّثِينَ بِهِ، سَاحِبِينَ إِيَّاهُ أَبْعَدَ وَأَعْمَقَ دَاخِلَ فُوهَةٍ
الْجَحِيْمِ الْخَافِقَةِ. لَعَقَ الشَّيَاطِينُ الْمُرْوَعُونَ النَّتِنُونَ
فِي الْجُدْرَانِ وَالسَّقْفِ شِفَاهَهُمْ وَأَهَانُوهُ بِالْقَابِ بَدِيئَةٍ
وَأَوْصَافٍ رَاعِبَةٍ لِمَا نَوَّوْا أَنْ يَفْعَلُوْا بِهِ. وَقَدْ مَدُّوْا
أَصَابِعَ عَفِنَةً، فَيَمَا نَتَانَةُ اللَّحْمِ الْمُتَفَسِّخِ تُطْبِقُ عَلَيْهِ
كَضْبَابٍ خَائِقٍ. وَاسْتَطَاعَ رُومَانَ أَنْ يَتَذَوَّقَ ذَلِكَ.

”لَا! آه، يَا اللَّهُ، لَا!“ حَاوَلَ رُومَانَ أَنْ يُثَبِّتَ عَقْبِيْهِ.
حَاوَلَ أَنْ يَتَحَرَّرَ نَثْرًا. رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ. كَانَ فِي

النَّفَقَ آفَ الأَشْخَاصِ، وَكُلَّهُم يُصْرِّخُونَ وَيُكَافِحُونَ
فِيمَا هُمْ يَتَحَرَّكُونَ، كَمَا عَلَى حِزَامِ نَاقِلَةِ ضَخِمِ مَرْوَعٍ،
نَحْوَ أَعْمَاقِ جَهَنَّمَ. امْتَدَّ جُرْفُ أَمَامِهِ، وَدُونَهُ هُوَّةٌ
سُودَاءٌ بِلا نِهَايةٍ. كَانَ البَشَرُ يُطَرِّحُونَ مِنْ عَلَى
الجُرْفِ، مُؤَلُولِينَ إِذِ يَخْتَفُونَ. صرَّخَ رومان. فَتَشَّ عَنْ
شَيْءٍ مَا، أَيُّ شَيْءٍ، لِيَتَمَسَّكَ بِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يُوجَدِ أَيُّ
شَيْءٍ سِوَى النُّفُوسِ الهَالِكَةِ مَعَهُ، وَالمَخْلُوقَاتِ
البَغِيضَةِ مُسْتَسِيغَةً بِؤَسْهُمْ.

أَحْسَّ رومان، وَهُوَ عَدِيمُ الوِزْنِ وَضعيف، الرِّيحَ
البَارِدَةَ تَهَبُّ عَلَى ظَهْرِهِ، وَأَمَامَهُ حَرَارَةُ نارِ جَهَنَّمَ.
فصاحَ بِأَخْرِ شَيْءٍ تَذَكَّرَهُ. ”يسوع!“

تَمَوَّجَتِ الصَّرَخَاتُ عَبْرَ النَّفَقِ الكَهْفِيِّ.
صرَّخَ رومان ثَانِيَةً. ”آه، يَا اللهُ! أَيُّهَا المَسِيحُ،
سَاعِدْنِي!“

غَمَرَ الظُّلْمَةُ نُورَ يُعْمِي الأَبْصَارَ. وَأَمَسَكَ شَخْصٌ مَا
بِمَعْصَمِ رومان، رَافِعًا إِيَّاهُ، وَفِي وَسْطِ تَنَافُرِ الأَصْوَاتِ
فِي جَهَنَّمَ، قَالَ بِصَوْتِ مَهْمُوسٍ: ”أنا هو“.

تَشَبَّثَ بِهِ مَخَالِبٌ مِنْ تَحْتِ، وَتَرَدَّدَتِ أَصْدَاءُ
صَوْتِ خَبِيثِ مُفْعَمٍ بالكُرهِ. ”إِنَّهُ لِي! أَعْطِنِي إِيَّاهُ!“
زَعَقَ رومان إِذِ اشْتَدَّتِ اليَدُ وَانغَرَزَتِ البَرَاثِنُ دَاخِلَ
بَطَّةِ سَاقِهِ بِاعْتِهَ فِي رِجْلِهِ شِظَايَا أَلَمٍ صَاعِدَةٍ. وَلَمْ
تَكُنْ لَهُ قُوَّةٌ كِي يَرْفُسَ وَيُفْلِتَ.

”أفْلِتَهُ“. تَكَلَّمَ صَوْتُ هَادِيٍّ مِنْ فَوْقِ، فَابْتَعَدَ

الكائنُ الجَهَنَّمِيُّ وغازٌ في الظلام.

تقوَّسَ رومانٌ ثانيةً. وتخلَّلتِ النَّارُ أوصالَه إذ انتشرتْ صعقةُ الكهرباء عبرَ جهازه العصبِيِّ. ففتحَ عينيه ورأى رجلين مُنحَنِيَّين فوقه.

”لقد أحضرناه!“ مالَ مُسعِفٌ طوارئٍ مُقتربًا إليه أكثر. ”اصفُدْ، يا صاحب. كِدنا نَصِلُ إلى المُستشفى.“

تطلَّعَ رومانٌ حوَالِيَه، وقد خَضَّه الخوف. حاولَ أن يتحرَّك، ولكنَّهُ كانَ مربوطًا بِسُيُورٍ مشدودة.

”مهلاً الآن. اسئلقِ ساكنًا.“

أحاطت به حُجيراتُ خزنٍ بيضاء، وأنايبُ صفراء، وأجهزةٌ مُراقِبةٌ خضراء. وزعَّقت صفارةٌ فوقه. أخبرتهُ الشَّرعةُ أَنَّهُ كانَ في سِيَّارةٍ إسعاف. وجِعهُ صدره وأضلاعه كثيرًا بحيثُ لم يكُد يستطيعُ التَّنَفُّسَ، ناهيكَ بالتَّحدُّث. وابتدأ جِسْمُه يرتجف.

”غريس...“ لم يسمعه المُسعِف. حاولَ من جديد:

”أحتاجُ إلى غريس.“

”أمرٌ جيِّدٌ أنَّ صديقَتَكَ تعرفُ التَّنَفُّسَ الاصطناعيَّ والإنعاش، يا صاحب. ابقِ هادئًا. كِدنا نَصِلُ.“ تباطأتِ العربةُ وانعطفت. ثُمَّ توقَّفت وانفتحتِ الأبواب.

زَلَقَ مُسعِفانِ النَّقَّالةَ المُدَوَّلةَ على سَكَّة، ثُمَّ أنزلا الدَّواليبَ وأقفلا عليها في مكانها.

التقطَ رومانٌ لمحةً سماءٍ زرقاء. ثُمَّ سَقَفٍ أبيض. وُصِلتْ محقنةٌ وريديَّةٌ بذراعهِ اليمنى. دُفِعَ فوق

الدَّوَالِيْبِ إِلَى رِوَاقٍ، وَسَمِعَ أَصْوَاتًا. تَمَلَّقَ مُحَاوِلًا أَنْ يَتَحَرَّرَ. ”آه، يَا اللَّهُ“. انْتَحَبَ بَاكِئًا الْآنَ. ”آه، يَا يَسُوعَ، لَا تُرَخِّنِي“. مَا بَرِحَ الْحِجَابُ رَقِيْقًا جَدًّا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ. وَلَمْ تَكُنْ كُلُّ قُوَّتِهِ كَافِيَةً لِلتَّحَرُّرِ، إِلَّا أَنْ كَلِمَةً رَقِيْقَةً وَاحِدَةً مِنَ الْمَسِيْحِ جَعَلَتْهُ فِي الْحَالِ حَيًّا مِنْ جَدِيدٍ.



حَاوَلَتْ غَرِيْسٌ أَنْ تَبْقَى هَادِئَةً إِذْ سَاقَتْ سَيَّارَةً رُومَانَ إِلَى الْمُسْتَشْفَى. مِنْ دَوَاعِي الشُّكْرِ أَنَّهَا تَذَكَّرَتْ سِلْسِلَةَ الْجَيْبِ قَبْلَ مُغَادِرَةِ عَرَبِيَّةِ الْإِسْعَافِ. فَأَخْرَجَهَا أَحَدُ الْمُسْعِفِينَ مِنْ جَيْبِ رُومَانَ. وَأَعْطَاهَا الْمُسْعِفُ تَوْجِيهَاتٍ سَرِيْعَةً. وَإِذْ كَانَتْ أَكْثَرَ اضْطِرَابًا مِنْ أَنْ تَسْتَوْعِبَهَا، أَوْ تُخَمِّنَ تَعْلِيْمَاتِ جِهَازِ الْكُمْبِيُوتَرِ فِي السَّيَّارَةِ، اسْتَخْدَمَتْ نِظَامَ تَحْدِيدِ الْمَوَاقِعِ عَلَى تَلْفُونِهَا الْخَلَوِيِّ. أَسْهَمَ الصَّوْتُ الْهَادِيُّ الْمَحْوَسَبُ فِي تَسْكِينِهَا. أَوْقَفَتِ السَّيَّارَةَ وَهَرِغَتْ إِلَى غُرْفَةِ الطَّوَارِي. لَمَّا سَأَلَتْ عَنْ رُومَانَ قِيْلَاسِكُو، أَرَادَتِ الْمُمْرِضَةُ أَنْ تَعْرِفَ هَلْ هِيَ زَوْجَتُهُ.

”هُوَ رَيْسِي. كُنَّا فِي رِحْلَةٍ عَمَلٍ“.

وَجَّهَتْ إِلَى رُكْنِ الْإِنْتِظَارِ، فَجَثَّمَتْ عَلَى طَرَفِ مَقْعَدٍ، مُصَلِّيَةً، مُرَاقِبَةً كُلَّ حَرَكَةٍ مِنَ الْفَرِيْقِ الطَّبِّيِّ، مُصْغِيَةً لِالْتِقَاطِ أَيِّ جُزْءٍ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ. جَلَسَ آخَرُونَ مَعَهَا، مُضْطَرِبِينَ وَمُنْتَظَرِينَ أَخْبَارًا عَنْ أَجْبَائِهِمْ. فِي مَا

يبدو، قد يكونُ عصرُ كلِّ يومٍ جُمعةً مُزدَحِمًا. وإذ أوشكتُ أن تذرِفَ دُموعًا، غَطَّت وجهَها وصلتُ قليلًا بعد. أرادتُ أن تكونَ قائمةً بشيءٍ ما. أخرجتُ هاتِفَها الخلويَّ، وكتبتُ رسالةً نصِّيةً إلى شانيس. أنا في غُرْفَةِ الطوارئِ في سانتا كلاريتا. أُصيبَ رومان بنوبةٍ قلبيَّة. رجاءً، صلي.

”هل إحدى الموجوداتِ هُنا اسمُها غريس؟“

”نعم!“ هبَّت واقفةً على قدميها. ”أنا غريس.“

وإذ دسَّت تَلِفونَها داخلَ جِردانها، جارتِ المُمرِّضُ في مشيِّته.

”ما ينفكُ يسألُ عنك. حاولي أن تُهدِّئيه. نُريدُ أن

نُعدهُ للجِراحة، ولكنَّهُ مُقتنعٌ بأنَّهُ إذا أُخِضَ للتخدير

فسينتهي إلى جهنم. وقد قالَ إنَّ الجُرحَ في ساقه

أحدثهُ شيطانٌ ما...“

”أيُّ جُرحٍ في ساقه؟“

عبَسَ المُمرِّضُ إذ دفعَ البابَ فانفتح. ”الطَّبيبُ في

طريقه إلى هُنا.“

كان جِلْدُ رومان شاجِبًا جدًّا. وفيما هو مُعلَّقٌ

بالآلات، وفي ذِراعِهِ محقنةٌ وريديَّة، وكِمامةٌ أكسجين

تُغطِّي أنفهَ وفمه، بدا مُرتاعًا إذ هَزَّ القيودَ هُذا عنيفاً.

اقتربتُ غريس إليه أكثر، مُكافِحةً الدَّموع. كان عليها

أن تبقى هادئةً لأجلِهِ. ”رومان“. وضعتُ يدها على

ذِراعِهِ. نظَرَ إليها بعينين مُضطربتين، وقال شيئًا لم

تستطيع أن تفهمه. نثر الأحزمة التي ثبتته مُستلقياً.
انحنت غريس فوقه. ”هؤلاء الناس يعرفون كيف
يساعدونك“. لم يُحوّل عينيه عنها. ”أنا هنا. ركّز
عليّ الآن“. وضع المُمرّض دواءً داخل المحقنة
الوريدية. ضغطت غريس يد رومان. ”سأكون في
غرفة الانتظار، مُصليّة لأجلك. لن أغير. هذا وعدي“.
اغرورقت عيناه إذ حاول أن يتكلّم.
”ستكون بخير“. رجاء، يا الله، اجعل هذا
يحدث.

مسّ المُمرّض كتفها. ”يحسُن بنا أن نذهب“.



اتّصلت غريس بسيلاه وأخبرتها بما جرى. ”وعدته
بأن أبقى هنا“.

”ينبغي لك ذلك، حبيبتي. كيف حاله؟“

”لست أعلم بعد“.

”صامي بخير. لا تقلقي عليه. ابقى مع رئيسك،
حبيبتي، وأبقينا على علم بحالته. سنكون مُصليين
لأجله أيضاً“.

خابرت غريس بريان وقالت إنّها لن تتمكن من
المشاركة في نُزهة مجموعة الشباب عصر يوم الأحد
على كلّ حال. أطلّعت على الوضع، وقالت إنّها بحاجة
لإجراء مُكالمة أُخرى.

رَدَّتْ شَانِيسَ فِي الْحَالِ. ”مَرْحَبًا، يَا صَدِيقَةً، مَاذَا جَرَى؟ هَلْ رُومَانٌ بِخَيْرٍ؟“ بَدَأَتْ غَرِيسَ تَبْكِي. كَانَتْ قَدْ تَمَاسَكَتْ طَالَمَا اسْتَطَاعَتْ. وَإِذْ لَفَّتْ ذِرَاعًا حَوْلَ وَسَطِهَا، تَرَجَّحَتْ. ”غَرِيسَ، عَزِيزَتِي؟ تَحَدَّثِي إِلَيَّ.“

خَرَجَتِ الْكَلِمَاتُ، مَخْنُوقَةً أَوَّلَ الْأَمْرِ، ثُمَّ تَدَفَّقَتْ سَيَّلًا. ”أُصِيبَ بِسَكْتَةٍ قَلْبِيَّةٍ. هُوَ تَحْتَ الْعَمَلِيَّةِ الْآنَ تَمَامًا. مُسْتَشْفَى هَنْرِي مَايو نِيُوهُولِ. رَجَاءً، اطَّلُبِي إِلَى الْجَمِيعِ أَنْ يُصَلُّوا، شَانِيسَ. أَوَّلَ دَقِيقَةٍ كَانَ وَاقِفًا، وَالتَّالِيَةَ صَارَ مَيِّتًا. لَمْ اسْتَطِعْ أَنْ أَجِدَ نَبْضًا وَبَاشَرْتُ النَّفْسَ الْاصْطِنَاعِيَّ وَالْإِنْعَاشَ. تَوَلَّى الْأَمْرَ رَجُلٌ، وَعَادَ رُومَانٌ حَيًّا. أَرَدْتُ أَنْ أَشْكُرَ الرَّجُلَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ مَضَى. وَرُومَانٌ - آه شَانِيسَ!- مَا رَأَيْتُ قَطُّ أَحَدًا مُرْتَاغًا جَدًّا مِثْلَهُ. بَدَأَ كَأَنَّهُ رَأَى جَهَنَّمَ.“ وَمَسَحَتْ دُمُوعَهَا.

حَدَّقَ إِلَيْهَا آخَرُونَ فِي غُرْفَةِ الْإِنْتِظَارِ. نَهَضَتْ وَمَضَتْ إِلَى الرَّوَّاقِ. ”قَدْ يَمُوتُ، شَانِيسَ. وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ بِالرَّبِّ يَسُوعَ. أَنَا خَائِفَةٌ عَلَيْهِ جَدًّا.“

”لَا تَنَحِدِرِي فِي ذَلِكَ السَّبِيلِ، عَزِيزَتِي، إِنَّهُ حَيٌّ. وَهُوَ تَحْتَ الْجِرَاحَةِ. لَدَيْهِ فُرْصَةٌ. سَأَتَّصِلُ بِأَشْلِي. سَتُفْعَلُ سِلْسِلَةُ الصَّلَاةِ فِي الْكَنِيسَةِ، وَتُعَلِّمُ نِيكُولُ بِمَا جَرَى. مِفَاتِيحِي فِي يَدِي الْآنَ الْآنَ. سَأَكُونُ هُنَاكَ بِأَسْرَعٍ مَا يُمَكِّنُنِي. مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَبْقَى هَادئةً، غَرِيسِي. اللَّهُ مُمَسِكٌ بِالزُّمَامِ. تَذَكَّرِي ذَلِكَ.“

مرّت ساعة. فرِغَت غُرْفَةُ الانتظارِ حتّى باتت غريس
 آخِرَ شخصٍ ينتظرُ خَبْرًا. لم تكن من العائلة، ولكن من
 كان لدى رومان سِواها؟ جاسِپر! آل ماسترسُن! لماذا
 لم تُفكّر في الاتّصالِ بهم؟ أعلّيا ذلك؟ ينبغي أن
 يعرفوا. قرّرت أن تنتظرَ حتّى يصيرَ لديها خبرٌ أكثرُ
 تحديداً قبل أن تتّصلَ بجاسِپر. ولا بُدَّ أنَّهُ يعلمُ كيف
 يتّصلُ بتشت وشوزان.

مرّت ساعةٌ أخرى. ذرّعت غريس أرضيةَ الغرفة
 ذهابًا وإيابًا. هل يسمَحُ لها موظّفو المستشفى
 بدخولِ غرفةِ الإنعاشِ أو وحدةِ العنايةِ المُركّزة؟ ماذا
 لو مات ولم يُكلّف أحدٌ نفسه عناءَ إخبارِها؟ ربّما تغيّر
 طاقمُ التمريض، والمسؤولين في المكان لا يعرفون
 أنّها ما زالت تنتظر. وخافت أن تسأل. كان عدَمُ وُرودِ
 خبرٍ أفضلٍ من خبرٍ سيئٍ.

”غريس؟“

رفعت غريس رأسها لاهثةً. ”أوه، بريان“. وإذ
 انفجرت باكيةً، هبت واقفةً.

أمسك بريان بها من كتفَيها، وأسندَ ذقنه على
 أعلى رأسها. ”حضرتُ إلى هنا بأسرع ما استطعتُ.
 كيف حاله؟“

”لا أدري“. انكفأت. ولما سحبَ منديلًا، أخذته.

”ما سمعتُ شيئًا بعد.“

”اقْعدي. سَأْذْهَبُ فَاسْأَلُ ثُمَّ أَرْجِعُ حَالًا“.

لَمْ تَسْتَطِعْ غَرِيسَ أَنْ تَقْرَأَ سِيْمَاءَهُ لَمَّا رَجَعَ. قَعَدَ بِقُرْبِهَا وَمَسَّ يَدَهَا بِرِفْقٍ. ”سَيَخْرُجُ مِنَ الْجِرَاحَةِ عَاجِلًا. لَنْ تَتِمَّكَنِي مِنْ رُؤْيَيْتِهِ إِلَى حِينٍ“. ثُمَّ ضَغَطَ عَلَى يَدِهَا ضَغْطًا خَفِيفًا. ”مَنْذُ مَتَى لَمْ تَأْكُلِي؟“

”لَا أَتَذَكَّرُ. كُنَّا نَتَوَقَّفُ لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ. لَا أُرِيدُ أَنْ أَغَادِرَ. قَدْ يَأْتِي الطَّبِيبُ. لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ شَخْصٌ مَا بَعْدَ حِينٍ، أَلَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ؟“

”أَنْتِ بِحَاجَةٍ لِأَنْ تَأْكُلِي شَيْئًا مَا، غَرِيسَ. أَنَا رَاجِعٌ“. ثُمَّ غَادَرَ عُرْفَةَ الْإِنْتِظَارِ.

وَصَلَتْ شَانِيسَ بَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقٍ، وَقَدْ بَدَتْ مُتَضَايِقَةً جَدًّا. ”أَسِيفَةٌ لِتَأْخُرِي طَوِيلًا. حَصَلَ حَادِثٌ سَيرَ. خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي لَنْ أَصِلَ إِلَى هُنَا بَتَانًا. آه، حَبِيبَتِي“. عَانَقَتْ غَرِيسَ، وَقَعَدَتَا عَلَى الْأَرِيكَةِ مَعًا. ”الْكَنِيسَةُ كُلُّهَا تُصَلِّي. أَنْتِ تَرْتَجِفِينَ. حَاوِلِي أَنْ تَتَنَفَّسِي“.

رَجَعَ بَرِيَانُ بِسَنْدُوِيْتِشٍ مِنْ آلَةِ الْبَيْعِ وَقِنِينَةٍ عَصِيرِ بُرْتِقَالٍ. وَقَفَ فِي مَدْخَلِ الْبَابِ. ”مَرْحَبًا“. وَحَدَّقَ إِلَى شَانِيسَ.

”مَرْحَبًا، بَرِيَانُ. عَرَفْتُكَ مِنْ صُورَتِكَ. أَنَا رَتَّبْتُ أَوَّلَ مَوْعِدٍ“.

”أُوهِ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أَشْكُرَكَ. وَأَنْتِ...؟“

تَذَكَّرَتْ غَرِيسَ التَّصَرُّفَ اللَّائِقَ. ”هَذِهِ شَانِيسَ، يَا

بريان. إنها صديقتي الفضلى. ولك أن تُعطيها
السندويتش. أنا لست جائعةً جدًّا“.

بسّطت شانيس يدها. ”ستأكله إذا اضطررتُ لأن
ألقمها إيّاه. اسأل المعنّيين بالأمر عمّا يجري، من
فضلك“.

”لقد فعلَ ذلكَ حقًّا“. ونظرتُ غريس نحوَ الباب،
مُتمنيّةً لو يأتي شخصٌ ما.

رفعتُ شانيس نظرَها إلى بريان. ”لا ضررَ في
المُراجعةِ ثانيةً“.

غادرَ بريان، وربّبتُ شانيس رُكبةَ غريس.
”يستطيعُ المُرشِدُ أحيانًا أن يحصلَ على معلوماتٍ
تفوقُ ما يحصلُ عليه المُواطنُ العاديُّ“. وابتسمتُ
لغريس ابتسامةً تشجيع. ”كُلي، عزيزتي. لن تنفعي
قيلاسكو بأيّ شيءٍ إذ تظهريين مُرهقةً مُنهارّةً“.

رجعَ بريان. ”ينبغي أن نسمَعَ شيئًا ما عاجلاً“.

دخلَ طبيبٌ بعد ذلك بِنحوِ نصفِ ساعة. ”
غريس؟“ لِحقتُ به إلى داخلِ الرّدهة. لقد جرّتِ
الجِراحةُ حسنًا. لدى رومان الآن مُنظّمٌ لِضرباتِ
القلب، وهو كُمبيوتر صغير يُراقبُ قلبه ويُنظّمه. ”من
الخيرِ أنّه بقي حيًّا. ربّما تعرّضَ لِتوباتٍ قليلة ولم
يعلمَ ما كانت. هل فقدَ وعيَهُ قبلَ اليوم؟“

”لا أدري“. تذكّرتُ أنّها وجدته مرّةً مُقدّداً على
عَرَضِ السّرير، وقد بدا فاقداً لِلوَعْي. فافترضتُ أنّه

كان نائمًا.

قبل الدُّخول إلى وحدة العناية المُركَّزة، نظَّفت
غريس يديها بِمُضادِّ للبكتيريا وليست كِمامة. فتح
الطبيبُ البابَ لها، وتكلَّم بِهدوء. ”سُبقيه ههنا أربعًا
وعشرين ساعة، ثمَّ ننقله إلى عُرفة، للحيلولة دونَ
مُضاعفات. أمرٌ جيّد أنه في حالةٍ بدنيّة مُمتازة. أهو
رياضيٌّ؟“

”رَسام.“

بدا مطمئنًا. ”كانَ إصلاحُ قلبه هينًا. لدينا طبيبٌ
آخَرُ يتولّى الاهتمامَ بِساقه.“

”ما مُشكلةُ ساقه؟“

”لا أستطيعُ أن أقول.“

لا يستطيعُ أن يقول، أم لا يعلم؟ متى جرحَ رومان
رجلَهُ، يا ثرى؟

مع أنّه كان ما يزالُ مُتألِّمًا، كما بدا واضحًا، باتَ
لونه أحسن. وقد كان مُقيّدًا بأجهزةٍ مُراقِبةٍ لنبضات
القلب ومُستويات الأوكسجين وضغط الدّم. وكان
عمودٌ محقّنةٌ وريديّةٌ بجانب سريرهِ، إبرتها مُحمّمةٌ
في ظاهرِ يده. كما كان أنبوبٌ رقيقٌ موصولًا بكيس
لِقِياسِ البول. وقد كانت عيناهُ مفتوحتين،
مفتوحتين على وسعهما. ”غريس.“ زفَرَ اسمها،
مُسترخيًا جسّمه.

تقدّمت غريس إلى جانب سريرهِ وأمسكت يده.

”قلتُ لكِ إنني سأبقى“. وتكلّفتِ ابتسامَةً. ”تبدو أحسنَ من آخرِ مرّةٍ رأيْتُكَ فيها“.

اشتدّت يده على يديها. تراكمت عواطفها واحدةً فوقَ أخرى. لم تُرد أن تُفكّر كمَ عَناها أمرُه، وأيِّ نوعٍ من التّعقيدات سيُدخلُ ذلكَ على علاقتهما في العمل. ليس الآن. ”كثيرون يُصلُّونَ لأجلكِ، رومان. أرجو ألا تكونَ مُمانعًا نشري للخبر“.

”لا“.

”بريان وشانيس في غرفة الانتظار“.

”لقد أنقذني“.

لم تفهم غريس. ”ليس عليكِ أن تتحدّث الآن الآن. حاول أن تستريح“.

اشتدّت يده. ”كنتُ في جهنّم“.

اقشعرَ بدنُ غريس كلّه. انحنت ووضعت يدها الحُرّة على جبينه. ”ماذا تقول؟“

قال رومان بصوتٍ أجشٍّ: ”يسوع. هو أنقذني. كانوا مُمسكينَ بي، مُنشبينَ براثنهم في ساقِي“.

فحصَ مُمرّضٌ إحدى الآلات. ”هو تحت العلاج“.

ثمّ دارَ حولَ السريرِ وحقنَ شيئًا ما داخلَ صمامِ صغيرٍ موصولٍ بمحقنةٍ رومان الوريدية. وابتسمَ لغريس ابتسامَةً فهم. ”دقيقةً أخرى، وينبغي أن تذهبي. إنّه يحتاجُ إلى راحة“.

توتّر جسمُ رومان. "ستبقى". ولَمَّا رَفَعَ نَظْرَهُ إِلَى
المِحقنة المُنقّطة، تغيّرت سيماءُه. تسارعَ صفيّرُ
مِرقابِ القلبِ.

"ماذا وضعتَ فيها؟"

"مُجرّدَ شيءٍ قليلٍ لِيُساعدَكَ على الاسترخاءِ".

تركّزتَ عينا رومان على غريس. "لا تدعِهم
يُخدروني. يا يسوع، لا تدعيني أموتُ مُجددًا".

تجهّمَ المُمرّضُ. "لك أن تبقى معه قليلًا بعد". ثمّ
نقرَ مدخلاً بياناتٍ في محطة الكمبيوتر. "سأرجعُ
مُتفقًا بعدَ دقائق قليلة". وغادَرَ العُرفة.

ارتختَ قبضةُ رومان، ولكنّه لم يُفلتَ يدها. وأنّ
"ذلك المُمرّضُ وضعَ شيئًا في المِحقنة الوريدية". ثمّ
انسَدّتَ عيناه، فوسّعَهما مُقاومًا النّوم. "يا يسوع، لا
أريدُ أن أموت. لستُ مُستعدًا لأن أموت".

لم تستطعَ غريس احتمالَ ذلك. فاحتضنتَ وجهه
بِكفّيهَا. "أصغِ إليّ، يا رومان. ما كان الرّبُّ يسوعُ
لِيُنقذَكَ من جهنّمِ ثم يطرحَكَ فيها من جديد".

"لقد نَشِبتَ بي. لقد سلّختني..."

"رومان". تكلمتَ بهدوءٍ ورفقة. "لقد خلّصَكَ الرّبُّ
يسوع".

بدا مُنكسرًا ومُرتبكا. "لماذا؟"

ماذا يَسعُها أن تقولَ حِيالَ ذلك؟ "هُوَ سيُخبرُكَ

في ما بعد“.

كان خاسرًا المعركة في مواجهة أيّ دواءٍ أضيفَ إلى المحقنة الوريدية. ”لا تذهبي“.

”ربّما لا يسمحون لي بالبقاء، ولكنني أعدُّ بأنّي سأرجع“.

لم يستطع أن يُبقي عينيه مفتوحتين. ”كان من عادة أمّي أن تقولَ ذلك“.

رجعَ المُمرّض وتفقّد المؤشّرات الحيويّة. ”سينام الآن. يبدو كأنّ في وسعك أن تستفيدي من بعض الراحة، أنت أيضًا“.

”هل تعلم أين يُمكن أن أمكث، في فندقٍ فيه مطبخ؟ مكانٍ ما، فيه أستطيع أن أغسل الملابس؟“

اقترحَ فندقَ ”إكستند ستاي أميركا“ يبعدُ بضِع دقائق فقط.

رجعت إلى غرفة الانتظار، متوقّعةً أن تجدها فارغةً أو ملأى بغُرباء، ولكنّ شانيس وبريان كانا ما يزالان هناك، قاعدتين معًا على الأريكة، غائصين في حديث. حتى إنّهما لم يلاحظاها تدخلُ الغرفة.

راقبتهما غريس دقيقةً قبلما نظّفت حنجرتها مُتّحينةً. فرفعا كلاهما نظرهما ثاقبًا، ووقفوا. ولاقى بريان غريس في مُنتصفِ الطّريق. ”كيف حاله؟“

”هو نائم. قال إنّ يسوع أنقذه“.

”عجبًا!“ انضمت شانيس إليهما. ”لا شيء مثل“

اختبارِ تَذُوقِ الموتِ يجذبُ انتباهَ إنسانٍ ما. سأسوقُ
بكِ إلى البيتِ، عزيزتي. يُمكنكُ أن تنالي نومَ ليلةٍ
جيدًا، ثمَّ...“

هزّتْ غريسَ رأسها رَفْضًا، إذ كانت قد عقدتْ
عزمها على قرارِها. ”سأبقى في الجوار“.

”يا فتاة، أنتِ على يقين؟“ بدتْ شانيسَ قلقةً،
والتفتتْ ناظرةً إلى بريان.

”يُريدُ مِنِّي أن أبقى“.

تقدّمتْ شانيسَ حتّى باتت أقربَ إلى غريس.
”حبيبتي، أنتِ تَبدِينِ مُرهقةً فعلاً. أعلمُ أنّ هذا الأمرَ
بمُجمَلِهِ قد أدخلكِ دوامةً عاطفيّةً، ولكنّ رومان لا
يحتاجُ إليكِ. لديه أطباءٌ ومُمرّضون جيّدون“.

فهتتْ غريسَ قلقَ شانيس. من شأنِ وقتِ
ومسافةٍ قصيرين أن يُساعداها على التّفكيرِ بمزيدِ
من الجلاء. أمّا الآنَ الآنَ، فقد أرادت أن تبقى أقربَ
ما أمكن. ”لقد وعدته“.

”ماذا عن صمويل؟“

”سبقَ أن تكلمتُ مع سيلاه. لقد شجّعتني على
البقاء“.

بدتْ شانيسَ مُنزعجةً. ”بالتأكيد أنّ من شأنها
تشجيعك!“

كان ابنها مَسرورًا وسالِمًا عندَ سيلاه. أمّا الآنَ
تمامًا، فقد كان رومان هوَ مَنْ يحتاجُ إليها.

الفصل ٢٨

استيقظ رومان من الكابوس لاهتًا، وقلبه يخفق بقوة. كان قد دخل النفق من جديد، حيث أحاطت به ظلال ووحوش. وفيما هو فاقد حس الزمان والمكان، لهث لَمَّا وجد شخصًا واقفًا بجانب سريرهِ، ويدًا على كتفه.

”أسفةً لأنني أيقظتُك، مِستر قِيلاسكو، ولكنك كنت تُعاني كابوسًا آخر.“ كان اختصاصي التمريض، هذه المرّة، امرأةً في مُتوسّط العُمر ذات وَجِهٍ لطيف.

”أوه“. تباطأ تنفّسه. ”شكرًا“. ما زال قادرًا بعدُ على الشعور بالتأثير العميق للصّرخات المُتردّدة أصداؤها، وأناتِ الكُرب، وصريرِ الأسنان، الصّادِرة كُلها من أولئك الذين رأهم في جهنم. وقد بينَ مراقبُ القلب أن دقّاته تتباطأ إلى مُعدّلها الطبيعي.

”أينَ غريس؟“

”سترجعُ عاجلاً“. أعادتِ المُمرّضة ترتيبَ البطانِيّة، وسألته هل يحتاجُ إلى أيّ شيء، ثمّ غادرتِ

باتَ الجَوُّ الآنَ أهدأ، بعدَ خُروجهِ من وَحدةِ العِنايةِ المُركَّزةِ، ولكنَّ النَّاسَ مَزُّوا في الرِّواقِ الخارجِيِّ: مُمرِّضون، مُمرِّضات، طيب، زُوار. راقبَ رومانُ البابَ بانتِظارِ غريس. استلقى ساكنًا، مُتناغمًا مع الأصواتِ حوَالِيهِ، مِن تَحَدُّثِ بِصوتٍ مُنخَفِضٍ، وَأصواتِ أَحذيةٍ على الأَرْضِيَّةِ المصقولةِ، وِصفيرِ أَجْهَزةِ اتِّصال. أدارَ رَفِيقُ حُجْرَتِهِ التِّلْفِزيونَ. تقريرٌ إخباريٌّ وحديثٌ عن الحالةِ الجَوِّيَّةِ. أصغى رومان، وقد أرادَ أن يَنسى ذِكْرَ الوُحوشِ الشَّيطانيَّةِ والهاويةِ المُتَّقِدةِ.

جَهَنَّمُ موجودة. لقد ذهبَ إليها. وكَلِّمًا حاوِلَ إقناعِ نفسه بِبُطلانِ ما اختَبَرَهُ، أَحسَّ الأَلَمَ في ساقِهِ. لقد رآها لَمَّا غَيَّرَتِ المُمرِّضةُ الضَّمائِدَ، وتذكَّرَ سؤالَ الطَّبيبِ عن الإِصابةِ. وإذ كان مُنكسِرًا عاطفيًّا، قالَ إنَّ شيطانًا غرَزَ مخالِبَهُ في ساقِهِ، وحاولَ أن يسحَبَهُ من جَدِيدٍ إلى قَعْرِ جَهَنَّمِ. وقد أمرَ يسوعُ المسيحُ ذلكَ المخلوقَ بأن يُفْلِتَهُ، فأفلتَهُ. إذ ذاكَ وقَّفَ الطَّبيبُ صامتًا، ناظِرًا إلى رومانٍ مِثْلما نَظَرَ رومانٌ حَتْمًا إلى غريس لَمَّا أخبرتَهُ عن الملاكِ الذي جاءَ إليها لَمَّا كانت صغيرةَ السِّنِّ.

”أنا على يقينٍ بوجودِ تفسيرِ عقلائيِّ، مستر قِلاسكو“.

”عظيم. أخبرني، رجاءً. أوْدُ أن أسمعَ تفسيرًا“.

فَكَرَّ الطَّبِيبُ لِحِظَةً، وَهَزَّ رَأْسَهُ. "لَسْتُ أُدْرِي".

كَانَ رُومَانٌ قَدْ أَحَسَّ بِرَاثِنِ الشَّيْطَانِ. وَتَذَكَّرَ الثَّقَلَ
الَّذِي شَدَّ بِهِ نُزُولًا. لَقَدْ هَمَسَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ بِكَلِمَةٍ،
فَأَطْلَقَ رُومَانٌ حُرًّا. أَكَانَ نَفْسًا خَارِجَ جَسَدِهِ، أَمْ كَانَ
لِحْمًا وَدَمًا؟ حَاوَلَ أَنْ يَجْعَلَ عَقْلَهُ يُحِيطُ بِمَا جَرَى،
وَلَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ.

سَأَلَ الطَّبِيبُ عَنِ الْعَائِلَةِ. غَالِبًا مَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَالَةُ
وِرَاثِيَّةً. رَبَّمَا أَوْرَثَهُ وَالِدُهُ مُشْكِلةَ الْقَلْبِ. لَمْ يَوْجَدِ أَيُّ
سَبِيلٍ كَيْ يَعْرِفَ رُومَانَ، وَلَا أَيُّ سَبِيلٍ لِلتَّحَقُّقِ. أَكَانَ
وَالِدُهُ مَا يَزَالُ حَيًّا؟ رَبَّمَا كَانَ فِي هَاوِيَةِ النَّارِ وَالظُّلَامِ
الْمُتَأَجِّجَةِ تِلْكَ. وَهَلْ كَانَ وَيت بُوي فِي الظُّلْمَةِ
الْخَارِجِيَّةِ أَيْضًا، صَارًا بِأَسْنَانِهِ مِنَ الْعَذَابِ؟

انزاحتِ السُّتَارَةُ إِلَى الْوَرَاءِ. "صَبَاحُ الْخَيْرِ،
رُومَانُ". كَانَ الدُّكْتُورُ نَاجٍ حَامِلًا فِي يَدِهِ جَدْوَلًا
بَيَانِيًّا. "سَمِعْتُ أَنَّكَ مَا زِلْتَ تُعَانِي كَوَابِيسَ. هَلْ تُرِيدُ
أَنْ تَتَكَلَّمَ مَعَ عَالِمِ نَفْسِي؟"

كَبَسَ رُومَانٌ زَرًّا، فَرَفَعَ ظَهْرَ سَرِيرِهِ. "لَا". لَقَدْ قَالَ
الْحَقَّ مَرَّةً، وَلَمْ يُصَدِّقْ. فَأَحْسَنُ أَلَّا يَذْكُرَهُ لِأَحَدٍ ثَانِيَةً.
فَحَصَّ الدُّكْتُورُ نَاجٍ مَوْقِعَ مُنْظَمِ ضَرْبَاتِ الْقَلْبِ.
"يَبْدُو عَظِيمًا. يَشْتَغِلُ بِطَرِيقَةٍ مُمْتَازَةٍ. زَالَ الْوَرَمُ. لَا
أَثَرَ لِالْتِهَابِ. أَمْرٌ مُسَاعِدٌ أَنَّكَ ذُو صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ جَدًّا".

نَقَرَ الدُّكْتُورُ نَاجٍ شَيْئًا مَا دَاخَلَ الْكُمْبِيُوتِرَ.
"سَتَتَوَلَّى إِنْجَازَ الْعَمَلِ الْوَرَقِيِّ، وَنُخْرِجُكَ مِنْ هَهُنَا

غداً. سَتُحَدِّدُ الْمُرَضَّةُ مَوْعِدًا لِفَحِصِ عَامٍ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ“.

لَمَّا دَخَلَتْ غَرِيسَ الْغُرْفَةِ بُعِيدَ مُغَادِرَةِ الطَّبِيبِ، تَسَارَعَ نَبْضُ رُومَانَ. مِنْ دَوَاعِي الشُّكْرِ أَنَّ مِرْقَابَ الْقَلْبِ كَانَ قَدْ أُزِيلَ، مَعَ الْمِحْقَنَةِ الْوَرِيدِيَّةِ وَبَاقِي الْقِيُودِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَبْقَتْهُ مُوثَقًا فِي السَّرِيرِ. كَيْفَ كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ تُهْدِئَهُ امْرَأَةٌ وَتُنَشِّطَهُ فِي آنٍ مَعًا؟ كَانَتْ عِلَاقَتُهُمَا قَدْ تَغَيَّرَتْ بِلُطْفٍ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْأَخِيرَةِ. لَقَدْ رَأَى شَيْئًا جَدِيدًا فِي عَيْنَيْهَا، وَرَحَّبَ بِهِ.

لَقَدْ لَازَمَتْهُ غَرِيسَ عِبْرَ الْمِحْنَةِ كُلِّهَا. حَتَّى إِذَا قَرَأَتْ لَهُ لَمَّا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنَامَ. اسْتَيْقَظَ مَرَّةً فَرَأَاهَا نَائِمَةً عَلَى الْكُرْسِيِّ، وَكِتَابُهَا عَنْ تَارِيخِ الْعَالَمِ مَفْتُوحٌ فِي حِضْنِهَا. وَلَمَّا اسْتَيْقَظَ فِي مَا بَعْدَ، كَانَتْ قَدْ مَضَتْ، وَلَكِنَّهَا تَرَكَتْ كِتَابَهَا الْمَقْدَّسَ عَلَى صِينِيَّةِ طَاوِلَتِهِ. وَإِذَا تَصَفَّحَهُ، وَجَدَ مَقَاطِعَ كَانَتْ قَدْ سَطَّرَتْ تَحْتَهَا بِالْوَانِ مُخْتَلَفَةً، وَمُلَاحَظَاتٍ كَتَبَتْهَا عَلَى الْهُوَامِشِ وَالْحَوَاشِي، وَأَسْمَاءَ بِجَانِبِ مَقَاطِعِ مُعَيَّنَةٍ. هَلْ كَانَ اسْمُهُ مَكْتُوبًا فِي مَكَانٍ مَا؟

لَمَّا رَجَعَتْ، اسْتَرَاحَ وَابْتَسَمَ. ”نَسْتَطِيعُ أَنْ نَغَادِرَ غَدًا“.

”أَلَيْسَ ذَلِكَ عَاجِلًا فَوْقَ الْحَدِّ؟ مَا بَرِحَتْ هُنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ“.

كَانَتْ عَيْنَاهَا بِلَوْنِ الْعَسَلِ الدَّاكِنِ. ”قَلْبِي يَشْتَغِلُ

حَسَنًا بِالْفِعْلِ“. يَدُقُّ كَثَابَةً الْآنَ تَمَامًا.

نَقَبْتُ غَرِيْسَ دَاخِلَ حَقِيْبَتِهَا الظُّهْرِيَّةِ، وَنَاوَلْتَهُ نُسْخَةً مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ ذَاتَ غِلَافٍ جِلْدِيٍّ. ”أَرَدْتُ أَنْ يُنْقَشَ اسْمُكَ عَلَيْهِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ مُتَيَقِّنَةً أَيَّ اسْمٍ تُرِيدُ نَقْشَهُ: بِي رَايِ دِينَ أَوْ رُومَانَ قِيْلَاسِكُو“.

جَلَجَلْتُ تَلِفُونَهَا فِي جِزْدَانِهَا. أَخْرَجْتُهُ وَقَرَأْتُ النَّصَّ. ثُمَّ نَقَرْتُ بِإِبْهَامَيْهَا جَوَابًا سَرِيْعًا، وَدَسَّتُهُ فِي الْجِزْدَانِ مِنْ جَدِيدٍ. ”صَمُوِيْلُ يُعَانِي أَلْمًا فِي الْأُذُنِ“.

رُبَّمَا صَعَّبَ وَضَعُ رُومَانَ أُمُورَهَا أَكْثَرَ. ”لَقَدْ فَاتَتْكَ نِهَآيَةُ أَسْبُوعِكَ مَعَ ابْنِكَ. فِي وُسْعِكَ أَخْذُ عَطْلَةٍ عِنْدَمَا تَرْجِعُ“.

”أَحْسَبُ هَذَا وَعَدًّا مِنْكَ“.

”هَآ أَنْتَ هُنَا، مُخْتَبِنًا مَعَ غَرِيْسٍ“. ظَهَرَ جَاسِپِرٌ حَوْلَ السُّتَارَةِ، هَآذَا رَاسَهُ. ”أَنْتِ دَائِمًا تُسَبِّبُ الْمَشَآكِلَ، أَلَا تَفْعَلُ ذَلِكَ؟“ أَلْقَى جَاسِپِرُ التَّحِيَّةَ عَلَى غَرِيْسٍ قَبْلَمَا أَمْسَكَ يَدَ رُومَانَ. ”هَلْ كَانَ فَتَانًا مُتَعَاوِنًا؟“

”مَا كَانَ فِي يَدِهِ خِيَارٌ كَثِيرٌ“. تَلَقَّتْ غَرِيْسُ مُكَالِمَةً أُخْرَى، مِنْ تَالِيَا هَذِهِ الْمَرَّةِ. اسْتَرَآحَتْ تَالِيَا لِأَنَّ رُومَانَ بَدَأَ جَيِّدًا تَمَامًا. كَانَ قَدْ أَقْلَقَهَا أَنَّهَا قَدْ تَحَضَّرُ جِنَازَتَهُ. لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ لَهَا إِنَّ لَدَيْهِ مُشْكِلَةً فِي الْقَلْبِ؟ فَمَا كَانَتْ لِتُدْفِعَهُ ذَلِكَ الدَّفْعَ الشَّدِيدَ. مَاذَا عَنِ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ؟ كَيْفَ أَمْكَنَ أَلَّا يَعْلَمَ؟ لَعَلَّهُ كَانَ بِحَآجَةٍ إِلَى عَطْلَةٍ. يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُورُوپِيَا، أَوْ يَتَمَدَّدَ عَلَى

شاطيء في تاهيتي. تركها رومان تتكلم حتى لاحظت
سكوته.

”أما زلت هناك، رومان؟“

”أنا أتنفس، ولكن أذني تنقرحان بهذا الاهتمام
الأمومي كله.“

”لست أدري لماذا الأحمق!“

”عمولة الخمسين في المئة.“

”نعم، ذلك هو السبب.“ وضحكت ضحكة خافتة.

”متى ترجع إلى البيت؟“

”غداً، ولكن لا تتوقعي أية لوحات في أي وقت
عاجلاً.“

”وقتما تصير مستعداً. أعطني غريس مجدداً.“

ناول رومان غريس التليفون من جديد، فخرجت
إلى الرواق لئلا يهتدي الحديث.

”تشت وسوزان يبلغانك محبتتهما.“ والتقط

جاسپر الكتاب المقدس. ”هل بدأت تهتم بشيء ما
سوى الرسم؟“

”أعطتني غريس إياه.“ وترددت ثم قررت أن يعترف.

”لا شك عندي أن يسوع موجود، ولا سيما بعد ما
اجتازت فيه.“

”وماذا كان ذلك؟“

”أشك في أنك ستصدقني. ما عدا غريس، لا أحد

يُصَدِّقُنِي“. لقد أَسَكَّتَهُ مُحَادَثَةٌ وَاحِدَةٌ مَعَ طَبِيبِ شُكُوكِي.

”جَرَّبَنِي“.

أَخْبَرَهُ رُومَانٌ بِالْقِصَّةِ كَامِلَةً. لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَعْلَمَ أَصَدَّقَ جَاسِپِرَ أَمْ لَا. انْتَظَرَ، وَلَكِنْ جَاسِپِرَ بَقِيَ وَاقِفًا هُنَاكَ فَحَسِبَ، عَابِسًا وَسَاكِتًا. ”هَلْ تَنْوِي أَنْ تَقُولَ شَيْئًا مَا؟“

”أَنَا مَسْرُورٌ لِأَنَّي لَمْ أَكُنْ فِي الطَّرَفِ الْمُتَلَقِّي لِذَلِكَ الدَّرْسِ“.

”أَخِزْ شَخِصًا أَخْبَرْتَهُ، اعْتَقَدَ أَنَّي بِحَاجَةٍ إِلَى التَّحَدُّثِ إِلَى طَبِيبِ نَفْسَانِي“.

”أَنَا مُؤْمِنٌ بِالْمَسِيحِ، وَمَا بَرِحْتُ عَلَى مَدَى سِنِينَ كَثِيرَةٍ. تَوَقَّفْتُ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى الْكَنِيسَةِ بَعْدَمَا مَاتَ زَوْجَتِي“. وَانْقَلَبَتْ شَفْئُهُ. ”رَجَعْتُ لَمَّا أُصِبتُ بِسَرَطَانٍ“.

”كَيْفَ لَمْ أَعْرِفْ عَنْكَ هَذَا قَطُّ؟“

قَعَدَ جَاسِپِرَ عَلَى الْكُرْسِيِّ قُرْبَ النَّافِذَةِ. وَمَدَّ رِجْلَيْهِ كَمَنْ يُرِيحُ نَفْسَهُ.

”مَا سَأَلْتَ قَطُّ، وَفِي أَيِّ وَقْتٍ أَتَيْتُ عَلَى ذِكْرِ الْأُمُورِ الرُّوْحِيَّةِ، كَانَتْ عَيْنَاكَ تَجْمُدَانِ كَالزُّجَاجِ. لِكُلِّ شَيْءٍ تَحْتَ الشَّمْسِ وَقْتٌ، بِي رَايَ. لَمْ يَبْدُ الْوَقْتُ قَطُّ مَوَاتِيًا بِالنُّسْبَةِ إِلَيْكَ“.

”مَا زَالَتْ الْكُوَابِيشُ تَنْتَابُنِي“.

أطلق جاسپر ضحكة خفيفة. "أمرٌ غيرٌ مفاجئ. قد تتأبني كوابيس لمجرد سماعي اختبارك".

"ما زلتُ أحاولُ أن أفكر ملياً في سبب إنقاذ يسوع لي". وتوقع أن ينشئ جاسپر نكتة.

"يظهر أنه لم ينفُض يده منك".

كان لدى رومان الشعور نفسه، ولكن كانت لديه أسئلة أكثر من أجوبة. "هل من فكرة عما قد يريد مني؟"

"أنت تسأل الشخص غير الصحيح. كل ما يمكنني أن أقوله لك هو أن الإيمان ليس إلا بداية رحلة شاقّة طويلة".

عادت غريس بعد قليل، وقالت إنها ستتركهما وحدهما ليتحدّثا. طلب إليها رومان أن تبقى. لم يكونا يتحدّثان بأيّ شيءٍ لم تعرفه أصلاً. قالت إن لديها أشياء تعملها، ما دام قد تلقى خبراً بأنه سيطلق من سجنه غداً. "لا بأس، لا بأس". رمقته بنظرة غبوس وهي مُغادرة.

رفع جاسپر حاجبيه. "هل كانت غريس معك كامل الوقت؟"

"أين تظنّها ستكون؟"

"في البيت. إنه يبعد ساعة واحدة فقط. للشابة حياتها الخاصة، كما تعلم".

"كان هذا خيارها".

”حقاً؟“ قالها جاسپر مُتشدِّقاً، مع ابْتِسَامَةٍ تَأْنِيْبٍ

باردة.

عَبَسَ رومان. هل جعلها هو تَعِدُّ بالْبَقَاءِ؟ فَكَّرَ فِي تَفْوِيْتِ غَرِيْسٍ وَقْتًا مَعِ طِفْلِهَا. ”كَانَ مُمَكِنًا أَنْ أْبْعَثَهَا إِلَى الْبَيْتِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَدِيهَا سَيَّارَةٌ“.

”أَعْرِهَا سَيَّارَتَكَ. أَنْتِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرْتَبِ تَوْصِيْلَكَ إِلَى بَيْتِكَ فِي لِيْمُوْزِيْنِ. أَمْ لَا تَسْتَأْمِنُهَا عَلَى مَفَاتِيْحِكَ؟“

”أَسْتَأْمِنُهَا عَلَى حَيَاتِي“.

”إِذَا أَعْطِ الشَّابَّةَ اسْتِرَاحَةً“.

”مَنْ الْمُحْتَمَلُ أَنْ تَتَّصِلَ بِبِرِيَانِ هِنْلِي“.

أَطْلَقَ جَاسِپِرٌ ضِحْكَةً رَقِيْقَةً. ”حَقِيْقَةٌ كَوْنِ غَرِيْسٍ قَدْ بَقِيَتْ مَعَكَ فِي أَثْنَاءِ هَذَا كَلِّهِ يَنْبَغِي أَنْ تَقُوْلَ لَكَ شَيْئًا مَا. إِنَّ الشَّابَّةَ ثُبَالِي“.

أَحَبُّ رومان سَمَاعَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِلَى أَيِّ عُمُقٍ وَصَلَتْ مَشَاعِرُهَا؟ وَكَمْ سَتَدُوْمُ؟

وَجَّهَ جَاسِپِرٌ حَدِيْثَهُمَا نَحْوَ الْأُمُوْرِ الرُّوْحِيَّةِ. وَجَرَى بَيْنَهُمَا حَدِيْثٌ سَهْلٌ إِذْ أَخْبَرَهُ جَاسِپِرٌ عَنِ طُفُوْلَتِهِ، وَمُعْتَقَدَاتِ أَبَوِيهِ الدِّيْنِيَّةِ الَّتِي بَنَتْ أَسَاسًا لِمُعْتَقَدَاتِهِ، وَعَنِ إِيْمَانِ زَوْجَتِهِ. حَتَّى إِنَّهُ تَطَرَّقَ إِلَى إِطْلَاعِ رومان عَلَى مَا يَتَوَقَّعُهُ إِذَا قَرَّرَ يَوْمًا أَنْ يَطَأَ بِقَدَمِيْهِ دَاخِلَ مَبْنَى كَنِيسَةٍ، لَمْ يَسْتَطِعْ رومان أَنْ يَتَصَوَّرَ نَفْسَهُ قَائِمًا بِذَلِكَ فِي أَيِّ وَقْتٍ قَرِيْبٍ. وَقَالَ جَاسِپِرٌ إِنَّ ذَلِكَ مَكَانٌ

مُنَاسِبٌ لِلتَّعَلُّمِ. وَسَيَكُونُ أَسْهَلَ أَنْ يَقُومَ بِتِلْكَ
الْخُطْوَةِ الْأُولَى إِلَى دَاخِلِ حَرَمِ غَرِيبٍ مَعَ شَخْصٍ
يَعْرِفُهُ.

”شَخْصٍ مِثْلِ غَرِيسٍ، مَثَلًا“. وَابْتَسَمَ لَهُ جَاسِپِرُ
ابْتِسَامَةً مُغَايِظَةً. ”مَنْ يَدْرِي؟ قَدْ تَصَطَّحْتُكَ إِلَى
كَنِيسَةِ بَرِيَانِ هِنَلِي. الْقُسُوسُ يَعْرِفُونَ أَكْثَرَ مِنِّي بِكَثِيرٍ
عَنْ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَالْكِتَابِ الْمَقْدَّسِ“.

”أَفْضَلُ أَنْ أُكْتَشِفَ الْأُمُورَ بِنَفْسِي“.

”مَا بَرِحْتَ كُلَّ حِينٍ تَفْعَلُ الْأُمُورَ بِالطَّرِيقَةِ الشَّاقَّةِ،
بُيِّي رَايِ“.

رَجَعَتْ غَرِيسٌ قَبْلَمَا غَادَرَ جَاسِپِرُ. قَالَ جَاسِپِرُ إِنَّهُ
سَيَبْقَى عَلَى تَوَاضُلٍ، وَرُبَّمَا يَنْزِلُ زَائِرًا بَعْدَ رَجُوعِ
رُومَانَ إِلَى الْبَيْتِ. لَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَفِيدَ جَيِّدًا مِنْ عُرْفَةِ
الضُّيُوفِ الْجَمِيلَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً. قَبْلَ جَبِينِ غَرِيسِ قَبْلَ
الْمُغَادَرَةِ.

”يَنْبَغِي لَكَ أَنْتِ أَيْضًا أَنْ تَذْهَبِي إِلَى الْبَيْتِ،
غَرِيسُ. لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ لَكَ تَقُومِينَ بِهِ، سِوَى الْجُلُوسِ
فِي الْجَوَارِ وَالِانْتِظَارِ“.

بَدَتْ مَأْخُودَةً عَلَى حِينِ غِرَّةٍ. ”جَيِّدٌ“. أَخْرَجَتْ
سِلْسِلَةَ الْبِيَامِ دَبْلِيُو مِنْ جِزْدَانِهَا وَوَضَعَتْهَا عَلَى
مِنْصَبِ صِينِيَّتِهِ.

”لَمْ يَظْهَرِ ذَلِكَ صَائِبًا“. كَانَ قَدْ قَصَدَ أَنْ يَبْدُوَ
مُضْحِكًا، لَا طَارِدًا. ”احْتَفِظِي بِسَيَّارَتِي“. مَا بَرِحَتْ

تستخدِمُها ذهابًا وإيابًا من الفندق. ”أحضري ابنك،
واذهبي إلى البيت. خذي عُطْلَةً بِضْعَةَ أَيَّامٍ“. أ حَدَّثَ
ذلك سِيماءَ مُفاجأةٍ وراحة.

”أنت على يقين؟“

أدرك كم كان غير مُراعٍ لأحوالها ومشاعريها. ”ما
بَرِحْتَ حاضنةً لي أَيَّامًا، فيما كان ينبغي أن تكوني
مع ابنك. سأَتَّصِلُ بخدمة ليموزين عندما يصرِفونني
من هذا الأوتيل“.

”هل تحتاج إلى أيِّ شيء؟“

قال رومان إنه بخير، ثم افتقدَها دقيقةً خرَّجت
من الباب.



بعثت غريس برسالة نصيَّة إلى رومان. أعلمني عندما
تصيرُ قريبًا. لديّ مفتاح بيتك. أصدرَ تَلِفونُها إشارة
رسالة جديدة حالما فرَّغت من تغييرِ جِفاضِ صمويل.
من رومان. سأكونُ هناك بعدَ ثلثِ ساعة. سحبت
اللباس الداخلي لسمويل المخطَّطة بالأزرق والأبيض
نُزولًا وأطبقت أبازيَمَها. ”هيا، يا رجلًا صغيرًا“. ثمَّ
شالته وركَّزته على وركها.

انعطفت سيَّارة ليموزين سوداء، من ماركة لِنكولن
تاون كار، حولَ المُستديرة وتوجَّهت نحوَ الطَّريق
الخاصَّة. تسارعت دقآث قلبِ غريس لَمَّا ترَجَّلَ

رومان. لاقتُهُ في الممشى الأمامي، مُلاحِظَةً كيف
توكأ على العصا. ”جَيِّدٌ أَنْكَ رَجَعْتَ إِلَى الْبَيْتِ“. ثُمَّ
جَاوَزَتْهُ مُتَّجِهَةً إِلَى بَابِهِ الْأَمَامِيِّ، وَفِي يَدَيْهَا مِفْتَاحٌ.
وَإِذْ فَتَحَتْ قُفْلَ الْبَابِ، نَاوَلَتْهُ مِفْتَاحَ السَّيَّارَةِ وَمِفْتَاحَ
الْبَيْتِ. مَسَّتْ أَصَابِعُهُ أَصَابِعَهَا مَسًّا رَفِيقًا، فَتَرَاوَجَعَتْ
قَلِيلًا، حَامِلَةً صَمْوِيلَ بِشَكْلِ الصَّقِ. ”خَطَرَ فِي بَالِي
تَوًّا أَنَّهُ رُبَّمَا لَا يُوجَدُ فِي بَرَادِكَ أَيُّ شَيْءٍ يُؤْكَلُ“.
”فِي وَسْعِي دَائِمًا أَنْ أُسَخِّنَ وَجِبَةً مُجَلَّدَةً
بِالْمَايَكْرُويفِ. رُبَّمَا يَبْدُو مَذَاقُهَا جَيِّدًا مِثْلَ طَعَامِ
الْمُسْتَشْفَى“.

لَمْ تَتَمَالِكْ غَرِيسَ نَفْسَهَا. ”لَكَ أَنْ تَعْبُرَ إِلَى الْكُوخِ
لِأَجْلِ الْغَدَاءِ، إِذَا أَحْبَبْتَ“.

ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. ”عَلِمْتُ أَنَّهُ إِنْ بَدَوْتُ
مُثِيرًا لِلشَّفَقَةِ كَفَايَةً فَلَا بُدَّ أَنْ تَدْعِينِي. أَيُّ وَقْتِ؟“
أَطْلَقَتْ ضِحْكَةً مُتَوَثِّرَةً، مُتَسَائِلَةً هَلْ تُوشِكُ أَنْ
تَرْتَكِبَ غَلْطَةً. ”مَتَى حَلَّ بِكَ الْجُوعُ، كَمَا أَخْمَنُ“.
”أَنَا جَائِعٌ الْآنَ“.

شَيْءٌ مَا فِي لَهَجَتِهِ جَعَلَ غَرِيسَ تَعْتَمِدُ الْحَذَرَ.
”سَيَكُونُ عَلَيْكَ أَنْ تُبْقِيَ عَيْنَكَ عَلَى صَمْوِيلِ، كَمَا
أَخْمَنُ“. ظَنَّتْ أَنَّ ذَلِكَ سَيَجْعَلُ رُومَانَ يَفِرُّ هَارِبًا“.

”مَا دُمْتُ غَيْرَ مُضْطَرٍّ إِلَى تَغْيِيرِ حِفَاضِهِ“. أَغْلَقَ
رُومَانَ الْبَابَ الْأَمَامِيَّ وَمَشَى بِجَانِبِهَا. بَدَأَ لَهُ الْكُوخُ
أَصْفَرَ لِحْظَةً دَخَلَ إِلَيْهِ. تَرَكَ عَصَاهُ عِنْدَ الْبَابِ. أَعَادَتْ

غريس صمويل إلى البَطَانِيَّة التي سبق أن بسطتها على السَّجَّادَة ونثرت عليها لُعبًا. ”عليك أن تُبقي عينك عليه. يُمكنه أن يقطع مسافةً أسرع مما قد تُظنُّ“. قعدَ رومان على طرفِ أريكتيها وانحنى إلى الأمام، أخذًا واجباته، في ما يبدو، على مَحْمِلِ الجِدِّ. تردَّدت غريس. ”لم أباشِرُ إعدادَ الغداء، ولكن في وُسعي أن أعملَ لك سندويتشًا لِتُسكِّنَ جوعك“.

”ما أرغبُ فيه حقًّا هو فِنجانُ قهوة“. التقطَ أرنبًا مَحْشُومًا وهزّهزه. فمدَّ صمويل يده وتشبَّث به. ”هل يُحاولُ أن يأكله؟“

”كلُّ شيءٍ يؤوُلُ إلى فمه الآن. أسنانهُ تنبت“.

”أسنانهُ تنبت؟“

”لا تقلق. ما سحَبَ دمًا بعد!“

رمى صمويل الأرنب طائرًا، ففاجأ نفسه. وإذا تصلَّبت أطرافه، زعق. بدا رومان على حافةِ الدُّعر. أشفقت غريس عليه. فقلَّبت صمويل على بطنه، وربَّتت مقعدته. ”أحضِرِ الأرنب، يا رَجُلًا صغيرًا“. هدا صمويل مُجدِّدًا، فدفعَ نفسه إلى فوق“. ”إنه بخير“. وتوجَّهت غريس إلى المطبخ المُجاور. ”تخميني أنك قلَّما قاربت أطفالًا“.

ضحك رومان ضحكةً ثقيلة. ”بذلتُ كلَّ ما في وسعي لِأُتجنَّبَ إنجابَ طفل“.

حسنًا، لقد أخبرها ذلك بأكثر مما أرادت أن تعرف.

وفيما هي تكيّل البُنّ، تمتّمت: ”كم كان ذلك تصرّفًا
مسؤولًا من قبلك!“

”إنّه فاتنٌ نوعًا ما“.

فاتنٌ نوعًا ما؟ ”يا لطيف! شكرًا“. وصبت ماءً
داخل مكنة القهوة. ”يصدف أنني أحسبُ صمويل
أجملَ طفلٍ وُلِدَ يومًا“. وإذ فتحت خزانةً، أنزلت كُوبًا
عليه شعارٌ رايدرز (المُغيرون). ”ولكن بعد ذلك
أفترضُ أن كلَّ أم تشعُرُ ذلك الشعور“. وما لبث
صمويل أن تمكّن من التّدحرجِ لِالتقاطِ الأرنب. ”هُوَ
أيضًا ذكيٌّ جدًّا“.

كان رومان ما يزال مُتمركزًا كحارسٍ شخصيٍّ على
طرف الأريكة. ”أنتِ قلتِ!“ ثمّ فقدَ صمويل الاهتمامَ
بالأرنب، فتدحرجَ ثانيةً وتشبّثَ بِحاشيةِ جينزِ
رومان. وبدأ يهتاج. فبدأ رومان مُتضايقًا. ”أينبغي
لي أن أبعده؟“
”إذا أردتِ“.

”لا يهمّ ما أريدُه أنا. ماذا يُريدُ هو؟“

”يُريدُ منك أن تحمله“.

قامَ رومان بِحركتي تَرُدُّ قبلما أمسك الطّفلُ
بِأحكامٍ وأجلسه في حُضنه. حدّقا أحدهما إلى الآخر.
ولمّا رجّحَ صمويل ذراعِيه دائريًا، ضحكَ رومان.
”أعتقدُ أنّه يُسدّدُ لكَماتٍ إليّ“. وتظاهرَ بأنّه يتجنّب
اللّكَمات. فأطلقَ صمويل قهقهةً طِفْل، الأمرُ الذي

جعل رومان يضحك.

”لا بُدَّ لك من أن تضعه أرضًا إذا كُنْتَ تنوي أن تشرب القهوة.“

وضَعَ رومان صمويل من جديدٍ على بطنه، وحطَّ الأرنَبَ خارجَ مُتناوَلِهِ تمامًا. ”أذهب والتَّقِطه، يا صاحب.“

ناولت غريس رومان كُوبَ القهوة الطازجة، وانشغلت بإخراج لوازِم السَّنْدويتشات. شكَّرتِ اللهَ لأنَّ الرَّجُلَ لم تَكُنْ لديه أدنى فِكْرَةٍ عَمَّا كانت شاعِرةً به. كان كلُّ شيءٍ حَسَنًا حتَّى مات رومان على الرَّصيف، فانقلَبَ عالمُها رأسًا على عقب. لم تُرد أن تُجِبَّه. إنَّها ستتاذَى مُجددًا فحسب، هذه المرَّة أسوأ بكثيرٍ من ذي قبل. أحسَّت دفقةً تَوَرَّدٍ مُقبِلةً، ودسَّت خُصلةً شعرٍ وراء أذُنِها. وإذ أشاحت وجهها، فتحت مَرطبانَ زُبْدَةِ الفُسْتُق. تمالكي نفسك، غريس. لا تنسي مع من تتعاملين هنا.

”لم أشكركِ بطريقةٍ لائقةٍ من أجل إنقاذِ حياتي.“

واجهته. ”أنا لم أنقذ حياتك. الله فعل ذلك.“

”نعم، أعلمُ أنَّ يسوعَ أنقذني، ولكنَّه استخدمك للقيام بذلك.“ بدا مُتجهِّمًا. ”لقد أجريت لي تنفُّسًا اصطناعيًا وإنعاشًا. أتذكِّرين؟“ وحكَّ صدره. ”ما زال صدري يؤلمني.“

”لستُ مُفاجأةً. ساعدني رجل. ثمَّ اهتمَّ بك

مُسْعِفَان، وبعْدَ ذلِكَ جَرَّاح. لَقَدْ وُضِعَتْ عَلَيْكَ أَيَادٍ كَثِيرَةٌ، رومان.“

”يَدَاكَ كَانَتَا الْأَوْلَيَيْنِ“.

لَمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ. أَحْسَتِ أَحْشَاءُهَا دَافِئَةً وَرَقِيقَةً. ”حَسَنًا، يَشْرُنِي أَنَّكَ حَيٌّ“.

”ذَلِكَ يَجْعَلُنَا اثْنَيْنِ“.

لَمْ يَتَحَرَّكَ رومان، وَلَكِنَّهُ شَعَرَ بِأَنَّهُ أَقْرَبَ. تَحَرَّكَتْ حَمَلَقَتُهُ فَوْقَ وَجْهِهَا، مُتْرِيثَةً عِنْدَ فَمِهَا. شَرَعَ صَمُوِيلُ يَبْكِي. فَكَانَتْ غَرِيْسُ شَكُورًا مِنْ أَجْلِ الْإِلْهَاءِ، وَذَهَبَتْ لِتَتَفَقَّدَ ابْنَهَا. انْحَنَّتْ عَلَيْهِ وَدَغَدَغَتْ بَطْنَهُ بِفَمِهَا، جَاعِلَةً إِيَّاهُ يَضْحَكُ قَبْلَ أَنْ تَشِيلَهُ.

رَجَعَ رومان إِلَى الْأَرِيكَةِ. وَإِذْ مَالَ إِلَى الْأَمَامِ، مُبَاعِدًا رُكْبَتَيْهِ، حَمَلَ الْكُوبَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ، وَرَاقَبَهَا تَصُبُّ بَدِيلِ الْحَلِيبِ فِي قِنِينَةٍ. بَدَأَ مُسْتَغْرِقًا فِي التَّفْكِيرِ تَمَامًا، وَلَكِنْ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا اجْتَاَزَ فِيهِ كَانَ لَدَيْهِ كَثِيرٌ يُفَكِّرُ فِيهِ مَلِيًّا. سَخَّنَتِ الْقِنِينَةُ فِي الْمَايَكْرُوِيْفِ. ”هَلْ نِمْتَ أَفْضَلَ قَلِيلًا الْبَارِحَةَ؟“

”لا“.

رَجَعَتْ غَرِيْسُ وَصَمُوِيلُ عَلَى وَرِكْهَا، وَنَاوَلَتْ رومان قِنِينَةَ الْحَلِيبِ السَّاخِنِ. بَدَأَ مُرْتَبِكًا. ”أَنْتِ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّكَ تَثْقِينَنِي بِي؟“

”لِي يَدَانِ فَقَطْ، وَأَنْتُمَا كِلَاكُمَا جَائِعَانِ“. ابْتَسَمَتْ

لَهُ ابْتِسَامَةٌ رَجَتْ أَنْ تَكُونَ مُشْجَعَةً. ”كُنْ شُجَاعًا، رومان“. وَإِذْ انْحَنَّتْ سَلَمَتُهُ ابْنَهَا. ”وَسَّدْهُ عَلَى ذِرَاعَيْكَ، وَأَعْطِهِ الْقَيْنِينَ، فَتَكُونَ بِخَيْرٍ تَمَامًا“.

قَامَ رومان بِمَا طَلَبْتَهُ مِنْهُ، وَرَمَقَهَا بِنِظْرَةٍ اعْتِدَادٍ. ”أَعْتَقِدُ أَنَّي أَتَقِنُ الْأَمْرَ“.

كَانَتْ تِلْكَ الثَّقَّةُ الذُّكُورِيَّةُ كُلُّهَا بِحَاجَةٍ إِلَى كَبْحٍ مِنَ الْحَقِيقَةِ. ”عَلَيَّ أَنْ أَحْذَرَكَ. ”مَا يَدْخُلُ مِنْ طَرْفٍ، يَخْرُجُ مِنَ الْآخِرِ“. فَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ مُنَاسِبَةٍ قَصِيرَةٍ، وَابْتَسَمَتْ غَرِيسٌ قَلِيلًا. ”تَمَامًا!“

أَعَدَّتْ غَرِيسٌ دَجَاجًا بِالْپَارْمِيزَانِ وَزَلَّقتِ الصِّينِيَّةَ دَاخِلَ الْفُرْنِ. وَبَاشَرَتْ غَلِيَّ الْمَاءِ لِأَجْلِ السِّبَاغِيَّةِ، وَقَطَّعَتْ كُوسًا وَفُلْفُلًا حُلُومًا وَبِضَالًا لِأَجْلِ الشَّيِّ. وَفِيمَا هِيَ تُرْتَّبُ الْمَائِدَةَ لِشَخْصَيْنِ، حَانَتْ مِنْهَا التِّفَاتَةُ، فَرَأَتْ رومانَ مُمَدَّدًا عَلَى الْأَرِيكَةِ وَصَمُويلَ مُسْتَلْقِيًا عَلَى صَدْرِهِ، وَكِلَاهُمَا نَائِمَانِ نَوْمًا عَمِيقًا. فَقَعَدَتْ عَلَى الْكُرْسِيِّ الْهَزَّانِ، مُوجَّعَةً الْقَلْبَ، وَرَاقِبَتُهُمَا نَائِمَيْنِ.

يَا رَبُّ، لَا تَدْعِنِي أُرْتِكِبُ غَلْطَةً أُخْرَى، رَجَاءً. لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ أُمِّي وَأَنْتَقِي رَجُلًا سَيُدمَّرُنِي. كَادَ يَاطْرِيكَ يَفْعَلُ ذَلِكَ. وَالْآخِرُ... لَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَلُومَ أَحَدًا سِوَى نَفْسِي عَلَى الْخِيَارَاتِ الَّتِي قَمْتُ بِهَا.

تَحَرَّكَ صَمُويلَ. فَشَالَتْهُ بِحَذَرٍ بَعِيدًا عَنْ رومانَ، إِذْ لَمْ تُرِدْ أَنْ تُزْعِجَهُ. وَإِذْ حَمَلَتْ ابْنَهَا لَصِيقًا، نَظَرَتْ مِنْ غَلٍّ إِلَى الرَّجُلِ الْمُحْتَلِّ لِأَرِيكَتِهَا. كَانَ رومانَ قَدْ تَعَدَّبَ

بالكوابيس في المستشفى. كما تكلم في نومه،
وصرخ أحيانًا. والآن بدا هادئًا هانئًا.



استيقظ رومان على صوت ماءٍ جارٍ. استوى جالسًا،
فاركًا وجهه وممشطًا شعره إلى الوراء بأصابع يديه.
لقد نام نومًا عميقًا، أوّل مرّةٍ بلا أحلامٍ منذُ عانى
اختبارَ تذوّقِ الموت. كانت غريس واقفةً إلى مغسلِ
المطبخ، مُحَمَّمةً صمويل، وقد تدلّت منشفةً على
كتفها. فالتفتت ناظرةً إليه. ”أنت مُستيقظ؟“
”ما قصدتُ أن أنهارَ هكذا“.

”كنتُ مرهقًا“. وأومات برأسها. ”غداؤك على
الطاولة. لك أن تُسخّنه في المايكرويف“. رشّش
صمويل الماء، فضجّت.

كان منظرُ الوجبةِ حسنًا ورائحتها طيبة. ”لقد
جاوزتِ وتخطيتِ الواجب في اهتمامك برئيسك“.
ثمّ سحب كُرسياً وقعد، مُتصرِّفًا بحريّةٍ كأنه في بيته
هنا أكثرَ منه في أيّ مكانٍ آخر.

”ليس هذا أكثرَ ممّا سيفعله صديق“. سحبت
غريس سِدادةَ المغسل، مُصرِّفةً الماء من المغسل. وإذا
لَفَّت المنشفةَ حولَ صمويل، شالته من المجلى. ”هيا،
يا رجلاً صغيرًا. لنُحضّرك للنوم“.

تناوَل رومان بضعَ لُقَم، مُستمتعًا بالوجبة المَطهوّة

في البيت. لاحظ الوقت في ساعة الميكرويف وأن في داخله. لم تبدُ غريس مُستاءةً، ولكن أيُّ امرأةٍ تُريدُ لِذِجْلِ أَنْ يُعَدَّجَ لِيتسنى لَهُ أَنْ يقضي ثلاث ساعاتٍ نائمًا على أريكتيها؟ خاطبها مُناديًا. ”سأخذُ الغداءَ إلى مَسْكِنِي حتَّى تستطيعي استِرجاعَ بيتك“. ودفعَ الكرسيَّ إلى الِوراء.

رجعت وضموِيل راکبٌ على وِركها، ويدهُ مُتشبَّثةٌ بمُقدِّمِ بُلورتيها. ”يُمكنكُ أَنْ تُكَمِّلَ الغداءَ قبلَ أَنْ تذهبَ“. ولَمَّا بدأ صموِيل يهتاج، نَطَّطته وباستهُ في أعلى رأسه. ”أحسنُ لي أَنْ أهدُّتهُ“.

”شُكرًا على الغداء، غريس“.

”أهلاً بك. أعتقدُ أَنَّكَ ستَنامُ أفضلَ الآن، بعدمَا رجعتَ إلى البيتِ وأكلتَ“.

يقولها ”البيت“، عَنَتِ البيتَ الكبير، وهو علمٌ أَنَّهُ لن ينام. أكملَ الغداء، وشطَفَ الصَّحن، ووضعَهُ في غَسَّالَةِ الصُّحون، مُدْرِكًا سُخْرِيَّةَ كَوْنِهِ يَعْرِفُ كَيْفَ يُبْقِي الأشياءَ مُرتبَةً ونظيفةً في بيتِ شخصٍ آخَر، ولكن ليسَ في بيتِهِ هو.

التقَطَ عَصَاه، وأغلقَ بابها لدى خُرُوجِهِ. وقَفَ على شُرفَتِهَا الأماميَّةِ الصَّغيرة، وجعلَ عينيهِ تتكَيَّفانِ مع اللَّيل. سقسقت صرَّاراتُ اللَّيل، ثُمَّ سكتت لَمَّا مشى على القَمَرِ. كان قد تركَ بابَهُ الأماميَّ غيرَ مُقفل. وإذ نَقَرَ الأنوارَ فضاءت، دخلَ البهُو. فتركها مُضاءةً،

وأضاء أكثرَ منها في حُجرة الجلوس. ثمَّ أضاء المزيدَ في الرّواق. أصدرتَ خَطَوَاتُه أصداءً. كان قد تركَ سريره غيرَ مُسوّى. أجالَ نظره في أنحاءِ عُرفةِ نومه العصريّةِ جدًّا، السّوداءِ والبيضاءِ، الخاوية الموحِشة، وقرّرَ أنّه سينامُ أفضلَ في عُرفةِ الضُّيوف.

إذ باتَ رومان مُستيقظًا تمامًا الآن، رجَعَ إلى حُجرةِ الجلوس. أثارَ الصّمتُ أعصابه. أدارَ التّلفزيون. وإذ سحَبَ دفتره الأسودَ من تحت الأريكة، خطَّطَ بيتَ بنتِ الهوى في بُوداي. ثمَّ قلبَ الصّفحة ورسمَ أمه. وكزّت الرّسماتُ واحدةً إثرَ واحدة: ريبّر مُنظرِحًا في بركةِ دم، وبيت بُوي واقِعًا. ثمَّ اسودّت الصُّور، وملاً بضعَ صفحاتٍ بوجوهٍ شيطانيّة. وإذ أدركَ ما كانَ فاعلاً، دفعَ الدّفترَ الأسودَ إلى مكانه تحت الأريكة الجليديّة.

لم يكنْ قد رأى وجهَ الرّبِّ يسوع. كان كلُّ ما رآه هو النُّور.

وإذا أمرَّ أصابعَ يديه في شعره، وقفَ وعرجَ إلى النّوافذ، حيثُ نظرَ خارجًا إلى سماء اللّيل، فرأى الظّلمةَ في كلِّ مكان. من شأنِ غريس أن ترى النُّجوم. أحسَّ أنّه في السّابعة من عُمره مرّةً أُخرى، مهجورًا، مرعوبًا. ما كانَ قَطُّ قد شعَرَ بالأمان في الشّقة متى كانت أمّه غائبة. حتّى إنّه كانَ أقلَّ شعورًا بالأمان أيضًا كلّما رجعتَ مُصطحبةً رجلاً. البارحة تركتهُ

وحيدًا ومُعَرَّضًا للأذى والخطر. تشبَّثَ بها، وهي
دفعته بعيدًا. فنظَرَ خارجَ النَّافذة مُراقِبًا، تمامًا كما
كان فاعِلًا الآن. ومشى مُنكفئًا عن الظُّلْمَةِ.

يا يسوع. لستُ أعلمُ كيفَ أصَلِّي، يا يسوع.

أحسَّ رومانٌ وُحوشًا مُتواريةً وراءَ الحجابِ تمامًا،
قريبةً جدًّا، وهي ما زالت مُصَمِّمةً على سحبه بعيدًا
عن ذاك الذي أنقذه.

الفصل ٢٩

مرَّ الأسبوع بِبُطءٍ، فيما لم تحضُر غريس إلى العَمَلِ كلِّ يومٍ. وقد أعطَها رومان بُعدها. كانَ ذلكَ أقلَّ ما وَسِعَهُ أن يفعلَ، بعدَ كُلِّ ما فعلتهُ لأجلِهِ.

في وقتٍ مُتأخِّرٍ من ليلَةِ السَّبْتِ، جَلَجَلَ تَلْفونُهُ بِرِسالةٍ وارِدةٍ. من غريس. أتوَدُّ أن تذهبَ إلى الكنيسةِ معي ومع صَمويلِ غداً؟

كانَ مَبيلُ رومانِ الأوَّلِ أن يقولَ لا، ولكنَّهُ تذكَّرَ نصيحةَ جاسِپر. الأفضَلُ أن يذهبَ أوَّلَ مرَّةٍ معه شخصٍ يعرفُهُ. أيِّ ساعةٍ؟ جاءَ جوابُها بِسرعةٍ، وتمنَّتْ لَهُ ليلَةٌ سعيدةً.

ساقَ رومان سيارتهُ إلى قن نيس، فيما غريس على مقعدِ الرَّاكِبِ الأماميِّ، وصَمويلُ مُحزَمٌ داخلَ مقعده الخاصِّ بالسيَّارةِ وراءَ رومان. امتلأَ موقِفُ السيَّاراتِ، وتقاطرت جَمهدةٌ من الناسِ نحوَ الأبوابِ المفتوحةِ، حيثُ وزَّعَ المُرحَّبونَ أوراقَ البرنامجِ. وما كانَ رومان قَطُّ قد شَعَرَ بالراحةِ وسطَ جُمهورٍ.

التفتت غريس إليه. ”سأخذُ صمويل إلى الحضانة وأرجعُ حالاً“. وأومات برأسها نحو مجموعة من الأبواب المُزدوجة المؤدّية إلى ما بدا شبه مُدرجٍ صغير. ”نحنُ نجلسُ عادةً في الجهة اليمنى عند مُنتصف القاعة تقريبًا“.

شعَرَ بِلَحْظَةٍ ذُعِرَ إِذِ اخْتَفَتْ غريس وَسَطَ الحَشْدِ. مَنْ عَنَت بِقَوْلِهَا ”نحنُ“؟ وما لِبَثِّ أَنْ رَأَاهَا مِنْ جَدِيدٍ، تَشُقُّ طَرِيقَهَا وَسَطَ الجَمْعِ بِالتَّعَرُّجِ، كَسَمَكَةِ سَلْمُونَ صَاعِدَةً فِي نَهْرٍ، ثُمَّ اخْتَفَتْ ثَانِيَةً. وَقَدْ تَحَرَّكَ الآخَرُونَ حَوْلَهُ كَمَا لَوْ كَانَ صَخْرَةً فِي مَجْرَى النَّهْرِ. حَاوَلَ أَنْ يَحِيدَ مِنَ الطَّرِيقِ، وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ نَفْسَهُ مُنْجَرِفًا فِي التِّيَّارِ. وَمَا إِنْ عَبَرَ الأبوابَ، حَتَّى انْسَلَّ خَارِجًا مِنَ المَجْرَى وَوَقَفَ بِلِزْقِ الجِدَارِ.

بدا صدرُ الكنيسةِ أشبهَ بِقَاعَةِ حَفْلَةٍ موسيقيّةٍ، مُكْتَمِلَةٌ بِطَاقِمِ جَوْقَةٍ عَلَى المَسْرَحِ. وَقَدْ تَدَلَّتْ وَرَاءَهُمْ شَاشَةٌ كَبِيرَةٌ، عَالِيَةٌ عَلَى نَحْوِ كَافٍ بِحَيْثُ يَرَى كُلُّ حَاضِرٍ الإِعْلَانَاتِ تَكَرُّرًا وَاحِدًا بَعْدَ الآخَرِ: دَرَسُ الكِتَابِ المَقْدَسِ لِلنِّسَاءِ أَمْسِيَةَ الجُمُعَةِ، أَوْقَاتُ لِقَاءَاتِ الجَوْقَةِ لِلاِسْتِمَاعِ وَالتَّمْرِينِ، فَعَالِيَّاتُ خِدْمَةِ الرِّجَالِ. فَرِيقُ خِدْمَةِ سَيَتَوَجَّهُ إِلَى زِيمَابَوِي مُدَّةَ أُسْبُوعَيْنِ. الْحَاجَةُ إِلَى مُتَطَوِّعِينَ أَوْ مُتَطَوِّعَاتٍ لِتَعْلِيمِ صَفِّ مَدْرَسَةِ الأَحَدِ.

ماذا كان يؤخّرُ غريسَ طويلاً هكذا؟

رَبِّمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى فِي الْبَيْتِ وَيُشَاهِدَ بِضَعِّ
خِدْمَاتِ كَنْسِيَّةٍ عَلَى شَاشَةِ التَّلْفِزِيُونَ قَبْلَ أَنْ يَتَجَاسَرَ
عَلَى دُخُولِ الْمَعْمَعَةِ. فَلَعَلَّهُ كَانَ كَوْنِ فِكْرَةٍ أَفْضَلَ عَمَّا
يَتَوَقَّعُهُ.

”مَرَحِبًا بِكَ!“ ظَهَرَتْ شَانِيْسُ مُبْتَسِمَةً لَهُ ابْتِسَامَةً
عَرِيضَةً. ”لَمْ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَجِدَكَ هُنَا“.

”هَذَا يَجْعَلُنَا اثْنَيْنِ“.

”أَنْتَ هُنَا وَحَدِّكَ تَمَامًا؟ وَلِمَاذَا لَدَيْكَ عَصَا؟“

”تَمَرُّقٌ عَضَلِيٌّ“. هَزَّ كَتِفَيْهِ، غَيْرَ رَاغِبٍ فِي
التَّحَدُّثِ بِالْأَمْرِ. وَنَظَرَ مِنْ فَوْقِ رَأْسِ شَانِيْسِ نَحْوَ
الْأَبْوَابِ الْخَلْفِيَّةِ. ”غَرِيْسُ هُنَا فِي مَكَانٍ مَا. قَالَتْ إِنَّهَا
سَتَضَعُ صَمُوِيلَ فِي الْخَضَانَةِ، مَهْمَا كَانَتْ هَذِهِ“. لَا بُدَّ
أَنَّهَا فِي مَكَانٍ نَائٍ، وَاضِعَةٌ فِي الْحَسْبَانِ وَقْتُ غِيَابِهَا
الطَّوِيلِ.

”تَبْدُو مَتَأَهَّبًا لِلْفِرَارِ“. ارْتَقَصَتْ عَيْنَا شَانِيْسِ
الْدَاكِنَتَانِ مَرَحًا. ”مَا دَخَلْتَ كَنِيسَةً قَطُّ مِنْ قَبْلِ؟“

”لَا“. وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ بِالْفِعْلِ آخِرَ مَرَّةٍ لَهُ.

”قَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ مُرَبِّكَ حَقًّا. هَيَّا“. وَأَمْسَكَتَهُ
بِذِرَاعِهِ. ”سَنَهْتَمُّ بِكَ جَيِّدًا حَتَّى تَنْضَمَّ غَرِيْسُ إِلَيْنَا“.

لَمَحَ أَشَلِيٌّ وَنِيْكُولُ. لَا بُدَّ أَنْ هُوَ لَاءِ هُنَّ مَنْ قَصَدَتْهُنَّ
غَرِيْسُ إِذْ قَالَتْ ”نَحْنُ“. تَطَلَّعَ حَوَالِيَهُ بَحْثًا عَنْ
إِشَارَاتِ الْمَخَارِجِ. ثُمَّ دَفَعَتْهُ غَرِيْسُ تَقْرِيْبًا إِلَى دَاخِلِ
صَفِّ الْكِرَاسِيِّ. ”مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ مَا يَفْعَلُهُ كُلُّ

شخص سِوَاكَ، فتشغَلْ مكانَكَ تمامًا وَسَطَ الجُمهورِ“.

وما كان رومان قَطُّ بارِعًا في ذلك.

تقدَّم رجلٌ إلى مركزِ المسرح، ونادى شعبَ الله كي يُسَبِّحوا الرَّبَّ. فهَبَّ الجميعُ واقفين. ووقفَ رومان غيرَ مطمئنٍ. ثمَّ حَلَّتِ التَّرانيمُ محلَّ الإعلانات على الشَّاشة. وشرَعَ الجميعُ يُرَنِّمون، بصوتٍ عالٍ. كانت تلكَ حانةَ كارِيوكي ضخمة، ولكنْ لم يكنْ أحدٌ بحاجةٍ إلى بضعِ جرعاتٍ للاسْتِرخاء. وقد بدأت هذه الجماعة تَوًّا بالتَّمائيلِ والتَّصفيقِ.

كان جاسِپر قد أخبرَهُ عن جَوَقاتِ وقُسوسٍ في أثوابٍ سوداء، وسُكوتٍ ولياقة. لم يقلْ أيَّ شيءٍ عن غيتاراتٍ كهربائيةٍ زاعقة، وأجهزةٍ مَزجِ صوتيٍّ وطُبول، أو مُرَنِّمينَ يبدونَ مثلَ نُجومِ الرُّوك. لقد اهتزَّ المكانُ بالموسيقا. ثمَّ مالتْ شانيس نحوه. ”ألا تُغني؟“

”ولا حتى في الحمام!“

عندَ التَّرنيمةِ الثالثة، رفعَ مُعظَمُ الحُضورِ أياديهم في الهواء، ومنهم من ردَّدَ إصبغًا نحوَ السَّقْف، مثلَ مُناصري كُرَّةِ القدم إذ يُشجِّعونَ فريقهم المحليَّ. ثمَّ زلَّتْ غريس إلى صَفِّ مقاعدِ. فوسَّعتْ لها شانيس. وهمست بشيءٍ في أُذنِ غريس قبلما بدَّلتا مكانيهما. وجلستْ غريس حالًا بجانب رومان. ابتسمتْ له، ثمَّ شرَّعتْ تُشاركُ في التَّرنيم. لم يكنْ صوتها قويًّا أو

مُدْرَبًا كصوتِ شانيس، ولكنَّ رومان أحبُّهُ أكثر.

بعدَ نصفِ ساعة، تصوّرَ رومان أنَّ التَّرنيمَ كان كلَّ ما يجري في الكنيسة. قرأ التَّرنيماتِ بانتباه، وبدأ يروِّقُه كيف يُمكنُ أنْ أُلْفِيَ صوتَ تتناغمٍ معًا. وما إنْ بدأ يشغُرُ بالراحة، حتَّى توقَّفتِ الموسيقى، واعتلى رجلٌ آخرُ المسرحَ ودعا الجميعَ إلى الصَّلاة. تطلَّعَ رومان حوَالِيهِ وهو يُصغي، مُتلقِّيًا الموقفَ التَّعبديَّ لدى كثيرينَ جدًّا.

لَمَّا انتهتِ الصَّلاة، اكتنَفَ رومانَ صوتُ خَريرِ مَتموِّجٍ إذ شغَلَ الجميعُ مقاعدَهُم. فقعدَ مُتوتِّرًا مُترقِّبًا. ظهرَ تصميمٌ على الشَّاشة العُليا. فتحتَ غريس كتابها المقدَّس. كان رومان قد أحضرَ الكتابَ المقدَّس الذي أعطتهُ غريس إيَّاه، ولكنَّ لم تكنْ لديه فكرةٌ أينَ ينظر. فأخذتهُ منه ووجدتِ الموضعَ بِسرعة، ودلَّتهُ على الفصل. قرأ رومان الأصحاح، وأطبقَ الكتابَ ووضعهُ جانبًا، وركَّزَ على المُتكلِّم. تكلمَ الواعظُ عن حِرَاسَةِ قلبِكَ لأنَّهُ يرسمُ مجرى حياتِكَ. وقد عرَفَ رومان كلَّ شيءٍ عن حِرَاسَةِ قلبه. فهو ما بِرِخ يفعلُ ذلكَ على مدى سِنين.

انتهتِ العِظة بِسرعةٍ فائقةٍ في نظرِ رومان. لقد أرادَ أن يسمعَ المزيد، ولكنَّ الفرقةَ الموسيقيَّةَ برزتَ من جديد. ترنيمةٌ أخيرة، وكَلِمَةٌ أُخرى من القِسِّيس، ثمَّ انتهى كلُّ شيء. ”سأحضرُ صمويل والأقبيك

خارجًا عند المدخل“. وقبل أن يتمكن رومان من إيقافها، انسلت خارج صف المقاعد، وانضمت إلى الحشد المتجه نحو المخرج. جلست نيكول تنقذ رسالة نصية. وتطلعت أشلي حوالبها، ثم اعترضت سبيل رجل مُرتدٍ بدلة عقلٍ رسمية. وقد بدا مسرورًا برؤيتها.

ابتسمت له شانيس ابتسامة عريضة. ”لقد نجوت! ما رأيك في الكنيسة“.

”ليست ما توقعت“.

”أذلك حسن أم سيئ؟“

”لست أدري. كنت أتوقع تقليدًا وأجواءً رسمية، ولائحةً بكل شيء على المرء أن يكف عن القيام به“.

ضحكت. ”توجد كنائس من كل نوع، رومان“. ثم أسر شخص ما انتباهها، وصافحها بحرارة. ولاحظ رومان وفرةً من عروض المودة علنيًا، كلها حذرة، فتمنى ألا يعانقه أحد.

عرفته شانيس إلى بضعة أشخاص، ومنهم رجل دعاه في الحال إلى فطور للرجال يوم السبت التالي. فقال له رومان: ”شكرًا، سأفكر في الأمر“. لم يستطع أن يتصور أي شيء أسوأ من تناول الفطور مع مجموعة من الغرباء.

وإذ شقوا طريقهم نحو الأبواب المزدوجة، قالت له شانيس: ”توجد تشكيلة واسعة من الخيارات، إذا

أحببت أن تُشارك. لدينا أفرقة بيسبول وكرة قدم،
ويوجد رجالٌ كثيرون يُحبُّون أن يلعبوا التنس أو
الغولف“.

غولف؟ ابتسم لها رومان ابتسامةً ناشفة. ”هل من
شخصٍ يقومُ بالوثبِ والرَّكضِ؟“

”أذلك السَّببُ أنتِ تُعْرجُ؟“ ولما بقي صامتًا،
أصدرت هزةً كتفين خفيفة. ”حسنًا، لا بُدَّ أن تُفاجأ.
أعرفُ رجلينِ بارعينِ يحضُرانِ في الكنيسة هنا. إذا،
أينَ تعلَّمتِ الوثبَ والرَّكضَ؟ أتدربُ لأجلِ مبارياتِ
النينجا؟“

”اكتسبتهما في الحيِّ المُستهتر. مسألة بقاءٍ على
قيد الحياة“.

رفعت حاجبيها. ”ظننتُ أنكِ كنتِ شقيًّا مدللاً،
أرسثقراطيًّا نشأ وفي فمه ملعقةُ فضة“.

”جديًّا؟“ ضحك رومان. ”لا يُمكنُ أن تكوني
مُخطئةً أكثر!“

”حسنًا، ابنُ البلدِ، كُنَّا جارين. أنا نشأتُ عندَ
الخليج، في أوكلاند. كثيرٌ من المُخدِّراتِ والعصاباتِ
هناك أيضًا.“ وأطلقت ضحكةً كئيبة. ”كنتُ دائمًا
أنتقي صديقًا كبيرًا كفايةً بحيثُ يتغلَّبُ على أيِّ
واحدٍ حاولَ أن يعبثَ معي“.

علمَ أنَّ تلك القِصةَ تشتملُ على المزيد.
”والوالدان؟“

”كان أبي يقضي محكوميّةً في سجنٍ تشاوشلًا.
ووالدتي كانت أمًّا صُلْبَةً عُنَيْتَ جَدًّا بأن أخرجَ في
الثانويّة وأدرّسَ في الجامعة. ماذا عنك؟“
”ما كُنْتُ محظوظًا هكذا“.

انضمتَ غريس إليهما، وصمويل راكبٌ على وركها
كسعدانٍ صغيرٍ ظريفٍ. فابتسمتَ شائيس ابتسامَةً
عريضةً. ”ما زال رومان هنا. خيّلَ إليّ أنه سيَفِرُّ
خارجًا من الباب حتّى قبلَ ابتداءِ الخِدمة، ولكنّه
صَفَدَ فيها كجُنديٍّ صالح“.

ثم أخذتَ صمويل
وغمّرتَ رقبتَه بِوَجْهِها مُدغِغَةً إيّاهُ بالنَّفخِ المُتكرِّرِ
فيما هو يتلوّ ويضحك.

”لن أشاركَ في الغداء اليوم“.

ناولتها شائيس صمويل مُجدِّدًا. ”سأَتصلُ بكِ
لاحقًا. سنرتّبُ لقاءً هذا الأسبوع“.

ثم ضغطتَ على
ذراعِ رومان. ”كان جيّدًا أن نلقاكَ ههنا، مستر
قبلاسكو“.



أبقتَ غريس صمويل في الكوخ حتّى وقتِ إوائه إلى
السّرير. ثمّ ألْبستَه ثيابًا مُدْفئةً، ورجعتَ به إلى
بُربانك. خرّجتَ سيلاه من البابِ الأماميّ لحظةً
انعظفتَ غريس إلى الطّريقِ الخاصّة. حتّى إنّها لم
تُسلمَ على غريس إذ فتحتَ البابَ الخلفيّ، ففكّ

حِزَامَ صَمُوِيلَ وَشَالَتُهُ عَنْ مَقْعَدِهِ الْخَاصِّ فِي
السَّيَّارَةِ. "لَقَدْ افْتَقَدْتُ صَامِيَّ الصَّغِيرَ". وَإِذَا أُيْقِظَتْهُ
الْحَرَكَةُ، بَكَى. "أَه، يَا قَلْبِي! هَا قَدْ عُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ
أَخِيرًا". قَالَتْ هَذَا بِالْإِسْپَانِيَّةِ.

سَفَقَتْ سِيْلَاهُ الْبَابَ الْخَلْفِيَّ. وَإِذَا حَدَقَتْ إِلَى
غَرِيْسٍ، تَكَلَّمَتْ بِإِسْپَانِيَّةٍ سَرِيْعَةٍ. وَمَا لَبِثَتْ أَنْ انْكَفَأَتْ
إِلَى الْإِنْكَلِيْزِيَّةِ. "لَقَدْ قَلِقْتُ! خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ
لِكَ حَدِثٌ سَيِّرًا لَا تُبْقِيهِ حَتَّى هَذَا الْوَقْتِ الْمُتَأَخَّرَ".
وَلَمْ تُتِحْ لَغَرِيْسٍ فُرْصَةً لِلتَّكَلُّمِ إِذْ هُرِعَتْ عَلَى الْقَمَشِيِّ
وَدَخَلَتْ الْبَيْتَ. ثُمَّ انْطَفَأَ نُورُ الشُّرْفَةِ الْأَمَامِيَّةِ.

رَجَعَتْ غَرِيْسٌ إِلَى دَاخِلِ السَّيَّارَةِ وَجَلَسَتْ وَقْتًا
قَصِيْرًا، مُكَافِحَةً الدَّمُوعَ. أَحْسَتْ خَسَارَةً مُوْجِعَةً
بَعْدَمَا قَضَتْ مَعَ صَمُوِيلِ أُسْبُوعًا كَامِلًا، عَالِمَةً أَنَّهُ
سَيَجِلُّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَعِيْدَهُ، وَمِنْ ثَمَّ لَيْلَتَيْنِ
فَقَط. لَمْ تَتِمَكَّنْ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى حَضَانَةٍ مُنَاسِبَةٍ بِسَعْرِ
مَعْقُولٍ، حَتَّى بَعْدَ شُهُورٍ مِنَ الْبَحْثِ. هَلْ كَانَتْ مُفْرِطَةً
التَّدْقِيْقِ، مُتَطَلِّبَةً فَوْقَ الْحَدِّ بِشَأْنِ التَّوْصِيَّاتِ؟ أَمْ هَلْ
كَانَتْ تَخْشَى أَنْ تَجْرَحَ سِيْلَاهُ، وَهِيَ مَا بَرِحَتْ
مُسَانِدَةً جَدًّا طَوَالَ السَّنَةِ الْأَخِيْرَةِ؟ لَمْ تُرَاعِ سِيْلَاهُ
مَشَاعِرَ غَرِيْسٍ هَذَا الْمَسَاءِ. لَقَدْ نَظَرَتْ إِلَيْهَا كَمَا لَوْ
كَانَتْ عَدُوَّةً، وَتَفَوَّهَتْ بِكَلِمَاتٍ قَاسِيَةٍ فَهَمَّتْ غَرِيْسٌ
بَعْضَهَا: نَاكِرَةٌ لِلْجَمِيْلِ، لَامَسْؤُولَةٍ. وَمِنْ ثَمَّ بَكَتْ
مُعْظَمَ الطَّرِيْقِ فِي أَثْنَاءِ الرَّجُوعِ إِلَى الْبَيْتِ.

إذ فتحت غريس قفل باب الكوخ، رمت جزدانها ومفاتيحها على طاولة الركن. وجعلها سريز الطفل الفارغ تبكي من جديد. استعدت للنوم. ثم مرت ساعة، وساعة أخرى، ولم تستطع أن تنام. ومن ثم نهضت لما أشار وميض الساعة الرقمية إلى ١٢:٣٤.

طرحت عليها زوب وبِر سميكا، وخرجت خارجا. أحست الحصى المرصوف باردا تحت قدميها الحافيتين. تنشقت هواء الليل المنعش. كانت الأنوار مضاءة في مرسم رومان. يبدو أنه هو أيضا كان يعاني ليلة أرق. وإذ طوقت نفسها بذراعيها، رفعت نظرها إلى النجوم، ماسات منثورة على مخمل أسود. وأرادت أن تُصلي، إلا أنها لم تجد كلمات تُعبّر عما كانت تشغُر به، عما كانت بحاجة إلى طلبه.

ابني. يا رب، ابني، ابني.

مسحت دموعها، وتنهدت. كان البرد المزعج قد بدأ يخرق جلدتها، مُرجعا إياها إلى الداخل. قعدت على الأريكة وقرأت كتابها المقدس حتى ثقلت عيناها. وبدل أن تواجه سريز الطفل الفارغ في غرفة النوم، سحبت البطانية عن ظهر الأريكة وتغطت. فاح من الوسادة شيء من رائحة بلسم رومان لما بعد الحلاقة. حلقت به، واستيقظت لاهثة. فاستلقت مُستيقظة من جديد، وهي مُنزعة.

يا رب، عونك!

تنشقت غريس الرائحة القويّة المنبِعثَة من الطّلاء الجديد، لمّا دخلتِ المنزلَ الرّئيسيّ في الصّباح الثّالي. عملت قهوة، وملأت كُوبًا، وتوجّهت إلى المرسم. كان رومان واقفًا عند الجدار الخلفيّ، مُجرّيًا جرّاتٍ واسعةً بأسطوانةٍ طلاء، مُعْطِيًا مَهما كان قد رسمه هناك حديثًا. ”صباح الخير. هل كنت مُستيقظًا اللّيل كلّهُ؟“ وأحسّت خديها يسخنان، مُتسائلةً هل يسألها كيف عرّفت أنّه كان مُستيقظًا أصلًا.

”كان عليّ أن أطرّد شيئًا ما من ذهني.“ أجرى رومان جرّةً عريضةً أخرى قبل أن يطرح الأسطوانة على قطعة قماشٍ مُشمّعٍ مُغضّنة. وسالت ألوانٌ وأشكالٌ نابضةً بالحياة من خلال الطّلاء الثّبنيّ اللّون والمُوجِل. فحاولت غريس أن تُميّز ما قد أخفاه.

”رأيتك في الفناء المرصوف نصف اللّيل تقريبًا. ما كنت قط نائمةً أفضل ممّا كنتُ أنا.“

لم تنظر إليه. ”ماذا كنت ترسم؟“

”لا شيئًا يستحقّ التّحدّث بشأنه.“

لا شيئًا حسنًا، من نعمةٍ صوتِهِ. ”هل تستطيع أن ترسم يسوع؟“ وقدّمت له كُوبَ القهوة.

”لم أر وجهه.“ وأخذ الكُوب، فمست أصابعه أصابعها مسًا رقيقًا. ”الآخرون همّ الذين أتذكّرهم بوضوح.“

اشتغلت غريس في المكتب حتّى الظهر. ولمّا لم

ينزل رومان إلى الطابق الأرضي، أخذت سندويتشا وشايا مثلجًا إلى مرسمه في الطابق العلوي. كان رومان جالسًا وإحدى يديه مَدسوسة في شعره، والأخرى على المنصب بقرب مساحة شغله. ونظر إليها فلاحظت الظلال تحت عينيه. "اتصلت تاليا. عندها لك بعض النسخ كي توقعها".

ألقى قلم الرصاص داخل صينية. "كم واحدة؟"
"مئتان. وقد حدّدت السعر بألف للواحدة".

"كم تدفعين لقاء واحدة منها؟" لم ترد أن تجيب. فرفع حاجبًا، وقد التوى فمه بابتسامة ساخرة. "لا تبدي شاعرةً بالذنب كثيرًا، غريس. ما كنت أنا أيضًا لأعلق واحدةً منها على جداري". ودار على كرسيه العالي. "المشكلة أنني فقدت زحمتي. ليس لدي فكرة عما أرسمه أو ألونه الآن تمامًا".

"ستوافيك".

ضحك ضحكة حزينة. "لعلّ لدى الله أيضًا مشكلةً من جهة إنتاجي الفني".

"لعلّ لديه لك شيئًا آخر تقوم به".

"مثلًا؟"

تمنت لو يكف عن النظر إليها. "لست أدري. اسأله!"

"صلّ، تعينين؟ لا أعلم كيف".

”ليس من صيغة، رومان. إنك تتحدث إليه فحسب. أنا أفعل ذلك كل حين.“

”لست مضطراً لأن تُصلي بصوت عالٍ“. ونظرت إلى ورقة الرسم الخالية. ”قال لي هيكتور إنه عندما يرسم على الخزف يبدأ بشكل شيء مألوف، كنبته صبار مثلاً، أو صخور ملساء“. وقد كان عند رومان كثير من تلك الأشياء في ملكيته.

”كما تعلمين، ليس الصبار والجلاميد شيئي المفضل“. ونظر إليها. ”سألهم أكثر إذا توضع لي“. انفقر فمها. لا بد أنه يمزح. ”أمر مضحك جداً. إذا أردت مودياً، فلدي ملف رسائل من اثني عشرة امرأة جميلة، راغبات في القيام بذلك.“

”لست طالباً منك أن تخلعي ثيابك، غريس. اجلسي ساعة فقط. قد يجعلني ذلك أباشراً شيئاً سوى ما كنت فاعله“. وأوماً برأسه نحو الجدار الخلفي الذي طلاه بأصفر برتقالي ذلك الصباح.

سخن جسم غريس كله. ما كان في وسعها أن تجلس ساعة كاملة وهو ينظر إليها. هزت رأسها، وقد أخزاها الدفء الذي انتشر صعوداً من عنقها إلى خديها. ”إذا أردت إلهاماً، فجرّب ما يفعله هيكتور. ابدأ بخط.“

ابتسم رومان قليلاً. ”طيب. أعطيني خطاً“. وناولها دفتر الرسم وقلم رصاص. ”لنر هل يلهمني

ذلك“.

عبّرت غريس إلى التّوافد، وحاوَلت أن تُصوّر الأفق. ثمّ وضعت دفتر الرّسم وقلم الرّصاص على طاولة شغله. ”أبصر ما يُمكنك أن تفعل بهذا“.

أطلق ضحكة ناشفة. ”كان ينبغي لي أن أعرف أنّك تُريدنَ منظرًا طبيعيًا“.

وقفت في مدخل الباب وواجهت رومان. ”لا يهمّ ما أريدُه أنا، رومان. ولكنّ الاشتغال بمنظرٍ طبيعيّ، بدلًا من رسم ما خبّأته على ذلك الجدار، كائنًا ما كان، سيُساعِدُك كي تنامَ في اللّيل“.

”وماذا عنك أنت؟“ نظَرَ إليها بتركيز. ”ماذا يُبقيك مُستيقظةً في اللّيل؟“

خفّق قلبها بِقوّة. ”ليس شيئًا يُمكنك إصلاحه“.



رأى رومان بريان قاعدًا على حائط الفناء المرصوف عصرَ يومِ الثلاثاء، مُنتظرًا غريس كما بدا واضحًا. وإذ أقبلت على القمر، وقف وقبّل جبينها. وتوتّر رومان لَمّا تواريا داخل الكوخ. فبقي واقفًا عند نافذة المرسم، مُتوقعًا أن يخرجًا بعد دقائق قليلة، وينطلقا مُتوجّهين إلى أيّ مطعمٍ رومانسيّ هاديّ اختاره هنلي لذلك المساء.

لم يَرُقّه نوعُ الحرارة التي تصاعدت داخله. أيُّ

حقّ لديه في أن يشعُر بالتأذي أو الغضب؟

فكّر في شيءٍ آخر. لا تتحرّز بشأن ما يُمكن أن يكونَ جارياً هناك الآنَ تمامًا.

التقط مجموعة من ورقِ الرَّسم، وركّز على المنحنيات البسيطة التي رسمتها غريس. تصوّر أشكالًا تتكوّن، وألوانًا مُخفّفة، وظلالًا. لن تستدِرّ غريس منه المنظرَ الطبيعيّ المنشود. سيُعيطها شيئًا ما مُختلفًا لِتُفكّر فيه. وإذ جلس إلى طاولة التّصميم، استخدمَ خطّها لِيباشِرَ عمله.

كان الغروبُ شُعلةً من البرثقالِي النَّاريِّ والألوانِ الذهبية، خُطوطًا عاليةً من الأرجوان الذي لاءمَ مزاجه. بدا كلُّ شيءٍ هادئًا في الكوخ. ربّما خرّجَ أميرُ الأحلام وغريس فيما كان هو يرسم. كان نورٌ مُضاء، ولكن عندئذٍ ربّما كانت قد تركته حتّى لا تُضطرّ لأنّ تمشي إلى داخلِ بيتٍ مُظلم.

مدفوعًا بِحُبِّ الاستِطلاع، نزلَ رومان إلى الدّور التّحتانيّ. تشعّع الألم من بطةٍ ساقه لَمّا خرّجَ من الباب الأماميّ. كانت سيّارة هِنلي من طراز صب إربان التّبنية اللّون ما تزال مَركونةً أمامَ الكوخ. تفوّه رومان همسًا بكلمةٍ بذيئة. كفى ذلك القدرُ من القَبْلِ العفيفة!

كان عليه أن يخرجَ من البيت، وإلاّ فعَل أمرًا أخرق. لم تكن غريس تُخصّه. في وُسعها أن تكونَ مع

أَيِّ شَخِصٍ أَرَادَتْهُ وَتَفَعَّلَ أَيِّ شَيْءٍ شَاءَتْهُ. مَاذَا يُمَكِّنُ
أَنْ يَكُونَ لَشَابَّةٍ مِثْلِ غَرِيسٍ أَفْضَلُ مِنْ مُرْشِدٍ
مَجْمُوعَةِ الشَّبَابِ؟

مُشْتَعِلًا فِي أَحْشَائِهِ، صَعِدَ رُومَانَ رَاجِعًا إِلَى
مَرْسَمِهِ وَدَخَلَ خَزَانَتَهُ الَّتِي يُمَكِّنُ السَّيْرَ فِيهَا، حَيْثُ
احْتَفَظَ بِجَمِيعِ لَوَازِمِ رَسَمِهِ. وَإِذِ التَّقَطَّ حَقِيبَةً ظَهْرِيَّةً،
دَسَّ فِيهَا غُلْبَتِي طِلَاءِ رَشٍّ، وَقُبْعَةً صُلْبَةً فِيهَا
مِصْبَاحٌ. رَبَّمَا لَمْ يَغْدُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَسَلَّقَ السَّلَالِمَ
وَيَثِبَ وَيَرْكُضَ، وَلَكِنْ وُجِدَتْ أَمَكْنَةُ تَتَوَقَّعُ إِلَى رَسَمِهِ
غَرَافِيَّتِي. أَجْرَى بَحْثًا عَلَى الْإِنْتَرْنِتِ عَنْ أَنْفَاقِ الْمَشَاةِ
فِي لُوسِ أَنْجَلِيسِ كَاوْنْتِي، وَسَحَبَ خَرِيطَةً دَرَسَهَا
وَقْتًا وَجِيْزًا، وَأَنْشَأَ خُطَّةً سَرِيعَةً.

كَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ غَابَتْ وَقْتَمَا تَوَجَّهَ إِلَى سَيَّارَتِهِ.
كَانَتْ أَنْوَارُ الْكُوخِ دَاخِلَ بَيْتِ الضِّيُوفِ مُضَاءَةً الْآنَ.
رَبَّمَا كَانَ أَمِيرُ الْأَحْلَامِ يَقْضِي لَيْلَتَهُ. غَيَّرَ رُومَانُ نَاقِلَ
الْحَرْكَةِ، فَهَدَّرَتِ السَّيَّارَةُ صَاعِدَةً الطَّرِيقِ الْخَاصَّةَ.
وَتَطَايَرَ الْحَصَى مِنْ تَحْتِ عَجَلَتَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ إِذِ
انْعَطَفَ إِلَى طَرِيقِ الْوَادِي.

لَمْ يَسْتَغْرِقْ وَصُولُهُ إِلَى مَقْصِدِهِ الْأَوَّلِ وَقْتًا طَوِيلًا،
مَوْقِفِ سَيَّارَاتِ سُوپَرْمَارِكْتِ. وَإِذِ عُلِقَ حَقِيبَتُهُ
الظَّهْرِيَّةَ مُتَلَوِّيًا، عَرَجَ نَحْوَ مَوْقِفِ حَافِلَاتِ. خَالَجَهُ
شَعُورٌ بِأَنَّ شَخِصًا مَا كَانَ يُرَاقِبُهُ. مُجَرِّدُ أَعْصَابِ.
انْطَلَقَتِ الْحَافِلَةُ. وَقَدْ احْتَلَّ مَقْعَدًا فِي الْمُوْخَرِ،

جِيَّاشَ المشاعِرِ، مُحاولًا أن يُفكِّرَ في شيءٍ ما سوى غريبس بين ذِرَاعِي رَجُلٍ آخِر. أَلَمَتُهُ بَطَّةٌ ساقِهِ، فَمَدَّ رِجْلَهُ. اسْتغَرَقَ وِصولُهُ إلى مَقْصِدِهِ الثَّانِي ثَلَاثِينَ دَقِيقَةً. وَأَجْفَلَ إذ نَزَلَ على دَرَجِ الحافِلةِ قَبْلَ أن تَنْطَلِقَ مُبتَعِدَةً. فَعَبَرَ الشَّارِعَ وَشَرَعَ يَمْشِي. صَفوفُ مَبانٍ قَلِيلَةٍ، ذلِكَ كُلُّ شيءٍ، وَلَكِنَّ كُلَّ خَطْوَةٍ أَطْلَقَتْ الأَلَمَ في ساقِهِ صَعودًا وَهُبوطًا.

كان ينبغي أن يُحْضِرَ عِصاهُ. بَعْدَ صَفِّ مَبانٍ، كان يَتَعَرَّقُ. رُبَّما لَمْ تَكُنْ هَذِهِ فِكْرَةً جَيِّدَةً. جَلَسَ في مَحْطَةِ حافِلاتٍ. وَلَمَّا أَقْبَلَتْ حافِلةٌ وانْفَتَحَتْ الأبْوابُ مَهْسيْسةً، لَوَّحَ رومانٌ لها بِيَدِهِ حَتَّى تَمْشِي. وما كان مُمَكِنًا أن يَقْعُدَ هُنَا اللَّيْلَ كُلَّهُ.

صَرَ بِأسنانه ووقف، وواصل المشي.

كان النَّفْقُ مَهْجورًا، إذ تَجَنَّبَ مُعْظَمُ النَّاسِ أنْفِاقَ المُشاةِ بَعْدَ هُبوبِ الظَّلامِ. كان المُشَرِّدونَ أحيانًا يَسْتَعْمِلُونَهَا كَمَاوى. وهذا النَّفْقُ كان خاليًا وأنظفَ من أَغْلَبِ الأنْفِاقِ الأُخْرَى.

زَلَقَ رومانٌ عَنْهُ الحَقِيبَةَ الظَّهْرِيَّةَ، وَأَخْرَجَ عُذَّتَهُ. اعْتَمَرَ قُبْعَةً صُلْبَةً حُمْراءَ، وَأَضَاءَ مِصباحَها، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَسْتَغْلِ. مَلَأَتْ رائِحَةُ طِلاءِ كِرايْلِنِ النَّفْقِ، وكان الصَّوْتُ الوَحيدُ هُوَ هَسيسِ رَشِّ الطِلاءِ. عاودتُهُ ارْتِجاعاتُ لَجهنِّمِ، واشتغلَ أَسْرَع. وأيُّ شَخِصٍ يَمْشِي داخِلَ النَّفْقِ هُنَا سِيرَى مَخْلوقاتٍ تُحْمِلِقُ نَحْوَهُ من

كِلَا الْجَانِبَيْنِ وَمِنْ فَوْقِ. أَكْمَلَ رَسْمَ مَخْلُوقٍ، ثُمَّ آخَرَ
أَبْعَدَ فِي الدَّاخِلِ. وَقَدْ خَطَّطَ سِنَّةً إِجْمَالًا. وَكَانَ مِنْ
شَأْنِ السِّنَّةِ لَهَيْبٍ حَوْلَ آخِرِ النَّفْقِ أَنْ تُكْمَلَ الأَثَرُ
الفَنِّي.

خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ سَمِعَ وَقَعَ خُطَى فَجَمَدَ، وَفِي يَدِهِ
عُلبَةٌ طِلاءٍ. عَابِذٌ سَبِيلٍ فِي وَقْتِ مُتَأَخَّرٍ مِنَ اللَّيْلِ؟
شَخْصٌ شَرِيدٌ يَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ يَبِيتُ لَيْلَتَهُ فِيهِ؟ وَإِذْ
ضَاعَفَ رُومَانَ سُرْعَتَهُ، سَحَبَ مِنْ حَقِيبَتِهِ الظُّهْرِيَّةِ
عُلبَةً طِلاءٍ أُخْرَى، ثُمَّ أُخْرَى، مُنْتَقِلًا مِنَ الأَحْمَرِ النَّارِيِّ
إِلَى البُرْتَقَالِيِّ مَعَ جِزَاتٍ مِنَ الأَصْفَرِ وَخُطُوطٍ سُودَاءٍ.
ثُمَّ ألقى العُلبَ دَاخِلَ حَقِيبَتِهِ، وَخَلَعَ القُبْعَةَ الصُّلبَةَ
وَدَسَّهَا فِيهَا. وَمَا إِنْ أَقْفَلَ الحَقِيبَةَ بِالسَّحَابِ، حَتَّى
وَقَفَ رَجُلٌ فِي مُنْتَصَفِ النَّفْقِ يُرَاقِبُهُ. جَمَدَ رُومَانَ
وَارْتَفَعَ نَبْضُهُ بِسُرْعَةٍ. "مُنْذُ مَتَى أَنْتِ وَاقِفٌ هُنَاكَ؟"

"مُنْذُ وَقْتِ كَافٍ". كَانَ الصَّوْتُ عَمِيقًا. "مَا كَانَ
فِي وَسْعِي أَنْ أُصَدِّقَ حُسْنَ حُطِّي لَمَّا شَاهَدْتُ رُومَانَ
قِيلاسكو يَتَرَجَّلُ مِنْ سَيَّارَةٍ بِقُرْبِ الشُّوپَرْمَارِكْتِ.
كَانَتْ لِي شُكُوكِي فِي شَأْنِكَ. تَقَابَلْنَا مَرَّةً فِي صَالَةِ
العَرَضِ بِلاغونا بِيْتَش. أَشْكُ فِي كُونِكَ تَتَذَكَّرُ."

لَمْ يَتَذَكَّرْ رُومَانَ، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ مَنْ كَانَ الرَّجُلُ.
عَرَجَ رُومَانَ نَحْوَهُ، وَالحَقِيبَةَ الظُّهْرِيَّةِ مُمَسَّكَةً
بِأَحْكَامٍ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ. فِي وَسْعِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا
كسِلاح. "أَنْتِ الشُّرْطِيُّ الَّذِي كَانَ يَطْرُخُ أَسْئَلَةَ."

”سِرْبُ الطُّيُورِ السُّودَاءِ الَّذِي رَسَمْتَهُ فَضَحَكَ.
زَوْجَتِي تُبْقِي عَيْنَهَا عَلَى مَا هُوَ حَادِثٌ فِي عَالَمِ الْفَنِّ
الْمَحَلِّيِّ، وَمَا بَرِحَتْ مَعْنِيَّةَ بِكَ. هِيَ الَّتِي تَلَقَّتِ
الْكُرَّاسَةَ مِنْ صَالَةِ الْعَرَضِ فِي لَاحُونََا. لِحِظَةً رَأَيْتُ
تِلْكَ الرَّسْمَةَ عَلَى الْغِلَافِ، عَلِمْتُ أَنَّنِي أَمْسَكْتُ بِكَ“.

”هَلِ الْأَمْرُ هَكَذَا؟“

”أَتُظَنُّ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَخَطَّانِي؟ أَنْ تَسْبِقَنِي فِي
الرَّكْضِ؟ لَسْتُ أَظُنُّ ذَلِكَ. لَيْسَ بِسَاقِ مُصَابَةِ“.
وَقَفَ الرَّجُلُ أَطْوَلَ قَامَةً مِنْ رُومَانِ، بِكَتْفَيْنِ
أَعْرَضَ. لَا بُدَّ أَنَّهُ يَعْرِفُ كَيْفَ يَصُدُّ ضَرْبَةً وَيَصْرَعُ
رَجُلًا.

عَلِمَ رُومَانُ أَنَّهُ كَانَ يُوَاجِهَ مُدَّةَ حَبْسٍ. وَمَا كَانَ مِنْ
شَأْنِ الْإِعْتِدَاءِ عَلَى شُرْطِيٍّ إِلَّا أَنْ يَزِيدَ الْأَمْرَ سُوءًا.
”حَسَنًا“. وَعَلَّقَ سَيْرِي الْحَقِيبَةَ الظُّهْرِيَّةَ عَلَى كَتْفِيهِ.
كَانَ قَدْ اسْتَفْلَّ حِظَّهُ عَلَى مَدَى سَنِينِ، وَاللَّيْلَةَ نَفَدَ.
”لِنَذْهَبِ“. اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَصَوَّرَ الْعَنَاوِينَ الرَّئِيسِيَّةَ.
وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَتَصَوَّرَ الصَّدْمَةَ وَالْخَيْبَةَ لَدَى غَرِيسِ،
وَلَدَى جَاسِپِرِ وَآلِ مَاسْتَرَسْنِ. مَاذَا سَيَكُونُ رَأْيُهُمْ
فِيهِ؟ اسْتِرَاحَ جُزْءٌ مِنْهُ لِأَنَّ الْأَمْرَ انْتَهَى. وَأَرَادَ الْجُزْءُ
الْآخَرَ أَنْ يَهْرُبَ. إِنَّمَا كَانَتِ الْمَشْكِلةُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
يَرْكُضَ بِسُرْعَةٍ كَافِيَةٍ.

وَقَفَ الشُّرْطِيُّ جَانِبًا. لَمْ يَتَحَدَّثَا وَهُمَا مَاشِيَانِ.
”فِي قِسْمِ شُرْطَةِ لُوسِ أَنْجَلِيسِ مَلَفٌ عَنْ آثَارِكَ“

الفنيّة. لقد قمتُ بقليلٍ من التّنقيب عن رومان
قيلاسكو. إنّهُ ليس اسمك الحقيقيّ“. لقد علّم بأمرِ
بُبي راي دين. وعلّم عن شايلا دين وكيف ماتت.
حتّى إنّهُ علّم ببعض التّفاصيل عن أنشِطَة رومان
الأورويّة. ”ما برحت تُنشئُ شهرةً لِنفسيك“.

تعثّر رومان وتفوّهَ بشتيمةٍ خفيفةٍ لَمَّا انتشرَ الألمُ
في ساقه. فتوقّف وانحنى ليُفركَ بطةَ ساقه
المُتشنّجة.

”هل فُحصت ساقك؟“

”نعم. العِلّةُ لا تُفارقُها“.

”لقد قُصّ جناحاك. فاجاني أنّك انتقيتَ نَفَقًا.
أحببتَ دائِمًا المواقعَ السّماويّة. أبتلك الطّريقة أذيتَ
نفسك؟“

”لا“. ونظرَ إليه رومان مُستطليعًا. ”ماذا تعرفُ عنِ

المواقع السّماويّة؟“

”قمتُ بشيءٍ من الغرافيتي في أيّامي. ليس مثل
رُسومك. أحزفُ منفوخة، ساذجة، تافهة“. وضحك
ضحكةً خافتة. ”أنت شيءٌ ما من أسطورة. أتعلّم؟“

”تطمسُ رسومي كأيّ واحدٍ آخر“.

”تلك الرّسمةُ الأخيرة، في الجِهة المُقابِلة لِلبنك، ما
زالت هناك“. وضحك بينهُ وبينَ نفسه. عزّجتُ على
ذلك المطعم، وسألتُ عنها. المالكُ فخورٌ جدًّا بوجودِ
أثرٍ فنيّ من إنتاجِ العُصفور على جداره“.

أحسَّ رومان خفقة كبرياء، ثمَّ عبء الندامة الثقيل لأنه لم يُقلِّع عن رسم الغرافيتي قبل إفساد كلِّ ما تمَنَّى أن يكسبَه. ”ستنال كثيرًا من التقدير الميداني لإيقاع العصفور في شبكتك“.

ضحك الشرطي ضحكة خافتة. ”فكرتُ في ذلك مرارًا كثيرة“.

لاحت سيارة الشرطة للعيان، مركونة عند المنعطف. على الأقل، لم يُقيِّده الشرطي بالصفاد. فكَّر رومان في الفرار مرَّةً جديدة. ولكن أين سيذهب؟ لقد عرَّف الشرطي مَنْ هو وأين يسكن. ثمَّ فتح رومان الباب الخلفي، فطرح حقيبته على المقعد وذلَّ إلى داخل سيارة الشرطة. وإذ أسند رأسه إلى الوراء، تفوَّه بشتيمة خفيفة. ليس له إلا نفسه يلومها. أغمض عينيه وانتظر سُكون الألم في ساقه.

لم تكن السوقة الطويلة التي توقَّعها رومان. إذ انعطف الشرطي إلى داخل موقف الشوبرماركت وتوقَّف وراء سيارة رومان تمامًا. حدَّق إليه رومان في مرآة الناظر الخلفية. ابتسم الشرطي ابتسامة ضئيلة.

”كنتُ خارج الوظيفة، أقومُ بإحضار أشياء قليلة في الطريق إلى البيت“.

ثمَّ التفت ونظرَ إلى رومان.

”لقد كفَّ العصفور عن الطيران“.

كان رومان قد نسي أن يُذيل الرِّسمة في النِّفق

بتوقيعه. لن يرجع ليضع عليها ختم ملكيته لها.
”أجل! لقد كفّ“.

”ليلة سعيدة، مستر دين“. ثمّ ترجّل وفتح الباب
لرُومان.

”شُكرًا!“ التقط رومان حقيبته الظهرية وانسل
خارجًا. انطلقت سيارة الشرطة مُبتعدةً.
فرصة ثانية أخرى.



ما برحت غريس مُتوترة الأعصاب منذ اتصل بريان،
سائلًا هل يستطيع أن يحضر غداءً جاهزًا حتى
يتسنى لهما أن يتحدثا. هل أراد لعلاقتيهما أن تصير
جديّة أكثر؟ ظنّت صديقاتها أنّه كان الرّجل الأمثل
لها. وقد تحلّى بريان فعلاً بجميع الصّفات الخلقية
الحسنة التي رغبت فيها. إذ كان رجُل إيمانٍ، لطيفًا
وعطوفًا، وذا وظيفة.

ما شعرت قطّ برفرقة الانجذاب الجسدانيّ، ولكنّ
الصّداقة كانت أساسًا جيّدًا للزّواج. كان بريان قد
وصل باكراً وانتظر على الفناء المرصوف الخلفيّ.
وقد وقف وقبّل جبينها. ”طعامٌ إيطاليّ“. ورفع كيس
ورق أسمر. ”ذهبْتُ إلى مطعم ترتوريا. معكرونة
ألفريدو بالدجاج، سلطةٌ مُشكّلة، خبزٌ بالثوم،
تيراميسو للتّحلية“. كانا قد تناولا الطّعام في المطعم

الصغير الأسبوع قبل الماضي، قبل أن رافقت رومان في رحلة الطريق. فما كان أحلى أن يتذكر رومان ما طلبته! مزيد من الصفات المرغوب فيها. لقد كان بريان مُراعياً لمشاعرها ومطالبها، وكان ذا ذاكرة تهتم بالتفاصيل. أمّا باتريك فكان من شأنه أن يشتري طعاماً تايلندياً على حساب بطاقتها الائتمانية.

لحق بها بريان إلى داخل الكوخ. بدا متوتراً، مُستغرقاً في تفكير حزين. "كيف حال رومان؟"

لماذا كان على بريان أن يأتي على ذكره؟ كانت تحاول جاهدةً ألا تفكر في الرجل الساكن بجوارها تماماً. "إنه لا ينام، ولا يعرف ماذا يرسم". ثم راحت تتحدث الجدار الخلفي في المرسم. "لا أعلم ما يرسم، ولكن يبدو أنه يستخدم تلك المساحة كي يتخلص من الإحباط". فقال بريان إنه ربما كان لديه كثير من الأمور يفكر فيها ملياً داخل رأسه بعد ما اجتاز فيه. وظلت أفكار غريس تدور حول رومان. "ذهب إلى الكنيسة معي. لم يسبق أن دخل كنيسة قط. بدا مُنزِعاً جداً، كما لو كان على كوكب آخر".

ضحك بريان ضحكة خفيفة. "حسناً، يقول الكتاب المقدس فعلاً إننا لسنا من هذا العالم، وقد كان على المسيح أن يهرب ملكوت الله هنا في الأسفل".

تحدثنا بشأن مجموعة الشباب، وكيف أن بعض

المُراهقين الذين لم يكونوا قد تعرّفوا بالكنيسة قَطُّ وجدوها بيئةً غريبةً أيضًا. لذلك السَّبب ذهب بريان إليهم أوَّلًا، حتّى إذا جاءوا إلى خدمة كَنسِيَّةٍ فعلاً تكونُ لديهم فكرةٌ عمّا يتوقعون. ”إنهم أكثرُ راحةً في سوپرماركتٍ ممّا هم في كنيسةٍ تقليديَّةٍ“. وقد كانت المجموعة تنمو أسرعَ مما توقع بريان. وكان يُعلِّمهم إنجيلَ مَرْقُس.

لماذا لم يكن سهلًا هكذا أن تتكلّمَ مع رومان؟
لقد عرّفتِ الجواب.

ساعدها بريان في غَسْلِ الصُّحون. عملتِ قهوةً بلا كافيين لِثَناسِبِ الثيراميسو. وقد جلسَ بريان على طَرَفِ الأريكةِ الأقربِ إلى الكرسيِّ الدوّارِ الهزازِ الذي جلسَتِ غريس عليه. فتذكّرتِ رومان مُمدِّدًا هناكَ تمامًا وضموِيلَ مُثنِيًا على صدره، فيما كِلاهُما نائمان. وتسارعتِ دَقَّاتُ قلبها قليلًا.

”فيمَ تُفكّرِينَ، غريس؟“

في رومان، دونَ ريب، ولكنها ما كانت لِتعرِّفَ بذلك. لم تُردِ أن تُفكّرَ في رجلٍ آخرَ اللَّيلة. عليها ألاّ تفكّرَ فيه بتاتًا. ”ما مِن شيءٍ مُهمّ“. وهزّتِ رأسها مُحاوِلَةً أن تدفَعَ رومان خارجَ ذَهنِها. ”قُلْتِ إنَّ هُنَاكَ أمورًا أردتِ أن تُحدّثني بشأنها“. كان بريان قد تحدّثَ في موضوعاتٍ عدّة، ولكن ما زال يبدو أنّ في فكره موضوعًا آخرَ بعد.

حتى بريان رأسه يبطء. أزاح الفنجان والصحيفة جانبًا، ومال إلى الأمام، ويداه مشبوكتان بين ركبتيه. ”ينبغي لنا أن نتحدث بمالٍ علاقتنا، غريس.“

لم تكن قد توقعت أن يكونَ فظًا هكذا. ”أعتقد أن الأمر متوقف عليك.“

”كلانا نطلب الاستمرار. أليس كذلك؟“

أحست غريس توجسًا مفاجئًا، فورًا لم تكن قد شعرت به حيال بريان قبل الآن. ”بلى“. وأمكنها أن تسمع التردد في صوتها.

”نحبُّ أخذنا الآخر“. وبسط بريان يديه. ”نستطيع أن نتحدث بكل شيء. نتشارك في الإيمان الواحد. كلانا نجتهد كي نكون تلميذين للمسيح.“

شعرت بثوئر لا يفسر، متمنية لو يتوقف.

”حتى مع كل ما هو جارٍ لنا، يوجد شيء ما ناقص“. وبدت ابتهامته اعتذارية. ”مما أخبرتني به عن زواجك، غريس، لست على يقين بأنك تعرفين ما أتحدث عنه.“

ما كانت غريس قط قد رأت بريان يبدو مربكًا هكذا. وبسط يديه ثانية. فعلمت ما كان يحاول أن يقوله. ”لا شرارة.“

أوما برأسه موافقًا. ”إن كانت تلك هي كل ما لديك، فهي لا تكفي لإنشاء زواج، ولكن إن كان لديك كل شيء آخر، فهي تجعل الأمر أفضل بكثير جدًا.“

أَحْسَتِ غَرِيْسَ وَخَزَّ دُمُوعِ. مَاذَا لَوْ شَعَرْتِ بِتِلْكَ
الشَّرَارَةِ حِيَالِ شَخِصٍ لَمْ يَكُنْ مُنَاسِبًا؟ ثُمَّ مَاذَا؟ مَاذَا
لَوْ نَظَرْتِ إِلَى رَجُلٍ لَمْ يَعْرِفِ كَيْفَ يُحِبُّ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ
يُحِبَّ أَيَّ شَخِصٍ، وَلَمْ تَكَادِي تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَحْبِسِي
أَنْفَاسَكَ؟ مَاذَا عِنْدَيْدُ؟

”مَا قَصَدْتُ قَطُّ أَنْ أُؤْذِيكَ، غَرِيْسَ.“

”لَيْسَ أَنْتِ، بَرِيَانِ.“ وَهَزَّتْ كَتِفَيْهَا. ”لَقَدْ شَعَرْتُ
بِتِلْكَ الشَّرَارَةِ. إِنَّمَا أَتَمَنَّى لَوْ كَانَتْ حِيَالِ الرَّجُلِ
الصَّحِيحِ.“

”شَخِصٍ مَا سِوَى رُومَانَ قِيْلَاسِكُو، تَعْنِينَ؟“

سَخُنَ وَجْهَهَا. ”ثَرَى، لِمَاذَا تَقُولُ ذَلِكَ؟“

”عَلِمْتُ دَقِيقَةً رَأَيْتُكَ فِي الْمُسْتَشْفَى. لَا تَقْلُقْ
أَمْرًا عَلَى رَجُلٍ بِذَلِكَ الْقَدْرِ الْبَالِغِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُغْرَمَةً
بِهِ.“

كَادَتْ تَبْكِي. ”أَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ السَّبَبِ تَقُولُ هَذَا
الآن؟“

”لَا.“ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ وَاحِدَةً عَلَى الأُخْرَى، دُونَ
أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا. ”الْأَمْرُ هُوَ أَنَّنِي التَّقِيْتُ فَتَاةً مَا... وَأَوْدُ
أَنْ أَتَعَرَّفَ إِلَيْهَا أَفْضَلَ.“ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ. ”وَأَنْتِ
تَعْرِفِينَهَا.“

بَاتَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَاضِحًا فِي لِحْظَةٍ. ”شَانِيْسَ.“

بَدَا بَرِيَانٌ مَدْهُوشًا. ”كَيْفَ عَرَفْتِ؟“

ابتسمت يسيرًا وهزت كتفها. "من الطريقة التي بها كنثما تتحدثان في غرفة الانتظار بالمستشفى".
لقد أحسست أنذاك أن شيئًا ما قد حدث بينهما، ولكنها نسيت كل ما يتعلق بذلك. ثم ضحكت. يا للسخرية!
"ساذكُرّها بأنّها هي التي انتقتك".
"لك".

مالت إلى الأمام وأمسكت يده. "اعتقدت أنك كنت مرشحًا مُحتملًا جيّدًا".



نظف رومان قبلما وصلت غريس صباح اليوم التالي. ولما أحضرت قهوته إلى المرسم في الدور العلوي، قال لها إن جاسپر نازل في زيارة نهاية هذا الأسبوع. لقد اتصل البارحة بعدما جرد رومان نفسه إلى البيت. فأشرق وجه غريس كما لو أن عيد الميلاد كان وراء الزاوية تمامًا. "ذلك عظيم! أنوي إقامة حفلة شواء يوم السبت. أنت وجاسپر مرحّب بكما للانضمام إلينا".

أحس رومان شعورًا بالغثيان في قعر معدته. لم يضطرّ لأن يتساءل هل يكون بريان هنلي في الحفلة. "يمكنك أن تخبري جاسپر عندما يصير هُنا. قد يكون لديّ حُطّ أخرى". وتساءل حِيال خفّة الخيبة المُرتبِكة.

لازمَ رومانَ المَرَسَمِ باقِي النَّهارِ، مُخَطَّطًا رُسومًا للجِبالِ، وفِكرُهُ ما زالَ مشغولًا بِما قد جرى اللَّيلةَ قَبْلَ البارِحَةِ. حَتَّى إِنَّهُ لَم يَسألِ الشُّرطِيَّ عَنِ اسمِهِ. رُبَّما كانت بِطاقَتُهُ التَّعريفِيَّةَ في حَوزَةِ تالِيا. أو رُبَّما كانت غَريس قد دَوَّنت مَلاحِظَةً في مُفكَّرَتِها. أَحسَنُ الأَّ يَسألُ. ثُمَّ رَكَزَ من جَدِيدٍ عَلى الشَّكْلِ الَّذِي كان يَرسُمُهُ. فلَطَّخَ خَطًّا أَسودَ، مُرَقِّقًا إِيَّاهُ. ودرَسَ الخُطوطَ المُنحَنِيَّةَ التي قد أَضافَها. هل تَرى غَريس ما كان مُخبِّئُهُ في هَذِهِ الصُّورَةِ؟

رَجَعَتِ غَريسُ. تَجاهَلُها حَتَّى جَلَّتْ صَوْتِها. لَم يَنظُرْ إِيَّاهَا إِذ غَطَّى رِسمَتَهُ. ”ماذا لَدَيكِ؟“

”أَسيْفَةٌ عَلى تَشَتُّيتِ تَركِيزِكَ، وَلَكنَّ لَدَيَّ بِضَعُ رِسايلَ أُعطيكَ إِيَّاهَا قَبْلَ أن أَغادِرَ“. مَدَّ رومانُ يَدَهُ إِذ اقْتَرَبَتِ إِيَّاهُ أَكثَرَ. وحاتتَ مِنْها التِّفائَةُ إِلى طاوِلَةِ رَسمِهِ. ”شِئًا ما جَدِيدًا؟“

”كانَ الخَطُّ الَّذِي رَسمَتِهِ مُلِهُما لِي.“

”هل لِي أن أَرى؟“ ومالَتِ إِلى الأمامِ.

تَنشَقُّ رائِحَتُها الحُلوةَ المُنعِشَةَ. هل كانت واطِعةً عِطْرًا؟ أم هل رائِحَتُها طَيبَةٌ هَكَذا دائِمًا؟ تَصوِّرُ غَمْرَ وَجْهِهِ في مُنحَنِ عُنُقِها. وَغايِظَتُهُ صُورُ أُخْرى، فَحَطَّ يَدَهُ عَلى دَفْتَرِ الرِّسَمِ. ”ليس الآنَ“. وَقَد خَرَجَ صَوْتُهُ خَشِنًا. فَنظَرَتِ إِليه، ورأى بِوَبُويها يَتَّسِعانَ. وَخَفَقَ قَلْبُهُ بِشِدَّةٍ كما لو كان قد قامَ بِشَوطِ رِكضِ طَويلِ.

”إلى الورااء!“

تراجعت. ”هل فعلت شيئًا ما خاطئًا؟“

”لا. ما أنا إلا مُحاولٌ أن ...“ ماذا؟ يحمي نفسه؟

”لم أقصد أن أنظر مُتطفلةً.“

”يسرني أنك مُهتمة“. إن كانت تلك النظرة مؤشِّرًا

إلى ما كانت تشعُر به، فلماذا تقضي وقتًا كثيرًا جدًا

مع بريان هنلي؟ وقد كانت قريبةً كفايةً بحيثُ

استطاع أن يلمسها. ثم شكَّل قبضةً وضغطها على

ساقه المُصابة.“

”هل تؤلمك ساقك.“

”إنه شيءٌ سأضطرُّ لأن أعيشه. مُذكرٌ بما قد

جرى“. كان مُتخوفًا من مقدار ما تعنيه له. ستخرجُ

من حياته عاجلاً. ”سأضطرُّ إلى العثورِ على مُدلِّكةٍ

جيدة“. وابتسم لها ابتسامةً مُغايضةً عريضةً. ”إلا إذا

أردتِ أنتِ أن تتطوَّعي.“

”أمرٌ مضحكٌ جدًا.“

ثم تكلم قبلما أولى الأمر تفكيرًا أفضل. ”ها قد

عُدنا إلى الرُّوتين القديم، أمّا عُدنا؟“ ليس أنه أراد أن

يكون الأمر كذلك. فقد افتقد القرب الذي سبق أن

تشارك فيه على الطريق وفي المُستشفى، ولكنه

خاف منه أيضًا. وأراد أن يمدَّ يده ويُمسك يدها، إلا

أنه لم يفعل ذلك.

لقد قلبت تلك الرُّحلة على الطريق حياته رأسًا

على عَقْب. إذ صَعِدَ إلى السَّيَّارة أَوَّلَ يَوْمٍ حاسِبًا أَنَّهُ
سيكونُ أمرًا جيِّدًا أن يتعرَّفَ بمُساعدَتِهِ الشَّخصيَّةِ
على أساسِ أكثرَ شخصيَّةً. فكم كِذبةً أُخرى قد كَذَبَ
على نَفْسِهِ؟ كانَ قد غادَرَ مُفَعَّمًا بالكِبرياءِ والعزمِ، ظانًّا
أنَّ في وُسعِهِ أن يُدبِّرَ حياتَهُ بِمُقْتَضَى شُرُوطِهِ
الخاصَّةِ، ثمَّ عادَ مكسورًا بدنيًّا، مُوقظًا روحيا،
مُشَوِّشا عقليًّا.

تراجعت غريس خطوةً أُخرى. "لَدِينا كَلِينا عقلُ
نقومُ به".

أوما رومان برأسه مُوافقًا. كادَ يُحسُّ الأسوارَ
أخذةً في الارتفاعِ، لا أسوارَهُ فقط، بل أسوارَها أيضًا.
لعلَّهما لم يكونا مُختلِفين جدًّا. في وُسعِهِ أن يخبرَها
بالحقيقة: أَنَّهُ لم يَعدَ لَدِيهِ أيُّ أجوبةٍ عن أيِّ شيءٍ،
وأنَّ رؤيَتَهُ إيَّها مع رجلٍ آخرٍ أمرَضتَهُ بدنيًّا، وأنَّهُ
أرادَ أكثرَ، إلا أَنَّهُ كانَ خائفًا أن يفكرَ في كم أرادَ أكثرَ.

الفصل ٣٠

وضعت غريس صمويل في الحظيرة الثقالة وأعطته لعبة بيانو بايبي أينشتاين التي تخصه. وصلت أشلي حاملةً سلطانيةً كبيرة من سلطة البطاطا البيتية الصنع، وصينية كعك شوكولا بالبندق متوازنة فوقها. "كان لي مزاجٍ للظهو البارحة. إن لم أخرج كعكات الشوكولا هذه من بيتي، فسأكل كل واحدةٍ منها".

جاءت نيكول مُحَمَّرَةٌ العينين وشاحبة. "أنا بحاجة إلى استعارة سلطانية".

نظرت أشلي عبر الباب المفتوح إلى الفناء المرصوف. "أين تشارلز؟ ظننتُ أنه آت اليوم".

"اضطرر لأن يشتغل". شقت نيكول غلاف علبه سلطة ففتحتها، وأفرغتها في سلطانية غريس، ثم أخرجت من كيسها قنينةً مثقبةً من حبيبات ثوت الغليق والجوز، وحطتها على الطاولة.

دخلت شانيس وراءها على الأثر، حاملةً قدرًا

كبيرةً من فاصوليا بوسطن المَطهَّوَّة. رَمَقْتها نيكول
بِنظرةٍ شَرِسة. ”وقبلَ أن تقولي أيَّة كلمة، أنا أصلاً
أعلمُ أنَّه إن كان لديَّ شيءٌ من العقل فسأستعفي
وأجدُ وظيفةً أُخرى.“

اتَّسَعَت عينا شانيس. ”لم أقلَ أيَّ شيء.“

”لا، ولكنك كُنْتَ تُفكِّرِينَ في ذلك.“

وضَعَت شانيس القِدرَ على الموقِد، وواجهت
نيكول. ”كلُّ ما قُلْتَهُ أصلاً هوَ احْرُسي قلبك، نيكول.
لقد انفَطَرَ قلبي بِضَعِّ مَرَّات. كلُّنا عانينا ذلك.“

تهالكت نيكول على كُرسيِّ. بدت على وشكِ
البُكاء. ”إنَّه رَجُلٌ مُهمٌّ يقومُ بعَمَلٍ مُهمٍّ، وأنا أشعُرُ
بأنني مُهمَّةٌ عندما أكونُ معه.“

أمسكت شانيس بكتفي نيكول، وانحنت فقَبَلت
خَدَّها. ”ستكونين مُهمَّةً من دونه، حبيبتي.“

”ما أنا إلا مُوظَّفةٌ مَكْتَب، شانيس.“

أحسَّت غريس ألمَ نيكول. ”كذلك أنا أيضًا.“

”لستِ تفهمين. أنا أعمَلُ أيَّ شيءٍ لأجلِ تشارلز. أيَّ
شيءٍ!“

فهِمَّت غريس الأمرَ كلَّه جيِّداً تماماً، وأرادت أن
تُحذِرَ صديقتها. ”أنا عمِلْتُ كلَّ شيءٍ لأجلِ پاتريك،
نيكول، ولم يهَمَّه أيُّ شيءٍ من ذلك. صَعِبُ أن تُفكِّري
بوضوح عندما تكونين حسَّاسةً ومُنكشِفةً وثرَيدِين
شيئاً ما بِشِدَّة.“

دَخَلَ بَرِيَانٌ حَامِلًا صُنْدُوقَ صُودَا، مَعَ رَجُلٍ لَمْ يَسْبِقُ أَنْ قَابَلَتْهُ غَرِيْسٌ. ”عَصْرُ نَهَارٍ جَمِيْلٌ لِحَفْلَةِ شِوَاءٍ“. وَقَبَّلَ جَبِيْنَ غَرِيْسٍ قُبْلَةً سَرِيْعَةً. ”هَذَا نَائِجِلٌ كَامِيبَلٌ، وَاحِدٌ مِّنْ شَمَامِسْتِنَا الْمُجْتَهِدِيْنَ. سَيَكُونُ عَلَيْكَ أَنْ تَقُومِي بِوَاجِبِ الضَّيْفِ. أَنَا التَّقِيْتُ مِسْ تَائِشِنَ فَقَطْ“. ثُمَّ حَيَّا بَرِيَانٌ شَانِيْسَ بِإِيْمَاءَةٍ مِّنْ رَأْسِهِ. فَتَجَاهَلَتْهُ شَانِيْسٌ إِذْ حَيَّتْ نَائِجِلَ تَحِيَّةً سَرِيْعَةً وَرَجَعَتْ تُحَرِّكُ الْفَاصُولِيَا.

عَرَفَتْ غَرِيْسٌ بِأَشْلِي وَنِيْكُولِ. وَمَا إِنْ تَكَلَّمَ نَائِجِلٌ، حَتَّى أَشْرَقَ وَجْهُ أَشْلِي. ”أَنْتَ بَرِيْطَانِيٌّ“.

أَقْبَلَ رُومَانَ وَجَاسِپَرَ عَلَى الْمَمْشَى الْمَرْصُوفِ مِّنَ الْبَيْتِ الرَّئِيسِيِّ، وَخَرَجَتْ غَرِيْسٌ خَارِجًا لِلتَّرْحِيْبِ بِهِمَا. كَانَ جَاسِپَرٌ حَامِلًا بِطَّيْخَةٍ كَبِيْرَةٍ. وَقَدْ أَحْضَرَ رُومَانَ عُلْبَةً فِيْهَا سِتُّ قَنَانِي بِيْرَةٍ هَائِنِيْكِنَ، وَقِنِّيْنَةَ شَامِپَانِيَا. تَبِعَ رُومَانَ غَرِيْسَ إِلَى الدَّاخِلِ، حَيْثُ كَانَ بَرِيَانٌ وَشَانِيْسٌ وَاقِفِيْنَ عِنْدَ جَانِبِي الطَّاوِلَةِ الرَّكْنِيَّةِ الْمُتَقَابِلِيْنَ، وَالْهَوَاءُ يَتَذَبذَبُ بِالتَّوْتِرِ. وَإِذْ وَضَعَ رُومَانَ الْبِيْرَةَ وَالشَّامِپَانِيَا عَلَى الطَّاوِلَةِ، مَدَّ يَدَهُ لِبَرِيَانٍ. ”هِنَلِي، صَحِيْحٌ؟“

صَافَحَهُ بَرِيَانٌ مُّبْتَسِمًا. ”يَبْدُو كَأَنَّ صَلَوَاتِنَا قَدْ اسْتُجِيْبَتْ. هَذِهِ شَانِيْسٌ. كَانَتْ فِي الْمُسْتَشْفَى أَيْضًا“.

”قَالَتْ غَرِيْسٌ إِنَّكَ جِئْتَ. شُكْرًا عَلَى اِهْتِمَامِكَ“

بها“.

غَمَزَ جَاسِپَرُ غَرِيسَ بِعَيْنِهِ وَمَالَ مُقْتَرِبًا مِنْهَا. ”إِنَّهُ عَلَى أَفْضَلِ سُلُوكِهِ الْيَوْمَ“.

وَضَعَتْ غَرِيسُ الْبِيرَةَ وَالشَّامِپَانِيَا فِي الْبِرَادِ. كَانَ صَمُوِيلُ يَدُقُّ عَلَى الْپِيَانُو اللَّعْبَةِ، وَتَقَدَّمَ جَاسِپَرُ إِلَيْهِ لِيُلْقِيَ نَظْرَةً أَقْرَبَ. ”وَمَنْ صَاحِبُنَا الصَّغِيرُ هَذَا؟“

”ابْنِي“. شَالَتْ صَمُوِيلُ وَأَقْعَدَتْهُ عَلَى وِرْكَيْهَا. ”صَمُوِيلُ، هَذَا مِيسْتَرُ هَاوَلِي، صَدِيقُ مِيسْتَرِ قِيلَاسِكُو“.

أَقْبَلَ بَرِيَانُ وَانْتَزَعَ صَمُوِيلَ. وَإِذْ حَمَلَهُ، هَزَّهْهُ حَتَّى ضَحِكَ، ثُمَّ ضَحِكَ مَعَهُ.



شَاهَدَ رُومَانُ بَرِيَانُ مَعَ ابْنِ غَرِيسَ. كَانَ وَاضِحًا أَنَّ الطِّفْلَ يَعْرِفُهُ، وَقَدْ كَانَ هِنَلِي مَطْمَئِنًّا إِذْ حَمَلَهُ. ثُمَّ حَمَلَ بَرِيَانُ صَمُوِيلَ إِلَى شَانِيسَ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَحَدَّثَا كِلَاهُمَا بِصَوْتٍ خَفِيفٍ. رَاقَبَ رُومَانُ الْمُبَادَلَةَ، مُتَسَائِلًا هَلْ لَاحَظَتْ غَرِيسُ ذَلِكَ. لَمْ تَبْدُ مُنْزَعِجَةً مِنْ كَوْنِ صَدِيقِهَا يُبَدِي اِهْتِمَامًا مَلْحُوظًا بِصَدِيقَتِهَا. أَخَذَتْ شَانِيسَ صَمُوِيلَ مِنْ بَرِيَانُ وَأَقْبَلَتْ إِلَى رُومَانُ. ”فِيمَ تَشْتَغِلُ؟ جِدَارِيَّةٌ أُخْرَى؟“

”شَيْءٌ مَا جَدِيدٍ. فِكْرَةٌ غَرِيسَ. رَاجِيًّا أَنْ أَبْقِيَ ذِهْنِي بَعِيدًا عَنِ الرَّحَلَةِ إِلَى جَهَنَّمَ“.

”مِن دواعي الشُّكر أن تِلْكَ رِحْلَةٌ لِنِ أقومَ بها بتائًا،
وَإِن كُنْتُ أَسْتَحِقُّهَا“. وَنَفَخْتُ عَلَى رِقْبَةِ صَمُوِيلَ
مُحَدِّثَةً بِرَبْرَةٍ مُضْحِكَةً.

”ظَنَنْتُ أَنَّهُ لِي. كُنْتُ تَحْمِلِينَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَابِلْتُكَ“.

ضَحِكْتُ شَانِيسَ. ”تَعْنِي يَوْمَ كُنَّا كُلُّنَا نَتَفَقَّدُكَ
لِنَتَيَقَّنَ بِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ نِيَّاتِ شَائِنَةَ حِيَالِ
غَرِيسَ؟“ وَرَفَعْتُ صَمُوِيلَ إِلَى كَتِفِهَا. ”أَتَشَبَّثُ بِهَذَا
الْفَتَى الصَّغِيرِ كُلَّمَا سَنَحْتُ لِي فُرْصَةً. لَيْسَ مَا يَضْمَنُ
أَنَّهُ سَيَكُونُ لِي وَلَدٌ يَخُصُّنِي“. وَتَرَدَّدَتِ عَيْنَاهَا عَلَى
بَرِيَانَ فِي تَوَقُّعِ حَزِينِ. ”إِنَّهُ مُمَيِّزٌ حَقًّا“.

”أَعْنِ الطِّفْلَ تَتَكَلَّمِينَ أُمٌّ عَنِ بَرِيَانَ هِنَلِي؟“

بَدَتْ شَانِيسَ مُرْتَبِكَةً. ”عَنَيْتُ صَمُوِيلَ بِالتَّأَكِيدِ،
وَلَكِنَّ بَرِيَانَ ظَرِيفٌ تَمَامًا أَيْضًا. نِيكُولُ وَأَشْلِي وَأَنَا
انْتَقَيْنَاهُ لِغَرِيسَ“. ثُمَّ شَرَحَتْ لَهُ عَنِ مَوْقِعِ تَرْتِيبِ
الزَّيْجَاتِ الإِلِكْتَرُونِيِّ وَكَمْ شَابًّا أَدِيبًا مُرَشَّحًا مُحْتَمَلًا
اسْتَعْرَضْنَ قَبْلَمَا قَدَّرْنَ أَنَّ بَرِيَانَ هُوَ الرَّجُلُ الأَمْثَلُ
لِغَرِيسَ.

لَا بُدَّ أَنَّهُ أَمْرٌ حَسَنٌ أَنْ يَكُونَ لِلْفَتَاةِ صَدِيقَاتٌ
يُبَالِغْنَ كِفَايَةً بِحَيْثُ يُفْتَشَّنَ عَنِ زَوْجِ مُرَشِّحٍ مُحْتَمَلِ.
كَانَ الفَحْمُ قَدْ بَدَأَ يَشْتَعِلُ، وَوَضَعَ السَّيِّدُ الأَمْثَلُ
قِنَانِي الصُّودَا دَاخِلَ صُنْدُوقِ ثَلْجٍ خَارِجًا، فِيمَا كَانَ
يُحَادِثُ نَائِجِلَ وَأَشْلِي. وَغَطَفَظَ النَّوْمَ عَلَى صَمُوِيلَ
وَهُوَ عَلَى كَتِفِ شَانِيسَ. أَخْرَجَتْ غَرِيسَ قِطْعَ

الهمبرغر والنقانق من البزاد. وضبطها رومان ناظرةً إليه، فشعرَ بشيءٍ من الرضى على الأقل، لم تكن عيناها مصمغتين بالرجل الذي أوقد النار.
”جمعةٌ حلوةٌ“.

”يسرنى أنك جئت“ . زلقت غريس مئزراً من فوق رأسها. ”لم تبد متحمساً لَمَا دَعَوْتُكَ“.

”لم أكن متيقناً بأنني سأتناغم“ . وكان قد قرَّر أن هذا فناؤه الخلفي، لا فناء بريان.

دخل بريان لإحضار طبق اللحم. ”الجمر جاهز“.

جلسوا جميعاً في الخارج ليأكلوا، وأصغى رومان إلى الأحاديث السهلة جاريةً حوَالَيْهِ، مُجِيباً عن الأسئلة عندما كانت مُوجَّهةً إليه. وقالت نيكول إنها مضطرةٌ إلى المغادرة، فرافقتها غريس إلى سيارتها. ولما رجعت، سألتها شانيس هل توصلت إلى مكان ما مع نيكول، فهزت كتفها نفيًا.

حكى جاسپر قصتين على الأقل عن اشتغاله مع فتى مشاكس في مزرعة آل ماسترشن، غير تارك أي تساؤل عمّن عني. وكان رومان أقل من مسرورٍ بذلك، حتى بادَرَ الآخرون إلى رواية بعض من مزحات مُراهقتهم. فاعترف بريان بأنه مع اثنين من رفقائه في الثانوية الصقوا كرات قطن مبلولة على سيارة المدير كلها في أثناء شتاءٍ بالغرب الأوسط. ”مضى ثلاثة أسابيع قبلما صار الطقس دافئًا بما يكفي لإزالة

القطن.“

ضحك رومان. ”هل نجوت من العقاب؟“

”أبني ضميري كثيرًا حتى اعترفت.“

واجهت شانيس رومان. ”أودُّ أن أسمع ما جرى لَمَّا

عُدت إلى الوعي بعد الإغماء.“

الظاهرُ أنَّهم كلُّهم عرَّفوا. ”أجرتِ غريس تنفُّسًا

اصطناعيًا وإنعاشًا.“

هزَّت غريس رأسها. ”المُسعفونَ تولَّوا الأمر.

أخبرهم بما جرى، رومان.“ لم يكن جاسپر مُقدِّمًا أيَّ

سبيلٍ مواتٍ للخروج.

ألهذا السبب قد دَعته غريس؟ لم يَرُق رومان أن

يكونَ مركزَ الانتباه. ”لم أكن أوَمِن بوجود جهنم،

حتى ذهبتُ إلى هناك.“ فحدِّقوا كلُّهم إليه.

”أهذا كلُّ شيء؟“ اعترَفت شانيس. ”أهذا هو

كلُّ ما تنوي أن تُخبرنا به؟ هيَّا! نريدُ أن نسمعَ كلَّ

شيء.“

ضحك جاسپر ضحكة خافتة. ”أحسنُ لك أن

تفعل ذلك. لديَّ شعورٌ بأنَّ تلك الفتاة لا تستسلم.“

حدَّثهم رومان بشأن الشياطين، والنَّفق، والرَّائحة

النتنة، والصُّراخ. ونَظرَ إلى غريس. ”أنتِ وأنا كُنَّا تَوًّا

نتحدَّث بشأن يسوع. ما كُنْتُ لأفكِّرُ أن أصرُخ مُناديًا

بإسمه، لولا ذلك.“ فلانَ وجَّهها.

”هل رأيته؟“

”ماذا؟“ واجهه أشلي. ”رأيت نُورًا وأحسست يدًا ثمسك بي بقوة. لم أر وجهًا، ولكنني عرفت من كان ذلك الشخص.“ ثم التفت إلى غريس مُجددًا. ”لا شك عِندي أن يسوع أنقذني، ولكنني لا أدري لِمَاذَا كلف نفسه.“

مال بريان إلى الأمام، ويداؤه مشبوكتان بين رُكبتيه. ”إنه يُحبك.“

ابتسم رومان ابتسامةً ساخرة. ”هل تعتقد ذلك؟“ ”محبة الله وصلوات غريس.“ وربتت شانيس رُكبة رومان. ”مهما كان السبب، فواضح أن الله لم ينفُض يده منك بعد.“

كان جاسپر قد قال ذلك بعينه. ”جيد، جميعكم تعرفون الكتاب المقدس أفضل مني.“

جلسوا كلهم حول حُفرة النار لَمَّا غابت الشمس. وكانت أشلي قد أحضرت لوازمَ لِسواء المارشميلو مع البسكويت. تحدت بريان بشأن التَّخيم مع فتیان الكشافة. وبطريقة ما، ذات وقتٍ في أثناء المساء، كف رومان عن كره الرجل وأحس أنه مُنجذبٌ إلى عُضوية هذه المجموعة الصَّغيرة. لقد تحدت هؤلاء القومُ بسهولة بشأن يسوع وقُدرة الله.

دخلت غريس الكوخ لِثَنُومٍ صمويل. فكَّر رومان في اللِّحاقِ بها. كان بريان ناظرًا إلى رومان، وكأنه

علمَ بما كان رومان مُحاولًا أن يُخفيَه.

ساعَدَ الجميعُ في رَفَعِ الأواني والأطباقِ وجمعِ الصُّحونِ والأكوابِ الكرتونيَّة. وشاركَ رومان بإخراجِ القمامة. ولَمَّا رَجَعَ، أعلنَ بريان أنه مُضطَرٌّ إلى المُغادرة. ستبدأ الكنيسةُ باكراً في الصُّباح، وخيرٌ له أن يكونَ مُستيقظًا تمامًا ومستعدًّا لتعليمِ مجموعتهِ من الإخوة والأخوات الصُّغار. ثمَّ مدَّ يده لرومان. فكانت لأميرِ الأحلام قبضةٌ شديدة، ونظَرَ في عينيهِ مُباشرةً. ”لِنَجْتَمِعْ مَعًا لِتَنَاوُلِ الغداءِ ذاتَ يومٍ، ولِنَتحدَّثْ“. وأخرَجَ بِطاقةً. ”رَقْمُ تَلِفونِي“.

لم يُردِ رومان أن يستَظرفَه. فدَسَّ البَطاقةَ في جيبِ قميصه، وراقبَ بريان يَقتربُ إلى غريس. لا قُبلةَ هذه المرَّة، ولكن أُتيحتَ لهما فُرصةٌ للكلام. إذ وقفا مُتقارِبين، وتحدَّثا بِصوتٍ خفيض. فقرَست رومان الصِّداقةَ الحميمةَ بينهما. وما لبثا أن ودَّعا أحدهما الآخر. ثمَّ غادرَ بريان ونايجل مَعًا. وسرعانَ ما تَبَعَتُهُما أشلي بعد قليل.

قعدت شانيس مع رومان على الحائط. ”أمسيَّةٌ جميلة، أليست؟“ وأمالت رأسها قليلًا ناظرةً إليه. ”رجاءً، كُنْ حَذِرًا مع صديقتي“.

”ما فعلتُ أيَّ شيءٍ لأحظى بِتَحذير!“

”الطَّريقةُ التي بها تنظُرُ إليها عندما لا تكونُ ناظرةً، هي ما يُقلِّقني“.

هل لاحظ ذلك أي شخص آخر، ما عدا جاسپر؟
”رُبَّما كُنْتَ أَنْتِ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ حَذِرَةً“.
لم تتظاهري شائيس بأنها لم تفهم. ”مع بريان، أنتِ
تعني. صدقني. ما كنتِ بتاتا لأفعل أي شيء كي
أؤذي غريس. لقد سببت ضررا كافيا أصلا“. ثم
وقفت وقالت إنها ترجو أن تراه في الكنيسة صبيحة
غد. فقال إنه سيذكر ذلك لجاسپر. وإذ مشت شائيس
مبتعدة، تساءل أي ضرر قد سببت، وما علاقة ذلك
بغريس.



إذ كُذِّبَت الصُّحُوفُ المُتَّسِخَةُ وَوُضِعَتْ جَانِبًا، صَبَّ
رومان لجاسپر كأسًا أُخْرَى مِنْ نَبِيذِ نَايَا كَابِرْنَتْ. كَانَا
قَدْ زَهَبَا إِلَى كَنِيسَةِ غَرِيسَ مَعًا. وَمَا بَرِحَ رومان
يَنْتَظِرُ أَنْ يَسْمَعَ رَأْيَ جاسِپَرِ، وَلَكِنْ جاسِپَرِ بَدَا سَاكِنًا
عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ. ”مَا رَأَيْكَ؟“

هَزَّ جاسِپَرِ كَتِفَيْهِ. ”الْخِدْمَةُ تَخْتَلِفُ عَمَّا تَعَوَّدْتُهُ،
وَلَكِنْ الْعِظَّةُ جَيِّدَةٌ. لَمْ أَرِ غَرِيسَ“.

”كَانَتْ هُنَاكَ مَعَ شائيسِ وَالْأُخْرِيِّينَ. يَخْرُجْنَ
لِلْغَدَاءِ كُلِّ يَوْمٍ أَحَدٌ“. وَكَانَ رومانٌ قَدْ قَعَدَ فِي الْجِهَةِ
الْمُقَابِلَةِ مِنَ الْقَاعَةِ، حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرَاهَا، عَالِمًا
أَنَّهُ لَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى التَّرْكِيزِ إِذَا كَانَتْ فِي أَيِّ مَكَانٍ
عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ.

اتكأ جاسپر إلى الوراء. "شرائخ مشويّة عظيمة، على فكرة. ما فقدت لمستك، رومان. إذا قرّرت يومًا أن تتخلّى عن الرّسم، ففي وسعك دائمًا أن تذهب إلى مدرسة فنديّة، ثمّ تفتح مطعمك الخاصّ."

"هذه أوّل وجبة حقيقيّة ظهوتها في غضون شهر، إلا إذا حسبت طبقًا جاهزًا يدس داخل المايكرويف. عادةً، تبدأ غريس بإعداد شيء ما قبل أن تتوجّه إلى بيتها."

"كيف الأمور بينكما أنثما الاثنيّن؟"

"إنها تقوم بعقلٍ عظيم."

أطلق جاسپر ضحكة رقيقة. "ليس ذلك هو ما أسأل عنه، وأنت تعرف هذا."

"ليس الأمر من شأنك في شيء، ولكننا ذاهبان إلى لامكان."

"لأنّ تلك هي الطّريقة التي تُريدُ أنت أن يكون الوضع عليها."

"ليس تمامًا."

"ماذا تمامًا؟"

تجرّع رومان كأسه. "أنت تعرف تاريخي مع النساء."

"يوجد فرق كبير بين إقامة علاقة عابرة وإنشاء علاقة ثابتة، صديقي." ولانت قسّمات جاسپر. "هذا

أمرٌ جديدٌ عليك. أصغِ جيِّدًا. ههنا القاعدةُ الأولى. أنت لا تمارِسُ الحبَّ مع سيِّدةٍ مثلِ غريسٍ مُور. أنت تقضي وقتًا معها، وترى أينَ تَصِلُ الأمورُ.“

”قد يكونُ أسهلَ إبقاءِ الأمورِ كما هي.“

”أسهلُ؟“ هزَّ رأسه. ”ما برحتِ تُعاني مشاكلَ تعلق. ذلكَ جزءٌ من تاريخك أيضًا. ليس سهلًا أن تشقَّ طريقك في الحياة بلا محبة. الأمرُ موحش. الأمرُ مؤلم.“

”كيف يُمكنك أن تعلمَ؟“

”بالملاحظة.“

شعرَ رومان بالانزعاج تحت حَمَلَةٍ مُعلِّمه. ثمَّ وقَّفَ مُحدِّقًا إليه من عُلِّ. ”أحبُّ غريس. كثيرًا. أكثرَ من أيَّةِ امرأةٍ أُخرى قابلتها يومًا. ذلكَ لا يعني أنني مُغرَمٌ بها.“

”أتذكِّرُ كيف كنتِ مُولعًا بسوزان.“

سبَّ رومان. ”كنتِ ابنَ سبعِ عشرة، وتمامًا مثلَ كلِّ فتى آخر عاش في المزرعة!“

”أعلم. جميعُكم أُغرِمتم بها إلى حين. أنت تطلبُ ما كانَ لِتشت مع سوزان. لعلَّك تحضُلُ عليه فعلاً.“

كانَ الأملُ قنَّالًا. ”هُما زوجانِ فريدانِ بينَ ألف.“

”الأمرُ يتوقَّف على الأرض التي توذُّ احتلالها.“ وأزاح جاسپِر كأسَ النِّبيذ جانبًا. ”إنَّكَ لا تدخلُ في

عَلاَقَةٌ مُفَكِّرًا فِي الْعَوَائِقِ. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُغْرَمًا بِغَرِيْسٍ،
أَشْتَقُ نَفْسِي!

وَقَفَ رُومَانٌ عِنْدَ الْجِدَارِ الزُّجَاجِيِّ. هَلْ رَجَعْتَ
غَرِيْسٌ مِنَ الْغَدَاءِ الْآنَ؟ بِمَ تَحَدَّثِ النِّسَاءَ حِينَ
اجْتَمَعْنَ لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ؟

انضمَّ جَاسِپِرٌ إِلَيْهِ. ”مَرَرْتُ فِي مِثْلِ اخْتِبَارِكَ.
الْوَقُوعُ فِي الْحُبِّ مُرْوَعٌ. لَا تَعْرِفُ مَا هُوَ مُقْبِلٌ أَوْ
مُدْبِرٌ، وَنِصْفَ الْوَقْتِ تَشْعُرُ بِأَنَّكَ مَقْلُوبٌ مِنَ الدَّاخِلِ
فَخَارِجًا“. وَأَمْسَكَ ذِرَاعَ رُومَانٍ. ”الْمَحَبَّةُ تَسْتَحِقُّ
عِنَاءَهَا، يُبِي رَايٍ. إِنَّهَا أَفْضَلُ جُزْءٍ مِنْ كَوْنِ الْمَرْءِ
إِنْسَانًا“. ثُمَّ ابْتَسَمَ. ”«الإيمان والرجاء
والمحبة...ولكن أعظمهن المحبة». يُمَكِّنُهَا أَنْ تَدُومَ
إِلَى الْأَبَدِ!“

هَزَّ رُومَانٌ رَأْسَهُ. لَقَدْ عَلِمَ أَنَّ غَرِيْسَ شَعَرَتْ بِشَيْءٍ
مَا، وَلَكِنْ هَلْ شَعَرَتْ كِفَايَةً بِحَيْثُ يَدُومُ الْأَمْرُ؟ لَمْ
تَعْرِفْهُ جَيِّدًا كَمَا خُيِّلَ إِلَيْهَا، وَكَانَ يَخْشَى إِذَا عَرَفَتْ
أَنْ تَكُونَ تِلْكَ نَهَايَةَ أَيِّ إِمْكَانَاتٍ.

”كُنْ صَادِقًا مَعَ غَرِيْسٍ. أَخْبِرْهَا كَيْفَ تَشْعُرُ
حِيَالَهَا“.

”مَاذَا إِذَا لَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا؟“

”إِذَا، كُنْ شَابًّا شَرِيفًا، وَدَعِّهَا وَشَأْنَهَا. بِطَرِيقَةٍ أَوْ
بِأُخْرَى، سَتَكُونُ مُضْطَرًّا لِأَنْ تُقَرَّرَ قَرَارُكَ“.



لم يَزِ رومان غريس بعدمَا أَحضرت قهوته الصبّاحية. وكان قد أَكفل بِضَع صفحاتٍ من المُسوّدات لِلوحة الجديدة، على أساسِ خَطِّ غريس. وإذ نَصَب قُماشَةً مُظَلَّلةً، رَسَمَ التَّصميمَ بِقَلَمِ رصاص. وحانت منه التَّفاتةُ إلى السَّاعة، ففاجأهُ أَنَّها كانت الحادية عشرة والنِّصف. عادةً، كانت غريس تحضُرُ عندَ الضُّحى لِتُبَلِّغَ الرِّسائل.

كانَ البيتُ هادئًا. توجَّهَ رومان في الرِّواقِ إلى المكتب. هل ذهبَت لِشِراءِ بقالة؟ أم هل غادرت إلى مكانٍ ما لتأديةِ بعضِ المهامِّ؟ كان من عاداتها أن تُعلِّمه متى نَوَت أن تُغادِرَ المنزل. أو رُبَّما كانت تتناولُ الغداءَ في الكوخ.

كانت غريس جالسةً ومِرْفَقاها على المكتب، مُغَطِّيةً عينيها بيديها. تبَيَّنَ تمامًا أَنَّها كانت مُستاءة. "غريس؟" أجفَلت، ولكنَّها لم تلتفت لِثِواجِهِه. فدخَلَ رومان المكتب. "ما خَطْبُكَ؟"

"ليسَ مِنِ خَطْب. كلُّ شيءٍ حَسَنٌ". إِنَّمَا قالت لِجَهِتِها غيرَ ذلك.

فتكلَّم مُتشدِّقًا: "حَسَنًا، ماذا جرى؟ هل قَطَعَ بريان العَلاقةَ بِكَ؟" وما كان في وُسْعِهِ إِلا أن يَرجُو ذلك.

إذ مسحت غريس وجهها بِسرعة، التفتت إليه.

”بريان وأنا صديقان. ذلك كلُّ ما في الأمر“. وقد كانت عيناها حمراوينِ ومُنتَفِختينِ.

”كُنْتُ تُرَجِينِ الْمَزِيدَ“.

”أنا دائماً أرجو فوقَ المَزِيدِ“. تمتَمَت وعادت تنظُرُ إلى مَكْتَبِهَا. ”لا رسائلَ هذا الصَّبَاحِ. إنَّما وِرَدَت رسائلُ إلكترونيَّةٍ قليلةٍ قد تُريدُ قِراءَتَها“.

لم يتحرَّك رومان. ”ماذا تُرَجِينِ؟“

رفَعَت نَظَرَهَا إليه، والأسَى يَنزُ داخلَ عينيها. ”حِكمَةٌ. أحياناً يكونُ عليك أن تُنهيَ صداقَةً ما حتَّى تستطيعَ المُضيَّ قُدُماً“.

هل صارحتَها شانيس بشأنِ انجذابها إلى بريان؟
”صديقُكَ المُضَى قُدُماً؟“

”واحدةٌ من صديقاتي المُضليات. لقد وثقتُ بها“. وهزَّت كتفيها. ”أحياناً، لا يكونُ النَّاسُ مَنْ تَظُنُّ أَنَّهُمْ هم“. ثمَّ رمقته بِنَظَرَةٍ توَسَّل. ”ولكنني لا أريدُ أن أتحدَّثَ بِذلك“.

”حسناً، إذا غيَّرتِ رأيك، فأنا هُنا“. ما كان قَطُّ قد قدَّمَ عَرَضاً كهذا من قبل، وأدرَكَ أنَّه بدا مِثْلَ جاسِير. إنَّما أجفَلَ داخلَ كيانه، عالِماً أنَّه كان سيئَ النَّاهِبِ، لطرحِ الأسئلةِ الصحيحةِ وإسداءِ النَّصيحةِ الحَسيِّفةِ، لا سيَّما لامرأة.

”شُكراً، رومان“. ابتسَمَت وعيناها دامِعتان.
”سيَتولَّى اللهُ حلَّ هذا الأمرِ“.

عزّجت غريس على المرسم بعد ذلك بساعة،
لثحضر له سندويتشا. ولما اقتربت من حامل اللوحة،
هزّ رأسه. "لا اختلاس نظر قبل اكتمالها".

"هل تروقني إذ ذاك؟"

"الأمر يتوقف على رؤيتك ما فيها أو عدم
رؤيتك".

"أنت غامض جدًا". وفكّرت لحظة. "آهه! صور
مخفية".

"في الواقع" مسح يديه بمنشفة ملطخة- "هذا
أول منظر طبيعي لي".

فضحكت ضحكة خافتة. "سأصدّق حين أراه!"



ذلك المساء، سكبت غريس بملقعة سلطة دجاج في
صحن، وعملت لنفسها فنجان شاي، وتفقدت فيسبوك
على تلفونها. وجدت مقالة في إطار الاتجاه السائد
عن رسمة غرافيتي في نفق مشاة بلوس أنجليس. لم
يُرد الكاتب أن تُغطى الرسمة. ومع أنّها افتقرت إلى
توقيع العصفور المميّز، فربّما رسمها رسام الغرافيتي
المشهّر منذ أمد بعيد، وغير المحدد الهوية، ذاك
المقيم على الساحل الغربي.

ومض شيء ما داخل غريس. وُجد رابط لمقالة
ذات صلة، وقد تضمّنت هذه صورة وجه شيطان.

جَرَّتْ مُقَابِلَةً بِضَعَةِ مُوَاطِنِينَ، قَالُوا كُلُّهُمْ إِنَّهُ لَمْ يَرْقُهُمْ
أَنْ يَمْشُوا دَاخِلَ ذَلِكَ النَّفْقِ الَّذِي حَوَى وُجُوهًا غَرِيبَةً
بَشِعَةً وَأَلْسِنَةً لَهَبٍ فِي آخِرِهِ. ”يَشْعُرُ الْمَرْءُ كَمَا لَوْ كَانَ
يَمْشِي إِلَى دَاخِلِ جَهَنَّمَ“.

مَرَّةً أُخْرَى، تِلْكَ الْوَمِضَةُ.

وَإِذَا فَتَحَتْ غَرِيسَ حَاسُوبِهَا، أَجْرَتْ بَحْثًا عَنِ
الْعُصْفُورِ. فَعَرِضَتْ مَنَشُورَاتٍ عَدَّةً، مِنْ ضِمْنِهَا
التَّخْمِينُ عَنِ اشْتِغَالِهِ فِي أُوْرُوبِيَا. مَا بَرِحَ أَنَاسٌ
يُحَاوِلُونَ أَنْ يُخَمِّنُوا هُوِيَّةَ الْعُصْفُورِ عَلَى مَدَى أَكْثَرَ
مِنْ عَشْرِ سَنِينَ. شَرَعَ قَلْبُ غَرِيسٍ يَخْفُقُ بِقُوَّةٍ. وَقَدْ
أَفَادَتْ إِحْدَى الْمَقَالَاتِ أَنَّ تَوْقِيعَهُ، BRD بِأَحْرَفٍ
سُودَاءَ، وَكَانَ مَقْصُودًا أَنْ يَبْدُوَ شَبِيهًا بِشَحْرُورِ طَائِرٍ،
ظَهَرَ دَائِمًا فِي الزَّاوِيَةِ الْيُسْرَى السُّفْلَى عَلَى رَسُومِهِ.
فَتَذَكَّرَتْ غَرِيسَ حُجْرَةَ الْجُلُوسِ فِي مَزْرَعَةِ آلِ
مَاسْتَرَسْنِ.

سَحَبَتْ غَرِيسَ صُورًا مِنْ نِتَاجِ الْعُصْفُورِ. رَجُلٌ
يَعْرِضُ قَفَاهُ أَمَامَ كَامِيرَا مُرَاقِبَةٍ. نُقُوشُ نِسَاءٍ بِكُعُوبٍ
عَالِيَةٍ، أَحْذِيَّةٌ حَمْرَاءُ النَّعَالِ تَحْمِلُ أَكْيَاسَ تَسُوقِ
تَتَبَخَّرُ عَلَى جُدْرَانِ نَفْقِ قِطَارَاتٍ تَحْتَ الْأَرْضِ. شَابَةٌ
حُبْلَى لَابِسَةٌ قَمِيصًا عَلَيْهِ عِبَارَةٌ ”أَنْقِذُوا الْحَيْتَانَ“،
وَهِيَ تَفْتَحُ الْبَابَ الْأَمَامِيَّ لِإِحْدَى عِبَادَاتِ ”الْوَالِدِيَّةِ
الْمُنَظَّمَةِ“. مُتَظَاهِرَانِ لِأَجْلِ السَّلَامِ فِي شِجَارِ
شَارِعِيٍّ. كَاهِنٌ غَارِزٌ قَدَمَهُ عَلَى صُنْدُوقِ كَنْزٍ. ثُمَّ كَرَّتْ

الصُّور نزولاً إلى الوجوه الشَّيطانيَّة في نفقِ المُشاة.

اختارت إحدى الصُّور وأرسلتها إلى البريد الإلكترونيِّ لرومان في المكتب، ناويةً أن تطبَّعها في الصُّباح.

يا ربُّ، أنا أعلمُ أنَّ ذاك رومان. ماذا أفعلُ بهذه المعلومة؟

قلَّما نامت غريس. ولما دخلتِ البيتَ الرئيسيَّ في الصُّباح التَّالي، انبعثت موسيقا صاخبةٌ ثقيلة من غرفةِ النَّوم التي تؤوي عُدَّة تَمَرِّنِ رومان. وإذ استسلمت لِحُبِّ الاستطلاع، جثت على رُكبتيها وسحبت كُرَّاسَةَ الرَّسم من تحت الأريكة. وإذ قلبتِ الصَّفحاتِ بِسرعة، وجدَّت الصَّفحات الأخيِّرة ملأى بِوُجوه شياطين. فأعادت الدَّفتر إلى مكانه مُرتعدةً.

توجَّهت إلى المكتب، حيثُ أجرت بحثًا آخر، وطبَّعت مقالاتٍ عن العُصفور وصورًا من نتاجه. وإذ وضعت جميعَ الأوراقِ داخلَ مَلَفٍّ، مشَّت في الرُّواقِ لِتتحدَّثَ إلى رومان.

جمدَّت في مدخلِ الباب، إذ رأت رومان على بَنكِ رفع الأثقال، وقد انتفخت عضلاتُ ذراعيه وظهره، وجلدهُ يتلألأ. فسحبت نفسًا بطيئًا، وقرَّعت على الباب. ثمَّ لم يسمَع فوقَ موسيقا الرُّوك وهو يتابع الكرَّاتِ على جهازِ البكراتِ ذي الكَبَلِ المَعَدنيِّ. ولئن كان هو من يتعرق، فهي بدأت تُحسُّ الحرارة.

فتقدّمت وأطفأت مُشغلةً أقراصه المُدمّجة.

”هاي! جئتِ باكراً“.

”وصلتُ في الوقتِ المعهود“.

مسحَ وجهه بمنشفة، مُجفلاً لما رفعَ ساقاً فوق
البنك ووقف. ”ما وراءك؟“

كان قميصه المنبوذُ ملقى على الأرضية. وخافت
أن تنظرَ إليه في عينيه، إذ ألقاها ما قد يراه. ”هل لنا
أن نتحدّث؟“

”هل لنا؟ أرجو ذلك“. ألقى المنشفة المبلّلة حول
عُنقه. ”قمنا بكثيرٍ من ذلك على الطريق“.

ما أدّت رائحة عرقِ العافية الذكوريِّ إلا إلى جعلها
أكثرَ نرفزةً. لم تُرد أن تنظرَ إلى جسمه، فنظرت إليه
مباشرةً في عينيه بدلاً من ذلك. شيءٌ ما بشأنه أثار
إحساساتٍ خطيرةً داخلها. كان ينبغي لها أن تبقى في
المكتب بدلَ أن تندفعَ إلى ههنا لتسأله هل هو
العُصفور. كان ينبغي لها أن تنتظرَ إلى وقتٍ لاحق،
بعد أن يكونَ قد استحمَّ ولبسَ ومضى إلى عقله في
مرسمه. هل أرادت أن تعرفَ المزيدَ عنه؟

شالَ رومان القميصَ عن الأرضية نثرًا، ولبسه على
القفا. ”أهذا أفضل؟“

”نعم، شكرًا لك“.

لم يكن تنفُّسه قد هدأ. ولاحظتِ النُبضَ في
حنجرته. أكان ذلك من تمرّنه، أم كان هو شاعرًا

بشيءٍ ما ممّا كانت هي شاعرةً به؟ كان عليها أن تقطع التّوثر. ”لا بأس. يُمكنُ أن ينتظر الأمر“. ثمّ دارت وتوجّهت نحو الباب.

”ما قولك في هذا المساء؟“

التفتت مُرتبِكةً. أكانَ طالبًا منها أن تبقى إلى وقتٍ مُتأخّر؟

فركَ رومان المنشفة فوق شعره المُبلّل. ”سأغيبُ مُعظمَ النَّهار“. وأمالَ رأسه، مُتأملًا إيّاها. أيُّ مقدارٍ ممّا شعرت به تبدّى الآنَ تمامًا؟ أرادت منه أن يلمسها، ولكن لو مدَّ يده لَهربت. اقتربَ إليها أكثر، مُمسِكًا بِطرفي المنشفة التي علّقها حولَ عنقه. ”خُذي اليومَ عُطلة، غريس. لِنتحدّثِ على العشاء. السّاعةُ السّادسة. أنا سأطهو“.

عشاءٌ بعدَ ساعاتِ العمل؟ ”لستُ أدري هل تلكَ فكرةٌ جيّدة“.

اشتدّت يده على المنشفة. ”لم نتحدّثِ بالحقيقة منذ رجّعنا من رحلة الطّريق“.

لقد تحدّثا، ولكنّها علّمت ما عناه. لقد توقّفا عن التّنقيب هنا وهناك أحدهما داخلَ الآخر. فكانَ ذلكَ بابًا احتاجت إليه. ”أنا مُوافقة“.

”نستطيعُ أن نضعَ كلَّ شيءٍ على الطّاولَة“. والتّوى فمه قليلًا.

”كلَّ شيء؟“

مشى حولها. "تستطيعين أن تُخبريني بما جعلك
مُكذِّرةً جدًا هكذا". ولمح المَلَفَّ في يدها. "أحسنُ
لي أن أغتسل".

لم تتنفس غريس بصورةٍ طبيعيَّةٍ حتَّى دخلَ
رومانُ غُرْفَةَ نومه وأغلقَ البابَ.
ماذا عَنَى بقوله كلُّ شيء؟

الفصل ٣١

أنشأ رومان لائحة بقالة قبلما ساق إلى ماليبو. أراد أن يتيقن بأن لديه كل ما احتاج إليه ليؤثر في غريس تأثيرًا إيجابيًا. فاشترى لوازم سلطة السبانخ والإجاص وستروغانوف لحم العجل. ولما كان قد لاحظ أن غريس لا تشرب الكحول، اشترى قنينة صودا عصير عنب فوار. لقد قالت سوزان ماسترسن مرّة إن كل امرأة تحب الشوكولا. وهكذا انتقى أيضًا قالب حلوى موسيّة صغيرًا من المخبز. واشترى تشكيلة زهور مع شمعتين.

كانت قد مضت مُدّة طويلة منذ قضى رومان عصر يومٍ كاملاً في مطبخ مُعدًا وجبة خصوصيّة، وذلك منذ عيد الميلاد الأخير في مزرعة آل ماسترسن. وقد كانت تلك طريقته ليقول شكرًا ووداعًا في آن معًا.

كانت الأمسيّة دافئة. أعجب المنظرُ غريس. من شأن طاولة الفناء المرصوف أن تكون المكان الأمثل

لِعِشَاءٍ حَمِيمٍ لِشَخْصَيْنِ. عِنْدَ الْخَامِسَةِ، اسْتَحَمَّ رُومَانٌ
وَحَلَقَ وَجْهَهُ. ثُمَّ لَبَسَ جِينزًا أَسْوَدَ وَقَمِيصًا أَزْرَقَ
غَامِقًا، وَأَدْخَلَ سَيْرًا جَلْدِيًّا فِي فُتْحِ الْخَصْرِ. لَوْ لَبَسَ
بَنَطْلُونًا فَضْفَاضًا وَقَمِيصًا أَيْضًا مُزْرَرًا، لَتَسَاءَلَتْ
غَرِيْسٌ أَيُّ خَطْبٍ أَلَمَّ بِهِ. وَإِذْ خَرَجَ مِنْ غُرْفَةِ نَوْمِهِ،
سَمِعَ قُفْلَ الْبَابِ الْأَمَامِيِّ يُفْتَحُ، فَتَسَارَعَ نَبْضُهُ حَالًا.

دَخَلَتْ غَرِيْسٌ حَامِلَةً هَدِيَّةً لِأَجْلِ حَفْلَةِ الشُّوَاءِ:
قَبِيْنَةُ الشَّامِپَانِيَا فِي يَدِ، وَزُجَاجَاتِ بِيْرَةِ هَايْنِكِنِ
السَّتِّ الْمَحْزُومَةِ مَعًا فِي الْيَدِ الْأُخْرَى. وَقَدْ دَسَّتْ
تَحْتَ إِبْطِهَا الْمَلْفَ الْمَصْنُوعَ مِنْ وَرَقِ الْمَانِيَلَا. ”فَكَّرْتُ
أَنَّهُ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُرِدَّ هَذِهِ“. وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ الْمَطْبَخِ.

التَقَطَ رُومَانٌ أَثَرَ الْعِطْرِ اللَّطِيفِ لَدَى مُرُورِهَا.
عِلَامَةٌ إِيْجَابِيَّةٌ. لِحَقَّ بِهَا. ”لَا حِظُّ أَنْكَ وَأَصْدِقَائِكَ لَا
تَشْرَبُونَ كُحُولًا“. بَدَتْ رَائِعَةً فِي جِينزِهَا الْأَسْوَدِ
الضِّيْقِ، وَكَنْزَتِهَا الْخَفِيْفَةُ الْقَرْنَفُليَّةُ. وَضَعَتْ الشَّامِپَانِيَا
وَالْبِيْرَةَ فِي بَرَّادِهِ، وَدَارَتْ بَعِيدًا عَنْهُ. لَكِنَّهُ لَاقَاهَا
رُومَانٌ عِنْدَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، وَانْتَزَعَ الْمَلْفَ مِنْ يَدِهَا،
وَأَلْقَاهُ عَلَى سَطْحِ الْغِرَانِيْتِ الْمَصْقُولِ. ”لَنْ نَشْتَغِلَ
الليَّةُ“.

”أَحْتَاجُ فَقطَ لِأَنَّ أَتَحَدَّثُ مَعَكَ بِشَيْءٍ مَا رَأَيْتَهُ...“

”مَهْمَا كَانَ، غَرِيْسٌ، فَلْيَنْتَظِرْ!“

التَفَتَتْ نَاطِرَةً إِلَى الْمَطْبَخِ. ”شَيْءٌ مَا ذُو رَائِحَةٍ

طَيِّبَةٍ جَدًّا“.

”هل تبحثين عن غُلبٍ وجباتٍ سريعة جاهزة؟ لا يوجد شيءٌ منها. تصوّرتُ أنه حانَ الوقتُ تقريبًا كي أُعدَّ لكِ وجبةَ طعامٍ.“ وأوماً برأسه نحو الأبواب الزجاجية المنزليّة. ”إنّها أمسيةٌ جميلة. سنأكلُ على الفناء المرصوف.“ وشاهدّها تتأمّلُ عُدّةَ الطّعام لشخصين، وقنيّةَ الشّرابِ وكؤوسه في دلوٍ جليديّ لِثُلجٍ، والزّهور، والشّمعتين جاهزتين كي تُضاءا عندما تغرُبُ الشمس.

رفعت نظرها بشيءٍ ما شبيه بالخوف. ”ما هذا كله؟“

ما كان رومان قد توقّع من امرأةٍ بالغة أن تُذعر، ولا سيّما امرأةٍ كانت مُتزوّجة. ”هوّني عليكِ، غريس. أتوقُّ إلى تناوُلِ عشاءٍ معكِ. لقد تحادثنا في أثناء الرّحلة. ثمّ عُدنا إلى ههنا، ورَجَعنا إلى حياتنا المسعورة من جديد. خيّل إليّ أنّه سيكونُ حسنًا أن نقضيَ أمسيةً معًا ونتواصلُ مُجددًا كما فعلنا على الطّريق.“ أطبقُ فمك، يا مُغفل! تبدو مثلِ بائعِ سيّارةٍ مُستعملة. لقد كان يشعُرُ هوَ نفسه بِفُقاعةِ خوف.

سحبّت نفسًا مُرتعشا بصورة ملحوظة. ”لا بأس. ماذا أستطيعُ أن أفعلَ على سبيل المُساعدة؟“

”لا شيء. كلُّ شيءٍ مُعدُّ. أنتِ جائعة؟ يُمكننا أن نأكلَ الآنَ الآنَ.“

”حسنًا، فلنأكل“.

بدت كأنها أرادت إتمام الأمر والانتهاء منه.

لم يجرِ العشاء كما خَطَّط رومان. فقلما أكلت غريس لقمة. وبدت المُحادثة مُتكلِّفة، إذ كان ذهنُ غريس في مكانٍ آخر. ونسي أن يُضيء الشمعتين حتى انتهى العشاء، ولكن عندئذ كان الأوان قد فات. كفى أجواءً مؤدَّة!

رفعا الصُّحونَ كلاهما. أزاحتَهُ من الطَّرِيق، إذ شَطَفَت الصُّحون ووضعتَها في غَسَّالَةِ الأواني، كما لو عادت تشتغلُ عنده. فتأجَّجت عواطفُهُ وهمَّدت. ثمَّ نقرَ غاضبًا على ملفِّ الأوراق. ”أهذا هو الذي ما برح يشغلُ ذهنك منذ دخلتِ؟“ أراد أن يشقَّه شطرين دون أن ينظرَ ما في داخله أصلًا.

أغلقت غَسَّالَةَ الصُّحون بِخَبْطَةٍ. ”نعم“. ثمَّ دارت ومشت مُجاوِزَةً. ولَمَّا جثت على رُكبتيها ومدَّت يدها تحت الأريكة، انقبَضت مَعِدَةُ رومان. لقد علمَ ما كان في يدها قبلما وقفت وواجهته.

وقفَ مَوقِفًا دِفاعِيًّا في الحال، فأطبَّق أسنانه. ”ذلك ليس من شأنك في شيء“.

”أسِفة، ولكنني رأيته ذات يومٍ فيما كنتُ أنظف، فأثارَ فضولي. ثمَّ لَمَّا رأيتُ الصُّورَ على الإنترنت...“

”أيِّ صُور؟“

لم تُجب. وإذ فتحتِ الدَّفتر، وجدَّت ما بحثت عنه

وأحضرتَه إلى رومان. ثمَّ وضعتَ دفترَ الرَّسمِ مُسَطَّحًا قُدَّامه.

نظَرَ رومان من عُلِّ. ”وجوهُ الشَّيَاطِينِ من كوابيسي. ماذا بشأنها؟“

فتحتَ غريس المَلَفَّ وسحبتَ نُسخًا مطبوعَةً من الكُمبيوتر لبِضْعَةِ رُسوم. لم يستطعَ رومان أن يقرأ سِيماءها لَمَّا نظرتَ إليه. الخيبةُ؟ الخوفُ؟ الارتباكُ؟ ”أنتَ العُصفور، رومان؟“

أحسَّ رومان أنه مفضوح، مُنكشِف، خجلان. ”ما هذا إلا شيءٌ قمتُ به على مرِّ السَّنِينِ لكي أتعاملَ مع...مهما كان.“ ثمَّ أخذَ المَلَفَّ وأغلقه. ”انسِي الأمرَ فحسب. ليس له أدنى علاقةٍ بِكَ.“

”ورَدَ في إحدى المقالات إنَّ الشرطَةَ تحتفظُ بِمَلَفِّ عنك. يُمكنُ أن يُلقى القبضُ عليك.“

كان في وُسْعِهِ أن يحكيَ لها عن الشرطيِّ الذي تركه يمضي. ولكنَّه بالأحرى أحسَّ أنه قلقٌ ومُضطربٌ إلى الدِّفاع. ”أتفكِّرين في تسليمي؟“

”لا، ولكنَّ هذا يقولُ لي إنني حقًا لا أعرفُ شيئًا عنك.“

”تعرفين ما هو مُهمُّ.“ ليس كلُّ شيء، حتَّى الآن. ”أنتِ تعرفينني أفضلَ من أيِّ شخصٍ آخر على هذا الكوكب، ومن الجُملةِ جاسپِر.“ قُم بِمُغامرة، كان جاسپِر قد قالَ له قبل المُغادرة. كُفَّ عن جعلِ

الخوف والغضب يُسيطران على حياتك. كُفَّ عن
السَّماحِ للماضي بأن يُسيطرَ على مُستقبلك. أيُّ
مقدارٍ ممَّا قد أنتجَهُ العُصفورُ قد نتجَ من الإحباطِ
اليائس الذي شَعَرَ به كلُّ حين، ابتداءً من اللَّيلة التي
فيها خرجت أمُّه من البابِ آخِرَ مرَّةٍ؟

بدت غريس على وشك البكاء. ”مَنْ أنت،
رومان؟“

كان في وسع رومان أن يسمَعَ صوتَ جاسپر.
اهدِمِ الأسوار، بُبي راي. دعها تدخل. ”لستُ أدري.“
انتظرَ منها أن تقول شيئًا ما من شأنه أن يسحقَ منه
القلب، ولكنَّ وجهها تغيَّر. فنظرت إليه بحنان.

”أنت رسام.“ تكلمت برِقَّة، بيِّقين. ”أعلمُ ذلكَ
القدرَ عنك.“

خشي أن يسأل، ولكنَّهُ احتاجَ لأنَّ يعلم. ”ماذا
ستفعلينَ بما تعرفينه؟ عن العُصفور؟“

”إنَّهُ سرُّك، لا سرِّي.“

”هُوَ سرُّنا الآن. لعلَّك تشعُرينَ شعورًا أفضلَ إذا
قلتُ لكِ إنني لم أعد قادرًا على الهرب. لا أستطيعُ أن
أسبقَ أحدًا في الرِّكض. كان النَّفقُ آخِرَ رَسْمَةٍ
غرافيتي أنتجُها.“

”لأنَّني أعلمُ؟“

”لأنَّهُ قُبِضَ عليَّ تلكَ اللَّيلة. رأيتُ كلَّ شيءٍ عمِلتُ
لأجله يتلاشى في دُخان، ثمَّ أفلتني الشرطيُّ.“

وتمتَمَ بِشْتِيْمَةٍ. ”لقد تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ، غَرِيْسٌ.“

”اِخْتِيَارُ تَذْوُقِ الْمَوْتِ سَيَفْعَلُ ذَلِكَ لِشَخِصٍ مَا“.

وَمَسَّتْ ذِرَاعَهُ.

حَبَسَ نَفْسَهُ بِهَدْوٍ. رُبَّمَا وُجِدَ رَجَاءٌ. ”صَحِيْحٌ،

وَلَكِنِّي لَسْتُ مُتَحَدِّثَةً بِشَأْنِ ذَلِكَ. كَانَ الْأَمْرُ مُقْبِلًا

قَبْلَ ذَلِكَ. لَقَدْ أَرَدْتُ الْمَزِيْدَ.“

”الْمَزِيْدَ مِمَّ؟“

”الْحَيَاةُ!“ كَانَ قَرِيْبًا كِفَايَةً لِيَلْمِسَهَا، وَلَمَسَهَا. فَعَلِقَ

نَفْسَهَا. وَأَحْسَتْ جِلْدَ خَنْجَرِئِهَا كَمَا لَوْ كَانَ حَرِيْرًا

نَاعِمًا. ”أَنْتِ تُرِيْدِيْنَ الْمَزِيْدَ أَيْضًا، أَلَا تُرِيْدِيْنَ؟“ لَمْ

تُنْكِرْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهَا تَرَاوَعَتْ خُطْوَةً.

”أَنَا أَشْتَعِلُّ عِنْدَكَ، رُومَانٌ. نَحْنُ صَدِيْقَانِ. أَنْتِ

أَخِي فِي الْمَسِيْحِ.“

لَمْ يَكُنْ نَاوِيًّا أَنْ يَدْعَهَا تَمْضِيْ بِذَلِكَ. ”أَنَا أَكْثَرُ مِنْ

رُئِيْسِكَ أَوْ أَخِيْكَ، وَأَنْتِ تَعْرِفِيْنَ ذَلِكَ. أَرَى ذَلِكَ فِي

عَيْنَيْكَ كُلَّمَا نَظَرْتِ إِلَيَّ“. وَلَمَّا أَدَارَتْ رَأْسَهَا بَعِيْدًا،

اِحْتَضَنَ رُومَانٌ وَجْهَهَا بِكَفِّهِ. ”ابْقِيْ نَاظِرَةً إِلَيَّ،

غَرِيْسُ.“

”لَيْسَتْ هَذِهِ فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ.“

كَانَتْ أَحْسَنَ فِكْرَةٍ خَطَرَتْ لَهُ يَوْمًا، وَمَا كَانَ

لِيَتَنَاوَلَ. ”لَيْلَةٌ قَبْلَكَ بَرِيَانٌ، خَالَجْنِيْ شَعُورًا بِأَنْكُمَا،

أَنْتُمَا الْاِثْنِيْنِ، كُنْتُمَا تَمْتَحِنَانِ لِتَرِيَا هَلْ يُوجَدُ بَيْنَكُمَا

أَيُّ تَجَاذُبٍ. فَلْنَمْتَحِنْ نَحْنُ!“

توقع رومان شرراً، لا ناراً. تصلبت غريس أول الأمر، ثم لانت. زلق حولها ذراعاً، وجذبها أكثر. وجدها طيبة المذاق، فأراد المزيد. وإذا تجاوبت، اشتعل جسمه. حتى إذا انكفأت، لم يرد أن يفلتها. وأطلقت تنهدة رقيقة، فارتخت ذراعه.

وجدت يديها متشبثتين بقميصه، وجبينها مسنداً على صدره. وفاخت من شعرها رائحة كضياء الشمس وزهر الربيع. ثم أجرى يديه نزولاً على ذراعيها. لقد نالا جوابهما.

”لا أستطيع...“ بدا صوتها مخنوقاً بالدموع. ”لا أستطيع أن أفعل هذا، رومان.“

”إننا نتغازل فحسب. لن أقوم بأكثر من ذلك حتى تكوني مستعدة.“ كانت ما تزال قريبة منه كفاية بحيث يتنشق عطرها. لم يكد يستطيع أن يأخذ نفساً، أرادها كثيراً. مهلاً، يبي راي. أتح لها وقتاً كي تلحق بك. ثم أسبل يديه على خصرها، ومن ثم على وركيها.

”رجاءاً!“ نشقت نفساً رقيقاً. ”لا تفعل ذلك.“

أي شيء كان ذلك؟ لماً انكفأت، تركها تبتعد. ما اضطرر قط إلى إجبار امرأة، ولم يكن ينوي أن يفعل ذلك الآن. بقليل من الصبر، يصلان إلى حيث أرادا كلاهما أن يمضيا.

تهالكت غريس على الأريكة. ارتجفت يداها إذ

غَطَّت وجهها. ”لَدِيَّ أُسْرَانُ، أَنَا أَيْضًا، رومان“.

”لَسْتُ أَطْلُبُ اعْتِرَافَاتٍ، غَرِيْسُ“. بَقِيَ رومان بعيدًا حَتَّى اسْتَعَادَ كَامِلَ السَّيْطَرَةِ. وَإِذْ جَلَسَ عَلَى طَاوِلَةٍ صَغِيرَةٍ مُقَابِلَهَا، أَمَسَكَ يَدَهَا. وَرَفَعَ ذَقْنَهَا، فَأَخْبَرَهُ خَدَّاهَا الْمُتَوَرِّدَانِ وَعَيْنَاهَا الدَّاكِنَتَانِ بِكُلِّ شَيْءٍ أَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ. ”نَلْنَا جَوَابَنَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟“ سَيَكُونَانِ جَيِّدَيْنِ مَعًا- جَيِّدَيْنِ جَدًّا جَدًّا. ”أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَنْقُلَ صِدَاقَتَنَا إِلَى الْمُسْتَوَى التَّالِي“. وَقَبَّلَ كَفَّهَا.

اسْتَرْخَتْ قَلِيلًا، وَسِيْمَاؤُهَا ذَاهِلَةٌ، لَكِنْ مُفْعَمَةٌ بِالْأَمَلِ. ”أَيُّ مُسْتَوَى تَعْنِي؟“

أَمَسَكَ رومان يَدَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ. أَهْيَ كَانَتْ تَرْتَجِفُ، أَمْ هُوَ؟ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَذَكَّرَ كَوْنَهُ مَرَّةً فَرِغًا هَكَذَا، وَلَكِنْ سُكُوتُهَا الْعَدِيمَ النَّفْسِ طَمَأَنَّهُ. ”أَكْثَرَ حَمِيمِيَّةً“.

بَدَتْ مُرْتَبِكَةً لِحِظَةً، ثُمَّ وَافَاهَا الْفَهْمُ. ”بِالْحَمِيمِيَّةِ تَعْنِي الْعَلَاقَةَ الْجَسَدِيَّةُ“. وَقَدْ تَكَلَّمَتْ بِلَهْجَةٍ كَلِيلَةٍ.

لِمَاذَا بَدَتْ مُتَأَذِيَّةً هَكَذَا؟ ”لَسْتُ مُقْتَرِحًا مَبِيتَ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، غَرِيْسُ“. وَرَأَى التَّوَرِّدَ يَصْعَدُ عَبْرَ عُنُقِهَا وَيَمْلَأُ وَجْهَهَا. ”يُمْكِنُنَا أَنْ نَتَعَرَّفَ أَحَدُنَا إِلَى الْآخَرَ تَعَارُفًا أَفْضَلَ، وَنَرَى كَيْفَ تَجْرِي الْأُمُورُ“.

وَقَفَّتْ غَرِيْسُ وَابْتَعَدَتْ عَنْهُ. ”كَمْ أَنَا حَمِقَاءُ!“ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا. ”أَنَا غَبِيَّةٌ تَمَامًا!“

وَقَفَّ رومان. رُبَّمَا لَمْ يَكُنِ الْمَسَاءُ سَيَنْتَهِي كَمَا

تمنّى. ”ذلك هو الأمر الذي تقضي الحكمة بأن نقوم به. أن نتيقن بأننا متناغمان. سنترى ونقرر إلى أي مدى نريد أن نصل بهذا“.

انقضت عليه بضراوة. ”أنت تريد أقل ما يمكن أن تمتلكه مني؟“

”عمّ تتكلمين؟“ ألم تفهم كيف أحس حيالها؟ ”أنا أريد كل شيء!“

”كل شيء؟ لا، لست تريد! أنت تريد الجزء اللين الهين. لست تريد المادة الصعبة، الأمور التي لا تستطيع احتمالها دون محبة حقيقية، دون وجود الله في الوسط. أنت تريد جسدي يقينًا. ولكنك لا تريد باقي: الحمولة التي أحملها، الشؤون، الصراعات، الارتياحات، الألم. وأنت يقينًا لا تريد صمويل!“
وحاولت أن تخطو حوله.

سد رومان سبيلها. لقد أثار غضبها غضبه، مضيفًا حموا إلى الإحباط. إذا أرادت أن ينهار كل شيء، ففي وسعه هو أن يحدو حدوها. ”لست مرشد شباب سيكون الأب الأمثل. حتى إنني لم أعرف أبي. ماذا تريد مني، غريس؟ قولي لي!“ لما بدأت تبكي، شعر بالخزي. فوضع يديه على كتفيها، ورق صوته. ”قولي لي“.

أنزلت يديه عنها، ورفعت رأسها، ضاربة العينين. ”أريد رجلًا يريد أكثر من صديقة ذات فوائد!“

”حَسَنًا، انْتَقِلِي وَاسْكُنِي مَعِي. سَنَحُلُّ كُلَّ شَيْءٍ“.

نظرت إليه كأنما نبت له قرنان. ”إِنَّهُ الْأَمْرُ نَفْسُهُ!“

”أَنْتِ مُغْرَمَةٌ بِي، وَأَنْتِ تَعْرِفِينَ ذَلِكَ!“

”نَعَمْ، أَنَا أَحِبُّكَ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيَّ أَنْ

أَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ بِشَأْنِ الْأَمْرِ!“

”مَاذَا عَنْ پَاتْرِيكَ؟ أَمَا بَدَأْتُمَا تِلْكَ الْعَلَاقَةَ فِي

السَّرِيرِ؟“ اندفعتِ الكلماتُ من لامكان، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَالَ

أَسْوَأَ شَيْءٍ مُمَكِّنٍ. وَتَوَقَّعَ أَنْ يُحِسَّ كَفَّ يَدَيْهَا عَلَى

خَدِّهِ. وَلَكِنَّهَا، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، خَطَّتْ إِلَى الْوَرَاءِ فَاغْرَةً

الْفَمِ، وَعَيْنَاهَا فَائِضَتَانِ دَمُوعًا.

”نَعَمْ، أَظُنُّ أَنَّ فِي وُسْعِكَ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ“. وَقَدْ

عَادَ صَوْتُهَا رَقِيقًا، مُرْتَعِشًا، عَقْلَانِيًّا. ”وَأَنْتِ تَعْرِفِينَ كَمْ

كَانَ حَسَنًا مَا آلَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ!“

أَمْسَكَ رُومَانٌ بِمِعْصِمِهَا. ”لَقَدْ اعْتَرَفْتَ تَوًّا بِأَنَّكَ

تُحِبِّينَنِي، وَالْآنَ تُغَادِرِينَ؟ أَفْهَمِينِي الْمَنْطِقَ!“

انصرفتِ الْبُخَارُ كُلُّهُ مِنْهَا لَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ. وَسَالَتْ

الذُّمُوعُ عَلَى خَدَّيْهَا. ”لِمَاذَا الْعَنَاءُ؟ لَنْ تَفْهَمَ. لَسْتُ

تُرِيدُ مِنِّي أَيَّ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَادَهُ پَاتْرِيكَ يَوْمًا“.

تَهَدَّجَ صَوْتُهَا، وَتَحَرَّرَتْ مِنْهُ نَتْرًا، تَارِكَةً إِيَّاهُ وَاقِفًا فِي

الْمَدْخَلِ. ثُمَّ سَفَقَتْ الْبَابَ لَمَّا خَرَجَتْ.



نَشَجَتْ غَرِيْسٌ بَاكِيَةٌ طَوَّلَ الطَّرِيقَ وَهِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى

الكوخ. كانت ترتجف، وما زالت تنبض بالمشاعر التي أثارها لديها. كيف أمكن أن تسمح لنفسها بأن تُغرم برومان قبلاسكو؟ لقد علمت لحظة قابليته أنه مصدر بلاء. كان ينبغي لها أن تهذب في ذلك اليوم الأول. وما كان ينبغي لها قط أن تستسلم للتجربة وتستأجر هذا الكوخ.

بقبق الذعر داخلها. لم يعد بإمكانها أن تشتغل عنده، ليس في هذه الظروف. إذا عبر رومان الآن تمامًا، فلا بُدَّ أن تضعف. ستدخله، آملًا أن يقول إنه يحبها. وكم سيكون سهلًا أن تُقنع نفسها بأن كل ما اقترحه سيكون حسنًا. أما كان الجميع يفعلون ذلك؟ من يتزوج بعد؟ قليل من المغازلة بعد سيئها أية مقاومة كانت لديها. لم يسبق أن شعرت قط بثوق تصطك منه الركبتان، ويخفق القلب بشدة، إلى أي رجل قبل رومان، ولا مرة واحدة. وإذا لمسها من جديد، فإنها ستستبقيه.

كانت قد جعلت الهوى يُسيطر مرة من قبل، ودفعت الثمن. وما برحت تدفع.

التقطت تليفونها مرتجفةً، واتصلت بشانيس. "هل لي أن أذهب وأبيت الليلة عندك؟"

تفوّهت شانيس بكلمة بذيئة. "ماذا فعل قبلاسكو؟"

"غازلني. ذلك كل ما في الأمر، شانيس، ولكن

ينبغي لي أن أَخْرِجَ من هُنَا. الآن!

”أنتِ في حالةٍ مؤاتيةٍ لِتَسوقِي؟ تَبدينَ...؟“

”نعم! أَسْتَطِيعُ أنْ أَسوق!“

”حَسَنًا، أَحْضِرِي ما نَحْتَاجِينِ إليه وتعالِي.

سَنَتَحَدَّثُ عِنْدَما تَصِلِينَ إلى هُنَا.“

سَحَبَتِ غَرِيسَ حَقِيبَةَ سَفَرِهَا من الخَزَانَةِ،

والتَقَطَتِ بِضْعَةَ غِيَارَاتِ ثِيَابٍ، ولِوَازِمَ الزَّيْنَةِ، وكِتَابَهَا

المَقْدَّسِ. وَأَخَذَتْ حَاشُوبَهَا وكَثَبَهَا في حَقِيبَتِهَا

الظَّهْرِيَّةِ. وَإِذِ التَّقَطَّتْ مِفَاتِيحَهَا، خَرَجَتْ من البابِ

الأمامِيِّ، وَأَقْفَلَتَهُ وِراءَهَا. سَيَكُونُ عَلَيْهَا أنْ تَرْجِعَ

وتَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ آخَرَ في صِنَادِيقٍ. أو في وُسْعِهَا أنْ

تُرْتَبَ لِشَخِصٍ ما أنْ يَفْعَلَ ذلكَ لِأَجْلِهَا؟ لِمَ تُرِدُ غَرِيسَ

أنْ تَقْتَرِبَ إلى رومانِ قِيلاسكو مَسافَةً تَقِلُّ عن مِيلٍ

واحدٍ. فما كانَ في وُسْعِهَا أنْ تَثِقَ بِنَفْسِهَا.



ذَرَعَ رومانُ الأَرْضِيَّةَ ذَهَابًا وإِيابًا، غَاضِبًا، مُضْطَرِبًا.

انْتَشَبَ الأَلَمُ في ساقِهِ. وَإِذْ أَمَرَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ في

شَعْرِهِ، تَساءَلَ عَمَّا أَسَاءَ التَّصَرُّفَ فِيهِ، وَكَيْفَ يُمَكِّنُهُ

أنْ يُصَلِّحَ الأُمُورَ. لِمَذا ألقى بِاتريكَ في وَجهِ غَرِيسَ؟

ماذا عَنَّتْ بِقَوْلِهَا إِنَّهُ مِثْلُ زَوْجِهَا السَّابِقِ تَمَامًا؟ لِمَ

تَسْتَوَعِبُ غَرِيسَ الأَمْرَ تَمَامًا. إِنَّهُ ما طَلَبَ إلى امْرَأَةٍ

قَطُّ أنْ تَقْضِيَ عِنْدَهُ لَيْلَةً كَامِلَةً، نَاهِيكَ بِالانْتِقَالِ

للإقامة معه. ينبغي أن يُحسب ذلك أمرًا إيجابيًا من وجهه ما!

سيعطيها بضع دقائق حتى تهدأ. ثم يعبر ويتحدث إليها. ربّما يقول لها إنّها لم تفهم كم جرّت مشاعره عميقًا. ربّما كانت بحاجة لأنّ تعلم أنّها عنّت له أكثر بكثير من أيّة امرأة التقاها يومًا، وأنّه يريد لها أن تكون في حياته طالما دامت تلك المشاعر.

سيعطيها وقتًا قصيرًا لِتُفكّر. ربّما ليلةً أخرى. ثمّ يكلمها من جديد في الصّباح.

أتظنّ حقًا أنّ الفتاة ستعود، ببي راى؟

توجّه رومان إلى الباب. ثمّ عرّج على الممشى، ورأى أضواءً خلفيةً لسيّارة تسلك الطّريق الخاصّة. لولا إصابة ساقه، لركض وراءها. زفر كلمةً بذيئة. إلى أين تذهب غريس؟ حيث كان ابنها يُقيم في أثناء الأسبوع، على وجه الاحتمال. أين كان ذلك؟ بربانك! أين في بربانك؟ لعلّها تمكّث عند صديقة. أيّ صديقة؟ شانيس؟ غير مؤكّد. أو ربّما كان مؤكّدًا؟ لم يستطع أن يتذكّر اسم عائلتها. أخمد الحافز إلى استيقلال سيّارته واللّحاق بها. ستكون قد قطعت مسافةً طويلةً عندما يصل إلى الطّريق العامّ. حتى لو أدركها فعلاً، فمن شأن مطاردته لها أن تُعرّضها للخطر وتجعل كلّ شيءٍ أسوأ فحسب.

فكّر!

أَخْرَجَ رُومَانَ تَلْفُونَهُ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهَا رِسَالَةً نَصِيَّةً. لَا تَهْرَبِي وَتَخْتَبِي. تَحَدَّثِي إِلَيَّ. لَنْ تَتَلَقَّاهَا قَبْلَ وَصُولِهَا إِلَيَّ حَيْثُ كَانَتْ ذَاهِبَةً. وَضَعَ التَّلْفُونَ فِي جَيْبِهِ وَحَمَلَقَ فِي الظُّلْمَةِ.

لَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ غَرِيسَ. هَدُوءًا، رُومَانَ. مَا زَالَتْ تَشْتَغَلُ عِنْدَكَ. سَوْفَ تَبْرُدُ نَارَهَا. مَا زَالَتْ تَسْكُنُ فِي كُوْحِكَ. كُلُّ مَا تَمْلِكُهُ هُوَ فِي ذَاكَ الْمَكَانِ. لَنْ تَتَخَلَّى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. سَتَكُونُ لَكَ فُرْصَةٌ ثَانِيَةً.

أَغْمَضَ رُومَانَ عَيْنَيْهِ، مُصَارِعًا طُوفَانَ الْعَوَاطِفِ الْجَارِفِ. كَانَ قَدْ نَسِيَ كَمْ أَدَى الْحُبِّ، وَهِيَ مَدُّ الْأَلَمِ يَطْمُو الْآنَ عَلَيْهِ وَفَوْقَهُ، جَازِبًا إِيَّاهُ إِلَى الْأَغْوَارِ. ”يَا يَسُوعَ، سَاعِدْنِي“.

قَضَى بَاقِيَ اللَّيْلِ فِي مَرَسِمِهِ، مُنْهَالًا عَلَى الْجِدَارِ الْخَلْفِيِّ بِطِلَاءِ الرَّشِّ.



بَكَتْ غَرِيسَ طُولَ الطَّرِيقِ إِلَى ثُورْتِ هُولِيوودَ. وَاسْتَطَاعَتْ تَجْفِيفَ دَمُوعِهَا قَبْلَ وَصُولِهَا إِلَى شَقَّةِ شَانِيْسِ الَّتِي فِيهَا عُرِفَتْ نَوْمًا، عَلَى بُولِيْقَارِ مَغْنُولِيَا. خَرَجَتْ شَانِيْسُ مِنْ بَابِ الْمَبْنَى الْأَمَامِيِّ وَعَانَقَتْ غَرِيسَ عَلَى الْقَمَشِيِّ. ”أَهْ، حَبِيبَتِي، أَنْتِ تَرْتَجْفِينِ“.

ثُمَّ شَالَتْ حَقِيبَةَ سَفَرِ غَرِيسَ. ”سَتَتَحَدَّثُ فِي الدَّاخِلِ“.

جلدت هبة هواءٍ ساخنٍ أغصانَ النَّخيلِ فوق رأسِ
غريس إذ صعدتِ الدَّرَجَ الحَجْرِيَّ ثُمَّ دخلتِ المبنى
الأبيضَ والمسقوفَ بِالقِرْمِيدِ الأحمرِ. وأقلَّهما مصعدًا
إلى الدَّورِ الثَّالثِ. أدخَلتِ شانيسَ غريسَ إلى داخلِ
الشَّقَّةِ بعدما فتحت قُفْلَ البابِ بِسُرْعَةٍ. وإذ تهالكتِ
غريس على الأريكة، سحبتِ بضعَ محارِمِ ورقٍ من
عُلبَةٍ على طاوِلَةِ القَهْوَةِ. كانت قد بدأتِ تُعاوِذُها
أفكارٌ ثانية بشأنِ مُغادرةِ الكوخِ. ماذا لو رجعتِ
اللَّيلة؟ هل يقرَعُ رومانُ بابها ويعتذر؟ وماذا لو فعل؟
أُغَيِّرُ ذلكَ أيَّ شيء؟ يا الله لماذا وضعتني هناك إذا
كانت الأمور ستنتهي بهذه الصُّورة؟

حطت شانيس حقيبةَ السَّفَرِ، وقعدت معها. "ماذا
جري؟" إذ واجهت غريس الحقيقة، شرعت تبكي من
جديد. "يُريدُ صديقةً ذاتَ فوائد". ونشجت ثم
حوزقت.

"هل أقمئنا...؟"

"لا! غارلني. ذلك كلُّ شيء، ولكن...". نظرت إلى
شانيس.

"أوه!"

نظفت غريس أنفها، وحوزقت من جديد. "أعدَّ
عشاءً، عشاءً جيّدًا حقًا، ورتبِ المائدةَ على الفناء
المرصوفِ. ثلجِ شرابَ عِنَبٍ فوّارًا. حتّى إنه أحضَرَ
شمعتين!"

أطلقت شانيس ضحكة رقيقة. ”حسنًا، ذاك الأليف القذرا!“

اعتدى الفواق غريس الثالثة. ”ليس الأمر مضحكًا، شانيس.“

”آه، حبيبتى، أعرف. أيُّ شخصٍ بنصفِ عقلٍ يُمكنُ أن يرى أنكِ مُغرَمةٌ بالفتى. اعتقدتُ أنه ربّما شعرَ بِمثلِ شعوركِ، ولكن لا تقلقى. يبدو رومان قيبلاسكو كأنه صُرّةٌ كاملة: وسيم، غنيٌّ، عازبٌ. ولكنّه بضاعةٌ تالفة.“

”كذلك أنا أيضًا.“

”ألَسنا كلُّنا هكذا؟“

سحبت غريس نثرًا محرمتي ورقٍ أخريين. ”أحبُّه، شانيس. والآن، عليّ أن أستعفى من وظيفتي. لا أستطيعُ أن أسكُنَ في كُوخه. عليّ أن أنتقل. لا أقدرُ أن أراهُ من جديد. إذا فعلت، فسأستسلم، تمامًا كما أفعلُ دائمًا.“ ثم طوّقت نفسها بذراعَيْها وتههّزت. ”كان ينبغي لي أن أهربَ يومَ التقيته. ظننتُ أنني مَنبعة. ظننتُ أنني قد تعلمتُ درسي عن الرّجال. ثم انتقلتُ لِأسكُنَ في الجوارِ الأقرب!“

”اعتقدنا كلُّنا أنّ الله وضعك هناك.“ وأمسكت

شانيس يدها. ”لم ترتكبي أيّ خطأ قط.“

”هذه المرّة. إنّه يجعلُ رُكبتيّ ضعيفتين.“

”كَانَ لَدَيْكَ الْجِسُّ السَّلِيمُ لِلخُرُوجِ مِنْ هُنَاكَ“.

”نعم، ولكن ماذا أنا فاعلة الآن؟ أرجع وأقيم عند آل غارسيا؟ سيلاه تريدُ صمويل. إنها تبذل كلَّ جهدٍ كي تحتفظَ به، وأنا لا أستطيعُ أن أدعَ ذلك يحدث. لست أدري ما سأفعله الآن. سأعودُ دون وظيفةٍ مُجدِّداً. ليس لديّ مكانٌ أسكنُ فيه. لا أريدُ أن أتخلى عن ابني، شانيس“. ثمَّ نشجت من جديد. ”لا أستطيع احتمالَ الوضع“.

طوّقت شانيس غريس بذراعها. ”لست مضطرةٌ لأن تتخلى عنه. يُمكنك أن تمكثي ههنا“.

”ماذا عن رفيقة حُجرتك؟“

”انتقلت قبل أيام قليلة“.

”ولكن عليّ أن أدعَ آل غارسيا فعلاً يحتفظون به! أنا مشوشةٌ جداً. صمويل يستحقُّ أمّاً بدوامٍ كامل، وسيلاه تُحبُّه كثيراً جداً. ينبغي أن يكون لِصمويل أب، وروبن أب صالح“.

”كفّي عن مُعاقبة نفسك، غريس. لقد ارتكبت غلطةً واحدة. يُعوزك أن تُفكري في هذا الأمر ملياً بطريقةٍ عقلانيّة. ما برحت تجلدين نفسك منذ...“

”إنما أريدُ أن أفعلَ ما هو الأفضل لِابني“.

”أصغي إليّ. الأفضل لِصمويل هو أن يكونَ مع أمّه الحقيقيّة كلَّ حين“. ضغّطت شانيس يدَ غريس ووقفت. ”سأعدُّ شيئاً من مغليّ البابونج“. ودخلت

المطبخ المُلَاصِق. ”ستبقينَ عِندي حَتَّى تُرتبِ الأُمور. أَمَّا بِشأنِ سِيلاه، فَتِلْكَ المِراةُ تَدفَعُكَ إلى جَهَنَّمَ. يُمكِنُكَ أن تُحْضِرِي صَموِيلَ غَدًا وتعودِي به إلى هُنَا. أنتِ أُمَّه، غَرِيسُ“.

”ثُمَّ ماذا؟“

”سَأَجْنُدُ المِجموعَةَ. أَشلي وَنيكول وَأنتِ وَأنا سَنُشغَلُ كُلنا رُؤوسنا مَعًا وَنَطلُعُ بِبعضِ الخِياراتِ“.

شَعَرَتِ غَرِيسُ بِأنَّها أثبَتَتْ، حَتَّى جَلَجَلَ تَلْفونُها بِرِسالَةٍ نَصِيَّةٍ ثَانِيَةٍ مِنَ رومان، فَبَدَأَتْ دَقَّاتِ قَلبِها تَتسارَعُ مِنَ جَدِيدٍ. نَظَرَتْ شَانِيسُ مِنَ فَوْقِ كَتِفِها، وَلَكِنَّها لَمْ تَقُلْ أَيَّ شِئٍ. وَإِذْ خَافَتْ غَرِيسُ أن تَضَعُفَ، مَحَتِ النِّصَّ دُونَ أن تَقْرَاهُ. كانَ تَلْفونُها يَحْتَاجُ إلى شَحْنٍ، وَقد نَسِيتَ أن تُحْضِرَ الشاحِنَ. وَانْتَشَرَ دِفْءٌ مُرتَعِشٌ لَدَى فِكرَةِ الرُّجوعِ، فَهَمَّ يَشِي بِما سَيَحْدُثُ إِذا رَجَعَتْ. فَأَطْفَأَتْ تَلْفونُها وَرَمَتَهُ فِي جِردانِها.



لَمْ يَنَمْ رومانُ اللَّيْلَ كُلَّهُ. وَقد نَهَضَ دَورِيًّا وَذَهَبَ إلى المَرَسَمِ لِيَرى هَلْ عادتِ غَرِيسُ إلى بَيتِها. بَقِيَتِ الأَنوارُ مُطفَأةً فِي الكوخِ. وَلَمْ تَكُنْ سِيارَتُها فِي المَرأبِ صَباحَ اليَومِ الثَّالِي. شَرِبَ قَنانِي هَينِكِنَ السُّتَّ كُلَّها وَنِصْفَ قِئِينَةَ الشَّامِيانِيا، راجِيًّا أن يَتَسَنَّى لَهُ إِغراقُ غِصَّةِ الأَلَمِ الحارَّةِ فِي حَنجَرَتِهِ. ثُمَّ غابَ عَنِ

الوعي على الأريكة، وحلم بالحَيِّ المُستَهتر. هاي،
بُبي راي. هل ظننت أنك ستكونُ أحسن حالًا إلى
حدِّ ما بصفتك رومان فيلاسكو؟ ما تزال ابن الزنى
نفسه ليغبي في حيِّ الأقليات، وليس في شهادة
ولادتك حتى اسم أب. ابق مع الذين على شاكلتك.
ثم تحوّل الحيِّ المُستَهتر إلى جهنم، حيث تجول
الوحوش في الشوارع وتتسلق الجدران التي سبق أن
انهال عليها بغلب طلاء الرّش. أهلاً بك في ديارك،
بُبي راي. وقد أحاط به ضحك استهزاء وتكشيرات
سخرية، ووجوه غريبة قبيحة. أهلاً برُجوعك!

استيقظ رومان متأخرًا عصرَ النهار، مُتبيس الشعرِ
من الطلاء الجاف، ناشف الفم، خافق الرأس، مُصابًا
بالغثيان في المعدة. وتفقد تلفونه الخلوي، فلم يجد
جوابًا من غريس.

أحسّ الاكتئاب ثقيلًا جدًّا بحيث شعر بثقله.
ودمدّم صوت: أنه الأمر فحسب! فحاول رومان أن
يُصلي، ولكن الأصوات ظلت تُهيئه ساخرًا. حتى
الشياطين يؤمنون بيسوع، بُبي راي. وأنت تعرف
أين هم. أنت تعرف إلى أين تنتمي.

رن هاتفه الخلوي، فالتقطه دون أن يتفقد حتى
هويّة المُتصل. "غريس؟ أين أنت؟"

"أنا بريان."

أحس رومان الرّفسة الشديدة. "أهي معك؟"

”لا. إنها مُقيمةٌ عندَ صديقة“.

جِيَّاشُ العواطفِ، أرادَ رومانُ أنْ يُقدِّمَ مَطالِبَ،
ولكنَّهُ علِمَ أنْ لِيَسَ له حَقٌّ في ذلك. ”هِيَ سَالِمَةٌ. هِيَ
بُخَيْرٌ“.

”سَالِمَةٌ، نَعَمْ. بَخَيْرٌ؟ لِيَسَ أَكْثَرَ مِنْكَ، كَمَا يَدُلُّ وَقَعُ
صَوْتِكَ“.

”أَنْتَ فَتَى مِنَ النَّوعِ الَّذِي تَطْلُبُهُ. شَخْصٌ مُسْتَقِرٌّ،
كَامِلٌ الأوصافِ“.

”إِنَّهَا مُغْرَمَةٌ بِكَ“.

لِمَاذَا وَجَبَ أَنْ يَعْنِيَ الحُبُّ الخُسْرانَ؟ أَحْسَسَ
رومانُ كَأَنَّ عَيْنَيْهِ مُلْتَمِئَتَا بِرَمْلِ مالِحٍ. ففَرَكَهُمَا. لا تَبِكِ.
الرَّجُلُ لا يَبْكِي. وامتدَّ الصَّمْتُ.

تنهَّدَ بريانُ. ”أقولُ إِنَّكَ في أرضٍ جديدةٍ،
صديقي. أنا هُنا، إذا أردتَ أنْ تتحدَّثَ. نهارًا أو ليلاً“.

بدا بريانُ مِثْلَ جاسِپِرٍ. متى نَفَعَ التَّحَدُّثُ أَيَّ نَفْعٍ؟
لم يَثِقِ رومانُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ. فَمَسَّ الزَّرَّ لِإنهاءِ
المُكالمَةِ وألقى التِّلْفونَ على الطاوِلَةِ.

الفصل ٣٢

خَابَرَتْ غَرِيْسَ آلِ غَارِسِيَا. وَمِنْ دَوَاعِي الشُّكْرِ أَنَّ رُوْبِنَ رَدَّ. لَمْ يُفَاجَأْ بِأَنْ يَتَلَقَّى اتِّصَالًا مِنْهَا فِي بَحْرِ الْأُسْبُوعِ، وَلَا بِأَنَّهَا أَرَادَتْ أَنْ تَتَكَلَّمَ مَعَهُ وَمَعَ سِيْلَاهُ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ مُمَكَّن. ”لَقَدْ حَسَمْتَ قَرَارَكَ“. بَدَأَ مَطْمَئِنًّا. ”تَعَالَى هَذَا الْمَسَاءَ بَعْدَ السَّابِعَةِ. مُهِمٌّ أَنْ تَكُونَ الْعَائِلَةُ كُلُّهَا هُنَا“.

سَأَلَتْ شَانِيْسَ غَرِيْسَ هَلْ تُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَأْتِيَ وَتُسَانِدَ، وَلَكِنَّ شَانِيْسَ مَا كَانَتْ لِتَتَمَالَكَ نَفْسَهَا إِذَا قَاوَمَتْ سِيْلَاهُ. فَآخِرُ شَيْءٍ أَرَادَتْهُ غَرِيْسَ كَانَ إِيْدَاءَ الْعَائِلَةِ الَّتِي سَاعَدَتْهَا فِي أَثْنَاءِ أَصْعَبِ وَقْتٍ فِي حَيَاتِهَا. وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَنْوِي أَنْ تَجْعَلَ ابْنَهَا الضَّحِيَّةَ.

فَتَحَتْ سِيْلَاهُ الْبَابَ وَعَانَقَتْهَا. ”أَعْلَمُ كَمْ كَانَ هَذَا صَعْبًا عَلَيْكَ، حَبِيْبَتِي. عَلِمْتُ أَنَّكَ سَتَقُومِينَ أَحْيَرًا بِالْأَمْرِ الصَّائِبِ“. ثُمَّ أَفَلَّتْ غَرِيْسَ وَتَرَاجَعَتْ، مُشْرِقَةً الْابْتِسَامَةَ. ”رُوْبِنَ وَالْوَلْدَانَ فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ“.

لَمْ يَتَكَلَّمَ أَحَدٌ لَهَا دَخَلَتْ غَرِيْسَ. أَحَسَّتْ أَنْ

الآخرين يفوقونها عددًا بوجود روبن وخافير
واليشيا قاعدين جميعًا في حُجرة الجلوس. بدا الجوّ
مُثقلًا بالتوتر. سيلاه وحدها بدت مسرورةً، مُتحمّسة.
”ما بَرِحنا ننتظرُ هذا مُنذُ شهور“، وأشارت لها سيلاه
بِيديها، وضاءَ العَيْنين، نحو الأريكة. ”تفضّلي،
اجلسي“.

رُبّما كان من الحكمة أن تصطحبِ شائيس
للمُساندة. مُرتعشةُ الأحشاء من توتّر الأعصاب،
جلست غريس على حافةِ كُرسِي. وبلّعت ريقها
بِضُعبوبة، محاولةً أن تجدَ الكلمات الصّحيحة.

شبكت سيلاه يديها في حِضنها، مُتورّدة الخدين،
مُشرقة العَيْنين. ”يُمكننا إحضارُ الأوراق...“

”سيلاه“. تكلمَ روبن بِحزم. ”دَعِها تتكلم!“

لم تعرف غريس كلمةً سهلةً لإخبارِ سيلاه.
”سأحتفظ بِصمويل. سأأخذه معي الليلة“. بدت
سيلاه مُرتبكةً، ثمّ مصدومةً. وأردفت غريس بِسرعة
قبل أن تتمكنَ سيلاه من التّكلم. ”لا يُمكنني أن أبدأ
بإخبارِك كم أنا مُقدّرةٌ لكُلِّ ما قد فعلتِ...“

”لا يُمكنك أن تأخذه!“ أظلمت عينا سيلاه غضبًا،
فيما فارَق اللّونُ خديها أيضًا. ”هذا بيثه. إنّه ينتمي
إلى ههنا، معي أنا!“

”غريس هي أمُّ صمويل، سيلاه“. وُضعَ روبن يده
فوق يدِ زوجتِه بإحكام. ”أنتِ وأنا تحدّثنا بهذا الأمرِ

مِرَارًا“.

حَزَّرت سِيلاه يَدَها نَتْرًا. ”أنا أُمَّه بِقَدْرِ ما هِيَ
أُمَّه“. حَدَّقَتْ إلى غَرِيَس، وَبَدَتْ مُتَأَهِّبَةً لِلقِتال.

هَبَّت أَلِشِيَا واقِفَةً، مُجَفِّلةً الجَمِيع. ”أنتِ أُمَّه أَكْثَرَ
مِمَّا أنتِ أُمَّي!“ وَانفَجَرَتْ باكِيةً دُموعَ غَضَب، ثُمَّ
فَرَّت ماشيةً في الرِّواق. وَإِذ ذُهِلَتْ غَرِيَس، أَجْفَلَتْ
عِنْدَ سَفْقِ الباب.

استَشاط رُوبِن غَضَبًا، مُومِنًا لِخافِير بِرأسِهِ.
”أَحْضِرْ أختَك. هَذِهِ مَسأَلَةٌ عائِلِيَّةٌ“. وَلَمَّا رَجَعَا
كِلاهُما، وَقَفَ رُوبِن.

”اقْعُدِي!“ وَجَرَّت مَحادِثَةٌ سَريعةً الطَّلقات
بِالإِسْپانِيَّة قَبْلَما أَطاعَتْ أَلِشِيَا.

احتَلَّ رُوبِن مَقعدَهُ، أَهدأ الآن. ”قُولِي لِأَمِّكَ كِيفَ
تَشْعُرِينَ، لِيَشِي“. تَكَلَّمَ بِلُطْف، لَكِنْ بِإِصرار.

”لَنْ تُصغِي. هِيَ لا تُصغِي بِتائًا“. وَافَتِ الدُّمُوعُ
مِنْ جَدِيد، وَلَكِنْ كُلُّ تَحَدٍّ وُلِّي.

”ما خَطْبُكَ؟“ سألَتْ سِيلاه، وَقَدْ تَحَوَّلَ غَضَبُها
عَنْ غَرِيَس إلى ابنتِها.

”أنتِ تَهْتَمِّين بِصامِي أَكْثَرَ مِمَّا تَهْتَمِّين بِي أو
بِخافِير“.

لوَحَتْ سِيلاه بِيَدِها، رافِضةً التُّهْمَةَ: ”ليسَ هَذَا
صَحِيحًا! أنا أَغسِلُ ثِيابَكَ. أنا أَعِدُّ عِشاءً كُلَّ مِساء. أنا
أَقْلُكُ لِلتَّدْرِبِ على كُرَّةِ القَدَمِ وَأَحْضِرُكَ إلى البِيتِ

مُجَدِّدًا. لقد أفسدك التَّدليل.“

التوى وَجْههُ أَلِيشيا الغَضُّ تَأْذِيًا. ”متى كانت آخِرَ
مَرَّةٍ فِيهَا حَضَرْتِ إِحْدَى مُبَارِيَاتِي فِي كُرَّةِ الْقَدَمِ،
مَامَا؟ كَانَ مِنْ عَادَتِكَ أَنْ تَحْضُرِي.“

”لا وقتَ عِنْدِي.“

”پاپا يُدَبِّرُ وَقْتًا. إِنَّهُ يَذْهَبُ عِنْدَمَا لَا يُضْطَرُّ إِلَى
التَّأخُّرِ فِي الشُّغْلِ. وَلَكِنْ أَنْتِ؟ لَمْ يَعدْ عِنْدَكَ وَقْتُ
بَعْدِ. صَامِي هُوَ عُذْرُكَ دَائِمًا. إِنَّهُ صَغِيرٌ جَدًّا. الْجَوْ حَارٌّ
فَوْقَ الْحَدِّ. هُوَ بِحَاجَةٍ لِأَنْ يَلْعَبَ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ
ذَلِكَ فِي عَرَبِيَّةِ أَطْفَالِ. إِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَغْيِيرِ حِفَاضِ.“
وَارْتَفَعَ صَوْتُهَا. ”الأمْرُ دَائِمًا يَخُصُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ
الطِّفْلُ.“

غَاضِبَةٌ وَمُدَافِعَةٌ، أَجَالَتْ سِيْلَاهُ نَظَرَهَا بَيْنَ وَلَدَيْهَا.
”أنا حَاضِرَةٌ هُنَا دَائِمًا لِأَجْلِكُمَا! كِلَاكُمَا بِالِغَانِ تَقْرِيْبًا
بِالْفِعْلِ. أَنْثَمَا لَمْ تَعُودَا بِحَاجَةٍ إِلَيَّ.“

”كُنْتُ تَجْلِسِينَ وَتَتَحَدَّثِينَ مَعِي بَعْدَ الْمَدْرَسَةِ كُلِّ
يَوْمٍ، مَامَا.“ مَالَتْ أَلِيشيا إِلَى الْأَمَامِ، مُكَوَّرَةً يَدَيْهَا
قَبْضَتَيْنِ فِي حِضْنِهَا. ”كُلُّ مَا يَهْمُكَ هُوَ صَمُوِيلُ، وَهُوَ
لَيْسَ لَكَ أَصْلًا!“

بَدَتْ سِيْلَاهُ كَأَنَّهَا صُفِعَتْ.

نَظَرَ رُوْبِنَ إِلَى ابْنِهِ. ”مَا رَأَيْكَ أَنْتِ، خَافِيِير؟ أَلَدِيكَ
شَيْءٌ مَا تَقُولُهُ لِأُمِّكَ؟“ وَلَمَّا هَزَّ خَافِيِيرَ كِتْفَيْهِ، طَلَبَ
رُوْبِنَ مِنْهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِصِرَاحَةٍ.

”سأُتخرَّجُ في حَزيرانِ و...“

”نعم“، قاطعت سيلاه نافِداً صبرُها. ”وستذهبُ إلى الجامعة وتكونُ لك حياةٌ خاصَّةٌ بك“.

”لن أذهبَ إلى الجامعة، ماما. سأُتطوِّعُ في الجيش“.

حدَّقت سيلاه إليه، ثمَّ هزَّت رأسها. ”لا، لن تفعل ذلك. حتَّى إنَّ ذلك ليس مُمتِعًا. قُلْ له، روبن!“

”هو ابنُ ثماني عشرة. يستطيعُ أن يتكلَّم بِلِسانه“.

اتَّكأ روبن إلى الورااء في كُرسيِّه، ويداهُ مُتشبَّثتان بِذراعَي الكُرسيِّ، علامةٌ وحيدةٌ على توثيره.

مالَ خافيير إلى الأمام. ”سَيَدْفَعُ الجيشُ تكاليفي في الجامعة، ماما“.

”ستذهبُ إلى الكليَّة وتشتغل“.

ثمَّ التفتت بعيدًا عن خافيير، وواجهت غريس من جديد. ”لدينا أمورٌ أُخرى نتحدَّثُ بشأنها اللَّيلة“.

”أمورٌ أهمُّ من ولَدَيْكَ الخاصَّين؟“ هَمَّت أليشيا بالنُّهوض مُجدِّداً، إلَّا أنَّ نظرةً واحدةً من روبن جعلتها تقعد. وأشاحت وجهها.

نظرَ خافيير إلى أبيه وهزَّ كتفيه. ”لعلَّها تُصدِّقني عندما أركبُ في الحافلة مُتوجِّهاً إلى مُعسكر التَّدريب“.

ثارَت أليشيا من جديد، فلجأت سيلاه إلى الدِّفاع.

لم تُردِ غريس أن تكونَ في وسط أزمَتهم العائليَّة. ربَّما كانَ الاهتمامُ بِصمويل طريقةَ سيلاه في مُكافحةِ خَسارتِها الحتميَّة لِوَلدِها. بدأوا كلُّهم يتكلَّمون بالإسبانيَّة في الحال. نهَضت غريس بهدوء ومَشَت في الرِّواق. استيقظَ صمويل لَمَّا شالته. ”ماما...“ ذابَ قلبُها لَمَّا رفَعته. يا ربُّ، لك الشُّكر. هوَ يعرفُ أنني أمُّه. أراحَ رأسُه على كَتِفها واستسلمَ للنَّومِ من جديد. وكانت قد وصلت إلى البابِ الأماميِّ لَمَّا خرجت سيلاه إلى البهو.

”لا يُمكنك أن تأخُذيه“.

”حبيبتِي! كُفِّي عن هذا!“ أمسكَ بها روبن من ذِراعِها. ”صمويلُ هوَ ابنُها. اتَّفقنا على أن نُساعد...“ انتزَعَت ذِراعَها من يدِ روبن، وتقدَّمت نحوَ غريس خطوةً، مادَّةً ذِراعِها لِتأخُذَ صمويل. بسَطت غريس يَدَها على ظهرِ صمويل وتراجعت مُبتعدةً. أمسكَ روبن سيلاه بكتِفِها. وأمرَ غريس: ”أذهبي!“ فيما استولت الهستيريا على سيلاه.

غمَرت غريس موجةً من الأسى. ربَّما لو حاولت بأكثرِ اجتهاد، أو ربَّبت الأمورَ على نحوٍ مُختلف، لَمَّا كانت هذه العائلةُ تُعاني الآن. ”أنا آسِفة، روبن. أنا آسِفةٌ جدًّا“. ثمَّ فرَّت، وسيلاه تصيحُ وراءها. وإذ فتحت غريس البابَ الخلفيَّ، تلمَّست الشُّيُورَ بارتباكٍ لِتؤمنَ صمويل على مقعدهِ الخاصِّ في السَّيَّارة.

”غريس، مهلاً!“ أقبل روبن على القمشى. ووقفت سيلاه على العتبة، مَطْوَقَةً نفسها بذراعِها وهي تَنشِج.

أغلقت غريس بابَ السَّيَّارة، ووقفت أمامها. ”لن تستعيداه، روبن. أنا آسِفةٌ لأنَّ سيلاه مُستاءةٌ جدًّا.“
وشرَّعت تبكي. ”صمويل هو ابني، ولن أتخلى عنه. قلتُ ذلك لِكَلَيْكُما في المُستشفى، بُعيدَ ولادته.“

رَفَعَ يَدَيْهِ. ”لا بأس بتاتا، أختاه. علمتُ أن هذا اليومَ سوف يأتي. لقد حذَّرتُها. هي تعلمُ أنَّ الولدَ ينتمي إلى أمِّه.“

وإذ نظَّرت غريس إلى سيلاه مُتخَطِّيةً روبن، هزَّت رأسها.

”ما برحت زوجتي تعيشُ حُلماً. وقد استيقظت الآن.“ وارتسمَ الأسى عميقاً على وجهه. ”لديك وظيفةٌ جيِّدةٌ ومسكنٌ جميلٌ لِثَرَبِي ابْنِك.“ ولما مدَّ ذِراعِيه، صافحتُه غريس بكِلتا يَدَيْها. ”بأمانِ الله.“
ثمَّ لوَّحَ لها مُودِّعاً.

فكَّرت غريس أنَّه أفضلُ ألا تُخبرَه أن ليس لها بعدُ وظيفةٌ أو بيتٌ، ولا فكرةٌ عمَّا ستقومُ به في الأيَّام المُقبِلة.



كانت غريس قد تركت جميعَ حاجياتِ صمويل في

الكُوخ، ولم تأخذ أيَّ شيءٍ من عند آل غارِسيَا. فعرَّجَت على مخزن ولمازَت، واشترت ما تحتاجُ إليه لِليلَتين، قبلَ الرُّجوعِ إلى شَقَّةِ شانيس. وبينما صمويل نائم، أنشأت رسالةً استِقالَةً واعتذارٍ إلى رومان. وقالت له إنها فهمت تمامًا بموجبِ عَقْدِ الإيجارِ بينهما أنَّها ستُغَرِّمُ بدفعِ وديعةِ التَّأمينِ وبدلِ إيجارٍ آخرِ شهرٍ سدَّته.

لَمَّا استيقظت شانيس صباحَ اليومِ التَّالي، حملت غريس الظَّرْف. "رسالةُ استِقالتي ومِفْتَاحُ البيت. سأوصلهما عندما أرجعُ لأحضِرَ أشياءَ صمويل وبعضَ الأشياءِ الأخرى التي تخصُّني".

"لن تفعلِي أيَّ شيءٍ، صديقتي". وانتزعت شانيس الظَّرْفَ من يدها. "أنتِ سريعةٌ التَّأثرِ فوقَ الحَدِّ. أنا سأتولَّى الأمر". أرادت غريس أن تُجادِلَ، ولكنَّ شانيس كانت على حق.

"اتَّصلي بالكنيسة، حبيبتي. أسألي إن كان بعضُ الرِّجال الذين يُساعِدونَ في الانتقالِ مُتوافرينَ نِهايَةً هذا الأسبوع".

فِيما صمويل مؤمَّنٌ على كُرسيِّهِ الخاصِّ بالسَّيَّارة، ساقَت غريس إلى مُستودعِ عامٍّ واستأجرت مساحةً كافيةً لِخزَنِ أثارِها حتَّى تجِدَ مكانًا تسكُنُ فيه. ثمَّ اتَّصلَ بها في عَصْرِ النَّهارِ مُدبِّرُ الكنيسةِ مُجاوبًا. لقد تطوَّعَ أربعةُ رجالٍ للعَمَلِ صباحَ السَّبْتِ.

رَجَعَتْ شَانِيسُ بِكُلِّ مَا احْتَاَجَتْ إِلَيْهِ غَرِيسُ:
حَظِيرَةُ الطِّفْلِ النَّقَالَةَ، ثِيَابِ الطِّفْلِ، طَعَامِ الطِّفْلِ،
حِفَاضَاتِهِ، لَعْبِهِ. سَيَكُونُ لَازِمًا أَنْ يُفَكَّ سَرِيرُ الطِّفْلِ
وَيُحْزَمَ، وَلَكِنَّ غَرِيسَ أَحَبَّتْ كَنَكَنَةَ ابْنِهَا بِلِزْقِهَا لَيْلًا.

”أَعْطَيْتُ قِيلاسكو الرِّسَالَةَ وَقُلْتُ لَهُ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ
سَيُنْقَلُ نِهَائِيَّةً هَذَا الْأُسْبُوعَ“.

”هَلْ قَالَ أَيُّ شَيْءٍ؟“

”أَخَذَ الرِّسَالَةَ، وَسَمِعَ كُلَّ مَا قُلْتَهُ، ثُمَّ أَغْلَقَ الْبَابَ“.
مَلَأَتْ دُمُوعٌ حَارَّةٌ عَيْنِي غَرِيسَ. ”حَسَنًا، تَحْمِينِي
أَنَّ ذَلِكَ هُوَ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ“.

تَنَهَّدَتْ شَانِيسُ. ”لَسْتُ مُضْطَّرَّةٌ إِلَى الذَّهَابِ،
غَرِيسُ. يُمَكِّنُنَا أَنْ نَهْتَمَّ بِكُلِّ شَيْءٍ“.

”سَأَذْهَبُ بَاكِرًا وَأَقُومُ بِحَزْمِ الْأَمْتِعَةِ“.

”أَسْتَطِيعُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ“.

”سَأَكُونُ بِخَيْرٍ“. ابْتَسَمَتْ لَشَانِيسَ ابْتِسَامَةً
ضَعِيفَةً. ”مَا عُدْتُ الْفَتَاةَ السَّادِجَةَ الَّتِي كُنْتُهَا“.

بَدَتْ شَانِيسُ شَاكَّةً، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُجَادِلْ. ”أَنَا
مُسْتَعِدَّةٌ لِحَفِظِ صَمُويلَ، وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَكُونِينَ
أَكْثَرَ أَمَانًا إِذَا كَانَ مَعَكَ“.

فَهَمَّتْ غَرِيسُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى التَّمَامِ حَقًّا.

بَاكِرًا صَبَاحَ السَّبْتِ، تَوَجَّهَتْ إِلَى ثُوپِنِغَا كَانِيُونَ
وَمَعَهَا صِنَادِيْقُ كَرْتُونَ وَشَرِيْطُ لَاصِقٍ. تَرَدَّدَتْ بَيْنَ

الخوف والأمل حِيالَ احتمالِ أن ترى رومان. ولَمَّا
فَتَحْتَ قُفْلَ البَيْتِ ودَخَلْتَ، وَجَدْتَ ظَرْفًا بَنِيًّا كَبِيرًا
زَلَّقَ تَحْتَ البَابِ. مَشَتْ مُتَخَطِيَةً إِيَّاهِ ووضعت
صَمْوِيلَ على سَجَّادَةِ حُجْرَةِ الجُلوسِ مَعَ لُغَبٍ من
كَيْسٍ تَبَضُّعُهَا. دَاخِلَ الظَّرْفِ، كان عَقْدُ الإِيجارِ، وقد
كُتِبَتِ الكَلِمَةُ مُلغًى على الصَّفْحَةِ الأمامِيَّةِ بأحرفٍ
نَافِرَةٍ سَوْداءِ، وشيكٍ يُعِيدُ وديعةَ التَّأمينِ وِبدَلِ إيجارِ
الشَّهْرِ الأَخِيرِ، مُثَبَّتًا بِمِشْبَكِ أَوْرَاقِ. وفي ظَرْفِ عاديِّ
أَبْيَضِ، وَجَدْتَ شَيْكًا آخَرَ بِرَاتِبِ شَهْرَيْنِ، ورسالةَ
توصِيَّةٍ رَسْمِيَّةٍ. عَالِيَةٌ الكَفَاءَةِ...جَذَابَةٌ
شَخْصِيًّا...جَدِيرَةٌ بِالثِّقَةِ...سَرِيعَةٌ التَّعَلُّمِ...مُجْتَهِدَةٌ
في العَمَلِ...

مغمومة القلب، قعدت إلى الطاولة الرُّكنِيَّةِ،
والأوراقُ في حِضْنِهَا. واضِحٌ أن رومان وافق على
ضرورةِ قِطْعِ كُلِّ رابِطِ. إنَّما لم تُكُنْ قد توقَّعتِ أن
تَشْعُرَ بِمِثْلِ هذا الإِرْهَاقِ والتَّصَدُّعِ. وإذ غَطَّتْ وَجْهَهَا،
بَكَتِ.

آه، يا الله، لماذا أتيت بي إلى ههنا؟ لماذا قابلتِ
رومان فيلاسكو أصلًا إن كان كلُّ ما سَيَفْعَلُهُ هو أن
يقلِّبَ حَيَاتِي رَأْسًا على عَقِبِ وداخِلًا إلى خارجٍ؟
ساعِدني كي أفهم.

تَشَبَّتْ صَمْوِيلَ بِجِينزِهَا وبكى. فمَسَحَتْ دموعَهَا،
وشالَتْهُ وحمَلَتْهُ مُلاصِقًا لَهَا. لم يَكُنْ هذا وقتًا لحفلةٍ

رِثَاء. كَانَتْ بِحَاجَةٍ لِأَنَّ تَتَذَكَّرُ الْأُمُورَ الْجَيِّدَةَ الَّتِي
نَتَجَّتْ مِنْ عَلاَقَتِهَا بِرُومَانَ. لَقَدْ قَضَى أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ
رَائِعَةً عَلَى الطَّرِيقِ. لَمْ يَمُتْ فِي سَانَتَا كَلَارِيْتَا. قَابَلَ
الرَّبَّ يَسُوعَ. فَمَا كَانَ فِي وُسْعِهَا أَنْ تَسْمَحَ لِنَفْسِهَا بِأَنْ
تَغْرَقَ مُجَدِّدًا فِي هُوَّةِ تَأْسُفَاتٍ وَتَلَعَبٍ لَعَبٍ لَيْتَ وَلَوْ.
وَفَكَّرَتْ فِي سِيْلَاهِ وَأَحْلَامِهَا. الْآنَ، كَانَ عَلَيْهَا هِيَ أَنْ
تُلْقِيَ أَحْلَامَهَا جَانِبًا.

وَإِذْ حَضَّتْ صَمُويِلَ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى السَّجَّادَةِ،
أَعَادَتْ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى دَاخِلِ الظَّرْفِ الْكَبِيرِ، وَظَوْتَهُ
بِحِرْصٍ، ثُمَّ دَسَّتْهُ فِي كَيْسِ التَّسْوُوقِ. إِنَّهُ وَقْتُ حَزْمِ
الْأَمْتِعَةِ وَالانْتِقَالِ مِنْ هُنَا.



بَعْدَمَا قَرَأَ رُومَانَ رِسَالَةَ اسْتِيقَالَةِ غَرِيْسِ ذَاتِ
الْدِيْبَاجَةِ، عَلِمَ أَنَّ أَيْةَ فُرْصَةٍ كَانَتْ لَهُ مَعَهَا قَدْ وُلَّتْ.
شَاهِدَهَا تَصِلُ بِأَكْرَأَ صَبَاحِ السَّبْتِ. اعْتَصَرَ قَلْبُهُ بِشِدَّةٍ
لَمَّا ظَهَرَتْ عَلَى الْقَمَرِ، وَصَمُويِلَ رَاكِبٌ عَلَى وِرْكِهَا،
وَقَدْ دَسَّتْ تَحْتَ إِبْطِهَا بَضْعَةً صِنَادِيْقِي كَرْتُونِ
مُسَطَّحَةٍ. لَمْ تَرْفَعْ نَظْرَهَا. وَلَمَّا تَوَارَتْ دَاخِلَ الْكُوْخِ،
ابْتَعَدَ رُومَانَ عَنِ النَّوَافِذِ. حَاوَلَ أَنْ يُرَكِّزَ عَلَى اللَّوْحَةِ.
ثُمَّ اسْتَسَلَمَ، فَرَجَعَ إِلَى النَّوَافِذِ. كَانَ رَجُلَانِ يَحْمَلَانِ
أَرِيكَةً إِلَى خَارِجِ الْكُوْخِ، وَأَخْرَانِ يَنْقُلَانِ فِرَاشًا. لَمْ
تَكُنْ غَرِيْسُ تَمَلِكُ الْكَثِيرِ، وَهَكَذَا أَنْجَزَ الْعَمَلَ وَمَضَى
الْجَمِيعُ قَبْلَ الظُّهْرِ.

وقَفَ رومان قُبالةَ حَامِلِ اللُّوحةِ باقِيِ اليومِ. كانَ المَنْظَرُ الطَّبِيعِيّ الَّذِي بَدَأَتْهُ غَرِيسُ بِخَطِّ مُنْفَرِدٍ آخِذاً فِي التَّشكُّلِ. وَكَلِّمًا نَظَرَ إِلَيْهِ، رَأَى غَرِيسَ. ذَلِكَ كَانَ بَيْتَ القَصِيدِ.

وَكانَ قَدْ نَوَى أَنْ يُرِيها الرِّسْمَةَ وَيَرى هَلْ لَاحَظَتِ ما كانَ مُخَبِّئًا فِي المَشْهَدِ.

رَنَّ التِّلْفُونُ. رَدَّ رومانَ دُونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى هُويَّةِ المُتَّصِلِ، آمِلًا رُغْمَ كُلِّ عَائِقٍ أَنْ يَكُونَ غَرِيسَ. لَعَلَّهُما يَسْتَطِيعانَ أَنْ يَتَحَدَّثا وَيُسَوِّيا الأُمُورَ. إِنَّمَا كانَ المُتَّصِلُ هُوَ هِيكْتورُ، لِسوءِ الحَظِّ. كانَ مُعاوِنُهُ قَدْ تَعَلَّمَ مِنَ الإِنْكَلِيزِيَّةِ ما يَكْفِي لَأَنْ يُفْهَمَ. وَقَدْ أَرادَ مِنْ رومانَ أَنْ يَرى الجِدَارِيَّةَ الَّتِي أَنْجَزَها تَوًّا فِي مَطْعَمِ مَكْسِيكِيٍّ عَلَى شارِعِ الأَثيرا. كانَ رومانَ بِحاجَةٍ لَأَنْ يَخْرُجَ مِنَ المَنْزَلِ، فَقالَ إِنَّهُ سَيَذْهَبُ بِالتَّأَكِيدِ، إِذْ لَدَيْهِ وَقْتُ كَثِيرٍ. وَتَوَجَّهَ إِلَى قَلْبِ المَدِينَةِ.

ما إِذْ دَخَلَ رومانَ عِزَّ البابِ، حَتَّى ناداهُ هِيكْتورُ وَشَقَّ طَرِيقَهُ مُتَعَرِّجًا بَيْنَ الطَّاولاتِ الغاصَّةِ بِالمرْتادينِ، وَعَلَى وَجْهِهِ الأَسْمَرُ ابْتِسامَةٌ عَرِيضَةٌ.

”أَمِيفُوا!“ وَلَوَّحَ بِذراعِهِ نَحْوَ الجِدَارِ. ”ما رَأَيْكَ؟“

أعْجَبَتْ رومانَ الأَلوانُ النَّابِضَةُ بِالحِياةِ، الجِبالُ فِي الخَلْفِيَّةِ، العُمَّالُ المَكْسِيكِيُّونَ يَشْتَغَلونَ فِي الحَقولِ، أَميرَكِيَّةٌ لَاتِينِيَّةٌ جَمِيلَةٌ تَحْمِلُ سَلَّةَ زَنابِقٍ بِيضاءَ، أَوْلادٌ فِي ثِيابٍ زاهِيَّةِ الأَلوانِ يرقصونَ فِي حَلقةٍ. فأوماً

برأسه مؤيدًا. "بُون اثراباخو، مي أميغو". ("عقل حسن، يا صديقي").

ضحك هيكتر. "أنت تتكلم الإسبانية!"

تكلف رومان ابتسامًا. "سمعت تَوًا مُجمل مُفرداتي". ما عدا غراسياس (شكرًا) وشريط شتائم الأفضل أن يُنسى. ثم شقت فتاة حمراء الشعر وممتلئة الجسم طريقها نحوهما. فعرفها رومان من الصورة التي سبق أن أطلعته هيكتر عليها في سان دييغو. "صديقك؟"

"مي إسبوزا (زوجتي). منذ أسبوعين. قيغاس. لم تُسأل أسئلة". وطوقها بذراع مملكة، إذ نظرت إليه بعينين هائمتين به. "تريسي، قابلي رومان قيلاسكو إل ياترون (الأستاذ)".

"مدعاة شرور". وصافحها رومان يدا بيد.

"لقد تكلم هيكتر كثيرًا عنك".

أجفل رومان: "لست رئيسًا هيئًا".

لم يكن هيكتر قد انتهى من تبليغ الأخبار. "نتنظر بيبي بعد ستة أشهر". وقد بدا فخورًا ومسرورًا. فهنأهما رومان، شاعرًا بوخزة حسد.

"هيّا". لوّح هيكتر له بيده نحو طاولة شاغرة.

"العشاء عليّ".

كان طبق مهروس الأثوكادو والبطاطا المقلية طازجًا ولذيذًا، والصلصة حارة كفاية بحيث جعلت

عيني رومان تغرورقان. نسبةً إلى فتاة صغيرة الحجم، كانت لتريسي شهيةً كبيرة. ضحك هكتور ضحكةً خافتة، وقال إنها كانت تأكل ما يكفي لتوأمين. طلب رومان صحن ريلينو حارًا، وأنشيلادا، وفاصوليا مطهّوةً جيّدًا، ورزًا. وتحدّث هكتور بشأن أهميّة العائلة والأصدقاء. لقد أقبلت عليه مشاريع جداريات أخرى. سيكون في وسعه أن يُعيل أسرة الآن، ولكنه طمأن رومان بأنه ما نسي قطّ أون أميغو (صديقًا). ”في أيّ وقتٍ تحتاج إليّ، سأكون حاضرًا“.

أخبره رومان أنّ الجداريّة في سان دييغو كانت جداريّة الأخيذة. ”أنا أشتغل باللوحات القماشية الآن“. سيُبقية المنظر الطبيعي مشغولاً إلى حين. ثمّ ماذا؟ وعندما يُنجز اللوحة، هل يبيّعها؟ أمرٌ غيرٌ مؤكّد.

رفعت النادلة الصّحون ثمّ رجعت بالقهوة وكعكة فواكه.

”أحضر غريس عندما تنزل المرّة التّالية. سترغب في رؤية الجدار“.

”غريس استقالت“.

ارتفع حاجبا هكتور حالاً. ”أنت دفعتها؟“

”لم تكن تلك دعوتي لها“.

”ولكنك ما زلت تراها. صحيح؟ إنها تسكن في

جوارك تمامًا“.

”انتقلت. هذا الصّباح، في الواقع“.

بدا هيكتور غاضبًا. ”إرس إستويبدو، أو صولو أبستينادو (أنت أحقق، أو فقط عنيد)“.

تورّدت تريسي. ”قال هيكتور...“

رفع رومان يده. ”أظنُّ أنني فهمت“. أكان أحقق أم عنيدًا فحسب؟ لم لا يكون صادقًا؟ ”لنقل فقط إنني أطلقت رصاصة، وهي تجنّبتها“.

”استسلمت فحسب؟“

أدار رومان كؤب القهوة، ولم يُجب.

هزَّ هيكتور رأسه. ”كانت سالحةً لك، يا رجل“.

”نعم“. رفع رومان كؤبه. ”ولكنني أنا لم أكن سالحًا لها“. ونظرَ إلى خاتم الذهب في إصبع هيكتور. ”الأمور لا تجري دائمًا كما تتمنى“.

بعد انتهاء الغداء، لم يشعر رومان بِميلٍ إلى الذهاب إلى توينغا كانيون، فساق إلى لاغونا بيتش. كانت صالةٌ عرض تاليا مُقفلة. وذلك جيّد أيضًا. فمن شأنها أن تُريد معرفة ما كان يرسمه. وإن قال لها، فسترغبُ في بيع اللوحة، دون أن يُرى المنظرُ المُخفي. ومن ثمّ توجه شمالًا. وتوقّف في ماليبو، حيثُ تمشى على الشاطئ. جلس وساعدها مُسندانٍ على رُكبتيه. ألقى القمرُ ضوءًا أبيضًا باهتًا على البحر. فكّر في النور الذي أحاط به، والقبضة القويّة التي نشلته من جهنم.

يا يسوع، لماذا كلَّفتَ نفسك إنقاذي؟

سحبَ رومان تليفونهَ غاضبًا، وكبسَ مفتاحِ الاتصالِ التلقائيِّ.

كان صوتُ جاسپر مُترنِّحًا من النومِ. "هل كلُّ شيءٍ بخير، بُبي راي؟"

"عمِلتُ بنصيحتِك واقترحتُ أن ننتقل أنا وغريس إلى المُستوى التَّاليِّ."

"أوه". سُكوت. "ثمَّ؟"

"استقالت. انتقلتُ من الكوخِ."

خشخشتَ بَطانياتٍ وأطلقَ جاسپر تنهدةً عميقةً. "ابدأ من البداية."

"أعددتُ عشاءً جيِّدًا، ورثبتُ كلَّ شيءٍ على الفناء المرصوفِ. إنَّها تُحبُّ الإطالة". أحسَّ رومان كأنَّ في عينيه حُببياتٍ رمل. فتوقَّفَ عن الكلامِ، وحاولَ أن يتنفسَ.

"هل راودتها عن نفسها؟"

"غازلتُها. قالت إنَّها تحبُّني. طلبتُ إليها أن تنتقلَ وتسكنَ معي..."

"أن تسكنَ معك؟"

"لم تُعجبها فكرةُ كوننا صديقينِ بمنافعِ متبادلةً".
أنَّ جاسپر. "بُبي راي، لَمَّا قلتُ «استقرِّ!» لم أعني أن تطلبَ إليها مُساكنتَكَ. عنيتُ أن تتزوَّجها."

”مَنْ يَتَزَوَّجُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ دُونَ أَنْ يُجَزَّبَ الْاِثْنَانِ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؟“ وَفَكَرَّ فِي هَيْكْتُورٍ وَتَرِيْسِي، الْحُبْلَى أَصْلًا.

”أَنْ يُجَزَّبَا أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؟ تَعْنِي مِثْلَ غِيَارِ ثِيَابٍ؟“
بَدَا جَاسِپِرٌ غَاضِبًا الْآنَ. ”أَنْتِ تُرِيدُ عِلَاقَةً تَدُومُ؟ إِذَا التَّزَمِ. تُرِيدُ أَنْ تَلْعَبَ لُعبَةً «بَيْتِ بُيُوتِ» وَتَمَارِسَ الْجِنْسَ هُنَا وَهُنَاكَ؟ ارْجِعِي إِلَى النَّادِي وَجِدِي عِلَاقَةً لَيْلَةً وَاحِدَةً“.

كَانَ فِي وُسْعِ رُومَانَ أَنْ يُحَسَّ خَيْبَةَ جَاسِپِرِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ قَرِيبَةً مِنْ خَيْبَتِهِ هُوَ. كَمَ مَرَّةٍ خَاطَرَ بِحَيَاتِهِ مُتَسَلِّقًا أَمَاكِنَ عَالِيَةً لِيُفَجِّرَ رِسْمَةً عَلَى جِدَارِ، وَلَكِنْ أَعُوزَتُهُ الشَّجَاعَةُ لِيُخَاطَرَ بِقَلْبِهِ! خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنْ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَلَمِ، وَلَكِنَّ الْأَلَمَ كَانَ مَآثِلًا هُنَا، شَدِيدًا وَعَمِيقًا جَدًّا، كَمِخَالِبِ تُحَاوِلُ أَنْ تَسْحَبَهُ إِلَى الْأَسْفَلِ.

”بُيِّي رَايِ“. كَانَتْ لَهْجَةً جَاسِپِرِ قَدْ لَانَتْ. ”اتَّصِلِ بِهَا. اعْتَذِرِي. اسْأَلِي هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَبْدَأَ مِنْ جَدِيدٍ“.

”فَاتِ الْأَوَانَ“.

”لَنْ تَعْرِفِي إِلَّا إِذَا جَزَّبْتِ“.

”إِنَّهَا لَا تُجِيبُ“.

”كُنِّي قَوِيًّا وَشَجَاعًا، بُيِّي رَايِ. مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَيَاتِكَ، أَخْرِجِي مِنَ الظُّلَالِ“.

تَحَدَّثَا فَوْقَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. بَقِيَ رُومَانَ عَلَى

الشَّاطِئِ طَوَالَ اللَّيْلِ وَشَاهِدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ. ”يَا يَسُوعَ“. اسْتَحْضَرَ النُّورَ وَالْأَلْوَانَ الرَّاحَةَ وَالْعَجَبَ فِي كَوْنِهِ انْتِشَلَ مِنْ جَهَنَّمَ وَشُعُورِهِ بِدُخُولِ الْحَيَاةِ فِيهِ مِنْ جَدِيدٍ. ”يَا يَسُوعَ“. أَرَادَ رُومَانَ أَنْ يُصَلِّيَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ. ”يَا يَسُوعَ“. نَظَرَ إِلَى شُرُوقِ الشَّمْسِ وَتَذَكَّرَ الْقُدْرَةَ الَّتِي شَالَتْهُ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. ”يَا يَسُوعَ، سَاعِدْنِي“.

لَمَّا رَجَعَ رُومَانَ إِلَى تُوَيْنِغَا كَانِيُونَ، دَخَلَ الْكُوخَ. كَانَتْ غَرِيْسٌ قَدْ تَرَكَتْ مِفْتَاحِي كِلَا الْبَيْتَيْنِ فِي الْمَطْبَخِ. لَا رِسَالَةَ. غَمْرَةُ الْأَلَمِ الْمُبْرَحِ. وَوَحِيدًا، فِي السُّكُونِ، اعْتَرَفَ بِمَا كَانَ يَعْرِفُهُ مُدَّةً طَوِيلَةً. لَقَدْ أَحْبَبَهَا. حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةَ، مَا كَانَ قَادِرًا عَلَى الْاعْتِرَافِ بِالْأَمْرِ، نَاهِيكَ بِقَوْلِهِ لَهَا. وَلَوْ قَالَهُ الْآنَ، لَمَّا صَدَّقْتَهُ.

سَبَقَ أَنْ قَضَى ثَلَاثَ سِنِينَ يَبْحَثُ عَنْ أُمَّهِ، قَبْلَمَا اِكْتَشَفَ أَنَّهَا مَاتَتْ لَيْلَةَ تَرَكَتَهُ وَحْدَهُ فِي الشَّقَّةِ. عِنْدئِذٍ فَقَطِ اسْتَسْلَمَ. هَلْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي فِيهِ تَخَلَّى عَنْ مَحَبَّةِ أَيِّ شَخِصٍ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ؟ جَلَسَ رُومَانَ عَلَى طَرَفِ الْأَرِيكَةِ الْجِلْدِيَّةِ، وَرَأْسُهُ فِي يَدَيْهِ.

شَخِصٌ وَاحِدٌ قَدْ يَقُولُ لَهُ كَيْفَ يَبْنِي جِسْرًا إِلَى غَرِيْسِ. وَتَذَكَّرَ رَقْمَ الْهَاتِفِ.

أَجَابَ بَرِيَانَ هِنَلِي عِنْدَ الرَّئِثَةِ الثَّلَاثَةِ. ”مَا بَرِحْتُ رَاجِعًا أَنْ تَتَّصِلَ. لَقَدْ عُدْتُ تَوًّا إِلَى الْبَيْتِ مِنَ الْكَنِيسَةِ“.

”هل يُمكنُ أن نتلاقى لِتناوُلِ القهوة؟ أنا بحاجة
إلى شيءٍ من النُّور على بعضِ الأمور“.

”كُلُّنا يُعوِزُّنا ذلك“.

وحدِّدا وقتًا ومكانًا.

الفصل ٣٣

دخَلَ رومان مقهى كُمن غراونڈز ولمَح بريان هِنلي جالسًا إلى طاوِلَة في الرُّكنِ الخلفيِّ. أوما رومان برأسه تديلاً على رؤيته بريان، ووقف في الصَّف. كانَ قد توقعَ منِ بريان أن يقترحَ واحدًا من مقاهي ستاربكس في قلب المدينة، لا مكانًا في مُتنزهِ صِناعيِّ حافِلٍ بالعمَّال الكادِحين.

استراحَ رومان. لقد عادَ إلى جَوِّهِ القديم. تلقَّى الطَّلَباتِ نادلٌ مَوْشوم، فيما اشتغلت عندَ الآلاتِ فتاةٌ ذاتُ شعرٍ أحمرٍ بَرَّاقٍ وثقوبٍ في أنفِها وشفَتِها وأعلى أذنيها.

شاعِرًا بالكسل من قِلَّةِ النَّوم، طلبَ رومان ثلاثَ ضرباتٍ من الإسپريسو في كُوبِ قهوةٍ عاديِّ طويل. وقد تنقَلَ النَّادلان كراقِصين، مُشتغِلين أحدهما حولَ الآخر بِدِقَّةِ رقصَةِ التَّانغو. كان لا بُدَّ لهما من ذلك، نظرًا إلى عدَدِ المرتادين. أخذَ مُعظَمُ الزَّبوناتِ قهوتهم وانصَرَفوا وقد بقيَ قليلون، شاغلين الطَّاوِلاتِ التي

تَتَسِعُ كُلُّ مِنْهَا لِسْتَةَ أَشْخَاصٍ.

أَطْبَقَ بَرِيَانٌ حَاشُوْبَهُ لَمَّا زَلَّ رُوْمَانٌ إِلَى الْمَقْعَدِ الْمُوَاجِهِ لَهُ. وَإِذْ دَسَّ الْحَاشُوْبَ دَاخِلَ حَقِيْبَةِ ظَهْرِيَّةِ بَالِيَّةٍ، عَلَّقَ سَيْرِيْهَا فَوْقَ ظَهْرِ كُرْسِيِّهِ. ثُمَّ شَالَ فِنْجَانَ قَهْوَتِهِ وَأَوْلَى رُوْمَانَ كَامِلَ انْتِبَاهِهِ. "يَسْرُنِي أَنْكَ لَمْ تَحْنَتْ بِوَعْدِكَ".

"كَانَتْ لِي أَوْقَاتِي". كَانَتْ الْقَهْوَةُ سَاخِنَةً وَغَنِيَّةً. إِنَّمَا لَمْ تَكُنْ جَيِّدَةً كَقَهْوَةِ غَرِيْسٍ. "هَلْ تَتَرَدَّدُ إِلَى هُنَا كَثِيْرًا؟"

"الْمَكَانُ قَرِيْبٌ مِنَ الْعَقْلِ وَمُنَاسِبٌ لِالْتِقَاءِ أَشْخَاصٍ جُدِّدْ".

"هَذَا الْفَتَى الْمُهَنْدَمُ أَرَادَ الْتِقَاءَ جِرْدَانٍ حَيٍّ الْأَقْلِيَّاتِ". دَخَلَتْ مُرَاهِقَةً ذَاتُ جِدَائِلٍ، وَأَلْقَتْ تَحِيَّةً. كَانَ بَرِيَانٌ يَعْرِفُ اسْمَهَا. "هَلْ تَعْلَمُ شَانِيْسَ أَنْكَ تُقَابِلُ فَتِيَّاتٍ صَغِيْرَاتٍ فِي مَقْهَى مَحَلِّيٍّ؟" وَقَدْ تَقَصَّدَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِطْنًا.

اِكْتَفَى بَرِيَانٌ بِالابْتِسَامِ. "لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ تَقْلُقُ شَانِيْسَ بِشَأْنِهِ". وَمَا لَيْثَ أَنْ غَدَا جَادًّا. "تَبْدُو مُتَعَبًا".

"تَشْغَلُ بِأَلِيْ أُمُورٍ تَفُوقُ الْحَدَّ".

"جَهَنَّمَ أَوْ غَرِيْسٍ؟"

"إِنَّهُمَا يَسِيْرَانِ مَعًا تَقْرِيْبًا، أَلَا يَسِيْرَانِ؟" وَأَطْلَقَ رُوْمَانَ ضِحْكَةً كَثِيْبَةً. أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ هَلْ يَعْلَمُ بَرِيَانٌ

أين تسكن، ولكنه علم أنه لن يتلقى جوابًا. ”يُحتمل أنها قد حكّت لها القصة كلها قبل الآن“.

”لم تتطوَّع، وأنا لم أسأل. أنت تحدّثت في حفلة الشواء عن اختبارِ تذوّقِك الموت في جهنّم. ذلك شيءٌ لن أنساه“.

”ما كنتُ أنوي أن أتحدّث بشأنه بتاتًا“. تكلم رومان بجفاف وأطلق ضحكةً قابضةً للصدر.

”أمرٌ يصعبُ أن تُبقّيه مُقفلاً عليه داخلَ نفسك“.

”أعلمُ أنّ يسوع أنقذني، ولكن من حيث أنا جالسٌ، الأشياءُ أسوأ، لا أحسن“.

”لا بأس“. ابتسم له بريان ابتسامةً مُوجعة.

”لعلّك تُحاولُ أن تبقى مُتمسكًا بالطُّرق القديمة. فالسؤال هو: ”أنت مُستعدٌّ لأن تُسلمَ المسيح حياتك؟“

مال رومان إلى الأمام مُحبّطًا، صارًا بأسنانه. ”ماذا يعني ذلك؟“

”أن تكفّ عن العيشة بحسبِ قوانينك الخاصة“.

كان رومان قد قرأ من الكتاب المقدّس الذي أعطته غريس إيّاه ما يكفي لأن يعرف عن القوانين.

”أجل، حسنًا، الكتاب المقدّس ملآنٌ بالوصايا. وأغلبها لا يُدرِكُ معناه عندي“.

”لأنّك تتحدّث بشأن العهد القديم، يا صديقي“.

ومال بريان إلى الأمام أيضًا، مُتلقّيًا حَمَلقةً رومان.

”ههنا الخبز الطيب، رومان. نحن في ظلّ العهد الجديد، ذاك الذي دفع الرب يسوع ثمنه بدمه. فعندما تقول نعم للرب يسوع، يُعطيك الروح القدس. فتالي مرةً تقرأ كلمته المقدسة، وذلك في فكر، تبدأ تفهم. سيُعلمك الروح القدس ويريك كيف تنطبق الكلمة على حياتك. ستبدأ تميز صوت الله. ستعلم أين ضللت وكيف تتصالح مع الله. إنك تقتدي به. وتبدأ حياتك تتغير من الداخل إلى الخارج.“

هز رومان رأسه. ”أنت تجعل الأمر يبدو سهلاً.“

”هو بسيط“. اتكأ بريان إلى الورا، غير قاطع التواصل البصري أساساً. ”ليس سهلاً“.

”يبدو أنك تُحيط بكل شيء، يا قسيس“.

التوى فم بريان بابتسامة ساخرة. ”بالكاد“. طنطن تلفونه. ”أحتاج إلى مُحاسبة كأي رجل، وربما أكثر“. تفقد الرسالة ودس التلفون في جيبه من جديد. ”يكون القسوس عرضةً لإسهام العدو. لقد قابلت عددًا من أعوان الشيطان. دمّر راعياً، فيمكن أن يضلّ قطيعٌ بأكمله“.

يدافع من حُب الاستطلاع، حول رومان الحديث بعيداً بشأن اختبارٍ لم يرد أن يفكر فيه، ناهيك بأن يتكلم عنه. ”كيف انتهيت لأن تصير... ماذا تُسميه؟ راعياً؟“

تحدّث بريان بشأن طفولته في الغرب الأوسط،

وعائلته المُزارعة، ونشأته في الكنيسة، والفتاة
الحسنة التي التقاها في حدثٍ روحيٍّ ثمَّ تزوّجها في
أثناء ارتياده مَعهدًا لاهوتيًّا، وفقدَها بعدَ مُدَّةٍ قصيرةٍ.
فاجأت رومانَ الألفَةَ اليَسيرة. وجدَ نفسه مُتحدِّثًا
بنشأته في الحيِّ المُستهتر، وسرِقته المعروضات من
أسواقِ الزَّوايا ليكونَ له ما يأكله، واختفاءِ أمِّه،
وانتقاله من بيتِ تنشئةٍ إلى آخر. ”يقولُ جاسپر إنَّ
لديَّ مُضاعفاتٍ تَحُلُّ“.

”ما من مُفاجأةٍ كبيرةٍ هُناك“.

أتى رومان على ما بقي من قهوته. ”ما كان لي أبٌ
قَطُّ“.

”كان لك أبٌ دائمًا. الآنَ يُمكنك أن تتعرَّفَ إليه“.
وطنٌ تَلفونُ بريان برسالة، فتفقدها.
ألقي رومان نظرةً على الوقت، وتلفظَ بكلمةٍ بذيئةٍ
على سبيلِ العادة. ”ما بَرِحنا نتحدَّثُ على مدى
ساعتين“.

ضحكَ بريان. ”جيدٌ أن نعلمَ أننا نستطيعُ ذلك.
عليَّ أن أرجعَ إلى الكنيسة“. دفعَ كرسيَّه إلى الورا
وعلقَ سيري حقيبته الظَّهرية على كتفيه مُتلوًّا. ثمَّ
وقفَ على الرِّصيف. ”ما قولك في الأسبوعِ التَّالي؟“
فاجأ رومانَ أنَّ القسيسَ كانَ راغبًا في جولةٍ
أخرى معه. ”بالتأكيد. حدِّدِ أنتَ الوقت. أنا أنشئُ
برنامجَ مَواعيدي، أمَّا أنتَ فلديك وظيفة“.

مشى بريان إلى الورااء، حتَّى واجَهَ رومان.
”سأراجِعُ رُوزنامتي وأتَّصلُ بك“.

”أحتاجُ إلى توصيلة؟“

”أنا أبعدُ دقيقتين. الكنيسةُ بعدَ صفٍّ من المباني
إلى اليمين“.

لم يَدِ رومان أيَّ بُرجِ كنيسة. ”ذلك مبني
صناعي“.

”صحيح!“ ابتسمَ بريان ابتسامةً عريضة. ”بدلُ
إيجارٍ زهيد، مساحةٌ وافرة. هاي! هل تلعبُ كرة
السلة؟ مجموعةُ الشباب سيلعبون الليلة“.

”لا كرة سلة“. ضحكَ رومان. ”كنتُ أقومُ بالجري
والوثب“. كانت تمارينُ المَطِّ والتَّقوية قد سبَّبت
كثيرًا من الألم، ولكن دونَ أيِّ تحسُّنٍ في ساقه. فكان
ذلك تذكيرًا ثابتًا بأنَّهُ لم يتخيَّل رِحلتَهُ إلى جهنَّمَ
مُجرَّدَ تخيُّل.

”لِمَ لا تأتي وترى ما يجري يومَ الأحد؟ ليس من
قُمصانٍ رسميةٍ وربطاتٍ عُنُقٍ هُنا. الخِدْمَةُ السَّاعَةُ
العاشرة“. وإذ أزاخَ بريان حقيبتَهُ، هَرَوَلَ في الشارع
وتوارى في طريقٍ خاصٍّ.

لم يجرِ اللقاءُ كما توقَّعَ رومان. لقد شعَرَ
بالاطمئنان، وكانَ أيُّ شيءٍ قد يقوله ما كانَ ليُفاجئَ
بريان هِنلي. رُبَّما كانَ القُسوسُ قد سمعوا الكثيرَ
الكثيرَ من هذا القبيل!



قررت غريس، بتشجيع صديقاتها لها، أن تُباشِرَ
مصلحةً على الإنترنت. لم تكن مُقتنعةً بأنها ستكونُ
كافيةً لإعالتها مع صمويل، ولكنها كانت بداءة.

”شُدِّي حَيْلِكَ، يا فتاة!“ كانت شانيس مُشجِّعَتها
الكبرى. ”سِجِّلُ الشَّرْفَ فِي الثَّانَوِيَّةِ، مِنْحَةً دَراسِيَّةً
كاملةً فِي جامعة كاليفورنيا بِلُوس أنجلِيس، تَرْقِيَّةً
من مَوْظِفَةٍ اسْتِقبَالٍ إِلَى سِكرتيرة فإلى مُدِيرَةِ مَكْتَبٍ
فِي مَوْسَسَةٍ عَلاقاتٍ عامَّةٍ فِي أَقلِّ من أَرْبَعِ سِنِينَ.
أنتِ حائِزَةٌ لِجَمِيعِ المهاراتِ المَطْلُوبَةِ، حَبِيبَتِي. كُلُّ ما
تَحْتَاجِينَ إِلَيْهِ هُوَ قَلِيلٌ مِنَ الثِّقَّةِ. حَاوِلْتُ أَنْ أَقُولَ
لِكَ ذَلِكِ لَمَّا فَقدتِ وَظِيفَتِكَ أَوَّلَ الأَمْرِ“.

تَبَّنتِ صَدِيقَاتُ غَرِيسِ المَشْرُوعَ فِي أَحَدَثِ غَداءِ
أَحَدِي لَهْنِ.

اقتَرَحَتِ أَشلي مَوْقِعًا إلكترونيًّا. ”نُرِيدُ اسْمًا جَيِّدًا
لَهُ. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَرْبِطِيهِ بِمُدَوَّنَةٍ عَنْ أُمَّ مُنْفَرِدَةٍ مَعَ طِفْلِ
تَشُقُّ طَرِيقَهَا فِي العالَمِ. سَيُسهِمُ ذَلِكُ فِي دَفْعِ
التَّقَاظِرِ إِلَى مَوْقِعِكَ“.

أَطَلَقَتِ غَرِيسُ ضِحْكَةً رَقِيقَةً. ”لَمْ أَشُقُّ طَرِيقِي
إِلَى أَيِّ مَكَانٍ بَعْدُ“.

”سُتْفَلِحِينَ. لَنْ يَخْذُلَكَ اللهُ“. وَحَرَكَتِ أَشلي
قَهْوَتَهَا. ”هِيَ الرِّحْلَةُ ما يُرِيدُ النَّاسُ أَنْ يَقْرَأُوا عَنْهُ“.

”في وَسْعِكَ أن تعرضي خِدْمَاتٍ مُتَنَوِّعةَ عِدَّةٍ“. دَوَّنتِ شَانِيسَ مَلاحِظَاتٍ. ”أنتِ تعرِّفينِ كيفِ تكُتِّبينِ سِيرًا وظيفيَّةً جيِّدةً. تلكِ مَهارةٌ رائجةٌ في ذلكِ المجالِ تمامًا. لقد ساعدتِ زوجَكَ في كِتَابَةِ أبحاثِهِ الفِصليَّةِ، أَمَا ساعدتِهِ؟ وفي وَسْعِكَ أنِ تعرُضي تحريِّرًا على الإنترنتِ، وتدرِّسًا خُصوصيًّا“.

”هلِ كُتبتِ مرَّةً شِعاراتٍ لمؤسَّسةِ العَلاقاتِ العامَّةِ تلكِ؟“ وأراحتِ أَشلي نَفسَهَا على الأريكةِ.

”أحيانًا“. كانِ هارقي بِرنشتاينِ قدِ طَلَبَ أَغلبَ الأحيانِ أنِ تُساعدَ في العَصْفِ الذُّهنيِّ. وقدِ طَلَعَتِ ببضعِ عِباراتٍ وجيزةٍ ما تزالُ تُرى على لوحاتِ الإعلاناتِ.

”أحيانًا، تحتاجُ الشَّرِكاتُ النَّاشئةُ إلى أشخاصِ يكتبونَ شِعاراتٍ. وهي تدفَعُ مالًا جيِّدًا لِقَاءِ ذلكِ“. كانتِ ثِقَةٌ صديقاتِ غريسِ بتدبيرِ اللهِ وبمهاراتهاِ داعمةً لها.

صمَّمتِ VirtualGrace.biz باستخدامِ رُسوماتٍ مجَّانيَّةٍ. ثُمَّ سرَدَتِ مؤهَّلاتِها، وخِدْماتِها المعروضةً، وكتبتِ منشورَ مُدوَّنتِها الأولى.

اتَّصَلتِ بِهارقي بِرنشتاينِ وأطلَعتهُ على مشروعِها. فأبقى عينيَّه على اللُّعبةِ، وكانِ يعرفُ بِضعةَ أشخاصِ قدِ يحتاجونِ إلى مُساعدتِها لَهم. حتَّى إنَّه قالَ لها أيُّ أسعارٍ ينبغي لها أنِ تطلُبَ. ”هؤلاءِ أشخاصٌ واعدونِ

سَيَتَوَقَّعون أن يدفعوا أكثر، وأنتِ تستحقين ذلك. لقد
سحبتُ تَوًّا موقِعَكَ الإلكترونيَّ. عقلٌ رائع، غريس.
وهو سيجعلُكِ تعملين أيضًا“. ما بَرِحَ هارقي مُشجِّعًا
كُلَّ حينٍ.

جاءَ الاستفسارُ الأوَّلُ من ابنِ صديقِ لهارقي كان
قد باشرَ مصلحةً تكنولوجيَّةً، وقد احتاجَ إلى كُرَّاسةٍ
تعريفيةٍ. قال لها إنها زُكَّيتَ تزكيةً رفيعةً، وأرسل
إليها خُطَّةَ عقله وصورًا ذاتِ صلةٍ.

ثمَّ إنَّ مَدَوْنَتَها الأولى ”غريَّةٌ وسطَ الرُّكامِ“
جذبتِ الانتباهَ أيضًا، لا سيَّما بعدَما أُطلعتِ شائيس
عليها كلُّ شَخِصٍ تعرفه: العقلُ في استُديوين.
وشاركتِ أشلي المنشورَ مع الزُّملاءِ، مُعلِّمينَ
وإداريينَ. لم تكنِ غريس قد توقَّعتِ أن يكون
اعترافُها موضعَ اهتمامٍ لأحدٍ، ولكنَّ التَّعليقاتِ
والرَّسائلَ انهالت على الموقعِ الإلكترونيِّ، ومُعظَّمُها
من نساءٍ لدى نصفهنَّ أولادٌ، مع عددٍ قليلٍ يتضمَّنُ
نصائحَ عمليَّةً.



اتَّصلتِ سيلاه مرَّةً جديدةً. كانتا قد تخابرتا مرَّتين
منذُ أخذتِ غريس صمويلَ، وكانت كلتا المرَّتين
مُحادثَةً موجِّعةً. وقد ظلَّت سيلاه تتَّصلُ، إلا أنَّ
غريس لم تُجِب. رَجَّتْ أنَّ أسبوعًا واحدًا قد يُعطي
سيلاه مُهلةً لتقبَّلَ أنَّ مُدَّةَ وُجودِ صمويلَ عندها قد

انتهت الآن، وإن كانت مُقدَّرةً. وكانَ هذا عاشرَ بريدِ صوتيِّ في ظرفِ يومين. أنا أعلمُ أنكِ تلقيتِ رسائلي، غريس. بالنَّظرِ إلى كَلِّ ما فعلته لأجلكِ، في وَسْعِكَ على الأقلِّ أن تُجامِليني بالردِّ على مُكالماتي. أريدُ أن أعلمَ أن صامي بخير.

”كفى!“ أَلقتِ شانيس المجلَّةَ التي كانت تقرأها على طاوِلةِ القهوة. ”هل تُريدينَ مِنِّي أن أتَّصلَ بها مُجاوبَةً وأقولَ لها أن تكفِّ عن إزعاجكِ المُتكرِّر؟“ انهارتِ غريس وبَكَت. ”إنَّها تحبُّه، شانيس. كان ينبغي لي أن أُغادِرَ بيتَهُمَ لَمَّا صارَ صمويلَ عندي أوَّلَ مرَّةً، بدَلِ أن أدعَّها تشعُرُ بأملٍ زائف.“

”قُلِّتِ لها. ولكنَّها أبت أن تُصغِيَ فحسب.“ قعدتِ شانيس على الأريكة بجانب غريس وطوَّقتها بذراعها. ”آه، عزيزتي، لا تشعُري كثيرًا بالذَّنب. صمويلُ هو ابْنُكِ، لا ابْنُها.“

”لستُ أدري كيف أهوُّنُ الأمرَ عليها أكثر.“

”كُنْتُ بحاجةٍ إلى وقت، غريس. قُلِّتِ لسيلاه لَمَّا انتقلتِ إلى ثوينغا كانيون إنَّكِ تنوينَ أن تستبقي صمويلَ عندكِ بصورةٍ دائمةٍ حالما يتسنَّى لكِ ترتيبُ حضائِهِ مُناسبةً. مرَّ أسبوعان، وهي ما زالت تتَّصل. ربَّما كان ينبغي أن تُغيِّري رقمَ تَلفونيكِ.“

”أعلمُ، ولكنني أشعُرُ بأنَّ الأمرَ نهائيٌّ تمامًا.“

تشبَّثتِ شانيس بيدها. ”لا تبدِأي بالكذبِ على

نفسك. ما برحتِ تَرجينَ أن يَتَّصلَ بكِ رومان من جديد. وإذا اتَّصل، فماذا ستفعلين؟ تنتقلين وتسكنين معه كما فعلت نيكول مع تشارلز؟ رأيتِ كم كانت كئيبةً آخرَ مرَّةٍ رأيناها. أذلك هو ما تُريدينه؟“

”لا“. الآنَ الآنَ، لم تُبالِ بأيِّ شيء. كانت بائسةً ومُتلهِّفةً لرؤيته من جديد. كوني صادقة، غريس. في حالتها العاطفيَّة الرَّاهنة، يُمكنُ أن يجعلها رومان بِسهولة تنسى تصميمها الخُلقي. فإذا غارَها قليلاً بعد، تستسلمُ لما أرادَه هو، بدلاً ممَّا أرادَهُ اللهُ لها.

”الصُّبيةُ الصُّغار يُريدون لَعَبهم، عزيزتي.“

نظرتِ غريس إلى صمويل، وهو يلعب راضياً على الأرضيَّة، وتذكَّرتِ يومَ عَزَجَ رومان على الكُوخِ مُرهقاً بعدَ ليالٍ بلا نوم. لقد تحدَّثا، وحملَ صمويل على رُكبتيه. ثمَّ تمدَّدَ على الأريكة، وصمويلُ على صدره، وناما كِلاهُما. وقد جَلستِ هي ناظرةً إليهما أطولَ وقت. كان صمويل بحاجة إلى أب. فهل كانت راجيةً أن يوَدِّي رومان ذلك الدَّور؟

وجَبَ عليها أن تكفَّ عن التَّفكيرِ فيه! وجَبَ عليها أن تُركِّزَ على التَّقَدُّمِ إلى الأمام، مُبتدئةً من جديد.

كانت شانيس قد أمدَّتْها بِالقُوَّةِ على مدى الأسبوعين الماضيين. ولكنَّ غريس لم تُردِ أن تُطيلَ المُكوثَ عندها مُستغلةً ترحيبها. لقد كانت لشانيس حياتها الخاصَّة، وأرادَ بريان أن يكونَ جزءاً منها.

فكُلَّمَا اتَّصَلَ، بَدَتْ شَانِيسٌ مُذْنِبَةً، كَأَنَّهَا قَدْ عَمِلَتْ
لِغَرِيسٍ أَمْرًا مُرَوِّعًا مَا، بَدَلًا مِنْ مُجَرَّدِ دَعْوَتِهَا إِلَى
الْخُرُوجِ مَعَ رَجُلٍ ذَاتِ لَيْلَةٍ. لَقَدْ كَانَتْ غَرِيسٌ مَسْؤُولَةً
عَمَّا حَدَثَ آنَذَاكَ، لَا صَدِيقَتُهَا. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ، فِي أَعْقَابِ
مَا حَصَلَ، أُرْجِئَتْ الْمُضِيِّ قُدَّمًا لِأَنَّهَا افْتَقَرَتْ إِلَى
الْإِيمَانِ. وَالآنَ أَدْرَكْتَ الْكُلْفَةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سِيْلَاهِ
وَعَائِلَتِهَا. فَلَمْ تُرِدْ أَنْ تَرْتَكِبَ الْغُلْطَةَ نَفْسَهَا مُجَدِّدًا.

”سَارِجُ إِلَى فَرَسِنُو، شَانِيسُ.“

”إِلَى بَيْتِ خَالَتِكَ؟“ اتَّسَعَتْ عَيْنَا شَانِيسِ. ”وَلَكِنَّهَا

أَبَتْ حَتَّى التَّحَدُّثِ إِلَيْكَ...“

”لَسْتُ أَنْوِي أَنْ أَبْقَى عِنْدَهَا. أَنَا ذَاهِبَةٌ فِي زِيَارَةٍ

فَقَط. إِذَا سَمَحْتَ لِي.“ وَإِذْ فَكَّرَتْ فِي تَرْكِ صَدِيقَاتِهَا،

فَاضَتْ دُمُوعُهَا. فَالْتَقَطَتْ مَحْرَمَةً وَرَقِي مِنَ الْعُلْبَةِ.

”أَنَّ الْأَوَانَ، شَانِيسِ، وَيَنْبَغِي لَنَا- هِيَ وَأَنَا- أَنْ

نَتَحَدَّثُ.“

”مَاذَا لَوْ سَفَقَتِ الْبَابَ فِي وَجْهِكَ؟“

أَطْلَقَتْ غَرِيسٌ ضِحْكَةً رَقِيقَةً. ”لَنْ تَكُونَ الْخَالَةَ

أَلِيزَابْثَ بَتَانًا فَظَّةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ.“

”لَمَاذَا أَنْتِ ذَاهِبَةٌ إِلَيْهَا بَعْدَمَا أَبَتْ أَنْ تُسَاعِدَكَ فِي

الْمَاضِي؟“

”أُرِيدُ فَقَطْ أَنْ أَتَحَدَّثَ مَعَهَا بِبِضْعَةِ أُمُورٍ.“ لَمَّا

غَادَرَتْ خَالَتُهَا مَمْفِيسِ، تَخَلَّتْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلِّ

شَخِصٍ عَرَفْتَهُ. فَلَعَلَّ الْخَالَةَ أَلِيزَابْثَ تَقُولُ لَهَا كَيْفَ

فعلت ذلك. وقد أرادت غريس أيضًا سبب ذلك.

إذا بقيت في كاليفورنيا الجنوبية، فإن التجربة ستقرع باب عقلها وقلبها. كم مرة في الأسبوعين الأخيرين فكرت في أن تسوق رجوعًا إلى ثوينغا كانيون؟ ما برحت تلتئم ذريعة لرؤية رومان من جديد. ولكنها علمت ما سيجري إذا رجعت فعلاً.

مرتين في الأسبوع الأخير، شالت ابنها وسحبت مفاتيح سيارتها، نافية أن تذهب. ومن ثم كانت تسمع ذلك الصوت الصغير الهادي مُحذراً إياها. لا ترجعي، غريس. ثقي بي.

”ما دمت ههنا، شانيس، سأغري بأن أتصل برومان. وأكون حمقاء إذا اتصلت. يقول لي عقلي إن رومان يريد جميع الفوائد الجسدية دون أية مسؤولية، ولكن قلبي خداع.“ ثم رفعت إحدى كتفيها بإقرار كئيب. ”على الأقل، باتريك وضع خاتماً في إصبعي في أثناء استعماله لي. ورومان كان صادقاً كفاية بحيث لم يلعب تلك اللعبة.“

”قابلة بريان في مقهى.“ ومن جديد، ظهرت على وجه شانيس مسحة الذنب، تلك الضئيلة.

”هل ينويان أن يتحدثا ثانية؟“ ندمت غريس على السؤال، ورفعت يديها. ”لا بأس! لا أريد أن أعرف.“ ثم وقفت مكشرة. ”سأتصل بخالتي. صلي لأجلي.“

لَمَّا رَدَّتْ الخَالَةُ أليزابث، سألتهَا غريس هل تُمانِعُ
أن تزورها بِضعةِ أَيام. فتنهَّدتِ الخَالَةُ أليزابث.
”أستنتجُ أَنَّكَ قَرَّرتِ قرارًا صعبًا“.

”بِضعةِ قرارات“. وأجرتِ غريس يدها على رأسِ
صمويل.

”متى ينبغي أن أتوقَّعَكَ؟“

”عصرَ غَدٍ، إذا كان ذلك مُناسبًا“.



استطاعَ رومان أن يعبرَ ملعبَ كُرَّةِ الرَّاكيت بِسرعةٍ
كافيةٍ لإرسالِ الكُرَّةِ آرَّةً نحوَ الحائطِ الخلفيِّ. أخطأها
بريان وأطلقَ أَنَّهُ هزيمة. ”رحمتك، يا ربُّ! إنِّي
أستسلم!“ ضحكك إذ انحنى عندَ الخصر، واضعًا يديه
على رُكبتيه، وأطلقَ ضحكةً صافرة. ”حتَّى بِساقِ
معطوبة، أنتَ رياضيٌّ أكثرَ مِنِّي“. ثمَّ استقام مُتنفِّسًا
بِضعوبة. ”وهنا كنتُ أَحسبُ الرِّسامينَ يقضونَ كاملَ
وقتهم واقفينَ بقربِ اللُّوحات!“

نظَّطَ رومان الكُرَّةَ صعودًا ونزولًا، وهو يبتسِمُ
ابتِسامةً عريضة. ”الأمرُ يتوقَّفُ على أيِّ نوعٍ من
اللُّوحات نتحدَّثُ بشأنه. فرَسَّامُ الغرافيتي مُضطرٌّ لأنَّ
يكونَ سريعَ الجري، وإلا انتهى مُقيَّدًا بالأصْفاد على
المقعدِ الخلفيِّ في سيارَةِ شرطة“.

”ما زلتَ ترسِّمُ رُسومَ غرافيتي؟“

”ما عُذْتُ أَرْسُفَهَا“.

وقفت شابتان عند النَّافذة تُشاهدان. كان لإحدهما شعرٌ أدكنٌ كشعرِ غريس. فأشاح رومان وجهه، وأحضرَ قِنِينَةَ مائه وشربَ نَهْلًا. لم يكن يستطيعُ أن يقضي ساعةً واحدةً دونَ أن يفكّرَ فيها. لقد مرَّ أسبوعان، وما زال يشعُرُ بأنّه مسحوقٌ ومفطورٌ في داخله. إذا كانت تحبُّه، فلماذا تُعامله بالصَّمت؟ لقد رفعَ عُصَنَ الزَّيتون في الأيام القليلة الأولى، أملًا أن تمُدَّ يدها مُجددًا، أو تردَّ على رسائله النَّصِيَّة، أو تتصلَّ به، أو تكثبَ إليه، أو تفعلَ شيئًا ما، حتَّى يتسنَّى لهما أن يتحدَّثا ويحلَّا الأمور. فكان واضحًا أن ذلك لن يحدث.

التقطَ بريان منشفته، ومسحَ وجهه. ”هي تتألَّم أيضًا“.

لم يضطرَّ رومان لأن يسألَ من عني، ولكنه تساءلَ كيف عرَفَ أنّه كان يفكّرُ في غريس. هل كان الألمُ محفورًا على وجهه؟ ما برحَ يُحاولُ أن يدفعه نُزولًا ويُبقيه بعيدًا عن الأنظار. كم سينقضي من الزَّمن قبل أن يخفَّ؟ كم سينقضي قبل أن يتمكنَ من قضاءِ يومٍ واحدٍ دونَ أن يحسَّ كأنَّ قلبه قد انثزعَ من صدره؟

”أريدُ منك أن تفكّرَ في شيءٍ ما“. ألقى بريان المنشفةَ حولَ عنقه، وأمسكَ طرفيها. ”طبيعةُ شعوركِ الآن قد تُعطيكِ إلماعةً إلى ما يشعُرُ به الله

عندما لا يُبالي به. أبونا السماوي أرسل ابنه ليدفع
أجرة خطايانا، رومان. وقد تألم الرب يسوع طائعاً
مختاراً بدافع محبته لنا. كل ما فعلناه، أنت وأنا، من
خطايا وأخطاءٍ في هذه الحياة قد دُفع ثمنه على
الصليب“. ثم زفر نفسه. ”ينبغي أن نُحبَّ الربَّ أكثرَ
مما نُحبُّ أيَّ شخصٍ آخر“. وقد امتلأت عيناه حناناً
وحنوًا. ”أتريدُ أن تستقيمَ لديك الأمور، صديقي؟
كفَّ عن التوجُّس والقلق بشأنِ غريس. اجعلِ الربَّ
يسوعَ أولويتك الأولى“.

غاصت الكلمات عميقاً وأطلقت ذكري القدرة التي
اكتنفتها- قدرة صرقت الشياطين صارخين إلى قلب
الظلمة. فتذكر رومان الحنو والنور اللذين أحاطا به
وانتشلاه، وكل ذلك لأنه نادى باسم يسوعِ عاليًا. هل
كانَ ليعرفَ أن يفعلَ ذلك لو لم تكن غريس مُتحدثةً
بشأنِ الربِّ يسوعِ قبلَ لحظاتٍ من توقُّفِ قلبه؟
أو كانَ ذلك صدفةً توقيتٍ أم ترتيبًا من الله؟

أحسَّ حنجرتَه مُطبقةً، والتهبت عيناه.
يا يسوع، أنا آسف. أعرفُ أنك تُريدُ مني أكثرَ
مِمَّا أنا مُعطٍ.

ظلَّ بريان يُكرِّرُ الرسالة. فأحسَّ رومان أنها
تنضغظُ عبرَ شقوقِ الشور الذي كان قد بناه حولَ
قلبه. ربَّما أن الأوانُ كي يكفَّ عن وُضعِ كاملِ رجائه
في غريس، بدلًا من ذلك الذي مدَّ يدهُ إلى الأسفل

ونشله إلى داخل النور.

يُحتملُ ألا تُحبّه غريس، ولكنّ الله يُحبّه. لقد أحبّه دائماً، وسيُحبّه دائماً. ولا بُدّ أن يكونَ أسلمَ بكثيرٍ أن يُعطيَ قلبه ونفسه وعقله لِيَسوع، لا لامرأةٍ من لحمٍ ودم.



اتّصلت سيلاه ثانيةً صباحَ اليومِ التّالي. تركت رسالةً أخرى، مُعتذرةً هذه المرّة عن جِيشانها السّابق، إلاّ أنّها طلبتِ بدموعٍ أن تُتاحَ لها رؤيةٌ صامي، مُدّة ساعةٍ أو ساعتينِ فحسب. وخابرت غريس روبن على رقمِ شُغله. ”أنا آسفة، روبن، ولكن سيلاه وأنا كِلتانا نحتاجُ إلى مُساعدتك“. ثمّ أخبرته بما كانَ جارياً على مدى الأسبوعينِ الأخيرين.

”لم أعلم، غريس. أنا آسفة. ما برحت الأمورُ عسيرةً في البيت. أليشيا تُسيءُ السُّلوك. اتّصلتُ بكاهننا. الأب يدرو لم يُفاجأ بمُخابرتي. حدّثنا يوماً ووقتاً للإرشاد العائليّ. لم أخبر سيلاه بعد، ولكنّها ستذهب. كلُّنا سنذهب.“

”أنا آسفةٌ جدًّا“. وضفّطت غريس جبينها بأصابعٍ باردةٍ مُرتعشة.

”ليست هذه غلطتك، عزيزتي. كانت سيلاه تخوضُ صراعاً قبلما قابلناك. ظننتُ أنّ مُساعدتك في

الاهتمام بطفلك ستُساعدُها“.

أخبرته غريس بأنها تنوي أن تُغيّر رقم تليفونها
وسوف تنتقل من المنطقة في الأيام القليلة المقبلة.
”سينفطر قلب سيلاه عندما تُدرك أنها دفعتك إلى
الابتعاد“.

”توجد أسباب أخرى، روبن“.

”أنتِ مثل ابنتي“ . تكلم روبن بصوتٍ مخنوق.
”على بركة الله“.

لم يسبق قط أن حسبها أحد ابنة له، أو ودّعها
بمثل هذه البركة.

جمعت غريس كل ما احتاجت إليه، في حقيبة
سفرها وحقيبتيها الظهرية وصدوقين، قبلما جاءت
شانيس إلى البيت عند الظهر. ووضعت أشياءها في
السيارة فيما جلست شانيس على الأريكة وضمويل
في حضنها. ولما باتت غريس متأهبة للوداع، بدت
شانيس دامعة العينين. ”سأشتاق إليك، يا صديقتي.
لا فكرة لديك عن مقدار ذلك“ . ثم رفعت ضمويل
فوق رأسها وهزته ”وإليك أيضا، يا رُجيل!“
وبعينين كالزجاج من الدموع، أعادته إلى غريس.

”سأبقى على تواصل“.

”الديك فكرة عن المكان الذي سوف تنتهين
إليه؟“

”لا، حتى الآن“ . كان لدى غريس بعض الفكر،

ولكنها كانت بحاجة إلى القيام بمزيد من البحث. ثم إنَّ الخالة أليزابث أيضًا سيكون لها بعض الأفكار بلا شك. ما بخلت خالتها قط بالآراء الشخصية، وإذا نظرت غريس إلى الماضي تمتت لو أصغت. إذاً لكان ممكناً أن توفّر على نفسها كثيراً من الأسى. "شكراً لك على كل شيء، شانيس. ما كان موقع VirtualGrave.biz ليوجد لولاك".

"لا ينبغي لك إلا أن تتذكّري من أنت ومن يقف في صفك. الله سيّعتني بك، حبيبتي. إنما لازميه فحسب".



جلس رومان إلى طاولة التصميم، والكتاب المقدس الذي أعطته غريس إياه مفتوح أمامه. أكمل قراءة قصة أليشع، المزارع الناجح الذي حطّم محاربه وذبّ ثيرانه وقدمها محرقة حتى تسنى له أن يتبع إيليا ويخدم الله. فأحس رومان شيئاً ما يتغيّر في داخله. أنا موافق، يا رب. فهمت الأمر. ليتخلّ عن حياة، ويبدأ أخرى. ليتخلّص من أي شيء كبّحه.

غادر الطاولة وتوجّه إلى النوافذ، وفكّر في المناقشات التي دارت بينه وبين بريان عن الأولويات. وكان رومان قد فوجئ بكم كان سهلاً التحدّث إلى بريان. لم يطرح أسئلة كما كان جاسپر يسأل، مُنهالاً عليه ومُرهقاً إياه. وما أزعج السكوت

بريان.

أَوَّلَ الأَمْرِ، كَانَ كُلُّ مَا أَرَادَ رومانُ التَّحَدُّثَ بِهِ هُوَ غَرِيسَ. وَبَعْدَ لِقَاءِئِهِمَا الأَوَّلِينَ، تَطَرَّقَ إِلَى تَفَاصِيلَ عَن حَدَائِثِهِ، عَن سِنِي هُرُوبِهِ. لَقَدْ سَهَّلَ بَرِيانُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ الحَقِيقَةَ. وَمِنَ أَجْلِ ذَلِكَ صَارَا صَدِيقَيْنِ.

رَبِّمَا كَانَ واقِفًا عِنْدَ هَذِهِ النَّافِذَةِ الآنَ تَمَامًا، نَاطِرًا إِلَى الخَارِجِ، وَلَكِنَّهُ فِي دَاخِلِهِ كَانَ مَا يَزَالُ يَضْطَرِبُ خَائِفًا. يَا رَبُّ، لَقَدْ قَرَأْتُ كِفَايَةً لِأَعْرِفَ أَنَّكَ تَدْعُونِي. أَنَا مُوَافِقٌ. إِنِّي مُصَغٍ. كَفَفْتُ عَن مُحَاوَلَتِي فَهَمَّ كُلُّ شَيْءٍ بِنَفْسِي. امضِ قُدَّمًا وَافْعَلْ مَا تُرِيدُ. أَنَا تَعْبَانُ، يَا يَسُوعَ. أَرِيدُ فِعْلًا أَنْ أُسْتَرِيحَ.

كَانَتْ لَوْحَةٌ الشَّفَقِ، نِتَاجُهُ الفَنِّيُّ الأَفْضَلُ، مَا تَزَالُ عَلَى الحَامِلِ. وَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا كُلُّ يَوْمٍ، لِامِحَا المَرَأَةَ الَّتِي أَلْهَمَتْهَا. هَلْ أَصْبَحَتِ اللُّوحَةُ صَنَمًا؟ رَبِّمَا أَنْ الأَوَانُ كِي يُعْطِيهَا لِتَالِيَا وَيَدْعَهَا تَبِيعُهَا لِغَرِيسَ. فَإِنَّمَا بَدَا صَائِبًا إِعْطَاؤُهَا اللُّوحَةَ، مَا دَامَتْ هِيَ قَدْ أَلْهَمَتْهَا.

مَا زِلْتُ أَحَاوِلُ أَنْ أَهْتَدِيَ إِلَى سَبِيلِ اللُّوْصُولِ إِلَيْهَا، صَحِيحٌ؟ أَنَا أَحِبُّهَا، يَا رَبُّ، وَلَكِنِّي كُنْتُ جَبَانًا إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ بِحَيْثُ لَمْ أَقُلْ لَهَا كَمُ أَحَبَّبْتُهَا.

أَكَّدَ لَهُ بَرِيانُ أَنَّ الأَلَمَ سَيَخِفُّ بِمُرُورِ الزَّمَنِ. إِنَّمَا كَانَ بِحَاجَةٍ لِأَنْ يُرْتَّبَ أَوْلُويَّاتِهِ عَلَى الوَجْهِ السَّلِيمِ. فَحَيَاتُهُ تَعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ، لَا عَلَى امْرَأَةٍ.

زَلَقَ رومانُ الأَبْوَابَ الزُّجَاجِيَّةَ، فَانْفَتَحَتْ. غُرُوبٌ

الشمس في الوادي. كان من شأن غريس أن تُعجبَ
بالأفقِ الغربيِّ مُقلِّمًا بالأرجوانيِّ. أشعلَ الحطبَ في
حُفْرَةِ النَّارِ، وجلسَ يتأملُ غروبَ الشمسِ. كانَ قدِ
حسبَ هذا المنظرَ أمرًا بديهيًّا، ولكنَّ غريس كانت
على حقٍّ بشأنه. ما كانت الألوانُ قطَّ هيَ إيَّاها. لقد
سمَّتِ الغروبَ ”قولَ الله ليلةً سعيدةً“. ثمَّ ظهرتِ
النُّجومُ، واحدًا فواحدًا، حتَّى انتشرتِ ألوفٌ على
القماشيةِ الداكنةِ. وأنا أسْمِي نفسي رسامًا!

رنَّ تليفونه الخلويِّ. كان المُتصلُ هوَ بريان. ردَّ
رومان. ”مرحبًا“.

”كيفَ حالُكَ؟“

”أنا أحسنُ ممَّا كنتُ“. وكان في وسعه أن يعرفَ
من لهجةِ بريان أنَّ شيئًا ما في الأفقِ. ”هل يوجدُ أيُّ
سببٍ آخرٍ للمُخابرةِ؟“

”انتهيتُ تَوًّا من مُكالمةِ شانيس هاتفيًّا. غادرتُ
غريس هذا الصُّباح“.

أحسَّ رومان اللُّكمةَ الشَّديدةَ في معدته. ”غادرتُ
إلى أين؟“

”لم تقُل. تُريدُ غريس لِصمويل أن يتربَّى في مكانٍ
ما سوى لوس إنجليس. قالت شانيس إنَّها توجَّهت
شمالًا، وإنَّه حتَّى غريس لم تكن مُتيقِّنةً أين سيُنتهي
بها المطاف“.

إلى أيِّ بُعدٍ شمالًا نَوَّت أن تمضي؟ يُمكن أن تصلَ

أخيراً إلى أوريغن أو واشنطن. ألا سكا؟ أغمض رومان
عينيه.

”أنا آسف، رومان“.

”أجل“، سرح نظره بعيداً من فوق الوادي. ”تلك
هي الحياة“.

”لماذا لا تُعرج عليّ في مكاني غداً. يمكننا أن
نتحدث“، وأعطى رومان عنوان ميدان فيرمونت.
”خايز أوبر. لا يمكن أن تترك سيارتك الفاجرة تلك
في شارعي. ما قولك في الساعة الحادية عشرة؟“
وضحك بينه وبين نفسه. ”أم ذاك موعد أبكر من أن
يستيقظ فيه رسام؟“

بقي رومان في الخارج، وعواطفه هابطة لولبياً
حتى انتهى إلى الدرك الأسفل. لم يستطع أن يرى أي
سبيل للخروج ما عدا واحداً. يا يسوع، أمسك بي
بقوة مرة ثانية. وإذ أغمض عينيه، تصوّر نفسه ماداً
يديه إلى أعلى. وأحس الثقل تحته، مُبتلعاً إياه في
دوامة أسي.

ثم جاء الهمس، فمالت ذهنه فكرة ليست منه.
دعك منها وِسْزْ معي. خطوة واحدة كل مرة. كل
يوم بيومه.

أمر بسيط. ليس سهلاً.

فلتمض هي وضع رجاءك في.

مرتعشاً من المقابلة، أخرج رومان تلفونه الخلوي

من جيبه. وبيد مُرتجفة، نقرَ خانة الصُّور. قلبَ
بإبهامه صُورَ غريس التي التَّقَطَّها في رِحْلَةِ الطَّرِيق.
كم مرَّةً قامَ بذلك في أثناء الأسبوعين الأخيرين؟ إذا
لم يكن يستطيعُ أن يحوزَ غريس، ففي وُسْعِهِ على
الأقلِّ أن ينظرَ إلى هذه الصُّور ويتصوَّرَ ما كان مُمكنًا
أن يكون.

دَعَكَ منها، قال الله.

محا رومان الصُّورَ واحدةً فواحدة. ولَمَّا وصلَ إلى
الأخيرة، تردَّدَ إبهامه. تذكَّرَ اللَّحظةَ التي فيها أخذَ
هذه اللَّقطة. كانت غريس واقفةً على مكانٍ عالٍ فوق
بُحيرة داردنيلز. لقد نظرتَ إلى الورااء من فوقِ كَتِفِها،
مُومئةً لَهُ كي يتبعها. وقد تَبِعَها. كانت فتاةً مُغرَمةً
بالحياة، ورُبَّما- دقائق قليلةً على الأقلِّ- امرأةً مُغرَمةً
به. أحسُّ أن يتذكَّرَها هكذا من آخرِ مرَّةٍ رآها فيها:
الدموعُ تسيلُ على خديها الشَّاحِبَيْن، وعيناها
حافلتانِ بالوجعِ وخيبةِ الأمل. وكادَ أن يسمَعَ صوتها.
أنا أحبُّك، رومان.

همست نسمةً رقيقةً عبرَ الأشجار الكثيفة. أنا
أحبُّك أكثر.

أحسَّ دِفءَ ذلك التَّصريح، التَّوقَ الشَّدِيدَ للاقتِرابِ
أكثرَ إلى الكائن السَّرْمديِّ. وكان ذلك في وُسْعِهِ، إذا
كفَّ عن التَّعلُّقِ بِشَخِصٍ لم ينتمِ إليه، ولا انتمى قَطُّ.
ملاً رومان رثيَّه بهواء الليلِ الباردِ المُنعِش، ومسَّ

شاشة الخلوي برفق.

وإذا بغريس قد اختفت.

الفصل ٣٤

فتحت الخالة أليزابث الباب الأمامي وقلبت نظرها بين غريس وضمويل بدهشة ثم براحة. "آه، ظننتُ..." وبدأت على وشك البكاء إذ تراجعت قليلاً. "لا بأس. ادخلي. أين حقيبة سفرِك؟"

"في السيارة. مع حظيرة طفل نقالة و..."

"دعيني آخذ الطفل ريثما تُدخِلين مهما احتجت إليه". وانتزعت ضمويل عن ذراعي غريس.

شاهدت غريس مَشدوهةً خالتها تحمل ابنتها إلى داخل حُجرة الجلوس. ما كانت قط قد حملته من قبل، ولم تكذ تنظرُ إليه في المرّة الوحيدة التي فيها اصطحبته غريس إلى هنا.

وضعت غريس الحظيرة النقالة وحقيبة السفر في غرفة نومها القديمة، وحدقت إلى حُجرة الجلوس. كان ضمويل قاعدًا على رُكبتي الخالة أليزابث، مُواجهًا لها. كانت تتحدّثُ إليه بصوتٍ رقيقٍ مُفعمٍ

بالعاطفة، وهو يُدْفِرُ بِدِرَاعِيهِ كَطَائِرٍ مَسْرُورٍ.

”شُكْرًا لِكَ عَلَى إِهَائِهِ“. وَمَدَّتْ يَدَيْهَا لِتَأْخُذَ صَمُوِيلَ، وَلَكِنَّ الْخَالََةَ أَلِيْزَابِثَ أَزَاحَتْهُ.
”لَا بَأْسَ بِهِ حَيْثُ هُوَ“.

جَلَسَتْ غَرِيْسَ عَلَى طَرَفِ الْأَرِيْكَةِ، وَاضْعَةً يَدَيْهَا عَلَى رُكْبَتَيْهَا. ”خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّكَ لَمْ تَسْتَظَرِ فِيهِ“.
”خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّكَ سَتَتَخَلَّى عَنْهُ. لَمْ أُرِدْ أَنْ أَتَعَلَّقَ بِهِ“. وَلَمَّا تَلَوَّى صَمُوِيلَ، رَمَقَتْ غَرِيْسَ بِنِظْرَةٍ اسْتِفْسَارٍ.

”يُرِيدُ أَنْ يُوَضَعَ عَلَى أَرْضِيَّةِ الْغُرْفَةِ. إِنَّهُ يَحْبُو الْآنَ. سَأُبْقِي عَيْنِي عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَكْسِرَ أَيَّ شَيْءٍ“.
حَظَّتْهُ الْخَالََةُ أَلِيْزَابِثَ. ”سَأَوْفِرُ عَلَيْكَ الْعَنَاءَ“. ثُمَّ قَامَتْ وَجَالَتْ فِي أَنْحَاءِ الْغُرْفَةِ، مَلْتَقِطَةً الْأَشْيَاءَ الْقَابِلَةَ لِلْكَسْرِ وَوَضْعَةً إِيَّاهَا عَلَى رَفٍّ عَالٍ.
مَاذَا جَرَى فَأَحْدَثَ هَذَا التَّغْيِيرَ؟ ”لَقَدْ اسْتَشْطَيْتِ غَضَبًا لَمَّا أَخْبَرْتُكَ بِأَنِّي حُبْلَى“.

”غَضِبْتُ دُونَ شَكٍّ. هَلْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ سَعِيدَةً حِيَالَ الظُّرُوفِ الَّتِي رَافَقَتْ الْحَبْلَ بِهِ؟“
حَدَّقَتْ إِلَيْهَا غَرِيْسَ. ”ظَنَنْتُ أَنَّكَ لَا بُدَّ أَنْ تُرِيدَ مِنِّي إِجْرَاءَ إِجْهَازٍ“.

”غَرِيْسَ“. لَأَنْتِ لَهْجَةُ الْخَالََةِ أَلِيْزَابِثَ. ”طَالَمَا كُنْتُ دَائِمًا مُرْضِيَّةً لِلنَّاسِ. بِصِرَاحَةٍ، ظَنَنْتُ أَنَّ صَدِيقَاتِكَ

سَيُقِنِعَنَّكَ بِالتَّخْلُصِ مِنَ الطِّفْلِ“.

تَكَلَّمْتُ بِسُرْعَةٍ مُدَافِعَةً عَنْهُنَّ. ”صَدِيقَاتِي هُنَّ اللّٰوَاتِي أَشْرَنَ عَلَيَّ بِالذَّهَابِ إِلَى مَرْكَزِ إِرْشَادٍ لِلْحَفْلِ“.

”نَعَمْ، أَعْرِفُ ذَلِكَ الْآنَ، وَأَتَصَوَّرُ أَنَّ الْعَائِلَةَ الَّتِي أَوْتِكَ كَانَ لَهَا خُطْطُهَا الْخَاصَّةُ بِشَأْنِ صَمُوِيلَ“.

وَرَفَعَتْ حَاجِبًا عَلَى سَبِيلِ التَّحْدِي.

”مَا تَزَالُ سِيْلَاهُ مُرِيدَةً أَنْ تَتَبَّنَاهُ“.

لَطَمَ صَمُوِيلَ بِيَدِهِ الْبَابَ الْمُنْزَلِقَ الْمُؤَدِّيَّ إِلَى الْحَدِيقَةِ، مُخَلِّفًا طَبْعَةً كَفَّ دَبِيقَةً عَلَى السَّطْحِ الزُّجَاجِيِّ النَّقِيِّ. فَنَهَضَتْ غَرِيْسَ، عَالِمَةً كَمَا أَحْبَبَتْ خَالَتُهَا كُلَّ شَيْءٍ نَظِيفًا وَأَنْيَقًا. ”سَاحِضُ سَائِلَ تَنْظِيفِ الزُّجَاجِ“.

”أَقْعُدِي، لَا تَقْلَقِي بِشَأْنِ الزُّجَاجِ“.

ابْتَسَمَتِ الْخَالَةُ أَلِيْزَابَثَ لَمَّا لَطَمَهُ ثَانِيَةً. ”إِنَّهُ زُّجَاجٌ سَلَامَةٌ مُزْدَوِجُ الْجَوَانِبِ. لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكْسِرَهُ“.

وَضَحِكَتْ ضِحْكَةً خَافِتَةً. ”لِي أَنْ أَقُولَ إِنَّ صَمُوِيلَ سَيَكُونُ فَتَى هَوَاءٍ طَلِقٍ“.

ثُمَّ التَفَتَتْ نَاطِرَةً إِلَى غَرِيْسَ. ”بِالْحَدِيثِ بِشَأْنِ الْفِتْيَانِ، كَيْفَ حَالُ رُومَانَ قِيْلَاسِكُو؟“

عَلِمَتْ غَرِيْسَ أَنَّ الْحَدِيثَ سَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ عَاجِلًا أَمْ آجِلًا، إِنَّمَا لَيْسَ عَاجِلًا هَكَذَا. ”لَسْتُ أَدْرِي. اسْتَقَلْتُ وَانْتَقَلْتُ مِنَ الْكُوخِ مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَسَابِيْعٍ تَقْرِيْبًا“.

التَّوَى فَمُ الْخَالَةُ أَلِيْزَابَثَ بِابْتِسَامَةٍ سَاخِرَةٍ. ”أَرَادَ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ مِنْ صَدِيقَيْنِ“.

”أَرَادَ أَنْ نَكُونَ صَدِيقَيْنِ مَعَ فَوَائِدٍ“.

”يُسِّرُنِي أَنَّكَ تَخَطَّيْتِ الأَمْرَ. مُعْظَمُ العِلاقاتِ التي تبدأ هكذا لا تنتهي على خير“. وهزَّت الخالَةَ أليزابث رأسها. ”أمرٌ مؤسِفٌ، رُغمَ ذلك. لقد أعجَبَنِي“.

رفَعَت غريس ذقنَها مُفاجأةً. ”هل أعجَبَكِ؟“

”نعم! فعلى خِلافِ پاتريك الذي ما بالي قَطُّ كِفايَةً لِإِراعِي مِشاعِرَكَ بِشأنِ أيِّ شيءٍ، كان رومان مُدافِعًا عَنكَ. لقد ظنَّ أَنني كُنْتُ أسيءُ مُعامَلَتَكَ“. ورفَعَت كَتِفًا. ”الأمرُ الذي فعلته دونَ شكِّ. ثمَّ إنَّ رومان فيلاسكو أيضًا لم يَسْتَطِعْ أن يُحوِّلَ عَينَيهِ عَنكَ، وهذا أمرٌ آخِرٌ مَيزُهُ عن زوجكِ السَّابقِ. الرَّجُلُ يُحِبُّكِ، غريس“.

”ليس كِفايَةً“.

”إنَّهُ أبلهٌ، ولكن من ثمَّ مُعْظَمُ الرَّجالِ هكذا في ما يتعلَّقُ بالنِّساءِ. أتصوِّرُ أَنَّكِ كُنْتِ شيئًا جَديدًا عنده، فتاةٌ ذاتَ قِيمي خُلُقِيَّةِ وإيمانِ. ماذا أقولُ له حينَ يَتَّصِلُ؟“

”لن يَتَّصِلُ“. تصوَّرتِ رومان وقد عادَ إلى نادِ ليلى، حيثُ ينتقي شقراءَ جميلةً ليضطجعَ معها، تمامًا كَتِلكِ التي أقبلتَ عليه في صالَةِ العِرضِ. سيكونُ حَذِرًا، دونَ شكِّ. ولا بُدَّ أن يطلُبَ امرأةً تعرفُ القواعدِ. ظَلَّتْ غريس تقولُ لِنَفْسِها إنَّها مسرورةٌ لِزوالِ أيَّةِ فُرصةٍ للعِلاقةِ بينَهُما، ولكنَّ قلبَها خَفَقَ أَسرَعًا عندَ ذِكرِ اسمِهِ.

تأملتها الخالة أليزابث. "حسنًا، ليس علينا أن نتحدّث بشأنه حتّى تصيري مُستعدّة. لدينا كثيرٌ من الأمور الأخرى نتناقش فيها. والماضي أحدها". ثمّ وقفت. "لِمَ لا تنصِبنَ الحظيرة النّقالة في المطبخ، ليتسنى لنا أن نُبقي عَيْنًا على هذا الجوّال الصّغير ريّما أفرغ من إعداد الطّعام؟"

عمّلت غريس باقتراح خالّتها. لم يُسرّ صمويلُ خصوصًا بأن يُحبس في قفص. فوضعت له مركزَ أنشِطة داخلَ الحظيرة النّقالة لإبقائه مشغولًا. وقفت الخالة أليزابث عند مغسَلِ المطبخ، مُقشّرةً بطاطا، مُثيرةً ذكرياتٍ من طُفولةٍ غريس. لقد دخلت هذا البيت قديمًا مصدومةً ومرضوضةً ومُحزّنة.

استطاعت غريس، وهي بالغة، أن تنظرَ إلى الماضي بفهمٍ وتسامحٍ خالّتها بِعدمِ قدرتها على إبداءِ الحنوّ لِطفلةٍ مرضوضةٍ عاطفيًا. وقد كانت الخالة أليزابث أيضًا حزينة، وساخِطةً على الظروف التي أحاطت بِوفاةِ أُختِها. ولكنّ تلكَ الطّفلة، غريسي، عاشت في خوفٍ دائمٍ. ليس فقط لِمَا انتقلت لِتُقيمَ عند الخالة أليزابث، بل قبلَ ذلك بِمدّةٍ لا بأس بها، لِمَا شَهدت غضبَ أبيها الشّديد، ولِمَا علّمتها أمّها أن تلعبَ الغُميضة. لقد تعلّمت أن تختبئ من أشياء كثيرة جدًا. فهل كانت مُختبئةً الآن؟

نظرت الخالة أليزابث من فوقٍ كَتفها. "يبدو

شعركِ جميلاً وهو مُرخى حول كتفكِ“. قَطَّعَتِ
البَطَاطَا المُقَشَّرَةَ، وأفرغتها في قِدر، وأضافت ماءً من
الْحَنْفِيَّةِ. نَشَفَت يَدَيْهَا، وأضافت قليلاً من المِلْح إلى
الماء، ووضعتِ القِدرَ على النَّار. ثُمَّ واجهت غريس
واستندت إلى المغسل كما لو كانت تستجمع قواها.
”أنتِ ساكنةٌ جدًّا“.

”إنما أنا مُتذكِّرةٌ أشياء من الماضي“. نَدِمَت
غريس على قولِ ذلك لَمَّا رأتِ الأَلمَ يخفُّ في عيني
خالَتِهَا.

”لا شيءٌ جيِّدًا، كما أتصوِّر“. دَسَّت الخالَةَ أليزابث
يديها في جيبَي مئزرِهَا إذ أشاحت بنظرِهَا. ”فعلتُ
أشياءً كثيرةً أندمُّ عَلَيْهَا، غريس، ولمُعظَمِهَا علاقةٌ
بكِ“. وزَفَرَت نَفْسَهَا. ”كُنْتُ ابنةً سَبْعِ سنينَ فقط لَمَّا
أويثُكِ عندي. وقد صرَفْتُ كلَّ مرارتي عَلَيْكِ“.
”في وُسعي أن أفهمَ السَّبَبَ“.

جَلَسَتِ الخالَةَ أليزابث إلى طاوِلَةِ المَطْبَخِ،
ووضعت يَدَهَا على ذِرَاعِ غريس. ”يُعوزُنَا أن نتحدَّثَ
بشأنِ الماضي، غريس“.

”بشأنِ أمِّي؟“

”نَعَمْ، وبشأنِ أبِيكِ“. ضغَطَت على ذِرَاعِ غريس
برفق، ثُمَّ أبعدت يَدَهَا. ”ولكنَّ البلاءَ لم يبدأ بِهَما“.

بعدَ العشاءِ، كان على الخالَةَ أليزابث أن تذهبَ إلى
اجتِمَاعِ شَمَّاسَات. حَمَمَت غريس صَمويلَ في مغسل

المطبخ، وأبسته للنوم، ثم حملته لصيقًا فيما شرب
قئينة حليب دافئ، وهي تُصلي فوقه. رنمت ترنيمة
مُحِبَّة بِرِقَّة وراقبت أجفانه تثقل حتى لم يعد
يستطيع إبقاءها مفتوحة. وإذ أنزلته بِحَذَرٍ داخل
الحظيرة النَّقَّالة، غَطَّته بِبَطَانِيَّتِهِ الْمُفَضَّلَة، الحَرِيرِيَّة
الحواشي.

مُفَعَّمَةٌ بِحَنَانٍ مُوَجِّعٍ، جَلَسَتْ عَلَى طَرَفِ السَّرِيرِ
الْمُزْدَوِجِ وراقبت ابنتها ينام. كانت قد قلبت حياته
رأسًا على عَقَبٍ وداخلًا إلى خارج في الأسبوع
الأخير، وقد بدا وادعًا وقانعًا. لم يكن لدى صبيها
الصَّغِيرِ أَيُّ شَيْءٍ يَقلِّقُ بِشأنه لِأَنَّهُ وَثِقَ بِأَمِّهِ. يَا رَبُّ،
أريدُ أن أكون واثقةً بك على هذا المِنوَالِ.

لم يكن أيُّ شَيْءٍ جَارِيًا مِثْلَمَا تَوَقَّعْتُ. أَرَادَتْ
الخالَةُ أليزابث أن تتحدَّثَ بِشأن الماضي، ولكن في
ما بعد، اللَّيْلَةَ عِنْدَمَا تَرَجِعُ، أو غَدًا. هل تُغَيِّرُ رَأْيَهَا؟
كان لدى غريس أسئلةٌ تَطْرَحُهَا عَنِ الْمَاضِي، وَأَرَادَتْ
أن تستعيرَ شَيْئًا من شِجَاعَةِ خَالَتِهَا فِي التَّوَجُّهِ إِلَى
مَكَانٍ آخَرَ وَالانْطِلَاقِ فِي بَدَايَةِ جَدِيدَةٍ. فَالخالَةُ
أليزابث نَجَحَتْ فِي الْقِيَامِ بِذَلِكَ، إِذ تَرَكَتِ الْعَائِلَةَ
وَالأَصْدِقَاءَ فِي مَمْفِيسَ وَانْتَقَلَتْ عَبْرَ الْبَلَدِ كُلِّهِ. مَاذَا
اقتضى قِيَامُهَا بِذَلِكَ؟ هل انطلقت أليزابث وُكْرَ فِي
مُغَامَرَةٍ عَظِيمَةٍ، أم هل هَرَبَتْ هُرُوبًا؟

تحرَّكَ صَمُوِيلُ، فَأَعَادَتْ غَرِيسُ تَرْتِيبَ الْبَطَانِيَّةِ.

تذكَرَتْ ليلَتَها الأولى في هذه العُرفة، وكم كانت مرعوبة. ليلةٌ بعدَ ليلةٍ، خَبَّأتَ نَفْسَها بعيدًا، مُريدةً فقط أن تشعُرَ بأمان، مُصليةً أن تأتيَ ماما لِتجدتها وتقولَ لها إنَّ خُروجَها آمِنٌ.

ثمَّ وافاها الملاك وتبدَّت مخاوِفُها. أحسَّت روعته العجيبة، وكان ذاك سِرَّها الثمينَ الذي أطلعت رومان عليه. لقد علمَ أن الشياطينَ موجودة. فهل صدَّق أن الله أرسلَ ملائكة؟

أزَّ بابُ المَرأب. لقد عادَت الخالةُ أليزابث إلى البيت. انحنَّت غريس فوق الحظيرة النِّقالِ، ووضعت يدها بِرفق على صدرِ ابنِها. "أنت بِمأمنٍ في هذه العُرفة، صمويل. كان لي صديقٌ يسهرُ عليَّ حارسًا. إنَّ الله يحرسُك أيضًا".

دخلت غريس المطبخ لحظةً فتحت خالِثها البابَ الجانبيَّ من المَرأب. بدت الخالةُ أليزابث راضية. "ظننتُ أنكِ قد تكونينَ مُستيقظةً".

"كيف جرى اجتماعُكُنَّ؟"

حطَّت الخالةُ أليزابث جِردانها على الطاولة وخلعت معطفها. "توزَّعنا كلُّنا واجباتٍ مهمًّا. سأرتبُ أشيائي، ثمَّ يتسنى لنا أن نتحدَّث".

"هل أعملُ شايًا؟"

"سيكون ذلك لطيفًا". التقطت جِردانها ومِعطفها مُلقًى على ذراعها. توقَّفت في مدخلِ الباب والتفتت

إلى الورااء. ”لِمَ لا نلبس كِلتانا مَنامَتينا ورؤوبينا؟ قد يُساعدُ ذلك على الشُّعور بالراحاة في أثناء مُحادثَتينا“. قعدتا في عُرُفة الجُلوس على كُرسِيَّين مُجنَّحين، مُتقابلَتين فوق طاوِلَةِ القهوة، كفتاتين في حفلة سهرٍ وسمر، ترتشِفانِ الشَّاي وتتظاهران بأنَّهما راشدتان. ”أينَ أبدأ؟“ بدتِ الخالةُ أليزابث كئيبةً ومُرتبِكة. ”لما غادرتِ إلى الجامعة، غريس، افتقدتُك. يُحتمَلُ ألا تُصدِّقي ذلك، ولكنَّ المنزلَ بدا فارغًا“. تناولت رَشفةً أُخرى من الشَّاي، ثمَّ وضعتِ الفِنجانَ على الصُّحيفة وحطَّتهما على طاوِلة القهوة.

”قضيتُ وقتًا أكثرَ في المكتب، إذا استطعتِ أن تُصدِّقي ذلك. عمليًا، عِشتُ هُناك. كان شاقًّا أن أرجعَ إلى منزلٍ فارغ، عالِمةً أَنَّهُ سيبقى فارغًا. لم أظنَّ أَنَّك ستأتينِ إلى البيت، حتَّى في العُطل. بِتُّ وحيدةً من جديد. خُيِّلَ إليَّ أن تلك هي الحالةُ التي أردتُ الأمورَ عليها. فالأمرُ هو أَنني لم أستطِعِ التَّوقُّفَ عن التَّفكيرِ في شُعورِ لين المُحتمَلِ إذا عِلِمَتِ أَنني عامِلتُك كفتاةٍ وضعتُها المحكِّمةُ تحتِ وصايتي، لا كابنةٍ أُختي“. وتلقَّت حَملةً غريس بِضُعبوبة. ”كان من شأنِ أمِّك أن تتأذَى ويخيبَ أملُها“.

”لقد آوَيْتني، خالتي أليزابث. لم تتزُكيني في عُهُدةٍ تَنشِئة“. كان مُمكنًا أن تتثَقِّلَ من بيتٍ إلى آخر، مُمضيةً بِضعةِ أشهرٍ هُنا، وسنةً هُناك. مَن كان يدري

ما أمكن أن يحصلَ في تلك الظروف؟ فكَّرتَ غريس في رومان والطفولة التي عاشها.

”لديّ أمورٌ كثيرةٌ أندم عليها، غريس، ولكنَّ أكبرها أنني ما ربييتُك بالمحبة التي احتجت إليها احتياجًا مأسًا، وكنتِ تستحقينها“.

رأت غريس كلفة ذلك الاعتراف وأحسَّت قلبها يرقُّ. ”أفهمُ لماذا لم تستطيعي أن تُحبِّيني، خالتي أليزابث. كلُّما نظرتِ إليّ، رأيتِ أبي، وهو...“ هزَّت رأسها، غيرَ قادرةٍ أن تقولَ الباقي.

وضعتِ الخالة أليزابث رؤوس أصابعها على جبينها. ”لقد نسيثُ أنكِ سمعتِ ذلك الحديثَ مُصادفةً“. ثمَّ أنزلت يدها ورفعت رأسها. ”قلْتُ أشياء كثيرةً ما كان ينبغي أن أقولها، غريس. كنتُ غاضبةً جدًّا. بدأ ذلك قبلَ زمنٍ طويلٍ من موتِ لين، وإن كان ذلك قد فاقمَ الأمور. غضبي يرجعُ إلى عهد الطفولة“. ووضعت يديها على ساقَيْها، كأنَّها تستجمعُ قواها. ”واحدةٌ من ذكرياتي الأولى رؤيتي أبي يرفسُ أمِّي في أضلاعِها لَمَّا كانت على رُكبتيها تُنظفُ الأرضيةَ“. وأغمضت عينيها. ”كنتُ فقط في الثالثة من العمرِ حتمًا، لأنَّ لين لم تكن قد وُلدت“.

أحسَّت غريس دفقةَ الدَّمعِ الحارَّة، ولم تنبس بكلمة.

”ما جادلتِ أمِّي أبي قَطُّ. لم تقل قَطُّ أيَّة كلمةٍ

بحقّه. وقد علّمتنا أن نُطيعَ نحنُ أيضًا. فتعلّمنا باكرًا أن نُميّزَ طباعه ونُحيدَ من دربه. رُزقتَ ماما طفلًا آخر بعدَ لينِ ببضعِ سنين، صبيًّا صغيرًا. كان أزرق. شيءٌ ما في دمه حالٌ دونَ أكسجته. هو الازرقاق، كما يُسمّونه حسبما أظنُّ. لقد بحثتُ عن هذا المرَضِ مرّةً.

رفعتَ فِنجانَ شايبها وضحيفته ثانيةً، ورشفتَ على مهل، بعينينِ كليلتين. وارتجفتَ يدها لَمّا حطّتها مُجددًا، على نحوِ أهدأ. ”لامَ أبي أمي، دونَ شكِّ. الجانبُ المُحزِنُ أنّها صدّقته. أحسّت أنّها استحققتَ الضربَ تَكَرّارًا“. كوَّرتَ الخالةُ أليزابثَ يديها قبضتين، وقد انخفضَ صوتها مَشدودًا ومُتوتّرًا. ”حاولتُ أن أوقفهُ ذاتَ مرّةٍ، فكادَ أن يقتلني“.

هازةً رأسها، ملّستَ رُوبها بأصابعِ مُرتجفة. ”في تلكَ الأيامِ قديمًا، لم يكنِ الناسُ يتحدّثونَ بشأنِ العنفِ الأسريِّ. كانَ الأمرُ شأنًا عائليًّا، الأفضلُ أن يُبقى سِرًّا. تسلّمتَ وظيفةً حالما بلغتَ سنًا كافيةً، فقط لأبتعدَ عن البيت، فقط لأوفّرَ ما يكفي للمُغادرة. دونَ شكِّ، توقّعَ أبي حصّةَ الأسدِ من مدخولي، ولكنني وجدتُ طُرُقًا لادّخارِ شيءٍ من المال. وقد بقيتُ بعيدةً أغلبَ الأوقات، فلم أعلمَ ما كان يجري سوى ذلك في أثناء غيابي“. ثمَّ أغمّضتَ عينيها

لحظةً قبلما تابعت.

”كانت ماما مريضة. لم نعلم قط ما بها لأنها أبت أن تذهب إلى الطبيب. اعتقد أنها رأت خاتمة لبؤسها ورحبت بها. من كان ليلومها؟“ ولبثت وقتًا طويلًا صامتة.

”وأمي؟“

ضمت الخالة أليزابث شفثيها معًا، شاحبة الوجه. ”رجعت لأجلها بعدما ماتت ماما، آملة أن تذهب معي. أصرت على احتياج دادي إليها. لم يكن سليم الصحة. استطعت أن أرى أنه لم يكن كذلك. ربما كان أسفًا على طريقة معاملته لأمنا. أو ربما كان يرى جهنم مواجهةً. لا أدري. لم أبال.“ وأسندت رأسها إلى ظهر الكرسي. ”كنت أرجع لرؤيتها كلما استطعت. كانت لين تثلفن، وكنا نتحدث. الوالد لم يجعل حياتها سهلة. كل ما جرى سيئًا في حياته كان دائمًا غلطة شخص ما سواه.“ ابتسمت لغريس ابتسامة حزينة. ”كانت أمك مقدمة رعاية جيدة.“ وانقلب منحنى فيها مريدًا. ”من جهتي، وقفت فوقه مرّة، قرب النهاية، وقلت إذا ترك الأمر لي فإني أتركه على كرسيه وأدعه يبلى في قذارته.“

وخزت قشعيرةً باردة بشرة غريس.

تذبذبت سيماء الخالة أليزابث بين الخزي والذنب، وبين الغضب والندم. ”أصبحت لين مثل أمنا. وأنا

أصبحتُ مثلَ والدِنا“. ثُمَّ نظرتُ إلى غريس مُجدِّداً،
وعيناها مُغرورِقَتان. ”إنَّما لم أستَعِمل قبضتي
فحسب“.

انتقلتُ غريس إلى الأريكة وجلستُ على حافتيها
لِتستطيعَ إمساكَ يَدِ خالتيها. ”أنا أُحبُّك، خالتي
أليزابث“.

”أعلمُ أنَّك تُحبِّبيني. اللهُ يعلمُ السَّببَ. أنتِ مثلُ
أمِّك. كان في وسعها أن تُسامحَ بأيِّ شيءٍ“. التفتتُ
قليلاً، ويدها حولَ يدي غريس، مُمسِكَتين بِقُوَّة،
ونظرُها مُركَّزٌ. ”ينبغي لنا أن نتحدَّثَ بشأنِ والديك.
ماذا تتذكَّرينَ عن تلكِ اللَّيلةِ؟“

”لم أَرَ أيَّ شيءٍ ممَّا جرى. قالتُ لي ماما إنَّنا
سنلعبُ الغُمِيضةَ. دخلتُ خزانةَ ثيابي واختبأتُ في
مؤخرها. سمعتُ ماما تتكلمُ بِسُرعةٍ. صرَّخَ دادي
عليها. باتتُ تبكي تالياً. تحطَّمتُ شيءٌ ما وسمعتُ دادي
ينسجُ ويقولُ «لين» مراراً وتكراراً. ثُمَّ سمعتهُ مُقبِلاً.
ظننتُ أنَّه كان يُفتِّشُ عني، فلم أجروُ على التَّحرُّكِ.
سمعتهُ يفتِّحُ جواريرَ وخزائنَ، طارِحاً أشياءً. ثُمَّ فتحَ
بابَ الخزانةِ ورمى عُلباً عن الرِّفِّ الأعلى، ومن ثُمَّ
وجدَ عُلبَةً خشبيَّةً فيها مُسدَّسٌ. عندئذٍ رأني، مُختبئةً
في الزاوية الخلفيَّةِ. أزاحَ الثَّيابَ جانباً وحدَّقَ إليَّ. لم
يقُلْ كلمةً واحدةً. أغلقَ بابَ الخزانةِ. بقيتُ رابضةً
هناك، مُنتظرةً في الظلامِ. ثُمَّ سمعتُ الطَّلقةَ“.

هزّت رأسها، مُتذكّرةً نثفاً وأجزاءً من تلك الليلة
الرّهيبية.

”دبّت الفوضى بعد ذلك. منعني خوفي الشديد أن
أتحرك. سمعتُ ارتطامًا عاليًا وأصواتَ رجال. أقبلت
أضواءً، وعثرَ عليّ شرطيٌّ. وانتهى بي المطافُ عند
الزوجين اللطيفين اللذين أوياني بضعة أيام“. لما
قابلت غريس آل غارسيا أول الأمر، تذكّرتَ ذينك
الزوجين الودودين. ”بعد ذلك، جئتِ أنتِ“.

ارتخت يدا الخالة أليزابث. ”أنا آسفة من أجل
حدوث ذلك كله لك، غريس. لم أجعل الأمور أسهل
عليك بتاتًا بتحدّثي بشأن أبيك على غرار ما فعلتُ.
كانت الحياة قاسيةً عليك كفايةً بغير أن أودّي أنا دورَ
المُحلّفين والقاضي. مهما حدثت تلك الليلة سبّب
لأبيك وضعٌ حدٌ لحياته. كان مُمكنًا أن يضع حدًا
لحياتك أيضًا، ولكنه لم يفعل ذلك“.

أحسّت غريس الدموعَ آتيةً، وحبستها.

رفعت الخالة أليزابث يداً ودست حليقة شعرٍ وراء
أذن غريس. إيماةٌ نرفزة. ”أحبّ براد ولين أحدهما
الآخر، رُبما فوق الحدِّ، ورُبما بالطريقة الخاطئة.
العلاقات لا تُفهمُ بصورةٍ منطقيّةٍ دائمةً. ما حدث كان
مأساةً، ثمّ عرض الله عليّ هديّة. وبدلاً من قبولك
شاكراً، تشبّثتُ بغضبي. أنا مُهندسةٌ في ما يتعلق
ببناء الأسوار. والشخصُ الوحيد الذي سمحتُ له

بالاقترابِ إليّ من كَثْبِ هو ميرَندا سِيسِرَ“. والتوى
فَمُها بابتِسامةٍ ساخرة. ”لقد طَلَعَت من خَلْفِيَّةِ مُماثِلَةِ
النَّوعِ، ولكنَّها لم تَدَعِها تُنغِّصُ حِياتِها“. وربَّتت الخالَةَ
أليزابث يدَ غريس. ”حاولتُ أن أُعطيها إِيّاكَ مرَّةً، كما
لو كُنْتُ أليفاً غيرَ مرغوبٍ فيه طَرَحَ عند عَثْبَةِ بابي“.
لم تُفاجأ غريس. ”متى؟“

”اليومَ الذي تلا إتياني بكِ إلى بيتي. قالت ميرَندا
لا. وقالت إنني بحاجةٌ إليك“. وتلألت عيناها
بالدموع. ”كنتُ غاضبةً. وهي وأندرو كانا يُريدانِ
أولادًا كلَّ حين. لم أستطع أن أفهم لماذا أبت أن
تأخذكِ. ولكنَّها كانت على حقٍّ. إنما أنا لم أتعلَّم
بسرعةٍ كافية. كان من شأن الحياة أن تكون أفضلَ
لكِ ولي لو تخلَّيتُ عن فرطِ الجِرسِ والحذرِ“.
أحسَّت غريس دُموعًا حارَّةً تنبجس. ”لقد تخلَّيتِ
الآن“.

أطلقت الخالَةَ أليزابث ضحكةً كئيبة. ”آن الأوان،
ألا تعتقدين ذلك؟“ بات صوتها أثنى بالعاطفة. وقد
بدت مُتعبةً، لكن مُشرحةً الصِّدرِ أيضًا. وأجرت يدها
فوق الرُّوب الذي يُغطي حِضنَّها. ”أعلمُ أنكِ جئتِ
للتحدُّثِ بأمورٍ أُخرى، ولكن هل يَسَعُنَا أن ننتظرَ حتَّى
الصِّباح؟ أنا مرهقة“.

لما وقفتا كلتاهُما، تقدَّمت غريس وعانقتها. فإذا
بذراعي خالَتِها تُطوِّقانِها، وليَّتتا مُتضامتين لحظةً. ثمَّ

انكفأت الخالة أليزابث، زافرةً نفسًا رقيقًا. ”أرجو أن تكوني ناويةً أن تمكثي بضعة أيام“.

”ثلاثة على الأقل“.

”شكرًا لك“. واحتضنت الخالة أليزابث خدَّ غريس بكفيها. ”ما برحت فتاةً حلوةً كلَّ حين، شأنك شأنُ ماماك تمامًا“.



ما برح رومان قاعدًا في حجرة جلوس بريان قبل الظهر كُله. لقد تحدّثا بأمورٍ كثيرة، ولكن في الأخير جعل بريان رومان يتحدّث بشأن الحياة بصفة رسامٍ غرافيتي في حيّ المُستهترين.

”كان لديّ طاقم. وُجدَ دائمًا فتیانُ أرادوا مُرافقتي لأجلِ النَّشوة. منهم من كان يحزّس، ومنهم من كان يُساعد في الجبال. كان لديّ شابٌّ، اسمه لاردو، قويٌّ كظهيرِ هجوميّ، يرفَعُني ويضعُني على سطحٍ ما قبل أن يلمحني رجالُ الشرطة“. ثمّ رفعَ عُلبة الصّودا التي يشربُها. ”قتلَ بإطلاقِ نارٍ في حفلة. هوَ وريپر، صديقُ أخرٍ لي“. أتى على الصّودا وسحقَ العُلبة بيدي واحدة. ”بدأتُ أتساءلُ هل يستحقُّ الأمرُ اتّخاذَ أصدقاء“. وأحسّ في داخله الدّافعَ إلى الغوصِ أعمقَ واستئصالِ الألمِ من الجذور.

”وكان هناك واحدٌ آخر. لم أكن مُقرَّبًا إليه كثيرًا.

كان يُرافِقني عندَ رَسَمِ الغرافيتي. ما كنتُ أستطيعُ أن أهزّه“. ثمَّ وقَّفَ مُضطَّرِبًا، وفي يَدِهِ عُلْبَةُ الصُّودا المسحوقة. ما كان عليه أن يُخَبِرَ بريانَ بكُلِّ شيء. ”أينَ ينبغي أن أرميَ هذه؟“

”مَوادُّ التَّدويرِ تحتَ مَغسَلِ المَطبخِ“. ولم يُلَخِّ بريانَ.

رمى رومان العُلْبَةَ ورجَعَ. نَظَرَ إلى بريانَ رائِزًا سِيماءَهِ. ردَّ بريانَ بالنَّظَرِ إليه. ”انتقيتُ دائِمًا أمِكنةً سماويَّةً“.

”أمِكنةً سماويَّةً؟“

”المباني العالِية، العَمائر...كُلِّما كانت أعلى، كانَ أفضلَ“.

”يبدو الأمرُ خَطِرًا“.

”ذاكَ بيثُ القَصِيدِ. كُلِّما كانت المَغامرةُ أكبرَ، نالتَ مديحَ الشَّارعِ أكثرَ. رَسَمْتُ صُورَةً على جِسْرِ الخَلِيجِ. كِدْتُ أسقُطُ في الخَلِيجِ أخيرًا. رَسَمْتُ على مَبْنِيَيْنِ من خَمسةِ أدوار. لا مشاكل. ثمَّ انتقيتُ مَعبرًا فَوْقِيَا، فأنجَرتُ قوالبَ الرِسمِ، وأحضرتُ عُدَّتِي، وأقمتُ طاقمي. كانت المَجازفةُ بأن أرى كَبيرةً، فعَيَّنتُ مُراقِبَيْنِ. ثمَّ ظَهَرَ وَيتُ بُوِي، الفتى الذي كنتُ أتحدِّثُ بشأنه. كانت المُشكِلةُ أنَّ نِتاجَهُ الفَنِّيَ رديءٌ“. وهزَّ رأسَهُ. ”ما احتجتُ إلى مُساعدةٍ ولا أَرَدْتُها، لا سِيمًا من قِبَلِ شَخِصٍ لا يستطيعُ أن يرِسمَ ما هو أفضلُ

من الحُرُوفِ المنفوخة، إِلَّا أَنَّهُ سَقَطَ مِنْ عُلِّ فَوْقَ
عُدَّتِهِ“.

استحوذت عليه العاطفة، ومسح وجهه قبل النظر
إلى بريان من جديد. ”لم يعرف وئيت بوي الفرق بين
جبال المسرح وجبال التثبيت وسط الأغراض التي
سرقها من مخزن خردوات. كان حاملاً غلبة طلاء
رَشٍّ، وكان نازلاً ليرسُم. قلتُ له إنني سأقتله إذا فعلَ
ذلك“. وسمع الصدى الواهي لضحك وئيت بوي. عليك
أن تصل إليّ أولاً! كانت في يدي غلبة رَشٍّ فارغة
فرميته بها. حاول أن يتجنبها. ذلك كل ما لزم. انزلق
حبله، وفقد سيطرته“. التهبت عينا رومان، وبلغ ريقه
بتشنج قبل أن يتكلم. ”لقد سقط!“

”أتظن أنها كانت غلطتك؟“

”لا أدري، ولكنني شعرتُ بأنني مسؤول.“

كان رومان ما يزال يحلُمُ بالجسم المهشم في
بركة أحمر منتشر. ارتمى ضوء سيارة أمامي على
جسم وئيت بوي. ضغط السائق بقوة على المكابح،
ولكنه مرَّ فوق وئيت بوي قبلما توقفت السيارة بعدما
زعت. توقفت سيارات أخرى وترجل الناس منها
ليحدقوا إلى الجثة المحطمة على الرصيف. لم
يلاحظ أحد الفتى الآخر المدلى فوق بكنزته السوداء
المقلّسة. تسلق بوي راين بسرعة، وتدحرج فوق
الحائط في الأعلى، ونفض عنه الغدّة. وتفرق لاردو

والآخِرَانِ. فَرَكَّضَ بُيِّ رَايَ حَتَّى لَمْ يَعدِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَكَّضَ، ثُمَّ انزَلَقَ أَرْضًا وَظَهْرَهُ عَلَى جِدَارٍ، وَبَكَى نَاشِجًا.

تَحَدَّثَ رومان بِشَأْنِ وَيت بُوي الَّذِي كانَ أَصغرَ مِنْهُ بِسَنَةِ، وَقَدِ ارادَ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ بُيِّ رَايَ دِينِ الَّذِي أَحَبَّ تَدْفُقَ الأَدْرِينالينَ لَدَى القِيامِ بِالمِغامراتِ، راسِمًا عَلَى أَمَكِنَةٍ عَالِيَةٍ، مُسْتخِدِمًا الوَثبَ وَالرَّكْضَ لِيَسْبِقَ الشُّرطَةَ أَوْ أَفرادَ العِصابَةِ المُنافِسينَ. كانَ هُتْ هُتْ هُتْ هُوَ الرَّقِيبَ، وَأَطْلَقَ صَفْرَةَ الإِنذارِ. وَقَدِ قامَ رِيپِرَ بِدَوْرِ المُضَلِّ. وَكانَ مُفْتَرِضًا أَنْ يُوَدِّيَ وَيت بُوي الحِرَاسَةَ أَيضًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ.

”تعاوِدُنِي كَوايِشُ أَحيانًا. أَسَمِعُهُ يُصْرِّخُ وَهُوَ يَهوي ساقِطًا. وأَراهُ عَندما يَرْتِطِمُ بِالأَرْضِ“. أَحسَّ رومان دُموعًا حارَّةً تَنبَجِسُ. هلَ كانَ وَيت بُوي واحِدًا مِنْ تِلْكَ النُّفوسِ الهالِكةِ فِي جَهَنَّمَ الآنَ؟ ”ما اسْتَخدمْتُ طاقَمًا قَطُّ مَرَّةً أُخري. اسْتَغَلْتُ دائِمًا وَحدي. ثُمَّ ارْتَفَعْتُ أَعلى، وَرَسَمْتُ صُورًا أَكْبَرَ“.

”يَبْدُو كَأَنَّهُ كانَتْ لَدَيْكَ رَغْبَةٌ فِي المَوْتِ“.

التَّوى فَمَ رومان بِابْتِسامَةٍ مَرَّةً هازِئَةٍ. ”رُبَّما، أَوْ رُبَّما ظَنَنْتُ أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكونَ أَسْرَعَ مِنْ رِصاصِةٍ مُتَسارِعَةٍ، وَأَتَخَطَّى العَمائِرَ العالِيةَ بِقَفْزَةٍ واحِدَةٍ“. لَقَدِ تَعَلَّمَ فِعْلاً كَيْفَ يَعبُرُ القَمَرَاتِ الضَّيِّقَةَ إِلَى سَطوحِ أَدنى فِي الجِهةِ المُقابِلَةِ. كانَ قَدِ تَمَرَّسَ كَثِيرًا

بالهروب في الشوارع وهو صبي صغير، فأرًا من عائلات التنشئة وسابقًا الشرطة والعمال الاجتماعيين. لقد عرّف كيف يسقط على الأرض ويتدحرج ويستخدم الزخم ليبقى منطلقًا. استعمل العوائق كي يدفع نفسه قدمًا، وقد كانت شوارع مدينة سان فرانسيسكو ملعبه.

كم مرّة سمع صفارة تزعق ورأى أضواء حمراء على جدران المباني، نورًا كشافًا يبحث عنه في الأعلى؟ ليلة مات ویت بوي، كان ببي راي دين قد ركض كأنما كان الشيطان في أعقابه. ركض حتى أحس كأن قلبه سينفجر.

واضعًا مرفقيه على ركبتيه، فرك وجهه. "لم يكن حتى نعي له". وكان صوته أجش.

مال بريان إلى الأمام، وعيناه مغممتان حنوا. "ماذا كان اسم ویت بوي الحقيقي؟"

رفع رومان رأسه ببطء. "لست أدري". ولم يستطع رؤية وجه بريان من خلال دموعه.

"هل أقلت بعد ذلك؟"

"رسمت المزيد. وقد تخلّيت عن القلنسوة في أثناء الرسم. كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي فيها شعرت بالحياة والحيوية والسيطرة".

استمرّ ببي راي دين يرسم الجرافيتي باسم العصابة، ولكنه قضى وقتًا أطول على رسوم أخرى

تُمثِّلُ أفكارَهُ الخاصَّةَ وصوتَهُ الخاصَّ. فرسَمَ شيطانًا أحمرَ الوجه حولَ البابِ الأماميِّ لِشَقَّةٍ سَكَنِيَّة. وكان المدخُلُ يبتلِّغُ الدَّاخلينَ وينفُثُهم إذ يخرجون. ورسَمَ شيفًا يشوي جِردانًا فوقَ صفائحِ القُمامةِ في مَمشى مطعَمِ شرائحِ لحمٍ شهير. وحوَّلَ مداخِلَ مُكيِّفِ هواءٍ إلى وَحِشٍ مُكَشَّر. ”رُسومي العِصابيَّة طَمِسَتْ في غُضونِ أَيامٍ قليلة. أمَّا آثارِي الأخرى فدامت مُدَّةً أطول.“

كانتِ السُّخريَّة السَّاحقة أَنَّهُ في اللَّيلةِ التي فيها سَقَطَ وَيْت بُوي لِيَلقى مصرَعَه، طارَ العُصفور. ما عادتِ الأحرفُ BRD أوَّلَ أحرفِ بُي راي دين فحسب، بل صارَ هو العُصفور. والرَّسمةُ نِصفُ المُكتملةِ التي رسَمها تلكَ اللَّيلةِ كانت في بُقعةِ سماويَّة. كان من شأنها أن تُكَلِّفَ المدينةَ مالًا كثيرًا لِطَمِسِها، ومِنَ ثَمَّ بقيت. وكانت ما تزالُ هُناكَ لَمَّا فَقَدَ بُي راي دين السَّيطرةَ وانهاَلَ على شارعِ تورك بِطلاءِ أحمرَ بعدما ماتَ صديقانِ آخِران.

”أينَ رِيبِر وهْت شُت ولاردو الآن؟“

”ماتوا. لاردو وريبِر قُتِلا في حفلة. دخلَ اثنانِ من الفِتيانِ الأكبرِ سِنًا باحِثينِ عن شقيقِ ريبِر وتصورًا أنَ الواحدِ كان جيِّدًا كالآخر. كان هُت شُت هُناكَ، ولكنَّه نجا بجلده. وبعدَ بِضعةِ أشهرٍ، ماتَ بِجرعةِ زائدة.“

فَرَكَ رومان قفا رقبَتِه. ”كان مُفترَضًا أن أكونَ عندَ

رِبِيرَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْتَغِلُ بِمَشْرُوعٍ سَخِيفٍ
لِمُعَلِّمِي فِي مَادَّةِ التَّارِيخِ. كُنْتُ أَلْعَبُ اللَّعْبَةَ، مُحَاوِلًا
أَنْ أَجْتَازَ الْمَرْحَلَةَ الثَّانَوِيَّةَ.“

هَلْ رَفَضَ كُلَّ فُرْصَةٍ لِأَجْلِ تَعْلِيمِ عَالٍ بِدَافِعِ
الْعِقَابِ الذَّاتِيِّ؟ ”جُنَّ جُنُونِي قَلِيلًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَنَسَفْتُ
شَارِعَ تَوْرِكِ بِطِلَاءِ أَحْمَرَ. اعْتَقَلْتَنِي الشُّرْطَةُ وَانْتَهَيْتُ
إِلَى حَبْسِ الْأَحْدَاثِ.“

”هَلْ حَاوَلَ أَحَدٌ إِطْلَاقَكَ بِكِفَالَةٍ؟“

”أَتَمَزَّحُ؟“ أَطْلَقَ رُومَانَ ضِحْكَةً قَاتِمَةً. ”سُرَّ زَوْجَا
التَّنَشُّةِ بِأَنْ يَتَخَلَّصَا مِنِّي. قَدَّرَتِ الْمَحْكَمَةُ أَنَّي كُنْتُ
فِي حَاجَةٍ إِلَى تَغْيِيرِ الْمَنَاطِرِ، وَبَعَثَتْ بِي إِلَى مَزْرَعَةِ
مَاسْتَرَسْنِ الْجَبَلِيَّةِ. حَدَّثَنِي بِشَأْنِ صَدْمَةِ حَضَارِيَّةٍ!
كَانُوا يُزْبُونُ أَحْصِنَةً بِالْأَجْرَةِ، وَلَدَيْهِمْ مِئَةُ رَأْسٍ مِنْ
الْمَوَاشِي، فَضَلَّاءٌ عَنْ سِتَّةِ فِتْيَانٍ. لَمْ أَكُنْ مُتَعَاوِنًا.
قُمْتُ بِكُلِّ مَا اسْتَطَعْتُهُ لِكِي أُطْرِدَ.“

”هُنَاكَ قَابِلَتٌ جَاسِپِرَ هَاوَلِي؟“

”صَحِيحٌ. يَبْدُو لَيْئًا، وَلَكِنَّهُ مُثَابِرٌ.“

”لَقَدْ أَثَّرَ فَيْكَ.“

”إِنَّهُ رَجُلٌ يَصْعَبُ هَزُّهُ. مَا زَالَ يَتَقَصَّى أَخْبَارِي
مُرَاقِبًا مِنْ كَثْبٍ. يَدْعُونِي وَاحِدًا مِنْ فِتْيَانِهِ الضَّالِّينَ.“

تَبَسَّمَ بَرِيَانَ. ”حَسِبْتُهُ أَبَاكَ لَمَّا قَابَلْتُهُ.“

”صَحِيحٌ؟ كَيْفَ ذَلِكَ؟ لَا نَبْدُو مُتَشَابِهَيْنِ فِي أَيِّ

شَيْءٍ.“

”يُحِبُّكَ كَمَا لَوْ كُنْتَ ابْنًا“.

لم يُرد رومان أن يُفكِّرَ في ذلك. ما كانَ قد أرادَ أن يُحِبَّ أَحَدًا حَتَّى التقيَ غريس. وقد ماتَ أناس، وغادَرَ أناس. ”يبدو أَنَّهُ دائِمًا يَتَّصِلُ أو يظَهَرُ عندما أَكونُ في مِزاجِ أزيمة. لا أدري كيفَ يَفْعَلُ ذلك“.

بالنَّظَرِ إلى لهجة جاسِپر في أَثناءِ مُحادثَتَيْهِما الأخيرَةِ، تصوَّرَ أَن جاسِپر قد تخلَّى عنه أخيرًا. ولم يكنَ قد توقَّعَ أن يؤلِّمَهُ كثيرًا جدًّا.

”اللَّهُ يُحَرِّكُ النَّاسَ بِرِفْقٍ“. فَتَحَ بريانَ خزانَةَ.

”إِنَّمَا مُعْظَمُ النَّاسِ لا يبدلونَ انتِباهاً“. وكَيَّلَ بِنَا ثَمَّ وَضَعَ المِصفاةَ في مَكَنَةِ القهوة، وملاً غِرافَةَ ماءٍ وَصَبَّهُ داخِلَ الخِزانِ.

”لقد أَخبرتُكَ أَكثَرَ ممَّا أَخبرتُ أَيَّ شَخْصٍ“.

وغريس من الجُملة.

”سَيَبْقَى ذلكَ أمانةً عِندي“. وتأمَّلَهُ بريانَ لحظةً.

”ما بَرِحَ اللَّهُ وَاضِعًا يَدَهُ عَليكَ زَمَنًا طويلاً، صديقِي“.

”سيكونُ عَلينا أن نَتَّفِقَ على ألا نَتَّفِقَ بِشأنِ ذلكَ“.

”رَبِّمًا كُنْتَ بِحاجَةٍ لِأَن تَرَجِعَ وتَنظُرَ إلى كُلِّ شيءٍ بعينينِ جديديتين. من حيثُ أَجِلسُ، أرى أَنَّ اللَّهَ أَنقَذَ حياتَكَ بِضَعِ مَرَّاتٍ، ليسَ فقط تلكَ المَرَّةَ الواحدةَ في سانتا كلاريتا“. ثُمَّ مالَ إلى الأمامِ من جديدٍ، وسيماوُهُ حادَّةً، كأنَّهُ كانَ يُحاولُ أن يثقبَ فولاذًا.

”لقد جاءَ الرَّبُّ يسوعَ لِيحَرِّكَ رومانَ، لا لِيُذكِّرَكَ

دائمًا أين أخطأت الهدف. نحن مُخلصون بالنعمة
(غريس بالإنكليزية)...“

اتَّجَهَ ذهنه الجسديُّ إلى غريس، أداة الله لإبقائه
حيًّا وإعطائه فرصةً أُخرى بعد لِتصحیح الأمور. وهو
قد أهانها بعرضٍ ساذجٍ لما حسبته علاقةً حسنة. فلا
عجب أنها هربت.

كان قد دفعها إلى الرَّحيل، والآن كان هنا مُفكرًا
فيها من جديد. وقد ركَّز مجددًا على ما كان بريان
يقوله، فعرف ما عناه: نعمةُ الله سدَّت كلَّ شيءٍ
تمامًا.

ضحك بريان برقة. ”في وسعي دائمًا أن الأحيظ
متى تفضُّ المؤالفة عني.“

”أنا أسمعك. سأفكر في الموضوع.“ ربَّما وجب
عليه أن يرجع إلى الحيِّ المُستهتر. كان له شغلٌ غيرُ
منجز هناك.

فرك بريان يديه معًا. ”هل لي أن أقنع العصفورَ
بأن يؤدِّي لي بعض الطيران؟ الغرافيتي هو نوعُ
الرَّسم الذي يروقُّ أبناء كنيستي.“

تذكر رومان الشرطيُّ في نفق المشاة. لن أنسف
جدرانًا بعد. لقد قلتُ كلمتي.

”لستُ مُقترحًا أيَّ شيءٍ مُخالفٍ للقانون، رومان.
سيكون الأمرُ علنيًّا، ولا ضرورةً للقلائس السود.“

”عمّ تتكلم؟“

”شيء ما بارز على الجدار المُواجه للشارع. أريدُ للناس أن يعلموا بوجود كنيسة في المُتنزه الصّناعي. بالتأكيد، يُعوّزني أن أحصلَ على إذنٍ من مالك العقار، ولكنه شخصٌ ظريف، ومؤمنٌ بالمسيح. اعتقدُ أن الفكرة ستروقه“.

ومضت الأفكار كعرض شرائح في ذهن رومان. كلما قرأ الكتاب المقدس، تذكر لوحات رآها في الكاتدرائيات والمتاحف في أنحاء أوروبا، وأخرى في رأسه فقط. فأحس شرارةً وشعرَ بأنّ الرّوح القدس يُضرمها.

ماذا تقول، بّي راى دين؟ أتريدُ أن ترسم لي بعض الرسوم؟

ضحك رومان. غرافيتي لله؟ يا لها من فكرة جامحة! تلهّف أن يكونَ في يده قلمٌ رصاص. ابتسم بريان ابتسامةً عريضة. ”يبدو كأنك بدأت التفكير في الأمر أصلاً“.

الفصل ٣٥

جلست غريس إلى طاولة المطبخ، وحاسوبها مفتوح،
تحرّرت كُرّاسة مصلحة تجاريّة. حدّقت إلى خارج
النّافذة. كانت قد مضت ساعة واحدة منذ أن خرجت
خالّتها بصمويل في عربّة الأطفال. ما علّمت قط أنّ
خالّتها أليزابث قد تقوم بِنزّهة سيرًا على القدمين في
الجوار، ناهيك بتولّي المسؤولية عن طفل.

انفتح الباب الأماميّ. "ها قد عُدنا!" نادّت الخالّة
أليزابث من البهو. "لم أعطِ صمويل للغجر". ظهرت
في مدخل المطبخ، مُتورّدة الخدين، مُبتسمة. وقد
استقرّ صمويل مسرورًا على وركها. "سِنَّة جيران
أرادوا أن يعرفوا ما كنتُ أفعله مع طفل. قلتُ لهم
إنني وجدته في الشّوپر ماركت ولم أستطع أن أقاوم
إلقاءه في سلّة المشتريات". وضجّت ضحكة
خافّية. "لم أعلم قط أنّ لديّ هذا العدّد الكبير من
الجيران الفضوليين. ولكنني أيضًا ما كنتُ قد قُمتُ
بِنزّهة مشيًا حول صفّ المباني طوال سنين".

ونظرت من فوق كتف غريس إلى شاشة الكمبيوتر.
”فيم تشتغلين؟“

”أحرز كراسة لمشروع تجاري جديد.“

”كيف حصلت على هذا العقل؟“

”هارقي برنشتاين بعث إليّ ببعض الأشغال.“ وما
كانت خالّتها قط قد قابلت رئيسها في مؤسّسة
العلاقات العامّة.

”يبدو الأمر جيّدًا. ثمّ ماذا ستفعلين؟“

”لديّ ثلاثة مشاريع أخرى في الانتظار، ولجاسپر
هاولي معارف في بضع مدارس ثانويّة في منطقة
سكرامنتو. لقد أوصى بي بصفة معلّمة خاصّة على
الإنترنت. وقد تلقّيت أوّل استفسارٍ هذا الصّباح.
سأقابل كايدن وأباه على سكايب في أثناء قيلولة
صمويل.“

رَبَّت الخالّة أليزابث كتفها. ”أعتقد أنّك ستبيلين
حسنًا جدًّا، غريس.“

جعلت الإطراءه غير المتوقّعة والتّربيته على
ظهرها الدّموع تفيض. لقد حاولت على مدى سنين
أن تكسب استحسان خالّتها. ”أرجو ذلك.“ ثمّ خزنت
القلف وأغلقت الكمبيوتر. ”يُمكّني أن آخذه.“ ومدّت
يديها لأخذ صمويل.

زاحت الخالّة أليزابث جانبًا. ”إنّه بخير حيث
هو.“ ثمّ أخذت كعكة أروروت من العلبة وأعطته

”سَيُوسَّخُ كُلُّ شَيْءٍ بِتِلْكَ. بُلُوزَتُكَ...“

”لا تقلقي بشأنِ بُلُوزَتِي. إِنَّهَا حَرِيرٌ قَابِلٌ لِلغَسْلِ“.

وَاتَّكَاتٍ عَلَى الْمُنْضَدَةِ. ”يَبْدُو أَنَّكُمْ، أَنْتُمْ الشَّبَابُ، تَبْتَكِرُونَ مِهْنَكُمْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ“.

”أَحْيَانًا يَدَافِعُ الضَّرُورَةَ. مِنْ دَوَاعِي الشُّكْرِ أَنَّنِي

لَسْتُ قَائِمَةً بِهَذَا الْعَقْلِ وَحْدِي تَمَامًا. شَانِيسُ وَأَشْلِي

سَاعَدَتَانِي فِي إِنْشَاءِ الْمَوْقِعِ الْإِلِكْتْرُونِيِّ وَمَا بَرِحَتَا

تَنْشُرَانِ عَنْهُ فِي وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ“.

”بِكُمْ سَيَعُودُ عَلَيْكَ عَقْلُ التَّعْلِيمِ الْخَاصِّ؟“

كَانَ جَاسِپَرٌ قَدِ اقْتَرَحَ تَقَاضِيَّ أَرْبَعِينَ دُولَارًا فِي

السَّاعَةِ، وَلَكِنَّ غَرِيسَ شَعَرَتْ بِرَاحَةٍ أَكْثَرَ فِي الْإِبْتِدَاءِ

بِثَلَاثِينَ. وَإِذَا سَاعَدَتِ جَرِمِي، فَسَيَكُونُ لَدَيْهَا مَرَجَعٌ

مُفِيدٌ وَثَبَاتِيٌّ الْبِنَاءِ مِنْ هُنَاكَ كَمَا يُرْجَى. ثُمَّ ابْتَسَمَتْ

لِخَالَتِهَا ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. ”سَيَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أَحْتَفِظَ

بِجَدْوَلِ بَيَانِي لِقَدْخُولِي حَتَّى لَا أَتَوَرَّطَ فِي مَشَاكِلَ

مَعَ مَصْلَحَةِ الضَّرَائِبِ“.

”لَا بُدَّ أَنْ تَفْعَلِي ذَلِكَ“. ضَحِكَتْ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثُ.

”لَا أَرْضَى بِأَنْ تُصَيِّرَ ابْنَتُكَ أُخْتِي مُتَهَرِّبَةً مِنْ

الضَّرَائِبِ“. وَنَقَلَتْ صَمُويلَ إِلَى الْوَرِكِ الْآخَرِي. ”لَقَدْ

كُنْتُ دَائِمًا مُعَلِّمَةً خَاصَّةً جَيِّدَةً، غَرِيسُ. إِنَّكَ سَاعَدَتِ

پَاتْرِيكَ مُورَ كِي يَفُوزَ بِمِنْحَةٍ تَعْلُمُ جَامِعِيَّةٍ، أَلَمْ

تُسَاعِدِيهِ؟ مَا كَانَ قَطُّ لِيَتَخَرَّجَ فِي الْمَرْحَلَةِ الثَّانَوِيَّةِ،

ناهيك بالنجاح في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجليس،
لو لم تقومي بمُعظم عمَلِه عِوَضًا عنه“.

ربّما لم تتلقَّ إقرارًا بالفضلِ ومديحًا، ولكنها قد
تعلمت الكثيرَ عبْرَ المُقرّراتِ المُختلفة التي درّستها
پاتريك. ”لقد حاول“.

”صحيح؟“

”كان جيّدًا في بعض الأشياء، خالتي أليزابث“.
”أعتقد أنّ تلكَ طريقةً سليمةً للنظرِ إلى وضعٍ غيرِ
سليم، ولكنّ ماذا عن أحلامك، غريس؟ لقد علّقتهَا
لِتُساعدِيه. فمتى دَوْرُكِ؟“ حطّت الخالّةُ أليزابث
صمويل على الأرضيّة، وأحضرت بعضَ الملاعقِ
الخشبيّة من جارور. فطرّطق بها على الخشبِ
المصقول.

”أحلمُ بأن أتمكّن من تحصيلِ مَعيشَةٍ لائقة في
البيت لِيُتاح لي أن أمارِسَ دورَ الأمِّ نسبةً إلى صمويل
على مدارِ السّاعة“.

”وسوفَ تفعلين ذلك. فقد نجحتِ في كلّ ما
اضطلعتِ به؟“

”ما عدا الزّواج“.

”آه، حُبًّا بالسّماء، كُفّي عن رَفْسِ نَفْسِكِ. لم يكن
پاتريك زوجًا قَطُّ. كان صبيًّا كبيرًا يطلبُ أمًّا تعني
به“.

كانت غريس مُتردّدةً في التّطرُقِ إلى پاتريك،

ولكن خالتها الآن فتحت ذلك الباب واسعًا. ”أتمنى لو أعلم كيف أمكنك أن تُلقِي نظرةً واحدةً عليه وتعرفيه على حقيقته تمامًا“.

هزت خالتها كتفيها بصورةٍ كئيبة. ”اشتغلتُ مع أبيه. أو ينبغي لي أن أقولَ إنني شاهدتُ كيف اشتغلَ أبوه. كان يفتنُ الآخرينَ ليحملوا عنه حمله ثمَّ يتلقَى المدحَ كُلَّهُ من أجلِ العملِ المُنجِزِ. ومن ثمَّ نالَ هو الأوسمةَ والتَّرقِيَّاتِ والعِلاوات“.

تساءلت غريس حِيالَ المرارةِ في سيماءِ خالتِها ولهجتِها. ”هل فعلَ ذلكَ بكِ؟“

ابتسمت خالتُها ابتسامةً هزَّائيَّةً. ”حاول، ثمَّ انتقلَ إلى آخرَ أعجبتُ بهنَّ. الفِتنَةُ دائمةٌ ترفعُ علماءَ أحمرَ أمامي. إنَّ اهتمامَ پاتريكِ المُفاجئِ بكِ نَمَّ عن دوافعِ أنانيَّة“.

”تخميني أنَّه كان عليَّ أن أعرفَ أفضل. لِمَ يعمدُ الفتى الأكثرُ شعبيَّةً في المدرسةِ إلى انتقاءِ فتاةٍ مَهووسةٍ بالدَّرسِ صديقةً له؟“

غامت عينا الخالةِ أليزابثِ واثَّقتا. ”إيَّاكِ أن تجزئي على بيعِ نفسكِ بثمنٍ رخيصٍ! مَهووسو الأُمسِ بالدَّرسِ هم مديرو اليومِ التَّنفيذِيُّونَ ومُقاوِلو الغدِ. لقد درستِ بجِدِّ وكَدِّ. خرجتِ باحثةً عن شُغْلِ حالِما بلَغتِ سِنًا كافيةً للحصولِ على إجازةِ عَمَلِ. كانت لكِ أهدافٌ وأحلام. تلكَ صِفاتِ تحظى

بالإعجاب، غريس. أنتِ لم تستغلي الآخرين قَطُّ.“

كانت تلك هي أوَّل مرَّةٍ فيها تدافعُ الخالةُ أليزابث عنها، وقد وَضَعَ ذلك غريس في المَوقِعِ المُستغَرَبِ المُدافعِ عن زوجها السابق. ”لم تكن غلطةً ياتريك أنني كنتُ عمياءَ تمامًا.“

”كنتُ صغيرةً السنَّ وساذجةً في المدرسةِ الثانويَّة“. جلستِ الخالةُ أليزابث مُتصلِّبةً الظهر، مُواجهَةً غريس. ”لم تكوني عمياءَ في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجليس. كنتُ مُبصرة. عَلِمْتِ أَنَّ الأمرَ لم يكن مُصادفةً لَمَّا التَقَاكِ في حَرَمِ الجامعة. ثُمَّ اتَّفَقَ أَنَّهُ كان بحاجةً إلى شيءٍ من التَّعليمِ الخُصوصيِّ؟ لَمَّا ذَكَرْتِ لي أَنَّكِ قد رأيتِه، استطعتُ أن أسمع الشكَّ في صوتكِ. لعبَ الفأرُ في عُبِّكِ، ولكنكِ أردتِ أن تترجِّي. وأيُّ فتاةٍ لا تترجِّي؟ لا سيَّما حين يبدو الفتى شبيهاً بإلهِ إغريقيِّ؟“

تورَدَت غريس. ”لم يكن مُضطراً لأن يتزوَّجني.“

”كانَ ذلك استِثمارًا جيِّدًا. رُبَّما تكونُ المُواعِدةُ غاليةً جدًّا“. وقد قَطَرَتِ السُّخريَّةُ المُرَّة. ”يُمكنُ أن يعيشَ اثنانِ بِرُخصٍ كما لو كانا واحداً“. ونفَّت بازدراء. ”كانَ لَهُ كُلُّ ما أراد: فتاةٌ جميلة تأتي بالمؤونة إلى البيت وتطبخُ له، ثُمَّ تغسِلُ لَهُ ثيابهُ وتُنجزُ فُرُوضَهُ المنزليَّة، ويضاجعُها حين يُوَاتيه المِزاج. أشكُّ في أَنَّهُ كان حتى مُحبًّا جيِّدًا. مُفِرِّط

الأنانية. طالما كنت حريصةً على المال كل حين،
وهكذا أتصور أنه مهما كان لديك من مَدَّخرات فقد
دَخَلَ جيبه. كان يهوى التَّزُّج، على ما أذكر. هَوَايَةٌ
غالية. وقد استطاع أن يذهب إلى مُرتفَعَاتِ بَغ بِير
ست مرَّات.

لم تؤذ الحقيقةُ غريس بِقَدْرِ ما آذتها لَمَّا هَجَرَهَا
پاتريك. وقد عانت جرَّاء الذَّنْب والكِبْرِيَاءِ الجريحِ
أكثرَ ممَّا عانت جرَّاء قلبِ مَظْطور.

”أعلمُ أنني خبيثُ أَمَلِك، خالتي أليزابث. أنا آسفة
لأنني كنتُ غيبيةً“.

رقت قَسَمَاتُ خالتيها. ”أنا شريكةٌ في المَلُومِيَّة. لو
رَبَّيْتُكَ لِتَعْرِفِي قِيمَتَكَ، لَرُبَّمَا ما بَعَتِ نَفْسَكَ رخيصةً.
أحيانًا تُحِبُّ النِّسَاءُ فوقَ الحَدِّ ويخسرنَ أَنفُسَهُنَّ
كَلْبًا“.

على غرارِ أُمِّي، هكذا فَكَّرَتِ غريس، شاكِرةً أن
خالتيها لم تقُل ذلك.

وضَعَتِ الخالَةَ أليزابث غَلَايَةَ الشَّاي على النَّارِ
وأحضرتَ فِنجائينَ وَصُحَيْفَتَيْنِ. كان صَمُويل قد فَقدَ
الاهتِمَامَ بِالمَلاعِقِ وَدَبَّ نحوَ البابِ الخلفيِّ المؤدِّي
إلى المرَّاب. ”جَيِّدٌ أن ليسَ عندي بُويِبٌ سفليٌّ
للحيوان الأليف، وإلَّا استطاعَ أن يهرَّبَ عبْرَه. يا ليتَ
كانَ عندي واجِدَةٌ من تلكَ الوَثَابَاتِ التي يُمكنُ
تعليقُها في الباب“.

”لدي وثابة في صندوق السيارة“. وقد كانت على يقين بأن خالتها ما كانت لِثريدها مُعلّقة ورُبّما مُحدّثة العتبة العليا.

”طيب، ماذا تنتظرين؟ اذهبي وأحضريها“.

رجعت غريس إلى الدّاخل وركبت وثابة الباب، المُستعملة برفق. صاح صمويل مُبتهجا لما رآها. ثمّ أجلسته داخلها، فأخذ يُنظف مسرورا. وضجّت الخالة أليزابث. ”لا يتطلّب الأمر كثيرا لجعل ذاك الصّبي الصّغير فرحا“. وانحنت فوقه. ”انته لئلا تُنظف عاليًا جدّا، يا عُفيريّت! يُمكن أن تصدم رأسك فعلا“.

”عُفيريّت؟“ لم تستطع غريس أن تُصدّق أنّ خالتها قد أطلقت على ابنها لقب تحبب.

”دوغلاس لقبه بذلك“.

”دوغلاس؟“ لم تتذكّر غريس أيّ شخصٍ بذاك الاسم.

”بقالٍ مُتقاعد. أرملة“. لوحت الخالة أليزابث بيدها في مَرَح. ”اشترى البيت المُجاور“. وحطّت فنجاني شاي على طاولة المطبخ. ”إنّه يُصلح المكان. روبي هَندرسن تخلّت عن البيت بعد وفاة زوجها. انتقلت إلى مسكنٍ مدعوم، وعرضت المنزل للبيع السنة الماضية“.

نظرت غريس إلى خالتها من فوق حافة فنجان

شايها، كابتةً ابِتِسامة. ”هل دوغلاس ظريف؟“

أولتها الخالة أليزابث حَمَلقة انزعاج. ”كُنَّا نتحدّث بشأن الرّجال في حياتك. ليس لديّ أيّ رجلٍ في حياتي“. نظرتُ بِتركيزٍ إلى صمويل ثمّ نظرتُ إلى غريس من جديد. ”هل تعقبتِ والدَه مرّةً؟“

أحسّت غريس الحرارة مُتدفّقةً إلى داخلِ خديها. ”لا“. ما كانت هي وخالتها قد وطئتا هذه الأرض من قبل، ولم تُردِ غريس لها أن تُحرث. ولا أرادت أن تعترفَ بأنّها لم تُحاول ذلك قطّ.

”لستُ مؤنّبةٌ لك، غريس، ولكن هل فكّرتِ في الأمر يوماً؟“

”نعم، وقرّرتُ أنّها كانت فكرةٌ مُرّوعة“. وحدّقت داخلَ فنجانِ شايها، غيرَ مُريّدةٍ أن ترى ما قد تكونُ خالتها مُفكّرةً فيه. ”قلّما تحدّثنا“. لم تتذكّر أيّ شيءٍ عنه.

”لماذا ذهبتِ إلى ذلك النّادي في المقامِ الأوّل؟ لقد كان ذلك أمراً...“ وهزّت رأسها ”غير لائق“.

تنهّدت غريس. ”كنتُ مُكتئبةً ومُوحشة. شائيس تحبُّ الرّقص. كان طفلُ پاتريك وقرجينيا سيُولدُ ذلك الأسبوع. لستُ أدري لماذا ذهبتُ“. كانت تعملُ كلَّ يوم، وتأوي إلى شقّة فارغة ليلاً، وتدرّس موادّ على الإنترنت، مُشتغلةً دائماً حتّى لا تُفكّر في حياتها الفارغة. وقد تساءلت هل تُغرّم يوماً بِرجلٍ سيُحبّها

بالمثل. قالت شانيس: ”هيا، صديقتي، امرحي قليلاً على سبيل التغيير“. لم لا؟ يبدو أن كل فتاة أخرى تقوم بذلك.

كان النادي مُزدهجماً، وإيقاع الموسيقى المثيرُ عاليًا، والناس يرقصون كالعابدين الوثنيين. صدمت أول الأمر، ولكنها أرادت أن تجاري الآخرين. ومن ثم تظاهرت بأنها ودود كأي شخص آخر. قبل تلك الليلة، ما شربت مرّةً أكثر من كأس شامپانيا واحدة، وقد كان ذلك احتفالاً بتخرّج پاتريك، ولكن شانيس طلبت لها كأس سلو جن فوار. كانت الكأس طيبة المذاق، وقد نزلت إلى بطنها بسهولة. إلا أنها أيضًا صعدت إلى رأسها.

كانت كأس واحدة أكثر من كافية لإبقائها مُنتشبةً تلك الأمسية، ولكنها دفعت ثمن أخرى. ثم رقصت وحدها، متحرّكةً على وقع الموسيقى، وما لبثت أن وجدت نفسها بين ذراعي رجل. حتى إنها لم ترفع نظرها إليه. كان مُمتعًا أن ترقص مع شخص يعرف كيف يقود، ومثيرًا أن تُحس تدفق الحرارة وخفقان قلبها السريع. وما كانت قط قد شعرت بأي شيءٍ مثل ذلك مع پاتريك.

لما سألتها الرّجل هل تريد أن تُغادر، علمت ما أراد. فأخمدت كل إدراكٍ للصواب والخطأ، وقالت نعم. وقلما تكلمتا في أثناء السّوقة إلى شقّته. سألتها لماذا

جاءت إلى النادي. قالت إنها أرادت أن تستمتع. سألها هل تعرف القواعد، فهزت كتفها لمبالاة وأكدت أنها تعرفها، أفلا يعرفها الجميع؟ ليلة واحدة بلا قيود. ولم تكن قد فكرت في الباقي.

مسّت الخالة أليزابث يد غريس. ”رجاءً، لا تبكي. ما كان ينبغي لي أن أتطرق إلى هذا الموضوع“.

مسحت غريس الدموع عن خديها. وجلستا في سُكوتٍ مُفعمٍ بالألفة، وصمويل يُنطنط بفرح على بُعد خطواتٍ قليلة، ومن دواعي الشكر أنه كان غافلاً عن بلايا البالغين ومصائبهم.

”ماذا عن الجامعة، غريس؟ هل تنوين أن ترجعي إليها؟“

”ما برحت أفكر في الأمر“.

”كنت قد وضعت عينك على علم النفس السريري، صحيح؟“

لكي تعرف نفسها جيّداً؟ ”سأحتاج إلى درجة ماجستير لأفعل أيّ شيءٍ بها، وإلى فترة تدريب في مكان ما. ومن شأن ذلك كله أن يستغرق مدّةً مُفرطةً الطول. ما زالت المادّة تُفتّني، ولكنني لا أظنُّ أنني أستطيع أن أبقى مُنفصلةً عن المرضى. أنا مُبالغةٌ في تأدية دور المُساعِدة“.

”يسرُّني أنك تُدركين ذلك. فالأمرُ يعني أنك تستطيعين تغيير النموذج. إذا؟ أيّ أشياء أُخرى

تحظى باهتمامك؟“

الفن، الموسيقا، دراسات الكتاب المقدس، علم الإنسان، علم الاجتماع، علم الأحياء، ولكنها علمت أين تكمن مهاراتها. ”سأخرج في إدارة الأعمال والتسويق والمحاسبة“.

”كلها عملية جدًا“. بدت الخالة أليزابث مسرورة. ”وتبدو أيضًا تشكيلة مناسبة تمامًا. فأنت أصلاً في ميدان الأعمال. ويمكنك أن ترجعي إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجليس. لقد أكملت ذلك الفصل الجامعي الأخير، واسمك على لائحة العميد للطلبة المتفوقين، أليس كذلك؟ حتى إنك قد تتأهلين لمنحة دراسية أخرى“.

”ممكن، ولكنني لا أريد لضمويل أن ينشأ في لوس أنجليس. ما برحت أجري بعض البحث على الإنترنت. في ميرسيد حرم جامعة كاليفورنيا. وسكان المدينة ثمانون ألفاً فقط، كما أن بدلات الإيجار أدنى حتماً مما كنت أدفعه. في وسعي أن أستأجر شقة فيها غرفة نوم واحدة“. إنما أول أمر ينبغي لها أن تقوم به هو أن تجد كنيسة جيدة. ”هناك شيء آخر حسن بشأن ميرسيد“. وابتسمت لخالتها ابتسامة أمل.

حطت الخالة أليزابث فنجان شايها على الصحيفة من جديد، ولكنها لم ترفع رأسها. ”وما ذلك؟“

”إنها تبعد عن فرَسنو ساعةً واحدةً فقط“.

”أوه!“ اغرورقت عينا خالتها، وارتعشت بسمتها.
”مسافة كافية لتعيشي حياةً كاملةً خاصّةً بكِ،
وأيضًا على قُرْبِ كافٍ لِتكوني جزءًا من حياتي“.
”هذه أفكارٍ تمامًا“.

مكثت غريس يومين آخرين قبلما توجّهت شمالًا.



ليلة السبت، أجرت غريس حجزًا ليوم الأحد
بالإنترنت في فندقٍ ميسرٍ الأسعار بمدينة ميرسيد،
وضربت مواعيدَ يومِ الاثنين لرؤية الشَّقِيقِ المُتوافرة
في نطاقِ قُدرتها على الدَّفْع. ثمَّ حضرت هي والخالة
أليزابث خدمةً الأَحدِ الباكرة. وكانت ميرندا قد
عزّجت على المنزل زائرةً مرّتين، وصرّخت بأنّها
مُغرّمة بِصمويل. فلاقتهما عند بابِ قاعةِ العبادة
وأخذته عن ذراعِي غريس. ”سيكونُ معي في
الحضّانة. بتلك الطّريقة تستطيعان أن تستريحا
وتستمتعا بالعبادة“.

”على رسلك الآن“. بدت الخالة أليزابث مُنزعجةً
لانتزاعِ عُقيريتِ منهما.

اكتفت ميرندا بأن ضحكت. ”سأعيده، بث. هي
ساعةً واحدةً فقط. بصراحة، يُمكنك أن تتعلّمي
المُشاركة“. ثمَّ مضت به.

لم تكن غريس قد دخلت هذه الكنيسة منذ أن تركها باتريك. فكانت مُحرجةً في مُواجهة هؤلاء الأصدقاء بعد انهيار زواجها. فيم سيفكرون بشأنها؟
”لا داعي لأن تقلقي، غريس“. رَمَقَتها الخالَّة أليزابث بنظرة تفهم. ”الفرق الوحيد بين معظم الناس داخل هذه الجدران والعالم الخارجي هو كوننا نعرف أننا خُطاة. ارفعي رأسك، يا فتاتي!“

فتاتي. حرقتها دموعُ شكرٍ سريعة. لم تكن خالِثها قط قد نادتها بذلك من قبل. فخالِجها شعورٌ بأنه إذا أهانها أحد، أو سأل سؤالاً فضولياً، أو أدلى بتعليقٍ قاسٍ، فذلك الشخص سيكونُ عرضةً لِسُخرية أليزابث وُكر الجارحة.

رحبَ بها القسيس أندرو بِمصافحةٍ حارة. ”أخبرتني ميرندا بأنك ستنتقلين شمالاً إلى ميرسد“. ونصَحها بكنيسة مؤمنين مُستقلة. ”صديقٌ قديم لي تقاعد حديثاً، وحوّل المنبر إلى أداة فعّالة لهداية أبناء جيله في مُستهل الألفية الثالثة. جرّبي تلك الكنيسة“. وقد كتَب جميعَ المعلومات الضرورية على قفا بطاقته التعريفية. ”ولنبق على تواصل“. ثم قبلَ جبينها قبلةً أبوية.

كانت أوجهٌ جديدةٌ بين الوجوه المألوفة. ”جماعة المؤمنين تنمو“.

حدّثتها خالِثها قائلةً: ”أصلُ البلاء في واحدة من

الكنائس الكبرى. لقد نظّف القسيس الجديد البيت على مدى السنتين الأخيرتين. وأي شخص اعترض على سلطته ورسالته دُفع إلى خارج الباب. فجاءوا واستقروا ههنا. ذهبت مرة لأسمع الرجل يعظ. متكلّم دينامي، قائد للناس، ولكن الرب يسوع كان قد غادر المبنى. السيّدة هُناك، شارلوت، باشرت لقاء نساءيا لدرس الكتاب المقدّس مساء كل أربعاء. وذلك السيّد هُناك، مايكل، يُعلّم الآن صفين في مدرسة الأحد. أتذكّر كيف اضطرّوا إلى تدريبك لتعلمي في مدرسة الأحد لما كنت مُراهقة؟ حسنا، لدينا الآن بضعة مُعلّمين مُتمرسين يتهجون ببرنامج مدرسة الأحد الذي وضعته ميرندا. فما افتقرت إليه تلك الجماعة، غرسه الله هُنا. لقد أعطانا الأشخاص الذين احتجنا إليهم“.

أحسّت أنّ هذه الكنيسة كانت بيتًا إلى حدّ بعيد، شأنها شأن تلك الكنيسة الكارزِماتيّة التي حضرتها في لوس أنجليس. فعلّمت أنّ الله سيوفّر لها بيت كنيسة في ميرسيد. كانت قد حملت السيارة أصلا، ناوية أن تُغادر باكرا، حتّى طلبت إليها الخالة أليزابث أن تُرافقها إلى الكنيسة. ولم تكن غريس على يقين بأنّها ستلقى ترحيبًا بعد ذلك الغياب الطويل ومُنذ طلاقها. فكان ينبغي لها أن تعرف أفضل. ولكن ما إن احتلت مقعدًا في القاعة، حتّى أحسّت كأنّها في بيتها.

”شُكْرًا لِكَ لِأَنَّكَ جَعَلْتَنِي أَذْهَبُ“. هَكَذَا قَالَتْ
غَرِيسُ فِي أَثْنَاءِ السُّوقَةِ رَجوعًا إِلَى الْبَيْتِ.

التفتت الخالة أليزابث ناظرةً إليها. ”كُلَّمَا طَالَ
بِقَاؤُكَ بَعِيدَةً، زَادَتِ الْأَعْدَارُ لِإِبْقَائِكَ مُبْتَعِدَةً. قَدْ يَوْجَدُ
أَشْخَاصٌ أَقْلَاءُ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ أَقْدَسُ مِنْكَ، وَلَكِنَّ الْبَاقِينَ
يُحِبُّونَكَ، وَقَدْ تَرَقَّبُوا فُرْصَةً لِإِعْلَامِكَ بِذَلِكَ“.

لَمَّا حَادَتْ غَرِيسُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ بَعْدَ الْمُنْعَظِ
التَّالِيِ وَتَوَقَّفَتْ، فَتَحَتْ خَالَثَهَا الْبَابُ. ”رَافَقْتِكَ
السَّلَامَةَ“.

تَكَلَّمَتْ غَرِيسُ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّكَنَّ خَالَثَهَا مِنْ
الْفِرَارِ. ”أُحِبُّكَ كَثِيرًا جَدًّا. شُكْرًا لِكَ عَلَى الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ
الْأَخِيرَةِ“.

ارْتَحَتْ كَيْفَا خَالَثَهَا قَلِيلًا، وَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى غَرِيسِ.
”اتَّصَلِي بِي عِنْدَمَا تَسْتَقَرِّينَ فِي بَيْتِكَ الْجَدِيدِ“. ثُمَّ
تَرَجَّلَتْ مِنَ السَّيَّارَةِ دُونَ كَلِمَةٍ أَوْ نَظْرَةٍ إِلَى صَمُوِيلِ.
انْحَنَّتْ غَرِيسُ وَرَاقَبَتْ خَالَثَهَا تَمْشِي فِي الْمَمَرِ،
وَتَفْتَحُ الْبَابَ الْأَمَامِيَّ، وَتُغْلِقُهُ وَرَاءَهَا. فَتَسَاءَلَتْ هَلْ
تَفْهَمُ أَلِيْزَابْثُ وَكُرَّ يَوْمًا مَا؟

كَانَتْ سَوَاقَةُ سَهْلَةً مُدَّةَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى مِيرْسِدِ.
كَانَ الْفُنْدُقُ أَقْلَ إِعْجَابًا بِكَثِيرٍ مِنْ ذَاكَ الَّذِي حَجَزَهُ
رُومَانٌ فِي أَثْنَاءِ الرِّحْلَةِ الَّتِي قَامَا بِهَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ
نَظِيفًا وَقَرِيبًا إِلَى الطَّرِيقِ الْحُرِّ، وَقَدَّمَ فَطُورًا مَجَانِيًّا.
أَخَذَتْ غَرِيسُ صَمُوِيلَ فِي جَوْلَةٍ طَوِيلَةٍ حَوْلَ

المدينة، مُبَدَّدةً الْوَقُودَ لَكِنْ مُتَعَرِّفَةً بِالشَّوَارِعِ
وَالْمُنْتَزَهَاتِ وَحَرَمِ جَامِعَةِ كَالِيفُورْنِيَا. ثُمَّ أَكَلَتْ فِي
مَطْعَمٍ صَغِيرٍ، وَصَمُوِيلَ بِقُرْبِهَا فِي كُرْسِيِّهِ الْخَاصِّ
بِالسِّيَّارَةِ.

عِنْدَمَا رَجَعَتْ إِلَى الْفُنْدُقِ، وَضَعَتْ صَمُوِيلَ فِي
الْحَظِيرَةِ النَّقَالَةِ فِيمَا اشْتَغَلَتْ هِيَ عِنْدَ كُمْبِيُوتَرِهَا.
وَلَا حَقًّا، دَسَّتْهُ فِي السَّرِيرِ مَعَهَا. وَإِذْ وَاجَهَتْ تَغْيِيرَاتٍ
كَثِيرَةً جَدًّا فِي حَيَاتِهَا، لَاقَتْ اضْطِرَابًا فِي النَّوْمِ. مَاذَا
كَانَ رُومَانٌ فَاعِلًا الْآنَ الْآنَ؟ يَشْتَغَلُ دَاخِلَ مَرَسَمِهِ فِي
الدَّوْرِ الْعُلُويِّ؟ قَدْ خَرَجَ إِلَى نَادٍ؟ رُبَّمَا كَانَ قَدْ وَظَّفَ
بَدِيلَةً لَهَا قَبْلَ أُسَابِيعٍ. نَظَرَتْ إِلَى السَّاعَةِ الرَّقْمِيَّةِ. إِنَّهَا
الثَّانِيَةُ بَعْدَ نِصْفِ اللَّيْلِ.

اسْتَيْقَظَ صَمُوِيلَ عِنْدَ الْفَجْرِ وَأَرَادَ أَنْ يَلْعَبَ. جَرَّتْ
غَرِيسٌ نَفْسَهَا خَارِجَ السَّرِيرِ وَاسْتَعَدَّتْ لِلنَّهَارِ الْحَافِلِ
بِالْعَمَلِ قُدَّامَهَا.

كَانَ مِنْ شَأْنِ الشَّقَةِ الْأُولَى أَنْ تَفِي بِالغَرَضِ تَمَامًا،
وَلَكِنَّ الْمُدِيرَ قَالَ إِنَّ صَاحِبَ الْمَلِكِ لَا يُرْجَّحُ أَنْ
يُوجَّزَهَا لِأُمِّ مُنْفَرِدَةٍ غَيْرِ مُوْظَّفَةٍ. وَسَأَلَهَا هَلْ هِيَ
مُؤَهَّلَةٌ لِلِاسْتِيفَادَةِ مِنَ الْإِنْعَاشِ الْاجْتِمَاعِيِّ. فَقَالَتْ لَهُ
إِنَّهَا تَقُومُ بِعَمَلِهَا الْخَاصِّ عَلَى الْإِنْتَرْنِتِ. ثُمَّ تَلَّتْ
أَسْئَلَةً، فَأَجَابَتْ بِصِدْقٍ. ”مَشْرُوعٌ جَدِيدٌ، كَمَا تَعْنِينَ،
وَجَمِيعُنَا نَعْرِفُ كَمْ قَلِيلٌ مَا يَدُومُ مِنْ مَشَارِيعَ كَهَذَا.“
هَزَّ الْمُدِيرُ رَأْسَهُ. ”حَظًّا سَعِيدًا، مِزْ مُور. سَتَكُونِينَ فِي

غِنَى عَنِ الشَّقَّةِ“.

عَرَّجَت غَرِيْسَ عَلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِي نَصَحَهَا بِهَا الْقَسِيْسُ أَنْدَرُو، وَتَحَدَّثَتْ مَعَ السُّكْرَتِيْرَةِ، مَارِشَا بِيْعَلُو. كَانَتْ وَدُوْدًا وَمُشْجَعَةً. ”لَدِيْنَا صَفٌّ صَبَاحَ الْأَرْبَعَاءِ لِدَرْسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، مَعَ حِضَانَةِ أَطْفَالِ. الْأَغْلَبِيَّةِ سَيِّدَاتٍ أَكْبَرَ سِنًا، وَلَكِنَّا يَقِيْنَا نَوْدُ أَنْ تَنْضَمَّ إِلَيْنَا سَيِّدَةٌ أَصْغَرُ سِنًا“. شَكَرْتَهَا غَرِيْسَ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ، شَاكَّةً فِي أَنْ يَتَوَافَرَ لَدِيْهَا وَقْتُ لِيَصِفَ صَبَاحِيَّ أُسْبُوعِيَّ.

كَانَ النَّهَارُ النَّالِي طَوِيْلًا وَبِلَا نَتِيْجَةٍ. ذَلِكَ أَنْ شَقَّتِيْنِ كَانْتَا قَدْ أَجْرَتَا تَوًّا قَبْلَ وَصُولِهَا مِنْ أَجْلِ مَوْعِدِيْهَا، وَمُديْرَ الْمُجْمَعِ السُّكْنِيِّ الثَّلَاثِ تَفَحَّصَهَا بِنَظَرِهِ وَسَأَلَهَا إِنْ كَانَ لَدِيْهَا شَخْصٌ آخَرُ ذُو شَأْنٍ. فَتَجَنَّبَتْ الْإِجَابَةَ، وَلَكِنَّهَا شَعَرَتْ بِالْأَنْزِعَاجِ لَمَّا أَرَاهَا الشَّقَّةَ. ”سَتَكُونِيْنَ فِي آخِرِ الرَّوَاقِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنِّي. إِذَا بَرَزْتَ أَيَّةَ مُشْكِلَةٍ، أَكُونُ عِنْدَ بَابِكَ فِي غُضُونِ نَبْضَةِ قَلْبٍ“. فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ أَنْصَرَفَتْ.

صَبَاحَ الْأَرْبَعَاءِ، تَصَفَّحَتْ غَرِيْسَ الْمَوْقِعَ الْإِلِكْتْرُونِيَّ www.MercedSun-Star.com وَدَوَّنتِ الْإِحْتِمَالَاتِ عَلَى عَجَلٍ. أَجْرَتِ اتِّصَالًا وَاحِدًا بَعْدَ، وَصَبَّ الْمُديْرُ جَامَ غَضْبِهِ عَلَى فِتْيَانِ الْجَامِعَةِ وَالْحَفَلَاتِ. نَعَمْ، كَانَتْ لَدِيْهِ شَقَّةٌ مُتَاحَةٌ، وَلَكِنَّهُ سَبَقَ أَنْ تَلَقَّى فَعَلًا بَضْعَ مَكَالِمَاتٍ قَبْلَ مُكَالَمَتِهَا، وَعَلِيْهَا أَنْ تَنْتَظِرَ دَوْرَهَا. وَقَدْ

كانت السَّاعَةُ الرَّابِعَةُ مَفْتُوحَةً. ”أَمَلِي الطَّلَبَ عَلَى
الْإِنْتَرْنَتِ“.

قَاعِدَةٌ عَلَى سَجَّادَةِ عُرْفَةِ الْفُنْدُقِ، صَلَّتْ غَرِيْسٌ
وَهِيَ ثَلَاعِبٌ ابْنَهَا. شَعَرَتْ بِدَافِعٍ لِحُضُورِ دَرَسِ الْكِتَابِ
الْمُقَدَّسِ صَبَاحًا وَنَظَرَتْ إِلَى السَّاعَةِ. سَتَّصِلُ مُتَأَخِّرَةً،
وَلَكِنْ خَيْرٌ لَهَا أَنْ تَنْسَلَّ دَاخِلَةً بِهَدْوٍ مِنْ أَنْ تَجْلِسَ
هُنَا وَتَسْتَسَلِمَ لِلْهَوَاجِسِ بِشَأْنِ أُمُورٍ لَمْ تَكُنْ لَهَا
سَيِّطْرَةٌ عَلَيْهَا.

كَانَتْ اثْنَتَا عَشْرَةَ امْرَأَةً جَالِسَاتٍ فِي حَلْقَةٍ عَلَى
كِرَاسِيٍّ تُطَوِّي. ابْتَسَمَتِ الْمُرْشِدَةُ لَمَّا دَخَلَتْ غَرِيْسٌ
عَبْرَ الْبَابِ. ”مَرْحَبًا! أَنْتِ غَرِيْسٌ مُورٌ؟ قَالَتْ مَارِشَا
إِنَّكَ قَدْ تُعَرِّجِينَ. أَهَلًا وَسَهَلًا“. التَفَتَتْ بِضِعْ نِسَاءٍ فِي
أَنْ مَعًا، وَوَقَفَتْ وَاحِدَةً، مُتَوَرِّدَةً فِعْلًا مِنَ الشَّرُورِ.
”طِفْلٌ!“ ضَحِكَتْ الْأَخْرِيَّاتُ فِيمَا اقْتَادَتِ السَّيِّدَةُ
الدَّاكِنَةَ الشَّعْرِ غَرِيْسَ إِلَى عُرْفَةِ صَفِّ مَا قَبْلَ الْمَدْرَسَةِ
نَظِيفَةٍ جَيِّدَةٍ التَّجْهِيْزِ. ”أَنَا لُوسِي يُونِغٌ، وَأَنْتِ...؟“
فَعَرَفَتْ غَرِيْسَ بِصَمُوَيْلٍ، وَهُوَ لَمْ يَكُدْ يَنْظُرُ إِلَى
لُوسِي بَلْ تَلَوَّى لِیُحِطَّ بَيْنَ الْكُتْلِ الْمُلَوَّنَةِ الَّتِي يُسَاوِي
حَجْمُ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا حَجْمَ غُلْبَةِ الْجِذَاءِ. طَمَأَنْتِ لُوسِي
غَرِيْسَ. ”سَيَكُونُ بِخَيْرٍ. رَبَّيْتُ أَرْبَعَةَ أَطْفَالٍ لِي،
وَعِنْدِي عَشْرَةٌ حُقْدَاءَ“.

انضَمَّتْ غَرِيْسٌ إِلَى السَّيِّدَاتِ الْأُخْرَى. عَرَفَتْ
الْمُرْشِدَةَ أَنَا جَانِسِينَ بِنَفْسِهَا، وَطَلَبَتْ إِلَى السَّيِّدَاتِ أَنْ

تَحذَوْ كُلَّ مِنْهُنَّ حَذْوَهَا. ”لقد بدأنا تَوًّا، غريس. رسالةُ أَفْسُس، الأصْحاحُ الخامس. أَتَوَدِّينَ أَنْ تَتَقَدِّمِينَا بِقِرَاءَةِ أَوَّلِ آيَتَيْنِ؟“

لَمْ يَسْتَعْرِقِ الأَمْرُ وَقْتًا طَوِيلًا لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ النِّسَاءَ الأَكْبَرَ سَنَّا يَعْرِفْنَ عَن كَلِمَةِ اللّهِ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِّمَّا عَرَفَتْ غَرِيس، وَمَا بَرِحْنَ يَضَعْنَ ذَلِكَ فِي حَيْزِ المُمَارَسَةِ عُقُودًا مِنَ الزَّمَنِ. كَانَتِ المُنَاقِشَةُ حَيَوِيَّةً، أَحْيَانًا جِدِّيَّةً وَأَحْيَانًا أُخْرَى مُقْتَرِنَةً بِالضَّحِكِ. وَقَدْ ذَكَرْتُ أَنَا غَرِيسَ بِمِيرِنْدَا سِپِنْسِر. لَمْ يَهَمَّ العُمُرُ، إِذْ شَعَرْتُ غَرِيسَ بِحُرِّيَّةٍ مَعَ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ كَمَا لَوْ كَانَتْ فِي بَيْتِهَا. وَلَمَّا حَانَ الوَقْتُ لِلاخْتِتامِ بِالصَّلَاةِ، سَأَلْتُ أَنَا هَلْ تَوَجَّدُ آيَةٌ طَلِبَاتٍ مُّحَدَّدَةٍ. فَقَالَتْ غَرِيسُ إِنَّهَا تُفْتِّشُ عَن شَقَّةٍ مُّبِيسَّرَةٍ.

”مَا قَوْلُكَ فِي بَيْتٍ؟ عِنْدَنَا كُوخٌ بِعُرفَتِي نَوْمٌ لِلإِيجَارِ. كَانَتِ ابْنَتُنَا سَاكِنَةً فِيهِ قَبْلَمَا تَطَوَّعَتْ فِي سِلَاحِ الجَوِّ. وَقَدْ كُنَّا، جُورْجُ وَأَنَا، نَتَبَاحَثُ أَنُوجِّزُهُ أَمْ نَبِيعُهُ.“ قَالَتْ لَهَا غَرِيسُ كَمْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْفَعِ. ”يَبْدُو ذَلِكَ حَسَنًا عِنْدِي، لَكِنِّي سَأُرَاجِعُ جُورْجَ.“ ثُمَّ ذَهَبَتْ غَرِيسُ لِاسْتِرْجَاعِ صَمُويِلِ مِنَ لُوسِي يُونِغِ، وَقَدْ بَدَتْ هَذِهِ مَفْتُونَةً بِصَمُويِلِ كَمَا فَتِنَتْ الخَالَةُ الأِيْزَابِثُ.

”إِنَّهُ فَاتِنٌ. أَرْجُو أَنْ تَكُونِي آتِيَّةً أَيْضًا يَوْمَ الأَحَدِ. أَنَا مَسْؤُولَةٌ عَنِ الحِضَانَةِ.“

حَدَّقَتْ دُورُوثِي إِلَى الدَّاخلِ. ”يَقُولُ جُورْجُ نَعَمْ.

أتودين أن تُلقي نظرةً الآنَ تمامًا؟ لديّ وقت، إن كان لَدَيْكَ“.

تراصفت على طولِ الشَّارعِ أكواخٍ تعودُ إلى ما بعدَ الحربِ العالميَّةِ الثَّانيةِ، تبدو كلُّها مُتشابهةً إلَّا في الأُفنيَّةِ الأماميَّةِ، إذ كان عُشبٌ بَعْضُها مُفْرِطَ النُّموِّ، وعُشبٌ بَعْضُها أُنيقًا وبسيطًا. ولاقتها دوروثي على رصيف المُشاة. ”حصَلْ انقِلابٌ فِعليٌّ في هذا الحَيِّ على مدى السَّنينِ الخَميسِ الأخيرِة. فالمالِكونَ الكِبارُ سِنًا يموتون، أو يبيعون الجِيلَ الأصغر. يوجدُ تنوعٌ كثيرٌ هُنا“.

كانت تلكَ مساكنَ مُيسِّرةً في عالمٍ أبعدَ ما يكونُ عن التَّيسيرِ.

استقرَّ كوخُ آلِ غِرلينغِ على قطعةِ أرضٍ عندَ الزَّاويةِ. كان المسطَّحُ الأخضرُ قد جُزَّ حديثًا، وأحاطت بِالوَّاجهةِ الأماميَّةِ شُجيراتٌ مُشدَّبةٌ بأناقة. وقالت دوروثي إنَّهم قد استأجروا خِدمةَ بَسْتَنَةٍ للاعتناءَ بالمكان، فلنَ تُضطرَّ غريسُ إلى القلقِ بشأنِ شُغلِ الفناء. فتحت دوروثي قُفلَ البابِ الأماميِّ. ولجَّقتَ بها غريسُ إلى داخلِ حُجرةِ جُلوسِ مفروشةِ مُريحة. وقد كانت غُرُفتا النَّومِ كلتاهُما مفروشتينِ أيضًا. ”غَيَّرنا تصميمَ الحَمَّامِ السَّنَةِ الماضيَّة“، مغلِّسةً وخزائنُ ودُشٍّ ومغَطَّشٌ جديداً. وكانَ المَطْبِخُ مُريحًا وعمليًا، فيه طاوِلَةٌ صغيرةٌ تحتَ النَّوافِذِ

الْخَلْفِيَّةُ الْمُطَلَّةُ عَلَى فِنَاءِ خَلْفِيٍّ كَبِيرٍ.

”سَتَكُونِينَ مَعَ صَمُوِيلَ فِي أَمَانٍ تَامٍ هَهُنَا. إِنَّمَا أَبْقِي الْأَبْوَابَ وَالنَّوَابِذَ مُقْفَلَةً، وَتَعَرَّفِي إِلَى جِيرَانِكَ“.

كَانَتْ غَرِيْسٌ أَسَلًا قَدْ لَاحَظَتْ عِنْدَ الزَّائِيَةِ الْآخَرَى لَافِتَةً تَحْذِيرِيًّا تُوَكِّدُ حِرَاسَةَ الْجِيرَانِ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ. وَقَدْ عَلَّمَتْهَا السُّنُونُ الَّتِي قَضَّتْهَا فِي لُوسِ أَنْجَلِيْسِ أَنْ تَكُونَ حَذِرَةً.

”كَانَ هَذَا هُوَ الْمَرَابُ“. عَبَّرَتْ دُورُوثِي بِأَبَا جَانِبِيًّا مِنَ الْمَطْبَخِ وَنَزَلَتْ دَرَجَتَيْنِ. مِنْ شَأْنِ الْغُرْفَةِ الصَّغِيرَةِ الْفَارِغَةِ أَنْ تَكُونَ مَكْتَبًا جَيِّدًا. وَقَدْ انْفَتَحَ بَابٌ آخَرٌ إِلَى مَرَابٍ سَيَّارَةٍ وَاحِدَةٍ يَسْتَوْعِبُ بِسُهُولَةٍ سَيَّارَتَهَا السِّيَقِيكُ.

”لَيْسَ مِنْ تَكْيِيفِ لِلْهَوَاءِ، مَعَ الْأَسْفِ. إِنَّ تَرْكِيْبَهُ سَيُكَلِّفُ فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْبُيُوتَ بُنِيَتْ بِحَيْثُ يُتَّخَذُ لِلنَّاسِ أَنْ يَفْتَحُوا نَوَابِذَهُمْ صَبَاحًا وَمَسَاءً لِإِدْخَالِ الْهَوَاءِ الْبَارِدِ الْمُنْعَشِ. وَهُنَالِكَ فِنَاءٌ مَرْصُوفٌ وَمَسْقُوفٌ جَمِيلٌ“. ثُمَّ فَتَحَتْ دُورُوثِي الْبَابَ الْفَرَنْسِيَّ الْمُوَدِّيَّ إِلَى الْخَارِجِ. ”إِنَّهُ مُمْتَعٌ فِي الرَّبِيعِ وَالْخَرِيفِ. كَانَتْ أَلِيْشَا تَهْوَى الْجُلُوسَ وَالْمُطَالَعَةَ فِي تِلْكَ الْأَرْجُوْحَةِ“.

حَبَسَتْ غَرِيْسٌ أَنْفَاسَهَا حِيَالَ الْفِنَاءِ الْخَلْفِيِّ الْمُسَوَّرِ وَالْمُسَيِّجِ بِالشُّجَيْرَاتِ. فِي لُوسِ أَنْجَلِيْسِ، كَانَ مِنْ شَأْنِ الْبَنَّاِيْنَ أَنْ يَبْنُوا كُوْحًا آخَرَ. وَقَدْ غَطَّى

مسطح أخضر ثلثي الفناء الخلفي الأماميين. وكان في المؤخر صناديق خضِر فارغة وسقيفة حديقة صغيرة. وقد انفتح السياج ذو الأوتاد البيضاء، على طول الناحية الخلفية، إلى طريق ذي مجازٍ واحد.

أشارت دوروثي بيدها قائلة: "تلك شجرة دراق رحيقاني هناك، ما زلت أعلبُ منها. سأعرجُ عندما ينضج الثمر. ولك أن تستبقي بقدر ما تريد، بلا شك".

"المكان جميلٌ جدًا، دوروثي. أنتِ على يقين بأنك تريدان أن تؤجّريه بهذا البدل الضئيل؟"

"أنا مسرورةٌ بذلك، غريس. البيتُ الشاغرُ قد يكونُ مشكلةً للجوار. وهناك عائلاتٌ شابةٌ تنتقلُ إلى هذا الحيّ الآن. أنا متيقنةٌ بأنك عندما تخرجين صمويل في عربة الأطفال، ستلتقين أمهاتٍ آخر في مثل سنك". ونظرت حوالبها. "ثم إنني لستُ مُستعدةٌ لبيع هذا العقار. فقد تُغيّر أليشا رأيها في غضون سنواتٍ قليلة وتقرّر أن ترجعَ إلى ميرسيد. يقول جورج إنني أحلم ولكنني أخمنُ أنني لستُ مُستعدةٌ للتخلي عن المكان حتى الآن".

"هل تريدان مني أن أوقعَ على سندٍ إيجار؟"

"أفترضُ أنّ المُستأجرين يفعلون أمرًا من ذلك النوع في هذه الأيام، ولكنني أعتقدُ أنني أستطيعُ أن أثق بك. كم من الشابات اللواتي لهنّ أطفالٌ يظهرنَ

في اجتماعٍ لدرس الكتاب المقدس بعدَ يومينٍ من انتقالهنَّ إلى مدينةٍ جديدة؟ حرّري لي شيكًا بنصفِ بدلِ الإيجارِ الشَّهريِّ الآن، لأنَّه قد مرَّ أسبوعانٍ من شهرِ آبٍ فعلاً. ومن ثمَّ يكونُ بدلُ الإيجارِ الشَّهريِّ مُستحقًّا في أوَّلِ كلِّ شهر. ما قولك في ذلك؟“

”استجابةٌ للصلاة“. حطَّت غريس صمويل أرضاً وتركته يستكشف حُجرةَ الجلوس، فيما أخذت دفترَ شيكاتها من حقيبتِها الكَتِفيَّة.

ضحكت دوروثي في خفوت. ”مرَّ زمانٌ طويلٌ منذُ أن أمضيتُ وقتًا مع طفل. أليشا هي ابنتنا الوحيدة. كانت مخطوبةً السَّنةَ الماضية، ولكنَّهما فسَّخا الخِطبة. ما برحت أليشا ذاتَ عقلٍ خاصٍّ بها، وشُبَّانٌ كثيرون يصدُّهم ذلك“. ثمَّ أخرجت دفترَ ملاحظاتٍ وأخذت تكتب.

”شكرًا جزيلاً، دوروثي“. أيُّها الأبُّ السَّماويُّ، سامحني بإضماري أيِّ شكوكٍ بشأنِ تدبيرك! ”الرَّبُّ صالح“.

نظرت دوروثي إليها بابتسامةٍ عريضة. ”كلَّ حين“. ودست شيكَ غريس داخلَ جِردانِها بلامبالاة، ثمَّ مزقت الورقةَ من الدَّفتر وناولتها إيَّها. ”عنواننا ورقمُ تلفوننا، في حال طرأت أيَّةُ مُشكلةٍ بشأنِ السَّمكرة، أو موقِد الطَّبِخ، أو السَّناجب في الحديقة الخلفيَّة. مهما كانت. ما عليكِ إلا أن تتصلي بنا،

وسيحضّر جورج بسرعة البرق. إنّه يهوى إصلاح الأشياء.

”إذا كنتِ موافقة، أودُّ أن أمكثَ مُدَّةً قصيرةً“.

’بالتأكيد‘. ناولتها دوروثي المفتاح. ”البيت لك الآن“.

شيّعتها غريس حتى الباب الخارجي، شاكرةً إيّاها من جديد، قبلما أغلقته. وغطت وجهها، متأثرةً فوق الحدِّ بما جرى توًّا. ”شكرًا لك، أيُّها الرّبُّ يسوع. شكرًا لك، شكرًا لك!“ ثمّ شالت صمويل وقبّلت خديّه المكتنزين. ”ما رأيك في بيتك الجديد، يا عُفيريّت؟ أليس الله مُنعِمًا علينا؟“

حطّت صمويل أرضًا من جديد، واتّصلت بالخالة أليزابث. ”احزري ماذا؟ عندنا، صمويل وأنا، بيتٌ يغرّفني نوم! أتودّين أن تصعدي في نهاية هذا الأسبوع وتريه؟“

لم تتكلّم الخالة أليزابث لحظةً، ثمّ أجابت بصوتٍ أجشٍّ: ”نعم، أودُّ ذلك كثيرًا جدًّا. كلُّ ما يُعوّزني هو العنوان“.

”الشّارعُ الثاني والعشرون شرقًا“. وضجّت غريس. ”مهلاً! عليّ أن أخرّجَ خارجًا لأقول لك رقمَ المنزل. لقد نسيثُ أن أنظر“.

الفصل ٣٦

لم يَزِ رومان مُبِرِّرًا للاحتفاظ بمَنْزِلٍ كبيرٍ على قِمَّةِ جَبَلٍ، فيما كان يقضي وقتًا كثيرًا جدًّا في كنيِسةٍ بالوادي. فقَدَّرَ أن يُزِيلَ الحُطامَ من حياته ويعرِضَ العقارَ للبيع. وملاً أكياسَ بلاستيكٍ بِعُلبِ رَشِّ الطَّلاءِ، وأنايبِ الطَّلاءِ العتيقِ، وبَعَثَ بِالكومَةِ إلى شَرِكَةِ لِمُعَالَجَةِ النُّفاياتِ السَّامَّةِ.

استغرَقَ تبييضُ جُدُرانِ مَرَسِمِهِ، وطمسُ جميعِ آثارِ رُسومِهِ، ثلاثةَ أيَّامٍ. وأعادَتِ شَرِكَةُ تَخشيبِ صَقْلِ الأرضياتِ الصُّلبة. وقد كانت شَقَّةٌ سَكَنِيَّةٌ بِعُرفَتِي نَومٍ مُتوافِرَةً في المُجمَعِ الذي أقامَ بريان فيه، فقَدَّمَ رومان طلبًا على الإنترنت لأجلها، وحصلَ عليها.

تركَ مُعظَمَ أثاثِهِ في منزلِ ثُوپِنغا كانيون. كانَ الوكيلُ العقاريُّ، المُتخصِّصُ بِبيعِ البيوتِ الفاخرة، قد قالَ إنَّ البيتَ صُنِّفَ في خانَةِ مُمتازة، لِكونِهِ عَصْرِيًّا وبسيطًا. ”قد يُزَيَّنُ الأثاثُ الصَّفقةَ فعلاً، وإلاَّ بعناه لأجلك“.

كانت له كُتبه وملايسه، وأثاثُ عُرفه النّوم الذي انتقته غريس، وأمامه بداءةٌ جديدة.

”لا بُدَّ أنه أمرٌ حسنٌ أن تكونَ لك حُرّيّةٌ كافيةٌ لتفعلَ مهما أردتَ“. لقد بدا الوكيلُ العقاريُّ حاسدًا.

حُرٌّ؟ كانت هذه فقط أوّلَ خطوةٍ خارجِ القفصِ الذي سبقَ أن بناه حولَ نفسه. فالآنَ الآنَ أرادَ أن ينادى أبعدَ ما يكونُ عن الحياة التي كانَ قد ابتكرها ويعيشَ تلكَ التي صمّمها الله له. وقد بدتَ تلكَ أنّها تطويغُ مجموعةً من أفرادِ العصاباتِ السابقين لمُساعدته على رسمِ رسومِ جرافيتي على جدارِ كنيسة. وإذ استقرَّ في شقّته، حيثُ خصّصَ غرفةَ نومٍ واحدةً لطاولةِ التّصميم، ولوازمِ الرّسمِ والكُتب، باشرَ الشُّغلَ في الرّسومِ لأجلِ جداريّةِ الكنيسة. وقد أبقى المشروعُ ذهنه مُنصرِفًا عن غريس. كانَ قد سلّمَ تاليا لوحةَ المنظرِ الطّبيعيِّ، مُعطيًا إيّاها إذنًا ببيعها. ولما سألتَ ماذا ينوي أن يرسمَ تاليًا، قالَ إنّه لن يكونَ أيُّ شيءٍ يُمكنُها أن تُعلّقه على جدارِ صالةِ عرض.

فيما اتّخذتِ الأفكارُ شكلًا على الورق، تنامى تركيزه على الأثرِ الفنّيِّ، وحماسه له. سيشتغلُ بهذه الرّسمة في الهواءِ الطّلقِ مع طاقمِ يُساعدُه، ولكنّ الاندفاعَ التي كانَ قد شعَرَ بها دائمًا عندَ رسمِ الجرافيتي كانت عائدةً بِقوّة، مُبقيةً إيّاه ماضيًا قُدّمًا.

وقد اشتغل حتى آلمته كفافاً وظهزه. فوقف وتمطى،
متمشياً حتى تقلص الألم، ثم عاد إلى العقل. لم يشعر
بأنه مدفوع، بل شعر بأنه ملهم. لقد كان هذا شيئاً
جديداً.

عرج بريان ليري تقدم العقل. ”رأيت آثارك الأخرى
في معرض صالة العرض، ولكن هذا، يا صديقي،
شيء آخر تماماً!“

”صحيح!“ وافق رومان دون غطرسة. تفحص
الرسم. بدت كأنها نتاج شخص آخر سواه، لا نتاجه
الخاص. لقد كانت يد الله في هذه الرسم، وشعر
رومان بالانتعاش والحماسة والحياة! ما برح الرسم
كل حين وسيلته للتعبير، سبيلاً لصب جام غضبه
وخبثته، ولكن هذا الأثر كان له بعد جيد تماماً. لقد
عرف ذلك الذي ألهمه ولماذا. فهذا التمثيل لانتصار
المسيح الكوني لم ينبثق من ذهنه هو، بل غرسه
الرب.

سبحوا الله، يا جميع أهل الأرض. سبحوا الرب!
كم من السنين ما انفك باحثاً عن شيء ما ليملأ
الفراغ في حياته؟ جرب كل شيء: التجوال، العقل،
النساء. لقد وقع في حب غريس، ولكنه الآن تساءل
عما كان ليحدث لو عاشا معاً. كان سيبقى جائعاً إلى
المزيد.

عرفت غريس الرب وأحبته. لقد حاولت أن تمسك

بيد رومان وتأتي به إلى المذبح، ولكنه قاوم، حتى بعد اختبار تذوقه الموت في جهنم. لماذا كان عنيدًا جدًا؟ ربما كان ينبغي أن تكون غريس خارج حياته لكي تصير علاقته بالله صحيحة. فما دامت قريبة منه، تركزت أفكاره عليها. لقد عكّرت شهوته تفكيره، وألهته عن تلبية دعوة الله. وهي كانت تخص الرب أصلاً. إنما هو لم يتخذ بعد ذلك القرار المغير للحياة والنفس. والآن فهم الأمر.

ما زلت أحبها، يا رب. أنت تعلم كم. أنت تسمع صلواتي في نصف الليل. ولكن اللهم، مهما أحببت غريس، فذلك لا يقارن بما أشعر به الآن تمامًا في حضرتك. أحسك حوالي وداخلي. أنت كاف. أكثر من كاف.

لقد علم رومان تمامًا أن لله القدرة على إيقاف قلب وتشغيله. فحياة أي رجل أو امرأة استقرت في يد الرب المثقوبة. وقد اقتضى الأمر رحلة إلى جهنم لتعليمه أن الرب يسوع هو الطريق والحق والحياة.

كانت الصلاة قد أصبحت حديثًا يقظًا ثابتًا مع الله، بالنسبة إلى رومان. معظم الأحيان من جانب واحد. فبعد سنين عدة من الصمت، لم يستطع رومان أن يكف عن التحدث بصوت غير مسموع إلى ذلك الذي أصغى حقًا، ذلك الذي استمع ما وراء الكلام إلى الدوافع التي هي أعمق مما يستطيع رومان نفسه أن

يُحَلِّه.

غَيْرِنِي، يَا رَبُّ. ضِعْ قَلْبًا جَدِيدًا فِيَّ. اجْعَلْنِي
الرَّجُلَ الَّذِي تَقْصِدُ لِي أَنْ أَكُونَهُ.

كان رومان قد توقَّف عن الصَّلَاةِ لِأَجْلِ أَنْ تَتَّصَلَ
غَرِيس، أَوْ تَكْتُب، أَوْ تُبَلِّغَ رِسَالَةً بِوَاسِطَةِ أَحَدِ
أَصْدِقَائِهَا، وَقَدْ بَدَأَ يُصَلِّي طَالِبًا أَنْ يَحْرُسَهَا اللَّهُ مَعَ
صَمُوِيلَ، وَيُسَدِّدَ أَحْتِيَاجَاتِهِمَا، وَيَحْمِيَهَا وَيُرْشِدَهَا
وَيُبَارِكَهَا. اللَّهُمَّ، رَجَاءً، أَبْقِهَا بَعِيدَةً عَنِ رِجَالِ مِثْلِي.
إِنَّهَا تَسْتَحِقُّ أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ جَدًّا.

وَضَعَ بَرِيَانُ يَدًا عَلَى كَتِفِ رُومَانَ. "أَنْتَ بَخِيرٌ؟
تَبْدُو خَارِجَ الْأَمْرِ قَلِيلًا الْيَوْمَ."
"أَنَا فِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ يَوْمًا".

تَبَّتِ الرَّسَمَاتِ عَلَى الْحَائِطِ وَتَفَحَّصَهَا. لَمْ يَكُنْ
مُسْتَعْمِلًا قَوَالِبَ رَسْمِ هَذِهِ الْمَرَّةِ. سَيَسْتَعْمِلُ طِلَاءَ
رَشِّ رَمَادِيًّا، ضَيِّقَ الْمَجْرَى، لِلخُطُوطِ الْعَرِيضَةِ،
وَيُحَدِّدُ مِسَاحَاتٍ لِيَمْلَأَهَا طَاقِمُهُ. وَلَيْسَ مِنْ جِبَالٍ
وَعُدَدٍ أَيْضًا. سَيُبْقِي كُلَّ وَاحِدٍ فِي أَمَانٍ عَلَى مِصْعَدَيْنِ
أَلْيَيْنَ، دَوَّارَيْنِ، مُسْتَأْجَرَيْنِ.

بَدَأَ بَرِيَانُ قَلِقًا. "كَمْ سَيُكَلِّفُ ذَلِكَ؟"

"إِنَّهُ عَلَى نَفْقَتِي. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْمَوَادِّ أَيْضًا.
تَلَقَيْتُ عَصْرَ الْيَوْمِ تَوًّا اتِّصَالًا يُفِيدُنِي أَنْ بَيْتِي قَدْ
بِيعَ".

لَقَدْ وَقَّفَ مَعَ بَرِيَانَ بِجَانِبِ مَجْمُوعَةِ الشَّبَابِ. كَانُوا

طاقِمًا مُتَنَوِّعًا صُلْبًا، تَوَاقِفًا إِلَى الْمُبَاشِرَةِ، لَا سِيَّمَا
أَوْلَادَكَ الَّذِينَ تَابُوا عَنْ وَسْمِ الْمَبَانِي بِالْغِرَافِيَّتِي.
وَكَانُوا مُتَلَهِّفِينَ إِلَى وَضْعِ أَيْدِيهِمْ عَلَى غَلْبِ طِلَاءِ
الرَّشِّ، دُونَ اضْطِرَارٍ إِلَى الْقَلْقِ بِشَأْنِ دَهْمِ الشُّرْطَةِ
لَهُمْ. وَلَمْ تَفْتِ رُومَانَ سُخْرِيَّةً وَضَعَهُ: الْمُسْتَوْحِدُ
مُنْظَمًا مَشْرُوعًا لِمَجْمُوعَةِ الشَّبَابِ، رَسَّامُ الْغِرَافِيَّتِي
الْمُصَلِّحُ وَالْمَقْدِي قَائِمًا بِعَمَلِهِ فِي وَضْحِ النَّهَارِ بِحَيْثُ
يَرَاهُ أَيُّ شَخْصٍ، وَعَلَى جِدَارِ كَنِيسَةٍ، دُونَ سَائِرِ
الْأَمْكِنَةِ. لَا شَكَّ أَنَّ لَدَى اللَّهِ ظَرَفَةً مُبْهِجَةً!

نَظَّفَ رُومَانَ الْجِدَارَ بِخُرْطُومِ مَكْنَةِ غَسْلِ آلِيَّةٍ،
وَجَعَلَ الْفِتْيَانَ يُعَدُّونَهُ بِطِلَاءِ أبيض. كَانَ ذَلِكَ شُغْلَ
نَهَارٍ كَامِلٍ بِمِصْعَدَيْنِ وَغَالُونَاتِ طِلَاءِ أبيض وَمِرْسَاتِ.
وَيَوْمَ السَّبْتِ التَّالِي حَضَرَ رُومَانَ بَاكِرًا، نَاوِيًا أَنْ يُكْمَلَ
رَسْمَ جَمِيعِ الْأَجْزَاءِ قَبْلَ وَصُولِ طَاقِمِ الْمُرَاهِقِينَ،
وَلَكِنَّ خَمْسَةَ عَشَرَ فَتَى حَضَرُوا قَبْلَ سَاعَاتٍ مِنْ
الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ. وَجَاءَ آبَاءُ وَأُمَّهَاتُ وَآخَرُونَ لَمْ يَكُنْ
قَدْ رَأَوْهُمْ فِي الْكَنِيسَةِ.

”مَا كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ نَخْتَارَ يَوْمًا أَفْضَلَ.“ رَفَعَ بَرِيَانَ
ذَقِنَهُ حِيَالَ الصَّبَاحِ الْخَرِيفِيِّ الْبَارِدِ الْمُنْعِشِ. وَقَدْ كَانَ
الْمِصْعَدَانِ الْآلِيَانِ فِي مَكَانِهِمَا، مَعَ لَوَازِمِ الطَّلَاءِ.

انْتَابَتْ رُومَانَ حَالَةً عَصَبِيَّةً سَيِّئَةً. ”الْجَمِيعُ
حَضَرُوا بَاكِرًا. لَمْ أَتَوَقَّعْ حَشْدًا.“

”نَعَمْ، لَا بَأْسَ، لَيْسَ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ

بشأن ذلك. الجميع يريدون أن يدروا كيف تعمل ما
تعمله. أين رؤسوك؟“

نقرَ رومان جبينه. ”كلها ههنا، صديقي“. رفع
نظره إلى القماشات الضخمة، وتصوّر الخطوط
والأشكال متأججةً فعلاً في مكانها. يحسُّ به أن
يُباثِر. وإذ خطا إلى داخل المِصعد، كبَسَ الزَّرَّ ليرفع
المنصّة. ثم التقطَ علبةَ رَشِّ طلاءٍ رماديٍّ من
صندوق، ونسي كلَّ شيءٍ ما عدا الرؤية التي أعطاها
الله إياها. خَصَّ العلبة، وكبَسَ الزَّرَّ، ورسمَ أوَّلَ
مُنحنَى عريض. انبجس في داخله نبعٌ طاقة، وبدأ
يفيض إلى أولئك الذين ينتظرون ليؤدوا دورهم.

جلس أعضاء الطاقم يُراقبون. وبعد دقائق قليلة،
نسي رومان أنهم هناك. اشتغل ثلاث ساعاتٍ تمامًا،
محرّكًا الآلية، مُفرغًا علبَ الطلاء. ولما ألقى آخرَ علبةٍ
داخل الصندوق وكبَسَ الزَّرَّ لإنزال المِصعد، انفجرَ
الجميعُ هاتفين.

إذ أدرك رومان أنهم يهتفون له، غمرته البرودة.
”كفوا! أصغوا إلي!“ ولما حظي بانتباه الجميع، أشار
بيده. ”هذا الجدارُ شهادةٌ لقدرةِ الرَّبِّ يسوع المسيح.
إنه كلُّه عنه. إن جئتم لتشتغلوا، فإليكم ما
ستفعلونه.“ ثم أصدر التوجيهات، ملقيًا علبَ الطلاء
إلى كلِّ منهم، ودالًا إياهم أين يبدأون وأين
يشتغلون. ”حسنًا، أيها الطاقم. لننسف هذا الجدارَ

لأجل المسيح!

بعد ساعة، وقف بريان ورومان عبر الشارع يُراقبان. "عجبًا!" هز بريان رأسه مشدوهًُا. "سُيُنَجَزُ العَمَلُ قبلَ انتهاءِ النَّهارِ".

"ليس إلى التمام. ما إن يملأ الفتيانُ كلَّ فراغٍ، حتى أكملَ التَّفاصيلَ النَّهائيَّةَ. لدى هيكتور طاقمٌ مُصَطَّفٌ لِطلاءِ الطَّبقةِ الوِقائيَّةِ". ورأى فتى على أهبَّةِ الانتِقالِ إلى قِسمِ آخر. "هاي، باندوا!" عرَّجَ رومان عبرَ الشارعِ، وسحَبَ لوناَ آخرَ من صُنْدوقِ اللُّوازمِ، وأراهُ أينَ يشتغلُ تاليًا.

مرَّت سيارات. توقَّفَ سائقونَ قليلونَ لِيشاهدوا. ازدادَ الحَشْدُ. عرَّجت سيارَةُ شُرطة، وترجَّلَ منها شُرطيَّان. عرَّفَ رومان واحدًا مِنْهُما. فهبَّطت مَعِدَّتُه، وتسارعَ نَبْضُه. وتوجَّهَ الشُّرطيُّ تَوًّا نحوَ رومان.

"أأنتَ المسؤولُ هُنا؟" وقفَ الشُّرطيُّ الذي ضبَطَ العصفورَ لَمَّا كانَ يقومُ بعَمَلِه في نَفقِ المُشاة، ناظرًا إلى الجِدارِ.

"نعم، سيدي".

"رَسمةٌ مُعجِبة. على عَينِكَ يا تاجر، تقريبًا. ألا تعتقدُ هذا؟"

لم يرَ رومان داعيًّا للإجابة. نظَرَ الشُّرطيُّ حوَالِيَه. "لديكَ إذنُ هذه المِرَّةُ". ابتسم ابتسامَةً ضئيلة. "حَسَنٌ أن يَرى هؤلاءِ الفِتيانُ كلُّهم يشتغلونَ في

شيءٍ بِنَاءٍ“. وغمَزَ رومانَ بِعَيْنِهِ. ”طَابَ يَوْمُكَ!“ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى سَيَّارَتِهِ، فَرَكِبَ هُوَ وَزَمِيلُهُ وَسَاقَا مُبْتَعِدَيْنِ. ضَحِكَ بَرِيَانُ. ”تَبْدُو شَاحِبًا بَعْضَ الشَّيْءِ. هَلْ كُنْتَ تَتَوَقَّعُ أَنْ يَعْثَقَكَ؟“

”خَطَرَ ذَلِكَ فِي بَالِي“.

صَبَاحَ الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ رُومَانُ أَقْلًا مِنْ مَسْرُورٍ إِذْ وَجَدَ طَاقِمًا تِلْفِزِيُونِيًّا فِي الْمَوْقِعِ، لَمَّا رَجَعَ لِإِنجَازِ التَّفَاصِيلِ النَّهَائِيَّةِ. وَقَدْ كَانَ طَاقِمٌ عَمِلَهُ هُنَاكَ أَيْضًا. صَدَحَتْ مُوسِيقَا مَسِيحِيَّةٍ مُعَاصِرَةٍ، وَرَقَصَ بَعْضُ الْفِتْيَةِ الْهَيْبِ هُوبٍ فِي الطَّرِيقِ الْخَاصِّ. وَقَامَ أَحَدُهُمْ بِشَقْلَبَةٍ خَلْفِيَّةٍ مِنْ وَضْعِيَّةٍ وَقُوفٍ. وَاقْتَرَبَ مُرَاسِلٌ، فَتَجَنَّبَ رُومَانُ الْمِيكْرُوفُونَ وَخَطَا دَاخِلَ الْمِصْعَدِ. وَتَظَاهَرَ بَعْدَ سَمَاعِ الْأَسْئَلَةِ الْمُنَادِي بِهَا إِذْ هَدَرَتِ الْآلَةُ مُشْتَغَلَةً. سَيَكُونُ صَعْبًا كِفَايَةً أَنْ يُرَكِّزَ فِيمَا تَجْرِي مُبَارَاةُ رَقْصٍ، دُونَ إِضَافَةِ مُرَاسِلِينَ إِلَى الْعَرِضِ الْمُخْفِقِ تَمَامًا. وَإِذْ تَذَبَذَبَ هَاتِفُهُ الْخَلُويُّ، وَرَأَى اسْمَ بَرِيَانِ، رَدَّ. ”قُلْ لَهُمْ أَنْ يَنْصَرِفُوا“.

”يُرِيدُونَ أَنْ يَعْرِفُوا لِمَاذَا يَرِشُمُ رُومَانُ قِيلاسكو غِرَافِيَتِي؟“

”سَأَتَكَلَّمُ عِنْدَمَا يُنْجِزُ الْمَشْرُوعَ. إِنَّمَا الْآنَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَشْتَغَلَ“. وَأَقْفَلَ تِلْفُونَهُ. ثُمَّ جَعَلَ إِحْسَاسٌ وَخَزِ الشَّعْرَ عَلَى قَفَا رَقَبَتِهِ يَنْتَصبُ. لَقَدْ قُصَّ جَنَاحَا الْعُصْفُورِ فِعْلًا. وَالْآنَ، بَدَأَ أَنَّ الْعُصْفُورَ سَيُشَوِي. مَا

المُدَّة التي سيقضيها مسجونًا لقاء جميع الرُّسوم
المُحدَّدة التي رسَمها على مدى سِنين؟

بَتَّتْ تِلْكَ الفِكرَةَ رِعدةً خَوْفٍ في أوصاله، ولكنَّه
نَفَّضَها عنه. ينبغي له أن يُرَكِّزَ ويُنَجِّزَ هذه الرَّائِعة،
هذه التُّحفَةَ الخالدة. فلا نَفَعَ من القلق بشأن العواقب
الآن.

مهما جرى، أثق بك، يا رب.



أحبَّتْ غريس بيتها الجديد. نام صَمويل معها في
اللَّيالي القليلة الأولى، حتَّى ركبَّت مهْدَه، فنقلته إلى
غُرْفَتِهِ الخاصَّة عبْر الرُّواق. نامت قليلاً أوَّل ليلة،
مُصغِيَةً إلى صُراخ احتجاجه الذي تحوَّل إلى انتحابٍ
يدعو إلى الشَّفقة. ثمَّ نقلت سريزها حتَّى يتمكنَّا من
رؤية أحدهما الآخر. وأخيراً، أرهق نفسه حتَّى غفا
في الساعة الواحدة بعد نصف الليل.

مشى صَمويل خطواته الأولى في شهره العاشر.
درَج في أنحاء البيت وتسلَّق الأثاث. وقد علَّمته
سقطهً واحدة عن الأريكة أن ينقلب على بطنه
وينزلق نزولاً حتَّى تمسَّ قدماهُ الأرضية المفروشة
بالسَّجاد. مُعظَم الوقت، كان يلعبُ راضيًا في المكتب،
واللُّعبُ مُبعثرةٌ حوَالِي طاوِلة كُمبيوتر غريس. لقد
نَبَّهتُه ساعتُه الداخليَّة متى أمكن أن يحظى بانتباهه

ماما التَّامِّ، وكان في وُسْعِهِ أَنْ يُطالِبَ بِهِ بِتعبيرِ صوتيِّ مفهومٍ.

انتَشَرَ الخبر، وشرعانَ ما أتى VirtualGrace.biz بمزيدٍ من العملاء. فتوافقَ لِغريس شُغْلُ كافٍ لِسدِّ المصاريفِ وإيداعِ القليلِ في حسابِ التَّوفيرِ. ولَمَّا ظَهَرَت طلباتٌ زائدةٌ في بَريدها الوارد، حَدَدَتِ الأولوياتِ ووضَعَت حُدودًا: اللهُ أوَّلًا، صَمويلِ ثانيًا، العَمَلُ ثالثًا. فكانت تستيقظُ باكِرًا كُلَّ صباحٍ لِتَقْرَأَ الكتابَ المقدَّسَ وتقضيَ وقتًا في الصَّلَاةِ. وتلكِ الخَلوةُ الهادئةُ رَسَّختها باقيَ يَومِها الحافلِ بالعَمَلِ.

استيقظَ صَمويلِ دائِمًا قُبيلَ السَّادسةِ صباحًا. وكلَّ صباحٍ بعدَ الفَطورِ، متى سَمَحَ الجَوُّ، كانت غريسُ تُحزِّمُ ابنتها في عَربةِ أطفالٍ مُخصَّصةٍ لِلهَرولةِ، سَبَقَ أَنْ اشترتها من موقعِ كريغزليست، وتأخُذُهُ خارجًا في نَزهةٍ جَزيِّ مسافةٍ كيلومترٍ ونِصْفٍ تقريبًا. وغالبًا ما فَكَّرَت في رُومان قائمًا بِتَمَرُّنِهِ على آلةِ الأثقالِ لَدَيْهِ. عَلَيها أَنْ تحضَلَ على شيءٍ من التَّمَرُّنِ ما دامت تقضيَ مُعظَمَ يَومِها جالِسةً إلى كَمبيوتر. وقد وجدَت درَاجَةً في مخزَنِ تَوفيريِّ، فكانت كُلَّ عَصِرِ نهارٍ، قَبْلَ وقتِ قَبيلولةِ صَمويلِ، تُحزِّمُهُ في مقعدِ درَاجَةٍ، وتَصطَحبُهُ في جولةٍ ثلاثينَ دقيقةً. كذلك أيضًا أَخَذَتِ استِراحاتٍ حَتَّى يتسَنَّى لِصَمويلِ أَنْ يلعبَ في الفِناءِ الخلفيِّ. وعندَ هُطولِ المَطرِ، كانت تُلاعبُ

صمويل على السَّجَّادة.

التَّقت أنجيلا مارتينيز من فوق السِّيَّاح الجانبيِّ. كان لدى أنجيلا وزوجها خوان فناءً حسنًا أيضًا، ولكنَّ الثُّلث الأخير شغله مرَّابٌ لِشاحنة خوان ومقطورته، وجزَّازة العُشب التي له من ماركة جُون دِير، والتي يستعملها في مصلحته الخاصَّة بصيانة الحدائق. وقد كانت أنجيلا ربَّة بيتٍ تُربِّي ثلاثة أولادٍ ناشِطين: خاقير ابن السَّنين الثماني، وخوانيتا ابنة الخمس، ومَتياس ابن السَّنَّتين.

كان لدى أنجيلا كثيرٌ من نصائح الوالديَّة الرَّشيده. وسأل خُوان إن كان يستطيعُ أن يُعدَّ الثُّربة ويزرع صناديقَ خُضِرٍ غريس. فكِلتا العائلتين إذ ذاك تَسْتفيدان من غلَّةٍ نهائيَّة. ورأى جورج ودوروثي غرلنغ أنَّ تلك فكرةٌ عظيمة، فأعطيا إزْنَهُما.

صعدتِ الخالَّة أليزابث في تشرين الثاني للاحتفال بعيدِ المَولِد الأوَّل لصمويل، وفاجأت غريس بِشيكٍ سخِيٍّ. ”لا أعرفُ ما يحتاجُ إليه أو يحبُّه في هذه السَّنِّ. استعملِي أنتِ المالَ كيفما شئتِ“.

عانقت غريس خالَّتَها داميعة العينيَّين وشاكرةً. ”سأباشِرُ ادِّخارَ رَصيدٍ لِنفقاتِهِ الجامعيَّة“.

ظَهَرَت شاحنةٌ توصيل، ومعها دوروثي وجورج مُعلنين أنَّهما اشتريا لصمويل سريِّدًا بِشكلِ سيارَة سِباقٍ حمراء. وشرع جورج حالًا في تركيب السَّرير.

”كُلُّ صَبِيٍّ يَحْلُمُ بِسَيَّارَاتِ السَّبَاقِ“. وَفَرَشَتْ دُورُوثِي
الْمَلَاءَةَ الْمُطَبَّعَةَ بِسَيَّارَاتِ سِبَاقٍ صَغِيرَةٍ، وَغِطَاءَ سَرِيرِ
مُلَائِمًا. ”لَمْ أُسْتَطِعِ الْمُقَاوِمَةَ!“ ثُمَّ تَرَكَّتْ لِغَرِيْسِ
طَقْمًا إِضَافِيًّا. لَمْ يَكُونَا يَسْتَطِيعَانِ الْبَقَاءَ طَوِيلًا. إِذْ
كَانَ جُورْجٌ سَيَخْرُجُ مَعَ أَصْحَابِهِ لِلْعِبِّ الْغُولْفِ،
وَدُورُوثِي سَتَذْهَبُ إِلَى اجْتِمَاعِ لِنَادِي مُطَالَعَةٍ.

ظَلَّتِ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثُ لَطِيْفَةً عَلَى مَضْضٍ، حَتَّى
انصَرَفَا. ”يَا لَهُ مِنْ تَبْذِيرٍ لِلْمَالِ!“ وَقَفَّتْ وَيَدَاهَا عَلَى
وَرَكَيْيْهَا، نَازِرَةً إِلَى سَرِيرِ سَيَّارَةِ السَّبَاقِ كَأَنَّهَا أَرَادَتْ
أَنْ تُحِطِّمَهُ بِفَأْسٍ. ”أَلَيْسَ لَهُمَا حُفْدَاءُ يَخْصُونَهُمَا
حَتَّى يُفْسِدَاهُمْ بِالتَّدْلِيلِ؟“

كَانَ وَاضِحًا أَنْ صَمُوِيلُ أَعْجَبَ بِسَرِيرِهِ الْجَدِيدِ
الَّذِي يُنَاسِبُ صَبِيًّا كَبِيرًا، وَإِنْ كَانَتْ غَرِيْسُ قَدْ نَوَتْ
أَنْ تُبْقِيَهُ فِي مَهْدِهِ مُدَّةً أَطْوَلَ بَعْدَ فَيُمْكِنُ أَنْ يَقْضِيَ
وَقْتًا قِيلَوْلَتِهِ فِي سَيَّارَةِ السَّبَاقِ. ”لَهُمَا ابْنَةٌ وَاحِدَةٌ،
عَازِبَةٌ وَفِي الْجَيْشِ“.

”أُوهُ“. اسْتَرْخَتْ كَتِفَا الْخَالَةِ أَلِيْزَابِثُ. ”حَسَنًا، لَا
عَجَبَ“. وَتَنَهَّدَتْ. ”عَلَى الْأَقْلِّ تَوْجَدُ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ
سَجَادَةٌ سَمِيكَةٌ، وَالسَّرِيرُ لَيْسَ عَالِيًّا جَدًّا بِحَيْثُ يَقَعُ
عَنْهُ وَيَكْسِرُ جُمُجْمَتَهُ“. بِتِلْكَ الْمُبَارَكَةِ الْكَالِحَةِ،
رَجَحَتْ صَمُوِيلُ وَشَالَتْهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْيْهَا. ”هَيَّا، عَفِيرِيْتِ.
لِنَلْعَبِ بِكُتْلِ دَيْلُو الَّتِي جَلَبْتُهَا لَكَ!“

بَعْدَ أُسْبُوعٍ، اتَّصَلَتِ الْخَالَةُ أَلِيْزَابِثُ مُسْتَاءَةً. ”هَلْ

أعطيت آل غرلنغ عنواني؟ أرسلنا إليّ دعوةً لعيد الشكر“. اعترفت غريس، وانتظرت أن ينفجر بركان فيزوف. ولما لم تقل خالّتها أيّ شيء، صدّدت صلاة صامته قبل التفتيش عن تنازل. ”إذا فضّلت أن نكون نحن الثلاثة فقط، فلا بأس. في بيتك أو في بيتي. إنّما لا أريد حقاً أن ينقضي عيد شكرٍ آخرٍ بلاك“.

”على ذلك نتفوق حتماً“. جعل التوقف الطويل غريس تعض شفتها. ثمّ تنهدت خالّتها. ”كانت بالحقيقة دعوةً عذبةً جداً“.

”إذا لن تُمانعي؟“

”سأعلمها أنّه يروقني أن أذهب“. كان في لهجتها أثر سُخريّة ضئيلة. ”أرجو ألاّ تضع محاراً في حشوة الديك الرومي“.

أثبت يوم عيد الشكر مع دوروثي وجورج في النهاية أنّه ممتع. كان عيد الميلاد يقترب بسرعة، ووجدت غريس نفسها مُفكّرة أكثر في رومان، مُتسائلة كيف يحتفل بالأعياد. خيّل إليها أن الوقت والبعد سيقلّصان مشاعرهما. مُعظم الأيام، كانت تشتغل بكّد وجدّ بحيث لم تُفكر في أيّ شيءٍ ما عدا صمويل، وما ينبغي أن تفعل لإبقاء سقّف فوق رأسيهما وطعامٍ على الطاولة.

كانت الأمسية مُختلفة والليالي هي الأصعب. إذ رأت أحلاماً جليّة عن رومان، واستيقظت بعض

الأحيانِ ذارِفَةً الدَّموعِ.

اليومَ كانَ واحدًا من تلك الأيَّامِ التي فيها لم تستطعَ أن تطرُدَ رومانَ من رأسها. درَجَ صمويلُ إليها وأرادَ أن يعتليَ حِصنَها. فاشتغلتَ على ذلك النَّحوِ حينًا، ثمَّ حطَّتْهُ أرضًا ليلعبَ من جديد. وبعدَ بضعِ دقائق، رجَع. فأطبقتَ غريسَ حاسوبِها وشالتَ صمويلَ. ”أنا مُوافِقة، يا رُجيل.“ باستَ رقبتهِ الدَّافئةِ، وتنشَّقتَ رائحتهِ الطَّفليَّةِ الطَّيِّبة. ”ما قولُكَ في جولةٍ على الدَّرَاجةِ، عُفيريِّت؟“ كانَ يُحبُّ جولاتَ رُكوبِ الدَّرَاجةِ، فَرَفرفَ بذراعِيه وأضحكها.

إذ أغلقتَ بابَ المرأبِ، دسَّتِ المُتَحَكِّمةُ في جيبِها، وانطلقتَ في الشَّارعِ. اعتَمَرا خوذتي نيونٍ مُتماثلتَين. ولَمَّا رجعا، كانتَ هي مُتعبَةً وصمويلُ نَعسانًا من الرِّيحِ الباردةِ في وجهه. فأنامته لأخذِ قيلولَةٍ في سريره الأحمرِ الشَّبيهِ بسيَّارةِ سباقٍ، وكانتَ ناويةً أن ترجعَ إلى الشُّغلِ إذ رنَّ التَّلفونُ.

”مرحبا، يا صديقة!“

”مرحبا مردودةً إليك.“ ضحِكتَ غريسُ. فضلًا عن

الرَّسائلِ النَّصِّيَّةِ والإلكترونيَّةِ المُتواتِرةِ، كانتَ شانيسُ تُتلفنُ كلَّ بضعةِ أيَّامٍ لِتطمئنَّ إلى أحوالِها.

”كيفَ تجري الأمور؟“

مُتمدِّدةً على الأريكةِ، تنهَّدتَ غريسُ. ”الآنَ الآنَ،

انتهى شُغلي في الدَّاخلِ. اصطحبتُ صمويلَ تَوًّا في

جولة زكوب على الدراجة. إنه يمشي الآن. هل أخبرتك؟“

واصلتا مُحادثتهما الودّية المعتادة خمس عشرة دقيقة قبلما اعترفت شانيس بأن لديها سببًا آخر للاتصال. ”أردتُ أن أتحدّث إليك عن رومان، عزيزتي.“

شرع قلبُ غريس يخفق بقوة. ”ماذا عنه؟“

”حسنًا، ليس هو الرَّجُل الذي قابلته في توينغا كانيون. ذاك أمرٌ مؤكّد. لقد أصبح هو وريان صديقين جيّدين. باع رومان بيته وانتقل إلى مُجمّع الشقق السكنية حيث يُقيم ريان. وقد أنجزتوا مشروعًا للكنيسة. ينبغي أن تزيه، غريس. إنه يحظى بكثيرٍ من الاهتمام. حضر بعض المُراسلين، ونُشرت مَقالتان عن الجدارية. تفقّدي ذلك على اليوتيوب. إنها أمورٌ مذهلة!“

”يسُرّني أن أسمع أنه يُبلي حسنًا جدًّا“. حاولت غريس أن تُبقي لهجتها حياديةً، رُغم الخفقان الجامح في قلبها ودفقة الأمل التي اضطرت إلى سحقها.

”أتريدين مني أن أخبر رومان أين أنت؟“

”هل سألك؟“

”لا، ولكنني اعتقد أنه يودُّ لو يعرف.“

أغمضت غريس عينيها بإحكام، غير قادرة على التكلّم لحظةً. ”اعتقد أنه أحسنُّ أن تُترك الأمور على

حالتها“. لو كان رومان يحبُّها، أما كان قد سأل عنها حتى الآن؟ لقد غادرت لوس أنجليس قبل ثلاثة أشهر.

”أنتِ على يقين، حبيبتِي؟ ربَّما كانت لديه أسبابٌ لِعَدم الاتِّصال بكِ“.

تمامًا كما كانت لديها أسبابٌ لِتُلَوِّذَ بالصَّمت. اللهم،
أنا فاعلةُ الأمرِ الصَّائبِ؟ ما عُدتُ أدري!

”إذا سألَ فعلاً، فهل لي أن أخبره؟ لا شكَّ عِندي أنه مؤمنٌ بالمسيح الآن، غريس، وإلاَّ فما كُنْتُ أتيتُ على ذكره أصلاً. أنا أعلمُ كم حَزِنْتَ على الفتى. ما زلتِ تُحِبُّينَه، صحيح؟“

ما كان ذلك بالحقيقة سؤالاً. ”هذا يُعزِّزُ أكثرَ سببَ بقائي بعيدةً عنه، شانيس. لم يقل رومان قطَّ إنه أحبُّني“. ووضعتُ غريس يداً مُرتجفةً على جبينها. ”أيمكننا ألاَّ نتحدَّثَ بشأنه؟ رجاءً! ما برحتُ أحاولُ جاهدةً أن أمضي قُدماً“.

”لا يبدو أنكِ تُوفِّقينَ كثيرًا إلى ذلك“.

كيف يَسَعُّها أن تنسى رجلاً مثلَ رومان فيلاسكو؟ أم كان هو بِيي راي دين الآن؟ أما زالَ هو الغُصفور، راسمًا في الخارج على الجدرانِ ليلاً؟ رومان فيلاسكو، أم بِيي راي دين، أم الغُصفور، كانت ما تزالُ مُغرمةً به. ”الانكبابُ على العقلِ يُساعد“.

تحدَّثتا دقائقَ قليلةً بعد، ثمَّ أنهتا المُكالمة.

أقبلَ صمويل دارجًا إلى حُجْرَةِ الجلوس، وتسلَّقَ
حتَّى استطاعَ أن يتمدَّدَ على صدرِها. فتذكَّرت كيف
نامَ على رومان هكذا تمامًا في الكوخ. يا ربُّ، كم
ستطولُ المُدَّةُ قبلَ أن يتبدَّدَ هذا الوجعُ؟

تلكَ اللَّيلة، كنَّ صمويل في مَهْدِهِ، وبقيت غريس
مُستيقظةً تمامًا وهي مُستلقية. وعندَ مُنتصفِ اللَّيل،
استسلمت للتَّجربة، فذهبت إلى مكتبها وفتحت
حاسوبَها. أجرت بحثًا سريعًا على اليوتيوب، ووجدت
نتائجَ رومان الأحدث. سحبت نفسًا رقيقًا لَمَّا رأتِ
الرَّبَّ يسوع على جِوَادِ أبيض. والغُيومُ المرسومةُ
على خطِّ أساسِ المبنى جعلت الكنيسة تبدو كما لو
كانت عائمة. كانتِ الجداريةُ رائعة، ولكنَّ الرَّجُلَ الذي
كان يتجنَّبُ الكاميرا بوضوح هو الذي أسرَّ انتباهَها.
ثمَّ سحبت مقاطعَ أخرى من يوتيوب. إنَّ رؤيته،
حتَّى على شاشةِ كُمبيوتر، ضاعفت توقُّعها المُوجع.
وما لبثت أن انتقلت إلى غُوغِل فوجدت مقالةً
صحافيةً حديثة. لا بُدَّ أن تاليا رايزنر قد زوَّدتِ
المُراسِلَ بِصُرةٍ علاقاتِ عامَّة.

عرَضت الشَّاشةُ بكاملها صُورًا لِرومان فيلاسكو:
عندَ افتتاحِ صالةِ العرض، مُشتغلًا بجداريةِ سان
دييغو، في نادٍ ليليٍّ، راقصًا مع شقراءَ جميلة.
فأغلقت حاسوبَها. وإذ غطت وجهها، بكَّت. يا الله،
دَع هذه المشاعرُ تتبدَّد. رجاءًا! ثمَّ تناولت حبةً

تايلانول مُنومة وعادت إلى السّرير. وإذ استلقت على جنبها، نظرت عبّر الرّواق إلى ابنها نائمًا بسلام في مَهده. لقد عبّر رومان بوضوح عمّا أرادَه وعمّا لم يُرده.

لقد بذلتُ كلَّ شيءٍ مُمكنٍ لأتجنّب أصلًا إنجابَ طفلٍ.

لن يكونَ من الحكمةِ أن تفتحَ البابَ لِرومان من جديد. يحتاجُ صمويل إلى رجلٍ يُحبُّها حبًّا غير مشروطٍ بشيءٍ، ويُحبُّ ابنها بغضِّ النَّظر عن كيفيةِ الحبِّ به.

الفصل ٣٧

الآن، وقد أُنجِزَ المشروع، وجدَ رومان نفسه مغمورًا بطلباتٍ مُقابلات. وافقَ على التّقاءِ تكِ مارتن، وهو مُراسِلٌ طليق، في كُمنِ غراونْدن، وطلبَ من بريان أن يَنْضَمَ إِلَيْهِمَا. كانَ الحديثُ بشأنِ بريان والطّاقمِ سهلًا. وقد أرادَ رومان أن يَنالوا الإطراء الذي يستحقُّونه. إنّما كانَ مارتن أكثرَ اهتمامًا بتاريخِ رومان الشّخصيِّ وحياته ومِهنتِهِ كَرَسَام. فتوقّفَ رومان عن الكلام.

ابتسمَ بريان لِمارتن. ”رومان مُتَكَنِّمٌ قليلًا بشأنِ حياته الشّخصيّة“.

”استنتجتُ ذلك“. ونظَرَ إلى رومان. ”هل من سببٍ؟“

تمنّى رومان لو لم يُوافقَ على المُقابلة. ”عدّد هائل من النّاس لَدَيْهِم اهتمامٌ غيرُ سليمٍ بشؤونِ الآخرين“.

”أجريتُ بحثًا وافيًا عنك، مِستر فيلاسكو“. وتكلّمَ

على مدى الدقائق العَشر التَّالية، فيما رومان يتَمَلَّق. لقد نَجَحَ تَك مارتن في نَبَشِ معلوماتٍ من السَّجَلَّاتِ الرَّسْمِيَّةِ والمُقَابَلاتِ مع عُمَّالِ اجْتِمَاعِيَّين مُتَقَاعِدِيَّين. وأمضى ساعاتٍ عِدَّةً مُقَابِلًا تاليا رايزنر، فحصلَ على سَبِيلٍ من الأخبارِ عن طِبَاعِ رومان، وأساليبه البوهيميَّة، وشَهْرَتِهِ كَلاعِب، الأمرُ الذي قادَ مارتن إلى النَّادي اللَّيْلِيِّ الذي اعتاد رومان أن يتردَّدَ إليه، وإلى مُقَابَلاتٍ أُخرى قليلةً مع نساءٍ قضى وقتًا معهنَّ. وقد لُوَحِظَ أنَّ جاسپِر هاولي وآل ماسترشن غابوا عن لائِحَةِ تَك مارتن، كما أنَّه لم يذكرْ غريس مُور.

دَفَعَ رومان كُرْسِيَّهُ إلى الورااء. ”يبدو لي أن لَدَيْكَ فِعْلاً معلوماتٍ أَكْثَرَ مِمَّا يكفي كي تَكْتُبَ مَقَالَتَكَ“.

رَمَقَهُ بريان بنظرةٍ ذَكَرْتَهُ بجاسپِر هاولي. اسْمَعِ الرَّجُلَ حَتَّى النِّهَايَةِ. فَبَقِيَ رومان جالسًا. ”إِلَامٌ تَسْعَى تَمَامًا، إن كان ذلك ليس كافيًا لكتابة مَقَالَةٍ مُمْتَعَةٍ في مجلَّةِ پيپول؟“

”أنا مُهْتَمٌّ بِالرَّجُلِ الذي وراءَ الآثَارِ الفَنِّيَّةِ“. ومال مارتن إلى الأمام. ”منذُ سَنَةٍ مَضَتْ، كُنْتُ مُسْتَوْجِدًا يَعيشُ الحَيَاةَ الجَيِّدَةَ على قِمَّةِ جَبَلٍ، والآنَ أنتَ في الأراضِي المُنْبَسِطَةِ مع طاقِمٍ من فِتْيَانِ العِصَابَاتِ، ترسُمُ رائِعَةً على جِدَارِ كَنِيسَةٍ تجتمَعُ في مُتَنزِهِ صِنَاعِيَّيَّ“. وأطلقَ ضِحْكَةً رَقِيقَةً. ”كيفَ حَدَثَ ذلك؟“

ماذا كان في وُسْعِ رومان أن يقولَ؟ الأمرُ سَهْلٌ:

سَقَطَتْ مِيْنَا وَذَهَبْتُ إِلَى جَهَنَّمَ. صَرَخْتُ إِلَى الرَّبِّ
يَسُوعَ، فَأَنْقَذَنِي وَرَدَّنِي! ”النَّاسُ يُغَيِّرُونَ اتِّجَاهَاتِهِمْ
كُلَّ حِينٍ“. وَأَحَسَّ نَظْرَةَ بَرِيَانَ الْعَجَلَى.

بَدَأَتْ مَارْتِنَ غَيْرَ مُقْتَنِعٍ. ”لِمَاذَا أَتَيْتَ بِقِسْيِسٍ إِلَى
الْمُقَابَلَةِ؟“

”هُوَ صَدِيقٌ لَصِيقٍ“. وَرَجَّ ذَقِنَهُ نَحْوَ بَرِيَانَ. ”هُوَ
مَنْ طَلَعَ بِالْفِكْرَةِ“.

هَزَّ بَرِيَانَ رَأْسَهُ. ”أَنَا قَدَّمْتُ لِرُومَانَ الْجِدَارَ
فَحَسِبُ. هُوَ وَاللَّهُ فَعَلَا الْبَاقِي“.

رَمَقَتْ مَارْتِنَ رُومَانَ بِنَظْرَةٍ سَاخِرَةٍ. ”هَلْ تُوَافِقُ
عَلَى ذَلِكَ التَّصْرِيحِ؟ أَتَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَهُ يَدٌ فِي
الْمَشْرُوعِ“.

”نَعَمْ ثُمَّ نَعَمْ“.

”أَنْتَ مُؤْمِنٌ بِالْمَسِيحِ؟“

رَمَقَهُ رُومَانَ بِنَظْرَةٍ تَهَكُّمٍ. ”أَلَا أَبَدُ كَذَلِكَ؟“

ضَحِكَ بَرِيَانَ. ”تِلْمِيذٌ جَدِيدٌ“.

”كَيْفَ حَصَلَ ذَلِكَ؟“ نَظَرَ تَكَّ إِلَى بَرِيَانَ بِانْتِظَارٍ

جَوَابٍ.

أَمَالَ بَرِيَانَ رَأْسَهُ نَحْوَ رُومَانَ. ”اسْأَلْهُ عَمَّا جَرَى
فِي سَانْتَا كلَارِيْتَا“.

لَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمْ رُومَانَ، نَهَضَ بَرِيَانَ. ”سَأَذْهَبُ
لِإِحْضَارِ فِنْجَانِ قَهْوَةٍ آخَرَ. أْتَحْتَاجَانِ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ، يَا

سَيِّدَانِ؟“ وَلَمَّا لَمْ يُجِبْ أَيُّ مِنْهُمَا، مَشَى مُبْتَعِدًا عَلَى مَهْلٍ. عَلِمَ رُومَانٌ مَا أَرَادَ بَرِيَانٌ مِنْهُ أَنْ يَفْعَلَ، وَعَلِمَ آيَةً اسْتِجَابَةٍ سَيَتَلَقَى.

”حَصَلَتْ لِي نَوْبَةٌ قَلْبِيَّةٌ، وَمُتُّ عَلَى الرَّصِيفِ، وَذَهَبْتُ إِلَى جَهَنَّمَ. أَخْرَجَنِي يَسُوعُ الْمَسِيحُ.“

ضَحِكَ تَكْ مَارْتِنٌ. ”نَعَمْ، صَحِيحٌ.“ وَهَزَّ رَأْسَهُ ثُمَّ عَادَ جَادًّا. ”نُكِنْتُ عَظِيمَةً، وَلَكِنْ الْآنَ أُوذُّ أَنْ أَعْلَمَ مَا جَرَى حَقًّا.“

اكتفى رومان بأن نظراً إليه.

عَبَسَ مَارْتِنٌ وَتَفَحَّصَ وَجْهَ رُومَانٍ، وَقَدْ انْجَلَتْ سِيَمَاؤُهُ. ”لَمْ تَكُنْ تَمْرَحُ، أَكُنْتَ؟“

”مَا كُنْتُ قَطُّ فِي حَيَاتِي أَكْثَرَ جَدِّيَّةً مِمَّا أَنَا الْآنَ.“
سَأَلَ رُومَانٌ قَهْوَتَهُ، مُعْتَقِدًا أَنَّهُ قَالَ أَكْثَرَ مِمَّا يَكْفِي، حَتَّى أَحَسَّ دَافِعًا إِلَى الْمُتَابَعَةِ. ”مَا كُنْتُ أُوْمِنُ بِاللَّهِ. اشْطَبْتُ ذَلِكَ. رُبَّمَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِيقَةِ أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي كُنْتُ أَبْغَضُهُ. كُنْتُ قَدْ أَجْرَيْتُ تَوًّا مُحَادَثَةً حَامِيَةً مَعَ شَخِصٍ مُؤْمِنٍ بِالْمَسِيحِ. ثُمَّ دَعَوْنَا إِلَى هُدْنَةٍ، وَعَرَّجْنَا لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ. سَقَطْتُ مِيثًا عَلَى الرَّصِيفِ.“
وَارْتَجَفَ. ”إِذْ أَنْظَرْتُ إِلَى الْوَرَاءِ، يَبْدُو التَّوْقِيْتُ فِعْلَ عِنَايَةِ إِلَهِيَّةٍ.“

التوى فم مارتن بنصف ابتسامةٍ ساخرة، فيما اتكأ إلى الورااء. ”أخبرني كيف كانت الحال في جهنم.“

راز رومان سيماء تك مارتن. ”يوماً ما سوف

تختبرُ ذلك بنفسك“.

”أتلك طريقة لطيفة لتقول لي أن أذهب إلى جهنم؟“

”ارفض الرب يسوع، وذلك هو المكان الذي سوف تؤول إليه أخيرًا“.

”ستسمح لي بأن أذكر ذلك في مقالتي“.

”لست أستطيع أن أوقفك الآن، أستطيع؟“

رجع بريان لما أطفأ تك مارتن مسجلته ووضعها داخل حقيبته الظهرية. ”هل تعلم ما أخبرني تو؟“

”أرجو ذلك“.

ونظر إلى رومان باستحسان.

”اختبار تذوقك الموت“.

هز رومان كتفيه. ”إنه لا يصدقني“.

”كان خيرًا أن غريس كانت معه في سانتا كلاريتا،

وإلا مات. كانت تعرف كيف تجري التنفس

الاصطناعي والإنعاش“.

”غريس؟“ عاد اهتمام تك مارتن. ”قالت لي تاليا

رايذر إنه كان لك مساعدة شخصية سكنت وسافرت

معك“.

أحس رومان دفقة غضب جمائي. ”غريس لم

تسكن معي، بل كان لها مسكنها الخاص“.

لم يكن يهم بإخبار هذا المراسل الفضولي أنها سكنت في

جواره تمامًا في كوخ يملكه. ”إنها محتشمة كما

تكونُ المُسَاعِدَاتِ فِي أَفْضَلِ الْحَالَاتِ. وَإِذَا لَمَّحَتْ فِي مَقَالَتِكَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، فَسَاقِطِمْ رَأْسَكَ!

انكفأ مارتن مصدومًا.

”عُفْوًا، مِسْتَرِ مَارْتِنَ“. ضَحِكَ بَرِيَانَ ضِحْكَةً خَافِتَةً. ”رُومَانَ مُؤْمِنٌ حَدِيثٌ“.

رَفَعَ مَارْتِنَ يَدَيْهِ. ”لَمْ أَكُنْ أَقْصِدُ أَنْ أَلْمَحَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ“. تَكَلَّمَتْ مِزْ رَايْزَنَرُ بِتَقْدِيرِ عَالٍ عَنِ مِزْ مُورِ. قَالَتْ إِنَّكَ كُنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مُدَبِّرَةٍ، وَإِنَّ غَرِيْسَ كَانَتْ مُنْظَمَةً وَفَعَّالَةً وَمَدْعَاةً سُرُورٍ لِمَنْ يَعْرِفُهَا“.

حَدَّقَ رُومَانَ إِلَيْهِ. لَقَدْ عَرَفَ مَا سَيَكُونُ السُّؤَالُ التَّالِيَّ.

”أَوْدُ لَوْ أَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا“.

دَمَدَمَ رُومَانَ: ”أَنَا وَائِثِقُ بِأَنَّكَ تَوَدُّ ذَلِكَ“. مُتَمَنِّيًا لَوْ لَمْ يُوَافِقْ عَلَى الْمُقَابَلَةِ أَصْلًا.

نَظَرَ بَرِيَانَ إِلَى رُومَانَ ثُمَّ إِلَى تَكِ مَارْتِنَ مِنْ جَدِيدٍ. ”انْتَقَلْتَ غَرِيْسَ إِلَى خَارِجِ الْمِنْطَقَةِ“.

رَاقِبَ رُومَانَ تَكِ مَارْتِنَ مِنْ كَثْبٍ، فَرَأَى غَرِيْزَةَ الْمُرَاسِلِ تَفُورُ كَوَحْلٍ فِي بَالُوعَةٍ مَسْدُودَةٍ. وَلَمَّا نَظَرَ إِلَى رُومَانَ، رَدَّ رُومَانَ حَمَلَقَتَهُ، تَارِكًا الْغَضَبَ يَظْهَرُ. اسْأَلَ عَنِ غَرِيْسَ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَسَوْفَ تَنْدَمُ!

ارْتَفَعَ حَاجِبًا مَارْتِنَ حَالًا. وَإِذِ اسْتَرَخَى وَجْهَهُ، مُلَغَزَّ السَّبِيْمَاءِ، انَّكَأَ إِلَى الْوَرَاءِ وَهَدَّأَ أَعْصَابَهُ. ”يُوجَدُ فِي السُّوقِ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتُبِ الْأَفْضَلِ مَبِيْعًا عَنِ اخْتِبَارَاتِ

مُقَارِبَةِ الْمَوْتِ فِي السَّمَاءِ، وَفِيلْمَانِ سِينِمَائِيَّانِ أَيْضًا.
لَا أَتَذَكَّرُ أَيَّ كُتُبٍ عَنِ جَهَنَّمَ“.

رَدَّ رُومَانِ ابْتِسَامَةً مَارْتِنِ السَّاحِرَةَ بِوَاحِدَةٍ مِنْ
عِنْدِهِ. ”لَيْسَ اخْتِبَارًا أَرِيدُ أَنْ أَتَذَكَّرَهُ. لِمَاذَا قَدْ أَوَدُّ أَنْ
أَكْتُبَ عَنْهُ؟“

”فِي وَسْعِكَ أَنْ تُوَضَّفَ أَحَدًا لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ“.

فَقَالَ رُومَانِ شَاخِرًا سَاخِرًا: ”مِثْلَكَ؟ أَنْتِ لَا
تُصَدِّقُنِي“.

”قَدْ أَصَدَّقْتُكَ إِذَا تَحَدَّثْتَ قَلِيلًا بَعْدَ“.

جَلَسَ بَرِيَانِ سَاكِنًا، مُلَاحِظًا إِيَّاهُمَا بِوَضُوحٍ.

وَاصَلَ مَارْتِنِ إِصْرَارَهُ. ”يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُحَذِّرَ النَّاسَ،

أَلَا تَعْتَقِدُ ذَلِكَ؟ أَلَيْسَ هَذَا وَاجِبَكَ الْمَسِيحِيِّ؟“

صَرَ رُومَانِ بِأَسْنَانِهِ لِيَمْتَنِعَ عَنِ إِخْبَارِ مَارْتِنِ أَيْنَ

يُمْكِنُهُ أَنْ يَذْهَبَ وَمَاذَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَ بِنَفْسِهِ حَالَمَا

يَصِلُ إِلَى هُنَاكَ.

أَنْجَدَهُ بَرِيَانِ. ”مَا بَرِحُوا يُحَذِّرُونَ. ذَلِكَ كُلُّهُ

مَكْتُوبٌ وَاضِحًا بِالْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ. مُعْظَمُ النَّاسِ

يَحِبُّونَ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ فِي وَسْعِهِمْ أَنْ يَكُونُوا

صَالِحِينَ كِفَايَةً حَتَّى يَدْخُلُوا بِوَابَةِ السَّمَاءِ. إِنَّمَا

الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ لَيْسَ أَيُّ وَاحِدٍ مِنَّا صَالِحًا كِفَايَةً.

فَالْمِفْتَاحُ فِي يَدِ الرَّبِّ يَسُوعَ“.

”تِلْكَ عَقِيدَةُ الْحِزْبِ!“

مال بريان إلى الأمام، ويداؤه مُرتجيتان حول
فِنجانِ قهوته الجديد. "قبل أن تمضي، هل لي أن
أسألك سؤالاً؟"

"نشأت في بيت «مسيحي»". تقست قسماً
مارتن. "رأيتُ الدينَ عياناً".

راقب رومان وأصغى، مدهوشاً حيالاً السُّهولة
البالغة التي بها استطاع بريان دفع الناس إلى التَّكلم.
لعلَّ السِّرَّ كَمَنَ في الطَّرِيقَةِ التي بها أصغى، مُفَعِّمًا
بِالحُنُوِّ دونَ حُكْمٍ أو إدانة. وقد تبينَ أنَّ مارتن كان
من عائلةٍ مؤمنةٍ بالمسيح، مُجتهدةٍ في العمل، تنتمي
إلى الطَّبقةِ الوُسطى، ولكن ليس من النوع المُحبِّ
الذي كانَ لِبَريان. وكان أبو تك مُسَيِّطِراً وغيرَ
مُتساهلٍ حِيالٍ أيِّ شَخِصٍ لم يُشاركه في آرائه.

"لقد تيقنَ بأن أكونَ جالساً في صَفِّ المقاعد كلِّ
يومٍ أحد، لابساً بدلةً وربطةَ عُتُق". وهزَّ كتفِيه
لامبالاةً. "ما لِبِسْتُ ربطةَ عُتُق منذُ غادرتُ البيت!"

"كيفَ علاقتُك بأبيك الآن؟"

هزَّ تك رأسه. "ما زالَ على حاله، لكنَّ أكبرَ سناً
ومُتعباً. لقد ذوى حالماً ماتت ماما. ما زالَ يذهبُ إلى
الكنيسة. أخواتي وعائلاتهنَّ أيضاً يذهبن. أحبُّ أبي،
ولكننا نختلفُ على كلِّ شيءٍ فعلاً. أراه مرةً في
السَّنة، ونلتزمُ المواضيعَ الآمنة". ثمَّ أطلقَ ضحكةً
كئيبةً. "صيدُ السَّمَكِ، ذاكَ مدارٌ حديثنا".

إذ ذاك قال له بريان- وهو صيِّادٌ بشر- إنَّ بينَ
الدين والإيمان فرقًا كبيرًا.

رَنَ تَلْفُونُ تَك مارتن. فاستأذَنَ وتفقَّدَ الرِّسالة.
”لقد نسيْتُ الوقت. عليَّ أن أمضي على عجل.“
وقفَ رومان وبريان كِلاهُما. فصافَحَ تَك كِليهما،
وشكرَهُما على وقتِهما. ثُمَّ نَظَرَ إلى رومان. ”أَتَشغَلُ
بأيِّ شيءٍ آخَرَ؟“

”ليس بأيِّ شيءٍ أنوي عرضَهُ أو بيعَهُ.“ أحسَّ
رومان نظرةَ بريان. كانا صديقينِ أَفضَلين، ولكنَّ ذلك
لم يَعنِ أَنَّهُ كان عليه أن يُخبرَ بريان بكلِّ شيءٍ.
علقَ تَك حقيبتَهُ على كتفِيه. ”قُمْتُ بالتَّكَلُّمِ في
هذا الصَّبَاح أَكثَرَ مِمَّا قُمْتُما به كِلاكُما معًا.“

فابتسمَ بريان. ”رُبَّما كان يُعوزُكَ أن تفعلَ ذلك.“
ثُمَّ أَخْرَجَ بِطاقةَ تعريفٍ وناوَلَهُ إيَّاهَا. ”في أيِّ وقتٍ.“



قرَعَ بريان بابَ رومان ذلكَ المساء. ”فكَّرْتُ أَنك قد
تكون مُستيقظًا.“

رجَعَ رومان إلى الأريكة، فمدَّ رِجْلِيه ووضَعَ قَدَمِيه
على طاوِلَةِ القهوة. ثُمَّ أَطفا مُباراةَ كُرَّةِ السَّلَّة. ”كيف
جرى اجتماعُ الهيئة؟“

”كانَ طويلاً، شأنه شأنُ اليوم. أنا مُرهَق.“ وقد
وقفَ في حُجرةِ الجلوس.

عِلْمَ رومان أَنْ شَيْئًا ما كان في باله. ”إِذَا، ماذا أنتَ فاعِلٌ هُنَا؟ اقْعُدْ أو اذهبْ إلى بيتك ونَلْ قِسْطًا من النَّومِ“.

”لنْ أتمكّنْ من النَّومِ حتّى أشبعَ فُضولي“. وأمالَ رأسه. ”أودُّ أن أرى ما تشغِلُ به“.

”لمْ يُنجِزْ“.

”لستُ ناقدًا“.

هزَّ رومان كِتْفِيه، ودخَلَ غُرْفَةَ النَّومِ الثَّانِيَةِ. كانتْ مُخَطَّطَاتُ رُسومٍ مُبَعَثَرَةٌ على لَوْحِ الرَّسْمِ. واستقرَّتْ قِماشَةٌ كَبِيرَةٌ على حَامِلِ لَوْحَاتِ. فكان على بريان أن يَنْتَقِلَ إلى طَرَفِ الغُرْفَةِ الأخرِ لِيَرَاهَا. ”أوه، ربّاه!“ وقد تكلمَ بِرِقَّةٍ ومهابة. ”إنّها جميلة“.

”كان في وُسْعِي أن أستعملَ مزيدًا من الضَّوءِ“. شعَرَ رومان بالترفة والانكشاف. ”كانَ أفضلَ لو أنجزتَ هذه اللُّوحةَ في بيئَةٍ ثوينغا كانيون“. وبوجودِ المُوديلِ المُناسبِ. ثمَّ انضمَّ إلى بريان ودرَسَ اللُّوحةَ بِعَيْنِ ناقدِ.

شابَّةٌ، في مرحلةٍ مُتقدِّمةٍ من الحَمَلِ، لابسةٌ ثِيابًا شَرْقِيَّةً، تقفُ بِاسِطَةً إحدى يَدَيْهَا فوقَ أعلى بَطْنِهَا المُنتَفَخِ، والأخرى تحتَضِنُ أسفَلَهُ، كما لو كانت حَامِلَةً الطِّفْلَ غيرَ المولودِ بعد في عِنَاقِ رقيقِ. وقد نَمَّتْ سِيماؤُها عن عَجَبٍ ومهابة.

”ماذا تُسمِّي هذه اللُّوحةَ؟“

”الحلول“.

”إنَّهَا تُشْبِهُ غَرِيسَ“.

قفز قلب رومان، ولكنَّهُ لم يَقُلْ أيَّ شيء. كان يُصَلِّي قبلَمَا قرَعَ بريان الباب تَوًّا. إذا كانَ اللهُ يُريد له أن يبيحَ عن غريس، وجَبَ أن يأتِيَ ثلاثة أشخاصٍ على ذكراها دونَ أيِّ تشجيعٍ من قبَله. والآن، ها هو بريان، بعدَ دقائق قليلةٍ فحسب، قد فعلَ ذلك تمامًا.

الرَّقْمُ واحد.

خاف رومان أن يأمل. لقد آذاهُ الأمل.

عبَسَ بريان. ”ما ذكَّرتُها في غضونِ شهور“.

”ما من شيءٍ أتحدَّثُ بشأنه“.

”ما زلتُ تُحبُّها“.

”دعك من الأمر، بريان“. ودخَلَ رومان حُجرةَ

الجلوس، ثمَّ شغَلَ مُباراةَ كُرَّةِ السَّلَّةِ من جديد.

فجلسَ بريان على المقعدِ المُريح كما لو كانَ ينوي

البقاءَ إلى حين. وابتسمَ له رومان ابتِسامةً ساخرة.

”ظننتُ أنَّكَ مُتعب“.

”في وُسعي أن أحصلَ على عُنوانِها من شانيس،

إذا أردتَه“.

ثارَتِ التَّجربةُ بشرعة. تمالكَ نفسه قبلَ

الاستِسْلام. ”أحسنُ إذا لم أعرفه“. إذا علمَ أينَ هي،

فربَّما لا يتمكَّنُ من انتِظارِ توقيتِ اللهُ.

”لِمَ لا، رومان؟ أنت لست الرَّجُلَ الذي كُنْتَه“.

”لستُ الرَّجُلَ الذي تحتاجُ هي إليه“.

ضحك بريان وهزَّ رأسه. ”أضعُ إلى نفسك مُمَثِّلاً دورَ الشَّهيد. إذا كان كلُّ ما تُريدُه هو ممارسة الجنس، فعندئذٍ أوافقك في الرأي. دَعها وشأنها. ولكنك تُريدُ أكثر، أليس كذلك؟“

”لقد بسطتُ جِزِّي، بريان“. لا بُدَّ أن يفهم بريان. فإنَّ جدعون، ذلك القاضي المذكور في العهد القديم، بسَطَ جِزَّةَ صُوفٍ مرَّتينِ لكي يتحقَّقَ أنَّ الله قد تكلم، وأنَّ ما سمِعَه لم يكن مجردَ تخيُّلٍ من قبله. علِمَ رومان أنَّ طلبَ ثلاثة توكيداتٍ كانَ مُبالغةً، ولكنَّهُ أرادَ أن يتيقنَ بأنَّ الله كان يدفعُه، وليس قلبُه الأثيمُ يوجِّهُه. يُعوِّزُني أن أتيقنَ، يا ربُّ. أعلمُ ما أريد، ولكن تَمُرُّ أيامٌ كثيرةٌ فيها لا أكونُ بعدُ على يقينٍ بشأنِ ما هو صائبٌ.

”طيبٌ“. وقفَ بريان. ”أحسنُ لي أن آويَ إلى السَّرير، وإلا فسأكونُ أكثرَ إعياءً من أن أواجهَ يومَ غد. لَدَيَّ مواعيدُ إرشادٍ طوالَ قِبَلِ الظُّهر، وهكذا لن ألتقيك على الغداء“. فما برحاً يلتقيانِ كلُّ أربعاءٍ على مدى شهور. فتحَ بريان الباب، ثمَّ التفتَ ناظرًا إلى رومان. ”ذكَرتَ الذهابَ إلى سان فرانسيسكو بعدَ إنجازِ الجِدَار. أما زلتَ تنوي القيامَ بتلك الرِّحلة؟“

شيءٌ آخر ما انفكَّ الله يدفعُه إلى القيام به. ”ما

بَرِحْتُ أَفْكَرُ فِي ذَلِكَ“.

”مهما كان ذاك الذي يؤخرك، فتذكر أنك نجوت من المحنة أصلاً.

”ذلك لا يعني أنني أريد أن أعيشها من جديد“.

شاهدَ رومان مُباراةَ كُرَّةِ السَّلَّةِ بعدَ مُغادرةِ بريان، أو حاولَ مُشاهدتها. ظلَّ يُفكرُ في الذهابِ إلى سان فرانسيسكو. ألن يكونَ بتاتًا في سلامٍ إلى التَّمامِ إلَّا إذا رجَعَ إلى الحَيِّ المُستَهترِ وقامَ بِجولةٍ بطيئةٍ على مرِّ ماضيه؟ أيُّ خيرٍ في تذكُرِ النواحي الرديئةِ والغضبِ والخزي التي ورطتني في كثيرٍ من البَلايا؟ لماذا، يا ربِّ، تدفَعُني باستمرارٍ إلى القيامِ بهذا؟ ماذا تُريدُ مِنِّي، أيُّها الرَّبُّ يسوع؟

اذهبِ بِعَيْنينِ مفتوحتين، بُبي راي. ابحَثْ عَنِّي.

قَفَّ الشَّعْرُ على قفا رقبةِ رومان. لقد عرَفَ ذلك الصَّوتَ الخفيفَ الهادئ. لَمَّا صدرَ الاقتِراحُ من بريان، تجاهلَهُ رومان. إنَّما الآنَ كانَ أمرًا.

أعرِفُ ما جرى هُناك، يا ربِّ. لقد اعترفتُ به. لماذا تستمرُّ في مُطارِدتي بشأنه؟

أرادَ رومان أن يستمرَّ في انتِحالِ الأعداء، ولكنَّهُ عِلِمَ أَنَّهُ لن يلقى أيَّ سلامٍ في عَدَمِ الطَّاعة. فأتكأ إلى الورا، فارِغًا وجهه. وإذ أرخى يديه، حدَّقَ إلى الغلاء. حسنًا، حسنًا. تلقَّيتُ الرِّسالة. إنَّما لا تتوقَّعُ مِنِّي أن أكونَ مَسرورًا حِيالها.



غادرت غريس حرم جامعة كاليفورنيا في ميرسد
مُبتهجةً جدًا. فاجتماعها مع عميد القبول جرى أفضل
بكثير من المتوقع. وقد حوّل سجلها المدرسي من
جامعة كاليفورنيا في لوس أنجليس، فحظي بإعجاب
العميد. كان في وسعها أن تؤهل لمعونة مالية، وقد
كان لدى قسمي التربية وعلم الاجتماع برامج اختبار
للأولاد. وكان صمويل مستعدًا لأن يكون طفل
تجارب جيدًا، ولكن كان سيفوته وقت اللعب مع
متياس. وقد انسجم الصبيان الصغيران معًا أفضل
من أخوين.

في أثناء سوقة الرجوع إلى البيت، فكرت في
مقدار الوقت الذي يتطلبه VirtualGrace.biz. كانت
المنحة الجامعية شيئًا، والمعونة المالية على شكل
قرض شيئًا آخر. سثقلُ دخلها بالتقليل من ساعات
العقل، وسترتب عليها أيضًا دينًا مدرسيًا. وكان حسنًا
وجيدًا من كل وجه أن تحلم بالعودة إلى الجامعة،
ولكن أعوزها أن تفكر هل كان الآن هو الوقت
الصحيح. كان صمويل يتغيّر بسرعة بالغة، بحيث لم
تُرد أن تُفوت دقيقة واحدة معه. سبق أن تطوّعت
دوروثي لتأدية دور حاضنة له، ولكن غيابها عنه قبل
الظهر ثلاثة أيام ومساءين كل أسبوع كان وقتًا يفوق
الحد. ففي وسع تعلمها أن ينتظر حتى يصير صمويل

كبيرًا كفايةً ليذهب إلى روضة الأطفال.

ولكنها عندئذٍ قد تُقرّر أن تُعلّمه في البيت.

أطلقت غريس ضحكةً رقيقةً وهي تُوقِفُ السيّارة أمام الكوخ. "تخميني أنّه يُفترض أن أنتظر، يا ربّ".

فبوجودٍ كثيرٍ جدًا من الأسئلة والمشاعر المتضاربة، لم تُرد أن تمضي قُدّمًا. كلُّ شيءٍ في توقيتِ الله المُمتاز. ولم يبدُ أنّ ذلك هو الآن.

حضرتِ الخالة أليزابث إلقاءً نهايةً الأسبوع. وفيما هي تضحكُ بينها وبينَ نفسها، وضعت حقيبتها المُعدّةً للرحلات القصيرة على المِزينة. "لا أستطيع أن أصدّق أنّي سأنام في سريرِ سيّارةٍ سباق!" لقد كان سريرًا مُزدوجًا، كاملَ الحجمِ ومُريحًا.

"صمويل لن يُمانع". وقبّلت غريس عنقه فيما هو مُمتطٍ وركّها. "سينامُ بجانبِ مامي".

دعاهم جورج ودوروثي إلى فطورٍ متأخرٍ نهارَ السّبت. "سنُغادرُ إلى سان فرانسيسكو يومَ الاثنين".

"جولةٌ سياحيّةٌ أخرى". تنهّد جورج بطريقةٍ مسرحيّة. "إنّها تدخلُ الإنترنت، وتجدُ صفقات، وتصطحبني قسرًا".

"كفّ عن التّظاهر بأنك لا تحبّ ذلك". ضحكت دوروثي، معترِفةً بأنّها أحبّت الجولاتِ السياحيّة في سفنِ برنسس، وقد قفزت إلى مُتوينهنّ في آخرِ دقيقةٍ بِحجوزاتٍ زهيدةٍ الكلفة. "الرحلةُ أسبوعٌ واحدٍ فقط

هذه المرّة، نُزولًا إلى المكسيك ورجوعًا منها“.

غمز جورج بعينه. ”لن تُضطرَّ إلى الطبخ“.

ابتسمت الخالة أليزابث. ”حسنًا، قبل أن تحبّزي لرحلةٍ أخرى. دوروثي، أوّد لو تنزّلين إلى فرّسنو. يُمكننا أن نتغدى معًا. أريدُ لك أن تُقابلي صديقتي ميرندا سيّنسر. بينك وبينها أشياء مُشتركة كثيرة“.

فوجئت غريس باستعدادِ خالتها للمشاركة.

”يُعجبني ذلك جدًّا!“ وذهبت دوروثي لإحضار مُفكّرتيها. وإذ اتّفقتا على مَوعِد، طلّعت دوروثي بفكرةٍ أخرى. ”لِمَ لا أصطحبُ صمويل؟“

”سُحبُ ميرندا أن تراه“.

لم تكن غريس على استعدادٍ للتّخلي عنه في رحلةٍ نهارٍ كاملٍ إلى مدينةٍ أخرى، ولم تُرد أيضًا أن تجرّح مشاعرهما. ”أنا آسفة، يا سيّدتان، ولكنّ ابني أصغرُ من أن يتسكّع مع نساءٍ أكبرَ سنًّا!“

ضحكت دوروثي والخالة أليزابث، ولم تُلحًا.

بينما تحدّثن وتمتّعن بِعصرِ النّهار جميعًا، استعرّضت غريس في فكرها أحداثَ الأشهرِ القليلةِ الماضيةِ وعدّت البركات. لقد دبّر الله سدّ كلِّ احتياجاتها. وكان لها بابُ رِزقٍ، وصديقاتٌ جديداً وقديماً على السّواء، وأسرةٌ كنسيّة. وقد باتت الخالة أليزابث الآنَ مَعنيّةً بِحياتها على نحوٍ مُتّسِمٍ بالمحبّةِ وعدمِ الاستبداد. إنّما شيءٌ واحدٌ فقط حالّ

دون شعورٍ غريسٍ بالسَّكينةِ والسَّلامِ: رومان
قيلاسكو. لقد تغيَّرَ إلى حدٍّ بعيدٍ، إذا دلَّتِ المقالةُ
الأحدثُ على شيءٍ ما. فقد أخبَرَ المُراسِلَ عن حياته
المُغيَّرةِ ونتاجه الفنِّيِّ، بل أيضًا عن اختيارِ مُقاربتِه
الموتِ في جهنَّم. وقد حضرَ المُقابَلَةَ القِسيِّسُ بريان
هنلي، وأشيرَ إلى بأقواله بِضَعِ مَرَّاتٍ. وكانتِ شانيِس
قد أخبَرَتِ غريسَ أنَّ الرَّجُلَيْنِ باتا صديقَيْنِ لصيقَيْنِ.

رُبَّما كان حُبُّها لِرومان هو الصَّليبُ الذي سثُضَطُّ
إلى حَمَلِه. أو هكذا خيَّلَ إليها منذُ أن انتقلتِ إلى
ميرسيد. امضي قُدِّمًا، غريس. كُفِّي عن لَعِبِ لَعِبِ
ليت ولو. رُبَّما أنَّ الأوانُ لأنْ تتَّصلَ به وتُحدِثَه
وتتمنَّى له الخير. وإذا بِرَقِمِ هاتفِه يُوافقِها حالًا،
مُشكِّلا إغراءً دافئًا مُدغِدًا بِلمسَةِ لِشاشَةِ تِلِفونِها
الخلويِّ. ثمَّ ماذا؟ أغمضتِ عينيها وصلَّت. أينبغي لي
أن أتَّصلَ به، ربَّاه؟ أينبغي لي أن أفتحَ البابَ؟

سُكوت. لم تتوقَّع أن تسمعَ صوتَ الله، ولكنها
أرادت أن تشعُرَ بالصَّوابِ حيالَ الأمر. ولمَّا لم تشعُر،
عرَفَتِ الجواب.

انتظري.



استيقظَ رومان لمَّا تذبذبَ تِلِفونُه الخلويُّ على
المنضدة بجانبِ سريره. ومدَّ يده مُترنِّحًا ليأخذَه،

فأسقطه على الأرض المُغطّاة بالسّجاد. هُوِيَّةُ
المُتّصل: شانيس. ما كانت لِتتّصل إلّا إذا حصل أمرٌ
طارئ. وإذ استيقظ تمامًا، التقط التّلفون. ”بريان
بِخَيْر؟“ وقد بدا صوته خَشِنًا من النّوم.

”بريان بِخَيْر. هو مع عائلة مَفجوعة في
المُسْتشفى، ولا يستطيعُ أن يذهبَ معي إلى نادٍ ليليٍّ
لِمُساعدةِ صديقة. طَلَبَ إليّ أن أتّصلَ بك.“
”ما المُشكلة؟“

”رفيقةُ حُجرتي السّابقة، دينا. تسجّلت في برنامجِ
مُعافاةٍ منذُ مُدّة، ثمّ اتّصلت بي من نادٍ. لا بُدّ لي من
إخراجها من هُناكَ قبل أن تفعلَ شيئًا ما ستندمُ عليه.
لقد سبقَ لي أن انحدرتُ فعلاً في ذلك السّبيل، ولا
أريدُ أن يتكرّر السّيناريو. هل تستطيعُ أن تذهبَ
معي؟“

”أينَ أنتِ؟“

”أوقفِ السّيارةَ قُدّامَ شقّتك.“

”مُوافق، إنّما إذا سُقتُ أنا فقط.“ لقد بدت مُتوتّرةً
جِدًّا، بحيثُ لم يعتقدُ أنّها ينبغي أن تكونَ خلفَ
المِقوود.

”حسن، لكنْ عَجِّل! رجاءً.“

استغرق ارتداؤه ثيابه خمسَ دقائق. ثمّ استعملَ
الدَّرَجَ بدلًا من انتظارِ المصعد، وهرولَ إلى السّيارة،
حيثُ وجدَ شانيس مُحزّمةً فعليًا على مقعد الرّكاب.

كان المُحرِّكُ شغلاً، بانتظار الانطلاق، لَمَّا فَتَحَ بابَ السَّائِقِ.

”شُكْرًا، رومان. قالَ بريانُ إنَّكَ ستأتي حاليًا لِمْسَاعَدَتِي.“

”إلى أينَ نحنُ ذاهبان؟“

”إلى أفتر دارك. أستطيعُ إعطاءكَ العُنوانَ.“

تفوّه بكلمةٍ بذيئةٍ همسًا. ”أعرفُ أينَ هو.“

”أوه!“ التفتت شانيس ناظرةً إليه، وقد أجفَلت.

”ذكرياتٌ بغيضةٌ؟“

”مُجرَّدُ مُذكِّرٍ بِمَنْ لم أكنُ منذُ مُدَّةٍ طويلةٍ جدًّا.“

”حسنًا، لا تُحسَّ كما لو كُنْتَ الجوّالَ المُستوحدَ.

قبلَ ثلاثِ سنينَ، كُنْتَ ستراني هُناكَ كلَّ ليلةٍ جُمُعةٍ

وسبت. بريانُ يعرفُ ذلكَ، في حالٍ تساءلتُ. أُحِبُّ

المَرَحَ. الفرقةُ الموسيقيةُ رائعةٌ، وأنا أُحِبُّ أن

أرقصَ.“ ورمقتهُ بِنظرةٍ ساخِرة. ”أذلكَ سببُ ذهابِكَ

إلى هُناكَ؟“

”أستطيعُ أن أرقصَ، ولكن لا، ليسَ ذاكَ سببَ

ذهابي إلى ذلكَ النادي.“

أحسَّ رومان أنها تتأمَلُه.

”ذهبتُ لِلْمُغازلةِ.“ نظرتُ أمامها مُباشرةً. ”أتصوّرُ

أنَّكَ كُنْتَ تستطيعُ أن تتنقِّيَ مَنْ شئتَ مِنَ النِّساءِ

الرَّاغباتِ، حتَّى لو لم تكنُ تستطيعُ أن ترقصَ.“

ومرّت دقيقةً فيها لم تقل أيّ شيء، ثمّ التفتت إليه.
”هل كانت غريس سببَ توقُّفِكَ عن الذهاب؟“

ظَلَّ يسوق، وعيناهُ ناظرتانِ أمامه مُباشرةً. طلبتُ
ثلاثَ علامات، يا ربُّ، وها شانيس الآن تأتي على
ذِكْرِ غريس. واحدةً بعد، يا ربُّ. يا يسوع، رجاءً،
واحدةً بعد.

”لا، توقّفتُ عن الذهاب قبلما التقيتُ غريس“. ثمّ
زَلَّ إلى الطّريق الحُرِّ وزادَ السّرعة، مُتسللاً بسهولةٍ
بينَ السّيّارات حتّى وصلَ إلى المجاز السّريع.
”ماذا جعلكَ تكفُّ عن الذهاب؟“

”أردتُ أكثرَ ممّا وجدتهُ هناك“. ثمّ ساقا عشرَ
دقائق في صمت. لمَحَ مَبْنَى مواقف مألوفًا، فمالَ إليه
وسحَبَ بِطاقةً من الآلة.

اعترفتُ شانيس: ”اصطحبتُ غريس مرّةً إلى
هنا“.

ضحكُ رومان غيرَ مُصدِّق. ”ماذا فعلتِ؟ هل
جذرتِها؟“

لم تضحكُ شانيس. ”تقريبًا. ما عرَفْتُ قطُّ زوجها
ياتريك. التقيتُ غريس بعدَ طلاقِها. جاءت إلى
اجتماعِ مسائيٍّ لدرس الكتاب المقدّس. كُنّا، نيكول
وآشلي وأنا، قدِ اعتدنا أصلًا أن نلتقيَ على الغداء كلَّ
يومٍ أحدٍ بعدَ الكنيسة، فدَعَوناها كي تنضمَّ إلينا.
وكانت آشلي تذهب إلى النّادي معي بينَ الفينّة

والفينة. هي تحبُّ أن ترقُصَ أيضًا، ولكنها لم تُدعَ دائماً. فالرجالُ ميَّالون إلى دعوة الشُّقْرِ الزُّرْقِ الأَعْيُنِ. على كُلِّ حال، لم تذهب غريس قط. كُلُّ ما فعلته كانَ العملُ سِتَّةَ أَيَّامٍ في الأسبوع، والكنيسةَ يومَ الأحد. لم تكن لها حياة. خُيِّلَ إليَّ أنها كانت تحتاجُ إلى الاسترخاء والاستمتاع قليلاً. وسرَّحتُ نظرَها بعيداً. "أنا حمقاء!"

لمَحَ رومان موقِفاً، فانعطفَ إليه حالاً. أرادَ أن يسمعَ المزيد، ولكنَّ شانيس كانت قد أخذت فِعْلاً تترجَّلُ من السيَّارة.

لم يكنِ النادي قد تغيَّر. ومع أنَّ الوجوه كانت مُختلِفة، فالمشهدُ كان هو إيَّاه: رجالٌ متسكِّعون ونساءٌ تواقات. ثنائياتٌ يرقصون على الإيقاعِ المُشبعِ بالبُخار، مُنتشِبين كأنَّهم يتواقعون وقوفاً مُرتدين كاملَ ثيابهم. ولم يستطع أن يتصوَّرَ غريس في مكانٍ كهذا. فإنَّ نظرةً واحدةً إليها في بنظَّونها الأسود، وبُلوَرتها البيضاء، وعقدها اللؤلؤيِّ ذي الطَّاق الواحد، كان من شأنها أن تقولَ لِكُلِّ شخصٍ هُنا إنَّها لا تنتمي إلى هذا المكان.

"ها هي دينا هُناك". أومات شانيس برأسها نحوَ المَشْرَبِ، وشقَّت طريقها نحوَ فتاةٍ يحومُ حولها شابَّان. فتبَّعها رومان، مُستعدًّا لأن يتدخَّلَ إذا وُجِدَت مُشكِلةً ما. قالت شانيس شيئاً ما للرجلين جعلَ دينا

تحتجُّ والذَّجَلِينَ يَنكفِئَان. ثُمَّ مَالَتْ شَانِيسَ إِلَى دِينَا
وَتَحَدَّثَتْ إِلَيْهَا، فِيمَا كَانَ وَاضِحًا أَنَّ دِينَا تُجَادِلُ. وَإِذْ
رَأَى رُومَانَ أَنَّ إِقْنَاعَ شَانِيسَ لَصَدِيقَتِهَا بِالمُغَادِرَةِ
سَيَسْتَفْرِقُ وَقْتًا، جَلَسَ إِلَى المَشْرَبِ وَطَلَبَ قَنِينَةَ
كُولَا.

انْسَلَتْ شَقْرَاءُ جَذَابَةً إِلَى الكُرْسِيِّ العَالِي فِي
جِوَارِهِ. كَانَ فُسْتَانُهَا الأَسْوَدَ قَصِيرًا وَضِيْقًا وَمُنْحَسِرًا
فَوْقَ فَخْذَيْهَا، وَأَعْلَاهُ كَاشِفًا. وَابْتَسَمَتْ لِرُومَانَ.
”أَخِيرًا، رَجُلٌ يَبْدُو مُشَوِّقًا“.

قَامَ رُومَانٌ وَوَقَّفَ بِجَانِبِ شَانِيسَ.

رَفَعَتْ دِينَا نَظْرَهَا إِلَيْهِ. ”أُوهُ، عَجَبًا! مَنْ أَنْتَ؟“

”دِينَا، هَذَا صَدِيقِي، رُومَانٌ قِيلَاسِكُو. هُوَ هُنَا
لِمُسَاعَدَتِي عَلَى إِصَالِكِ إِلَى البَيْتِ سَالِمَةً“.

”حَسَنًا“. وَابْتَسَمَتْ لَهُ ابْتِسَامَةً خَرْقَاءَ، غَائِمَةً
العَيْنَيْنِ. ”سَأَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ“. وَلَمَّا بَدَأَتْ
تَقِفُ، ارْتَحَتْ قَلِيلًا، فَزَلَّقَ رُومَانٌ ذِرَاعًا حَوْلَهَا لِيُبْقِيَهَا
مُسْتَقِيمَةً.

وَمَا إِنْ خَرَجُوا ثَلَاثَتَهُمْ مِنَ البَابِ الأَمَامِيِّ إِلَى
هَوَاءِ اللَّيْلِ البَارِدِ، حَتَّى أَنْتَ دِينَا. ”سَيُصِيبُنِي
غَثْيَانٌ“. ثُمَّ انْحَنَّتْ عِنْدَ الخَصْرِ وَتَقِيَّاتٌ عَلَى رَصِيفِ
المُشَاةِ. زَمَرَتْ سَيَّارَةً فِي أَثْنَاءِ مُرُورِهَا، وَمَدَّ بِضِعَّةَ
مُراهِقِينَ رُؤُوسَهُمْ مِنَ النَّوَافِذِ، ضَاحِكِينَ وَمُعَلِّقِينَ
تَعْلِيقَاتٍ فَظَّةَ.

انتحبت دينا. "آه! أريد أن أموت..."

"نعم، أعرف هذا الشعور، حبيبتى". تولت شانيس الأمر واقتادتها إلى موقف السيارات، حيث تقياث ثانية، في صفيحة قمامة هذه المرة. وقد وقف رومان جانبًا، مُستعدًا للمساعدة إذا دعت الحاجة. وتحدثت المرأتان بصوتٍ مُنخفض. ثم بدأت دينا تبكي، فطوّقتها شانيس بإحدى ذراعيها. وخالَج رومان شعورٌ بكون ذلك مألوفًا لديه.

غالبًا ما كانت أمه تُغرق نفسها في غمرة المُسكر بعد ليلةٍ تسكع. وكانت تبكي وتُحدث نفسها مُغممةً. وأحيانًا كانت تُدخن القنب حتى تصير أكثرَ بلادةً من أن تُبالي بأيِّ شيء، ولا به هو.

استطاعت دينا أن تصل إلى سيارة شانيس اللكسس مشيًا على قدميها. وظلت تبكي وتحكي بصوتٍ خفيض فيما ثبتت شانيس جزام المقعد حولها. ثم أرجعت شانيس شعر دينا عن وجهها وطلبت إليها أن تُحاول النوم. ستصل إلى بيتها عاجلاً. إنما استغرق الوصول إلى منزل أبوي دينا فوق ساعة، وقد باتت صاحبةً كفايةً حتى ارتبكت. فاعتذرت كثيرًا إذ ساعدتها شانيس على النزول من السيارة.

وترجل رومان أيضًا. "أحتاجين إلى مُساعدة؟"

"أحسن إذا أدخلتها وتكلمت إلى أهلها. قد

يستغرق الأمر قليلاً من الوقت، رومان“.

”لن أذهب إلى أي مكان“.

مضت ساعة أخرى قبلما رجعت شائيس وتهاككت على مقعد الزاكب. ”شكراً على المجيء معي، رومان. لَمَّا اتَّصَلت، تَلَقَّيْتُ الأَمْرَ كَصْرَخَةٍ اسْتِغَاثَةٍ“. وأسندت رأسها إلى الوراء. ”أكره ذلك المكان“.

”ماذا نفرك منه؟“

”غريس“. هزّت رأسها. ”كنت أخبرك كيف أردت لها أن تمرح قليلاً؟ حسناً، جعلتها تُرخي شعرها تلك الليلة. كان طويلاً آنذاك، وأشقر. وجعلتها ترتدي واحداً من فساتيني السوداء الصغيرة المثيرة“. وهزّت رأسها ثانية. ”رَمَيْتُ ذَلِكَ النُّوعَ مِنْ خَزَانَتِي بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ“. وتنهّدت. ”دَخَلْنَا نَادِيَّ أَفْتَر دَارِك، فَجَمَدَتْ غَرِيسُ فَاغِرَةً فَمَهَا. وَظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مَرَحًا صَاحِبًا، فَجَرَرْتُهَا تَقْرِيْبًا إِلَى الدَّاخِلِ. كَانَتْ مَصْدُومَةً وَمُتَوَثِّرَةً جَدًّا، حَتَّى قُلْتُ إِنَّنِي سَأَحْضِرُ لَهَا كَأْسًا. إِنَّهَا لَا تَشْرَبُ الكُحُولَ، كَمَا تَعْلَمُ. فَكَذَبْتُ قَائِلَةً إِنَّنِي سَأَحْضِرُ لَهَا شَيْئًا غَيْرَ مُؤَذٍ. كَأْسُ سَلُو جِن فَوَّارٍ. إِنَّهُ شَرَابٌ حُلُوٌّ سَائِعٌ. كَانَتْ كَأْسٌ وَاحِدَةٌ كَافِيَةٌ. وَقَدْ بَدَتْ غَرِيسُ أَكْثَرَ اسْتِرْخَاءً مِمَّا رَأَيْتُهَا يَوْمًا“.

انكأت شائيس إلى الوراء. ”دعاني شاب إلى الرقص، فلبّيتُ حالاً. تَفَقَّدْتُ غَرِيسَ مَرَّةً، فَكَانَتْ كَأْسُ الجِن الفوّار ما تزال أمامها. أو هكذا ظننتُ. لم أعلم

أَنَّهَا أَتَتْ عَلَى الْكَأْسِ الَّتِي اشْتَرَيْتُهَا لَهَا وَطَلَبَتْ أُخْرَى.
بَدَتْ مُسْتَرِيحَةً وَهِيَ جَالِسَةٌ إِلَى طَاوِلَةٍ صَغِيرَةٍ بِقُرْبِ
الْجِدَارِ الْخَلْفِيِّ، مُشَاهِدَةً مَا يَجْرِي. يُخْجِلُنِي أَنْ أَقُولَ
إِنِّي نَسِيتُ أَمْرَهَا تَمَامًا إِلَى حِينٍ. وَلَمَّا تَذَكَّرْتُ، لَمْ
تَكُنْ هُنَاكَ. وَلَمْ تَكُنْ فِي حَمَّامِ السَّيِّدَاتِ أَيْضًا. فَتَشَّتْ
هُنَا وَهُنَاكَ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجِدَهَا. كُنْتُ مُوَبِّخَةً أَكْثَرَ
مَنِّي قَلِقَةً. خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهَا طَلَبَتْ سَيَّارَةً عُمُومِيَّةً
وَذَهَبَتْ إِلَى الْبَيْتِ“. وَغَطَّتْ وَجْهَهَا. ”يَا لَيْتَ!“
عَلِمَ رُومَانٌ أَنَّ أَمْرًا رَدِيئًا حَصَلَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَلَكِنَّهُ
خَافَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ.

أَسْنَدَتْ شَانِيسُ رَأْسَهَا إِلَى ظَهْرِ الْمَقْعَدِ، وَأَغْمَضَتْ
عَيْنَيْهَا. ”اتَّصَلْتُ بِهَا فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، نَاوِيَةً أَنْ أَقُولَ
لَهَا إِنَّ مُغَادِرَتَهَا دُونَ أَنْ تَقُولَ لِي كَانَتْ غَيْرَ حَسَنَةٍ.
فَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَعْرِفَ أَنَّهَا كَانَتْ تَبْكِي. سَأَلْتُهَا عَمَّا بِهَا،
فَلَمْ تَسْتَطِعْ حَتَّى التَّكَلَّمَ. ثُمَّ غَادَرْتُ الْعَمَلَ وَذَهَبْتُ
لِرُؤْيَيْتِهَا. اسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ وَقْتًا، وَلَكِنَّهَا أَخْبَرْتَنِي بِكُلِّ
شَيْءٍ. لَقَدْ كَانَتْ خَجِلَةً جَدًّا، وَكَانَتْ الْغَلْطَةُ غَلْطَتِي.
إِذَا كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَكُونَ حَارِسَةً لَهَا بَدَلَ أَنْ أَنْصَرِفَ
لِقِضَاءِ وَقْتٍ مُمْتَعٍ“.

نَقَلَ يَدِيهِ عَلَى الْمِقْوَدِ. ”هَلِ اغْتَضَبَهَا شَخْصٌ مَا؟“
وَكَانَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يُحِسَّ الْغَضَبَ مُضْطَرِمًّا.
”لَا، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ. قَالَتْ إِنَّهَا شَعَرَتْ بِالرَّاحَةِ وَحُسْنِ
الْحَالِ فَبَدَأَتْ تَرْقُصُ. وَحَدَّهَا. ثُمَّ أَخَذَهَا رَجُلٌ بَيْنَ

ذِرَاعِيهِ، وَرَقَصَ مَعَهَا. وَلَمَّا سَأَلَهَا هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُغَادِرَ،
قَالَتْ نَعَمْ. فَأَخَذَهَا إِلَى شَقَّةٍ فِي مَالِيَبُو. وَفِي وَسْعِكَ
أَنْ تَحْزَرَ الْبَاقِيَّ“.

تَوَثَّرَتْ يَدَا رُومَانَ عَلَى الْمِقْوَدِ.

نَظَرَتْ شَانِيْسَ أَمَامَهَا مُبَاشِرَةً. ”لَمْ تَسْأَلْهُ عَنْ
اسْمِهِ. قَالَتْ إِنَّهُمَا قَلَّمَا تَكَلَّمَا. حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ
تَتَذَكَّرَ هَيْئَتَهُ. كَانَ طَوِيلَ الْقَامَةِ، دَاكِنَ الشَّعْرِ، قَوِيًّا.
خُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّهُ كَانَ مَوْشُومًا. وَلَمَّا دَخَلَ الْحَمَّامَ بَعْدَ
مَمَارَسَةِ الْجِنْسِ، أَلْقَتْ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا وَغَادَرَتْ“. ثُمَّ
بَدَأَتْ شَانِيْسَ تَبْكِي. ”تِلْكَ كَانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ فِيهَا زَهَبْتُ
إِلَى نَادِي آفْتَر دَاوَك...حَتَّى هَذِهِ اللَّيْلَةَ. لَمْ أُرِدْ أَنْ
أَتَذَكَّرَ أَيَّةَ صَدِيقَةٍ مُهِمَّةٍ كُنْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ“.

هَزَّتْ رَأْسَهَا. ”قُلْتُ لَغَرِيْسَ كَمْ كُنْتُ آسَفَةٌ. كَانَ
يَنْبَغِي لِي أَنْ أَبْقَى مَعَهَا. لَقَدْ كَانَ احْتِرَامُ الذَّاتِ لَدَيْهَا
فِي الْحَضِيضِ“. وَمَسَحَتْ دُمُوعَهَا. ”لَا شَكَّ أَنَّهَا
لَامَتْ نَفْسَهَا“. ثُمَّ نَظَرَتْ خَارِجَ نَافِذَةِ السَّيَّارَةِ. ”مَا
كَانَتْ لِتَكُونَ أَسْلَمَ بِشَعْرِهَا الْمَرْفُوعِ. يَبْدُو أَنَّ الرُّجَالَ
مِيَّالُونَ إِلَى الشُّقْرِ. وَذَلِكَ الْفُسْتَانُ الْأَسْوَدُ...“

تَذَكَّرَ رُومَانَ كَمْ بَدَتْ غَرِيْسَ جَمِيلَةً لَيْلَةً مَعْرُضِهِ
الْفَنِّيِّ فِي لَآغُونَا بِيْتَشِ.

جَلَسَتْ شَانِيْسَ مُسْتَقِيمَةً أَكْثَرَ عَلَى مَقْعَدِ الرَّآكِبِ،
وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ بَارِقَةَ الْعَيْنَيْنِ فِي الضُّوءِ الْمُعْتِمِ. ”أَتَوَدُّ
أَنْ تَعْلَمَ لِمَاذَا بَيَّضْتَ غَرِيْسَ شَعْرَهَا؟ قَالَ زَوْجُهَا إِنَّهَا

تكون جميلة لو كانت شقراء. أتستطيع أن تُصدّق ذلك؟ كأنّها لم تكن أصلًا جميلةً، داخلاً وخارجًا. ولكنك تعرفُ غريس. إنّها تُريدُ أن تبذلَ قُصاراها في كلّ شيءٍ تقومُ به، ولا شكَّ أنّها أرادت أن تكونَ زوجةً سالحة. ومن ثمَّ أعطته ما أرادَه. ليسَ أنّ ذلكَ أحدثَ أيَّ فرقٍ لدى ذلكَ الأبله.“

أجفلَ رومان، إذ رأى نفسه كما كان. أمّا قال لغريس إنّها لم تكن من النوع المُفضَّل عنده؟ لقد طلبَ دائمًا الشُّقرَ الزُّرقَ العُيون في نادي آفتر دازك. “قالت لي إنّ لديها حُكمًا رهيبًا في ما يتعلّق بالرجال“. ورمقته بنظرةٍ مُجفلة.

”بمن فيهم أنا، تقصدين؟“ وقد كان قلبه يدقُّ بقوة وسرعة. ”يبدو كأنّها على حقّ“. ثمَّ نظرَ إلى شانيس. ”هل رجعت مرّةً إلى آفتر دازك وحاولتِ الاتصالَ بالرجلِ مُجددًا؟“

”أنت مازح؟ كلاً!“

”أتساءلُ فحسب. كان لها علاقةٌ بشخصٍ ما بعدَ طلاقها، أمّا كان لها؟“

”تعني صديقًا؟“ هزّت شانيس رأسها. ”ليسَ أيُّ أعرفُ عن هذا، وأودُّ لو أعرفُ“. وتحركت على مقعد الزّاكب مُواجهَةً إيّاه. ”لستُ أفهمُ الأمر، رومان. لماذا يستطيعُ بعضُ الناس أن يُفلتوا من العقابِ بِكُلِّ شيءٍ، ثمَّ يُقبِلُ شخصٌ طيّبٌ نظيرُ غريس، وهي لا

تستطيع حتى التصرف مرة واحدة دون أن تدفع الثمن كاملاً؟“

نظر رومان إليها. ”أي ثمن؟“

ابتسمت له ابتسامة موجهة. ”صمويل“.

أحس رومان كأنها لكفته على المعدة. ”ظننت أنها وزوجها السابق...“

”لم يرد أولادًا. فقدت طفلًا مرة، فعيد فعلاً. إنه لم يرد المسؤولية“. ثم نظرت شائس إلى الشارع أمامها. ”لم نخبرنا مدة ثلاثة أشهر. كان في وسعها أن تجهض. حتى إن صديقة نصحتها بذلك“.

دبت فيه الحرارة. ”أنت؟“

”لا، ولكن لن أقول من فكرت غريس في التنازل عنه للتبني. تم الاتفاق على أن يأخذ روبن وسيلاه غارسيا، ولكن دقيقة حملت غريس صمويل لم تستطع تنفيذ الأمر. فما برحت تلك لعبة شد حبل عاطفية منذ اليوم الأول. ولما أجزتها الكوخ، رأت في ذلك سبيلاً للخروج من وضعها، ثم تغير ذلك. أتمنى فعلاً لو لم تغادر لوس أنجليس، إنني أفتقدُها“. وتلقت حملته وقتاً قصيراً. ”أرادت لابنها أن ينشأ في مكان آمن أكثر“.

”أعوزها أن تهرب من آل غارسيا، ومني“. ومال رومان بالسيارة إلى خارج الطريق عند المنعطف، حيث وضع ناقل الحركة على نقطة الوقوف، مبقياً

المُحَرِّكَ دائِرًا على مَهَل. ”هل من شيءٍ آخر تُريدِينِ إخباري به عن غريس؟“

بدت شانيس مُعْتَذِرَةً. ”أَعْتَقِدُ أَنِّي قُلْتُ ما يَفُوقُ الحَدَّ أَصْلًا“.

انتظَرَ لحظةً بعد، فرأى أَنَّها عَنَت ما قالته. ”إِنِّي أَجِبُّها، شانيس“. وأرادَ أن يسألَ كيفَ يَجِدُّها. أَيُّها الرَّبُّ يسوع، أريدُ أن أضعَ الأُمُورَ في نِصابِها الصَّحيح. يا الله، يا الله!

تلاَّات عينا شانيس. ”أنا أعلمُ أَنَّكَ تُجِبُّها، رومان. ولو لم أعطِ كِلِمَتِي، لأعطيتُكَ عُنوانِها“.

ترجَّلَ من سيارَةِ شانيس، ودارت هي إلى جِهَةِ السَّائِقِ، إلا أَنَّها لم تَركب. ووضعت يَدَها على ذراعِهِ. ”أنا آسِفة. ما كان ينبغي لي حتَّى الإتيانُ على ذَكرِها اللَّيلة. لستُ أدري لِمَذا فعلتُ ذلك. لم يَكُن من حَقِّي أن أحكيَ لكِ قِصَّتِها“.

”لا، لم يَكُن، ولكنني مَسرورٌ لأنَّكَ فعلتِ ذلك“. خُيِّلَ إليه أَنَّهُ قد شَعَرَ بما يكفي من الألم، ولكنَّهُ لم يَكُن قد عَرَفَ نِصفَ ذاكِ.

زلَّت شانيس إلى مقعدِ السَّائِقِ، وأغلقَ رومان الباب. ثُمَّ أنزلتِ النَّافذة. ”رجاءً، لا يَقِلَّ احترامُك لها“.

”لا تقلقي بشأنِ ذلك“. وانحنى رومان قليلاً. ”عندما تُكَلِّمينَ بريان، قُولي له إِنِّي سأَتَغَيَّبُ مُدَّةً“.

”كم؟“

”لست أدري.“

”إلى أين ستذهب؟“

”سان فرنسيسكو“. كان قد حَزَمَ أمتعته أصلاً،
وينوي أن يُغادرَ صباحَ الغد. ”قولي له إنني سأتولى
أمرَ العملِ غيرِ المُنجَز. وهو سيفهم.“

”أسفارًا سالمةً، رومان!“

دخَلَ رومان شَقَّتَهُ وألقى مفاتيحَهُ على طاوِلَةِ
القهوة. وإذ تهالكَ على الأريكة، وَضَعَ رأسَهُ في يديه.
”يا يسوع!“ كانت صرخةً مُنكسرةً رقيقة. تحدّثت
شانيس بشأن الرّجال في النّادي، وهو رأى نفسه: غرّاً،
قاسي الفؤاد، مُستغلاً. لو بقيت غريس في الكوخ، لَمَا
انتابه أيُّ وَخزٍ ضميرٍ بشأنِ إغوائها. ماذا قال؟ كان
في وسعها أن تعيش معه في أثناء الأُسبوع، ومن ثمَّ
يتسنى لها أن تمضي يومَي السَّبْتِ والأحد مع ابنيها؟
رُبّما نظرت إليه ورأت زوجها السابق بِرُمته من جديد.
شقراء، ترتدي فُستانًا أسود، من النوع المُفضّل
لديه تمامًا.

”يا ربُّ يسوع!“ خرَجَ صوتُ رومان في خُشونةٍ
مُتهدّجة، مُعلّقًا بينَ الاشمئزازِ مِنَ الذّاتِ واليأسِ،
والغضبِ أيضًا. اللّهُمَّ، كان ينبغي أن تتركني في
جهنّم. هي ما أستحقّه!

نحنُ مُخلّصون بالنعمة، هكذا قال له بريان غيرَ

مرّة.

النّعمة...هي "غريس".

انحنى رومان إلى الأمام، وبكى.

الفصل ٣٨

جلست غريس خارجًا تحت سَقْفِ الفناء المرصوف،
مع خالتها، فيما دَرَجَ صمويل في أنحاءِ الفناء. كانت
قد انتزعت من قبضته ثَوًّا دُودَةً مُتَذِيبَةً وَبَرَّاقَةً
بَرَّاقَةً، ومن دواعي الشُّكرِ أَنَّهَا فعلت ذلك قبل أن
يدسَّهَما في فَمِهِ مُتَذَوِّقًا. ثُمَّ توجَّهَ إلى الكُرَّةِ الحمراء
الكبيرة، فَرَكَلَهَا بِقَدَمِهِ صَدْفَةً. وبِضْحَكَةٍ زاعِقَةٍ حادَّة،
جرى وراءها.

ضحكتِ الخالَّةُ أليزابث في خُفوت. ”سوف يكون
لاعب كُرَّةِ قَدَمٍ بارِعًا“. وارتشفت شايها الأخضر.

كان الجَوُّ باردًا بعض الشيء في الخارج، ولكنَّ
صمويل كان بحاجة إلى مِسَاحَةٍ لِلرَّكْضِ. فهو ما بَرِحَ
محبوسًا في البيت طَوالَ الأسبوع الأخير، فيما المطرُ
يُطَرِّطِقُ على السَّطح.

”ماذا في بالك، غريس“.

ما بدا أنَّه دائِمًا في بالِها في الآونة الأخيرة:

رومان. لم تَبْح باسمه عاليًا. ”لا شيء سوى المعتاد.“
ولم يكن في وسعها أن تحمِلَ نفسها على التحدُّث
بشأنه. ليس مع خالتِها. ولا مع أيِّ شخص. كم من
الزَّمنِ سيستغرقُ التعافي من مُعاناتها معه؟

”هل يجري شُغلكِ حسنًا؟“

”يُبقيني مشغولةً جدًّا. أحالَ جاسپر عليَّ طالبًا
آخر. وذلك من دواعي الشُّكر، لأنَّ واحدًا من عملائي
لم يعد بحاجةٍ إلى خدماتي. وقد نالَ علامةً كاملةً
على امتحانه النهائي.“

”مثلَ باتريك تمامًا.“ عَجَّتِ الخالَّةُ أليزابث
وجهها. ”أسفة. لم أقصدُ أن أنبشَ الماضي. ماذا عن
حياتك الاجتماعية؟“

”الكنيسة يومَ الأحد، واجتماعُ السيِّدات لدرس
الكتاب المقدَّس في مُنتصفِ الأسبوع.“

”هل التقيتِ أيَّ عازبين مُرشحين مُرجحين؟“

”لستُ أبحثُ عن واحد.“

”لأنَّك ما زلتِ مُغرمةً بِرُومان قيبلاسكو.“

لم تنوِ غريس أن تكذب. ”ما من شيءٍ أستطيعُ أن
أفعله حيالَ ذلك.“

انقضَّ صمويل على الكُرَّة، فانطلقت من تحته
كصاروخ. فأطلقَ زعقةً مُفاجئةً ورفعَ نفسه على
ذراعَيْه. ثمَّ وقفَ على قدمَيْه ولجقَ بالكُرَّة من جديد.

”حسنٌ أن نرى أنه لا يستسلم“. وحتّ الخالّة أليزابث فنجان شايها على الصّحيفة.
”ليس عندما يُريد شيئًا ما“.

”ماذا عنك، غريس؟ لماذا لا تتصلين فعلاً بزّومان وتريين ما يحدث؟“

”أعلم ما سيحدث، ولن أخوض المُخاطرة. أضيفي أنك أبلت حسنًا بلا رجلٍ طوال حياتك. كذلك أستطيعُ أنا أيضًا“. وإذ ندمت على استشاطتها الغاضبة، وقفت. ”أتريدين مزيدًا من الشاي؟ سأحضّرُ لي مزيدًا من القهوة“.

”لا يسعك حتى احتمال التحدّث بشأن...“

”إذا أرادَ رومان نِشْدانَ علاقةٍ حقيقيّة، فمن شأنه أن يجِدني“.

حتّ الخالّة أليزابث فنجان شايها ووضّعتَه على الطاولة الصّغيرة. ”وكيف، على أرض الله الخضراء، يُفترضُ أن يفعلَ رومانُ ذلك؟ لقد غيّرتِ رقمَ تليفونك وانتقلتِ إلى ميرسد. واستحلفتني أنا وجميعَ صديقاتك أن نُبقي الأمرَ سرًّا. فماذا يُفترضُ أن يفعلَ الرَّجلُ؟ يُوظفُ متحرّريًا خصوصيًا؟ يتصيّدك كواحدٍ من أوّل عشرة أشخاص يتصدّرون قائمة المَطلوبين لدى مكتب التّحقيقات الفدراليّ؟“

”هل اتّصل بك؟“

لم تتكلم الخالّة أليزابث لحظةً. ”لا“.

”ولم يسأل شانيس قَطُّ أيضًا. إذا، ذاك هو الجواب“.

ذَبَلَتِ الخالَةَ أليزابث قليلاً. ”لم أعلم“. وأشاحت بِنَظَرِها. ”ظننتُ...“ ثُمَّ هَزَّتْ رَأْسَها. ”لا تقلقي بشأن ما ظننتُه. ليس ذلك من شأني في شيء، وأنا آسفة على تَدخُّلي“. وتحوَّلت سِماؤُها إلى سِماءِ أَلَمٍ واهتمام. ”إنما أريدُ أن أراكِ سعيدة“.

”أنا بخير. حقًا، أنا بخير“.

”لا، لستِ كذلك. لقد فقدتِ وزنًا. ولا تَبدينِ كأنَّكَ تنامينِ كثيرًا جدًّا؟“

عادت غريس وجلست. وراقبتِ صمويل يُصارعُ الطَّابَةَ الحمراء لِإِخضاعِها. ”لا أريدُ أن أفعلَ أيَّ شيءٍ من شأنه أن يؤذِيَ صمويل“.

”كانَ تُدخِلي إلى حياتِهِ رجلاً رُبَّما لا يكونُ من نوعِ الذين ينجحون في الزواج“.

”تمامًا“.

لم تَنبِسِ الخالَةَ أليزابث بأيةِ كلمةٍ وقتًا طويلًا. قَعَدَ صمويل وفَرَكَ عَيْنَيْهِ. قامت غريس وذهبت إليه. وإذ شالته، عانقته ضَمًّا. ”وقتُ القيلولة، يا رُجِيل“.

لِحَقَّتِ الخالَةَ أليزابث بغريس وبقِيت في المطبخ لِتَغْسِلَ الصُّحونَ القليلة. قعدت غريس على الكرسيِّ الهزاز في حُجرة الجلوس، وصمويل مُكَنِّكٌ في حضنها، مُسندًا رأسه على صدرها. لقد أحبت هذا

الوقت من النهار، كما أَحَبَّتِ الشُّعُورَ بِجِسْمِهِ الصَّغِيرِ
يَرْتَخِي وَيَدْفَأُ عَلَى ذِرَاعَيْهَا فِيمَا يُغَطِّطُ عَلَيْهِ النَّوْمَ.

”يبدو كفلاك“. قَعَدَتِ الخَالَةُ أليزابث على
الأريكة. ”أنتِ أمُّ صالحه، غريس“.

”أحاولُ بذلَ قُصاراي“.

”رُبَّما كُنْتُ على حَقٍّ. رُبَّما كانَ أَفْضَلَ تَرَكُ الأُمُورِ
على حالها“.

أرادت غريس أن تُصَدِّقَ ذلك.



غادرَ رومان باكراً، وساق على الطَّرِيقِ العامِّ في
السَّاحِلِ الپاسيفيكيِّ. احتاجَ إلى وقتٍ للتَّفكيرِ قبلَ
الوصولِ إلى سان فرنسيسكو. ولَمَّا وَصَلَ إلى
المدينة، لم يُسَجَّلِ اسْمُهُ في فُنْدُقِ على تَلِّ نُب أو في
قلبِ المدينة، وإن كانَ قادراً على ذلكَ مادِّياً. لقد
ذهبَ إلى فينكس في الحيِّ القديم. وتيسَّرتَ له
غُرْفَةٌ بِفَضْلِ إلغاءِ حَجَزِ في الدَّقِيقَةِ الأخيرة. فحسبَ
ذلكَ عَلامَةً على أَنَّ اللهَ كانَ معه.

ولَمَّا كانَ ما يزالُ مُسْتَيْقِظًا تامًّا بعدَ مُنتصفِ
الليل، قرَّرَ أن يَتَمَشَّى قليلاً على مَجازِ الذَّاكرة. كانَ
الليلُ كُلُّ حينٍ هو وقتُ اللَّعِبِ واللَّهوِ في أثناءِ
مُراهقَتِهِ. فبعدَما ارتدى مُتَلَوِيًّا سِتْرَتَهُ الطَّيَّارِيَّةَ
الجلديَّةَ، ذهبَ لِيَتَمَشَّى في أنحاءِ الحيِّ المُسْتَهْتَرِ.

لم يكن الحي قد تحسّن كثيرًا. كان عدد السّكان
المشرّدين قد ازداد. وما زالت النّفايات فائضةً فوق
صفائح القمامة وسلال المهملات. وقد وسمت
الجدران رسومًا غرافيتي جديدةً. وأقبل نحوه على
الرّصيف بعض الفتيان الصّلاب الهیئة. فأخرج رومان
يديه من جيبي سترته وحدّق إلى الرّعيم عينًا بعين.
وعبرت المجموعة بلا كلمة، فيما التفت اثنان ناظرين
إليه. وقد ظلّ رومان يمشي حتّى وصل إلى المعبر
الفوقيّ حيث مات ویت بُوي. فرفع نظره إلى
القنطرة الخرسانيّة، مُطلقًا لنفسه عنان التّفكير في
صديقه سابقًا، وتصالّح مع المكان قبلما تابع مشیه.

بدأت الشّقة السّكنيّة، حيثُ سكن مع أمّه، على
حالها. من شأن نوع الغرافيتي الصّحيح أن يُحسّن
المكان. كانت نافذة الطابق الثّالث مُظلمة. كم ساعة
أمضى ناظرًا منها إلى الخارج ومُنْتَظِرًا أمّه حتّى
تعود إلى البيت؟

أنت تعرف أنني أحبّك، يا صغيري. أنا دائمًا
أرجع.

كان للنّادي الليليّ الذي اشتغلت فيه اسم جديد،
ولكنّه ما زال يقومُ بعمله. وقد نزلت من الباب الأماميّ
موسيقًا رخيصة. فاستجمّع شجاعته وولج إلى
الدّاخل، ولكنّه لم ير أكثر من منصّة عالية يشغلها
رجلٌ كهلٌ مُرتدٍ بدلةً رخيصة. ”عشرون دولارًا

تُدخلكَ إلى الدَّاخلِ“. ونظرَ الرَّجُلُ إلى رومان. ”مِئَةٌ
تمنحكَ أكثر“. لم يُخرجِ رومانَ مِحْفَظَتَه. لَبَدَت
بالمكان رائحةُ الكُحولِ، وَقَلَبَتِ مِعْدَةَ رومانَ لِمِحَّةٍ
واحدةٍ على فتاةٍ عديمةِ التَّعبيرِ عنِ المِشاعِرِ مُدَوِّمةٍ
على المِسرَحِ. وقد وَقَفَ رَجُلٌ جالسٌ إلى طاوِلَةٍ بِقُرْبِ
المِسرَحِ ودَسَّ مالًا في لِبَاسِها التَّحتانيِّ الضَّئيلِ. فما
كان من رومانِ إلا أن رَجَعَ إلى الخارِجِ.
وَإِذ تَجَرَّعَ الهِواءَ السَّاحِلِيَّ البَارِدَ الرُّطْبِ، مَشَى
مُبْتَعِدًا.

قضى ساعَتينِ أُخريينِ يَجوبُ الشُّوارِعَ، مُفَكِّرًا في
أُمَّه. كُنْ صَادِقًا. انظُرْ إِلَيَّ. بَقِبَقِ الفَهِمُ إلى السَّطْحِ.
لقد أَحَبَّ أُمَّه. وقد كَرِهَها... من أَجْلِ ما فَعَلتِ لِكَسْبِ
مَعيشَةٍ، من أَجْلِ مُغادِرَتِها تلكَ اللَّيلةِ، من أَجْلِ نَقْضِها
وَعَدَها. ما أَرادَ قَطُّ أن يَعرِفَ بِتِلْكَ المِشاعِرِ، وَلَكِنَّهُ
الآنَ شَعَرَ بِها كَجُرْحٍ مَفْتُوحٍ ما زالَ يَنزِفُ، وقد خَلَّفَهُ
مُعانِيًا أَلَمًا مُبَرِّحًا. لقد عَرَفَ ما أَرادَهُ اللهُ: أن يَعرِفَ
بِما أَبْقاءُ مَكبُوتًا في داخِلِهِ سِنينَ كَثيرةً جَدًّا.

أنا الشافي!

بدلاً من الخزي الذي توقعه رومان، أحس الألم
القديم يرقق ويتحوّل إلى فهم. كانت أمه فتاة صغيرة
لما حبلت وولدت، وبالكاد بالغة لما ماتت. وحسب
علمه، لم يكن لها قط أصدقاء أو أهل يساعدها.
وقد سبق أن تخلى عنها قبل مجيئه بمدة طويلة.

ومهما كانت الظروف، فقد علمَ رومان شيئًا آخر. إنها لم تنبذهُ قَطُّ. لقد أبقتَه على مقربةٍ منها. لقد أحبَّتَه.

وبينما رومان ما يزالُ يمشي، تذكرُ فجأةً مالكَ المبنى في البهوِ مُكلِّمًا الغريبَ الذي تشبَّثَ به. ماذا قال؟ رجَّعَ ذلكَ كلُّه، كأنَّما مُثِّلَ أمامه. لقد أعطى الرَّجُلُ المالكَ لفيفةَ أوراقٍ مالِيَّة، ثمَّ لَحِقَ بِي راي دينَ صُعودًا على الدَّرَج. ستأتي معي! لقد قاتلَ بِي راي، شاعرًا غريزيًا بأنَّ ثَمَّةَ خَطْبًا ما، خَطْبًا رهيبًا، ولكنَّ الرَّجُلَ كان أقوى منه جدًّا. وكانا قد وَصَلَا إلى البهوِ لَمَّا دَخَلَ مُعَلِّمُ بِي راي في الصَّفِّ الابتدائيِّ الثاني من البابِ بِصُحْبَةِ شُرْطِي. فأفلتَهُ الرَّجُلُ وتوارى كجُرْدٍ داخلَ جُحر.

وَخَزَ رومانَ الشَّعْرُ على رِقْبَتِهِ إِذِ اخْتَبَرَ اسْتِيعَابًا مُفاجئًا. كانَ في السَّابعة من العُمر فقط، ولكنَّه أَحَسَّ الشَّدَّ في نِيَّاتِ الرَّجُل. حتَّى بعدَ تلكَ النِّجاةِ بِشِقِّ النَّفْسِ، رَكَلَ وخَمَشَ للإفلاتِ من الشُّرْطِي الذي وَضَعَهُ على المقعَدِ الخَلْفِيِّ في سِيَّارةِ الشُّرْطَةِ. لم يَكُنْ قد رآهُما كمنقذَيْن، بل كانا كِلاهُما عدوَّين أرادَا أن يَسْلَخَاهُ بعيدًا عن أمِّه. وكان قد بكى وصرَّخَ بِشَتائمَ على المُعَلِّمِ القاعدِ بجوارِهِ في السِّيَّارة. وقد رَكَلَ تَكَرُّارًا قفا مقعَدِ الشُّرْطِي طُولَ الطَّرِيقِ إلى القِسمِ، حيثُ أُحيلَ على عامِلَةٍ اجْتِماعِيَّة من خِدْماتِ حِمايَةِ الأولاد.

يا رب، كم سنة جُلتُ حاملاً تلك الضغينة
وجعلتها تُشكّل حياتي؟

فيما رومان جالس في مقهى يفتح ليلاً، سأل الله
عماً يفعله تالياً. وقد تلقى جواباً لدى شروق الشمس.
فذهب مُرهقاً، لكن مُصمّماً، إلى المدرسة الابتدائية
وسأل عن أسماء مُعلّمي الصفّ الثاني الذين كانوا
هناك لما كان في السابعة. وإذ عرّف اسم أحدهم،
سأل أين يُمكن أن يجد مُورغن تالبت.
”ما زال مستر تالبت هنا. وهو في استراحة
الآن“.

توقيتُ الله المُمتاز. ”هل لي أن أتكلّم معه؟“
أجرت السكرتيرة اتّصالاً بِعُرفَةِ المُعلّمين. وبعد
دقائق قليلة، دخل مستر تالبت المكتب، فعرفه رومان
في الحال. كان شعر تالبت الآن شائباً، لا أحمر، وقد
انحنت كتفاه قليلاً، ولم يكن تقريباً طويل القامة كما
تذكره رومان. إذ كان قد بدا عملاقاً في نظر صبي
في السابعة. وكانت عينا تالبت ما تزالان لطيفتين.
”رُبّما لا تتذكّر صبيّاً ابن سبع سنين اسمه بُي راي
دين“.

”أتذكّر“. كانت ابتسامته حزينة. ”كنتُ أوّل صبي
اضطّرتُ إلى إحالته على خدمات حماية الأولاد.
يوسفني أن أقول إنه وُجد آخرون منذ ذلك الحين“.
”لا أتصوّر أنّ الأمر يصير أهون“.

”لا، لا يصير“.

”رُبَّمَا يُسَاعِدُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي ذَلِكَ الْيَوْمَ“. فَإِذَا نَظَرَ رُومَانَ إِلَى الْمَاضِي الْآنَ، رَأَى كَيْفَ أَرْسَلَ اللَّهُ تَالِبْتَ فِي الْوَقْتِ الدَّقِيقِ الَّذِي فِيهِ أَحْتَاجُ أَبِي رَايَ دِينَ إِلَى نَجْدَةٍ. ”كَانَ مَالِكُ الْبِنَايَةِ قَدْ بَاعَنِي تَوًّا. لَوْ وَصَلْتُمَا، أَنْتَ وَذَلِكَ الشَّرْطِيُّ، مُتَأَخِّرِينَ خَمْسَ دَقَائِقَ، لَكُنْتُ مَضِيئًا وَرُبَّمَا كُنْتُ الْآنَ قَدْ مِتُّ مِنْ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ“. أَحَسَّ الشُّكْرَ وَالْعِرْفَانَ يَفِيضُ دَاخِلَهُ، لَيْسَ فَقَطْ لِتَالِبْتَ، بَلْ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَهُ. ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ. ”أَنَا مُتَأَخِّرٌ فِي الْإِفْصَاحِ عَنِ الْأَمْرِ، وَلَكِنْ شُكْرًا لَكَ، سَيِّدِي“.

اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا مِسْتَرِ تَالِبْتَ، وَصَافَحَ رُومَانَ يَدًا بِيَدٍ. ”مَا كُنْتُ إِلَّا فَاعِلًا مَا هُوَ صَائِبٌ“. ثُمَّ نَظَّفَ حَنْجَرَتَهُ مُتَنَحِنِحًا. ”كَانَ الشَّرْطِيُّ ابْنَ عَمِّي. لَقَدْ تَقَاعَدَ. وَهُوَ مُقِيمٌ فِي مُونْتَانَا الْآنَ“.

”مَاذَا عَنْكَ؟ هَلْ تَتَقَاعَدُ قَرِيبًا؟“

”أَفْضَلُ إِلَّا يَفْعَلْ ذَلِكَ“. تَكَلَّمَتِ السُّكْرَتِيرَةُ جَهْرًا. ”إِنَّهُ أَفْضَلُ مُعَلِّمٍ عِنْدَنَا“.

اعْتَذَرَ تَالِبْتَ وَقَالَ إِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى غُرْفَةِ الدَّرْسِ. سَتَّتْهَا اسْتِرَاحَةً عَاجِلًا، وَيَصْطَفُّ الْأَوْلَادَ. ثُمَّ تَرَيَّتْ دَاخِلَ الْبَابِ قَلِيلًا. ”كُنْتُ بَارِعًا جَدًّا فِي الرَّسْمِ، عَلَى مَا أَذْكَرُ“.

”أَعْتَاشُ بِهِ. تَحْتَ اسْمِ مُخْتَلِفٍ. رُومَانَ

قبلا سكو“.

”أما أنجزت حديثًا مشروعًا كبيرًا في لوس أنجليس؟“ قالت السكرتيرة مُقاطعةً مرّةً ثانية. ”شيئًا ما على جانبِ مبنى كنيسة. رأيته على فيسبوك“.

خاطبَ رومان تالبت. ”إذا عناك الأمر، يُمكنك أن ترى الرّسمة على فيسبوك. ما كان الأثرُ الفنّي لِيوجد لو لم تفعل أنت ما هو صائب“.

”سأجري بحثًا عنك على الإنترنت“. وتبسّم. ”شكرًا لك على المجيء، بُبي راي. جميلٌ أن أعلم أن واحدًا من تلاميذي يُبلي حسنًا جدًّا“. ثمّ مضى ماشيًا في الرّواق، وظهّره أكثر استقامةً بعض الشيء. ”كان بحاجة لأن يسمع ذلك“. وأومات السكرتيرة برأسها. ”مُعظّم الطلاب يتذكرون مُعلّمي الصّفوف العليا في المرحلة الثّانويّة، وينسون كلّ ما يتعلّق بأولئك الذين كانوا لهم في السّنين القليلة الأولى، الأبطال الذين لا يتغنّى أحدٌ بماثرهم ممّن يُدرّسون الموادّ الأساسيّة“.

خارجًا، سحبَ رومان تلفونه الخلويّ واتّصل بجاسپر هاولي. قالَ له إنّ لديه وقتًا وإنه يودُّ أن يصعدَ ويراه، معّ تشتت وسوزان. ”إلا إذا كان لديك حُظٌّ أصلًا على مدى الأيّام القليلة الآتية“.

”أنا في پورتلاند حاليًا، ولكنني سأرجع بعد غد“.

هل حدث شيء ما، بُي راي؟“

”ما أنا إلا مُلقِ نظرةً أُخرى على حياتي من منظورٍ جديد.“

”آن أوانُ ذلك.“

كان لدى رومان أشياء أُخرى احتاج لأن يقوم بها، ورُبما أدّى أيضًا مهمةً مُعيّنة قبل رُجوعه إلى الفندق ليحظى ببعض النّوم الذي يحتاج إليه كثيرًا. ومن ثمّ ذهب إلى مكتبِ التّحقيق في أسبابِ الوفيات، في شارعِ برينت، ليكتشف كل ما في وسعه عن ظروفِ موتِ أمّه وأين دُفنت. فقال له الكاتب إن مكتب الفاحص الطّبي كان يحتفظ بسجّلات أسنان، ونماذج أنسجة، وصور أشعة أكس للجسم كلّه، وحمض نووي لكل من يؤتى بهم إلى معرض الجثث. لقد ماتت أمّه بجرعة هيروين مُفرطة. وقد أحرقت جثتها، وحفظت رُفاتها. فملاً رومان جميع الأوراقِ الضّرورية ودفع الرّسوم المطلوبة ليُسلمَ رماها.

”مضى على وفاتها أكثر من خمسٍ وعشرين سنة. قد يستغرق العثور عليها بضعة أيام.“

أعطاه رومان معلومات الاتصال به. وذهب إلى رصيف المرفأ ليتغدى، ثم رجع إلى الفندق. فنام أربعًا وعشرين ساعة بلا أحلام، واستيقظ مُستريحًا تمامًا. وبدلاً من التّجوال في الحيّ المُستهتر، ذهب إلى متنزه غولدين غيت، وتصوّر كم كان من شأنِ غريس

أَنْ يَزُوقَهَا. ثُمَّ سَاقَ إِلَى كَلِفِ هَاوُسٍ لِأَجْلِ غَدَاءٍ مُتَأَخَّرٍ. وَتَذْبَذَبَ تَلْفُونُهُ. مَكْتَبُ الْفَاحِصِ الطَّبَّيِّ. ”يَسْتَفْرِقُ الْأَمْرَ عَادَةً وَقْتًا أَطْوَلَ مِنْ هَذَا، وَلَكِنَّا وَجَدْنَا رُفَاتَ أُمَّكَ“.

بَدَأَ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّكُ الْأُمُورَ وَيُجْرِيهَا.



تَوَجَّهَ رُومَانٌ إِلَى مَزْرَعَةِ آلِ مَاسْتَرَسْنِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي. وَمَا إِنْ انْعَضَفَ بِالسِّيَّارَةِ إِلَى الْبَاحَةِ، حَتَّى أَخَذَ جِبْسٌ وَدِيئُزُو يَنْبَحَانِ مِنَ الْعِلْفَةِ الْأَمَامِيَّةِ. خَرَجَ تَشْتٌ مِنَ الْحَظِيرَةِ، وَنَزَلَتْ سُوزَانَ عَلَى دَرَجِ الْبَيْتِ. فَوَصَلَتْ إِلَى رُومَانَ أَوَّلًا وَعَانَقَتْهُ. ”جَمِيلٌ أَنْكَ رَجَعْتَ عَاجِلًا جَدًّا“.

ضَحِكَ تَشْتٌ. ”أَقْلَقْنَا أَنْكَ قَدْ تَنْتَظِرُ عَقْدًا مِنَ السَّنِينَ آخَرَ قَبْلَ أَنْ تَزُورَنَا مِنْ جَدِيدًا“.

قَالَ رُومَانٌ إِنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يَبْقَى يَوْمَيْنِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، إِنْ كَانَ لَدَيْهِمَا مُتَّسَعٌ. فَقَالَا لَهُ إِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْقَى الْمُدَّةَ الَّتِي يَشَاوُهَا. ثُمَّ جَلَسُوا كُلُّهُمْ فِي الْمَطْبَخِ وَتَحَدَّثُوا حَوْلَ الطَّاوِلَةِ سَاعَتَيْنِ، قَبْلَمَا سَأَلَهُمَا رُومَانٌ هَلْ يَسْمَحَانِ لَهُ بِذَرِّ رَمَادِ أُمِّهِ فِي الثَّلَالِ فَوْقَ بَيْتِهِمَا.

نَظَرَتْ سُوزَانُ إِلَى تَشْتِ، وَعَيْنَاهَا مُغْرُورِقَتَانِ. فَهَزَّتْ رَأْسَهُ مُوَافِقًا. ”نَتَشَرَّفُ بِذَلِكَ، بُيِّ رَاي“.

قَالَا لَهُ إِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْزِلَ فِي غُرْفَتِهِ، وَلَكِنَّهُ

سيُضطرُّ إلى التَّشَارِكِ فِيهَا. كَانَ لَدَيْهِمَا فَقَطْ أَرْبَعَةٌ
فَتِيَانِ الْآنَ، وَلَكِنَّ الْفَتَى الْمُقِيمَ فِي غُرْفَتِهِ كَانَ بِالْفِعْلِ
حَالَةً صَعْبَةً، مِثْلَهُ تَمَامًا. وَقَدْ التَقَى رُومَانُ جِيْمِي
لُوِيِيزَ لَمَّا اجْتَمَعَ الْجَمِيعُ لِلْغَدَاءِ. فَمَيَّزَ نَفْسَهُ فِي
الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ: غَاضِبًا، مُحْطَمًا، بِلَا عَائِلَةَ وَلَا
مُسْتَقْبَلَ وَلَا رَجَاءَ. إِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ قَدْ تَغَيَّرَ فِي هَذِهِ
الْمَزْرَعَةِ مَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَغَيَّرَ أَيْضًا
بِالنَّسَبَةِ إِلَى هَذَا الْفَتَى، إِذَا تَعَاوَنَ. وَقَدْ قَالَ رُومَانُ
ذَلِكَ لِجِيْمِي بَعْدَ إِطْفَاءِ الْأَنْوَارِ.

فِي الصَّبَاحِ التَّالِيِ، عِنْدَ الْفَجْرِ، أَخَذَ رُومَانُ رَمَادَ
أُمِّهِ صُعُودًا إِلَى التَّلَالِ. وَجَدَ سِنْدِيَانَةً قَدِيمَةً جَمِيلَةً،
مُنْتَشِرَةً الْأَغْصَانِ، مُطَلَّةً عَلَى الْمَزْرَعَةِ. فِي الرَّبِيعِ،
سَتَكَتْسِي هَذِهِ التَّلَالُ عُشْبًا أَخْضَرَ، وَخَشْخَاشًا زَهَبِيًّا،
وَتَرْمُسًا أَرْجَوَانِيًّا. فَفَتَحَ الْعُلْبَةَ وَذَرَّ رَمَادَ أُمِّهِ بَانْتِبَاهِ.

”أَحِبُّكَ، مَامَا. أُسَامِحُكَ“. وَلَمَّا فَرِغَ، فَاضَتْ
الدَّمُوعُ مِنْ قَعْرِ أَعْمَاقِهِ. ”سَامِحِينِي“. كَانَ قَدْ كَرِهَهَا،
لَأَنَّهَا إِيَّاهَا عَلَى مَوْتِهَا وَتَرِكِهَا إِيَّاهُ وَحْدَهُ. وَقَدْ
اسْتَفْرَقَ الْأَمْرُ هَذِهِ السَّنِينَ كُلَّهَا كِي يَعْصِي ذَلِكَ
وَيَعْتَرِفَ لَهَا بِهِ. لَقَدْ جَالَ حَامِلًا ذَلِكَ الْغَضَبَ كَثْرِيْسَ
ثَقِيلَ لِيَحْمِي نَفْسَهُ مِنْ أَنْ يُحِبَّ يَوْمًا أَيَّ شَخِصٍ مِنْ
جَدِيدٍ.

كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْمَوْتِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْ تَعَلُّمِ
الْحَيَاةِ.

غَابَتِ الشَّمْسُ قَبْلَ رُجُوعِ رُومَانَ إِلَى الْبَيْتِ. احْتَلَّ
مَقْعَدَهُ إِلَى طَاوِلَةِ الْعِشَاءِ، وَأَصْفَى إِلَى الْمُحَادَثَةِ
الدَّائِرَةَ حَوْلَهُ. تَطَوَّعَ لِعَسَلِ الصُّحُورِ، ثُمَّ انضَمَّ إِلَى
الْجَمِيعِ فِي حُجْرَةِ الْجُلُوسِ لِأَجْلِ الْاجْتِمَاعِ الْمَنْزِلِيِّ.
وَلَمَّا سُئِلَ، تَحَدَّثَ بِشَأْنِ الْمُدَّةِ الَّتِي قَضَاهَا فِي
الْمَزْرَعَةِ. "الْبَرْنَامَجُ يَنْجَحُ إِذَا أَنْجَحْتُمُوهُ". وَأَخْبَرَ
تَشْتِ وَسُوزَانَ الْفَتِيانَ عَنْ نَجَاحِ رُومَانَ بِصِفَةِ رَسَامِ.
وَقَدْ عَلِمُوا جَمِيعًا بِالرَّسْمَةِ الَّتِي أَنْجَزَهَا عَلَى جِدَارِ
مَبْنَى الْكَنِيسَةِ.

جَاءَ جَاسِپَرٌ مُتَأَخِّرًا. "رِحْلَتَانِ إِلَى هُنَا، فِي
الْأَعَالِي، فِي غُضُونِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ. هَذِهِ عَلَامَةٌ جَيِّدَةٌ".
أَوَى تَشْتِ وَسُوزَانَ إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِهِمَا لِبَيْتِ اللَّيْلِ.
جَلَسَ رُومَانَ عَلَى الشُّرْفَةِ مَعَ جَاسِپَرٍ. لَمْ يَذْكَرْ تَشْتِ
وَلَا سُوزَانَ غَرِيسَ. بِالنَّظَرِ إِلَى مَدَى تَنَاغُمِهِمْ كُلَّهُمْ
جَيِّدًا فِي الْمَاضِي، أَمَلَّ رُومَانَ أَنْ يَأْتِيَا عَلَى ذِكْرِهَا.
وَالآنَ، هَا هُوَ جَاسِپَرٌ يَتَحَدَّثُ بِكُلِّ مَوْضُوعٍ مَا عَدَا
ذَلِكَ الَّذِي أَرَادَهُ رُومَانَ أَكْثَرَ الْكُلِّ. وَبِضَعِ مَرَّاتٍ، كَانَ
عَلَيْهِ أَنْ يُطَبِّقَ حَنْكَةً تَمَامًا حَتَّى لَا يُسْأَلَ. لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ
جُزْءًا مِنَ الصَّفَقَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ عَقَدَهَا مَعَ اللَّهِ. ثَلَاثَةٌ
أَشْخَاصٍ، يَا رَبُّ. كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى وَاحِدٍ بَعْدَ اعْتِصَرِ
قَلْبِهِ بِشِدَّةٍ مِنَ الْأَلَمِ. تَحْمِينِي أَنْكَ قَائِلٌ لَا! سَرَّحَ نَظْرَهُ
بَعِيدًا إِلَى النُّجُومِ وَأَفَلَتْ غَرِيسَ مِنْ فِكْرِهِ.
"أَنَّ أَوَانَ التَّوَجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ". وَضَعَ جَاسِپَرٌ يَدَيْهِ

على رُكْبَتَيْهِ ووقف. ”امشِ معي إلى السَّيَّارة“.
فجراه رومان ماشيًا بجانبه. وفتح جاسپر باب
السَّيَّارة. ”لا تبقَ بعيدًا وقتًا أطولَ من اللازم، بُنَيَّ“.
”ذلك يجري في اتجاهين. لديك عنواني الجديد،
ولكنك ستنامُ على الأريكة من جديد. ما من غرفة
نومٍ إضافية“.

”لا مُشكلة“. وتأمله جاسپر. ”لن نتحدَّث بشأن
غريس، أتنوي أن نتحدَّث؟“

وثب قلب رومان. الرِّقْمُ ثلاثة. كان الله مُستجيبًا
صلاته. ”كنتُ أنتظركَ حتَّى تأتيَ على ذكرها“.

”هل تنوي أن تراها؟“

”لو علمتُ أينَ تسكنُ، لوقفْتُ عندَ عتبةِ بيتها“.

”أما كلمتها قَطُّ؟“

”تصوّرتُ أنّها أرادتِ الأمرَ على ذلك المِنوالِ،

بعدما استقالت وانتقلت من الكوخ. هل رأيتها؟“

تردّدَ جاسپر. ”لا، ولكنني تحدّثتُ معها بضِعِّ

مرّات. لديها عقلها الخاصّ الآن. VirtualGrace.biz.

وقد أحلتُ بضعة طُلابٍ إليها. وحلَّ أحدهم على

لائحة الشَّرَفِ بعدما عاونتته“.

”أفي وُسْعِكَ أن تُعطيني عنوانًا؟ أوْدُ إصلاحِ

الأُمور معها شخصيًا“.

”في وُسْعِي، ولكنني لن أعطيكَ إيَّاه. أحسنُ إذا

اتصلت بها أولاً. ستترك لها الاختيار“.

لم يكن ذلك هو الجواب الذي أراده رومان، ولكنه فهم. ”هذا أمر مفهوم“.

ما إن ساق جاسپر خارجاً من الفناء، حتى أخرج رومان تليفونه وطلب موقع غريس الإلكتروني. ثم نقر مفتاح الاتصال وطبع بإبهاميه رسالة قصيرة، ورفع صلاة سريعة، ثم لمس مفتاح الإرسال.

رفع رومان نظره متنهّداً. كل ما كان عليه أن يفعله الآن هو أن ينتظر... ويأمل أن تجاوب.

الفصل ٣٩

لم تستطع غريس أن تنام. وبعد ساعة من المحاولة، قرّرت أن تُنجزَ بعضَ العَمَلِ وتتفقَدَ رسائلها. فَعَمِلَت قهوة، ونزلت إلى مكتبها الصّغير. كان أحدُ طلابها قد أرسلَ إليها بحثًا فصليًا كي تُنقِّحَه. فأشارت بِخُطوطِ حُمُرٍ إلى مَواقِعِ الإِشْكالِ، ودَوَّنت مَلاحِظَاتٍ في عَمودِ جانبيِّ قِبَلِ أن تُرِسلَ البَحثَ إلى الطَّالِبِ مُجدِّدًا. وإذ أنجَرتَ ذلك، جاوَبَت عن أسئلةِ طالِبٍ آخر.

كانتِ السَّاعةُ قد جاوزتِ الثَّانيةَ فجَرا لَمَّا تَفَقَّدتَ بَريدَ مَوقِعِها الإِلِكْترُونِيّ. فوثبَ قلبُها لَمَّا ميَّزتَ عُنَوانَ رومان. لقد أرسِلتَ الرِّسالةَ عندَ العاشِرةِ والثُّلثِ ذلكَ المِساء. وفي سَطْرِ المَوضوعِ قُرئتَ الكَلِمةُ طَلَب. فثَبَّتتِ المؤشِّرَ، ثُمَّ أبعدتَ يَدَها فورًا كأنَّها أوْشَكتَ أن تُحْرِقَ نَفْسَها. هل كانت تُعَرِّضُ نَفْسَها لِمزيدٍ مِنَ الهَمِّ والغَمِّ؟ فكَرِي قِبَلِ أن تَفْعَلِي أَيَّ شَيءٍ، غريس. فكَرِي! كان في وُسْعِها أن تَمحُوَ رِسالَتَهُ دونَ قِراءَتِها، وتَظَاهَرَ بِأنَّها لَم تَتلقَّها قَط. لا، ليسَ ذلكَ في

وُسْعِهَا. مَا بَرِحَتْ تُصَلِّي عَلَى مَدَى أُسَابِيعٍ. وَقَدْ يَكُونُ
هَذَا جَوَابَ اللَّهِ. إِنَّمَا لَمْ تَكُنْ قَدْ تَوَقَّعْتَ أَنْ تَشْعُرَ
بِلَخْبِطَةِ عَوَاطِفٍ شَدِيدَةٍ عِنْدَ وُصُولِ هَذَا الْجَوَابِ.

آه، يَا اللَّهَ، آه، يَا رَبُّ... لَمْ تَدْرِ حَتَّى مَاذَا تَطْلُبُ
الآن.

دَفَعَتْ غَرِيسَ كُرْسِيِّهَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَصَعِدَتْ الدَّرَجَ
إِلَى دَاخِلِ الْمَطْبَخِ. صَبَّتْ لِنَفْسِهَا بِسُرْعَةٍ فِئْجَانِ قَهْوَةٍ
آخَرَ، ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ احْتَسَسَتْهُ بِسُرْعَةٍ مُمَاطِلَةٍ. آخِرُ
شَيْءٍ احْتَاجَتْ إِلَيْهِ كَانَ الْكَافِيَيْنِ. وَكَانَ نَبْضُهَا قَدْ بَدَأَ
يَتَسَارَعُ أَصْلًا. فَرَجَعَتْ إِلَى طَاوِلَةِ مَكْتَبِهَا. وَحَدَّقَتْ
إِلَى الشَّاشَةِ مُسْتَقِيمَةً الظَّهْرَ، وَيَدَاهَا مُكْوَرَتَانِ
قَبْضَتَيْنِ. لَا تَكُونِي جَبَانَةً كَبِيرَةً! افْتَحِي الرَّسَالَهَ
فَحَسِبْ. هَكَذَا قَالَتْ لِنَفْسِهَا بِضَرَاوَةٍ. ثُمَّ فَتَحَتْ
الرَّسَالَهَ، وَقَلْبُهَا خَافِقٌ بِقُوَّةٍ.

غَرِيسٌ - أَوْدُ أَنْ أَكَلَمَكَ شَخْصِيًّا. إِذَا كُنْتِ رَاغِبَةً،
فَسَمِّي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

سَاكُونُ هُنَاكَ. رُومَانِ.

أَيَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُقَابِلَهُ؟ لِمَاذَا كَانَتْ تَطْرَحُ ذَلِكَ
السُّؤَالَ أَصْلًا؟ لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ سِيَأْتِي. أَمَا
كَانَتْ تُصَلِّي دَائِمًا بِشَأْنِ الْأَمْرِ؟ إِنَّمَا لَمْ تَشْعُرْ بِأَنَّهَا عَلَى
اسْتِعْدَادٍ فَحَسِبْ. أَأَكُونُ يَوْمًا عَلَى اسْتِعْدَادٍ، يَا رَبُّ؟
لَمْ تُرِدْ أَنْ تَرْجُوَ أَيَّ شَيْءٍ.

دَارَتْ فِي رَأْسِهَا احْتِمَالَاتٌ شَتَّى. فِي وَسْعِهَا أَنْ

تُقابِلَه في مقهى. سيكونُ ذلك حِيادِيًّا وأَمِنًا. ويُمكنُها أن تتركَ صَمويل مع دوروثي أو أنجيلا. نَحَت فِكْرَةً بعدَ أُخرى، مُتَلَمِّسَةً في أثناء ذلك ما أرادَهُ اللهُ، إذا كانت لَدِيها الشَّجاعةُ لِتَقْبِلَه.

أه، رَبِّاه، عونك!

ثمَّ سَحَبَت نَفْسًا عميقًا، وأخرجته فيما نَقَرَت الكَلِمَةَ إجابةً.

أنا ساكنةٌ في ميرسيد.

نَقَرَت الكَلِمَةَ إرسال. كانت ميرسيد بعيدةً جدًا عن لوس أنجليس. من شأنِ رومان، دونَ شكٍّ، أن يُقرَّرَ أنها لم تكن تستحقُّ السَّوقَةَ الطَّويلة. فيما قلبها ما يزال يخبِط، ولكنها شاعرةٌ بأنها مُبَرَّرة، رجعت إلى الاشتغال بِمَشروعٍ آخر. ستمضي ساعاتٌ قبل أن يقرأ الرِّسالة، وقد شكَّت في أنه سيُجيب.

برزت نافذةٌ صغيرة في الزَّاويةِ اليمنى السفلى على شاشة حاسوبها، وصدَّرت أُرَّةً تُبيِّنُ أنَّ لَدِيها رسالةٌ جديدةٌ من رومان. ماذا كان فاعلاً وهو مُستيقظٌ في السَّاعةِ الثَّالثةِ فجراً؟ ثمَّ فَتَحَتِ الرِّسالةَ ودقَّات قلبها مُتسارعةً.

أنا في مزرعةِ آل ماسترسن. يُمكنني أن أكون في ميرسيد في غضون ساعاتٍ قليلة. أحتاجُ إلى عنوانٍ فحسب. لماذا أنتِ مُستيقظةٌ باكراً جداً؟

نَقَرَت الكَلِمَةَ إجابةً.

لم أستطع أن أنام. لديّ عقلٌ أقوم به. ماذا عنك؟
لم أنم جيّدًا طوالَ شهور. ذلك واحدٌ من الأمور
التي أريد أن أتحدّث بشأنها معك.
لم تعلم ما تستنتجُه من ذلك، واثكأت إلى الوراء
على كرسيّها.

ثمّ برزت رسالةٌ أخرى.

آسف. ربّما صدرَ ذلك بصورةٍ خاطئة. لا تقلقي،
غريس. أعدُّ بأن أبقِي يديّ لِنفسي.

تردّدت طويلًا جدًّا، ثمّ برزت رسالةٌ أخرى.
رجاءً. كلّميني!

رجاءً! كانت تلك كلمةٌ ما سمعته قط يقولها.
فطبعت عنوانها وحدّدت الساعةَ الثّانية موعِدًا للقاء.
ثمّ أرسلت ذلك قبل أن تتمكّن من تغيير رأيها، ومن
ثمّ أمّلت ألا يُناسبه الموعِد.

إنّما جاء ردّه بِسرعة.

شكرًا لك. أراك الساعةَ الثّانية.



حزَمَ رومان بِسرعةٍ أمتعته في حقيبته الظّهريّة،
ووضّعها بقربِ الباب الأمامي، ثمّ دخلَ المطبخ ليقولَ
لتشت وسوزان لِمَا كان مُغادرًا أبكرَ بيومٍ واحد. كانا
دائمًا يستيقظان عند الساعة الخامسة. وقد استطاع
أن يشمّ رائحةَ القهوة واللّحم المقدّد المقلّي. كان

تشت واقفاً عند المنضدة، مُتحدّثًا إلى زوجته وهي تُمدّد شرائح اللحم الطّاشّة في المقلاة. وقد لاحظته تشت أوّلًا. وإذ نظرت سوزان من فوق كتفها، تبسّمت. "عجبا، استيقظت باكرا!"

"أسف لقطع زيارتي قبل الأوان، ولكنني سأعود. اتّصلت بغريس. حدّدتنا زمانًا ومكانًا لتحدّث، في ميرسيد."

ارتفع حاجبا تشت. "يبدو الأمر جدّيًا."

"هو جدّي بقدر ما يمكن أن يكون. أمل أن تسمعني غريس إلى النهاية."

بدت سوزان كأنها أرادت أن تطرح أسئلة، ثمّ لم تفعل ذلك. فرمّقت تشت بنظرة، ثمّ ركّزت على المقلّي مُجددًا. وصبّ تشت كوب قهوة فناوله إياه. "قال لنا جاسپر إنّ الأمور لم تجر جيّدًا بينكما أنثما الاثنتين. لذلك لم نأت على ذكر غريس."

"تصرّفت كبهيم. كان لها الحش السليم لتستقبل وترحل. أنا مدين لها بأكثر من اعتذار."

"وافقت على أن تراك. ذلك خبر طيب."

عليه أن ينتظر ليتحقّق.

سرعان ما دبّت الحركة في المنزل. فقد استيقظ الفتيان الأربعة كلهم واستحمّوا، ودخلوا المطبخ جائعين ومُتحدّثين، ما عدا جيمي، إذ نخع ذقنه لرومان محييا. وطلّبت سوزان إلى رومان أن يقعد.

”لَنْ تُسَافِرَ بِمَعِدَةٍ خَاوِيَةٍ“. ثُمَّ قَدَّمَتْ لَهُ بَيْضًا مَخْفُوقًا مَقْلِيًّا، وَقَدِيدَ لَحْمٍ، وَخُبْزًا مُحَمَّصًا، وَوَضَعَتْ الْأَطْبَاقَ عَلَى الطَّائِلَةِ لِأَجْلِ الْبَاقِينَ، كَيْ يَمُرُّوا وَيَمَلَأُوهَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الْعَائِلِيَّةِ. نَادِرًا مَا تَنَاوَلَ رُومَانٌ فَطُورًا كَامِلًا، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْبَحَ تَلَهُّفَهُ إِلَى مُبَاشَرَةِ الرِّحْلَةِ.

مَا إِنْ تَنَاوَلَ الْفَتِيَانُ طَعَامَهُمْ وَانصَرَفُوا إِلَى تَأْدِيَةِ مَهَامِّهِمُ الصَّبَاحِيَّةِ، حَتَّى أَحْسَسَ رُومَانٌ أَنَّهُ حُرٌّ لِلْمُغَادِرَةِ. مَشَى مَعَهُ تَشْتِ وَسُوزَانُ إِلَى سِيَّارَتِهِ. ”أَتُرِيدُ نَصِيحَةً صَغِيرَةً بِشَأْنِ النِّسَاءِ؟“ رَبَّتْ تَشْتِ كَيْفَ رُومَانٌ. ”عَالِجِ الْأَمْرِ عَلَى مَهْلٍ وَبِلُطْفٍ“.

أَطْلَقَتْ سُوزَانُ شَجَرَةً خَشِينَةً. ”لَوْ أَنْتَظَرْتُكَ حَتَّى تَطْلُبَ يَدِي، لَكُنْتُ مَا أَزَالُ عَائِشَةً مَعَ أَبِيِّ فِي تَكْسَاسٍ“.

”طَلَبْتُ يَدَكَ“.

”قُلْتُ إِنْ لَدَيْكَ شَيْئًا تَسْأَلُنِي إِيَّاهُ فِي غُضُونِ سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ. فَقُلْتُ: «لِمَاذَا الْإِنْتِظَارُ؟»“

ابْتَسَمَ لَهَا تَشْتِ ابْتِسَامَةً مُتَكَلِّفَةً، وَغَمَزَ رُومَانٌ بِعَيْنِهِ. ”كَمَا قُلْتُ. عَالِجِ الْأَمْرِ عَلَى مَهْلٍ وَبِلُطْفٍ. سَتَجْعَلُكَ الْفَتَاةُ تَعْلَمُ مَا تُرِيدُهُ هِيَ، وَمَتَى تُرِيدُهُ“.

وَكَزَّتْهُ سُوزَانُ فِي ذِرَاعِهِ.

وَإِذْ سَاقَ رُومَانٌ خَارِجًا مِنَ الْبَاحَةِ، نَظَرَ فِي مِرَاةِ الْبَاطِنِ الْخَلْفِيَّةِ. كَانَ تَشْتِ مُطَوِّقًا سُوزَانُ بِذِرَاعِهِ،

فِيمَا لَوْحًا كِلَاهُمَا مُوَدَّعَيْنِ. وَقَدْ مَالَتْ سُوزَانُ
مُسْتِنِدَةً إِلَى زَوْجِهَا.

يَا رَبُّ، ذَلِكَ هُوَ نَوْعُ الْعَلَاقَةِ الَّتِي أُرِيدُهَا.



حَاوَلَتْ غَرِيْسُ أَنْ تَشْتَغَلَ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُرَكِّزَ.
وَإِذْ تَلَهَّفَتْ إِلَى الْقِيَامِ بِشَيْءٍ مَا لِكَبْحِ تَوَثُّرِهَا، نَظَّفَتْ
الْبَيْتَ فِيمَا صَمُوَيْلُ يَلْعَبُ بِالْكُتْلِ قَانِعًا عَلَى سَجَّادَةِ
حُجْرَةِ الْجُلُوسِ. وَقَدْ تَوَقَّفَ الْمَطْرُ وَقْتًا طَوِيلًا كَافِيًا
لِاصْطِحَابِ صَمُوَيْلِ فِي نُزْهَةِ مَشْيٍ حَوْلَ صَفِّ
الْمِبَانِي. أَرَادَتْ لَهُ أَنْ يَتَعَبَ وَيَكُونَ نَائِمًا نَوْمًا عَمِيقًا
عِنْدَمَا يَأْتِي رُومَانَ. دَرَجَ صَمُوَيْلُ مَعَهَا مَسْرُورًا إِلَى
حِينَ، وَلَكِنَّهُ سُرِعَانَ مَا بَدَأَ يَضِجُ رَاغِبًا فِي الرَّجُوعِ
إِلَى عَرَبِيَةِ الْأَطْفَالِ. فَسَبَقَتْهُ قَلِيلًا، مُشْجَعَةً إِيَّاهُ عَلَى
اللَّحَاقِ بِهَا. وَاسْتَمْتَعَ بِذَلِكَ مَسَافَةً نِصْفِ صَفِّ مِنَ
الْمِبَانِي، ثُمَّ قَعَدَ عَلَى قَارِعَةِ رَصِيفِ الْمَشَاةِ احْتِجَاجًا.
وَلَمَّا رَجَعَا إِلَى الْبَيْتِ، أَطْعَمَتْهُ غَدَاءَهُ وَحَطَّتْهُ عَلَى
السَّجَّادَةِ لِيَلْعَبَ. وَإِذْ أَرَادَ أَنْ يُحْمَلَ، أذَعَنْتْ غَرِيْسُ
وَهَزَّتْهُ عَلَى رُكْبَتَيْهَا. وَكَادَتْ هِيَ تَنَامُ عَلَى الْكُرْسِيِّ.
ثُمَّ وَضَعَتْهُ عَلَى سَرِيرِهِ الشَّبِيهِ بِسَيَّارَةِ سِبَاقٍ، وَبَاسْتَهُ،
وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ بَانْتِبَاهٍ.

اتَّسَعَ وَقْتُهَا لِغَسْلِ أَسْنَانِهَا بِالْفُرْشَاةِ وَأَخَذِ حَمَامٍ
سَرِيعٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِلْمَاكِيَاكِجِ قَلِيلٌ مِنْ أَحْمَرِ الشُّفَاهِ
يَفِي بِالغَرَضِ. ثُمَّ فَرَّشَتْ شَعْرَهَا عَلَى عَجَلٍ، وَمَرَّرَتْ

أصَابِعَهَا فِيهِ. وَإِذِ حَدَّقَتْ إِلَى نَفْسِهَا فِي الْمِرَاةِ،
مُكْتَتِبَةً، بَدَتْ شَاحِبَةَ الْوَجْهِ، تَحْتَ عَيْنَيْهَا ظِلَالٌ
وَفِيهِمَا أَمَارَاتُ حُزْنٍ وَقَلَقٍ. اهْدِإِي، غَرِيْسُ! تَنْفَسِي!
وَعَلَى حَافَةِ الدُّعْرِ، أَحَسَّتْ دَفْقَةَ الدَّمْعِ، فَشَهَقَتْ
نَفْسَهَا، ثُمَّ زَفَرَتْهُ عَلَى مَهْلٍ. وَسَاعَدَهَا ذَلِكَ عَلَى
الاسْتِرْخَاءِ. فَصَلَّتْ وَأَحَسَّتْ أَنَّهَا مُسْتَعِدَّةٌ. إِلَى أَنْ رَنَّ
جَرَسُ الْبَابِ. مَسَحَتْ كَفَيْنِ رَطْبَتَيْنِ عَلَى جِينِزِهَا، ثُمَّ
سَحَبَتْ نَفْسًا عَمِيْقًا وَأَطْلَقَتْهُ قَبْلَ فَتْحِ الْبَابِ. قَدْ
وَقَفَ رُومَانٌ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى مِنَ الْبَابِ الْمُشْبَكِ،
فَتَسَارَعَ نَبْضُهَا صَارُوخِيًّا. كَفَى تَقَدُّمًا! يَا رَبُّ،
سَاعِدْنِي!



أَحَسَّ رُومَانٌ جَمِيْعَ الْمَخَاوِفِ الْقَدِيْمَةِ ثَائِرَةً لَمَّا مَشَى
صَاعِدًا عَلَى الْقَمَرِ إِلَى بَابِ غَرِيْسِ الْأَمَامِيِّ. مَا بَرِحَ
الْحُبُّ كُلَّ حِيْنٍ هُوَ الْعَدُوُّ، الْعَاطِفَةُ الَّتِي يَنْبَغِي
تَجَنُّبُهَا. فِي الْأَشْهُرِ الْمَاضِيَةِ، كَانَ بَرِيَانٌ قَدْ سَاعَدَهُ كِي
يَرَى بِمَزِيْدٍ مِنَ الْوَضُوحِ مَا سَبَقَ أَنْ حَاوَلَ جَاسِيْرٌ أَنْ
يُقْنِعَهُ بِهِ عَلَى مَدَى سِنِيْنٍ. فَلَأَنَّ شَخْصًا وَاجِدًا خَذَلَكَ،
لَا يَعْنِي ذَلِكَ تَمَامًا أَنْ كُلَّ شَخْصٍ سَيَخْذُلُكَ.
وَبِالْحَقِيْقَةِ أَنَّ رُومَانَ قَدْ خَذَلَ غَرِيْسَ لِأَنَّهُ افْتَقَرَ إِلَى
الشَّجَاعَةِ كِي يُقْدِمَ وَيَكُوْنَ الرَّجُلَ الَّذِي قَصَدَ لَهُ اللهُ
أَنْ يَكُوْنَهُ.

وَمَنْ ثُمَّ ذَكَرَ نَفْسَهُ: ذَلِكَ كَانَ آنَذَاكَ، أَمَّا هَذَا فَهُوَ

الآن. يا الله، اجعلني الرَّجُلَ الذي تُريدُ لي أن أكونه.
وقفَ عندَ الباب، مُستولياً عليه التَّوتُّرُ والارتباك،
وكتبَسَ زِرَّ جَرَسِ الباب. يا ربَّ الرَّحمة، ساعدني
لأقولَ ما ينبغي أن يُقال. وإذا كانت مشيئتُك...

انفتحَ الباب، فظَهَرتَ غريس وولَّى عنه كلُّ فِكر.
لم يكِدَ يقوى على التَّنَفُّس. إن كان قد داخلَهُ يوماً أيُّ
شكٍّ في كونه مُغرماً بهذه المرأة، فالآنَ تبدَّدَ كلُّ شكٍّ.
بدت أصغرَ سِنًا، وأكثرَ انكِشافًا، شعرها الداكنُ أطولَ
ومرَّخى حولَ كتفَيْها. كانت لابسةَ الكنزةَ القَرَنفُليَّةِ
والبلوزةَ البيضاءَ والجينزَ التي تذكَّرُها كُلُّها. وكانت
قد فقَدَتَ بعضَ الوزن، ولكنَّهُ هو أيضًا كان قد فقَدَ.
لم يستطعَ أن يعلمَ بما كانت شاعِرةً، ولكنَّهُ لمسَ
توتُّرًا وحدَرًا. وبالنَّظَرِ إلى ما حصلَ بينهما آخرَ مرَّةٍ
كانا معًا، تفهَمَ رومان ارتيابَها. استنشقتَ بحِدَّةٍ،
فخبَّطَ قلبُه أقوى. وساعَدَهُ أن يعرفَ أنَّها كانت
مشدودةَ الأعصاب أيضًا، خائفةً كيف يُمكنُ أن يجريَ
وقْتُهما معًا هذه المرَّة. فإذ رأى ذلك، باتَ أهدأ. لقد
علمَ رومان كيف وأين أرادَ لهذا اللِّقاء أن ينتهي، أو
بالأحرى يبدأ.

رفَعَتَ غريس سُقَّاطَةَ البابِ المُشبَّك، ودفعتهُ حتَّى
انفتحَ بُوصاتٍ قليلةً. "تفضَّلِ ادخُل". وتراجعتَ
قليلاً. أالإفساحِ له في المجال، أم للجِفاظِ على بُعدها
عنه؟ لم تزدَ له حِمْلَقَتَه، بل دعتُهُ إلى حُجرةِ جلوسِها

بإيماءٍ حادّة. كانت الأريكةُ فيروزيّة اللون، ذات
وسائدٍ صفراء. وقد علّقتِ الأثرَ الفنّيّ المُدبّجَ بخطِّ
اليد، ذاك الذي ميّزه الآنَ كاقْتِباسٍ من سفر المزامير،
فضلاً عن صُورِ الرّبِّ يسوع. وكان لِلغُرْفَةِ التّأثيرُ
المُريخِ عينه، ذاك الذي أضفتُه على كُوخِ الضُّيوفِ
لديه. حيثُما اجتمعَ اثنانِ أو أكثر، فأنا هناك معكم.

”تفضّلِ اجلس.“ ارتعشَ صوتُ غريس قليلاً،
فتنحّنتِ مُنظّفةٌ حنجرتّها. ”سأعدُّ بعضَ القهوة“.

أحسّ رومان كأنّه في بيته داخلَ هذا المنزلِ كما
داخلَ الكوخ. لم يكنِ الفضلُ للأثاثِ أو الزّخارفِ، بل
لِغريس. وبدلَ الجُلوس، تَبِعَها رومان ووقفَ في
مدخلِ بابِ المطبخ، مُراقِباً إيّاها. لقد تلاشى التّورّدُ
الضّئيلُ في خديها، إذ بدتِ الآنَ شاجبةً. هل كانت
خائفةً منه؟ تمنّى أنّها لم تكن. كادت تُسقطُ العُليبةَ،
ورمقتُه بنظرةٍ ارتباك. لم يُضطرَّ لأنْ يسألَ هل كانَ
جاعلاً إيّاها مُتوتّرةً الأعصاب، ولم يُرد لها أن تكونَ
كذلك. كم ظهرَ على وَجْهِه ممّا شعرَ به؟ مقدارٌ يفوقُ
الحدّ، في ما بدا. كان عليه أن يكفَّ عن التّحديقِ إلى
منظرِها بابتهاج.

عالجِ الأمرَ على مهلٍ وبِلُطف، هكذا قالَ تشت.
ولكنّ ليس على مهلٍ يُجاوِزُ الحدّ، حسبَما قالت
شوزان.

طرحَ رومان كلَّ خبرتهِ مع النّساء. فلا شيءَ منها

يَنْفَعُ هُنَا. إِنْ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا مَا عَاجِلًا وَيَنْقُضِ التَّوَتُّرَ،
أَصِيبَ بِتَوْبَةٍ قَلْبِيَّةٍ أُخْرَى. فَابْتَسَمَ لَهَا، رَاجِيًا أَنْ يُقْوِيَ
ذَلِكَ كِلَيْهِمَا لِتَخْطِي انْطِلَاقَ قَاسِيَةٍ. ”اَفْتَقَدْتُ
قَهْوَتَكَ“. كَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَقِفَ طَوَالَ الْيَوْمِ نَاطِرًا
إِلَيْهَا. فَقَدْ كَانَتْ فِي نَظَرِهِ أَجْمَلَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ رَأَاهُ
يَوْمًا. وَلَكِنَّهَا قَدْ تَطْمِئَنُ إِذَا نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ مَا سِوَاهَا.

أَطَلَّتْ نَافِذَةُ الْمَطْبَخِ عَلَى مَسَطَّحِ أَخْضَرَ كَبِيرٍ
وَحَدِيقَةِ خُضْرٍ. ”مَكَانٌ جَمِيلٌ يَلْعَبُ فِيهِ صَمُوِيلُ“.
فَقَالَتْ غَرِيْسٌ نَعَمْ. وَقَدْ أَخَذَتْ نَفْسًا مُضْطَرِبًا فِيمَا
شَالَتْ الْبُنَّ بِالْمِلْعَقَةِ. ثُمَّ شَرَعَتْ تَتَكَلَّمُ. فَأَخْبَرَتْهُ عَنْ
دُوروثِي وَجُورْجِ، مَالِكِي مَسْكِنِهَا، وَخُوَانِ وَأَنْجِيلَا
مَارْتِينِيْزِ وَأَوْلَادِهِمَا الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي جُوَارِهِمْ
تَمَامًا. وَقَدْ زَرَعَ خُوَانُ حَدِيقَةَ الْخُضْرِ، وَزَوَّدَتْهَا أَنْجِيلَا
بِنَصَائِحِ وَالِدِيَّةِ، وَكَانَ مَتِيَّاسُ الصَّغِيرُ صَدِيقَ صَمُوِيلِ
الطَّيِّبِ الْأَوَّلِ. كَانَتْ تَتَنَقَّلُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ
بِتَشْتُّتٍ، عَلَامَةً عَلَى أَنَّهَا مَا زَالَتْ مُتَرْفِزَةً. وَلَا حَظَّ أَنَّهَا
مَلَأَتْ مِصْفَاةَ الْقَهْوَةِ حَتَّى الْحَافَةِ. ثُمَّ أَطْلَقَتْ تَنْهَدَةً
رَقِيْقَةً، غَيْرَ نَاطِرَةٍ إِلَيْهِ، وَأَعَادَتْ بِالْمِلْعَقَةِ بَعْضَ الْبُنِّ
إِلَى الْعَلِيْبَةِ.

أَرَادَ رُومَانُ أَنْ يُطَوِّقَهَا بِذِرَاعِيهِ وَيَقُولَ: لَا بَأْسَ،
غَرِيْسُ. أَنَا مُرْتَاعٌ مِثْلِكَ تَمَامًا. وَحَاوَلَ أَنْ يَسْتَرْخِي،
إِلَّا أَنْ نَبْضَهُ عَدَا عَدْوًا سَرِيْعًا، وَكَانَ نَفْسُهُ عَالِيًا
وَمَشْدُودًا. فَشَهَقَ وَزَفَرَ عَلَى مَهْلِ قَبْلَمَا تَكَلَّمَ. ”أَيْنَ

صمويل؟“

”نائم في قيلولة“. قلما نظرت غريس إليه، إذ أسر انتباهها شيء ما على طاولة المطبخ. فنظرت رومان من عل إلى صحن أزرق مُزخرف، وفهم الأمر. كانت هناك الأشياء التي جمعتها في أثناء رحلتها على الطريق: خمسة حجارة مُلس، كوز صنوبر، بلوطتان مقرونتان معًا بغصين واحد.

التقط رومان البلوطتين وحملهما في كف يده.

”لم ترميها بعيدًا“.

أدارت غريس ظهرها مُتوردة الخدين. ”لم لا نقعد في حجرة الجلوس؟“ ثم ملأت كوبين قهوة وتركتهم واقفاً وحده في المطبخ. فأعاد رومان البلوطتين إلى مكانهما في الصحن. غريبٌ كيف أن شيئًا ما صغيرًا وعاديًا أمكن أن يُفعمه بكثيرٍ من الأمل!

قعدت غريس على الكرسي الهزاز، تاركةً له الأريكة كلها. وقد حملت كوبها مُحتمضةً إيَّاه بكتنا يديها. وبقي كوبه على طاولة القهوة، حائلًا هائلًا بينهما. لقد قعد، ولكنه لم يمَسَّ الكوب. إنه ما جاء لأجل القهوة.

”جئتُ لأعتذر، غريس“. أمر ما فعله قط قبلاً. ”لم أعاملِك بالاحترام الذي تستحقينه، وأنا آسف على ذلك“. ضاغظًا كفيه معًا بين رُكبتيه، مال إلى الأمام، رافعًا صلاة اضطرار. اللهم، ساعدني! ”كنتُ خائفًا أن

أفصح لك عن حقيقة شعوري حيالك". أشاحت
بِنظريها، وأحجم هو عن قول الباقي، مُنتظراً إيّاها
حتى تُواجهه قبلما أضاف: "كنت مُغرماً بك، وأنا
مُغرّم بك الآن". ما كان قط قد قال هذه الكلمات لأية
مخلوقة، ورأى الكلمات صاعدةً.

"لا أريد ذلك النوع من الحب، رومان".

"ما فرغت بعد".

انفرت شفتا غريس واغزورقت عيناها، وكادت
تُهرق قهوتها. "لست على يقين تامّ بأنني أستطيع
الإصغاء".

"رجاءاً!"

حطت غريس الكوب جانباً على طاولة صغيرة
تمثل قاعدة مصباح، ووضعت يديها على فخذيها
قبلما نظرت إليه مكروبةً. "لماذا جئت، رومان؟"

"بسّطت جزتي خارجاً، وقال الله نعم". لماذا

ينبغي لها أن تُصدّقه؟ قل الباقي تماماً، رومان!
"جئت لأطلب إليك أن تتزوجيني".

"ماذا؟" انكفات مصدومةً.

"سمعتني". لقد علم ما كان طالباً. كان بريان قد

أعطاه مرةً نسخةً من نُذور الزواج النموذجية. وكان
له إلمام ما بعمق الالتزام الذي يقتضيه دواّم علاقة ما
على المدى البعيد، عبّر جميع التّحدّيات التي سترمي
بها الحياة عليهما، ناهيك بالشؤون والسّمات

الشخصية التي سيأتيان بها كلاهما. لقد علم أن الأمر لن يكون سهلاً على كليهما. فالله عليهم بأي شؤون طفولة وشجون بلوغ كانت لهما. وحتى بوجود ذلك كله، كانت لهما وعود الله يقفان عليها. لا يستحيل على الله شيء. ”لكي يكون كلامي صريحاً وواضحاً، غريس، أريد أن أحبك وأكرمك وأعزك ما دُنا كلانا على قيد الحياة“.

غطت فمها. وفاضت الدموع على خديها. وإذا حنت رأسها، وضعت يديها مشبوكتين في حضنها. ثم هزت رأسها. ”أنا أعلم ما تفكر فيه عن النساء، رومان. أولئك اللواتي تلتقيهن في النوادي. لست تعلم عني بمقدار ما تعتقد أنك تعلم“.

”أعلم أنك ذهبت إلى نادي آفتر دازك والتقيت رجلاً، وصمويل هو الحصيلة“.

شهقت غريس نفساً، وحدقت إليه، وقد احمر خذاها ثم ابيضاً. ”شأنيس أخبرتك؟“

”لا خيانة، بل برز الأمر كله لَمَّا ذهبت معها لإحضار صديقة لها من آفتر دازك“.

”آه!“ وغطت غريس وجهها.

وجع رومان قلبه من أجل الخوف والارتباب اللذين عانتها بسبب ليلة واحدة نسيت نفسها فيها. لقد كافحت للاحتفاظ بابنها، وهي الآن تحمل المسؤولية وحدها. كم امرأة كانت لتسلك سبيلاً

مُخْتَلِفًا؟ الشُّكْرُ لِلَّهِ لِأَنَّ غَرِيْسَ تَبِعْتَهُ، لَهُ الْمَجْدُ، وَلَمْ تُجَارِ الْجُمْهُورَ. ”مَا لَمْ تَعْلَمَهُ شَانِيْسٌ هُوَ أَنَّنِي قَدْ أَكُونُ أَنَا ذَلِكَ الشَّابُّ الَّذِي تَحَدَّثْتُ بِشَأْنِهِ“.

أَرَحْتَ غَرِيْسَ يَدَيْهَا، مُتَّجِهَةً. ”لِمَاذَا، يَا ثُرَى، تَقُولُ شَيْئًا كَهَذَا؟“

”لَيْسَ أَمْرًا مُسْتَحْيَلًا. اعْتَدْتُ أَنْ أُتَسَكَّعَ فِي نَادِي آفْتَر دَارِك دَوْرِيًّا. كَانَ لِي شَقَّةٌ سَكْنِيَّةٌ صَغِيرَةٌ فِي مَالِيْبُو آنْدَاك. أَنْتِ رَأَيْتِ وَشَمًّا تَلِكَ اللَّيْلَةَ. وَأَنَا أُتَذَكَّرُ فِتَاةً ذَاتَ شَعْرٍ أَشَقَرَ طَوِيلٍ غَادَرْتَ فِي نِصْفِ اللَّيْلِ، فِيمَا كُنْتُ أَنَا فِي الْحَمَّامِ. لَا أُرِيدُ أَنْ أَبْدُو مُتَغَطِرِسًا، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَطُّ قَدْ حَدَثَ مِنْ قَبْلِ“. عَادَةً، كَانَ يَذْهَبُ إِلَى شَقَّةِ الْمَرْأَةِ أَوْ بَيْتِهَا، أَوْ يَمْضِي بِهَا إِلَى فُنْدُقٍ. وَالنِّسَاءُ الْقَلِيلَاتُ اللَّوَاتِي أَتَى بِهِنَّ إِلَى شَقَّتِهِ كُنَّ يُرْسَلْنَ إِلَى بِيوتِهِنَّ فِي سِيَّارَةٍ عُمُومِيَّةٍ، عَادَةً قَبْلَ أَنْ يَكُنَّ مُسْتَعِدَّاتٍ لِلْمُغَادَرَةِ.

خَطِيئَةٌ أُخْرَى اعْتَرَفُ بِهَا، يَا رَبُّ. لَقَدْ عَامَلْتُ النِّسَاءَ مِثْلَمَا عَامَلَ الرَّجَالُ أُمَّي. ”لَسْتُ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُهُ فِي الْمَاضِي، غَرِيْسُ، وَلَكِنِّي مَا زِلْتُ بَعِيدًا جَدًّا عَنْ ذَاكَ الَّذِي أُرِيدُ أَنْ أَكُونَهُ“.

”تُعَدُّ النِّسَاءُ مَسْئُولَاتٍ عَنْ مُسْتَوَى أَعْلَى مِنْ ذَاكَ الَّذِي يُحْسَبُ لِلرِّجَالِ“. ثُمَّ التَّوَى فَمَّا بِنِصْفِ ابْتِسَامَةٍ إِدْرَاكِ خَزِينَةٍ. ”وَلَا سِيَّمَا فِي نَظْرِ الرَّجَالِ“.

أَكَانَتْ مُتَذَكَّرَةً تَعْلِيْقَاتِ الْبِرِّ الذَّاتِيِّ الَّتِي أَدَلَى بِهَا

في بُوداي؟ ”أنتِ على حق، وذلك خطأ. لقد عِشتِ كَمُراءِ زمانًا طويلًا“. وكانَ قد دانَ امرأةً ماتت من زمانٍ بعيدٍ من أجل عَيشِها الحِياةَ التي عاشتها أُمُّه، مُتذَكِّرا كيف عانى هُوَ معها في عِيشَتِها. لم يَكُنْ قد رأى غريسَ غاضِبَةً قَطُّ حتَّى ذلكَ اليوم. ولم تَكُنْ هي قد أدركت أَنَّهُ كانَ مُبدِيا شَفَقَةً على أُمِّه. ماذا عَرَفَ عَمَّا جرى بينَ أُمِّه ووالِدِه، وماذا كانتِ الظُّروفُ؟ فأَيُّ حقٍّ كانَ لَهُ في أن يَحكُمَ على أَيِّ شخصٍ؟

بَدَت قَسَماتُ غريسَ غامِضَةً. ”أِلِذكَ جِئتُ؟ لِأَنَّكَ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ قد تَكُونُ وَالِدَ صَمَوِيلَ؟ ما كُنْتَ أَنْتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ!“

”الفتاةُ التي التَّقِيْتُها قالت لي إِنَّها أرادت أن تَشعُرَ بِشَيءٍ ما“. ورأى رومانَ التَّرَجُّجَ في عَينِها. ”أنا أردتُ الأمرَ نَفْسَه. لستُ مُتحدِّثًا بِشأنِ العَلاقةِ الجَسَدِيَّةِ، غريس. أنا مُتحدِّثٌ بِشأنِ الارتباطِ بِشخصٍ ما عاطفِيًّا“. ولم يَكُنْ قَطُّ قد فَهِمَ التَّوَقُّعَ المَكبُوتَ حتَّى ظَهَرَت غريسُ وتَطَوَّرَت عَلاقَتُهُما. ”لستُ مُفَسِّرًا جَيِّدًا جدًا“. وحاوَلَ أن يَسْتَجْمَعَ أَفكارَه. ”استغَرَقَ الأمرُ يَوْمًا واحدًا فقط لِأَدْرِكَ أَنَّكَ لَنْ تَرجِعِي إلى الكوخِ، وَأَنتِ نَسِيتِ كُلَّ شَيءٍ مَعَكَ. واستغَرَقَ الأمرُ شُهورًا لِأَحلِّلَ جَميعَ الأسبابِ التي اضطرَّرتِ إلى الرَّحيلِ وما أحتاجُ إلى القيامِ بِهِ لِأَنَّ أَسوئِي وَضَعِي أمامَ اللَّهِ“. مرَّةً أُخرى، ذلكَ التَّرَجُّجُ.

كان قد نال الخلاص قبل رحيلها، ولكنه ما كان تلميذاً
تابعاً المسيح. وقد أحدث ذلك فرقاً أساسياً في مَنْ
كانه ومَنْ هُوَ الآن.

جلسا مُتقابلين، بينهما طاولة القهوة. لم يُشخ
رومان بنظره. ”اعترفتُ بأنك أحببتني تلك الليلة.
وغادرتُ لأنك أردتِ رجلاً مُستعداً للالتزام، لا صبياً
يُريدُ كلَّ شيءٍ حسبِ شروطه.“

”ما دُمتنا نتصارخُ بصدق، أقولُ إنني غادرتُ لأنني
لو بقيتُ لَمَا كنتُ قويّةً كفايةً لأقولَ لا مرّةً ثانية.“

لقد علمَ ذلك هُوَ أيضاً، وحسبَ نفسه شريفاً جداً
إذ انتظر ساعةً قبل اللّحاقِ بها، ثمّ فقط لكي يوكّد
أفضليّته آنذاك. ”لقد قُمتِ بما هو صوابٌ إذ غادرتِ،
غريس. ما كنتُ لأدعكِ وشأنك“. وقد شكّر الله لأنّها
لم تتوان. أينَ كانا سيّكونانِ الآن لو أنّها ضَعُفت؟ كانا
سيّكونانِ ساكّنينِ معاً. ما كانت قُطُّ لِتشعُرَ بأنّها في
أمانٍ وإكرامٍ، وكان هُوَ سيّبقى الأحقُّ الأناي
المُتغَطِّرسِ الذي كانه آنذاك تماماً. ولو لم تفرّ غريس،
لرُبّما لم يشعُر قُطُّ بحاجتهِ لأن يمتحنَ حياته ويُدركَ
احتياجهِ إلى الله كي يُغيّرَ حياته من الداخلِ
فخارجاً.

بدت غريس مُضطربةً. ”صمويل ليس ابنك،
رومان. كيفَ أمكّنُ أن يكون؟ توخّيتُ العلاقة الآمنة
دائماً، على حدِّ قولك لي. ثمّ فقط مع نساءٍ عرّفنَ

الأصول. ذلك هو ما قلته لي لما زرنا بُوداي. هل تذكر؟“

كم من أشياء غيبية أخرى قالها في حياته؟ ”كان لي معيار“. وضحك ضحكة كئيبة. ”ليس معيارًا رفيغًا، كما اعترف. لم أريد أن أكون مثل والدي، أجعل شابة حبلى وأمضي في سبيلي“. لا يكاد هذا يمثل عُذرًا، ولكنه الحقيقة. ”ما أخبرتني أمي قط من كان، وتركت ذلك السطر فارغًا في وثيقة ولادتي. لعلها لم تعرف أصلًا، وليس لدي أيّة طريقة للاكتشاف“.

بِحجرّة منقبضة، صارع رومان مدًا من المشاعر. ”لئن بدا الأمر جنونيًا، فقد افتقدت والدي. أعلم أن ذلك رُبما لا يبدو لك منطقيًا، ولكنني كنت في حاجة إليه“. على مدى الأيام القليلة الأخيرة، فتحت عيناه. ”حاولت جاسپر أن يسد الفراغ، ولكنني رفضت أن أسمخ له. وحاولت تشتت أيضًا. لقد كان لي أسوار حوالي. ولما قبلت المسيح، وجدت أبي السماوي. ولكن ما زالت لدي تلك الخاصرة الرخوة. فما زلت أتساءل“. ثم بقي صامتًا لحظات، مُصليًا. يا يسوع، ساعدني حتى أفهم ما لا أستطيع تفسيره لنفسي، ناهيك بأي كائن بشري آخر.

أن الأوان ليوضع جميع آماله على الطاولة. ”أحبك، غريس. أريد أن أتزوجك. لا أعرف صمويل بعد، ولكنه ابنك، وذلك سبب كافٍ عندي لكي أحبه“. رقت

عينا غريس البُنَيْتَانِ. أَحِبًّا كَانَ ذَلِكَ أُمَّ عَطْفًا؟ ”لَمْ أَقُلْ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ حَتَّى تَشْعُرِي بِالْأَسْفِ حِيَالِي“.

”لَا أَشْعُرُ“.

”الصَّبِيُّ يَحْتَاجُ إِلَى أَبِي“.

اغْرَوْرَقَتْ عيناها. ”وَكذلكَ الْبِنْتُ أَيْضًا“.

”رَبِّمَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ اللَّهُ الْمَلَكَ إِلَيْكَ“.

ازدادت سُرْعَةُ دَقَّاتِ قَلْبِهِ قَلِيلًا حِيَالِ الْحَنَانِ فِي عَيْنَيْهَا. ”إِذَا قُلْتِ نَعَمْ، نَخْضَعُ لِإِرْشَادِ مَا قَبْلَ الزَّوْاجِ“.

كانت شانيس قد أَخْبَرَتْهُ عَنْ پاتريك. ”سَنَقُومُ كَلانَا بِوِاجِبَاتِنَا الْعَائِلِيَّةِ. إِنْ أَبْقَيْنَا الرَّبَّ يَسُوعَ فِي الْمُقَدِّمَةِ وَالْمَرْكَزِ، فَسَنَشُقُّ طَرِيقَنَا بِنَجَاحٍ عَبْرَ كُلِّ مَا تَرْمِينَا بِهِ هَذِهِ الْحَيَاةُ“.

أَحَسَّ كَفِّيه رَطْبَتَيْنِ. لَمْ يَكُنْ قَدْ فَكَّرَ فِي أَنْ يَسْأَلَهَا هَلْ قَابَلَتْ شَخْصًا سِوَاهُ. شَخْصًا آخَرَ مِنْ صَنْفِ بَرِيانِ هِنلي يَكُونُ مُمْتَازًا لَهَا، بَدَلًا مِنْ شَخْصِ عَلَى غِرارِهِ.

”قُلْتِ لِي مَرَّةً إِنَّكَ أَحْبَبْتِنِي. أَمَا زِلْتِ تُحِبِّينَنِي، غَرِيسُ؟“

”مَا بَرِحْتُ أَحَاوِلُ جَاهِدَةً أَنْ أَتَعافى مِنْكَ“.

”هَلْ وَفَّقْتِ إِلَى ذَلِكَ بِمِقْدَارِ مَا؟“

”بِتَانًا!“ وَنَتَأَتِ شَفْتَاهَا.

فَزَفَرَ رومانُ نَفْسًا. شُكْرًا لَكَ، أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ!

وَضَحِكْتَ غَرِيسُ ضِحْكَةً رَقِيقَةً. ”مَا ظَنَنْتُ قَطُّ“

أَنِّي قَدْ أَسْمَعُكَ تُصَلِّيَ“.

لم يُدرك أَنَّهُ تَكَلَّمَ بِصَوْتٍ عَالٍ. ”ذَكَ يُجْعَلُنَا
اِثْنَيْنِ“. وَأَحْسَسَ أَنَّهُ أَثْبَثَ دَاخِلِيًّا، إِذْ رَأَى مُسْتَقْبَلًا
وَرَجَاءً يَنْفَتِحَانِ أَمَامَهُمَا. كَانَتْ دِفَاعَاتُهَا آخِذَةً فِي
الْإِنْهِيَارِ، وَسُرْعَانَ مَا تَذَكَّرَ جِسْمُهُ الْمُغَازَلَةَ الَّتِي
تَشَاطَرَاهَا فِي تَوَيْنَا كَانِيُونَ. وَكَانَتْ دَفْقَةُ الْحَرَارَةِ
مُقْبِلَةً، فَأَرَادَ أَنْ يُطَوِّقَ غَرِيْسَ بَذِرَاعِيهِ الْآنَ تَمَامًا.
فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، نَاوِيًّا أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَإِذَا بِهِ
يُحِسُّ كَأَيْحًا فِي رُوحِهِ يَقُولُ لَهُ أَنْ يَنْتَظِرْ. أَحْسَسُ إِلَّا
يَخْتَبِرَ سَيِّطَرَتَهُ، أَوْ سَيِّطَرَتَهَا.

يَا رَبُّ، أَنَا لَا أُسْتَحِقُّ أَيَّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ هَا أَنْتَ هُنَا
مِنْ جَدِيدٍ، مُظْهِرًا لِي رَحْمَةً وَمَحَبَّةً لَا تَنْضَبُ.
”مَامَا؟“

التفت رومان فرأى صمويل واقفًا في مدخل
الباب، مُورَدَ الخدين من النوم، وشعره الأدكن مُبللًا
ومُجدلًا. آخر مرة رأى رومان صمويل، كان طفلًا
يتعلم أن يحبوا. والآن وقف أمامه صبي صغير على
قدميه، فارغًا النوم من عينيه. ففاضت المحبة داخل
رومان حتى حرقته عيناه. سواء كان ابن أبي راي
دين أم لم يكن، أمكن أن يكون. وسيكون.

نظف رومان حنجرتة مُتَحَنِينًا، وتكلم برقة.
”مرحبا، يا رَجِيل. هل تتذكرني؟“ فنظر صمويل إليه
مُتَحَيِّرًا. لِمَ يَتَذَكَّرُ هَذَا الْوَلَدُ؟ قَلَّمَا قَضَى رومان وقتًا

معه. سوف يتغيّر ذلك!

قامت غريس وذهبت إلى صمويل. وإذا شالت ابنتها، أجلسته مُستريحًا على وركها وقعدت على الأريكة بجانب رومان. "صمويل، هذا الرَّجُل يُريدُ أن يكونَ باباك".

رفع صمويل نظره إلى رومان، مُسبِلَ الأُجفان. وإذا استندَ إلى أمّه، غَطَفَ عليه النّومُ من جديد. ابتسم لها رومان ابتسامةً عريضة. "ما قالَ لا". هل تقولُ غريس نعم؟ "تخميني أنّه لا يرى مُشكلةً في ذلك".

ضحكت برقةً مُشرقةً العينين، فيما أجزت يدها على شعرِ صمويل في تمسيدةٍ محبّة. "ولا أنا". ثمّ التفتت ورمقت رومان بعينين مُفعمتين بالحنان والوداد.

مالَ رومان قليلاً وقبّل جبينها. كان من شأنِ رومان العتيق أن يُنيمَ الطّفلَ في السرير ويسترسِلَ في مغازلةٍ غريس حتّى لا يعودَ كلاهما يُباليان أمتزوجةٍ كانا أم لا. أمّا الرَّجُلُ الجديد فقد أرادَ بركةَ الله وثقةَ غريس كليهما. لقد أرادَ لها أن تعلمَ أنّ من شأنه أن يُعزّها، لا أن يستغلّها. والآنَ الآن، فيما هي مُلاصقةٌ له، أرادها فوقَ الحدِّ. فاعتدلَ في جليسته، مُمسِكًا يدها بإحكام، ثمّ ردّ شعرها فوقَ كتفها بيدٍ مُرتعشة. واجتذبه خدّها المُتوردان وعيناها

الغائمتان، فلم يتمالك نفسه عن طبع قبلة طاهرة على نبضها المتسارع تحت أذنها.

شهقت نفساً رقيقاً. "عليّ أن أنيم صمويل في سريرهِ من جديد".

وإذ أغري رومان بأن يوافق، علم أن تخطي الحد لن يقتضي الكثير.

"أسلم لِكَلِينَا أن تُبْقِيَهُ حَيْثُ هُوَ". ومَسَّ خَدَّهَا بِحُنُوٍّ بِالْغ.

"صحيح". وأطلقت تنهدة رقيقة.

"أهذا تعبيرٌ عن الراحة أم عن الخيبة؟" وهم رومان بتقبيلها لعله يتيقن، إلا أنه علم أن قبلة ستؤدي إلى المزيد. ومن ثم كفا كلاهما حابسين أنفاسهما ومترجفين.

"أحسن لي أن أبتعد". ثم جلست غريس على الكرسي الهزاز في الناحية الأخرى من طاولة القهوة.

ضحك رومان ضحكة خافتة. "كفاني جموح!"

نقلت غريس صمويل إلى ذراعيها، وأنامته بوضعية أكثر راحة. "أنت راجع إلى لوس أنجليس عصر اليوم؟"

"أنا نازل في الفندق الذي نزلنا فيه، أنت وأنا، في رحلتنا على الطريق". وكان قد عرج على ذلك الفندق وسجل اسمه قبلما جاء لرؤية غريس. "سيكون محل إقامتي حتى أجد منزلاً".

”مَنْزِل؟ أَتُرِيدُ أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَى مِيرْسِد؟“

هَذَا رومان رَأَسَهُ ضاحِكًا. ”لَسْتُ أُدْرِي حَتَّى الْآنَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَتَوَقَّفْ فِي طَرِيقِي رُجوعًا إِلَى لُوس أَنْجِليس فَقَطْ لِأَقُول: «مَرْحَبًا! عَلَى فِكْرَةٍ، أَوَدُّ أَنْ أَتَزَوَّجَكَ». بَلْ أَنَا بَاقٍ هَهُنَا إِلَى أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنِّي.“

اسْتَيْقَظَ صَمُوِيلُ ثَانِيَةً، مُتَرَنِّحًا وَمُشَاكِسًا هَذِهِ الْمَرَّةَ. فَوَقَّفتْ غَرِيسُ. ”يَحْتَاجُ إِلَى سَاعَةٍ أُخْرَى عَلَى الْأَقْلُ“. تَبِعَهَا رومان وَوَقَّفَ فِي مَدْخَلِ الْبَابِ رِيثَمَا وَضَعَتْ صَمُوِيلَ لِيَنَامَ. ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً إِذْ تَرَاوَعَ لِتَسْتَطِيعَ إِغْلَاقَ الْبَابِ. ”سَرِيدٌ عَلَى شَكْلِ سَيَّارَةٍ سِبَاقٍ؟“

”هَدِيَّةٌ مِنْ دُوروثِي وَجُورج. تَنَاوَمُ الْخَالَةُ أَلِيزابَثُ فِيهِ عِنْدَمَا تَأْتِي زَائِرَةً.“

”هَلْ يَحْدُثُ ذَلِكَ كَثِيرًا؟“ لَمْ تَكُنْ غَرِيسُ قَدْ تَحَرَّكَتْ، وَبَدَأَ الرَّوَّاقُ أَصْغَرَ مِنْ أَنْ يَسَعَهُمَا كِلَيْهِمَا. وَأَلْقَى رومان نَظْرَةً دَاخِلَ عُرْفَةِ النَّوْمِ الْأُخْرَى، فَرَأَى سَرِيدًا مُزْدَوِجًا مُرَحَّبًا. وَمِنْ ثَمَّ أَغْلَقَ الْبَابَ. الْبَعِيدُ عَنِ الْعَيْنِ بَعِيدٌ عَنِ الْبَالِ، كَمَا يَقُولُونَ. هَكَذَا رَجَا.

”إِنَّهَا آتِيَةٌ غَدًا لِقَضَاءِ نِهَايَةِ الْأُسْبُوعِ.“

”سَتُرِيدُ رَأْسِي عَلَى طَبَقٍ.“

نَظَرَتْ غَرِيسُ إِلَى الْوَرَاءِ مِنْ فَوْقِ كَتِفِهَا، مُبْتَسِمَةً ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً، فِيمَا رَجَعَتْ إِلَى حُجْرَةِ الْجُلُوسِ. ”فِي الْوَاقِعِ أَنَّهَا مَا بَرِحَتْ تَهْتِفُ تَأْيِيدًا لَكَ“. ثُمَّ

شالت كُوبَ قهْوَتِهِ. ”قهوَتُكَ باردة“. والتقطت كُوبَهَا
أَيْضًا. ”يُمْكِنُنَا أَنْ نَقْعُدَ فِي الْمَطْبَخِ وَنَتَحَدَّثَ“. وَإِذْ
صَبَّتْ كُوبِي قَهْوَةَ جَدِيدَيْنِ، حَطَّتَهُمَا عَلَى الطَّاوِلَةِ
الرُّكْنِيَّةِ.

جَلَسَا مُتَقَابِلَيْنِ. وَتَصَوَّرَ رُومَانُ جُلُوسَهُمَا مَعًا هَكَذَا
عَلَى مَدَى عُقُودِ آتِيَةٍ. ”اَشْتَقْتُ إِلَى قَهْوَتِكَ“.

”ذَاكَ سَبَبٌ ضَعِيفٌ لِلرَّغْبَةِ فِي تَزْوُجِ فَتَاةٍ“.

”مَا هُوَ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ أَسْبَابِ قُوِيَّةِ عِدَّةٍ“. نَظَرَ إِلَيْهَا
لِحِظَةٍ، شَكُورًا لِأَنَّهَا لَمْ تَبْدُ مُنْرِفِزَةً حِيَالَ حَمَلَقَتِهِ الْآنَ.
”لَقَدْ افْتَقَدْتُكَ“. أَكْثَرَ مِمَّا اسْتَطَاعَ أَنْ يُعْبَرَ عَنْهُ،
وَأَكْثَرَ بِكَثِيرٍ جَدًّا مِمَّا كَانَ قَدْ حَسِبَهُ مُمَكِنًا. وَمَا لِبَيْتِ
أَنْ تَارَ الْخَوْفُ الْقَدِيمُ مِنْ أَنَّهُ حَتَّى أَفْضَلَ الْأُمُورِ فِي
الْحَيَاةِ لَا تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ. فَالْعِبَارَةُ ”حَتَّى يُفَرِّقَ الْمَوْتُ
بَيْنَنَا“ عَنَّتْ أَنْ وَاحِدًا مِنْهُمَا سَيَرْحَلُ قَبْلَ الْآخَرِ. لَقَدْ
تَحَدَّثَ هُوَ وَبَرِيَانٌ بِذَلِكَ. فَكُلُّ يَوْمٍ كَانَ بَرَكَةً مِنَ اللَّهِ،
وَيَنْبَغِي أَنْ يُعَاشَ إِلَى التَّمَامِ، بِلَا خَوْفٍ.

”لَا تَشْتَرِ مَنْزِلًا الْآنَ، رُومَانُ“.

”سَوْفَ اسْتَأْجِرُ حَتَّى نُقَرَّرَ مَاذَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ. إِلَّا
إِذَا أُرِدْتِ الْإِنْتِقَالَ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى جَنُوبِ كَالِيْفُورْنِيَا.
هَلْ يَرُوقُكَ الْمَكَانُ هَهُنَا؟“

”يَرُوقُنِي كَثِيرًا جَدًّا، وَلَكِنَّكَ فَتَى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ“.

”أَنَا؟“ لَقَدْ نَشَأَ فِي الْحَيِّ الْمُسْتَهْتَرِ، وَنَطْنَطَ مِنْ
بَيْتِ شَبَابٍ إِلَى آخَرَ فِي أُوْرُوبَا، وَكَانَتْ لَهُ شَقَّةٌ عَلَى

الشَّاطِئُ فِي مَالِيئُو، ثُمَّ قَلَعَةُ فِي تَوَيْنَا كَانِيُونَ. وَالآنَ يُقِيمُ فِي شَقَّةٍ تَضُمُّ غُرْفَتِي نَوْمٍ فِي حَيِّ خَشِينٍ فِي لُوسِ أَنْجَلِيْسِ، لَا فِي مَكَانٍ أَرَادَ أَنْ يُنْزَلَ فِيهِ زَوْجَتَهُ وَوَلَدَهُ. وَلَكِنْ مَاذَا عَلِمَ بَعْدَ؟ إِنَّ الْمَكَانَ الَّذِي سَيُقِيمَانِ فِيهِ كَانَ مُجَرَّدَ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي سَيَكُونُ عَلَيْهِمَا أَنْ يُقَرَّرَاهَا مَعًا.

بَسَطَ رُومَانُ يَدَهُ عَلَى الطَّاوِلَةِ، وَكَفَّهَا نَحْوَ الْعَلَاءِ. فَأَطْلَقَتْ غَرِيْسَ نَفْسِ إِذْعَانَ، وَزَلَّقتَ يَدَهَا دَاخِلَ يَدِهِ. "تَخْمِينِي أَنَّهُ لَا يَهُمُّ أَيْنَ نَسْكُنُ، مَا دُمْنَا مَعًا".

سَيَكُونُ سَهْلًا أَنْ يَقْبَلَ رُومَانُ إِذْعَانَهَا وَيَدْعَهَا تَسْتَسَلِمَ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ لَهَا أَنْ تَكُونَ آمِنَةً وَرَاضِيَةً، وَسَعِيدَةً أَيْضًا.

"ذَلِكَ يَهُمُّ، غَرِيْسَ". ثُمَّ رَفَعَ يَدَهَا وَبَاسَ كَفَّهَا. "سَنَنْتَظِرُ اللَّهَ حَتَّى يُخْبِرَنَا أَيْنَ يُرِيدُ لَنَا أَنْ نَكُونَ".

خاتمة

عَجَّتْ صَالَةٌ عَرِضَ اللُّوحَاتِ الفَنِّيَّةِ فِي لاغونا بِيْتَشْ،
تلكَ التي تَمَلِكُهَا تالِيا، بِالْحَرَكََةِ الدَّائِبَةِ، إِذِ احْتَشَدَ
العملاء الدَّائِمُونَ وَالصَّحَافِيُّونَ وَجامِعُو التُّحَفِ، فِيمَا
عُزِفَتْ موسيقا كلاسِيكِيَّةٌ رَقِيقَةٌ فِي النَّاحِيَةِ الخَلْفِيَّةِ.
وقد تَنَقَّلَ النُّدُلُ بَيْنَ الضُّيُوفِ، مُقَدِّمِينَ شامِيانِيا
وشرابَ تَفَّاحِ فَوَّارًا وَمُقَبَّلَاتِ. ووقَّفتْ غريسُ بِجانِبِ
رومانِ فِيمَا أَجابَ عَنِ الأَسْئَلَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِرِسُومِهِ،
مُتَعَجِّبَةً مِنَ الرَّاحَةِ التي بِها نَقَلَ الحَدِيثَ مِنَ عَمَلِهِ
الفَنِّيِّ إِلى العَمَلِ الذي عَمِلَهُ اللهُ فِي حَيَاتِهِ.

بذَلَّتْ تالِيا قُصاراها، مُرْسِلَةً دَعَوَاتِ مَنقوشَةٍ إِلى
هُوَاةِ اللُّوحَاتِ وَجامِعِيها الأَغْنِياءِ، لِأَجْلِ الاِفْتِتاحِ
الكَبِيرِ. وَلا شَكَّ أَنَّ تالِيا كانتْ قد وَسَّعتْ شَبَكَتَها، عِبرَ
وَسائِلِ التَّواصُلِ الاجْتِماعِيِّ، لِأَجْلِ المَعْرِضِ المُسْتَجِدِّ
ظَوالِ اليَوْمِينِ التَّالِيَيْنِ. سَتَكُونُ لُوحاتُ رومانِ قد
بِيعتْ قَبْلَ ذلكَ الحِينِ، وَلَكِنَّها سَتَبقى عَلى الجُدْرانِ
فِي نَهايةِ الأُسبوعِ كِى يُتَاحَ لِلنَّاسِ أَنْ يَسْتَمْتِعُوا بِما

سَيُوارى عاجلاً في قَصْرِ أَحَدِهِمْ. وستتوافر أيضاً
نُسْخُ طَبَقِ الأَصْلِ وطَبَعَاتُ مَوْقَعَةٍ.

كان هذا مَعْرِضَ رومانِ الأَوَّلِ في عُضُونِ أَكْثَرَ من
ثلاثِ سَنواتٍ، وثاني مَعْرِضٍ له حَضْرَتُهُ غَرِيسٍ. ويا
لَهُ منِ اخْتِلافٍ عن ذلكِ الأَوَّلِ الذي فيه كانَ رومان
مُتَوَثِّرًا، غاضِبًا، تَوَاقًا إلى الفِرارِ. ثُمَّ إِنَّ عَمَلَهُ الفَنِّيَّ
تَغَيَّرَ جَذْرِيًّا أَيضًا. فما عادَ يَنْقُضُ على صَفٍّ من
قَماشاتِ الرِّسَمِ، بل كانَ يَقْضِي أسابِيعَ مُخَطَّطًا
مُسَوِّداتٍ وقائِمًا بِنِزِهِ طويِلَةٍ سَيْرًا على الأَقْدامِ مع
صَموِيلِ، حَتَّى يَتَشَكَّلَ الأَثَرُ الفَنِّيُّ كاملاً في ذِهنِهِ. لقد
رَسَمَ لَوْحَةً واحِدَةً كُلَّ مَرَّةٍ، وكُلَّ واحِدَةٍ بِأسلوبٍ
مُخْتَلِفٍ: انطِباعِيَّةً، فُوفِيَّةً، وأَثَرًا واقِعِيًّا كَبيرًا أعلَنَتْهُ
تالِيا رائِعَةً، تُحْفَةً خالِدةً، عُنوانُهُ مُغَيِّرُ العالَمِ. حَتَّى
إِنَّ رومانَ ضَمَّنَ بِضَعٍ قِطْعٍ من الغِرافِيتِ.

وقَفَ بِضَعَةٌ أَشْخاصٍ يَخوضونَ حَدِيثًا عميقًا مع
تالِيا بِقُرْبِ مُغَيِّرِ العالَمِ، بَيْنَهُم نَجْمٌ سِينمائيٌّ وَرَجُلٌ
أعمالٍ ظَهَرَتْ صُورَتاهُما على غِلافِ مَجَلَّةِ فُوربِسِ.
مُشْتَرُونَ مُتَنافِسونَ، بِلا شَكٍّ. من شَأْنِ الأَثارِ الفَنِّيَّةِ
أَنْ تَكُونَ اسْتِثْمارًا جيِّدًا، شَيْئًا يُدْخِرُ ثُمَّ يُباعُ في ما
بَعْدَ، إِذا حَبَّتِ الشُّهْرَةُ أو هَبَطَتِ الأَسْهُمُ. لم تَكُنْ لَوْحَةً
رومانِ مُقْصِرَةً في شَيْءٍ عن أَنْ تَكُونَ مَجيدَةً. ومع
أَنَّ غَرِيسَ فَهِمَتْ حقائقَ كَسْبِ مَعيشَةٍ، فَقَدِ صَلَّتْ بَعْدُ
لِكي يَنْتَهِيَ مَطافُ مُغَيِّرِ العالَمِ إلى مَكانٍ عامٍّ، حَيْثُ

يتسنى لكثيرين أن يذوا كيف يُمكن أن يبدو تلاميذ المسيح في الزمن الحالي: مجموعةٌ مُتعدّدة الأعراق تضمُّ مُحاسبًا، وطالبًا جامعيًا، وعضو عصابة ناشطًا، وصياد سمك كهلاً؛ رجالًا قد يكونون أعداءً لولا إيمانهم المُشتركُ بالرّب يسوع المسيح.

أدخلت السّنواتُ الثلاثُ الأخيرةً تعديلاتٍ رئيسيةً على حياة غريس ورومان. فبعد ثلاثة أشهر مكثفة من الإرشاد السابق للزّواج، أحسّا أنّهما مُتأهبان للاقتران. وقد أجرى بريان المراسم، ووقفت شانيس بجانب غريس، فيما وقف جاسپر بجانب رومان. وبعد ذلك بشهرين، أثبتت غريس حملها. فحضر رومان صُفوفًا للولادة الطّبيعيّة على طريقة الطّبيب الفرنسيّ لاما، ثمّ أخذ بيد غريس في غرفة الولادة بعد سبعة شهور. وقد كان أوّل من حمل ابنتهما، حنة. وما كانت غريس قطّ قد رأتها قبلاً يبكي ذموع فرح.

أراد آخرون أن يقتربوا إلى رومان أكثر لكي يتكلّموا معه، فانكفات غريس. ورمقها رومان بنظرة فاحصة، فابتسمت لِتُطمئنه. بدلًا من أن يتجنّب رومان الضّيوف، وقف بينهم مُجاوبًا عن الأسئلة. لقد بدا واثقًا بنفسه، مالكا لِتصرّفه، وسيما، وإن كان ما يزالُ مُناهضًا للمعاملة الرسميّة بِجينزه الأسود، وحقائه وحقامه الجلديين، وقميصه الأبيض المفتوح عند العنق، وسترته الجليديّة السوداء. وقد قال

لغريس إنَّ المناسبةَ الوحيدةَ المُهمَّةَ كفايةً لارتداء
بدلة كانت العُرس؛ عُرسهما أوَّلاً، ثُمَّ عُرس بريان
وشانيس، حيثُ كانت هي وصيفة الشَّرَف وكانَ
رومانُ الإشبين.

حضَرَ الأصدقاءُ تأييدًا لافتتاحِ مَعْرِضِ رومان:
بريان وشانيس مع ابنيهما ذي السنَّة الواحدة، كالب،
راكبًا على وَرِكِ أمِّه؛ الخالَّةُ أليزابث بِمظهِرها الأنيق
في فُستانٍ أسودَ وحِذاءٍ عالي الكعب؛ جاسپِر
والزَّوجان ماسترْسُن؛ آشلي وزوجها الجديد، مُعلِّمٌ
زميلٌ عندهُ مُراهقان. حتَّى دوروثي وجورج غرلِنغ
قاما بالرحلة نُزولًا لرؤية افتتاحِ مَعْرِضِ رومان. وقد
قبِلت غريس عَرَضَ ماريا وخوان إبقاء صمويل وحنَّة
عندهما مدَّة ثلاثة أيَّام. وكان رومان قد أرادَ
اصطحابَ صمويل، حتَّى أوضحت غريس أنَّ مَعْرِضًا
فنيًّا لن يحظى بانتباهِ صبيِّ نشيطِ ابنِ أربعِ سنين،
كما أنَّ حنَّة ستفتقِدُ أخاها الكبير.

بينما كان تك مارتين يتحدَّثُ مع رومان، شاركَ في
الحديثِ صحافيٍّ آخر. وحيثُ كانَ رومان في
الماضي مُتَحَفِّظًا في الإفصاحِ عن أيِّ شيءٍ يتعلَّقُ به
شخصيًّا، تكلمَ الآنَ بِخُرِّيَّةٍ عنِ الله وكيف أصبحَ
المسيحُ هوَ المركزُ والغايةُ في حياته وفنِّه كليهما.
لقد اخترَعَ بعضَ تفسيراتٍ أُخرى لاختبارِ رومان
تذوِّقَ الموت، ولكنَّ حياته المُغيِّرةَ شهدتْ لحقيقةَ

ذلك الاختيار.

كثيرًا ما تعجبت غريس حيال التغييرات في حياتها وحياة رومان على مدى السنوات الثلاث الأخيرة. وقد تحدثا بشأن الانتقال رجوعًا إلى لوس أنجلوس، غير أنهما الآن قرّرا أن يبقىا في ميرسيد. إذ علم رومان ما عناه لغريس استمرارها في متابعة دراستها في جامعة كاليفورنيا بميرسيد وإحرازها الشهادة.

بوجود الحاجة إلى مساحة للعقل وطفل على الطريق، اشترى رومان بيتًا في ضواحي المدينة، وحول غرفة ترفيهية في الدور الفوقاني إلى مرسم له، وجعل مرآب القاطرة الملاصق ملاذًا مكملاً بنظام صوتي وتشكيلية من المعدادات الجمنازية. لقد أحب صمويل التسكع مع دادي، ومجهّزًا بعبدة أمان استطاع أن يتسلق إلى قمة الجدار الصخري، ويتعلق بحلقة السقف، ويقفز بالبنجي. وكان رومان يضحك من زعقات تحمسه وتأثره. إذ ينط صُعودًا وهبوطًا إلى أن يمسك هو به ويفكّه لأجل جولة أخرى. إن ساق رومان المصابة منعتة أن يركض، ولكنه تَمَرَّنَ كل يوم، وكانت له القوة الجسميّة العليا كي يتسلق مع صمويل سلّمًا، أو يتعلق ويترجّح بحبل أجراف مثبت على الجدار الجانبي.

لما شعر قسيس كنيسة الحي بأنه مدعو إلى

التعليم في كُليَّة مسيحيَّة في الغرب الأوسط، باشرت لجنة تقصُّ راعويَّة البحث عن خلف. وقد أرادوا قسيسًا قادرًا على تعليم الكلمة المقدَّسة، وتشجيع المؤمنين المتقدِّمين في السنِّ، والوصول إلى الأجيال الأصغر سنًّا ممَّن لم يتلقَّوا تنشئة كنسيَّة وضلُّوا السَّبيل. وقد علمَ رومان أنَّ جمهورَ بريان كانوا آخذين في الاندماج بخدمة "امتداد الانتصار"، فأرسلَ إليه رسالةً نصِّيَّةً عن الباب المفتوح في ميرسيد. فقالَ بريان إنَّه هو وشانيس سيُصليان بشأن ذلك. وبعد ذلك بيضعة أشهر صعدا في زيارة وحضرا خدمة كنسيَّة مع رومان وغريس. ثمَّ بعد ذلك بيضعة أسابيع، قدَّم بريان سيرته المهنيَّة، فدعي كي يعظ. وعلى أثر ذلك عُرض عليه عاجلاً مركزُ القسيس المتقدِّم في ميرسيد. وقد قدَّم آل غرينغ لبريان وشانيس الكوخَ دونَ بدلٍ إيجار، ريثما يتمكَّنان من العُثور على مَسكن. ولم يتوانَ بريان عن تجنيد رومان للخدمة. فمدَّ الرَّجُلان يدَ العونِ إلى مجموعةِ شركةٍ مسيحيَّة جامعيَّة في حرمِ جامعة كاليفورنيا في ميرسيد. كذلك أيضًا وجدَّا نقاطًا ساخنة اجتذبت طلابَ المرحلة الثانويَّة. وقد أصبحَ ملاذُ رومان مكانَ اجتماعٍ مُحبَّبًا، فيما أضحى صمويل جالب السَّعد لمجموعة الشباب.

أحسَّت غريس ذراعَ رومان تنزلقَ حولها. "أرى شخصًا أريدُ لك أن تُقابليه". ثمَّ استأذَنَ واقتادها إلى

زَوْجَيْنِ كَهَلَيْنِ كَانَا قَدْ دَخَلَا تَوًّا مِنَ الْبَابِ الْأَمَامِيِّ.

رَأَى الرَّجُلُ رُومَانَ مُقْبِلًا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ مُسْتَسْلِمًا.
”أَسِفُّ عَلَى مُقَاطَعَةِ حَفَلَتِكُمْ. لَا تَتَّصِلْ بِالشُّرْطَةِ
لِلْإِطْبَاقِ عَلَيَّ“.

ضَحِكَ رُومَانٌ. ”أَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ تَرَكْتَ صِفَادَكَ
فِي الْبَيْتِ. غَرِيسٌ، هَذَا هُوَ الشُّرْطِيُّ الَّذِي دَهَمَنِي فِي
نَفَقِ الْمَشَاةِ“.

ثُمَّ أَجْفَلَ إِذْ وَاجَهَ الرَّجُلَ مِنْ جَدِيدٍ.
”مَا عَرَفْتُ اسْمَكَ قَطُّ“.

غَمَزَ الرَّجُلُ غَرِيسَ بَعِينِهِ. ”كَانَ أَشَدَّ تَوَثُّرًا مِنْ أَنْ
يَسْأَلَ. لِيَبْذُنَ وَلِيَمِزَ، وَهَذِهِ زَوْجَتِي، آثِيَا، أَوَّلُ
الْمُعْجَبِينَ بِكَ“.

مَدَّتْ آثِيَا يَدَهَا. ”مَا بَرِحْتُ أَرْجُو أَنْ أَقَابِكَ طَوَالَ
سِنِينَ“.

”كُفِّي عَنِ التَّدَقُّقِ، حَبِيبَتِي. سَتُحْرِجِينَ الرَّجُلَ“.

قَلَبَتْ آثِيَا عَيْنَيْهَا وَخَاطَبَتْ غَرِيسَ. ”أَبْقَيْتُ عَيْنِي
مَفْتُوحَةً عَلَى النَّتَاجِ الْفَنِيِّ لِلْعُصْفُورِ. وَقَدْ كَتَمْنَا السَّرَّ
حَتَّى أَجْرَى تِلْكَ الْمُقَابَلَةَ“.

وَقَالَ لِيَبْذُنَ شَاخِرًا. ”مَا بَرِحْتَ تَتْبَاهِي بِي
لِإِدْخَالِي الْعُصْفُورَ فِي قَفْصٍ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ“.

”كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ أَقْتُلَهُ لَمَّا جَاءَ إِلَى الْبَيْتِ وَأَخْبَرَنِي
أَنَّهُ التَّقَاكُ، وَلَيْسَ لَدَيْهِ حَتَّى وَرَقَةٌ مُوقَّعَةٌ بِخَطِّ يَدِكَ
إِثْبَاتًا لِذَلِكَ“.

هَزَّتْ آثِيَا رَأْسَهَا وَابْتَسَمَتْ لِزَوْجِهَا
ابْتِسَامَةً مُغَايِظَةً. ”اعْتَادَ لِيَبْذُنَ أَنْ يَرَسِّمَ قَلِيلًا مِنْ

الغرافيتي في حديثه". ثم نظرت إلى رومان.
"اصطحبني لأرى الجدارية على المبنى الصناعي.
وقد سلكنا سبيل الفن بضع مرّات. هل تنوي أن ترسم
واحدةً أخرى؟"

"على جدار. في أوكلند، إبان عطلة الربيع. حصلت
فعلًا على الموافقة بشأن الموقع، ولديّ طاقمٌ مُستعدٌّ
للعمل". ونظرَ رومان إلى ليبرن. "يوجدُ مكانٌ دائمًا
لِعاملٍ إضافيٍّ. كلُّ ما عليك أن تفعله هو أن تلوّن
داخلَ الخُطوط". ثمّ طلبت غريس معلوماتِ الاتصالِ
بِهما، وقالت لِأثينا إنّها ستبعثُ بالتفاصيل.

بدتِ المرأةُ كأنّها أعطيتِ بطاقتي رحلةً سياحيةً
حول العالم مدفوعةً المصاريف. "سنكونُ هناك!"

"تلكَ هي تمامًا الطّريقةُ التي بها أريدُ أن أقضيَ
موسمَ الفصح، كما في الأيام القديمة". وغمزَ ليبرن
بعينه. "هَلْمَي حبيبتي. الرّجلُ مضطّرٌّ إلى
المُخالطة". ثمّ صافحَ رومان بِالْيَدِ ثَانِيَةً. "تايزُ على
العَمَلِ الجيّد، مِسترَ قِيلاسكو".

أرادَ ناقدٌ فَنِّيٌّ آخَرُ أن يتحدّثَ مع رومان قليلًا.
فطافت غريس في أنحاءِ صالَةِ العرض، حتّى انتهت
إلى مُغَيِّرِو العالمِ ثَانِيَةً. "إنّها رائعة". وقفتَ شانيس
بجانِبِها، بعدما سلّمت كالب لِأبيه.

"إنّها مُختلِفةٌ جدًّا عمّا كان يرسمُه لَمّا قابلته".
ولكنْ آنذاك، هكذا كان رومان. وهكذا كانت هي.

ما بَرِحَ اللهُ يَجْتَذِبُهُمَا إِلَيْهِ مِنْذُ كَانَا صَغِيرَيْنِ، إِذْ كَانَا كِلَاهُمَا فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ وَتَوَقُّ شَدِيدٍ إِلَى أَبِي. فِقَبْلَمَا تَعَرَّفَا إِلَيْهِ بِزَمَانٍ طَوِيلٍ، مَا انْفَكَّ عَامِلًا فِي حَيَاتِيهِمَا. لَقَدْ وَعَدَ الرَّبُّ مَنْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَنْ يَنْزِعَ مِنْهُمْ الْقَلْبَ الْحَجَرِيَّ الْعَنِيدَ وَيُعْطِيَهُمْ قَلْبًا جَدِيدًا وَيَمْنَحَهُمْ رُوحَهُ لِيَتِمَكَّنُوا مِنْ اتِّبَاعِهِ.

كَمْ مَرَّةً عَلَى مَدَى السَّنِينَ الثَّلَاثِ الْأَخِيرَةِ رَاقَبْتُ غَرِيْسَ رُومَانَ مُتَعَجِّبَةً جَدًّا إِذْ شَهِدْتُ إِتْمَامَ ذَلِكَ الْوَعْدِ؟ وَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ التَّغْيِيرَ الْعَجِيبَ عَيْنَهُ فِي حَيَاةِ سِوَاهُ أَيْضًا. فَشَانِيْسُ كَانَتْ فَتَاةَ حَفَلَاتٍ؛ وَهِيَ الْآنَ زَوْجَةُ قِسِّيْسٍ. وَالْخَالَةُ أَلِيْزَابِثُ كَانَتْ سَاخِطَةً وَسَاخِرَةً بِمَرَارَةٍ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحِبَّ؛ وَهِيَ الْآنَ فِي سَلَامٍ، خَالَةٌ وَجَدَّةٌ مُجِبَّةٌ، لَا تَخْشَى أَنْ تَفْتَحَ قَلْبَهَا لِلغَيْرِ. ثُمَّ إِنَّ حَيَاةَ غَرِيْسٍ شَخْصِيًّا قَدْ بَدَأَتْ بِطُفُولَةٍ حَافِلَةٍ بِالْخَوْفِ وَالْعُنْفِ، وَخَالَةٌ لَمْ تُطِقِ النَّظَرَ إِلَيْهَا، إِلَّا أَنَّهَا شَعَرَتْ بِأَنَّهَا مُضْطَرَّةٌ بِدَافِعِ الْوَاجِبِ إِلَى تَنْفِيْذِ رَغْبَاتِ أُخْتِهَا. إِنَّمَا الزَّائِرُ اللَّيْلِيُّ فَتَحَ قَلْبَهَا لِلرَّبِّ، مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ اقْتَضَى رِحْلَةً شَاقَّةً لِتَتَعَلَّمَ أَنَّ الرَّبَّ جَدِيْرٌ بِالثَّقَّةِ.

تَفَحَّصَتْ شَانِيْسُ اللَّوْحَةَ. ”كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَقْتًا أَطْوَلَ، رَأَيْتُ فِيهَا أَشْيَاءَ أَكْثَرَ. الْجَمِيْعُ يَصِفُونَهَا بِأَنَّهَا رَائِعَةٌ، تُحْفَةُ خَالِدَةٍ“.

”إِنَّهَا عَجِيْبَةٌ. هِيَ أَفْضَلُ أَثْرِ فَنِّي أَنْتَجَّهُ رُومَانَ

حتى الآن“. وقد غمَرَ غريس فرَحَ فيَّاض. ”غير أنها
مُجَرَّدُ ظِلٍّ لِلتُّحْفَةِ الْحَقِيقِيَّةِ. كَانَ مِنْ شَأْنِ رُومَانَ أَنْ
يَفْهَمَ مَا عَنَّتَهُ غَرِيسُ. ”لَيْسَتْ الْقَضِيَّةُ مَا قَدْ عَمِلَهُ
رُومَانَ، شَانِيسُ. إِنَّهَا مَا قَدْ عَمِلَهُ اللَّهُ فِي رُومَانَ.“
وَأَمْسَكَتْ يَدَ صَدِيقَتِهَا. ”إِنَّهَا مَا قَدْ عَمِلَهُ اللَّهُ فِي
حَيَاتِي وَحَيَاتِكَ، وَحَيَاةِ الْخَالَاتِ أَلِيْزَابَثَ وَأَخْرِيْنَ
كَثِيْرِيْنَ جَدًّا نَعْرِفُهُمْ“. لَقَدْ مَلَأَتِ الدُّمُوعُ عَيْنِي
غَرِيسُ إِذْ شَعَرَتْ بِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ يَنْفَتِحُ أَمَامَهَا، كِبَابٌ
إِلَى الْحَيَاةِ وَالرَّجَاءِ، وَالْحَيَاةِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي بِتَانًا
وَالَّتِي وَهَبَهُمْ إِيَّاهَا الرَّبُّ يَسُوعُ. ”نَحْنُ كُلُّنَا تُحْفَةٌ
اللَّهُ، مَخْلُوقِيْنَ مِنْ جَدِيدٍ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعُ“.

ضَغَطَتْ شَانِيسُ يَدَ غَرِيسُ. ”لِأَجْلِ قَصْدِهِ
الصَّالِحِ“.

”عِنْدَمَا أَنْظَرْتُ إِلَى هَذِهِ اللَّوْحَةِ، يُذْهِلُنِي مَا عَمِلَهُ
اللَّهُ“. وَنَظَرَتْ غَرِيسُ مِنْ فَوْقِ كَتِفِهَا إِلَى رُومَانَ
وَبَرِيَانَ، وَهُمَا يَتَحَدَّثَانِ مَعَ تَكْ مَارْتِيْنَ. فَتَلَقَى رُومَانَ
نَظَرَتَهَا وَابْتَسَمَ لَهَا قَبْلَ أَنْ يُرَكِّزَ مُجَدِّدًا عَلَى الرَّجُلِيْنَ
الْمُتَحَدِّثِيْنَ.

حتى هنا والآن، كان الرَّبُّ عاملاً لإنتاج تحفة
أخرى!

كلمة من المؤلفة

قارئي العزيز،

ما برحت كتابه "الثَّحفةُ الخالدة" رحلةً طويلة. فقد تغيَّرَ شكلُ الأشخاصِ والقِصَّةِ بِضَعِ مرَّاتٍ، كما تبدو الحالةُ دائماً عندما أَكْتُبُ روايةً. وقد خَصَّتِ الأسئلةُ التي أَطَلَقْتِ المشروعَ كيفَ يُمكنُ أن تُؤثِّرَ صدماتُ الطُّفولةِ العاطفيَّةُ في حياةِ البلوغِ. فيبدو أن البيئةَ الغربيَّةَ ملأى بأشخاصٍ متضرِّرين من جرَّاء البيوتِ والعلاقاتِ المُنهارَةِ. وقد حاولتُ أن أسكتشفَ حياةَ فردَيْنِ وكيفَ تُؤثِّرُ اختباراتُ الطُّفولةِ الصادمةُ في تفكيرهما وسلوكهما في حياةِ البلوغِ. أيمكنُ أن تكونَ لهما حياةٌ سويَّةٌ؟ أيمكنُ أن يجدَ فردانِ مُحظَّمانِ الصِّحَّةَ والسَّلامةَ معًا؟ مع المسيح، كلُّ شيءٍ مُمكنٌ، ولكن ماذا يكونُ إذا كان الإيمانُ ناقصًا؟ أَقبلتُ غريسَ إلى الإيمانِ باكراً في الرِّوايةِ، ولكن المؤمنينَ بالمسيحِ لیسوا كاملين. فنحنُ في حربٍ روحيَّةٍ طوَالِ حياتنا مع خصمٍ ماكِرٍ نشيطٍ، ألا وهو

الشيطان. وقد أردت للقراء أن يروا كيف يمكننا بسهولة أن نقع في فخاخ ونغوى بالفلسفات الدنيوية. فحتى عندما نكون مخلصين بالنعمة، نعاني العواقب. إنما الله يعزينا، ويحبنا، ويرينا الطريق الذي نسلكه في هذه الحياة.

كان على رومان أن يتعلم بالطريقة الشاقة أنه لا يستطيع أن يوصل نفسه إلى حيث أراد الوصول. ولا بد لبعض الناس من أن يذهبوا إلى جهنم قبل أن يتمكنوا من أن يروا أو يسمعوا الحق.

يبدو أن الرأي الحضاري السائد هو أن الجميع سوف يذهبون إلى السماء بصرف النظر عما فعلوه، أو لم يفعلوه، أو يؤمنون به. فأنصار هذا الرأي يقولون إن الله محبة، وإن جهنم غير موجودة. وبالْحَقِيقَةِ أَنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ تَكَلَّمَ عَنْ جَهَنَّمَ أَكْثَرَ مِمَّا تَكَلَّمَ عَنِ السَّمَاءِ. وَقَدْ بَيَّنَّ لِي الْبَحْثُ أَنَّ هُنَالِكَ اخْتِبَارَاتٍ لِتَذُوقِ الْمَوْتِ أَوْ مُقَارَبَتِهِ، لَيْسَتْ حَافِلَةً بِالنُّورِ وَالْفَرَحِ، بَلْ هِيَ رَهِيْبَةٌ وَمُرَوَّعَةٌ.

صحيح تمامًا أن الله محبة، ولكن نصًا منتزعا من سياقه هو ذريعة واهية. فالله أيضا عادل. إنه قدوس. إنه بار. لقد جلبت الخطيئة الموت على آدم وحواء، وعلينا أجمعين. وهذه الحياة ليست كل ما هو موجود. فإن أجرة الخطيئة هي موت، ثم تأتي جهنم بعد ذلك. وقد أرسل الله ابنه الوحيد، الرب

يسوع المسيح، لكي يدفعَ ثَمَنَ خطايانا بِدَمِهِ الثَّمِينِ،
حَتَّى يُتَّاحَ لَنَا أَنْ نُخَلَّصَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ
الْأَبَدِيَّةِ فِي السَّمَاءِ مَعَهُ، إِنَّ نَحْنُ رَجَعْنَا إِلَى اللَّهِ
مُؤْمِنِينَ بِعَمَلِ الْمَسِيحِ عَلَى الصَّلِيبِ. إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ خِيَارٍ
وَقَرَارٍ. آمِنُ، فَتَخَلَّصْ. اِرْفُضْهُ، فَتَقْضِيَ الْأَبَدِيَّةَ فِي
جَهَنَّمَ. لَقَدْ عَمِلَ الْمَسِيحُ كُلَّ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ لِإِبْقَائِنَا
سَالِمِينَ، لِإِعْطَائِنَا مُسْتَقْبَلًا وَرَجَاءً. مَا جَاءَ الْمَسِيحُ
لِيُجَمِّلَ حَيَاتِنَا. لَقَدْ جَاءَ لِكِي يُخَلِّصَنَا!

هذا واحدٌ من الأسباب التي من أجلها كتبتُ
”الثَّحْفَةُ الْخَالِدَةُ“. فهي ليست فقط عن شخصين
مُحْطَمِينَ يُحَاوِلَانِ أَنْ يَجِدَا الصَّحَّةَ وَالسَّلَامَةَ مَعًا.
إِنَّهَا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ كَمَالُ الصَّحَّةِ
وَالسَّلَامَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ وَلَايٍ وَاحِدٍ مِنَّا. وَذَلِكَ فِي الرَّبِّ
يَسُوعَ الْمَسِيحِ، لَا فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ.

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ لِمَاذَا أَنْتَ هُنَا، وَمَاذَا قُصِدَ لَكَ
أَنْ تَعْمَلَ، وَأَيْنَ تَجِدُ الْحُبَّ الَّذِي يَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ، وَمَا
هُوَ مَعْنَى الْحَيَاةِ، فَاطْلُبِ الرَّبَّ. لَدَيْهِ جَمِيعُ الْأَجْوِبَةِ
وَالْحُلُولِ الَّتِي أَنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا.

”لَأَنَّنا نَحْنُ عَمَلُهُ [ثُحْفَتُهُ الْخَالِدَةُ، رَائِعَتُهُ]،
مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، قَدْ
سَبَقَ اللَّهُ فَأَعَدَّهَا لِكِي نَسُكَّ فِيهَا“ (أَفْسُسُ ٢: ١٠).

فَرَنْسِينَ رِيْقَرِزْ